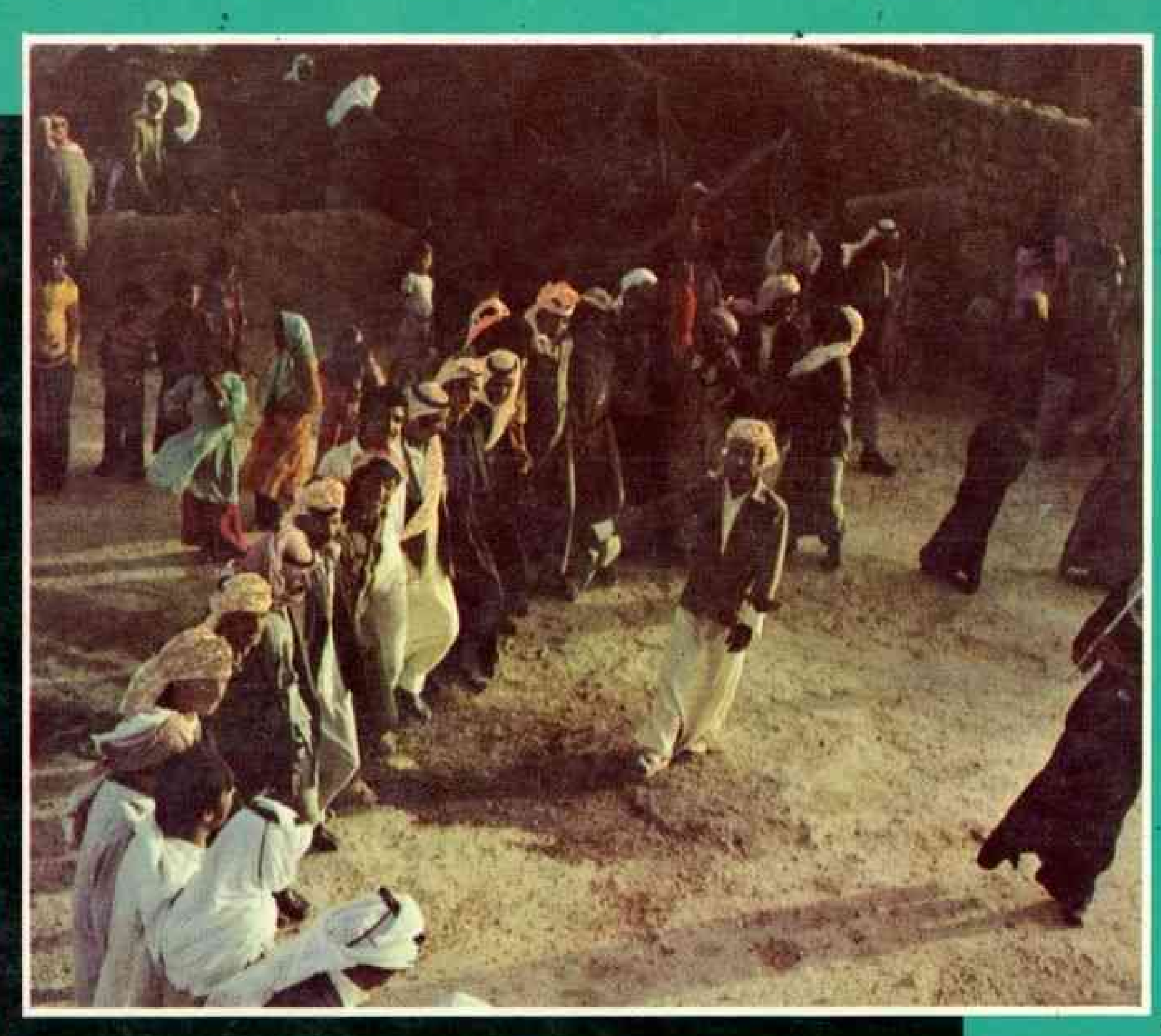
المناسبات عند العشائر الأردنية

تأليف الدكتور

أحمد عويدي العبادي



دار البشير للنشر والتوزيع

دار العويدي
وادي السير - الأردن


م. سرمد حاتم شكر


المناسبات
عند العشائر الأردنية

سلسلة : من هم البدو؟
- ٣ -



تأليف الدكتور

أحمد عويدي العبادي



دار العويدي
وادي السير - الأردن

الطبعة الثانية
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م
(مزيدة ومنقحة)

دار البشير للنشر والتوزيع
بناية الدعو
مقابل البنك العربي - العبدلي
عمان - الأردن
هاتف [٦٧٠٢٣٠] - [٦٦٤٤٢١]
ص. ب [١٨٣٩٨٢] - [١٨٢٠٧٧]
تلكس: ٢٣٧٠٨ / بشير

Dar - Albashir
For Publishing & Distribution
Al Dado Building
Opposite of Arab Bank
Amman - Jordan
Tel (670230) - (664421)
P. O Box (183982) - (182077)
Telex 23708 Bashir

دار العويدي
وادي السير - الأردن
ص. ب: ٧٠

الإهداء

«إلى أبنتي العرين»

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾

سورة النجم

مقدمة الطبعة الثانية

- ١ -

[الضَّحك والبكاء مظهران سلوكيان ولغويّان لدى الانسان، منذ بواكير الوَلَادَة والطفولة. فالطفل لا يعرف الكلمات والعبارات لطلب حاجاته، فيعبِّر عمَّا يريد بالبكاء، لاثارة من هُمْ حوله، والانتباه إليه، وتلبية الطلب.

وإذا ما فرح الطفل عبَّر عن ذلك بإبتسامة أو ضحكة، دلّت على مكنونات قلبه، وقسمات حبِّه. وهي مرساله إلى أهله أو من يحيطه لتبيان ما هو عليه من شبع واكتفاء.

ومثلما هو الإنسان في مهده عاجز عن التعبير لجهله باللغة، ولعدم اكتمال نموّه، فإنه في حالات الفرح والغضب، قد يعجز، وهو عاقل بالغ، عن اختيار الكلمات المناسبة لاستخراج ما عنده، فلا يملك إلا الدموع في الأتراح، والضَّحك ملء الأشداق في الأفراح ليهدء من رَوع الذات.

[وقد يكون الضحك والبكاء فرديّاً مقصوراً على فردٍ بعينه، أو جماعيًّا مقصوراً على مجموعة كبيرة، أو مجموعات عامّة، فأوْجد لذلك مناسبات، تتيح له فرصة التعبير عن الذات الباكية أو الذات المسرورة السعيدة. فكانت مناسبات الزواج والأعياد مجال فرحته، وكانت مناسبات الموت والفراق مدار ترحته.

وقد جاء تدوين هذه المناسبات بين دفتي كتاب، أسميناه فيما مضى: «المناسبات البدوية»، وصدر في طبعته الأولى عام ١٤٠٠ هـ، ١٩٧٩م، وكنتُ طبعته على حسابي الخاص وصدر قبيل سفري إلى بريطانيا للتفرغ لدراسة الدكتوراه، وقد حجزتُ راتبي مدة ثلاث سنوات لسداد ثمن الطباعة في حينه.

ولا شك أنني أرى هذا الكتاب مشتملاً على العادات والتقاليد الخاصّة بالمناسبات عند العشائر الأردنية، وقد نفذت الطبعة من السوق، فوجدتُ من المناسب إعادة طباعته تحت عنوان جديد هو: «المناسبات عند العشائر الأردنية»، آملاً استخدام كلمة العشائر الأردنية بدل كلمة البدو أينما ورَدَت.

وقد بدأت باستخدام كلمة العشائر الأردنية بدل البدو منذ عام ١٩٨٤، وذلك للأسباب التالية:

(١) لقد طرأ على المجتمع الأردني تطوُّراً داخليًّا وخارجيًّا واضحاً، بحيث تغيَّرت البيئة الصحراوية، وبيئة البادية، لما فيها من مدن وقرى، وطرق، وآبار مياه، ومزارع ووصول الخدمات، وتأسيس المجالس القروية والبلدية، ومجالس الخدمات المحلية.

وإزاء هذا التطوّر، فإن كلمة البدو والبادية سواء من حيث المفهوم البيئي، أو المفهوم الاجتماعي، لم تعُدْ موجودة على أرض الواقع أبداً. أما كلمة عشائر فهي الواقع الأجتماعي الذي أصبح ينطبق على سائر أبناء الأردن، من بدوٍ ومن حضر، ومن قرى ومدن.

ومن الواضح أن أي أردني يشعر بالمهانة إذا سلخته من اسم عشيرته، أو أطلقت عليه أنه ليس ابن عشيرة، . أي أن هذا الاصطلاح عام وشامل، وأن كل أردني يعتز بأنه ابن حمولة، أو عشيرة، وأن ذلك شرف له.

من هنا، فإن استخدام اصطلاح «العشائر الأردنية»، يشكلّ نوعاً من الشعور بالوحدة الوطنية، ويُلْغي الفوراق بين بدوي وغير بدوي، ومدني وقروي؛ وبذلك يأخذُ الباحثُ حرّيّتُهُ في الحديث والدراسة والمسح الميداني، ويساهم في زيادة الحبكة الاجتماعية لأبناء الوطن الواحد.

(٢) التركيز على الوحدة الوطنية، لا على التفرقة العنصرية والعشائرية. فنحن في هذا البلد أسرة واحدة، تربُطُنا وشائج القربىٰ، ونحن سواسية في معاملاتنا وحقوقنا. وبناء عليه، فإن أي تفرقة بين أعضاء الجسد الواحد، ولَبنَاتِ البناء الواحد، ما هو إلا عملٌ يدخل في دائرة الإجرام والإساءة. فنحن لا نريد أن نسمع في الأرض الواحدة والشعب

الواحد، كلمة مدني، فَلاَّح، بدوي، حضَري، طالما أن هناك دائرة واحدة تجمعهم وترضيهم جميعاً.

(٣) تماثل العادات فيما بين مختلف فئات المجتمع الأردني، بحيث نجد عادات الزواج والأفراح والأتراح، والتقاضي، والاجراءات المتعلقة بالجرائم، وطريقة العقوبة، أقول هناك تماثل بين هذه العشائر داخل الوطن بغض النظر عن المشارب والمضارب.

من هنا، فإن من غير الصواب نسبة هذه العادات إلى فئةٍ أو عشيرة دون أخرى، كما أن من غير الحكمـة تقسيم الأسـرة الواحدة إلى «قيس» و «يمن»، طالما أنهم جميعاً يواجهون خطراً واحداً.

(٤) التغيُّر الاجتمـاعي الـذي طرأ على حياة المجتمع الأردني، فقد تغيَّرت الظروف والأحوال عما كانت عليه من قبل، حيث برزت عادات جديدة لم تكن موجودة، واختفت أخرى كانت سائدة، وتحوّرت هذه، وتطوّرت تلك، وتغيَّرت هذه أو تلك.

فالحياة متحرّكة، ومن طبعها التغيرُّ والتبدُّل، وذلك يعني أن الاعتقاد بثبات العادة ما هو إلا ضرب من الخيال الذي لا دفاع عنه. فكما أن القوانين تُعَدَّلُ وتتغيَّر، كذلك العادات والتقاليد. فكلاهما من صنع الإنسان أوجدهما لخدمته، وتنظيم حياته، وتغطية احتياجاته.

(٥) أن « العشائر» اصطلاح يعني نمطاً من التنظيم الاجتماعي، بينما «البدو» اصطلاح يعبِّر عن نمط الحياة والبيئة معاً. فقد تكون هذه المجموعة وتلك من العشائر، رغم تباين بيئة ونمط حياة كلٍّ منهما عن الأخرى.

وحيث أن نمط الحياة والبيئة قد تغيَّر كلاهما، فقد أصبحا مثل تلك التي يحياها الأخرون من أبناء المجموعات البشرية في المدينة والقرية. فالخدمات متوفرة، وكذلك وسـائل التعليم، وإن تباينت في كميتها وقيمتها وأهميتها. وعلى أية حال فقد تقاربت الأطراف المتباينة، وأصبحت متشابهة.

ولا بد من الاشارة هنا أن غير البدوي لا يرضى أن يقال عنه غير ذلك، لكنهم جميعاً يقبلون ويعتـزّون أن يقال عنهم أنهم أبناء عشائر، وبذلك نجد أن هذا الأصطلاح هو

القاسم المشترك الأعظم بين هذه المجموعات، وهو ما استخدمناه وأخذناه.

(٦) أن كلمة «العشائر الأردنية» أصبح إصطلاحاً وطنيًا، في أنه دلالة على الهوية الوطنية لصاحبه. فالأردن تتميّز على كثير من البلدان في أن أهلها جميعهم أبناء عشائر، وأن المدن فيها بمعناها العصري لم تطمس اصطلاح العشيرة واسمها. وإن القارىء لدليل الهاتف الأردني، أو المطالع لصفحة المجتمع أو الأموات في الصحف المحلية ليجد البرهان اليومي على ما نقول.

وهناك نخوة عامّة لأبناء الأردن، وهي: «النّشامىٰ» ومفردها «نشمي» - وهي تعني: الرجل الشجاع الذي يهَبُّ سراعاً لنجدة المضيوم والملهوف والمظلوم. كما أن نخوة الجيش الأردني هي: «البواسل»، بينما توجد نخوات «مفردها نخوة» لكل مجموعة عشائر من جهة، وكل عشيرة أو عائلة من جهة أخرى. وهو ما فَصَّلناه في كتابنا: مقدمة لدراسة العشائر الأردنية.

- ٢ -

وقد حدثت تغيُّرات كثيرة على المناسبات عند العشائر الأردنية، كولادة طبيعية لظروف الزمن واختلاف نمط الحياة، وانفتاح المجتمع أمام أبواب ونوافذ المجتمعات الأخرى.

ففي الخطبة مثلاً: أصبحت العادات السائدة الآن مختلفة إلى حدٍّ كبير عمَّا كانت عليه، إذ أن الغالب الآن أن يعرف الشاب الفتاة في الجامعة أو الوظيفة أو الهاتف أو ظروف الاتصال الاجتماعي، ثم يرتِّب أموره معها حول الموافقة، تتم بعدها إجراءات الخطوبة والزواج. وبمعنى آخر فإن الغالب هو «الترتيب الثنائي» بين طرفي القضيَّة بعيداً عن أعين الأهل، أو تحت نظرهم الخفيّ أحياناً، ثم تسير بقيّة الاجراءات.

ومع هذا، فإن «الزواج التقليدي» لازال موجوداً، وذلك عندما توصفُ فتاةٌ لشابٍّ ما، فيذهبُ ومعه أناس من أهله فينظرونها، وتقدّم لهم فنجان القهوة، ثم يواصلُ مسيره أو ينكص على عقبيه.

وقد يتم ترتيب لقاء بين الشاب والفتاة في بيت صديق هذا الطرف أو ذاك، حتى إذا

ما لقي كلٌّ منهما قبولاً لدى صاحبه، تقدَّم الشاب بخطبة الفتاة، وذهب ومعه أناسٌ من أهله وأصدقائه إلى بيت أهل الفتاة، وتقدِّم لهم القهوة، ثم يستمرون فيما تبقى. وفي الغالب يذهب في البداية هو وامّه أو أخته أو أي سيدة من حرمه، أي زيارة عائلية بحته.

ويجـري في هذه الزيارة أو السهرة العائلية لقاءٌ يجمع الشاب والفتاة في مجلس واحـد، بحضـور أهلهـا واهله (أي الـذين معه من أهله) مع تلميحات حول الزواج، والقسمـة والنصيب والمجـامـلات في احتـرام كل عائلة للأخـرى، ثم يغادر العريس المحتمل بيت العروس المحتملة وسط حفاوة وتكريم ينطبق عليه الطابع التمثيلي.

وهناك عادة بدأت تتفشّىٰ وهي عادة: الشّبكة، أي أنه يتم شراء خاتم من الذهب، وبعض المصاغ، مع قراءة الفاتحة، فيبقى الخاطبان على اتصال لفترة معيَّنة، فإن أنسَ كُلٌّ منهما بالآخر، استمرّا، وإلاّ فسخا الشبكة، وعاد كُلٌّ منهما إلى قواعدة، دونما التزام من أيِّهما تجاه الآخر، سوى اعادة المصاغ إلى صاحبه، وهذه العادة لدى أهل المدن ولا توجد لدى أهل القرى.

وقد أصبح من المألوف الآن أن يتم عقد الزواج سلفاً بعد الانتهاء من الإتصالات العائلية، ويبقى مجيء الجاهة نوعاً من التغطية الأجتماعية، والوجاهة، وإعلان الأمر للناس، فيقوم كبير الجاهة بالطلب حسب الأصول، وتتم قراءة الفاتحة، وكأن الأمر في أوّلـه، ثم تُقَدَّم الكنافة إلى الجاهة، والتي تكون على حساب العريس، وأحياناً على حساب والد العروس إذا كان موسراً كريم النفس.

وبعد هذه المراحل ـ الاتصالات ـ وعقد الزواج ـ الجاهة ـ تُقَامُ حَفْلَةً في احدى قاعات الفنادق أو البنايات الكبيرة، وتكون مختلطة أو للرجال والنساء كُلٌّ على حَدةْ في آنٍ واحـدٍ، أو في أوقـات متباينة، وتكون العروس في جناح النساء، ويحضر العريس والمقرَّبون إليه إلى هناك.

وإذا كانت مختلطة ظهرت العروس أمام الناس بأبهىٰ حُلهَّا، وبجانبها العريس، ومن حولها وصيفات متباينات الأعمار، وهن غالباً من أهلها، كما يقف من حول العريس أهله أيضاً، وبذلك يكون أهل العروسين في صفٍّ واحد معاً يستقبلون ويودِّعون الناس.

وتقف العروس على يمين عريسها، وعلى يمينها والدة العريس وعلى يساره والدة العروس، ثم والدهما، أو يقف الوالدان بجانب بعضهما ثم الأمهات ثم العريس والعروس.

ومثل هذه العادات بدأت تتسرَّب إلى المجتمع الأردني بشكل واضح وفاضح منذ عام ١٩٧٩، وهي قمّة الطفرة الاقتصادية التي مرّ بها الأردن، ثم أخذت تتراجع هذه العادةمنذ عام ١٩٨٧، وذلك بسبب سوء الظروف الاقتصادية التي يمرُّ بها الناس.

- ٣ -

وتتميّز مناسبات الزواج في هذه الفترة - منذ مطلع السبعينات إلى الآن (١٩٨٨)، بما يلي:

(١) أن حَفْل القران قد يكون عائليًّا، أي تحضره عائلتا العروسين واصدقاؤهما، أو يكون عامًّا، يدعو كلٌّ من الطرفين أصدقاءه وأقاربه لحضور هذه المناسبة.
(٢) طبع رقاع الدعوة، حيث يقوم العريس بطباعة رقاعٍ ورقيَّة، قد تكون فاخرة أو متوسّطة أو بسيطة، يوزّعها على من يريده أن يشارك ويحضر، ويعطي أهل العروس كميَّةً أخرى لتوزيعها على أصدقائهم. وقد مرَّ بي من طبع بطاقات للرجال وأخرى للنساء الأولى باسم والدي العروسين، أنهما يتشرفان بدعوة فلان الفلان لحضور عقد قراد فلان على فلانة. أما بطاقات النساء، فهي أن تقوم أمهات العروسين بطبع نُسخٍ خاصّـة بهنّ، ويتم توزيع هذه الرّقاع إلى النساء، بينما تتوزّع الرقاع الأخرى إلى الذكور. ومثل هذه الظاهرة مؤشّر قويٌّ على البطر.

وتبدأ رقاعُ الدعوى للمسلمين بالآية القرآنية الكريمة:

﴿ومن آيـاته أن خلق لكم من أنفسكم ازواجاً لتسكنوا إليها، وجعَل بينكم موّدة ورحمـة﴾. ثم يذكـرون إسم العـروسين ووالـديهما، وتاريخ وزمان الحفل. وأما في حفلات الزواج فالأمر نفسه مضافاً إليه إستخدام كلمة، «زفاف» للمسلمين و «إكليل» للنصارىٰ، وقد بُدىء في مطلع الثمانينات إستخدام عبارة: «الرجاء عدم اطلاق النار»، وأحياناً «الرجاء عدم إصطحاب الأطفال».

ويتم توزيع الـرِّقاع بوساطة أصحاب العلاقة أو من ينوبهم باليد، وليس بالبريد، وأحياناً يُعْطى شخص مُعَيَّنٌ عدداً من البطاقات ليكتب عليها أسماء اشخاص معيّنين من حوله.

(٢) استخدام فرق الرقص والغناء والدبكة بدلاً من رَقْص القوم أصحاب العلاقة. فمن السـائـد منـذ مطلع السبعينات الى الآن (١٩٨٨) أن يأتي العريس بمجموعة من المغنين من الاذاعة، أو الفرق الغنائية الشعبيّة للغناء للحضور، وقد يُؤتى بفرقة دبكة تؤدي مهمتها نيابة عن الناس الذين لا دور لم إلاّ المشاهدة والطرب. ويتم التعاقد مع هؤلاء المغنين أو المغنيات أو فرق الدبكة لقاء أجر مُعَيَّنٍ عن الليلة.

وتقترن فرق الغناء والرقص هذه بتركيب أجهزة مكبِّرات الصوت، الأمر الذي يتسبّب عنه إزعاج الجيران عادة، وتقع مشاكل عديدة، قد تصل إلى السلطات الحكوميّة. ويتم الاتصال بشرطة النجدة عادةً لنزع هذه المكبِّرات، أو مَنْعها.

ومع هذا وذاك فإن هذه الظاهرة غير موجودة في القرى والريف، وإنما في المدينة فقط، ذلك أن القرويين لازالوا يقومون بالرقص بأنفسهم، وأحياناً تقوم فرقة من القرية بعمليات الدبكة بشكل تلقائي دونما ترتيب مسبق.

شراء الفسـاتين والحليّ: وهـذه ظاهرة سائدة لدى أبناء المجتمع الأردني في المدينة والـريف، وظهـرت في القرية والبادية منذ منتصف السبعينات، حيث مرَّ الناس بطفرة اقتصادية وبطر استدعى مزيداً من ممارسة الكماليات وطلبها.

يقوم العريس ومعه أمّه، والعروسُ وأمُّها بالذهاب إلى الصائغ وشراء ذبلتي خطوبة واحدة له وأخرى لها، ثم شراء بقيَّة المصاغ الذي يتكوَّن في أدناه من خاتم وحلق وطوق عنقي خفيف واسوارة وساعة، وقد يزيد الأمر عن ذلك أضعافاً مضاعفة.

وقد يتم الشراء بعد عقد القران أو قبله، وهو في جميع الحالات يقتضي حضور العروس لاختيار القياس المناسب.

أما الألبسة فتبلغ في حدِّها الأدنى فستاناً وحذاء، وملابس داخليَّة، وحقيبة، وسترة

أو معطفاً، وتتجاوز إلى مالا حدَّ له في كثير من الحالات. ولا بدّ من شراء شيء لأمِّها وأختها أو لمن يرافقها من الإناث.

(٤) **ترتيب الشعر في الصالون الخاص بذلك**، وقد تضاعفت هذه الظاهرة في النصف الثاني من عقد السبعينات، ثم بدأت تتضاءل بعد منتصف الثمانينات، وغالبية أهلها واصحابها أو العاملين فيها من الذكور، وتقوم العروس بالذهاب إلى هذه الصالونات وترتيب شعرها. وتجميل نفسها استعداداً لحفل القران أو الزواج. وقد حدثت مشاكل كثيرة بين شباب ملتزم، ومن خطبوهن، لاصرارهنّ على الذهاب إلى صالونات الحلاقة التي يوجد فيها الرجال، وهو يصرّ على تلك التي تديرها النساء، وقد آل كثير من هذه القضايا إلى الطلاق والفراق.

(٥) **شهر العسل** ومن الظاهرة التي أصبحت شبه عامّة في المجتمع الأردني أن العروسين يذهبان لقضاء عدة أيام أو أسابيع خارج الأردن أو داخله وذلك فيما يُسمَّى «شهر العسل».

(٦) **الزفاف إلى الفندق أوالمطار**، وذلك أن القوم يأتون بالعروس إلى بيت والد العريس، أو يأخذون العريس معهم إلى بيت عروسه ويزفونهما معاً إلى الفندق أو المطار. فالسائد الآن أن يقضي العروسان أوّل ليلة وما تلاها لمدة اسبوع في الفندق إذا كانا لا ينويان السفر، أما إذا سافرا، فتتم عملية الاستجمام خارج البلاد.

وفي هذه الحالات فإن الغارة أو الزفّة من السيارات يودِّعون العريس وزوجه الجديدة عند مشارف القرية أو المدينة التي يسكنونها إذا كانت نيتُّهما الذهاب إلى خارج هذه، أو إلى الفندق إذا كان داخل المدينة نفسها. وإذا كان يريد الذهاب إلى الفندق فتصل معه عادة مجموعة محدودة من السيارات يوصلونه إلى هناك ويتركونه حتى ساعة متأخرة من الليل أو إلى اليوم التالي.

(٧) **التهاني بالصحف ووسائل الأعلام** حيث يتم نشر خبر عن عقد قران أو زواج فلانة من فلان ويأتي ذلك إما مباشرة من صاحب العلاقة، أو على شكل تهنئة من صديق أو قريب. ويستخدمون أحياناً تعبير: فلان دَخَلَ في القفص الذهبي إذا تزوَّج ويضعون عبارة «بالرفاه والبنين» وهي خطأ شائع، والأصحّ أن يقال: «بالرِّفاء والبنين».

ومن غريب. ما قرأت من إعلانات حول الزواج أن قيل ذات مرة: تمَّ زفاف الآنسة فلانة على السيد فلان ابن صاحب البيت الذي يشبه البيت الأبيض في بنائه، والكائن على يمين الطريق المؤدي إلى ـ كذا ـ (إسم مكان).

(٨) **موضوع النقوط**، حيث أصبح على شكل، سكر أو رز، أو نقود، أو هدايا من أدوات المطبخ أو مستلزمات البيت. أما الهدايا الأخيرة فتكون عادة بعد عودة العروسين في شهر العسل، فيأتي الأصدقاءُ مهنّئون، ومع كل قادِم شيئاً ممَّا يحتاجه المرء في بيته، وهي أمور كالدَّين، أي لا بدّ لمن يتلّقَى حاجة أن يعيد مثلها إلى من جاء بها عندما يصبح هذا الأخير في وضع مشابه.

ويعطي النقوط للعريس شخصيًّا، إذا كان نقداً، أو هدية، أما الرز والسكّر فيوضع عند بيت الأفراح، ويتم بيعه فيما بعد من قبل العريس أو أهله.

وهكذا نجد أن الحياة قد تغيَّرت بمرور الزمن وتعاقُب الأجيال، وأختفت مظاهرُ كثيرة كانت أساسية وسائدة، وبرزت عاداتٌ جديدة في المدينة والقرية والبادية، وأصبح ما ذكرناه أعلاه موجوداً لدى الغالبية العظمى عند العشائر الأردنية، بغضِّ النظر عن مشاربهم ومضاربهم. بل ان بعض أبناء القرى والعشائر يغُالون أحياناً في التبذُّل في الأشياء بما لا يتفق مع ذوق أو خط اجتماعيٍّ عام.

وفي الختام رأينا أن نعيد طباعة هذا الكتاب، وأن نبينَّ بعض النقاط التي طرأ عليها تغيرٌّ، وذلك يعني اختلاف العادات القديمة التي كانت تخصّ هذه النقاط.

الكلمة جزء من اللغة، وكلما كان الفرد محيطاً بالمفردات ومعناها وتركيبها، كلما كان قادراً على التعبير عن نفسه، وفهم تعبيرات الآخرين في هذه اللغة التي يعرف أجزائها (وهي الكلمات والجمل).

وقد تخرج الكلمات موزونة فيما يسمى الشعر، أو مقفَّاة دونما تقيّد بوزن فيما يسمى: السجع، أو لا هذا ولا ذاك، فيما يسمى: الكلام العادي.

أما العشائر الأردنية فقد قسَّمت الكلام إلى ثلاثة أصناف هي:

(١) كلام قطف من زهر.

(٢) كلام نقش في حجر.

(٣) كلام فتّ من بعر.

ويعتبر الصنف الأول أرقى أنواع الكلام البدوي حيث يقولون عنه: «قليل وجليل» أي قليل المفردات جليل المعنى ولا يتمكن من قوله إلا من استقامت سليقته وفطرته. وكـان متمكِّنـاً من اللغـة مفردات وجمل وتركيب ومعنى ويقال هذا الكلام في حالات التقـاضي، ومخـاطبة المحبوب، وفي الرثاء، والوصف، وأكثر من يتداوله هم القضاة والشيوخ والشعراء.

ومن المعتاد أن هذه الفئات الثلاثة يجب أن تكون متمكّنة من اللغة، كما أن الكلام محسوب عليهم، فهم قدوة، وما يقولونه يتناقله الناس وقد يكون سابقة أو تشريعاً.

أما القسم الثاني من الكلام وهو: نقش في حجر، فهو ما كان خالياً من رقّة الأول وفصاحته، لكنه يبقى قويًّا، ذي اعتبار.

أمـا الثالث فهو الهذر الكثير الذي لا معنى له، حيث الأطناب الممل، والتكرار الممجوج، بحيث يكون في درجته مثل من يقتني البعر (وهو روث الماعز والغنم)، مقارناً بمن يقطف الزهر.

فالأول خفيف على السمع، لكنه قوي مؤثر، مثلما هي الوردة البسيطة مؤثرة في نفس المهدي أو المهْدَى اليه، وأما الثاني فهو ثقيل لكنه قوي مؤثر، وأما الثالث فهو ليس ثقيلاً فحسب، بل وكريهاً إلى حدّ كبير.

وقد تمخّض عن حذف «القطف من زهر» أن أصبح الكلام المقفّىٰ، القليل الكمية، العميق المعنى، أقول أن أصبح كلاماً موزوناً ومقفّى في آنٍ واحدٍ، وبذلك صار شعراً.

وفي رأينـا أن الانسـان بدأ بالـدندنات أي اللحن أو الوزن، ثم راح ينظم كلاماً

بموجبها، أي أن اللحن والوزن سابقين على الشعر والكلام الموزون؛ فكيف نعرف وزن هذه البضاعة إذا لم نعرضها على ميزان؟

فالوزن أي اللحن هو الميزان ـ والكلام المقفى هو البضاعة التي توضع في الكفّة لترجع أو تتوازى، أو لا يكون لها وزناً.

من هنا، فالكلام الموزون المقفى الذي كان محصّلة لكلام «القطف من الزهر» جاء على عدّة أشكال، فمنه ما التزم بحور الشعر العربية المعروفة، وهو شأن الفصيح، والعديد من القصائد الشعبية، ومنه ما كان موزوناً مقفًى، ولكنه لم يلتزم البحور العربية المعروفة ـ وهو الشعر الشعبي الذي نحن بصدد التحدث عنه لماماً، هنا.

فالكلمة التي تصدر عن الانسان قد تكون فصيحة وقد تكون عاميّة ـ أي دارجة، ولا بد للانسان أن يعبِّر عن ذاته بكلام موزون مقفى إذا ما تجاوز دائرة «قطف من زهر». وهنا تأتي عظمة اللغة العربية، في أن الكلمة العاميّة أيضاً ذات لحن وميزان، وإن انعدمت البحور التي يمكن أن تضبطها.

وبنـاء عليه، فإن تطبيق الأوزان الفصيحة وبحورها على الشعر الشعبي قد يكون حكيماً أحياناً، ولكن الحكمة تجانبه تماماً في أغلب الأوقات.

وفي رأينا أن أوزان الشعر الشعبي ما هي إلا جرَّات وحركات وأوزان ونغمات وليس واحدة من هذه وحدها.

(١) **الجرَّات**: وهي ألحان تقال على الربابة، وتكون في حالة الثبات عادة، وتتصفّ بوجه عام (من حيث المبدأ) بطول الجرّة وثبات الحركة، وإن كان الأمر في العادة إستخدامها في الألحان القصيرة والمتحركة.

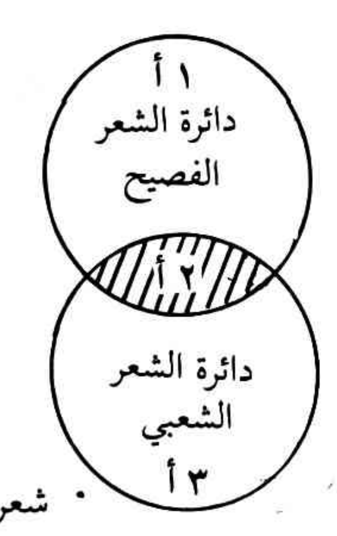
(٢) **الحركات**: وهي ما كان نابعاً من لحن يحتاج إلى حركة، وخاصّة ما يرافق الناي والشبّابة، والطبل والدبكة وما إلى ذلك.

(٣) **الأوزان**، وهي ما تتفق أحياناً مع بحور الشعر العربية المعروفة في الفصحى.

(٤) **النغمات**، وهي خضوع نطق الكلمة لمسار الجرة أو النغمة، ذلك أنه ما قرئت الأبيات بالطريقة العادية

يظهر التباين في الطول بين هذه الشطرة وتلك، أو هذه القصيدة وغيرها، إلا أن التحكّم بالنغم يجعله مطابقاً لهذه الأبيات أو القصائد المتباينة.

ونخلص إلى القول أن للشعر الشعبي دائرته، وللشعر الفصيح دائرته، ولكل منهما مفرداته ولغته، وكما أن هناك كلمات وجمل فصحى ينطقها العامّة مثلما هي في اللغة أصلاً، فإن الأمر نفسه ينطبق على الشعر الشعبي وينعكس عليه، حيث نجد كلمات وجمل وأبيات وقصائد وأوزان فصيحة، مثلما نجد أحياناً هلهلة بالوزن والكلمات في الشعر الفصيح، تسّربت إليه من اللهجة العاميّة أو الدارجة. وإذا نظرنا إلى الشكل المبينً تتضح لنا الصورة.



١ أ

(١) لغة فصحى وهي اسمى من العاميّة
(٢) شعر موزون حسب البحور المعروفة
(٣) خاضع إلى اللحن

أ٢

منطقة يختلط فيها الفصيح والشعبي
(من كلمات ووزن وأبيات وقصائد)
(١) اختلاط الفصحى بالعامية في كلتا الدائرتين، باللغة والمفردات والوزن.
(٢) العامية تؤثر في بعض شعراء الفصحى
(٣) الـفـصـحـى تؤثـر في بعض شعـراء الـعـاميّة في الكلمة والوزن والقافية.

أ ٣

• شعر شعبي مقفى وخاضع إلى لحن معين، وليس لوزن معين

ثم تأتي إلى نقطة هامّة، وهي مقدار ما يحتويه الشعر من معنى وعمق، سواء أكان فصيحاً أم عاميًّا وفي رأينا أن الأساس في ذلك يعتمد على مدى تعمّق الشخص باللغة، وتمكّنه من وسيلة التعبير عنها بالكلام الموزون المقفى، أو المُنغَّمْ.

فقول الشعر. بحدّ ذاته موهبة، تُنَمَّى بالمطالعة والرعاية والممارسة، مثلما الشجرة تماماً، وإذا ما وجدت هذه الموهبة إهمالاً فإنها تموت مع الأيام وتنتهي.

وقد يكون الموهوب شاعراً غير متمكنٍ من اللغة وعمقها ولا من فلسفة الحياة ودروبها، ولا من تجارب من سبقوه، وقد لا تكون لديه تجربة تصقله. من هنا، فإن شعره يأتي مخلخلاً ضعيفاً، وقد لا يزيد عن كونه كلمات مرصوفة مصفوفة، منمّقة لا معنى لها بهذه التركيبة التي أخرجها، سواء أكان الشاعر فصيحاً أم شعبيًا.

أما المتمكّن من الأمور المذكورة أعلاه، فإن شعره يأتي جزلاً قويًّا، يأخذ بالألباب، لأن لديه مخزون هائل من المفردات، ولديه مصنع ذهني - إذا جاز هذا التعبير - قادر على صياغة المفردات بقالب جديد فلننظر إلى «جرير وهو يتغزّل بكلام يمكن أن يقال في أي عصر، ويجد الاستحسان الكبير.

(١) إن العيون التي في طرفها حَوَرٌ قتلننا ثم لم يُحيين قتلانا
(٢) يصرعن ذا اللبِّ حتى لا حراك به وهنّ أضعف خلق الله انساناً

وانظر إلى الشاعر العباسي علي بن الجهم حين يقول:

(١) عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوا من حيث أدري ولا أدري
(٢) أعَدْن لي الشوق القديم ولم أكن سلوت ولكن زدْنَ جمراً على جمري

وماذا يقول الشاعر الجاهلي:

(١) إنما أولادنا اكبادنا تمشي على الأرض

وماذا يقول الشاعر الشعبي.

(١) الله خلق بالكون شمس مع قمرٍ وأنت اعتديت والعدا سبّب خطر
(٢) لاتبيّني وسط النّهار تلفَّعي ماتحتمل شمسين أجسام البشر

ومن الشعر الذي يجمع الفصحىٰ والعاميّة وصفاتهما هذه الأبيات للدكتور أحمد عويدي العبادي (أي لنا):

(١) يا غزالاً صادنــي ثم اخـتـفـى
ما وفـى لي وأنـا له كُلِّى وفـا

(٢) ان يكن في الحبِّ ضمئـان الهـوى
فأنـا الـمـقـتـول والـحـبّ شفـا

(٣) عنـق ريم في الـفـلا ترعى الـزهـر
ما حواهـا أيّ جيل في الـبـشـر

(٤) وجـنـتـاهـا إن بدت وقـت السَّحـر
تزدهـي الـشـمس بهـا الـنـجـم احـتـفـى

(٥) رمـشـهـا سهـم ومـن دمًّى ارتـوى
عينـهـا بحـر ولـكـن للنـوى

(٦) موجـه للقـلب والـبـعـد طوى
فأنـا الـمـنـفـيّ والـبـحـر نفـىٰ

فهذه الأبيات ما هي إلا ضرب من النمطين الفصيح والعامي، أي في منطقة تقاطع الدائرتين. فهي أبيات موزونة، وغالبية كلماتها فصيحة، لكنها ضمن دائرة الشعر الشعبي، وهذا تصنيفنا لها.

ومن شعرنا بالفصحى الذي يخلو من العامية ووزنها قولنا :

(١) نامـي فروحـي تيَّممت أطيافكم كي تسـتـقـرّ وروحـكـم جفـنـاك
شدِّي الـوثـاق عليهـمـا وتـرفّـقي ضيف أنـا ما جئـتـكـم لولاك

- ٥ -

ومما سبق وذكرنا، نجد أن الشعر الشعبي جزء من اللغة العربية لكنه يغطي الجانب الشعبي منها. فعندما كان المجتمع العربي يتقن اللغة الفصحى كلاماً وتعبيراً وفهماً،

كانوا يقولون شعرهم بما عندهم من حصيلة ومخزون اللغة، فخرج قولهم وشعرهم فصيحاً.

وعندما اختلط العرب بالأمم الأخرى، وخيَّمت عصور من الظلام والجهل على الناس طرأ على اللغة العربية تغيير كبير، وذلك بتحوير الكلمات واختصارها، أو إضافة كلمات أجنبية عليها، أو التحدث خارج الميزان الأساس وهو النحو.

وفي رأينا أن أوّل ما انسلخ عن اللغة تلك المنطقة من تقاطع الدائرتين حيث تم المزج ما بين الفصحى وبين المستجدات والمدُخْلات، مما تمخّض عنه في النهاية ظهور اللغة الدارجة - أي اللهجات العامّية.

وقد بقيت جذور هذه اللهجات وهذه اللغة مرتبطة باللغة الفُصْحَىٰ من حيث الكتابة، إلا أن اللفظ صعب للغاية. فمثلاً كلمة رَجِلْ، يلفظها بعضهم رَجلْ، وبعضهم رَيِلْ، وبعضهم رَجِلْ Rajil ، وبعضم رِقِل Ragel ، وبعضهم رَزِلْ، وبعضهم رَجْلْ، وبعضهم رَجُلْ Rajul ، وما إلى ذلك الألفاظ المتباينة التي تتبخّر إذا ما كتب الشخص الكلمة.

وبمعنى أخر، فإن اللغة المكتوبة تبقى مفهومة لدى الجميع، لأنها جزء من اللغة الفصحى في الأصل والتي هي أم اللهجات، وهي المنهل العذب الذي يشرب منه الجميع.

ومثلما انسلخت العامّية عن الفصحىٰ، انسلخت الأوزان الشعبية والجرَّات والنغمات عن الاوزان العربية الصحيحة، فكانت الوجه الآخر للعملة، والتي تشكِّل معاً جسم اللغة العربية.

ولادة جديدة في اللغة تمزج بين الفصحى والعامية، تغلب الأولى على الجانب الذي يعلو الخط الأفقي، وتغلب الثانية على الجزء الذي يدنو هذا الخط

اللغة الفصحى

اللهجات العامية

وهكذا جاءت الكلمات والأوزان والألحان تعبيراً عن ذات الفرد والجماعة. وكما أن الانجليزي يعبِّر بلغته عن شيء ما، والعربي يعبِّر بلغته عن الشيء نفسه، وقد يلتقيان بالمعنى أو يفترقان، فإن الأمر نفسه ينطبق على شاعر الفصحى وشاعر العاميّة. فالوسيلة متباينة، والمحصّلة واحدة.

- ٦ -

ثم نأتي إلى الشعراء:
وفي رأينا أنهم عدّة أصناف
(١) شعراء تسبق موهبتُهم وتتقدم على التجارب.
(٢) شعراء تسبق تجربتُهم وتتقدم على الموهبة.

أما الفئة الأولى فإن الموهبة عندهم عالية وواسعة بحيث تُعَوِّضُهم عن قلّة التجربة. وقلّة التعمق في اللغة، كما أنها الوعاء الذي يحتوي التجربة واللغة بسرعة، بحيث يستطيع من أوتيها أن يصوغ أعمق المعاني بأبسط الكلمات، وأن يخوض في جوانب لا تخطر على بال غير الموهوبين، حتى ولو كانوا متمكنين من اللغة.

والموهبة ثلاثة انواع: موهبة في سرعة الحفظ، وموهبة في سرعة الأداء والابداع، وموهبة تجمع بينهما. فمنهم من يُؤتى واحدة منهما، ومنهم من يُؤتى كليهما.

ثم نعرِّج على الفئة الثانية، وهي التي تتعلّم بالممارسة والتجربة على مدى الحياة والمجالس، كيف تناول الشعراء السابقون قضيَّة ما، وعالجوها من وجهات نظر متباينة، مؤتلفةٍ تارة، ومختلفة تارةً أخرى. فمثل هؤلاء لديهم موهبة شعرية في منطقة اللاشعور فتتنمّى عندهم وتزداد، ويصبح الشخص شاعراً، وإن كان شعره يسيراً أو نادراً.

أما نوعية شعر مثل هذه الفئة فهو إما جزلٌ قويّ. وإما ضعيف عيِّيْ، فهو يتوّج في الأولى تجربته وبقايا موهبتهُ بينما يحول في الثانية إنعدام موهبته دون استغلال تجربته؛ وإذا جاز القول، فإنه في هذه (أي انعدام الموهبة) إنما ينعدم المصنع الذي يصوغ الأشياء ويأتي بالجديد والمفيد.

وهناك تصنيف أخر للشعراء من حيث التكسّب بشعرهم: فمنهم من يتخذه وسيلة

للكسب والعيش، ومنهم من يقوله تعبيراً عن مشاعر معيّنة.

١ ـ أما المتكسّب فشعره أشبه ما يكون بالسلعة التجارية المعروضة للبيع. قد يرخص ثمنها أو يرتفع حسب المقتضيات المحيطة. في الوقت الذي يمثّل قول الشاعر الآخر بضاعة ليست للبيع، وإن كانت خاضعة للتقييم.

٢ ـ شعراء غير متكسّبين، وهؤلاء يقولون الأبيات أو القصائد من خلال الاحساس بالأشياء من حولهم، وذلك في الوصف والحب والحكمة والحزن والفرح وما إلى ذلك. فالانسان بطبعه كتلة من الأحاسيس والمشاعر، قد تزداد شفافية وحساسية، وقد تتآكل مع الزمن، أما الشاعر فلا بد أن يكون من أصحاب الدرجة العالية من الشفافية والأحساس بالأشياء.

وقد ذكر التاريخ العربي الكثير من الشعراء الذين اتخذوا شعرهم مركباً يوصلهم إلى السلاطين، ويملأ جيوبهم بالمال، والأمر نفسه ينطبق على الشعراء الشعبيين، حيث يقول الشاعر مادحاً هذا الشيخ أو ذاك المسؤول أو السلطان، طمعاً في مغنم أو هروباً من مَغرم.

ولا شك أن مثل هذا النمط من الشعر يجعل الممدوح عادة في مكان يفوق البشر، فيوصف الشخص بأنه مُلْهَمٌ، وأنه معلّم، وأنه قادر وأنه قاهر وما إلى ذلك. مما قد يصل بالشخص الممدوح إلى درجة الألوهية أو النبّوة، ويصل بالمادح إلى درجة الشرك أو الكفر.

فهذا شاعر يمدح الخليفة الأموي ويقول:

الستم خير من ركب المطايا   وأندىٰ العالمين بطون راحِ

وبذلك جعلهم فوق بني هاشم، وفوق مقام الرسول صلى الله عليه رغم أنهم ليسوا كذلك في حقيقتهم أبداً.

وهذا شاعر يمدح الخليفة الفاطمي ويقول:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهَّار

وذلك واضح أنه عين الشرك والعياذ بالله.

وهذه الشاعرة البدوية التي ترى أن زوجها أحسن الناس، وأن كل من وطء الثرى أو شاهد القمر والثريًا هم فداءً له:

(١) يفـدي عشيري كل يرقى ومعـه روق والـلي بعـيد الـدًار والـلّي هنـيًا
(٢) ويفداه من يركب على الخيل بعروق مع قوم ابـن هنـدي وقـوم الـمـحيًا
(٣) ويفـداه حِظْرانٍ تخـافَقْ مع السّوق وابـن رشـيد الـلي على الحـكم عيًا
(٤) ويفداه من ياطا على الأرض من فوق ويفـداه من شاف الـقـمـر والـثـريًا

فهذه الشاعرة البدوية تقول الأبيات تعبيراً عن حبًها لزوجها دونما رغبة في كسب أو طمع في الحصول على المال. ومن فرط حبّها له أنها مستعدة للتضحية به بجيمع البشرية حتى الذين رأوا القمر والثريًا!

وهذا يبيِّن مدى خيالها واشتطاطها في حبِّها وتعبيرها عن هذا الحب.

- ٧ -

أسباب ودوافع قول الشعر الشعبي:

نخلص إلى القول إذن، أن الشعر تعبير موزون قابل للتلحين والتغني والدندنة، ع يختلج النفس من مشاعر وأحاسيس أو عَمَّا يؤثر عليها من الخارج. وقد يقال تلبية لنداء داخلي، أو استجابة لتحدٍّ خارجي، وهو بالتالي يؤدي مهمّة معينة، أو يُشْبع رغبة ملحّة، أو يقوم بوظيفة تتصف بالضرورة أو البطر.

ولا شك أن هناك عدة أسباب لقول الشعر الشعبي، بل إن مجالاته ودوائره لا تقل عن تلك التي يطرقها الشعر الفصيح. وقد رأينا تقسيم الأسباب والدوافع إلى فئتين: عامّة وخاصّة.

(١) **الأسبـاب العـامّـة**: فهنـاك تغنٍّ بالعشيرة والديرة، والمنازل، والأقارب والأجانب والأحباب والأجناب، مدحاً أو وصفاً أو قدحاً.

ومع الزمن تطوّر ويتطوّر مفهوم العشيرة إلى الشعب ثم الى الأمّة، وأكثر ما يتناول هذين الآخيرين. ذاك الشعر المتداول في الأغاني الوطنية والتي تمدح الدولة أو السلطان في ذلك الوطن. كما أن المتكسّبين بشعرهم قد صاغوه ضمن أُطُرُ سياسية بحيث أخذ

يتطرق إلى الشعب والوطن من خلال الممدوح.

وأما حبّ الديار والديرة، والانتماء إليها أو كرهها، فقد تحوّل إلى الوطن فيها من حيث المفهوم. فعندما كانت العشيرة هي الأساس في المجموعة التي ينتمي إليها الشاعر، كانت الحدّ الأعلى لتصوّره من حيث المنظومة الاجتماعية التي ينتمّي إليها أو ينخرط فيها. وبظهور الدول الحديثة، وبالتالي ظهور الشعوب التي تحتويها وتشتملها، اتّسعت نظرة الشاعر، فصار يقول: شعب الأردن، أو شعب الكويت، أو شعب السعودية، أو الشعب المصري، وهكذا.

وقد أدّى حبّ الأرض الذي توسّع من الديرة إلى الوطن إلى قول الأبيات والقصائد عندما يحدق به أو يحيطه خطر، كما أن مدح شيخ العشيرة تحوّل إلى مدح مسؤول ذاك الشعب الذي يوصف عادة بأنه «قائد ملهم»، أو «قائد رائد» أو «قائد مناضل».

وهكذا فقد تمّ تسييس الشعر الشعبي مثلما هو أمر الفصيح من قبل. وبدأنا نقرأ قصائد سياسية أو وطنية بهذا النمط من الشعر. ولا شك أن القارئُ للدواوين التي استقينا منها هذه المعلومات ليجد الكثير من هذه القصائد، وانْ كنا قد تغاضينا عنها، لأن هذا الباب حديث مُحْدث على الشعر الشعبي.

(ب) **الأسباب الخاصّة**، وهي المتعلّقة بالذات، حيث يعبِّر الشاعر فيها عن خلجات نفسه، حبًّا أو رثاءً أو هجاءً، أو اثبات موجودية، أو تفاخراً، أو رفعاً من شأن الأسرة أو الفرد نفسه.

ويندرج تحت هذه الأسباب، شعر الحكمة والأمثال والنصائح، ذلك أنها ـ بالأساس ـ تعبير عن مدى قدرة الشاعر وتجربته، ومدى تمكّنه من الموضوع.

ـ ٨ ـ

ونخلص من هذه الأسباب الى أمر آخر وهو: **الخيط العام الذي يربط بين القصائد في الشعر الشعبي في الأقطار العربية**، فقد وجدنا تشابهاً في كثير من الأشياء، من جهة وتخصّصاً في ذكر الظواهر والأنماط الحياتية من جهة أخرى؛ وذلك على النحو التالي:

٢ ـ الأيمان بالله ظاهرة تبيّنها الأشعار جميعها، حيث يذكرون الله سبحانه، ويوحّدونه، ويؤمنون برسوله سيدنا محمدٍ عليه الصلاة والسلام، وبملائكته وكتبه ورسله الآخرين.

وهناك قصائد مكرّسة للمدائح النبويّة، خاصّة في البلدان التي يزداد فيها نشاط الزوايا والطرق الدينية، مثل : تونس، ومراكش، والسودان، ومصر، وهناك أشعار الموالد، وأشعار الهجرة، وأشعار الحج. وقد أصبح لهذا النمط طابعه الخاصّ به معنى ولحنًا وأداءً.

وتنعدم الأشعار الشعبية بالمدائح النبوية في الجزيرة العربية والأردن وسوريا وذلك بسبب قلّة الطرق الصوفية من جهة.

أما أشعار المدائح التي تُقْرأ بالأردن وفلسطين وسوريا والعراق فهي في المدن فقط، وتُتلىٰ فيها أشعار فصيحة مُتوارَثَةٌ عن السلف.

إلا أن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وذكره، يظهر بالمقابل، في بدايات القصائد، وخواتيمها. فالقصيدة الشعبية تقول في السامر:

أوّل ما نبدي ونقول صلّوا ع طه الرسول

وقبل مدح الرسول نجد أن غالبية القصائد تبدأ بذكر الله سبحانه، أو بالدعاء إليه، أو ما إلى ذلك أي أن ذكر الله وتوحيده، وذكر رسوله وتصديقه يهيمن على بدايات ونهايات القصائد الشعبية، البدوية منها وغير البدوية في الأردن ومثلها في مناطق أخرى كثيرة.

(٢) أن الشعر الشعبي موزون ومقفّى، وان تباين الوزن، واختلفت القافية، واعداد شطرات المصاريع أو القصيدة.

وقد وجدت أن هذا الشعر في كل من تونس والجزائر يعتمد على موزونية الشطرة، وليس على وحدة القصيدة ولا وحدة البيت. فقد تأتي الشطرة من لحن ووزن يختلف عمّا هو عليه الجزء الثاني من البيت، وقد يتّحد ذلك في شطري البيت، لكنه يتباين مع أبيات القصيدة الأخرى. والمهم في النهاية أن الكلام الذي يقال موزون، وان تخلخل هذا الوزن وتباين. ولا شك أن طريقة اللفظ والنغم تغطّي هذا التباين وتقرّب الاختلاف، بحيث تؤدي في النهاية إلى اتّساق، تبدو معه وحدة القصيدة أو تناسقها أمراً واضحاً.

أمـا شعـر البـادية في نجد والأردن وسوريا والعراق فيعتمد وحدة القصيدة بشكل واضح ، حيث تبدو الأبيات متوازنة اللحن والكلمات ، بحيث تكون من بحر واحدٍ إذا جاز لنـا هذا التعبير. إلا أن ما يلفت النـظر، هو عدم التقيّد بالتفاعيل التي تضبط الأبيات والقصيدة في الشعر الفصيح .

فكما أن الفصيح إذا قيل على وزن الشعر الشعبي يخرج عن اطار فصاحته وبلاغته ، فإن الشعبي أيضاً يخرج عن معناه ومبناه إذا ما حاولنا تطبيق الوزن الفصيح عليه ، مع لفت النظر أن هذا المبدأ لا ينطبق على الشعر الداخل في منطقة تقاطع دائرتي النمطين، أي الفصيح العامي أو العامي الفصيح ، والذي سبق وشرحناه في مستهلّ هذه المقدّمة .

- ٩ -

أما عن ذكر أوزان وألحان القصيدة الشعبية فقد ذكرناها وشرحناها في هذا الكتاب . كما أننا بيّنّا أيضاً، عن طريقة البدو، والشعراء الشعبيين في سرد قصائدهم واستهلالها وأختتامها .

ولا مناصَ هنا من ذكر مرحلة أخرى بين ثنايا الشعر الشعبي أيضاً، ألا وهي الخلخلة في الوزن بين قسم من القصيدة وآخر، أو بين بيت وما يسبقه أو يلحقه ، وهي مرحلة ما بين خلخلة الشعر الشعبي في المغرب العربي من جهة ، واتزان الشعر الشعبي البدوي من جهة أخرى. أما هذه المرحلة الانتقالية فهي بعض الشعر في الحجاز، وبعضه في الخليج العربي .

ومن الملفت للنظر أن هذين القسمين هما طرفا الجزيرة العربية ، وكلاهما مشرف على بحر، وممرّ للهجرات البشرية ، ومستقرّ للموجات البشرية التي تلفظها أمواج البحر، أو أمواج الحرّ اللاهب من الصحراء .

فالشعر الحجازي يجمع بين الفصحى والعامية تارة ، ويتصف بالعامية الصعبة تارة أخرى. وهو موزون مقفّى في حالة ، ومخلخل في حالة أخرى. وهكذا؛ إلا أن الأقل من هذا اضطراباً هو الشعر الشعبي في الخليج العربي .

(٣) **الحكمة**: فالشعر الشعبي مليء بالحكمة والأمثال والنصائح، خاصّة البدوي منه، والنبطي وجميع هذه الحكم تركزّ على وحدانية الله سبحانه، وعظمته وقدرته ورأفته بالناس، وتربّصه للظالمين، وإعطاء الجنة ثواباً للمؤمنين العاملين الصابرين، والنار للكافرين والمعتدين.

ورغم تباين الألفاظ والكلمات، إلا أن هذه الأشعار جميعها تصبّ في المصبّ الذي ذكرناه أعلاه. وقد أوضحنا روعة هذا النمط من الشعر.

وقد وجدنا أن راشد الخلاوي من أروع الشعراء في الحكمة والأيمان، بل يكاد لا يتقدّمه شاعر بدوي أو شعبي في العالم العربي.

أما شبلي الأطرش فهو من أذكى وأروع الشعراء في الفلسفة وتناول الأشياء بعمق.

وإذا كان للمراثي والبكائيات دور، فإن فارسها الشاعر نمر ابن عدوان.

فهؤلاء الشعراء الثلاثة هم قمّة الشعراء الذين قرأت لهم، ولا أدري إن وُجد أشعر منهم ممَّن لم أطّلع عليه من شعراء الأقوال الشعبية.

ولا شك أن سيرة كل واحد من هؤلاء قد بلورت إبداعه في مجاله. فراشد الخلاوي مُتَّهم بوضاعة أصله أنه صُلْبي (أي من الصلبة) ـ وهي التهمة التي ينفيها عن نفسه، وقد قال وأجاد وأمن وعبَّر عن ايمانه، وعوّض هذا النقص وهذا الهمز والغمز بجانبه، بما أجاد وأفاض من قريحته وإيمانه، بحيث اعترف له أقوى الشعراء وأقدرهم. ولا شك أن القارىء له ليجد كلاماً سهلاً سلساً قويًّا عميقاً دقيقاً، وتمكّناً من اللغة والكلمات البدوية، وثقافة واسعة مقرونة بموهبة قل لها نظير في هذا المجال.

أما شبلي الأطرش فقد كره الأتراك وكره طريقتهم في الحكم فنفوه وسجنوه، وأهانوه بعد أن كان عزيزاً، وحبسوه بعد أن كان طليقاً، مما أدّى إلى صقل شخصيته بشكل واضح، وبالتالي إلى عمق في شعره ودقّة.

أما نمر ابن عدوان فقد أحبّ زوجته وضحا حبًا جَمًّا، فماتت وَهَامَ بعدها، وبكاها من قلبه وروحه، ولم يجد بعدها متعة في نساء أو حياة، ففاض ذلك شعراً في البكائيات لا يعدله شعر.

«وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين»

الدكتور

أحمد عويدي العبادي

ص . ب ٧٠

وادي السير ـ الاردن

الجمعة ٢٩/١/١٩٨٨

قال الشاعر المتنبي:

خذوا الخُلــقَ الرفيــعَ من الصحاري
فإن النفسَ يفسدُهــا الزحام
وكم فقــدت جَلالتَهــا قصور
ولــم تَفْقِــدْ مُروءتَهــا الخيام

مجاز من دائرة المطبوعات والنشر في وزارة الاعلام الاردنية.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:ـ

بين يديك ـ عزيزي القارىء ـ الكتاب الثالث من هذه السلسلة، عن التراث الاردني، وقد سبقه كتابان لي هما:ـ (المراة البدوية ١٩٧٤، و من القيم والاداب البدوية ١٩٧٦).

قد لا يكون من الصعب ان تظهر، ولكن الصعب ان تستمر في الظهور، والاصعب ان يحظى الظهور المستمر برضى الضمير ورضاء الناس، ولا بد من مقومات للاستمرار في ان يكون الشيء مرغوبا وجديدا، ويخدم قضية معينة، ومبنيا على اسس متينة، وان يكون اسلوب العرض او التعبير في المستوى المعبر عن الشيء من جهة. والقادر على الاستقطاب من جهة اخرى، كما ان للوقت اهميته، فلكل مقام مقال، ولكل زمان فكر ورجال، وكذلك ان يكون الامر المتناول ذا مساس بالروحية او العقلية، او العواطف للاخرين، بالاضافة الى تعبيره عن روحية وعقلية ومبادىء الكاتب نفسه.

ولا شك ان التراث هو احدى المقومات الاساسية لشخصية الامة انى كانت، وحيثما كانت، واصالته جزء لا يتجزأ من اصالة الامة، واندثاره يعني النذير باندثار الشعب الذي اجتباه واحتواه، لذا فان الحفاظ عليه واجب وطني، لان ذلك مساهمة للحفاظ على شخصية وكيان الامة والوطن.

وحيث ان التغير والتطور هما السمتان الملازمتان للحياة، فان تسجيل حالة التراث في فترة زمنية معينة مرتبطة بما سبقها، وبما لحقها من فترات، وبما يمكن ان تكون عليه من بعد، وارتباطها بالقضايا العصرية، يجعل الدراسة اكثر اشتمالا واعتدالا دونما تقيد بمنهج محدد، لان الافضلية والاهمية هي بالدرجة الاولى لتسجيل التراث قبل الالتفات لاتباع اسلوب محدد، وذلك ما اتبعناه في كتابة بحثنا هذا.

اما كيف خرج الكتاب الى الوجود؟! فقد عمدت الى دراسة التراث الاردني دراسة ميدانية مدعمة بالصور في البوادي والنوادي، في القرى والمراعي، في المجالس والمدارس، وسجلت الكلمات المأثورة، والامثلة المتناقلة التي تشكل مبادىء وقواعد تمكنت من خلالها استخلاص الاستنتاجات، والتحليل، معتمدا على الله سبحانه، ومستمدا ذلك من روحيتي البدوية كوني ابن بجدتها، رأيت النور في بيت الشعر، ومارست حياة البدوي راعيا وحراثا، وعشت معه في الميدان الذي يشكل كتابا عظيما للعلم والمعرفة، ومن معرفة نفسية، وعقلية، وروحية البدوي، وتطلعاته، وآماله، وآلامه، ومن اصالته، وبساطته، وسلوكه، وممارساته اليومية، ومن ارتباط هذا التراث بالشريعة الاسلامية السمحاء كما انني لم أدع فرصة تفوتني كلما التقيت باي شخص يعرف شيئا عن تراث البدو في العالم العربي أن اتزود منه بما امكن من المعلومات.

وعندما توفرت لدي المادة الخام ـ ان صح هذا التعبير ـ وضعت نقاطا عامة تحت هذا العنوان. ثم نقاطا رئيسية، ثم فرعية، ثم ثانوية، وتحولت المادة المجموعة المنقولة في قنواتها، وثم صهرها، وعجنها، وخبزها ـ ان صح هذا التعبير ايضا ـ وخرجت مواد مصنوعة او مصنعة في قالب جديد، وقد يبدو جديدا حتى على الاردني صاحب الخبرة في هذا المجال، ومن هنا فان تجدد

الشيء وجودته، واصالته، ومعالجته لكثير من القضايا والامور، وتوضيحها، ووضع النقاط على الحروف، يجعل من تراثنا مادة تستحق الدراسة، والبحث من شتى المتخصصين، ليس في مجال الاجتماعيات فحسب، بل وفي مجال الامور الادبية، والفلكية، والطبية، والهندسية بطريقة البحث التحليلي الشامل العام البعيد عن السلبيات والاهواء.

واود ان اشير هنا، انني لست اكثر الناس خبرة، وعلما او معرفة في تراثنا الاردني، ولكنني اعبر عن رأيي مع تقبلي للاراء الاخرى.

ان الانتماء الى تربة معينة، واعتناق مبادىء معينة هي احدى مقومات التراث ـ ايضا ـ، واذا كنا نفقد التراث عندما نفقد الانتماء، فاننا بالتأكيد نفقد الانتماء اذا تحللنا من التراث، لان ذلك انسلاخ عن الشخصية الوطنية الخاصة بمجموعة محددة من الناس وهي الشعب... اننا احوج ما نكون للحفاظ على شخصيتنا الاردنية، تربة وهواء، وانسانا وانتماء، وتعاضدا وولاء، فما نحن الا اسرة واحدة كبيرة في بيت واحد هو الاردن، تراثنا الاصيل واحد في القرية والبادية، في المصنع والمرعى، فلماذا لا نأخذ بهذا الرباط المتجانس الذي يشكل القاسم المشترك الاعظم في ايدي الجميع، فنحافظ على شخصيتنا وكياننا، والا فاننا سننصهر ونندثر امام الغزوات الحضارية الاخرى، ولا خيار بين هذين الامرين، فاما البقاء باللقاء، واما الاندثار بالانصهار.

وما هذا الكتاب الا محاولة مني لاضع بين يدي القارىء شيئا عن تراثنا، وشخصيتنا الاردنية التي هي جزء من الشخصية العربية والاسلامية الاصيلة، لذا فان تراثنا يلائم ويطابق في مبادئه كافة ما لدى الشعوب العربية والاسلامية الاصيلة من مبادىء، لانها مستمدة جميعها من روح الشريعة الاسلامية السمحاء، وهذا ما يتبين في هذه الدراسة.

وقد قمت بمحاولة لدراسة القصيدة البدوية واللحن البدوي كونهما معبرين رئيسيين عن المناسبات التي تشكل الافراح، والاتراح، والمناسبات الموسمية، والدينية، والمتفرقة الاخرى، ولا اريد التحدث عن الكتاب لانه بين يديك تقرأ منه ما تشاء، وتخرج بالنتيجة التي ترغب، وسيرى الباحث فيه (الكتاب) عملا مقلا، وارجو ان يسامحني جميع القراء على الاخطاء(مهما كانت)، والتي سيجدونها، فالكمال تفرد به الله سبحانه، وما نحن الا بشر نجتهد ونجد ونعمل، وما التوفيق الا من عند الله سبحانه.

عزيزي القارىء: اتركك بحفظ الله ورعايته، آملا ان نلتقي معا في الجزء الرابع من السلسلة بعون الله، وارجو ان اتلقى اراءك على عنواني المبين ادناه، وهذا لطف منك، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وفي امان الله.

الاربعاء ١٧ ذو القعدة ١٣٩٩هـ
الموافق ١٩٧٩/١١/٧
السويسة/قضاء وادي السير

المؤلف
أحمد عويدي العبادي
ص.ب (٧٠)
وادي السير - عمان
الأردن

تمهيد

المجتمع البدوي، ومجتمع إنسان الصحراء، جزء من المجتمع الانساني الكبير، وحلقة في سلسلة هذا المجتمع عبر تاريخ البشرية الطويل، وتحتاج طبيعة العلاقات الاجتماعية، والمبادىء، والمعتقدات التي يعتنقها سواء أكانت هذه وثنية أم سماوية، فردية ام جماعية، مبتكرة، أم متوارثة، كلها تحتاج إما الى تصرفات وطقوس خاصة، أو الى عمل ما، يرى الانسان في هذا التصرف، أو العمل، او هذه الطقوس، او تقديم القرابين تعبيرا عن الفرح او الحزن، او الشعور بالجميل، أو اداء الشكر، او مقابلة الاحسان بالاحسان، وقد لا تعني هذه بحد ذاتها شيئا بمقدار ما هي ذات اهمية بمعناها ومغزاها العميقين، فمثلا ذبح شاه بحد ذاته ما هو الا عملية ازهاق روح حيوان، ولكن هناك فارق بين ان يكون هذا لمجرد المتعة، او للاكل وبين ان يكون قربانا الى الالهة، وبين ان يذكر اسم الله عليه حينها يأكله المسلم، او لم يذكر اسم الله عليه حينها يكون محرما، وكذلك حركات الكهان في المعابد القديمة، قد لا تعني شيئا بالنسبة لنا، لكن كل حركة بالنسبة لهم كانت ذات معنى ومبنى ومغزى.

وهكذا فان المناسبات التي تمر بالانسان او المجتمع تكون معبرة عن شيء معين لدى هؤلاء.

والقيمة في معناها ومغزاها اكثر من الحركات فيها، وان كانت لا تتم الا بهذه الحركات التي تعارف عليها الجميع، فاصبحت (عبادة)، او (عادة)... وان المتصفح لتاريخ البشرية لا يستطيع ان يجد مجتمعا الا وقد اوجد لنفسه مناسبات معينة. لأسباب رآها مناسبة ومعقولة بالنسبة له، او تحقيقا لاهداف يرى انها لا تتحقق الا بهذه المناسبة التي تكون وفق اصول وطقوس معينة، ونحن نرى ان اقل الشعوب في سلم الحضارة، واعلاه في درجات هذا السلم تمتلك المناسبات والاعياد، وفق اصول متعارف عليها، سواء اكانت هذه دينية ام اجتماعية ام حربية (وطنية او قومية) ام سياسية. وحتى في المجتمعات الحديثة، التي لا تؤمن بالدين، والشرف نجد لها اعيادها، لأنه لا غنى لمجتمع او امة او دين، او مبدأ عن وجود مناسبات واعياد، فهي فترة راحة، وتذكار، وتجمع، وتآلف فكأنها بذلك تعطي دماء جديدة للناس للانطلاق، ودروسا وعبرا لمزيد من الحكمة والعلم والتجارب، وكأن بعض هذه الاعياد او المناسبات درجة للوقوف لتقييم الماضي، وتجنب ما وقع فيه من اخطاء.. والتخطيط للمستقبل بما يكون قريبا من المثاليات.

إن ما ذكرنا شيئا موجودا منذ بدء الخليقة فهذه القرابين منذ عهد ادم عليه السلام، وهذا ما نجده في قصة قابيل وهابيل....

ثم ولد لادم هابيل، فلما أدرك اهبط الله الى آدم حوراء واسمها (نزلة الحوراء) فلما رآها هابيل أحبها، فأوحى الله الى آدم ان يزوجها من هابيل ففعل ذلك، ثم اوحى الله الى آدم ان يضع ميراث النبوة والعلم ويدفعه الى (هابيل) ففعل ذلك، فلما علم قابيل (وهو

اكبر من هابيل)، غضب وقال لابيه: ألست اكبر من اخي واحق بما فعلت به؟!. **فقال: يا** بني ان الامر بيد الله، وان الله خصه بما فعلت، فان لم تصدقني فقربا قربانا فأيكما قبل قربانه فهو اولى بالفضل (وكان القربان في ذلك الوقت تنزل النار فتأكله) وكان قابيل صاحب قمح، فقرب قمحا رديا، وكان هابيل صاحب غنم فقرب كبشا سمينا، فأكلت النار قربان هابيل"... ووسوس ابليس لقابيل فوثب الى هابيل وقتله[1].

**

وقصة الطوفان خلدتها الكتب السماوية، وأثار حضارة الرافدين، وهي مناسبة لبدء الخلق من جديد قال الله سبحانه وتعالى: **"قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى امم ممن معك، وامم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب اليم"**. وقبلها يصف سبحانه وتعالى هذا الطوفان بقوله: **"وهي تجري بهم في موج كالجبال، ونادى نوح إبنه - وكان في معزل - يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين، قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء، قال لا عاصم اليوم من امر الله الا من رحم، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين"**. فالموج كالجبال، واللجوء الى الجبل لم يعصم إبن نوح من الماء المرتفع الذي غطى كل شيء.

ويقول سبحانه ايضا: **"وقيل يا ارض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي، وغيض الماء، وقضي الامر، واستوت على الجودي، وقيل: بعدا للقوم الظالمين"**.

وقصة الطوفان وسيدنا نوح، مناسبة مهمة في التاريخ الاجتماعي للمجتمع الانساني، فهي بداية الحياة بعد سيدنا آدم عليه السلام، حيث يرون ان الماء قد جاء على كل المخلوقات من بشر وحيوان ونبات، وحتى ان النصوص السومرية، والاكادية في حضارات ما بين النهرين اهتمت بهذه المناسبة وخلدتها: "فالنص السومري يسمى سيدنا نوح عليه السلام: (زيو سدرا)، والنص الاكدي يطلق عليه اتنابشستيم، واحيانا "اترام هاسبس" وفي التقليد الهلينستي اكسيسوثروس، وهي الشخصيات الانسانية المرادفة مع الفارق لسيدنا نوح عليه السلام"[2].

ونذكر هنا بعض الفقرات من النص السومري عن حادثة الطوفان بما يطابق ما جاء في القرآن الكريم في معناه... "وانتشر الطوفان في الارض (سومر)، وقذفت الزوابع بالسفينة الضخمة، وهي على المياه العظيمة"... الى ان يقول... (وادخل اوتو اشعته الى السفينة الضخمة، والقى زيو سدرا الملك بنفسه (مظهرا الولاء) لاوتو، وقتل الملك ثورا ونحر شاة (قربانا منه للالهة)، وبدأت المزروعات في الظهور والنماء"[3]، وهكذا نجد القربان مرة اخرى، ونجد التخليد لهذه المناسبة، ولهذه الحادثة، ليس في الكتب السماوية فحسب، بل وفي نصوص ومخلفات الحضارات القديمة، ونجد نوحا **يذبح ثورا قربانا الى الله سبحانه، انها مناسبة وحادثة تستحق القربان والتقرب.**

ونجد ظهور القربان في كل مناسبة مهمة ايضا، فهذا سيدنا ابراهيم يهم بذبح ابنه اسماعيل، ولكن الله يفتديه بذبح عظيم، هو ذلك الكبش (حسب الروايات) الذي قدمه هابيل ابن ادم قربانا الى الله سبحانه.

ونجد القصة في قوله سبحانه: "وقال اني ذاهب الى ربي سيهدين، رب هب لي من الصالحين، فبشرناه بغلام حليم، فلما بلغ معه السعي قال يا بني اني ارى في المنام اني اذبحك فانظر ماذا ترى، قال يا ابت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين، فلما اسلما وتله للجبين، وناديناه ان يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين، ان هذا لهو البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم".

"ويفدي الله هذه النفس التي اسلمت وأدت، يفديها بذبح عظيم، قيل: انه كبش وجده ابراهيم مهيئا بفعل ربه، وارادته ليذبحه بدلا من اسماعيل"[٤].

وكانت هذه الحادثة عظيمة عند الله **(ان هذا لهو البلاء المبين)**، وعظيمة عند المسلمين، حتى اصبحت بذلك مناسبة تتكرر كل عام، كجزء من العبادة، من فريضة الحج، وعيد الاضحى، عيد النحر، "ومضت بذلك سنة النحر في الاضحى، ذكرى لهذا الحادث العظيم الذي يرتفع منارة لحقيقة الايمان، وجمال الطاعة، وعظمة التسليم، والذي ترجع اليه الامة المسلمة لتعرف فيه حقيقة ابيها ابراهيم"[٥].

* *

وكذلك الامر فيما يخص سيدنا ابراهيم اذ اكرمه الله: **"واذن في الناس بالحج يأتوك رجالا، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق"**. وما زال وعد الله يتحقق منذ ابراهيم عليه السلام، الى اليوم والغد، وما تزال افئدة من الناس تهوى الى البيت الحرام، وذلك "ليشهدوا منافع لهم، فالحج مناسبة سنوية يلتقي فيها المسلمون، وهو مؤتمر، وموسم تجارة، وعبادة، ومؤتمر اجتماع، وتعارف، وتنسيق وتعاون، بالاضافة الى كونه فريضة من الله"[٦].

ونجد قوم فرعون لهم اعيادهم وافراحهم ومناسباتهم، وفي احداها كان صراع الحق مع الباطل، صراع سيدنا موسى عليه السلام مع فرعون وسحرته، وذلك ما نجده في قول الله سبحانه وتعالى على لسان فرعون **"فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا انت مكانا سوى، قال؛ موعدكم يوم الزينة، وان يحشر الناس ضحى، فتولى فرعون فجمع كيده ثم اتى"**.

وهكذا طلب فرعون الى موسى تحديد موعد للمباراة مع السحرة.. وترك له اختيار ذلك الموعد للتحدي: **(فاجعل بيننا وبينك موعدا)**، وشدد عليه في عدم اخلاف الموعد زيادة في التحدي **(لا نخلفه نحن ولا انت)**، وان يكون الموعد في مكان مفتوح مكشوف **(مكانا سوى)** مبالغة في التحدي، وقبل موسى (عليه السلام)، تحدي فرعون له، واختار الموعد يوم عيد من الاعياد الجامعة، يأخذ فيه الناس في مصر زينتهم، ويتجمعون في الميادين والامكنة المكشوفة **(قال: موعدكم يوم الزينة)**[٧].

فهذه مناسبة اعياد تسمى (يوم الزينة) دليل اهميتها، وعظمتها، وانها مناسبة عامة جامعة.

** *** **

ونجد الحواريين يطلبون الى عيسى ان يدعو الله لينزل عليهم مائدة من السماء، ونجد سيدنا عيسى عليه السلام يتجه الى ربه يدعوه:

"قال عيسى ابن مريم: اللهم ربنا انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وأخرنا، وأية منك، وارزقنا، وانت خير الرازقين".

"وفي دعاء سيدنا عيسى بن مريم ادب العبد المجتبى مع الهه ومعرفته بربه... فهو إذن يعرف انه عبد، وان الله ربه، وهذا الاعتراف يعرض على مشهد من العالمين، في مواجهة قومه، يوم المشهد العظيم"٨.

فهذه المائدة مناسبة، عيد، معجزة، فيها طعام من عند الله، فريد لا نظير له عند اهل الارض.

وفي موضع اخر نجد يوم الجمعة يوما له اهميته وقدسيته عند الله، حتى ان صلاة الجمعة لها اهمية خاصة، يجب معها ترك البيع والشراء، والذهاب لاداء هذه الفريضة واصبح هذا اليوم يوم استراحة لدى المسلمين، انه مناسبة وعيد، عيد للراحة، للعبادة، لاجتماع الناس في بيوت الله، للتنزه، ولقضاء الحاجات، انه مناسبة تجري فيها اكبر نسبة من مراسيم الزواج والخطوبة فهو فوق كل ما سبق وذكرنا يوم مبارك، عند الله.

ويقول سبحانه وتعالى: **"يا ايها الذين أمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة، فاسعوا الى ذكر الله، وذروا البيع، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون، فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض، وابتغوا من فضل الله، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون".** فهو يوم عبادة **(فاسعوا الى ذكر الله)**، ثم هو يوم نزهة، وراحة وعمل **(فانتشروا في الارض)، (وابتغوا من فضل الله).**

وبذلك نجد التوازن الذي يتسم به المنهج الاسلامي.. التوازن بين مقتضيات الحياة في الارض، من عمل وكد ونشاط وكسب، وبين عزلة فترة عن هذا الجو وانقاطع القلب، وتجرده للذكر"٩.

وحدث مهم، ومناسبة اخرى غيرت وجه التاريخ، انها هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة. **"الا تنصروه فقد نصره الله اذ اخرجه الذين كفروا، ثاني اثنين، اذ هما في الغار، اذ يقول لصاحبه: لا تحزن ان الله معنا، فانزل الله سكينته عليه، وايده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا، والله عزيز حكيم".**

"ذلك حين ضاقت قريش بمحمد ذرعا، كما تضيق القوة الغاشمة دائما بكلمة الحق، لا تملك لها دفعا، ولا تطيق عليها صبرا، فأئتمرت به، وقررت ان تتخلص منه، فاطلعه الله على ما ائتمرت، واوحى اليه بالخروج"١٠.

ان هذا الحدث العظيم يحييه المسلمون في كل عام، ذكرى عطرة، ومناسبة كريمة لانها تعني حمل المبادىء السمحة من اجل انقاذ البشرية من ظلمات الكفر والطغيان، وهي تعني ايضا، الرعاية الالهية بعد الاخذ بالاسباب، وتعني بداية انطلاق الدين في جو

ومجتمع ارحب، واكثر ترحيبا... الخ. لقد اصبحت هذه المناسبة، وهذه الذكرى عيدا للمسلمين، وموضوع تأريخهم بالاشهر والسنوات.

ونجد مناسبات ذات علاقة بالتنظيم السياسي، سواء في انتقال السلطة من دولة الى اخرى، او من شخص لاخر، او مرور مدة معينة على تولي شخص لمهامه وسلطانه.

"فقد كانت حياة الملك في مصر الفرعونية تبدأ بولادته المقدسة، ويستمر في حياته الدنيوية محتفلا كل عام بتتويجه، واستعادته سلطته الملكية (لاحظ كل عام)، ومن اهم الاعياد التي تساعده على تلك الاستعادة (عيد حب سد)، واعياد التتويج، ثم تنتهي حياته الدنيوية، ويبدأ حياته الابدية في العالم الاخر"١١.

اما عيد (حب سد) "فهو عيد مصري يفسر على انه يمثل اليوبيل الثلاثيني، او بمعنى اخر مرور حوالي ثلاثين عاما على تتويج الملك على العرش، وهو يشبه بعض الاعياد التي تحتفل بها القبائل الافريقية، مما يجعل العلماء يعتقدون في اصلها الافريقي"١٢.

وهكذا نجد الاحتفال بالولادة، وانتقال السلطة، ومرور كل عام، ومرور ثلاثين عاما، ويبدو ان الاحتفال الثلاثيني ذو طابع خاص مميز يزيد عن الاحتفالات السنوية، وهو اعم واشمل، وربما اطول مدة ايضا.

ونجد ان الانتصارات الحربية مناسبة تستحق التخليد، وهذا ما نجده منذ الحضارات القديمة ايضا: "ففي المجال السياسي حقق (نارام - سن) الكثير من الانتصارات الحربية، في كافة الجبهات الجبلية الشمالية الشرقية والغربية والجنوبية، وقد خلد انتصاراته على العناصر القبلية الجنوبية المعروفة باسم (اللولو) في لوحته الشهيرة، ويظهر فيها (نارام - سن) وهو يبدو في حجم اكبر - تأكيدا لحملة لصفة خاصة، وكذلك في لبسه تاجا ذا قرنين متقدما جيشه على سفوح الجبال، بينما يظهر اعداؤه في حالة انهزام شديد"١٣.

ونجد الملك ميشع/ ملك مؤاب يخلد انتصاراته على نصب خاص وجد في ذيبان (وهي جنوب مادبا/ ضمن محافظة العاصمة / عمان بالاردن، ونحن نأخذ من هذا النص ما يهمنا، وما يعتبره الملك ميشع مناسبة تستحق التخليد لانه انتصر على عدوه، فيقول: انا (ميشع بن قموش)، ملك مؤاب الذيباني، ملك والدي على مؤاب ثلاثين عاما، ومن بعده ملكت انا، فأقمت هذا المشرف لقموش لانه نصرني على جميع اعدائي.

والعرب في الجاهلية كانت لهم اعيادهم ومناسباتهم، فكانت رحلتا الشتاء والصيف لاهل مكة والتي ذكرها الله في كتابه العزيز بقوله سبحانه **"لايلاف قريش ايلافهم، رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف".**

فالتجارة الى اليمن والشام، وعودة الركبان والقوافل، ومسيرها، وتجهيزها، كلها مناسبات كانت لدى مجتمع مكة، وكذلك كانت مناسبات الحج والاشهر الحرم، والاسواق.

"فقد كان للعرب في الجاهلية اسواق يقيمونها في شهور السنة، وينتقلون من

بعضها الى بعض، ويحضر سائرها قبائل العرب، من قرب منهم، ومن بعد فكانوا ينزلون (دومة الجندل) اول يوم من ربيع الاول فيقيمون اسواقها بالبيع والشراء، والاخذ والعطاء، فيعشرهم رؤساء آل بدر في دومة الجندل، وربما غلب على السوق بنو كلاب، فيعشرهم بعض رؤساء كلب، فتقوم سوقهم الى اخر الشهر، ثم ينقلون الى سوق (هجر)، في البحرين في شهر ربيع الاخر، فتقوم اسواقهم بها، وكان يعشرهم المنذر ابن ساري احد بني دارم، ثم يرتحلون نحو عمان بالبحرين، فتقوم سوقهم بها، ثم يرتحلون فينزلون (ارم)، وقرى (الشحر) فتقوم اسواقهم بها اياما، ثم يرتحلون فينزلون الرابية في حضرموت، ومنهم من يجوزها الى صنعاء ثم تقوم اسواقهم بها ويجلبون منها الخرز والادم، والبرود، وكانت تجلب اليها من (معافر) ثم يرتحلون الى عكاظ في الاشهر الحرم"١٤.

واما عكاظ فكانت اهم اسواق العرب الخاصة والعامة، ذلك انه كان لكل قبيلة سوق يعقد في الوقت الذي يناسبها، وهناك اسواق لكل القبائل واهمها عكاظ "وكانت تقام من اول ذي القعدة الى اليوم العشرين منه، واقيمت تلك السوق بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة، وبقيت الى ما بعد الاسلام حتى سنة ١٢٩هـ، وكان يجتمع بهذا السوق اكثر اشراف العرب للمتاجرة ومفاداة الاسرى، والتحكيم في الخصومات، وللمفاخرة والمناخرة بالشعر والخطب في الحسب والنسب والكرم والنصاحة والجمال والشجاعة وما شاكل ذلك"١٥.

ومن هذه الاسواق ايضا، مجنة، وذو المجاز.

"اما سوق عكاظ، ومجنة، وذي المجاز، فقد كانت موسمية سنوية من جهة، وتقام في الاشهر الحرم من جهة ثانية، وفي ضواحي مكة المقدسة من جهة ثالثة، فليس هناك ما يمنع من غشيانها، وان تفد اليها كل قبيلة، وكل حي لانهم يكونون آمنين مطمئنين على أنفسهم وعلى اموالهم، فهم في حصانتين مقدستين، حصانة الاشهر الحرم، وحصانة اقامتهم في جوار الكعبة"١٦.

"ومع الحديث عن سوق عكاظ لا ننسى ولا شك السوق الثاني في الاهمية بعد عكاظ الا وهو سوق (المربد) في البصرة الذي حل محل عكاظ في عصور الاسلام الاولى، وكان له فضل كبير على العربية والذي امتاز عن عكاظ مع انه امتداد له في حفظ اللغة العربية من التلوث والاعجمية وزاد عليها مفردات جديدة يفرضها العصر وتطوير الادب العربي والمحافظة على السمات والمميزات العربية، وحفظ الشخصية العربية من خطر الامم الوافدة على الاسلام من رومان وفرس وغيرهم، وكان رواد المربد.. الجاحظ، والاصمعي، وابو العلاء والاخفش والفراهيدي، وغيرهم، مع فارق ان عكاظا يمثل عصر البداوة، (والمربد) يمثل عصر الحضارة وعدم البكاء على الاطلال والدمن"١٧.

اما ايام العرب التي كانت حروبا سجالا بين الأخ واخيه والعربي، والقبيلة والاخرى لاتفه الاسباب او لاعظمها، فانه يمكن استخلاص وجه ايجابي لها، كمناسبات

ادت بصورة اخرى الى تطوير الفروسية، واللغة والشعر، والاعتزاز بالكرامة، رغم ما فيها من امتثال، وحروب سجال، ودماء، ونهب وسلب.

واذا كانت الاشعار قد خلدت هذه الايام، فانها (اي الايام) هي التي جاءت بهذه الاشعار حتى ذكرت في المعلقات وغيرها، فيما لا مجال لذكره هنا.



قلعة المدورة (ت٢ ١٩٧١)



الباحث في احدى الجولات الدراسية (١٩٧٤)

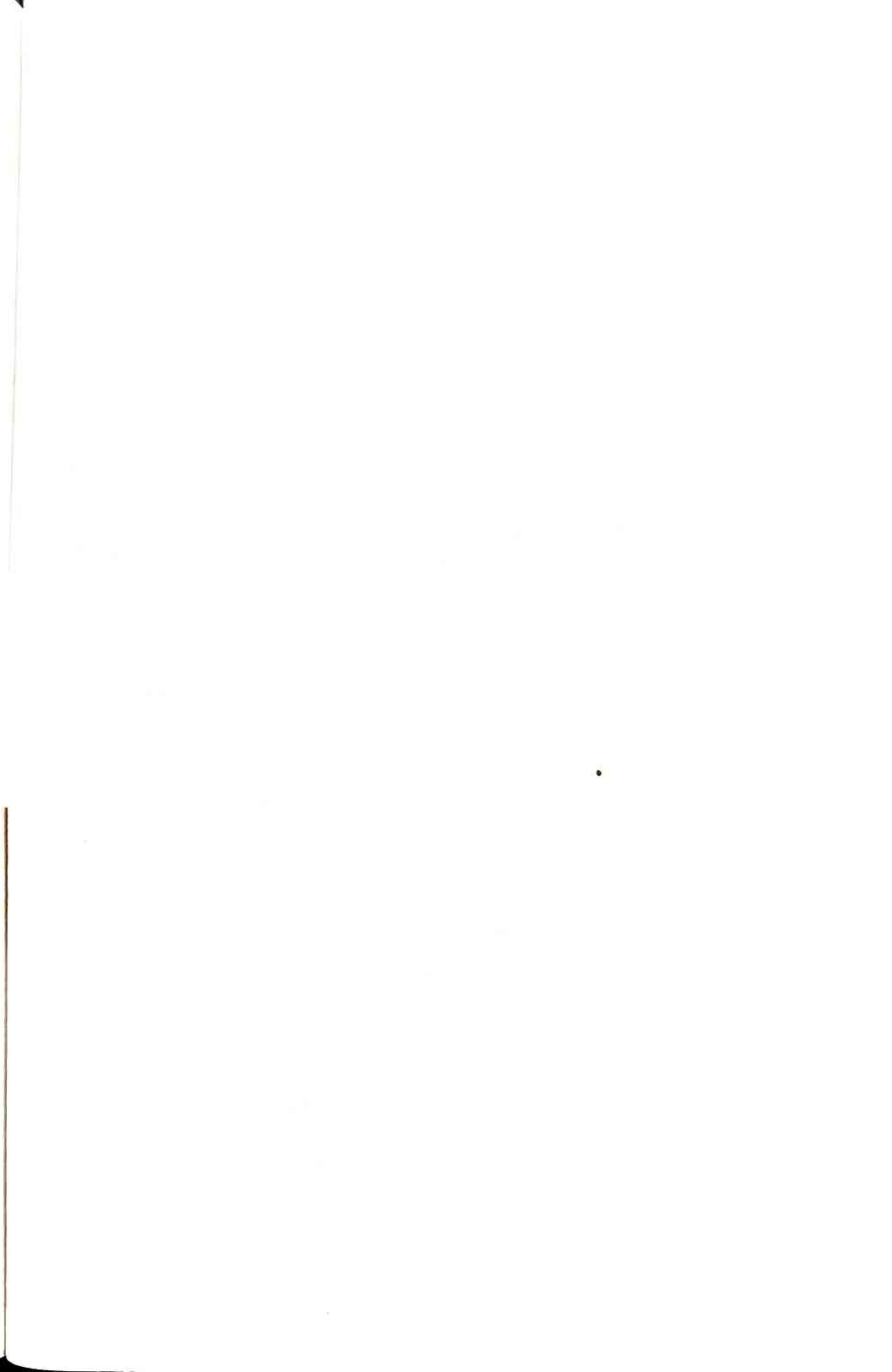


في شرطة البادية بالمفرق (١٩٧٥)



وادي الحسا بين الكرك وام الجمال (شباط ١٩٧٥)

١) نعمة الله الجزائري النور المبين في قصص الانبياء والمرسلين/ (ص٥٥).
٢) د. رشيد الناضوري جنوب غرب أسيا وشمال افريقيا - الكتاب الاول - ص ٢٢٤
٣) المصدر السابق (ص ٢٩٧).
٤) المرحوم سيد قطب في ظلال القرآن المجلد السابع دار احياء التراث العربي ص ٦٥.
٥) المصدر السابق ص ٦٦.
٦) بتصرف المجلد الخامس/ من تفسير سورة الحج (في ظلال القران).
٧) المصدر السابق/ من تفسير سورة (طه).
٨) المصدر السابق/ من تفسير سورة المائدة.
٩) المصدر السابق المجلد الثامن تفسير سورة الجمعة.
١٠) المصدر السابق المجلد الرابع تفسير سورة التوبة.
١١) جنوب غرب اسيا وشمال افريقيا ص ٢٨٣
١٢) جنوب غرب اسيا وشمال افريقيا ص ٢٨١
١٣) جنوب غرب اسيا وشمال افريقيا ص ٢٧٠
١٤) سمير عبدالرزاق القطب انسان العرب/ ص ٢٦٤
١٥) السيد احمد الهاشمي جواهر الادب/ ج٢ ص ١٤
١٦) نادي الطائف الادبي/ سوق عكاظ في التاريخ والادب/ ص ٣٧
١٧) نفس المصدر ص ٦٤.



الفَصل الأوّل

القصيدة البدوية

الفصل الأول

القصيدة البدوية

حيث ان الكلمة تعبر عن الاحساس، فان هذه الكلمة تأخذ اكثر من طريقة وصورة واسلوب، فمنها الكلمة المنثورة، واخرى الكلمة المنظومة، فاما الاولى فهي ثلاثة أنواع عند البدو قطف من زهر وهو ارقها في الكلام البدوي والذي يكون عادة (مختصر مفيد)، (وخير الكلام ما قل ودل)، ولكنه لا يأتي مختصرا مفيدا فحسب، بل ان الفاظه جزلة، منتقاة اشبه ما تكون بالسجع كأن يقال عن كلام محترم (قليل وجليل)، او يوصف رجل بانه (رزين امين)، او توصف فتاة انها (شريفة نظيفة) او (طاهرة الذيل نظيفة الشليل) كناية عن طهارتها وعفتها او ان يتغزل شاب بفتاة فيقول لها: (انت التمرة والجمرة). وتقول هي له ردا (بالجمر تدفى، وبالتمر تعفى) اي الدفء من الجمر، والصحة والعافية من التمر. وهذا النوع من الكلام، يعتبر كلام الشرق، والمسمى احيانا (الشروق) - (جمع شرق) وهم عادة أهل نجد، والبلقاء بالاردن وشرقي بادية الشام، اي البداوة النقية التي تخلو من صفات الاعراب، والفلاحين، وانما تعتمد في قوامها على الاصول العربية الاصيلة المستمدة من الشريعة الاسلامية.

واما الكلام (نقش في حجر)، فهو أقل جودة من السابق، لكنه يقاربه في القوة، والمتانة، كما انه اقل اختصارا. حيث تطول الجملة وتضعف احيانا، وان كانت قوية بالقياس الى النوع الثالث (فت من يعر)، ويمتاز النقش في حجر ان اللفظ لا يكون في سلاسة ولطف وتهذيب (القطف من زهر) (فالنقش في حجر) يقول عن الكاف مثلا (اك انجليزية)، بينما تلفظ بالقطف من زهر فيما بين (السين والتاء والزاي)، مع ظهور السين على الحرفين الاخرين.. كما تلفظ الجيم مثلا في النقش من حجر (جيما عاديا) بينما في القطف من زهر تلفظ (زاي) مع حرف تاء مدغم غير واضح. وتكون ايضا مخارج الحروف رقيقة كالزهرة، بينما هذه المخارج في النقش من حجر اكثر وضوحا، وجفافا، بنفس درجة الورد الى الحجر.

ويعتبر كلام النقش في حجر للبدو الذين اختلطوا بالاقوام المستقرة، ومارسوا مهمات الفلاحة والزراعة، والحياة القروية، والتجارة المتصلة بالمدينة، كما انه كلام أصعب وقعا على الاذن من القطف من زهر.

وهكذا نجد ان مخارج الحروف، وطريقة لفظها، ومدى الاختصار والتعبير باكبر معنى باقل مبنى، كل هذا له اهميته في تصنيف الكلام (قطف من زهر او نقش من حجر)، ويعتبر القطف كلام الشيوخ، وبنات الشيوخ، والطبقة المحترمة كالقضاة والشعراء، والعشاق، والفرسان، بينما النقش في حجر لبقية القبيلة.

وقد نجد بنفس القبيلة من يتكلم الاول، او الثاني، ولكن من حيث المبدأ هو ان القطف من زهر هو كلام اهل الشرق، وكلام الشيوخ عامة، ولكن في العادة قد يكون لغير الشيوخ، ولغير اهل الشروق.

وان (النقش في حجر)، قد جاء بعد القطف من زهر، لذا فهو منبثق عنه، ومشتق منه، كما ان القطف سابق على النقش، لان البداوة سابقة على الاستقرار، ولأن الانسان مع الاستقرار يتحدث بعيدا عن (القطف) الذي يرتبط بالنقاء والبادية والصفاء. وعلى كل حال فان قطف الورد اجمل بكثير من النقش في الحجارة. واحب الى النفس ويبدو ان (القطف) في مجالات الغزل والحب، والتفاوض، اهم واجمل، واكثر تأثيرا من (النقش)، تماما كالهدايا التي تكون عادة من الورود وليس من الحجارة (حتى وان كانت كريمة).

اما النقش فمجالاته عندما لا يكون هناك بد من اسلوب العنف والقوة والمجابهة. وقد يبدأ حديث الانسان للاخر بالقطف، حتى اذا لم يجد نفعا تحول هذا الى نقش من حجر، حتى اذا فشل تحول الى (فت من بعر)، وهو النوع الثالث من أنواع الحديث عند البدو، وهو أردأ وأسوأ أنواع الكلام والحديث عندهم، ويعتبرونه كلام اهل المدينة والقرية اي لما يطلقون عليهم الفلاحين، حيث يقتنون الماشية (الماعز والاغنام والارانب الاليفة) والتي يسمى روثها (بالبعر) ويقومون بفت بعرها بالنار لايقادها لاستعمالات الطبخ او ما شابه ذلك. وحيث ان هذه عملية (تبدو قذرة) للبدوي ولا يمارسها لأنه يأبى ويأنف ويربأ بنفسه عن استعمالها، لذلك فان عملية فت البعر عملية ممقوتة، خاصة وان له رائحة مميزة ان لم تكن كريهة فهي بالتأكيد غير مقبولة، ثم ان البعر رغم اهميته شيء عديم، لأنه من (الخوالف) اي الشيء الذي يتركه ويخرجه الحيوان من الخلف، كما ان البعر لا يكون طعاما، حتى ولو تم (فته) – اي سحقه بحيث يكون على شكل قطع صغيرة او مسحوق، ومجمل الحديث السابق ان عملية فت البعر تعبر عن البذاءة، والقرف، والقذارة، وعدم الفائدة من الفت له، ذلك انه يوضع بالنار ليكون وقودا جيدا. لذا فان الحديث الذي من هذا النوع هو اردأ واسوأ انواع الحديث والكلام، فهو ضعيف، بعيد عن الجزالة اللفظية، والدلالة المعنوية، يسيء عندما يقصد الاحسان، ويتورط عندما يرغب الانقاذ – كأن يقول مرحبا، (يا ميت حية بها اللحية)، حتى ولو بدا هذا الحديث مسجوعا، فان اللفظ للحروف ومخارجها يكون بطريقة مغلوطة وغير سليمة، وغير مألوفة للبدوي...

ولو حللنا وجود هذه الانواع الثلاثة، لوجدنا ان اجمل واكمل الحديث لفظا، ومخرج حروف ونطق هو القطف من زهر، ولو اعتبرنا اننا نستمع لحديث رجال من دهاقنة السياسة العصرية، لوجدنا ان كلمات المجاملة الاولية تأخذ طريقها في البداية طمعا في حصول كل طرف على مكاسب من الاخر، ثم يتحول الحديث الى شيء من النقش في الحجر اذا فشل الاول، ثم الى (فت من بعر) اذا فشل الثاني، وهذا ما يسمى الطريق المسدود في المباحثات، او ما يسمى (بتعثر المباحثات)...

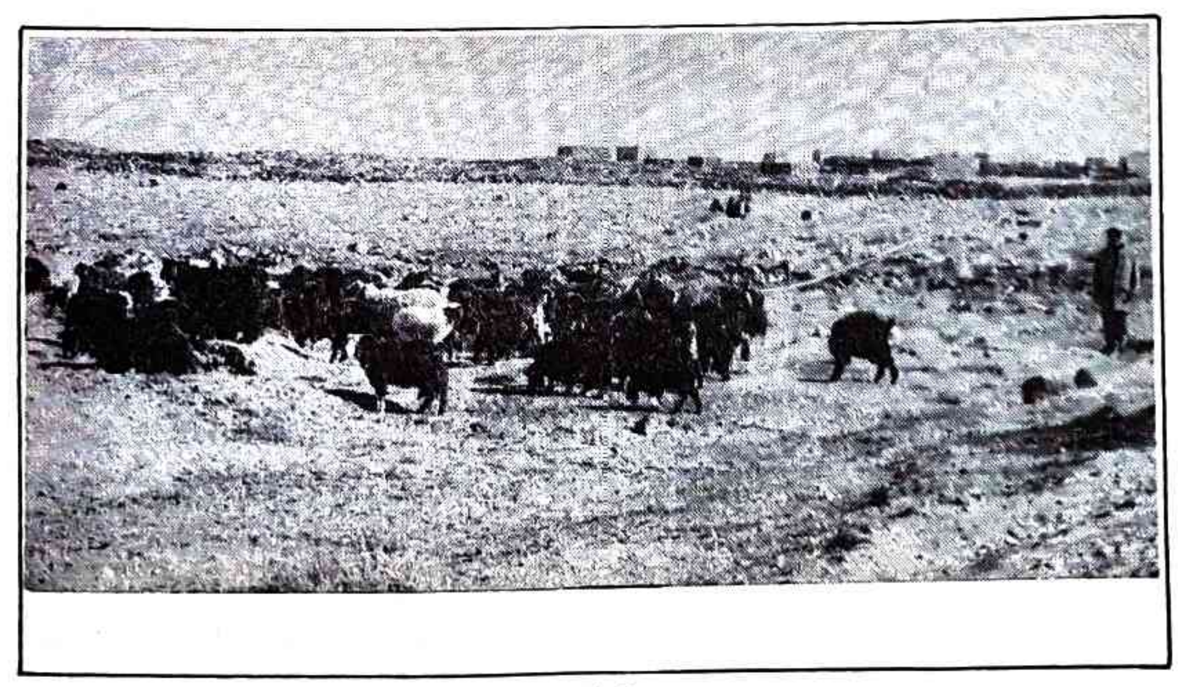
وأما القصيدة او الكلمة المنظومة الموزونة وهي الشعر فيسمى عند البدو عموما بالشعر، او (بالقصيد) والمفرد (قصيدة)، واما الكلام المنثور فيطلق عليه احيانا (النشيد) وهو من المناشدة اي المخاطبة، لذا فان واحدهم يقول للاخر مثلا: تريدني اخاطبك (بالقصيد ولا بالنشيد)، اي بالشعر ام بالنثر. والنشيد يعني ايضا طلب الحاجة عند البدو بينما يعني عند ابناء المدينة والعلم، قصيدة شعرية متعارف عليها حول مناسبة معينة، وطنية او دينية، فهناك الاناشيد الدينية، والوطنية، ويكون على وزن خاص وغالبا قصير المقاطع، خفيف اللحن، سهل الحفظ والالتقاط من سامعه.

اما القصيد فهو في لغة المتعلمين من الكتب الشعر الفصيح، ويقولون (قصائد)٠ بينما يقول البدو (المتعلمون من الحياة لا من بطون الكتب) - (قصايد) بتحويل الهمزة الى (ياء)، وهو معروف في لغة العرب.

ويقولون عن الكلام المنظوم الموزون ايضا (شعر)، ويجمعونها (اشعار) واحيانا (شعاعير)، والشعراء يقال لهم (شعار) بتشديد العين. وما بقي نجد نفس المصطلحات في اللغة الفصحى عن الشعر والشعراء موجود لدى البدو والخلاف في اللفظ فقط.

ومعنى الشعر عند البدو اوسع من معنى القصيد، وان كانتا تعنيان شيئا واحدا، فالشاعر هو كل ما ينظم الشعر من عندياته، واما (القاصود) (او القصاد) او (القاصودة) (اي الذي يقول القصيد) فقد يكون قد جاء بالقصيد من عنده او ربما حفظه عن غيره، اي ان كلمة القصاد، او القاصودة... الخ ليست محددة المعنى تماما في تعيين هوية من تطلق عليه، اما كلمة شاعر فهي محددة الهوية، وللتصغير تحببا او تحقيرا يقال (شويعر)، وللتحقير (شعيعير).

واذا كان بالامكان لأي واحد ان يقول كلاما قطفا من زهر او (مثل عد الذهب، او



عد الجواهر) كما يطلقون على (كلام قطف الزهر)، واذا كان بالامكان لكل واحد ان يتحدث (نقش في حجر او فت من بعر)، فانه ليس بامكان اي واحد ان ينظم الشعر، لانه امره متعلق بالموهبة وحتى الشعر نفسه له درجاته وطبقاته، وينطبق عليه التنظيم السابق (القطف، والنقش، والفت)، ولكن الشعر يدوم اكثر من الكلام العادي ما لم يكن الكلام حكمة او مثلا او قولا راجحا، وحتى هذه تدوم اكثر وتكون اوقع عندما تكون ضمن الشعر. فمثلا يقال عند البدو (عدو جدك ما يودك) وفي الشعر يقول البدوي:

الله يخونك كان ما تشتهيني عدو جد وما بقلبه صداقة

وقول البدو مثل: (معايد القريتين) وفي الشعر نجد هذا المثل كما يلي:

غديت مثل معايد القريتين لا جبت خير ولا كسبت الرفاقة

فنلاحظ هنا انه اضطر لاضافة قولين دارجين قواهما المثل، واعطيا المثل قوة ايضا، كما انه اعطى بعدا جديدا، وتفسيرا بان مثل هذا المثل يعني ان الانسان لم يأت بخير، ولا يكسبه او يجنيه، كما انه لم يكن في ركب رفاقه ولم يتبعهم فضيعهم وفقدهم، وضيعوه وفقدوه، خاصة وان الفرد في المجتمع البدوي عنصر مهم.

واذا كانت الكلمة معبرة عن الاحساس اصلا، فانها تتجسد اكثر ما تتجسد في الشعر، لانه منظوم موزون وذو وقع خاص في النفس والاذن. لذا فان اغراضه تتعدد، ويقال في جميع المناسبات، بل ان الكلمة الموزونة تخلد المناسبات والاحداث اكثر من اي كلمة اخرى يقولها الانسان. حتى انه يمكن، استخلاص الكثير من العادات والتقاليد والمبادىء، من خلال ابيات من الشعر، ولا ننسى انه يمكن استخلاصها ايضا من اقوال البدو، ولكن الذي يجب الا ننساه ان في الشعر مبالغة قد تؤدي بالباحث الى الوصول الى نتائج مبنية على الخيال، وبالتالي لا تستند الى حقيقة، لذا فان ضوابط هذه الامور تكمن في



في غور الصافي (يار ١٩٧٣) — في فينان (لواء الطفيلة) بوادي عربة (نيسان ١٩٧٣)

(اقوال البدو الاخرى) كالامثال والحكم، والاقوال الدارجة التي تعني شيئا دونما تكون مثلا او حكمة.

واذا كانت اغراض القصيدة البدوية تتعدد بين المدح والثناء، والرثاء والهجاء والغزل والوجل، والحب والحرب، فان القصيدة نفسها تتكون من بنيان معين، وعدة اطراف وجوانب ولا بد ان تحتوي قصيدة في غرض معين على عناصر معينة، والا تكون ناقصة ويخطىء من يعتقد ان جميع القصائد البدوية تشتمل على عناصر واحدة ولكن الصحيح هو اشتراكها في عديد من العناصر ولكن ليست جميعها، فقصيدة في الزهد والنصائح تختلف في بنيانها وهيكلها عن تلك التي تتحدث عن الحب او الحرب ومن خلال مطالعتي للكثير من شعر البدو وجدت ان المبدأ في (قصائد) الزهد، والنصائح والرثاء والحكمة، والخوف، والرجاء. يبدأ وينتهي بالصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، وتوحيد الله سبحانه وتعالى، والدعاء اليه بتحقيق الامنية او الطلب... الخ. وفي العادة هناك قصائد من هذا النوع قد تبدأ وتنتهي بدون الصلاة على الرسول عليه السلام وربما بدون ذكر الله ايضا، واما القصائد الاخرى (كالغزل، والهجاء، والحرب والرسائل ...الخ) فالمبدأ بها هو الدخول بالقصيدة بعناصرها التي سنتحدث عنها بعد قليل باذن الله، ولكن في العادة قد يحدث ان يبدأ بالصلاة على الرسول عليه السلام.

ويأتي ارتباط الصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من مبدأ الايمان بالله سبحانه، الذي امر بقوله **(ان الله وملائكته يصلون على النبي، يا ايها الذين امنوا صلوا عليه وسلموا تسليما)**. فالبدو يرون ان المؤمن هو الذي يصلي على الرسول انطلاقا من هذه الاية، والبدوي انسان لا يقبل لنفسه الا ان يكون مؤمنا مسلما حتى وهو في قمة فسوقه وعصيانه، هذا بالاضافة لما يعتقده البدوي من بركة لكل قول او شيء يبدأ بذكر الله، والصلاة على رسول الله، كما ان هذا الامر امتداد لجذور اسلامية عربية قديمة فقد كانت الخطبة تبدأ بتوحيد الله والثناء عليه وذكره، ثم بالصلاة على رسول الله (ص)، حتى ان زياد بن ابيه، والحجاج خطبا في اهل العراق خطبتيهما بدون ذلك، فكانتا موضع استهجان الناس في زمنيهما، والمؤرخين والادباء من بعدهما.

والبدوي يرى في ذكر الله ورسوله في القصيدة يمنا وخيرا، وفراش امان، ومعبرا الى تفتح الذهن والابداع... واما القصائد التي لا تبدأ بذكر الله من حيث المبدأ فهي اما ان موضوعها يكون اصلا فيما لا يحله الله سبحانه، وكيف يذكر اسم الله ورسوله على مالا يحبان ولا يرضيان؟! فالبدوي يدرك ذلك جيدا، ويفهمه، ويتقيد به. الطيب والخبيث لا يستويان ولا يلتقيان، والبدوي يخجل من نفسه ان يذكر اقدس ما عنده مقترنا بامر يستحي ان يطلع عليه الناس، او (يقرف) (ويعاف) الناس سماعه كالهجاء او ذكر محاسن فتاة وتجسيد مفاتنها، وذلك حرام اصلا.

هذا من حيث المبدأ، اما في العادة فقد تكون قصائد من هذا النوع مهذبة محترمة رغم ان غرضها في مجال السفاهة او الغزل... الخ، ومع هذا نجد ذكر الله والصلاة على رسول الله، لأنها اخرجت بشكل مهذب، بعيدا عن سفاسف القول: كان يقول البدوي في

قصيدة السامر والتي هي من حيث المبدأ تقال بدون ذلك، الا انه في العادة يمكن ان تبدأ بذكر رسول الله (ص).

اول ما نبـدي ونقـول صلـوا عاطه الرســـول

وهكذا لا بد ان نفرق في هذه الامور بين مبدأين وعادتين. المبدأ الأول قصائد من حيث (المبدأ) تبدأ بذكر الله والصلاة على رسول الله كلاهما او احداهما، وفي العادة قد تخلو هذه القصائد من ذلك احيانا، لاسباب لا تتعدى السهو، او لان الشاعر قد يأخذ معان في سياق قصيدته بما لا يتفق والاسم المقدس، وربما حتى لا يعتبر اسم الله سلعة على لسانه، من مبدأ (ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم)، ولكن يترك هذا الذكر للقصائد المهمة ذات العلاقة في تقرير المصير، وحزم الامور... الخ. فيكون الاسم العظيم مع الشيء العظيم...

واما المبدأ الثاني: فهو عن القصائد التي تكون بدايتها (من حيث المبدأ) بدون ذكر الله والصلاة على رسوله، ومع هذا قد يلجأ الشاعر لاسباب او لاخرى ان يبدأ بالذكر والصلاة، احدهما او كلاهما. وذلك (في العادة) وكلا الامرين (المبدأ الاول والثاني، والعادة الاولى والثانية) جائزة عند البدو، ولا يمكن حصر الموضوع بحدود ضيقة، بل ان البدو في ذلك لديهم مرونة، وتكيف حسب المواقف والظروف، وفهم الشاعر للامور، او الشخص الذي يوجه اليه قصائده واشعاره.

وبعد ذلك لا بد لنا ان نضرب امثلة على كلا المبدأين سائلين الله التوفيق والنجاح.

فهذا شاعر يبدأ بذكر الله. والدعاء له سبحانه فيقول:

يــــا الله يا عالـــم كل مكتوم الطف بنا يا عالـــم السر والغيب
أجعل لنا حظ عن الشين معصوم من فضل من لا فيه شك ولا ريب
ابن ادم ما بــين معطــي ومحروم من فضل والي العرش مالك مطاليب

فهنا نجد الحكمة، وطلب الرحمة من الله، وان يكون الرجل معصوما عن كل الكبائر والصغائر (الشين)، واذا كان الامر كذلك فهو فضل من الله الذي لا ريب فيه، خاصة وان الناس منهم شقي وسعيد (معطى ومحروم)، ولكن بدون الله لا يتحقق المطلب الذي تنشده.

وهـذا شاعـر اخر يتحدث عن الحكمة والفلسفة فيقول:

يَــا الله يا والي على كل والي يا خير من يدعى لكشـف الجليلة
المــالك المعبـــود محصي الرمالي الكون والدنيــا ومــا به فهــى له
ماله شريـك جل فوقـــه متعالي علمــه احـــاط بدفهـــا والجليلة
أشــهـد فلا غــيره الـــه ولا لي رب سواه اخشـــاه وارجـــى النيلة

وبعد هذه الابيات التي يذكر فيها وحدانية الله سبحانه، ويعترف بها مؤمنا بالله. فانه يرجو الله ان يعطيه، ويرزقه، وان ينال هذا (النيلة) ما طلبه من ربه، ثم يبدأ بسرد مطالبه وحكمته فيقول:

يا فارق الشـدة بضيـق الحـوالي افـرج لعبـدك يا منجـــي خليلة

فنرى هنا الحكمة والعمق، فالطلب من الله ان يفرج الشدة بعد ضيق الحال مقترن بذكر حادثة من معجزات الانبياء، وهي نجاة خليل الرحمن (سيدنا ابراهيم عليه السلام) من النمرود وقومه عندما القوه في النار فجعلها الله عليه بردا وسلاما، فهذا البدوي في الصحراء يطلب ربه ان ينقذه من الشدة كما انقذ ابراهيم من قومه، ومن النار، وان شرح فلسفة وحكمة هذا البيت وحده يستغرق الشيء الكثير حقا. انه العمق والايمان، والتراث المتواصل المبني على قواعد اسلامية اصيلة...

ثم يواصل هذا البدوي طلباته من الله فيقول:

يا راحم ارحم شيبتي وانخذالي ... يا جابر اجبر عثرتي والفشيلة

وهذه قصيدة اخرى تبدأ بذكر الله قبل ان يطلب البدوي ما يريد، فهو يقدم قربانا، الى الله بذكره ودعائه لانه لا خير الا من عنده سبحانه، ولا دافع للضرر الا هو فيقول:

يا رب صبرني على امرك وبلواك ... واجبر عزا من شاف ضيم العزاير
يا الله يا والي تصاريف الافلاك ... يا مطفي نار السنين العساير
اسألك من فضلك وجودك وحسناك ... تجمع بشملي مع إظبي الزباير

فهنا نجد انه بدأ بذكر الله (كعادة) في قصيدة هي من حيث المبدأ لا يتم فيها ذكر الله لأنها في الغزل، والحب، فهو يتمنى بعد ذكر الله وتوحيده ان يجمع الله شمله والحبيب الذي تشبه الظبي الذي يعيش في الارض المليئة بالنوار والزهور وتكون ارضا ذات اكمات (تلال وتلاع وآبار) وهذا ما يسمى عند البدو (الزباير) اي الارض ذات الارتفاعات المتفاوتة.

ثم يستطرد باوصاف حبيبه فيقول:

الجادل اللي يصقل السن بالراك ... حاوي محاسن محصنات الحداير
بيح عزاي وصار للروح ملاك ... وارخصت له عمري وما بالذخاير

فهذا الحبيب له جدائل نظيف الاسنان يصقلهما بعود الاراك، ويحوي محاسن المحصنات في الخدور وقد جعلني اعلن عزائي، وامتلك روحي، وارخصت له العمر وما لدي في ذخيرتي من غير الروح والعمر ثم يبدأ بوصفها عضوا عضوا فيقول:

يا زين يا عذب اللما كيف انساك ... والحب سلطانه على القلب جاير
يا مورد الخدين ما احلى سجاياك ... يا سيد كل المترفات النظاير

ثم يختتم القصيدة بدعوة بجمع الشمل ثم بالصلاة على الرسول (صلعم) فيقول:

يجمع بشملي يا اريش العين واياك ... هالعمر خيره لو بقي للوداير
والختم صلى الله على المصطفى ذاك ... محمد المبعوث ما سار ساير

وهذه قصيدة في الحكمة والدعاء تبدأ بذكر الله، وتنتهي بدون ذكر الله والصلاة على رسوله:

يالله ياللي تسجد الخلق لرضاه ... يا وامر خلقه لحج بيته

تفـرج لمن سره على النـــاس ما ابداه   راضي على مقسومـــك اللي عطيته

وقصيدة اخرى في الحكمة والموعظة الحسنة تبدأ وتنتهي بذكر الله.
الحمـد لله جت على حســن الاوفاق   وتبدلــت حال العسر بالتياسير
جتنـا من المعبـود قســام الارزاق   وعـم على الحســاد هم والتوابير

فهكذا اليسر بعد العسر - يسر من عند الله الذي قسم الارزاق وجعل للحساد والهالكين **(سدا من بين ايديهم ومن خلفهم)**
ثم تنتهي القصيدة بالصلاة على الرسول بقوله:
صـلاة ربـي بالعشيــة والاشراق   على النبـي من اظهـر الحـق تظهير
وهذه قصيدة تبدأ بذكر الله وتنتهي بالصلاة على رسول الله:
يــاالله ياللي كل حي يسألك   يــا واحــد كل يخافــك ويرجاك
يــا قاســم انـــوال الملا من نوالك   وقبضة نواصي الخلـق كلـه باياديك
ثم يسرد الشاعر نصائحة قائلا:

لا تعتــرض امــر القــدر في جدالك   ولا تحسـب اللي مصيبـك بيخطيك
قسمة احظوظ الخلق قسـم السوالك   ومكتـوب حظـك يالفتـى في نواصيك

ففي البيت الاول نرى انه يقول ان (المقدر ما عنه مودر) فلا داعي للجدال، فلا راد لقضاء الله، اما الحظوظ فهي قسمة، ومقسمة، وليس لك الا ما هو لك، والذي مكتوب على الجبين تشوفه العين ونحن نقول هذه الاقوال تفسيرا للشعر لأن الارتباط وثيق بينهما، ويفسران بعضهما بوضوح.
وبعد هذه النصائح نجده يعطي التجارب والحكمة التي عاشها بنفسه، وعاناها، فتأتي بذلك قوية متينة، وبسيطة، (وسهل ممتنع)، فيقول:
وان جاد حظـك كل شيء صفالك   وقرايـب الخـلان كلن يصافيك
وان جاد حظـك بالمجـالس حكى لك   وصـدق مقـالك كل من لك يحاكيك
وان جاد حظـك بالمنـازل بنـا لك   بيـت رفيـع شامـخ الطـول يدريك
وان بار بك بـين جميـع العـدا لك   وصـار المحـب اعـدا عدو يعاديك
وان بار بك ظليـت ما حد بحالك   ولا بفنجــال من البــن يسقيك

ثم يضيف الشاعر ناصحا لكل انسان قائلا:

اخـذ الحـذر كل الحـذر لو صفالك   عيب على انك تأمـن الخصـم ياليك
تحصن بسـوء الظـن وابصر بحالك   واحذر جليس ضايـع الـرأي يعميك

ثم يستغرب سوء الزمان، وانقلاب الموازين فيقول:

راعـي المكر والـكذب والبـوق سالك   وراعي الثنا ضاقـت عليـه المساليك

يمشي ورايــه ضايــع بالمهالك   لا شاف من دونه على الــوكر عاليك
مـا تنظـر الاقــدار فيمــا جرا لك   شيــوخ القبائــل تابعــة للمماليك

ثم ينتهي بالدعاء الى الله والصلاة على رسول الله فيقول:

يـا رب تجبـر واحــد قد رجـا لك   عنــد الشدائـد مزبــن اللي يواليك
تعطــين مقصــودي وانــا اللي اسالك   يــا سامــع من جاء بابــك يناديك
واختـــام ملفوظـــي لنــا في مقالك   ازكى صلاة الى هادي الرشـد هاديك

وفي العادة قد تكون هناك ابيات في الحكمة والرثاء ولا تبدأ بذكر الله او الصلاة على رسوله رغم ان المبدأ فيها البدء بذلك، وقد تنتهي بالذكر والصلاة او تكون بدون ذلك او باحدهما: ولنقرأ امثلة على ذلك، فهذا شاعر يتوجد على زوجته وهو يصفها بالعفة والشرف وبكلمات رقيقة ودقيقة، ورزينة وامينة، والمفروض ان يبدأ بذكر الله - وذلك المبدأ او الاصل الا انه اوجد عادة او اتبع عادة، او قل شاء الا يتقيد بالمبدأ، انه يبكي ويرثي فيقول:

حــي الجــواب وحــي من به يعزين   حيــه ثمانــين الــف والــف عددها
حيــه عدد ما ناح ورق البساتين   حيــه عدد ما ناض برق عددها
هو يحسب ان الصبـر قولـه يلهين   الصبــر مرمرنــي وريقــي عقدها
صبــري دفنتــه في زبــارات نمرين   متعلــق حد السهــل من وعرها
باح العزا يا صاح صبري غدا وين   لــو درت عنــدي ذرة ما تجدها

ثم يصف زوجته الراحلة فيقول (انها كالغزالة الجميلة الصغيرة الخشف)، وهي شريفة لا يخشى عليها في شرفها:

يا سين يا ام عقــاب ياســين ياسين   يا شبه خشف الريــم ترعــى وحدها
بنــت الرجــال وخالــط عقلهــا الزين   وروايــح الريحــان ريحــة جسدها
ولا عاتبت بالهرج الادنــى والاقصين   ولا على الجــيران عضــت بيدها
ما انساه انــا والله ديــن باثــر دين   مــا دام روحــي مالجــت في لحدها
وصلــوا على من نور الحــق تبيين   محمــد المختــار مادوا رعدها

ومن هذا النوع من الشعر ايضا يقول الشاعر نفسه حول الغرض اياه، وهو رثاء زوجته:

سار القلــم يا عقــاب بالحبــر سارا   وبزيــزف القرطــاس يا مهجتــي سار
اكتــب وليفــي ولــع القلــب نارا   خلانــي بالدنيــا وحيــد ومحتار

وبعد ان يعدد اوصافها، وقيمتها عنده، وانه لو جيء بجميع بنات الدنيا، من حضر وبدو وعرب وعجم فلا يساوين شيئا امام زوجته الفقيدة ينهي بعدها قصيدته بالصلاة على رسول الله:

صــلاة ربــي عد وحش القفارا   ولا عدد نبــت يروى بالاقفار
على النبــي المبعــوث سر واجهارا   سيــد البشر اللي قهــر كل جبار

وهذه قصيدة مثال على ان بعض الشعراء قد يسلكون العادة وليس المبدأ في نظم اشعار الحكمة والموعظة الحسنة، واعطاء التجارب والخبرات، فتبدأ وتنتهي القصيدة دونما اشارة بالذكر او الصلاة، على اعتبار انها موجودة تلقائيا، وربما يكون هذا احد الاسباب في تفسير هذه الظاهرة، خاصة وانه بالمذاهب الاسلامية يعتبر بعضها النية شرط

اساسي لعقد الامر في العبادة، بينما يعتبرها البعض حاصلة تلقائيا طالما ان الانسان بدأ ممارستها...

ومن القصائد التي تدور حول النصيحة والحكمة او تمتلىء بها بدون البدء او الانتهاء بالذكر قول الشاعر البدوي بهذه القصيدة القصيرة:

زامل ينشدني وانا وين ويني هبيت يا هرج بليا لباقة[1]
الشين شين وماكر الشين شيني عدو جد ولا بقلبك صداقة[2]
الله يخونك كان ما تشتهيني لو تحكي لي بالعلوم الدقاقة[3]
غديت مثل معايد القريتين لا جبت خير ولا تبعت الرفاقة[4]
انا بلايا من صديق بطيني بقعا تصفقني على غير فاقة[5]
فنجال طين ولا انت فنجال صيني تبرك مباريك الجمل وانت ناقة[6]
ارخص لنا وارسل لسمحة تجيني اعتاق عبد مشتهين فراقه[7]

فهذه الابيات القصيرة، من اروع ما يقال بالشعر البدوي حقا، وقائلها فارس مغوار من فرسان البادية، وهو من الذين قست قلوبهم بسبب سيطرة نزعة حب سفك الدماء، والغزو والضرب والحرب عليهم لسبب او لاخر، وسوف نشرح الابيات، ولسوء الحظ انه ليس هناك من وقت لشرحها الوافي الكافي

ويقول الشاعر بادئا قصيدته مباشرة، وفاتحها بالصلاة على رسول الله (ص).

الايام ما يرجى لهن رجوع غدت بخلان لنا واربوع
مرقت من الدنيا بيوم وليلة واعد سبوع من وراه سبوع

فأمس الذي مر على قرية يعجز اهل الارض عن رده، هذا معنى الشطرة الاولى من البيت الاول، وقد اخذت الايام التي مضت اصدقاء واقارب، وجماعة... فهو قد مر من الدنيا وكأنه لم يلبث الا عشية او ضحاها وبعد النصائح الطويلة يختتم القصيدة بقوله:

وصلوا على خير البرايا محمد عدد ما اضا برق وهل ادموع

---

١) زامل: اسم شخص/ ينشدني: اي يسالني، والمقصود هنا تكرار السؤال حيث يسمى مناشدة، او عندما يقف السؤال والالحاح فيه امام طريق مسدود، يسمى ما بعده من السؤال مناشدة، لأن الامر يتحول من سؤال عادي الى مناشدة باوصاف الشخص فيقال: يا ابو فلان، يا فارس الفرسان، يا اخو فلانة، او يا اخي رد علينا، جاوبنا، كما يقول كلمات قد تثير المقصود بالسؤال ليجاوب، لذا فانه في هذه المناشدة قد قال له كلمات غير لبقة، خالية من اللطف، وهنا يغضب الشاعر على مناشدة زامل بانها كانت هرجا بلا لباقة (وين ويني؟! اي اين انا.. وهبيت: اي هلكت، واندثرت، والهرج هو الكلام، وتقال كلمة (هرج) لقول الرجال الذي له اهميته، واحيانا للكلام الذي يمتلىء بالمجاملات وملء الوقت ويسمى (تهريج) ويقال هرج بصيغة الامر اي قل كلاما ليس فيه ضرر على احد وانما منفعة وتسلية للجميع.

٢) الشين: اي السيء، وماكر الشين: اي الموغل في السوء والمكر، خاصة وانه عدو ابا عن جد، ومثل هذا ليس بقلبه صداقة لي او محبة لشخصي، وليس في قلبه رفق او محبة حقيقية.

٣) الله يخونك: تقال للشخص على سبيل المحبة او الكره كان يقال (ثكلتك امك) للتحبيب وفي لفظها سوء. العلوم الدقاقة: اي الكلام الدقيق الذي يدل في ظاهره على المحبة واطلاع القبيل على الاسرار. فهو لا يثق فيه حتى وهو يخبره الاسرار ويكلمه بالامور الدقيقة الذي لا يبحثها الانسان الا مع من يحب.

٤) غديت: اصبحت.

٥) بلايا: اي مصيبتي/ بطيني: اي باطني اي عدو بثوب صديق، وبقعا، اي المصائب، وتصفقني اي تضربني صفعا باليدين على الوجه/ فاقة: محبة ورغبة

٦) تبرك: اي تنوخ وتجلس.

٧) سمحة اسم فتاة: ويطالب بمجيئها، ويعتبر بعدها عنه كانه عبد في عتقه عبودية، ومجيئها اليه انما هو عتق له من العبودية.

وهكذا انتهينا من الموضوع الاول

وهو البدء والختام بالذكر والصلاة - من حيث المبدأ - ومخالفة ذلك في العادة.

وننتقل للموضوع الثاني وهو ان المبدأ عدم التطرق في البدء والنهاية للذكر والصلاة - من حيث المبدأ - ولكن في العادة قد يذكرون ويصلون، ولنقرأ في المبدأ وهو عدم التطرق للذكر والصلاة، في هذه القصيدة حيث تبدأ بدونهما:

يـــا راكبــين ركاب خمس وثماني ... واكواعهــن لازوارهــن ما ينوشن[1]
ورقابهـــن حوف الجريــد الليانى ... مثـل اليدامـى بالسهـــل يوم يقفن[2]
يلفن شعيــب سديــر حــين الوذاني ... كل يقــول بجيرتـــي ما يتعدن[3]

ثم يختتم القصيدة بدونهما (بقوله)

لن اختلــط زينـــي وفعــل اليماني ... جنــة نعيــم وبالحشـــا كن تلاقن[4]
الشــين ما يضرب خطـــاه السناني ... والجـل ما يكسر يمـــين بهـــا فن[5]
قلتــه ولا انــي ضامـــن لك ضماني ... ذولا سعــوف ومــن عنــد الله لاجن[6]
الـــكاز يعبـــا للضروس المثاني ... افكر ترى سن اللبــن يشلعــه سن[7]

وهذه القصيدة تبين كيف يبدأ الشاعر وينتهي بدون الذكر والصلاة فيقول:

حي الجــواب اللي لفانــا من الراس ... جابـــه اعـــلام ما توانـــا مسيرة
اهـــلا هلا عد ما حبـــك قرطاس ... او ما كتــب فوقــه ابيـــوت شطيرة

وفي منتصف القصيدة يقول

ان كان ما يفـــرح صديقـك ابنوماس ... تحـــرم علينـــا اللي نهـــوده صغيرة
مدلـــول مجمـــول زهـــا زيــن الالباس ... بنــت الـــذي يثنـــي الياجــت كسيرة

وهنا نجده يمتدح نفسه مخاطبا ابنه انه سيفرح الصديق بشرف وشيء موضع اعتزاز واذا لم يحقق ذلك فانه ليس اهلا للزواج من الفتاة الجميلة الصغيرة الغضة، التي لا تزال نهودها صغيرة دلالة على انها في بداية عمرها. ووصفها انها مدللة، جميلة، تلبس اجمل اللباس، ووالدها الذي يكر في المعركة اذا هزم القوم، ويحقق النصر بعد الهزيمة.

ثم ينتهي من قصيدته بدون ذكر ولا صلاة سوى على سبيل الرجاء والدعاء فيقول:

ابغى عسى الله يبرد القلـب يا ناس ... مــن لاعــب شبــت بقلبـــي سعيرة
ومن كان لـه غائب فلا يقطـع الياس ... ان قدر الله جاب علمـــــه بشيره

فهو هنا يذكر الله، ولكن على سبيل الدعاء والرجاء، وهو لا يصلي على الرسول، وعلى كل حال فالامثلة على رأينا كثيرة جدا، ولا حصر لها هنا ولنأخذ قول الشاعر البدوي في قصيدته الرائعة عن الضيافة وفلسفتها، وعن الكرم وبدأها بدون ذكر وكذلك انتهى رغم انه من اكثر الشعراء جودة وحكمة وتدينا، وهو الظلماوي:

يا كليب شب النـار يا كليـب شبه ... عليـك شبـه والحطـــب لك يجابي

وينتهي بقصيدته بقوله:

واذبـــح لهـــم كبش عريض ملبه ... ومن منحر السكين حني الركابي

والشيء الاخر هو انه ضمن هذه الاغراض التي يكون فيها المبدأ عدم الذكر

والصلاة، نجد قصائد اخرى في نفس الاطار تبدأ او تنتهي بالذكر او الصلاة اوباحدهما، او تنتهي بذلك بدون بدء به، او تبدأ به بدون انتهاء به وهنا نجد الشاعر يقول بدون بدء ولا انتهاء بذكر ولا بصلاة، وهو يعمل (بالمبدأ) في هذا الغرض.

يقــول جرى واشرف اليــوم مرقب   حويـل الـذرا للريـح فيـه ذليل
طويل الذرى تهفى الحواويـم دونه   وللحـر الاشقـر في ذراه مقيل
لا تشرف المرقـاب يلعب بك الهوى   ويـذكرك المرقـاب كل جليل

ثم يتطرق للحنين الى دياره وارضه ويوصفها، ويصف منازل البدو فيها الى ان ينتهي بقوله:

وان كان ما نفـع الفتـى في حياته   تـرى النفـع بعـد الممـات قليل

انه ينتهي بنصيحة، وبديهة مسلم بها. ونجد قصائد في هذه الاغراض تتسم (بالعادة) اي ان شعراءها خرجوا على المبدأ والمألوف، وبدأوا او انتهوا بالذكر والصلاة، وربما انتهى او بدأ باحدهما فقط ويقول الشاعر بادئا القصيدة:

مالــوم يا نفس عن الـزاد معطاه   والماي ما يبـرد لهبهـا بروده
البن انحلت بالحـال والجسـم تبراه   والقلـب شبت به سعايـر وقوده

وينتهي بالاتجاه الى الله بقوله: -

هـذا مضى والخاتمـة عنـد مولاه   ولا شيء يصير الا بحكمـة وجوده

فلا شيء يكون الا بحكمة الله، ويثبت وجود الله سبحانه، والخاتمة عند الله، وما مضى من الحياة، والاحداث ذهبت وولت، ويكون الاجر او العذاب على ذلك عند الله سبحانه وهذا شاعر ينهي كلامه بالصلاة على رسول الله (ص).

اما البداية فيقول فيها:

امسى الضحى في عالي اطويـق ونيت   ون الحجـر من ونتـي يوم ونيت
من شوفتي غر وعلى شوفتـه اشفيت   انـا امصد مـير الاقـادر ميلات

فهو يذكر انه بالامس في وقت الضحى اطل من على جبل (طويق)، واخذ (يون) اي يقول شعرا على شكل الانين، حتى ان الحجر الذي كان يجلس عليه اخذ يئن من انينه.

وسبب ما هو فيه هو رؤيته لفتاة جميلة كالغزال الاغر، ويقول:

وبسبب رؤيتي لها شارفت على الهلاك، وانا لست مما تصيده الفتيات لأنه (يصد) عنهن، ولكن الاقدار مالت به واوقعته.

ثم يصف هذه المحبوبة فيقول:

من بين النهود ومقصبـات اليواقيت   والخـد من نور القمـر فيـه شارات

وينهي قصيدته بالصلاة قائلا:

وصـلاة ربـي عدد ما بدى من يوم   او عدد ما يمشي من القبلـة غيوم
وعدد ما ينبت من العشـب ما سوم   على النبي صلـوا يا جميـع البريات

وهذه قصيدة يبدأ فيها الشاعر بذكر الله والدعاء اليه سبحانه، ثم ينتهي بفرض الحكم الذي جاء من اجله فيقول:

يـاالله واني طالبك طلبـة اسخار   طلبـات عبـد ومسخـر بالعبادة
يـا الله تسكين بلاد من تم الادهار   تسـكين ريـح بالمطـر ثم باده

ثم ينتهي بقوله:

مير كيف تمشي الحق للضيف والجار   بديعـه ما هي للاجاويـد عادة
ان كان ضيفك هو تعـدى على الجار   من عنـدي وانـك سالـم من سواده

وهكذا نخلص من كل ما سبق ان ذكر الله، والصلاة على رسوله امر من ضرورات الحديث عند البدو، بل ومن ادابه، فهو في نثره وشعره، وحتى احيانا في غير الموقع المناسب، يذكر الله، ويصلي على رسول الله، ففي الشعر ذكرنا امثلة، وفي الحديث العادي نجدهم يقولون (اذكر الله) بالمفرد او الجمع، للشخص المستمع، في محاولة لشد انتباهه، او اقناعه بشيء، او اخذ الحديث منه اثناء الجدال في حالات الغضب، ويقولون (صلي على النبي)، او (وحد الله)، او (زيد النبي صلاة) - وذلك في حالات الغضب، ولتهدئة الروع سواء للقائل ام للمخاطب.

ففي القصائد التي تعبر عن الشدة (دعوا الله مخلصين له الدين)، كما هي عادة اي انسان في ذكره لله وقت الشدة والعسرة، واغراض هذه المناسبات معروفة سواء في الشدائد، والاوقات العصيبة، ام في حالة الهرم او الزهد، او الرجوع الى الله والتوبة الى، وكل هذه لا بد من الذكر او الصلاة احدهما او كليهما، ليصل الى الامان والطمأنينة نفسه قبل كل شيء، ثم يعطي الاخرين هذه الطمأنينة.

وعندما تقال القصيدة في اغراض عادية، لا يحتاج فيها الشاعر للتضرع الى الله، نجده يبدأ وينتهي حيثما يريد، وقد يبدأ بالمعنى المقصود مباشرة، وقد يتأخر حتى يذكر الله، ويصلي على رسوله كنوع من التودد وطمعا من مخاطبة الانسان ان يبدأ باللطف والمجاملات ثم يطلب مقصوده، وقد تكون هناك وحدة الحال، او ضيق الوقت بحيث يضطر الشخص للدخول في الغرض مباشرة دونما مجاملات، حيث لا وقت للمجاملات، واي كلمة خارج نطاق الموضوع، انما تجعل الغرض والهدف يذهبان سدى.

---

١) الركاب هي الابل المعدة للركوب خصيصا وتسمى الركاب بتشديد الراء، واحيانا، الركايب، ومفردها (ركوبة) والكوع عند الجمل هو الكوة عند نهاية يده الامامية التي تحتك بمقدمة العنق (ازوارهن) ومفردها زور والوصف هنا للجمل او الذلول الاصيل السريع لان احتكاك الكوع بالزور يعطل من سرعة السير، ويرهق الركوبة والذلول، وقصد من البيت الابل الاصيلة السريعة.

٢) الجريد هو جريد النخل (ورق النخل اللين)، واليدامي هي الغزلان ذات الاعناق الطويلة، وقد رفعت اعناقها وسارت مسرعة، وتم رؤيتها من الخلف (يوم يقفن) وهذا منظر رائع وممتاز.

٣) يلفن: ياتين/ شعيب سدير: اسم وادي/ حين الوذاتي: وقت اذان الصلاة، وقد اقبل القوم يدعون اصحابهن، والكل يقول: علي الجيرة لا يمكن ان تمر الا بعد تلبية الدعوة.

٤) فعل اليماني: الفروسية والضرب بالسيف/ بالحشا: بالقلب، بالجسم والمعنى الاصلي لها ما تحت البطن.

٥) الشين: الجبان الردىء، ما يضرب خطاة السنان يجبن عن الضرب بالرمح من بعيد فكيف به بالسيف من قريب اما الجل وهو الشجاع لا يذهب له يمين فاذا اقسم نفذ يمينه لشجاعته وقوته.

٦) الكاز: الحديد يعبا: يجهز/ الضروس: الاقوياء والمقصود بها هنا الاسنان. المثاني: القوية.

مشد القصيدة (المبدى)

للقصيدة البدوية بناء كأية قصيدة شعر في الادب العربي او غيره، كما ان لها اوزانا، وموضوعا، ومبنى ومعنى وهدفا. ومن هذه العناصر والقوام والبنيان، نبدأ بمشد القصيدة او (مبدى القصيدة) اي بدايتها او (اول القول)، واحيانا يسمى المشد (بيت القصيد)، او (مفتاح القول) بينما يسمى هدف القصيدة (خلاصة القول) وايضا (بيت القصيد)، او (الحاصل) اي المحصلة النهائية للقول، ونهجا للوصول الى الحصيلة بسرعة اذا طال الوصول قالوا (ويش لك بالطويل[١]) اي لا داعي للاطالة، وليس لك بها، او (المهم بالامر) ويسمى هدف القصيدة ايضا (التهاية) اي نهاية القول قول مختصر يعني المقصود.

والمشد هو البداية، المفتاح، العتبة والخطوة الاولى، وقد تحدثنا عن بداية القصيدة كيف تكون في الصفحات السابقة، وكل ما نريد ان نضيفه هنا ان المشد يكون حسب نوع الغرض الذي قيلت فيه القصيدة، والهدف الذي تسعى لتحقيقه وهنا لا بد من التفريق بين المبدأ والعادة في ذلك.

فالمبدأ ان يقدم شيئا قبل ان يبدأ، وذلك كأن يذكر الله، او ينبه مستمعه او القارىء انه سيبدأ، فيصبح لدى المستمع او القارىء استعدادا نفسيا وذهنيا انه سيستقبل شيئا، تماما كالاشارة في بداية اي برنامج اذاعي او تلفزيوني او سينمائي، او جلدة الكتاب ومقدمته، ونهايته وخاتمته وفهرسته.

ومن هنا فان المبدأ ان يكون هناك تمهيد ولو بيتا واحدا قبل ان يخوض موضوعه، وقد تحدثنا عن سبب البدء بالذكر والصلاة بما فيه الكفاية.

اما العادة في مشد القصيدة فتختلف حسب الامور التالية: الحركة واللاحركة، الغرض من القصيدة، مدى اهتمام الشاعر بموضوعه، السرعة، المخاطبات، والاغراض الاخرى.

اما الحركة واللاحركة، فاذا كانت القصيدة تتضمن موضوعا حركيا: مثل ارسال مرسال، او الشد على الذلول، او الهجرة، او التحرك للحرب، او توزيع الرسائل، فانه في العادة يدخل بموضوعه الحركي مباشرة، وقد يتشابه الشاعر البدوي في هذه مع الشاعر الجاهلي، في الاهتمام بالناقة ووصفها، واذا احتاج الامر للسرعة قام بتحريك راحلته بسرعة لتصل هدفها وتحقق الغرض، فهذا شاعر يقول مبتدئا قصيدته فورا.

يــــا راكبـــين ركاب خمس وثماني   واكواعهـــن لازوارهـــن ما ينوشن

وهذا شاعر اخر يبدأ كذلك فورا بالركائب والتي عادة ما تكون الابل او الخيل:

يــــا راكبـــين ركاب عشرة وثماني   مـــع قاطريـــن وعشرتـــين يتمن
هـــن اربعـــين ولهـــن ما يواني   مـير الصعـب تفريـق الهجـــن يمشن

ثم يبدأ بوصف النياق بعد ان ذكر عددها، ويقول عنها انها ذات لون بين الاحمر

والابيض (شقح)، وعليهن الخروج (والمفرد خرج)، ذات الوان جميلة حمراء كالوان الدحنون وكأنها لجمالها هوادج اعراس عندما تسير وتذهب فيقول:

هـــن شقــح والي عليهـــن ديدحاني   يشدنـك مصانيـــع الفـــرح يوم يقفن

وهذا شاعر يبدأ فورا بالشد على الناقة فيقول:

يـــا راكب عشر من الهاربات مـــا وقفوهـــن بالمبايـــع للاثمـــان
عـــن الجمـــال أشمـــال ومعفيات رمـــل التوابـــع ما تلاهـــن حـــيران
عامـــين يرعـــن بالحمـــى مهملات لين ارتـــكب لهـــن الشحـــم فوق الامثان
حرايـــر اصـــل اجدادهـــن كاملات لهـــن في غربـــي شفـــا نجـــد مسكان

واذا كان ارسال شيء ولكن بدون حركة اي بدون تحريك ذلول ومرسال تجده يبدأ في العادة بالموضوع فورا، فيقول:

ســـار القلـــم يكتـــب المكتوب ويسطـــر عالزيـــن قافـــات
يـــا قلـــم وصـــف لنـــا المحبوب وصـــف حلايـــاه بالذات
عـــن غيرهـــن مالنـــا مرغوب لـــو يعـــرض البيض ميات

وهذا شاعر اخر يقول

ســـار القلـــم يا عقـــاب بالحبـــر سارا وبزيـــزف القرطـــاس يا مهجتـــي سار
ســـار القلـــم بالنويهـــدات الصغارا يـــا عـــين وكرا وحســـن حـــين ما طار

واما الموضوع الذي يتعلق بالقصيدة فهو مهم ايضا، فمثلا نجد اهتمام الشاع ينصح اخيه يجعله يدخل بالموضوع فورا فيقول:

يـــا خوي لي عنـــدك وصـــاة مصيبة ترى وصاة الاخو تجرح القلب وتصيب
قضيـــة وصـــاة اخـــوك ما هي معيبة لصـــار اخـــوك مكمـــل العقـــل ومنيب

فهذا اخوه عنده ولا شك انه اصغى اليه، والامر مهم، ولا حاجة للتنبيه، ولمدخل اخر يكون مشد القصيدة، وهو الاخ الاكبر ينصح اخاه الذي يصغره، ولا داعي للتمهيد ابدا.

وهذا شاعر يتحسر على احبته، وهو يخاطب عينه، وليس بينهما حجاب، لذا فلا داعي للتمهيد بل يدخل بالموضوع فورا، فيكون مشد القصيدة خطاب للعين ثم دخول بالموضوع مباشرة

يـــا عـــين ويـــن احبابـــك اللي تودين اللي اذا جوا منـــزل ربعـــوا به
اهـــل البيـــوت اللي على الجـــو طرفين عـــده خلا ماكنهـــم وقفـــوا به

واذا كان الموضوع حول الحنين، واهاجة الشجون فانه يدخل بمبرر لهذه الشجون فيقول:

هيض اشواقـــي حمـــام بالغصون بـــات ساجـــع في بديعـــات الفنون
بـــين تغريـــد وترجيـــع بهون مـــا درى انـــي بالهـــوى بايـــت عليل
يـــا حمـــام الـــدوح هيجـــت الغرام مـــا سبـــب نوحـــك ومـــالك من مرام
اعطنـــي عهـــدك وخـــذ منـــي ذمام بيعنـــي شوقـــك وخـــذ شوقـــي بديل



في وادي رم (١٩٧٤)

فالحنين ينسيه ان يبدأ بغير ذلك، فعواطفه ممتلئة، وهو مضطر ان يوزع ما تفيض به. وهذا شاعر اخر في نفس الموضوع يقول:

الا يا الـــورق صابتـــك المصايب عنـــاك اللـــوم منـــي والملامة
علي اليـــوم جريـــت السبايب سقيـــت المبتلي زايـــد غرامه

واما في موضوع الغزل فالمبدأ فيه ان يتحايل عليه تحايلا اي ان يبدأ مشد القصيدة بموضوع قد يختلف عن الغزل، ثم ينتقل بالتدريج وبعد التهيؤ الى موضوعه الاساسي في ذكر محاسن واوصاف المحبوب، ذلك ان الغزل شيء فيه خجل وحساسيات، واثارة قضايا وامور كثيرة لا يسمح ذوو الفتاة بذكرها عن فتاتهم اذا استطاعوا، لذا فالتلميح قبل التصريح، والغمز قبل اللمس والملامسة قبل المصافحة - كلها لا بد منها في الغزل، ولكن في العادة قد يبدأ الشاعر موضوعه مباشرة، وقد يبدأ بطلب القلم والقرطاس ثم بالكاتب ليبدأ الكتابة عن محبوب اوصافه كذا وكذا فيقول مثلا:

يـــا ولـــد هات الـــدوا والريش واسطـــر من الهجـــن قصة
على غزال ربـــى بالهيش سيـــد الغناديـــر يا حصة

وقد يكون التمهيد في هذا الموضوع وصف لحالة ولما وصل اليه من الم وتردي فيقول:

يـــا جبـــر هو ضيـــم الليـــالي ينجلي او هو يخيـــم في حشـــاي ويطولي

اعض اطـــراف البنـــان بناجذي والدمـــع حرق وجنتـــي وهلهلي
والعـــين كن الشـــب يجـــلا موقها والنـــوم عنـــي له زمـــان مطولي
يـــا جبـر وان بانـــت عيونـــي للملا تـــراه من فرقـــا غزال عندلي
حوريـــة تجلى الظـــلام بنورها سبـــع المثنـــى حرزهـــا لا ينطلي

ثم يبدأ بوصف هذه الفتاة جزءا جزءا:

واذا كان الغرض من القصيدة ابلاغ شيء معين فقط دونما حاجة للمرسال، والذلول والواسطة، ووصف الاداة والقوم الذين سيتحرك اليهم فان الامور تكون مختصرة ومباشرة خاصة اذا كان الامر يتعلق بالشرف والكرامة او بقرار فوري لا يتناسب والمماطلة، وعامل الزمن هو الذي يحسم الموضوع، ولحظة قد تغير تاريخ الواقعة، وربما تاريخ عشيرة كاملة، وهذه قصة حول بدوية متزوجة من قوم ورغب شقيقها في غزوهم، واتفق واياها ان يعوي عواء الذئب ليلا اذا جاء لتخبره هي عن مواقع الابل لينهبها، الا ان والدة زوجها تشك بالامر وتعتقد ان الذئب عشيقها، فخافت على عرضها، فنصحتها الا تمتثل لندائه الى الرذيلة، فترد الفتاة انه ليس عشيقا وانها انسانة شريفة، وبعيدة عن كل سوء، وما يطعن في الشرف، فهي ترد على شقيقها الذي يعوي فتقول:

يـــا ذيـــب ياللي جر صوت عوى به قصدك ظمـــا والا من الجـــوع يا ذيب[1]
يـــا ذيـــب لا تطـــردك عنـــا المهابة طـرش العـــرب بالبـــر كلـــه عوازيب[2]
تلقـــا العشـــا لك في خشـــوم العقابة في فيضة السرداح وان تهـت يا ذيب[3]

فقالت لها العجوز تنصحها:

يـــا بنـــت حذرا لا يعضـــك بنابه تـــرى معض الذيـــب ما به تطابيب[4]
تـــراك مثـــل البـــكرة اللي جلابة ليـــا حافـك الســـوام يلقـى العذاريب[5]

فأجابتها البنت قائلة:

وحيـــاة جلاب المطـــر من سحابه انـــي سليمـــة ما بعـــد عضنـــي ذيب[6]
واللي ظلمنـــي جعلهـــا في شبابه وتحـــدره من عاليـــات المراقيب[7]
انـــا كمـــا عد عذي شرابه مـــا تارده بالقيـــظ حرش العراقيب[8]

---

١) واحيانا يقولون (ويش لك بطول السيرة) اي لا داعي للاطالة بالسيرة اي بالحديث واحيانا (ويش لك بطول الهرج) اي لا حاجة لك لمزيد من الهرج والقول.

١) جر صوت عوى به: اي عوى بصوت، يجره جرا، كجر الربابة. وهل سبب عواءك جوعا ام عطشا، وهي تقول ذلك لتبعد الشك من انها لا تخاطب شخصا، وانما ذئبا.

٢) وتقول: لا تهاب ايها الذئب ولا تخاف منا هنا، فابل (طرش) القوم تبيت في الخلاء عازبة.

٣) وهناك بالبر تجد العشاء الذي تريده اي الابل التي تبحث للحصول عليها في مكان اسمه خشوم العقابة، وبالذات في فيضة السرداح (اسم مكان) اذا لم تعرف منطقة خشوم العقابة.

٤) احذرك يا ابنتي الا يصيبك هذا الشخص بالسوء (اي الاتصال غير المشروع) لانه اذا حصل ذلك فهو عار لا علاج له (ما به تطابيب).

٥) فانت مثل شابة الابل (البكرة) التي يتم ارسالها للبيع، فاذا ظهر بها عيب لا يشتريها احد لان الشاري (السوام) لا يقبل شراء ناقة بها عيب.

٦) وتقسم الفتاة انها شريفة لم تنحرف يوما، ولم يمسها احد بما يدنس عرضها.

٧) ومن ظلمني واتهمني اطلب الله ان يصيبه بعمره وشبابه بالسوء وان يقع من مكان مرتفع، وان تنحط قيمته وكرامته جزاء له.

٨) وانني مثل مورد الماء الصافي، الزلال، عذب المذاق، طيب الشرب، ولا تستطيع وروده حتى الابل القوية (حرش العراقيب) لمنعه الماء او لبعده، وشبهت نفسها انها بعيدة المنال على الطامعين، فلا داعي للخوف عليها، تماما كماء عذب في ارض وعره وتريده الابل فلا تستطيعه، او في مفازة بعيدة تعجز الابل رغم قدرتها وتحملها على وروده.



الباحث في مضارب البدو بالريشة (البادية الشمالية) (١٩٧٨/٦/٢٢)

وفي العادة انه قد تبدأ القصيدة موضوع الحكمة والتجارب ايضا بتمهيد بعيد عن الموضوع، كالتحسر، او التوجد، او مخاطبة العين او الدهر او الزمن ثم يدخل بعدها بموضوعه الذي يقصده، وهذا يكون عندما يكون لدى الشاعر وقت طويل، ويريد عمل التمهيد والفراش لما يريد اعطاءه، تماما كمن يبدأ يلوح للاخرين او يناديهم حتى يرونه، او يسمعونه فيرسل غرضه اليهم، وينبههم لقصده. وقد يبدأ ايضا في القصيدة بالبكاء على الاطلال، ويذرف الدموع الغزيرة، تماما مثلما كان يفعل شعراء الجاهلية قديما حيث يقول الشاعر:

قال من دمعه على عينه صبيب	من مسراه الين نجم الصبح غاب
في ديار ما لقى فيها قريب	او صديق يحتفي فيه بترحاب
دمع عيني فيها منصب صبيب	في جباها مثل مامور السحاب
كل من لي في رباها من حبيب	او صديق جعله الله للذهاب

واذا كان الامر يتعلق بالجواب على كتاب، فان فرحته بهذا الجواب تجعله ينسى المبدأ بالتمهيد ويبدأ مباشرة بالجواب، بالتهلي والترحاب، لأن ذلك لا يحتاج عند البدو الى صبر وتصبر، فالمبدأ عندهم (لاقيني ولا تغديني) فالترحاب اهم من الطعام، اذن فلا داعي للمماطلة، فيكون الجواب فورا. فيقول الشاعر:



في منطقة الديسة – قرب وادي رم ١٩٧٤

حـي الجـواب اللي لفانـا من الراس جابـه غلام ما توانـا مسيره
اهـلا هلا عد ما حبـك قرطاس او ما كتـب فوقـه بيـوت شطيره

ويقول في موضع اخر:

حـي الجـواب وحـي من به يعزين حيه ثمانـين الـف والـف عددها
حيـه عدد ما ناح ورق البساتين حيـه عدد ما ناض برق عددها
حـي الصديـق اللي شفيـق يعزين ابيـات في صفـح الطلاحـي رصدها

ويقول اخـر:

اهـلا عدد ما سال طعس معتلي او ما يهـام في مهاميـه تلي
او ما بكا طرف السحـاب بفيضها او ينـع زهرهـا عقـب ما هو ممحلي
او ما جرى راس الـيراع بكا غد خـالي وحبـره من مداده ممتلي

واذا غاب عن بيته او مواقع البيت مدة طويلة وعاد الى هذه المواقع فانه من حيث المبدأ يجب ان يعمل مقدمة كما قلنا سابقا، الا انه لفرط تعلقه بالمنزل، او بالذكريات المرتبطة به، يبدأ مباشرة بتحية المنزل ثم يؤخر المقدمة بعد هذه الابيات التي يعطي فيها التحية، فيصبح مشد القصيدة متأخرا، فيقول الشاعر مثلا:

حـي المنـازل تحيـة عـين لمصافـح النـوم سهرانـه
والا تحيـة غريـم الديـن معسر واوفـاه ديانـه

وبعد هذا يأتي لتعريف المنزل، حيث كان يجب ان يبدأ، ويجوز لنا ان نقول ان هذا الذي سنذكره الان من المفروض ان يكون هو مشد القصيدة حيث يواصل بعد البيتين السابقين قوله:

منـــزل فريـــد المهـــا والزين عطبـــول مكحولـــة اعيانـــه
ودي بنسيانهـــا ومنـــين ينســـي محمـــد الخلانـــة
اطيـــع انـــا في هواه اثنـين سلطـــان قلبـــي وشيطانـــه
حبيـــت انـــا ناس قصيين وابغضـــت قومـــي على شانـــه

وهذا شاعر اخر يبدأ بتحية المنزل فورا فيقول:

حـــي المنـــازل وهـــن اسكوت قفـــر جفاهـــا الطواريقـــي
اليـــوم فيهـــا يجـــر الصوت والنـــوم فيهـــا تخافيقـــي

وقد جعل الشاعر هذين البيتين مشدا للقصيدة، وكان الاولى به ان يجعل الابيات التالية هي المشد حيث يقول:

حمـــام غرد وجـــر الصوت يـــا مال عجـــل التلاحيقي
غـــرد على غرغـــر نبوت مـــا ذار من صوت الطراريقي
كوده يهيض بنـــا مكبوت كسر اقفـــال الصناديقي

وهذا شاعر اخر يقول:

حـــي المنـــازل جنـــوب السيف ممتـــدة الطـــول مصفوفة
امشي على حسنهـــا واقيف في حبهـــا الـــروح مشغوفة

وهكذا نرى ان مشد القصيدة يختلف باختلاف الغرض، وباختلاف تسرع الشاعر او اهتمامه بالموضوع، وهل يحتاج الى حسم سريع ام الى تأن وتمهيد مسبق؟! ولا نستطيع ان نجعل هناك ميزانا واحدا لجميع الشعراء، والقصائد والاغراض، ولكن نستطيع انقول ان المبدأ ان يكون هناك تمهيد، والعادة قد يقولون شعرهم بتمهيد او بدون تمهيد او بتأخير ما هو مفروض ان يكون مشدا الى ما بعد تفريغ الشاعر للشحنة التي يمتلىء بها، والتي اوصلته الى حد عدم الصبر، فيقولها ثم يتفرغ لباقي القصيدة والمعاني فيها.

مسار القصيدة

ويختلف هذا باختلاف غرض القصيدة، وموضوعها، وهدفها، وقوة الشاعر، وطولها او قصرها، وربما الشخص المرسلة اليه، فاذا كانت بالحكمة مثلا، فانها تسير في (المبدأ) على نمط واحد حتى النهاية متضمنة التجارب التي مرت بالشاعر او عاشها بنفسه مع الاخرين او نقلها عنهم او خبرها بالتحليل والاستنتاج، كما تتضمن الامثلة، وربما بعض العادات، والزهد في الدنيا، وذم الشر والرذيلة، ومدح الخير والفضيلة. ولا تخلو القصيدة من المقارنات ضمن هذا الموضوع، وفي العادة قد يحكي قصة ويستخلص منها ما يريد، او قد يلقي للسامع ما يقصد بعد طول عناء، او اقناع وقوة حجة. وربما يتضمن المفاخرة بعشيرته بطريقة التلميح او التصريح ايضا، فيبتعد عن الغرض الاساسي لكنه يغتنمها فرصة ليتغنى الناس بمكارم اخلاق قومه، او المخازي لعدوه من خلال

تغنيهم بابياته الجميلة، وحكمته الجامعة. ويقول الشاعر في قصيدة طويلة نقتطف منها هذه الابيات:

مرقـت من الدنيـا بيـوم وليلة ... واعـد سبـوع من وراه اسبوع
ربـوع لنـا قد فرق البـين شملهم ... وشرف الديـار الخاربـات يروع
وسـود الليـالي ما درى عن بطونها ... يمسـن حوامـل ويصبحـن وضوع
انا ادري بعلم اليوم وامس بمـا جرى ... وبـاكر بغيـب والامـور وقوع
ومن رافق الاصحاب التهامـا فلـو نجا ... مـن الربـع مشـو في رداه طبوع
وانا احـب جلوسي عنـد حي يفيدني ... ولا ميـت ما في لقـاه إنفوع
وانـا احـب قعـودي عنـد قوم تعزني ... لـو كان فيهـم من حليـب طبوع

وقد تتضمن قصائد الحكمة ابياتا من الدعاء في مسار القصيدة فيقول الشاعر مثلا:

يـا واحـد فوق السمـوات عالي ... مـن سطوتـه كل الخلايـق ذليلة
يـا فارق الشـدة بضيـق الحوالي ... افـرج لعبـدك يا منجـي قليلة

ثم بعد هذا الدعاء يقول ما يريده - انه يلقي بغرضه الذي يريده، فيقول بعد ان طلب الفرج في عجز البيت الاخير السابق:

وانظـر بعينـك يا ابـا الافـراج حالي ... فـرد غريـب والمصاغـي قليلة
يـا راحـم ارحـم شيبتـي وانخذالي ... يـا جابـر اجبـر عثرتـي والفشيلة

وهكذا فهو ضعيف امام الله سبحانه، يطلبه بكل ادب ولطف، انه يذكر ضعفه امام قوة الله، وشدته امام فرج الله، وعثرته امام السداد الذي يريده الله، وفشله امام النجاح الذي اذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يقضي عليه اجتهاده.



الباحث في وادي عربة بجانب قاع طابة (١٢/١٢/١٩٧٤)

وبعد هذا الاسترحام، والذكر والدعاء والطلب قد يرى ان ذنبه اعظم مما دعا، وطلب، ويرى ان الدخالة هي خير وسيلة لتحقيق هذا الطلب، لأنه اذا دخل به المذنب، والطايع، والعاصي، فهو يقبل الدخالة، ويعطي الحماية، لذا فهو يرى ذلك احسن طريقة للحصول على غفران الذنوب من عند الله فيقول:

ومـــن لاذ بك ما صار بالضيـــق تالي   يصير الاول ولو كانـت اعظامـه هزيلة
وانــــا دخيلك يا عزيـــز الجلالي   حاشـــا كرم جودك يضيـــع عميله
بريـــت من غـــيرك بحـــالي ومالي   وزينـــت انـــا بحمـــاك من كل ميلة

وعلى اية حال فيمكن تقسيم مسار القصيدة الى الاقسام التالية:

في الحكمة والامثلة والنصائح قد تستمر على نمط واحد او تتغير، كما سبق وقلنا قبل قليل، او في حالة الرثاء فانه يصف حاله الذي هو عليه او حال الشخص الموصوف من الوجد والالم، وكأنه (قريص) اي لدغته افعى، ويعوي كالذئب الوحيد الجائع في الارض الخالية حيث لا ماء ولا اي نوع من الطعام، وانه عاجز عن الصبر، وان الكلمات تساعده على التنفيس مما يعانيه من الم، وربما يحاول ارسال التحية اليه رغم معرفته ويقينه انها لا تصله، ولكنه نوع من المواساة لنفسه، ثم يعدد مناقب المرحوم الحميدة، ويحولها الى هالة من الخير التي لا يساورها اي سوء ابدا. واذا كانت المرثاة انثى وصفها، وتغزل باوصافها، كل هذا كوجد على المفقود، واعطاء مبرر للسامع ان المفقود (قد المقام) اي بالمستوى المطلوب الذي يستحق عليه مثل هذا الرثاء. ونرى هنا الشاعر يقول:

اكتـــب الغـــالي ولـــع القلـــب نارا   خـــلان بالدنيـــا وحيـــد ومحتار
يـــا بنـــي من فقـــده عيونـــي سهارا   لـــكن فيهـــا ذر شب وزنجار
اعـــول عويـــل الذيـــب ليـــل ونهارا   واحـــن حن الجيـــد ثاو على الدار
على حبيـــب بالترايـــب توارا   خلانـــي مشتـــاق وحيـــد ومحتار
والله لا كذب ولا هو قمارا   ايضـــا ولا انـــا بالتماثيـــل بذار

ثم نجده يصفها وهو يبكي عليها (انها زوجته وهو يرثيها) فيقول:

العنـــق عنـــق اللي تقـــود العفارا   قايـــد خشـــوف الريـــم في دو الاقفار
يـــا غصـــن موز تحتـــه المي حارا   في وسـط بستـــان دنـت منـــه الاثمار
فيهـــا اخصـــال وافيـــات اكثارا   ومثايـــل فيهـــا التماثيـــل تحتار
حســـه لطيـــف مثـــل جنـــي الثمارا   يسبـــي اللبيـــب منادمـــه تقـــل سحار
قلـــت اه واويـــلاه مر المرارا   مـــن مي زقـــوم جرعتـــه تقـــل سحار
مـــن فقـــد مسلـــوب الحشاشـــين سارا   غـــرو كمـــا بدر لهـــا النـــور نشار

وقد يتضمن مسار قصيدة عن الحنين مقارنة بين الوضع الحالي الذي يعيشه وبين ما كان عليه قبل ذلك، مع ما يرافق ذلك من الوصف لكليهما والحنين لاحدهما، وغالبا ما يكون الوضع الاول، فهذا شاعر جاء مدينة القدس، ولم تعجبه معيشة المدينة وحياتها وفضل عليها حياة البادية كما هو شأن البدو بتفضيل البادية على المدينة، فيقول:

يا بعد دارنـــا اليـــوم عن دارنـــا العام   صـــوب العمـــود البـــادي العصر راسه

ول على بلاد لو بهـا الخـير ونعام	مـا بهـا للقلـب المشقـي وناسه
بيهـم ما تفهـم له، وبيهـم تطـر فام	وبيهـم يزم بضاعتـه فوق راسه
يـا ما حلا ترحيبـة العبـد غنام	بربعـة وفنجـال يطـرد نعاسه

فنراه يحن الى داره التي كان ينزلها (العام) ويفضلها على داره اليوم التي هي القدس، ثم يدعو بالهلاك والثبور على هذه البلاد رغم انها بلاد خير ونعمة، والسبب في الدعاء انه ليس فيها انس للقلب المغترب. فسكانها يتكلمون لهجة لا يفهمها، وبعضهم يضع البضاعة التي يبيعها على راسه وهو يحملها ويتجول فيها، ثم يحن الى ترحيب عبده به في البيت، حيث يجلس مع ربعه (جماعته)، وهم يحتسون القهوة التي لا تتوانى عن طرد النعاس، فيكسب وقتا اكثر من ربعه وجماعته، ويتعللون.. فهذا حنين الى الربع والديرة، والمعيشة.

وقد نجد حنينا الى ابن او قريب غايب، حالت الايام والاحداث بين الطرفين وهنا يصف الشاعر الديرة التي بها من يحن اليه، وقد ينصحه ان يتصرف كذا وكذا في ديرة الاجنبي من اجل جلب احسن سمعة للعشيرة او الديرة ثم قد يهيج هذا ويضطر لشد الركايب من اجل جلب الغائب، واعادته الى حيث ربعه وجماعته. وننظر هنا ماذا يقول الشاعر حول ذلك:

يـالله ياللي رد من عقـب ما ياس	يوسـف على يعقـوب وابصر نظيره
تـرد على (ادبـاس) يا محصي الناس	يـا عالـم ما بالخفـا والسريرة
يا ادباس انا با اوصيك عن درب الادناس	تـرى الـذي مثلك يناطـر مسيرة
عليـك بالتقـوى ترى العـز يا ادباس	في طاعـة اللي ما ينجيـك غيره
هاذي ثمان سنين من رحـت يا ادباس	لا ارسالـه جتنـي ولا من بريرة

ثم نجده من شدة وجده يشد على الراحلة ليسافر عند (ادباس) هذا الذي يحن اليه ويتوجد لفراقه فيقول:

**لاركب على وجنا من الهجن عرماس	فجا النحر يا ادباس حمرا ظهيرة**

ثم يطنب في وصف ناقته هذه وهي تقطع الفيافي حتى يصل الى حيث (إدباس)، ويصفها وصفا دقيقا (اي يصف الديرة)، وهنا يستثير همه (ادباس) للعودة الى الديرة.

واذا كانت القصيدة متحركة، وتتعلق بارسال رسالة او خبر، فانه بعد الافتتاح ومشد القصيدة يذكر (من حيث المبدأ) المبرر لارسال المرسال الى حيث يريد ثم يصف المرسال مبررا اختياره على سواه، ويزوده بالنصائح اللازمة ثم يصف (الركوبة)، الناقة او غيرها، وانها خير من سواها، ويطنب احيانا بوصفها حتى يجعلها بمثابة احدى عابرات القارات، او قاهرات الصحراء، حتى تصل هناك، فيصف الديرة التي ارسلها اليها، ويمتدح اهلها، ويعطي المقدمات الطيبة من اجل ان ينتبه الطرف الاخر بمحبة، وبعد هذا المدح للشخص الذي ارسل اليه الرسالة يقول غرضه من القصيدة، ويتمنى ان يعود مرساله ناجحا بالمهمة نجاحا منقطع النظير، وقد يكون وصف الغرض (في العادة) في

البداية ايضا، ويؤخر وصف المرسال حتى يصل الى حيث ارسله قاصدا تكريم ذلك الذي ارسل رسوله اليه بانه اوفد اليه شخصا ممتازا ومهما، لأهمية ذاك في نفسه، ومقامه عنده.

وفي وصف الناقة نجد هذا القول بعد ان يخبرنا انه سيركب عشرة من (الذلول) وهي اغلى من كل ثمن لا تزيد في عمرها عن الخامسة او السادسة ولم تلد اناثها بعد اي انها لا زالت تتمتع بكل قوتها وهي ترعى منذ عامين بالارض المحمية حتى اصبح لها اللحم والشحم مترادفا، متراكما. ثم يقول:

حرايــر اصــل اجدادهــن كاملات لهـن في غربـي شفــا نجــد مسكان
هلهــن شرارات عليهــن اجنات طلبهــن الحــاكم وجنــه بكرهان

وهن من السرعة بحيث يقطعن الفيافي المقفرة البعيدة باسرع ما يكون فيقول

الصبــح من بظحــا نفــى سارحات زهــاب اهلهـن فوقهــن تمــر وادهان
لا عنــدكم خيفــة ولا وانياتي حطــوا سدير يمـين من غـير حقران
والعصر بالصمــان عدل المشات تلقــى العلــوى به طوارف وعربان

وبعد ذلك نجده هنا يرسل سلامه بعد ان تصل الراحلة ويطلب عليه الجواب فيقول:

والى نطحــكم واحــد للمبات قولــوا نحظرهــن على ابــن زربان
ردوا سلام بكاغــد مع دواة على ذوي ناصر وخصــوه فيحان

وهنا يبدأ بوصف القوم بعد ان خصهم وذكرهم وعينهم، وانه يمتدحهم تمهيدا لطلبه الذي يريده منهم فيقول:

اهــل بيــوت بالقصــا بينات يـفـرح بهــن اللي من البعــد جيعان
اهــل اصحــون للفضايــل مواتي يرمـي بهـن اذنـاب حيـل من الضان
الزاويــة تدهــن من الفارعات والبيــت ياقــف مقدمــه فوق جذعان
مــركى دلال نجرهــن ما يبات محماسهـن دايــم على النــار حميان

وهكذا يصفه بالكرم ويطنب في وصف الصحون التي يقدم بها الطعام، وجوانب البيت التي تدلف بالسمن والدهن حيث يمسح الضيوف ايديهم بعد الاكل بها، ثم يصفه انه شوق الطموح التي تترك زوجها من اجله فيقول

شــوق الطمــوح الى عليهــا شفات عافـت بعلهــا ما تبــي منــه ورعان

وفي وصف اخر للقوم الذين ارسل اليهم نجد هذا الشاعر يقول كلاما لطيفا، ولا شك اننا لو نظرنا ببساطة الى الطريقة الحديثة في التعامل السياسي بين طرفين وكيف ان الطرف المحتاج يبجل الطرف الاخر، من اجل تخديره بالكلام للحصول على مبتغاه، لوجدنا ان البدو قد سبقوهم الى ذلك، فهنا عالم العلاقات العامة والمجاملات لا تخلو منه اية احاديث بين طرف محتاج، وطرف محتاج اليه (بضم الميم)، وحتى على مستوى علاقة رجل بانثى فهو يبجلها بما نسميه الغزل من اجل ان يحوز ودها وحبها والتقرب منها،

وبالتالي لما يبتغيه منها، ولننظر هنا كيف يمتدح القوم انهم كرماء، ذلك ان هذه صفة يحب البدوي ان يوصف بها لانه يحب الكرم لما فيه من الصفات الحميدة، والتكرم على الاخرين، والذكر الحسن، واشباع الحاجة في الاسراف والتعويض عن الحرمان، ولما في هذه الصفة من بعد عن البخل الذي يكرهه البدوي، وطمعا في ان يجد التكريم من الاخرين كما اعطاهم من منطلق المصالح المتبادلة، والاحترام المتبادل، او ما يسمى في الاعراف الحديثة (المعاملة بالمثل)، والذي يسميه البدو (مثل ما تراني اراك)، وايضا (اللي يلد عليك بعين لد عليه بعيونك الثنتين).

يقول هذا البدوي ابياتا فيها درس عظيم في المجاملة لا تزيد عليها ولا تفوقها مجاملات العصر الحديث، والفارق بينهما ان البدوية مبنية على الاصالة والنقاء والذكاء، والمدنية مبنية، على المجاملات الزائفة، والمصلحة فقط، وقد يغير كلامه بين لحظة واخرى، اما البدوي فهو مسؤول عن كلامه، ويعني ما يقول ولو كان من باب المجاملات تماما كما يصرح رئيس دولة كبرى تصريحا لصالح طرف في نزاع، فهو وان كان مجاملا، فالعالم تأخذه على محمل الجد، كذلك كلام البدوي يؤخذ على محمل الجد وحتى وهو يجامل، لان مجاملته مبنية على الحقيقة او شيء منها، فلا يصف بخيلا بالكرم لأن الناس تحتقره هنا، وتعتبره منافقا، بينما في المجتمعات الحديثة يمكن ان يصبح (وبجرة قلم) الشيطان ملاكا والعكس، والبخيل سمحا سخيا كريما، والعكس.

كما ان المجتمع البدوي يعرف بعضه وان امتد وتشعب، ويعرف المألوف وغير المألوف بينما في المجتمعات الحديثة كل يوم يأتي شيء جديد وما يكون غير مألوف اليوم يكون مألوفا غدا، وبالعكس ايضا، اي ان العادات والاعراف والتقاليد متغيرة غير ثابتة حتى ان المعروف قد يصبح منكرا والعكس بين سنة واخرى او حي واخر، اما المجتمعات البدوية، فان التغيير يتم ببطء، ولا يكون المألوف منكرا الا ما ندر، وبعد زمن طويل قد يستمر اجيالا، مع هذا، يبقى موضع احترام، انه من تراث الاباء والاجداد الكرام. ولننظر هذا الوصف للقوم

شيالـــة الكايـــد على العسر واللين ... واللى وطاهـــم موجـــب رحبـــوا به
زاد الضعيـــف معهـــم بليـــا مواعين ... وان شافـــوا الضيـــف المطرق عدوا به
واللى تريض يذبحـــون الخرافين ... ومـــن زاد بيـــت الله تقـــرش عصوبه
واللى عطـــوا يعطـــون روس البعارين ... وان فات منهـــم شيء ما حسبـــوا به
مـــا هم بربـــع بالمحـــاضر قصيين ... لـــو الحصـــل احمـــار تخـــاسروا به

ونجد من أهم ما يوصف به القوم بالاضافة الى الكرم والسماحة والسخاء، يوصفون بالشجاعة والرجولة ذلك (ان السيف، واطعام الضيف) من اهم الامور، وكذلك الامور اذا كان شخصا يوصف انه (شوق الطموح) او شوق الفتاة الجميلة التي لا تقبل احدا، او التي لا يصل اليها الا من هو لها، وكفوا لخطبتها، ونيل حبها وقلبها، وهنا نجد وصف الشجاعة فيقول:

واللى تعلـــوا فوق مثـــل الشياهين ... صـــاروا على بعض القبائـــل اعقوبة

وان قيل عند اقطيهن يا هل الدين فالمرس الى من قديم دعوا به
ردوا عليهن ردة تعجب العين كل يبا النوماس قدم امحبوبه
ولحدودهم بمطرق الحد حامين وقب تبدا من برايـر كسوبه

وبعد وصف القوم نجده هنا يبين هدفه من ارسال المرسال والرسالة فيقول:
جاني خبر يا حامي الجاذياتي عما جرى لك بالعودة من الشان
البكرة العفرا الشناح الفتاة اللي غدت لك بين رمل وقطان
دورت لك بمقومين الصلاة اتعبتني من بين حضر وبدوان

ويتصف هدف القصيدة انه يختلف حسب غرض الشاعر، وقد يكون غرضا واضحا (تصريحا) او غامضا (تلميحا) اي انه استنتاجي، يفهمه السامع من خلال القصيدة جميعها، وقد يكون بالحب او اسداء النصيحة، او الطلب، او ارسال شيء، او التذكير بامر ما، او اشعار الخصم او الصديق ان هذا موجود، وربما يكون حديثا عن الماضي، او توقعات المستقبل، ولا شك ان ذلك من الصفات الجيدة في القصيدة البدوية لانه يعني مرونتها ومرونة الشاعر البدوي على التكيف مع الظروف والاغراض والتطورات والاحوال. كما يتضمن مسار القصيدة ايضا المكان المقصود، وربما تحديد الزمان بالعصر او المغرب، او طلعة النجمة.

والعصر بالصمان عدل المشات تلقى العلوى به طوارف وعربان

واخر يقول:
تاطا ولا ياطا على القاع خفها كما غصن موز من النسيم يميل
سقا الله واد للحجاز مقابل ابو سلم من داجي الغصون ظليل
تلقى بني البدو يلعبن حولها ويهزن من اغصانها وتميل

وهنا نجد الغرض من القصيدة التقرب من المحبوب، وذم اهل النميمة فيقول:
على الذي بيني وبينه مساواه لا هو برايدني ولا احرزت اروده
ما غير يرعاني بعينه وانا ارعاه والكل منا ما يبين اسدوده
ليته الى كزيت له خط يقراه ايضا ويعطيني حرايض اردوده
لا شك من دونه نواطير واعداه اللي من اقصى الناس واللي اجنوده
كثر النمايم سببت قصرة اخطاه واللي صفا لي في ليالي سعوده

وهكذا نرى القصيدة البدوية تبدأ بنمط معين ثم يكون لها مسار يتضمن عدة امور تختلف باختلاف الغرض والشاعر، والمكان والزمان، والهدف، والطرف المرسل، والمرسل اليه... الخ، ثم ينهي البدوي قصيدته كما سبق وقلنا بالصلاة على الرسول (ص) وذكر الله سبحانه، احدهما او كليهما او بدونهما، وقد سبق وتطرقنا لهذا الموضوع.

وهو قد يتطرق اثناء وصفه للاجزاء الرئيسية بوصف الجزئيات حتى البسيطة منها، فقد يصف الناقة، وسيقانها، وانفها، وشحمها ولحمها، وسنامها، وعنقها وخفها.... الخ ثم يتطرق الى الخرج، واهدابه، وغزله وصوفه، وسعته، ومحتواه...الخ ويصف



الباحث يستمع الى سرد الروايات في امور التراث (١٩٧٥)

الرسن وقوته واهميته ودوره في قيادة الذلول.... الخ. ويصف الرسول وذكاءه، وانه من (الشباب النقية، او الشفية) اي منتقى، ويشفي الغليل، وكما يقول (ارسل لبيبا ولا توصه).

وقد يصف المحبوبة التي يرسل اليها رسالته ولا يترك فيها فما او رمشا او حركة او طولا او خصرا او عينا او عنقا، او شعرا الا ويصفه ليعطي المبرر للسامع انها من الاهمية ما تستحق عليه ان يتوجد عليها ويحبها.

وهو يصف القوم (الاصدقاء او الاعداء) ولا يطعن بهم الا ما ندر، ذلك ان البدوي مهذب في حديثه وذمه ومدحه، وحبه وكرهه، وهو لا يبالغ بالمستوى الذي يبالغ فيه غيره من ابناء المجتمعات الاخرى، وسبق وذكرنا السبب.

ولا شك اننا لم نف القصيدة البدوية حقها في هذه العجالة، ولكنها محاولة اخذت مني كثيرا من الوقت والجهد.

والبركة والخير فيمن يأتي بعدنا لعمل دراسات خاصة ومطولة عن القصيدة البدوية، وقد يختلف او يتفق معنا في كثير مما ذكرنا، لكنه بالتأكيد لن يخرج عن هذا الاطار والنقاط الرئيسية التي اوردناها.

الفصل الثاني

أوزان الشعر البدوي



الفصل الثاني

أوزان الشعر البدوي

يتميز الشعر البدوي عن الكلمة المنثورة، انه موزون، هذا الوزن الذي يجعل له نغمته الخاصة، وايقاعا يضطر سامعه اذا انسجم معه ان يكون لديه رد فعل بالتجاوب فيعبر عن ذلك بحركات معينة قد تقتصر على الرأس او الايدي او الارجل او كافة اجزاء الجسم، او تكون الحركة لاحد الاعضاء بصفة رئيسية وتتحرك بقية الاعضاء بصفة ثانوية، وربما يردد مع هذه الايقاعات كلمات تتناسب معها.

والبدوي كاي انسان يطرب للصوت، والموسيقى، فهو يأنس احيانا حتى بصوت الرمال التي تسوقها الزوابع، وتارة لرغاء الناقة والجمل، وثغاء العنز والغنم، انه يضع الاجراس المسماة (جرس، نحلة، قرقاع) في اعناق الاغنام، ويطرب لصوتها وهي تتحرك. ويتغزل بتغريد العصافير، ونغمة صوت الفتاة الجميلة، والحادي ليلا، او نهارا، واهازيج العرب، وصلصلة السيوف، ولعلعة الرصاص، انه احيانا يطرب لانات عدوه تحت سيطرته وسطوته... هذا البدوي يحب الموسيقى بطبعه، فلا تجده في غالبية وقت فراغه الا ويختلق المناسبات التي ترفه عنه، وتخفف متاعبه وشظف عيشه، انه يحب الموسيقى ويمارسها بشتى الصور ومنها جرات الربابة، او صوت الناي او الشبابة، واحيانا صوت بدون هذه، واحيانا بالهدوء، لأن الهدوء لغة وموسيقى، والصمت لغة وموسيقى ايضا، والبدوي فهمها واحبها قبل غيره، ففي العالم المتمدن يبحثون عن الهدوء في جنبات الريف والصحراء، والمزارع، والغرف ذات الجدران المغطاة بعازل الصوت من اجل راحتهم وتأملاتهم بعيدا عن الاضواء والاصوات، حتى ان معلمي رياضة اليوغا التي تعتمد على التأمل والصمت، لا تزيد عما يعرفه البدوي احيانا في هذا المجال... وكذلك الزهاد الذين يجدون في الوحدة والوحشة، والبعد عن الانظار، والاصوات والاضواء، لا تزيد حياتهم بذلك عما يمارسه البدوي بعيدا عن التسويات، والفلسفات الفكرية... انه مفكر بطبعه، وزاهد بطبعه، وموسيقي بطبعه... ان صوت الطبيعة من الريح الى الهدوء، وحفيف اوراق الاشجار وحتى نعيق الغراب، كل ذلك موسيقى بدون الات مصنوعة، بالاضافة الى تلك الصادرة عن الالات المصنوعة.

وقد اضطر البدوي للتكيف مع هذا الوضع، فأوجد الكلمة التي تناسب هذا اللحن الموسيقي سواء الذي يشعر به من الطبيعة، او الذي اوجده هو متناسبا مع الحركات الصادرة عنه.... واوجد الالة التي تناسب اللحن والوزن. والحركة، فكانت الات الحركة، والات الثبات، وقبل الحديث عنها لا بد لنا ان نلقي الضوء على معنى الاوزان، وهل نستطيع تسميتها بالجرات؟

والحقيقة ان كلمة الجرة تعني ما يجره البدوي على الربابة، والجرات جمع لكلمة (جرة) وهي الالحان التي يعزفها البدوي على الة الربابة. وهي الة جر لأن اللحن يصدر

عنها بعد جر سلك على سلك، بينما اللحن الصادر عن الناي والشبابة هو (عزف) لانه نفخ في قطعة جوفاء من القصب او المعدن، فيخرج صوت يختلف تماما عن صوت الربابة، وان كان بالامكان عزف اللحن او الوزن على كلا الالتين (الة العزف، وآلة الجر).

ولا شك ان للجر اهميته عند البدوي، بل انه قد يصل الى القداسة احيانا، لان الربابة هي مؤنس الجليس، وتساهم في جلب السرور والسعادة، وطرد الهم والغم والنكد، وتذكر الغياب، وتزيد الفرحة بلقاء الاحبة، والغائبين، وتحمس القوم للاقدام الى المعركة والحرب، انها الة القوم العقلاء، والشيوخ، والشعراء، والمجالس الرزينة، لأن الجر يكون في مجلس القوم، في الشق، او في اي مكان اخر، ولا يكون الا وهم جلوس، او وصاحبها جالس لأن طبيعة الجر عليها تتطلب ذلك، وان جر (النور) عليها احيانا وهم متحركون.

ومن هنا فمن الخطأ ان نطلق كلمة (الجرة) او (الجرات) على جميع اوزان الشعر البدوي لأن هذا اللفظ يطلق فقط على الاوزان المتعارف عليها للربابة، فالمبدأ فيها اوزان محددة تجر على الربابة، وان كانوا في العادة (يجرون) اوزانا اخرى على الربابة، والتي هي اداة موسيقية (يجر) صاحبها ما يناسبه ويطرب له. اما العزف فالاصل (المبدأ) فيه ان يكون للاوزان المتحركة التي تحتاج الى حركة عضو او اكثر من عضو مع اللحن.

الامر الاول ان اوزان الشعر البدوي تنقسم الى قسمين هامين وهما:

اوزان الشعر البدوي المناسب لقوله في حالة الثبات او الجلوس. واوزان الش البدوي المناسب لقوله في حالة الحركة، والتي قد تكون حركة بسيطة، او عنيفة، وسنأ على ذلك بالتفصيل باذن الله.

والامر الثاني: ان هذه الاوزان يمكن التعبير عنها بوسيلتين هما:

وسيلة الجر: واداته الربابة وهو في المبدأ (الاصل) يكون للاوزان في حالات الثبات، وان استعمل في العادة للاوزان في حالة الحركة اي التي تحتاج للحركة.

وسيلة العزف: واداته الشبابة والناي، والاصل فيه (المبدأ) يكون للاوزان في حالات الحركة، وان استعمل في العادة للاوزان في حالة الثبات.

واذا اردنا ان نصنف الاوزان حسب اهميتها فان الجرات تأتي بالدرجة الاولى لأنها وسيلة طرب علية القوم في المشيخة والعلم، والحكمة والسن... الخ وهي تعبر عن الرزانة، وتكون في المجالس، والثبات.

ثم يأتي العزف بعدها لانه في المبدأ المعبر عن الحركة والجهل (اي الطرب الصبياني) والدبكات، والسفر، والمشي (كالراعي المتحرك مع غنمه، او العزف المرافق لصوت الحادي مع ابله)

وكل من الجرات والعزف تكمل الواحدة الاخرى، وهي امتداد لها، فالانسان هو الانسان. سواء في الصحراء او المدينة، وان جعلت الطبيعة والبيئة والظـروف الاختلافات، والتباينات، فكما يطرب الراعي لا بد ان يطرب الشيخ وكذلك العكس، والعجوز والطفل، والشاب، فوجدت بذلك العاب تتناسب مع السن، والتنظيم الطبقي،

فالشطرنج مثلا يكون عند علية القوم، وكذلك عازف الربابة (المصيت) اي العازف الشهير، والشاعر الشهير القوي، بينما في الطبقات المسحوقة قد لا تزيد الربابة عن صوت يحن ويئن.

وعند الشيوخ نجد المسابقات بين الشعراء، ومن يجر على الربابة...الخ فهم يدفعون جوائز للفائزين هي مكافآت قد تكون مادية او (حوطة نخل)، او ابل، وربما فتاة من العشيرة... حسب الشاعر وقوته واهميته، واهمية ما يقوله وينطقه، وتأثيره في نفس الشيخ والحضور والقوم.

ان الطرب شيء اساسي في حياة الانسان وفي الوجود، حتى كل المخلوقات تطرب لشيء معين، فالابل تطرب كالانسان للحداء (والتهوهي) وهو ما يقال للابل، كما تطرب الماعز لاصوات الاجراس، وتطرب الخيل لاصوات الفرسان وصيحاتهم، حتى ان الفارس يقال عنه لديهم (مطرب الخيل)، ويقال (الحس عند اقطيهن)، جمع قطاة وهي مؤخرة الفرس، والمقصود ان الفارس يغلب اعداءه ويهزمهم، فيصيح بخيله ان تلحق، وبخيل عدوه ان تهرب اكثر.

وفي الاولى نجد قول البدوية (انا حليلة مطرب الخيل سعدون لا هو دويني ولا منكوا دون ولا هو قريب الشوف للاجنبية)

وفي الثانية نجد قول البدوي (لصار عند اقطيهن حسن جلعود)، وهو اسم شخص يوصف بالفروسية والشجاعة.

وقد بدأ البدوي اداة طربه من الجلد والشعر وهو المتوفر لديه فوضع جلدا على عظم، ثم ربط فوقه شعرا طويلا، فحركه فكان له صوت، واستعاض عن يده بشعر اخر مشدود الى قوس، وباحتكاك الشعر ببعضه يتجاوب الصوت الصادر مع تجويف الجلد، فتكون بذلك الجرة، وتكون الالة كلها اسمها (الربابة) وهي في اللغة واحدة الرباب للسحاب الابيض، والرباب هو السحاب الابيض، وايضا الة طرب،.... هذا بفتح وتشديد الراء وفتح الباء، اما العامة فيلفظونها بكسر الراء وتشديدها، واحيانا ما بين الكسر والضم، واما بالكسر فمعناها في اللغة: الاسم من الرب، والعهد، والمملكة، والتسمية جاءت للبدو ربما من اسم صانعها، ذلك انها في العادة يصنعها جماعة من النور يسمون الصناع، ولهم اسماء كثيرة من جملتها (الرباب) بتشديد الباء الاولى والراء اي الذي يرب (ينظف) الاواني خاصة النحاسية منها، فهو صانع للشباري واحيانا للسيوف، وللربابة والشبابة، وارى ان الاسم جاء ايضا من (رب) اي تنظيف القلب من الهموم، فهي تزيلها اي (تربها بتشديد الباء)

ويمكن لنا ان نتصور او نتفلسف، كيف ان الانسان قد احب اصوات الاشياء والحيوانات من حوله، وكيف انه ربما بالصدفة طرب لاحتكاك الاوتار ببعضها، وتطور ذلك الى صنع الالات الموسيقية الوترية، حتى اصبحت الة الربابة، بما فيها من تزويق، وترتيب، واختيار جلد الغزال، او شعر الفرس والحصان بدل الجمل والناقة والانثى، وهذه الاوتار من الشعر لا بد لها ان تكون قوية مترابطة مشدودة، لا تخلو من الرطوبة

شبه الجافة لذا استعملوا (اللبان) وهو عبارة عن صمغ وشب معا، مما يزيد في شد الاوتار، فتخرج منها اصوات جميلة ولطيفة، وتحتاج هذه الاصوات او الانغام للترتيب وهو ما يتم بطريقة التنقيط من اليد الموجودة في الطرف العلوي للربابة اي قرب نهاية الوتر من الاعلى فتتناسب الموجات الصادرة عن تصادم اليد بتلك الصادرة عن احتكاك وتر القوس بوتر الربابة، فيخرج الصوت المسمى (الجرة) وهو وزن شعري ولحن موزون.

اما الربابة نفسها فهي مؤلفة من عنصرين الاول ثابت وهو جسم الربابة (هيكلها من الخشب او العظم) ثم الجلد الذي يغطي هذا الهيكل، ثم الوتر المشدود، ثم قطعة خشب رقيقة محدبة ترفع الوتر في اسفل جسم الربابة، بالاضافة الى العمود الرئيسي الذي تشد اليه الاوتار وجسم الربابة.

اما العنصر الثاني فهو متحرك ومؤلف من قوس مشدود الى جسم الربابة، وتر من الشعر وعارضة خشبية قصيرة مربوطة باعلى العمود الرئيسي ومربوط اليها الاوتار، وتتحرك بحيث تشد الاوتار او ترخيها. وهكذا نجد الثابت والمتحرك كل منهما يكمل الاخر.

وكذلك الامر بالنسبة للشبابة والناي فهناك الجسم الثابت من المعدن او القصب (الناي احيانا يصنعها البدو من سيقان اللقلق[1])، وفي نهاية الناي توضع قصبة صغيرة قصيرة، مشذبة بشكل خاص وتسمى (عفيطية) لأن صوتها رفيع وضعيف وهذا ما يسمى عند البدو (تعفيط)، وفي الاستهزاء بالشخص ووصفه كمجنون او مخبول يقال عنه (معفط) بتشديد الفاء اي خفيف العقل، مختل التوازن.

وتمتاز الربابة ان صوتها مميز عن بقية ادوات العزف، ويمكن جر اللحن البطيء او السريع عليها، والهادىء والصاخب، والقصير الوزن، والطويل الوزن من الشعر واللحن، وبصوت الربابة تجود قريحة الشاعر البدوي، فيقول الشعر الحزين او الحماسي او الغزلي، وسنذكر هذه المميزات بشيء من التفصيل بالاضافة لما ذكرنا.

وتكشف الربابة عن هوية المجهول: فقد يأتي شخص عند قوم لا يعرفونه، وبالطبع فالبدوي لا يسأل ضيفه الا بعد ثلاثة ايام وثلث، ولكن صوت الربابة قد يكشف الامر بثلاث طرق هي:

اما ان يتناول الشاعر او البدوي المجهول الهوية ربابة معازيبه عندما يغيبون او ينامون ويعزف عليها فيبين من هو؟، او ما هو غرضه؟ او يبلغ رسالة الى اهل البيت بدون ان يفهمه الاخرون ثم يعيد الربابة الى مكانها لذلك فالبدوي عند الانتهاء من العزف على ربابته يعلقها في واسط البيت وتكون في متناول اي واحد في الشق[2]، **وهذه في حالة**

---

١) ان الناي عند البدو يطلق بوجه عام على الة العزف المصنوعة من القصب او سيقان اللقلق وهي ذات اصوات جميلة لانها اصلا رفيعة، وهي نوعان الاول مفرد، والثاني مجوز وتسمى الاولى الناي، وتسمى الثانية الناي المقرون او المقرون وذلك لانه يتالف من قصبتين مربوطتين معا.

٢) الشق هو المكان المخصص لجلوس الرجال، ويسمى عند البعض (ربعة البيت) على انه مجلس ربع اي جماعة الشخص، بينما تسمى الربعة عندبعضهمتلك التي فيها الحريم اي (المحرم) والشق من حيث المبدا يكون على يمين البيت لانه مجلس الرجال، والمحرم على يساره لانه مجلس الحريم، ولكن بعض البدو من عاداتهم وضع الشق على يسار البيت، ولا مجال للخوض هنا في السبب.

التحسر، والحنين للايام الماضية، وفراق الاهل والاحبة والوقوع في المصيبة.

والطريقة الثانية هي الدور: اي ان يبدأ الشاعر في المعازيب بالعزف على الربابة، وبعد ان ينتهي من قوله الذي يحلو له، يناولها لمن هو بجانبه، وهكذا حتى تصل الشخص الغريب المجهول، فاذا عزف عليها فقد يبين من هو؟ وقد يبين غرضه، وقد يبتعد عن كل ذلك، وهنا يكتنفه الغموض، وتدور حوله الشكوك والتساؤلات ويأخذ البدو حذرهم منه، لأنه (في العادة) اعطاء الربابة يعني السؤال بادب او بطريقة غير ظاهرة عن هوية الشخص وقصده؟! وهذه في الحالة البطيئة عندما لا يكون الشخص مستعجلا على الحصول على قصده ومرامه من معازيبه، او انه لا شيء عنده يقوله، لذا يخجل من ذكر هويته.

والطريقة الثالثة: هي ان يطلب العزف على الربابة هو بنفسه، وهذا في الحالات التي يكون في الامر تحد، كأن يقول احد المعازيب شيئا مقصودا او غير مقصود بالضيف كلاما سيئا، والبدوي يأبى الضيم، فيطلب الربابة ليقول شعرا يرد به على الاتهام. وربما يكون الطعن بعشيرته، او حبيبته، او شخصه او صديقه، وربما يكون هناك تساؤل حول الشخص، ويبدو اهتمام المعازيب بمعرفة هويته، فيقول ذلك شعرا ولحنا، ومن ذلك ان شاعرا مشهورا وكان فارسا، يدعى (خلف) دخل عند احد اعدائه، فشكوا به، وتساءلوا من يكون، وكان يحب ابنة المعزب فسألوها ان كان هذا هو (خلف)؟! وعندما اطلت عليه من فوق الساحة، فاذا به هو.. وهنا احبت انقاذه فقالت: هذا (عبد من عبيد الموالي) وليس (خلف) الذي تطلبونه... انه عدوهم، واذا عرفوه فهو في خطر لأنه قتل عددا كبيرا من فرسان قبيلة معازيبه، وقد وقع صدفة هنا، وغضب خلف وطلب الربابة واخذ يجر عليها ويرد على الاهانة بقوله:

استغفري يا بنت يا ام العشاشيق   من قولتك لي عبد من عبيد الموالي
انا خلف يا بنت لا يبست الريق   حمايهن لاصار بيهن جفالي

والقصيدة طويلة، ويهمنا هذين البيتين فقط، فهو يرد على الاهانة ويطلب من البنت ان تستغفر ربها لهذه الغلطة الكبيرة، فيقول لها: ايتها الفتاة الجميلة التي يتهافت لعشقك الشباب، وتقبلين ذلك منهم، استغفري ربك لذنبك ان قلت هذا عبد من عبيد الموالي. ويرد بقوة وعنف وشهامة غير ابه بالنتيجة ويقرر حقيقة هويته بعد ان عرف الان انه بين يدي اعدائه - يقول: (انا خلف) مهما كانت النتيجة، وصفتي الشجاعة وحماية الابل والرجال والنساء اذا استعرت المعركة واحتدم اوارها.

وهكذا فالربابة وسيلة لجر رجل الضيف المجهول ان يكشف عنه قناعه فيعرفون من هو؟

والربابة في المجالس: شيء مهم واساسي، واذا كانت القهوة مفتاح الكلام عند البدو، فان هذا الكلام لا بد ان تتخلله قصة وقصيدة ثم لحن على الربابة، فالربابة احدى مقومات المجلس البدوي: فالقهوة والقصة والربابة لا يخلو منها المجلس البدوي او قل

التعليلة البدوية، وليس هذا غريبا، فنحن نرى في العصر الحديث كيف ان اي برنامج لا يخلو من موسيقى او لحن او عزف او اغنية، على ان الموسيقى شيء اساسي في حياة المستمع او المشاهد، والبدوي ادرك هذه الحقيقة لأنه انسان يعيش بقيم عالية وعقلية صافية، فجعل من اللحن وسيلة ترفيه وطرب وحزن ايضا.

وقد تكون الربابة مصيدة للانسان سواء اكان معروفا او غير معروف لامتحان قدرته على العزف، وقول الشعر، وجزالة اللفظ، ومعرفة الغرض والقصد، فاذا تناولها هذا الشخص فهذا يعني الافصاح عما في نفسه، وفي العصور الحديثة نجدهم، يضعون اوراقا واقلاما على مناضد، ويجعلون الشخص المعني ينتظر، متعمدين ذلك، مدة غير قصيرة، فقد يكتب شيئا، او (يخربش)، او يوقع توقيعه فقط، ومن خلال كل هذا قد تكشف حقيقته، ورغم ان هذه طريقة معروفة لدى العصريين الا انها في رايي المتواضع اقل اهمية وخطورة وايجابية من الجر على الربابة، فالاسلوب العصري قد يفهمه الذكي ويتصرف بما لا يستفاد للاخرين منه شيئا، الا ان الربابة تعطي الراحة والطمأنينة لمن يجر عليها، وتنفس عما يعانيه من هموم ويكون بذلك الحكم عليه من القوم صائبا، اما الطريقة الحديثة فقد تكون اقل صوابا، ونتيجتها اقل ايجابية من تلك، وببساطة فالربابة مصيدة مؤدبة مهذبة.

واذا نظرنا الى اهمية وجود الربابة في المجالس: فانها وسيلة لطيفة وترفيهه وضرورية، ونحن نجد حتى في المجتمعات التي تقول عن نفسها انها راقية، حفلات النوادي، واماكن العبث واللهو قوامها المشروب والرقص مع الموسيقى، والغناء ولكن تتميز هذه المجالس او الحفلات بانعدام الشرف والكرامة، والبحث عن الجنس والتلذذ باجساد الحسان، اما مجالس البدو فمشروبها القهوة، ولحنها الربابة الرزينة الهادئة كما انه لا يكون فيها اي خدش للكرامة او الشرف، وما يعتبر هنا منقصة اخلاقية يكون في عرف المجتمعات التي تدعي الرقي شرفا اخلاقيا، ووسام شرف؟!

وحول معرفة الهوية. واخذ الربابة ليلا بعد نوم القوم، ما حدث مع احد الشباب البدوي، وكان شيخا، تخفى ليكون صانع قهوة لدى والد الفتاة التي تحبه ويحبها، والرجلان لا يعرفان بعضهما بالوجه، ثم عمل في وقت الربيع بجمع الحشيش للخيل (حشاش)، ويقول هذا الشاعر:

يـا ون ونـة من سرى الليـل حشاش عقـب الحيـا يطلـع على كل منقود

فهذا البيت يعبر عن المه لفراق اهله، وانه بعد ان كان يستحي على نفسه من ممارسة اعمال الخدم والعبيد، اصبح يمارسها رغم انها منتقدة عليه ان يفعلها، **لانها** ليست له ثم يواصل الافصاح عن شخصيته فيقول:

لـذات بالدنيـا معاميـل وفراش وصينيـة يدرج بهـا العبـد مسعود

فالكيف واللذة والطرب ان تكون هناك دلال القهوة جاهزة باستمرار، مع فراش وثير، ثم صينية عليها الفناجين يقدمها العبد مسعود، وربما يقصد بالصينية هنا المناسف التي يتقدم بها لضيوفه، وهذه الامور لا يطلبها الا من عرفها فهو شيخ اذن، ثم يواصل

الافصاح عن هويته فيقول

شفـي بصفــرا باول الخيــل تهتاش   لصــار عنــد اقطيهــن حســـن جلعود

فهو يتمنى (شفي) فرسا صفراء اصيلة تكون باول الخيل (فهو قائد يقود جماعته ويكون بأولهم) هذه الفرس (تهتاش) اي تتقدم للمعركة برغبة جامحة، خاصة عندما يحدث في المعركة ان ينتصر جلعود فتولي خيل عدوه الدبر، ويصيح جلعود عليهم... وهكذا عرفت الفتاة ان هذا جلعود، وان جامع الحشيش للخيل ما هو الا الشيخ الشاب الذي تحبه واوصت اليه ان يأتيها.

وحول معرفة الهوية بالعزف على الربابة بالدور نجد هذه الحادثة: شاب بدوي تزوج ابنة عمه ثم حدث ان قتل احد اخوتها، (فجلى) اي ذهب الى مكان خارج مضارب عشيرته، وبالطبع بقيت زوجته عند اخوتها، وبعد عدة اشهر ظهرت انها (حبلى)، فتآمر اخوتها لقتلها الا ان احدهم رأى ان يسألها، فقالت: ان ما في بطنها هو من زوجها، فأرسلوا الشاعر منهم الى حيث المضارب التي بها ابن العم (الجالي). وجلس في نفس المجلس ودارت الربابة حتى وصلت الى شقيق البنت الضيف وسأل بالشعر - سأل ابن عمه ماذا فعل مع زوجته مخاطبه كذئب:

يــا ذيــب يالي تالي الليــل عويت   ثــلاث عويــات طويــلات وصلاب
انــا أســألك بالله بعدهــا ويش سويت   ....

ويحكي له قصة الفتاة الحبلى وانها قالت ان ما في بطنها من ابن عمها زوجها، وعندما وصلت الربابة عند ابن العم اجاب بنفس الوزن والقافية واعترف ان ذلك منه، وانها بريئة من كل دنس، ثم عاد شقيق الفتاة لاخوته وعفوا عن ابن عمهم، وعاد وعاش معهم بقية حياته، وانقذ الله حياة الفتاة البريئة.

وللربابة دور كبير في انها وسيلة لمعرفة الغرض الذي يقصده الشخص، فالكلمة تعبير عما في النفس، وهذه تكون أبلغ وأهم كثيرا عندما تكون موزونة، وأعظم بلاغة وتأثيرا، عندما يقترن الوزن باللحن الشجي، خاصة اذا كان الوقت ليلا.. فقد يأتي البدوي وهو يريد أمرا ما، ويقوله شعرا مع الربابة ليكون أبلغ وأوقع في النفوس، وتصبح إمكانية الحصول عليه متوفرة اكثر مما لو كان بدون ربابة.

وللربابة أهمية في الطرب: فهذا الصوت يريح سامعه، ويبعد عنه الهم والغم والنكد، خاصة مع فنجان القهوة، مع قصة جميلة (تعليلة) فهذه كلها متممة لبعضها في مجالس البدو... انها وسيلة الطرب الفضلى في المجالس الرزينة، للنساء اللواتي يستمعن لذلك من خلف الساحة، وللرجال الذين يستمعونها مباشرة في مجلسهم، ولسائر ابناء الحي في البيوت الاخرى، انهم جميعا يستمعون اليها، ويتعللون ويطربون او يتحمسون او يبكون وهم قريبون او بعيدون.. واذا كانت النوادي الليلية والملاهي في المدن يختلط فيها الحابل بالنابل ذكرا وانثى، لكي يطربوا او يعبروا عن طربهم فان الامر مختلف تماما في مجالس البدو، فهم يشاركون بالطرب، ولكن برزانة، كل في مكانه (اقصد النساء

عامة) والاطفال وهؤلاء قد يتجمعون خلف الرجال في المجلس، اما الحضور من الرجال فهم يستمتعون مباشرة بذلك، وبهدوء بعيد عن صخب الملاهي وازعاجه.

والمجلس البدوي حول القهوة والربابة ينتهي بدرس كبير (قصة حب شريف، او غزو وحرب ورجولة وشهامة وكرم) وهذا مفيد للجميع ليقتدوا بهم، اما نتيجة الجلسة في الملاهي الحديثة فهي الخسارة، واللااخلاقية، ولا درس مستفاد من ذلك والجلوس فيها لا يكون الا للقادر على الدفع بينما مجلس البدو مفتوح للجميع مجانا، لأنهم اسرة واحدة، وهذه (المجالس مدارس)، انها مدرستهم الكبيرة من خلالها يكون صنع الرجال، وتعليم الرجولة. ويكون الطرب فيها بعيداً عن الابتذال والكلمات البذيئة، لأن ذلك مرفوض اصلا في عرف البدو، علاوة على ان الحريم يستمعن لكل هذا ومن العيب ان تقال كلمة منافية للحياء والاخلاق، على مسمع الاناث سواء من المعزب او من الحضور.

وللربابة دور في تحديد المجلس، وتحديد الحديث ايضا، فاحيانا يضطر الشيخ لتقريب الشاعر الذي يجر على الربابة، لأنه (الشيخ) يعشق الربابة، ويريدها قريبة من اذنه وقلبه واحساسه، ومن هنا قد يجلس الشاعر على يمين الشيخ اي بدلا من شيخ اخر من القبيلة، وربما قبالة الشيخ، او بجانب نقرة النار او في عرض المجلس، ولكن اذا كان الذي يجر هو الشاعر فقط، فصاحب الصلاحية الاولى في اعطاء الامر او ايقاف الجر هو الشيخ او (عقيد القوم) او (كبير القوم)، وقد لا يرغب في رفع صوته لذا يكون الشاعر قبالته لتلقي الامر بالاشارة، او بجانبه لتلقي الامر ايضا بالاشارة او الصوت، واذا كان هناك اكثر من شاعر فالمفضل ان يجلس كل واحد في طرف من المجلس، وان كان من الممكن جلوسهما في طرف واحد او بجانب بعضهما.

واما دورها في تحديد الحديث، فان سرد القصة التي عادة تنتهي بقصيدة، تكون هذه موزونة وعلى الربابة، لذا فان احاديث الحب والغزو، والحكمة لا بد وان تنتهي بابيات شعرية ثم بلحن شجي او مطرب من اوتار الربابة تماما كما سبق وقلنا انه في البرامج الاعلامية المسموعة والمرئية لا بد من فواصل موسيقية بين الفقرات المختلفة، وليس لابناء الحضارة المادية فخر هذا الامر وحدهم، بل ان البدوي في خيمته يسلك نفس الاسلوب ولكن على طريقته هو، وليس على طريقة الاخرين، وقد سبقهم الى ذلك بحقب طويلة واذا كان الحديث حماسيا او حربيا نجد اللحن حربيا، وكذلك الغزلي او النصائح او الشروقي... او ما الى ذلك.

ولها دورها في القهوة، فاذا اجتمع القوم للقهوة فغالبا ما تكون الربابة ملازمة لها فهما من باب الكيف عند البدوي، فاحيانا يقال في القهوة دلال الضيف، او دلال الكيف، فالارتياح برشف قطرات القهوة لا بد ان يرافقه ارتياح للاعصاب والاذن بهذا اللحن اللطيف الجميل، والقهوة تسبق الربابة (من حيث المبدأ) لأنها في قداستها لا يعلوها كيف الا الكيف بالنساء، والذي يكون بالغزل او التشبب او الحديث العادي او النكاح والنظر العادي او ذكر المرأة...الخ

وصوت الربابة يسمى الحنين، والأنين والونين ايضا، وهو مأخوذ مما يشعر به البدوي من اعماقه.

ففي حالات التألم، والشكوى من صروف الدهر، والفقر وكيد النساء وقهر الرجال والمرض، والالم بوجه عام، فان ذلك انين يئن مما به، فكان صوت الربابة مترجما حقيقيا لما في نفسه، ومعبرا حقيقيا عما في اعماقه.

وفي حالة الحنين الى الاهل والاحبة، وعند الفراق، والامل بالتلاقي، بحيث لا يملك الانسان ان يحن لما فقد او افترق عنه خاصة وان البدوي انسان صاحب عاطفة جياشة، ووفاء حتى للمنازل والدمن فانه يحن للاهل، للمنازل، لايام زمان، للشباب، لايام الطفولة، الى ليالي الانس مع الحبيبة، الى الاخوة، فالربابة بصوتها الشجي تترجم ما في اعماقه.

وفي حالة الونين، وهو عندما يضطرب الانسان لا يدري ما يصنع، ويكون في دوامة، فيفرج عنه سماع صوت الربابة، ليقرع صوتها مسمعه وقلبه فيطرد ما سواها، اي تعتبر بمثابة تفريغ للشحنة التي لديه، فيصبح لديه استعداد لان يعيش ما في نفسه من امال، وطموحات او افكار قد لا تتعدى البحث عن ناقة مفقودة او حبيبة زوجها اهلها لمن لا تحب؟!

ان الربابة اداة معبرة عن نفسية البدوي والامة وآماله، واحزانه وافراحه، كل ذلك بكلمة موزونةملحنة.

وللربابة دورها في الحرب، فهذا الشعر الحماسي الذي يحرك العواطف الجياشة، فهو كلمة مع لحن، تماما مثل الكلمات الوطنية التي تصبح اغاني تذاع في اوقات الحرب والمعارك فتساهم في رفع معنوية الجندي واقدامه، هذا في الجيوش والدول العصرية... وكذلك الامر بالنسبة للبدوي، وهذا دليل على اهمية وارتفاع ذوقه في اخذ اهمية كبيرة للكلمة واللحن.. ان ذلك يعطي شعورا بالاعتزاز، وحب لتقديم مزيد من التضحيات. وكم من وتر ربابة صنع اكثر من طلقات بندقية او حد سيف، وكم من صوت شاعر كان اقوى من اصوات صليل السيوف وازيز الرصاص، تماما كما هو في العصر الحديث كيف يختارون صوتا اذاعيا، ولحنا حماسيا، ليساعد على ايجاد الشعور بالعزة اثناء الحرب والمعركة.

وللربابة دورها في الحب: فكم من فتاة عشقت الشاعر لصوته وصوت ربابته، وكم من لحن وكلمة عبرتا عن حب شيخ او فرد عادي لفتاة من داخل او خارج القبيلة؟.. ان الحب كما سبق وقلنا احدى عناصر الكيف عند البدوي، وهو متمم ومتصل بالربابة ولحنها وشعرها... وكم من الغاز قيلت لحنا على الربابة بين الشاعر لنفسه او لمن ارسله (كمرسال) وبين ابنة الشيخ ان وجدت.

هذا بالاضافة الى ان المناسبات بوجه عام كما انها لا تخلو من الولائم والطعام، كذلك فانها نادرا ما تخلو من لحن الربابة، ففيه اضرام الحماس في الحرب والافتخار والاعتزاز وفيه استجلاب دمعة البكاء حزنا، وفيه اذكاء الغرام والنشوة طربا بالنصر

وفرحته الكبيرة، وفيه مساعدة على الذهاب بعيدا في الخيال والتأمل، واستخلاص الحكمة، والامثال والاراء الصائبة العظيمة... ان الربابة عوامل مثورة كما يقال في لغة علم النفس، في الامور التي تحتاج الى ذلك، وهي عوامل مهدئة ايضا وتطرد الوسواس، والهواجيس خاصة مع فنجان القهوة ووجود الربع والرفاق، والاهل، ذلك ان وجود الربع والجماعة من مقومات الحياة الكريمة العزيزة عند البدوي، حتى ان البدوي لا يتوانى عن قوله:

يـــا رب لا تميتنـــي بديـــر الاجناب غـــير الرفاقـــة واقفـــين علي

الشـــبابة:

وهي اداة اخرى للتعبير بالعزف عما يجيش في النفس والصدر ايضا، وتكون مصنوعة من المعدن (كالنحاس او الحديد او ما الى ذلك) او من القصيب وهو نوع من النبات مفروغ الوسط اذا نفخ فيه يخرج له صوت جميل، وكذلك تصنع الشبابة (او التي يسميها بعض البدو احيانا (الصافور) لان صوتها يشبه (الصفير)من النباتات الاخرى ذات الوسط المفروغ، ويصنعها البدوي، اذا كانت من النبات، بينما يشتريها من السوق او الصانع اذا كانت من المعدن، وللشبابة خمسة ثقوب، واحيانا ستة، واحيانا سبعة، اما السابع والوسطى والخنصر للثقوب عند العزف الذي يتم بطريقتين ايضا طريقة النفخ مر الشفة، وطريقة النفخ من السن، وفي الاولى يكون الصوت جميلا وفي الثانية مبحوحا

وللشبابة استعمالات لدى البدوي فهي وسيلة طرب له ولاغنامه في الحقل والمرعى وهي وسيلته عند الحركة للترويح عنه، بدلا من الاستماع لاغاني المذياع او الاسطوانا كما هو الامر لدى ابن المدينة، فهذا البدوي مذياعه ومسجله معه يطرب نفسه بنفس - بدون حاجة للاخرين - وقتما يشاء.

كما انه يستعمل في الصحجات والافراح ايضا، والدبكات، لأنه الوسيلة المتحركة للطرب، والتي بها تشتد الحركة احيانا ويتم التعبير عنها بالايدي والارجل والرؤوس، وفي هذه الحالات يكون للشبابة دورها الكبير لدى البدو الذين امتهنوا الزراعة واستقروا او كادوا، حيث الدبكات، والالعاب التي لا غنى لها عن الشبابة لتتم بشكلها الصحيح.

واما الناي فهي تستعمل لنفس الغاية السابقة الا انها تصنع من القصيب او من سيقان اللقلق، وهي نوعان (المجوز او المقرونة)، والمنفرد او المفرد.

اما المجوز او المقرونة فهما قصبتان فارغتان مربوطتان معا جنبا الى جنب بواسط خيط رفيع، وفي نهايتهما (من جهة الفم حيث يتم النفخ) تركب لهما (عفيطيات) والمفرد (عفيطية) لان صوتها يسمى (التعفيط) وهما رفيعتان صغيرتان تدخلان في قصبة الناي او المقرون، وتكونان داخل الفم عند النفخ والعزف، وللناي خمسة ثقوب او ستة من الاعلى بالاضافة الى ثقب اخر من البطن السفلي يتم اغلاقه بالابهام اثناء العزف، وتمتاز الناي انها رفيعة القصبات، وقصيرة، بالاضافة الى ان صوتها مميز، وهي وسيلة طرب ممتازة جدا لمواشي البدوي.

الجـــــرات

قبل ان نتحدث عن الجرات لا بد ان نلفت النظر ان الجرة هي وزن موسيقي وليس (وزن تقطيع) اي ان البيت الواحد قد يتم تلحينه او جره او عزفه على اكثر من لحن، فمثلا الشعر على لحن الهد، يمكن استعماله في لحن القصيد (قصيد السامر) وكذلك وزن التقطيع لجرة نمر بن عدوان يمكن استعماله (للشروقي). ومن هنا فان تعيين الجرات وذكرها دون التطرق للالحان يعتبر في نظري ناقصا، ولكي يكتمل الموضوع بصورته الحقيقية فالاحسن ارفاق الاوزان الموسيقية مع كل لحن او جرة، وحيث يتعذر علي ذلك، فانني اعترف ان هذا الموضوع سيبقى هنا ناقصا، حتى يأتي من يقدم رسالة علمية مستقبلا، ويستفيض في بحثه وتفاصيله، ولو تأملنا الجرات لوجدنا هناك جرات مهمة رغم قلة استعمالها وهي (الشروقي) والمسماة احيانا (الشمرية) لأنها نشأت في قبيلة شمر المعروفة، وهذه عند البدو ارقى انواع الجرات، واكثرها تأثيرا في النفس، وهي جرة علية القوم والشيوخ، ولحنها مميز وجميل، وعميق جدا، ورزين، وتشعر من خلاله ان لحن الخلود يعزف على اوتار ربابة.

وهناك جرات والحان عزف اخرى مستعملة اكثر من الشروقي مع هذا فهي لا تفوقها، مثل القصيد والحداء، والهجيني، والهد، ذلك ان الامر ليس بالكثرة والتداول وانما بالاهمية والقيمة، وقدآن الاوان لنذكر هذه الجرات، مع عذري للقارىء انني لا استطيع الخوض بالتفاصيل اكثر من اللزوم، لأن المهم هو تبيان ما يستعمل في المناسبات عند البدو وما له علاقة بهذا الشأن.

الجرة الشروقية:

والمسماة (الشمرية) والتسمية الاولى نسبة للشرق، ذلك ان (الصحراء) (ونجد) تسميان لدى البدو (بالشرق)، وكذلك تسمى جنوب بادية الشام وبادية العراق، وكما قلنا فهي ارقى انواع الالحان البدوية لما فيها من الرزانة والعمق والهدوء، والقوة، والروعة، ومن الشعر على هذه الجرة قول الشاعر البدوي

يـا كليـب شب النـار يا كليـب شبه ... عليـك شبـه والحطـب لك يجابي
وارجـد عليهـا من هشيـم بخبة ... لما سناهـا يجيـب ربـع غيابي
شرقيـة يا كليـب ما اشنـع مهبة ... ريحـة نسمهـا تقـول سم دابي

ومن هذه الجرة قول الشاعر البدوي

اول وصاتـي بالفـروض اليديبة ... صـوم وصـلاة بوقتهـا بالمواجيب
وثانـي وصاتـي للامـور الصعيبة ... احـزب لهـا من قبـل هول وتصعيب

جرة نمر بن عدوان:

وهي من حيث وزن التقطيع تطابق الجرة الشروقية الا ان اللحن يختلف، وهذه منسوبة الى الشاعر القديم المعروف (نمر بن عدوان)، حيث فقد زوجته وبقي يتوجد عليها

بلحن خاص مميز أوجده هو، فأصبحت هذه جرة خاصة به، تمتاز بالحزن، والالم الذي يعتصر قلب صاحبه المفجوع بأعز الناس عليه، ونستطيع القول أنها تصلح لأن تكون أهم لحن للرثاء والحزن والتوجد عند البدو، وفي هذه الجرة يقول ابن عدوان:

اعـول عويـــل الذيـــب ليـــل ونهارا واحـــن حن الجيـــد ثاو على الدار
على حبيـــب بالترايـــب توارا خلانـــي مشتـــاق وحيـــد ومحتار

ويقول ايضا:

صبـــري دفنتـــه بزبـــارات نمرين متعلـــق حد السهـــل من سندها
باح العـــزا يا صاح صبـــري غدا وين لـــو درت عنـــدي ذرة ما تجدها

ويقول ايضا

ولي ونـــة من سمعهـــا ما يناما كنـــي صويـــب بـــين الاضـــلاع مطعون

القصيد – او السامر: وهو المستعمل في السامر او الصحجة، او الرقصة، والافراح والاعراس: وعادة يقصد شخص او شخصان ويرد عليهما شخص او شخصان، او اكثر، واحيانا، يقسم الراقصون الى قسمين كل قسم يجاوب القسم الاخر، ويكون الرد بثلاث طرق.

الاولى: كل جانب يقول من عنده شعرا (قصيد)، فهذا يقول ابياتا، وذاك يرد عا على نفس الوزن ولا تشترط القافية،

والثانية: ان يقول الاول قصيدا، (شعرا) ويرد عليه الطرف الثاني مرددا بيد واحدا وهو (هلا، هلا بي هلا، لا يا حنيفي يا ولد)، اي ارحب بك ترحابا حارا، كما ترد بي، ايها الاخ المؤمن، وحنيفي هنا مقصود بها المسلم الحنيف، ذلك ان الاسلام، يقال عنه (الدين الحنيف)، ذلك ان البدو جميعهم مسلمون، بل انهم يستغربون وجود غير المسلم بين ظهرانيهم، وان قارئي كتب الرحالة الذين جابوا الديار البدوية يستطيعون ملاحظة ذلك ببساطة، وكيف ان البدو كانوا يعتبرون وجود الكافر في مكان ما مدعاة لسخط الله على المكان وخسفه وتدميره على من به من الناس والمخلوقات.

والثالثة: ان يرد الطرف الثاني على الاول بنفس الابيات التي يقولها، كما هو الامر في الهجيني.

ويقال بيت السامر (القصيد) دفعة واحدة، بينما الهجيني يقال شطرة، شطرة، ومن القصيد (السامر) قول الشاعر البدوي:

يـــا ولـــد شد الثنتين مـــا لهـــن مثايـــل بالعيني
يطربهـــن حس الهجيني لن مدن والسطـــر جاهن
وبعينـــي يومـــن تقافن غـــزلان وللبعـــد شافن
والهجـــن يولـــد الهجن والسبـــق جنـــك ينشدن

ومن قول الشاعر البدوي:

شـــد شدادك والحقـــني وسلاحـــك والخيزرانـــه

ومن انواع قصيد السامر الذي يحتاج الى حركة اكثر سرعة ونشاطا، وهي ذات لحن خاص قريب من لحن (القصيد)، ولكن بطريقة اخرى واجمل ونجد ذلك في قول الشاعر:

مانـــع خيـــال في الدكــــة وظفــــر في راس المقصــــورة
وان صاح صيــاح من بــــرا توايـــق هو والغنـــدورة
اليمنـــى فيهـــا الفنجـــال واليسرى فيهـــا البربـــورة
والى ظهـــريـــم الســكة تاخـــذ جوفتـــه الســنورة

الهـــد:

وهذا اكثر من نوع، ولحن، حسب الاماكن، وان اندرجت جميعها تحت اسم واحد هو (الهد)، والذي سمي كذلك لأنه ماخوذ من (الهت) والذي هو القول بقوة، وقطف في آن واحد، وقد انقلبت (التاء) (دالا) فاصبح يقال (الهد)، والهد يقال على الربابة، وفي السامر، وبدلا من الهجيني ايضا اي انه يقال في حالات الحركة والثبات معا، والاصل فيه للحركة، وغالبا ما يكون (الهت) او (الهد) مؤلفا من اربعة مقاطع مثلا:

يقـــول مسلـــم بمثايـــل مـــن حلي القـــول طايـــل
لن هرج ما هو مسايـــل شاعـــر ما الـــه مثـــال

حيث ان اللام في (مثال) - اي اللام بعد الالف الممدودة تكون هي القافية. وقد تكون من ثلاثة مقاطع ويكون حرف الروي هو اخر حرف في آخر كلمة في المقطع الثالث وذلك ما نجده في هذا البيت:

العليـــا يا بنـــت غضية وتريـــد صبـــي شفية ماجـــد يا عـــين العقاب

ومن الامثلة على المقاطع الاربعة هذا البيت:

ابن (...) وابن (...) سووا بالعليا رياضي كان ابن (...) راضي هذي عالبلقا معا د

وهناك الهد على لحن الجبل (منطقة شمال الاردن وجنوب سوريا) وهو ما نجده في هذه المقاطع:

والبـــارح وانـــا غافي فكري صافي والا اني بزين الاوصـــافي تنـــده يا فلان
قلـــت الهـــا وش تريـــدي يا فريدي خـــدك ربـــع المجيـــدي دقـــه فنان
قالـــت: ودي تهدينـــي وتجديني ولعشـــيري تودينـــي شيـــخ الشبان
سمعنـــا مطلوبـــك مع مرغوبك ودنـــا اجـــرة مركوبـــك عشرة ذهبان

ومن لحن الهد (الجبلي) ايضا هذه الابيات:

حلـــو من ريقـــه اسقانـــي سكر نبات قوطـــر عنـــي وخلانـــي دشرنـــي وفات
قوطـــر عنـــي هالغـــالي دمعـــي سالي قمـــت افـــكر بحـــوالي ويش هالبلوات
ويش هالبلوة يا خلي ليـــه ما تقـــول لي عافراقـــك ظهـــري انحلي وعفـــت الحياة
عفـــت الدنيـــا ومـــا فيهـــا من اجليها يحـــلالي منابيهـــا بـــين البنات
يحـــلالي هرج احبابـــي سعـــدي غابي خـــده قمـــر واضـــوى بي حـــين المبات

وهناك هد بدو منطقه البلقاء (وسط الاردن) وهو على لحن هذه الابيات:

جيـــت بنيـــة على المية قلتلهـــا من اي سمية

قالـــت انـــا بلقاوية ضحيـــة يا زيـــن الغزلان
قلـــت الهـــا يا بنـــت الزين يـــاللي عالميـــة تملين
ودي حبـــة من الخدين مـــا انـــي عالميـــة شفقان
قالـــت روح يا ولـــد روح طـــلاب الحبـــة مذبـــوح
عندهـــا بزر يجـــوح يضرب عالقلـــب الوجعـــان

وبذلك نرى ان الثانية في المقطع الرباعي او الثلاثي ملتزمة في الروي، والمقاطع بحيث تبدو متناسقة متكاملة، ومثل هذا نجده ايضا في هذه الابيات.

لا تندم يا عماوي = ما كتب ربك يساوي ما ينفع ضرب السماوي = كود خصة بالعيار
لا تنـدم يا ولدنا = عالعـدا قايـم سعدنا واللي بالشينـة عمدنا = نلحقـه تالي النهار
والعماوي قال هابي = والقلب طبه التهابي والحرب وده زهابي = اشعلت بالقلـب نار
والعماوي قال والله = مـا نرضى درب المذلة هوشنا عنـد المحلة = يـوم عرم الملـح ثار

الحصيدة:

وهو لحن خاص بالحصادين يكون قريبا من لحن الهد، ولكنه يقال بطريقة اخرى ويحتوي المعاني الخاصة بالمناسبة، ويمتاز هذا اللحن بسرعته، ومثله قول البدوي يغني على المنجل الذي به يحصد الزرع فيقول:

منجلي وامنجـــلاه = راح للصايـــغ جلاه مـا جلاه الا بعلبة = ريـت هالعلبـة فداه
منجلي يا ابو رزه = وش جابك من بلد غزة جابني حب البنات = عنـد اهلهـن غالد

ويمكن اضافة الابيات التي مضت تحت هذا اللحن ايضا وهي
لا تندم يا عماوي = ما كتب ربك يساوي ما ينفع ضرب السماوي = كود خصة بالعيار
ومن اغاني الحصادين قولهم على هذا اللحن ايضا:
يا ابـو خديـد منقـرش يـــا عـــذاب الهـــواوي
ونفس هذا اللحن يستعمل في مواضع اخرى كالعمل في اي شيء يحتاج للحماس وحتى المعركة نفسها.

جرة الزيـــر:

وتأتي على وزن البحر (الوافر): وتستعمل لدى البدو كثيرا في الامور ذات العلاقة بالماضي والتاريخ، واحيانا التوجد، وهي على اللحن التالي:

يقـــول الزيـــر ابـــو ليلى المهلهل وقلـــب الزيـــر قاسي ما يلين
وعلى هذا اللحن او الوزن يقول البدوي:

الى ما هب لي نســـم الهبايب بشـــم الطيـــب منهـــن من شمامة
وخـــد عنـــه نور الشـــمس غايب حيـــا من نور وجهـــه وابتسامة
فـــذا وقـــت ترى منـــه العجايب عـــلام الوقـــت ياذا قل علامة
فعـــاش ونـــاش حضي الزرايب وليـــث الغـــاب سفـــوه كلامه
ولا يعتـــاش من للـــزور هايب ومن لا تمعنـــا بالنمـــامة

الحـــداء:

وهذا يكون مع الحركة السريعة التي تحتاج للتهيج والحماس، وخاصة في الحرب، والفروسية، وسباق الخيل ومن ذلك قول البدوي.

يا لابـس الجبـــة وارخـــي جدايلهـــا

وهذا وزن قصير في الحداء عندما يحتاج الامر لمزيد من السرعة والحركة، كما ان هناك وزنا اطول يمكن حداءه وغناءه في اكثر من لحن وطريقة كقول البدوي.

يـــا يمـــة غذي مهـــيرتي تسلـــم وانـــا خيالهـــا
لاشري لهـــا شرشـــف حريـــر ريش النعـــام قذيلهـــا
يـــا شيـــخ ما جنـــك علوم عـــن عركة صارت شمال
تعلقـــت قبـــل الضحى ومـــا فكهـــا كـــود الظـــلام

وهذا الوزن يأتي على عدة الحان حسب المواقف والضرورات، ولا تتقيد بلحن واحد، انها من المرونة والتكيف ما تجعل البيت الواحد يقال باكثر من طريقة لطيفة وباكثر من لحن لا يمكن تحديده الا بكتابته حسب تقطيع النوطة الموسيقية.

الهجيني:

وهذا يكون ايضا على عدة الحان منها السريع، والمتوسط والبطيء، الذي يمتاز بمد الحروف، ومن ذلك قول البدوي:

والبارحـــة العـــين ما نامت واعـــرض لهـــا النـــوم ومعية

وقال البدوي ايضا:

طلعـــت انـــا مرقـــب عالي مـــن ضيقـــة الصـــدر يا مفضي
ربـــي بلانـــي بعـــريض اكتاف والزيـــن ما دبـــره حظي
لـــو كان قلبـــه لزولي عاف يـــا ويلي ما يوجعـــه حظي

والهجيني ينظم بوزنه شعر لاكثر من غرض ومناسبة من الافراح والاتراح حتى النصائح والحكمة، والمبدأ فيه انه لحن الحركة خاصة لرعاة الابل، وانتشر بين الجميع، واخذ موقعه وحيزه ومن ذلك قول البدوي

زرعـــت انـــا وردة حمرا كلفـــت انـــا الزيـــن يسقيها
يـــا ويلي من حبـــي للشقرا وام الذوايـــب تدليهـــا
والقذلـــة لجبينهـــا تبرى وام الجدايـــل تحنيهـــا

والهجيني كما هو الحداء معروفان لدى جميع البدو، وكذلك لحن الشروقي على الربابة، ذلك ان الحداء في الاصل للعمل سواء اكان هذا العمل في المعركة او التناخي، او طراد الخيل (الصابية) او التدرب على اي عمل في الفروسية، وهو في الاصل يحدوه الحادون وهم على ظهور الخيل، لذا نجد حداء (يا يمة غذي مهيرتي) معروف لدى جميع البدو وان اختلفت الصيغة، وهو في العادة يحدوه الحادون وهم على غير ظهور الخيل ايضا.

ومن الأعمال المستعمل فيها الحداء "الحصيدة" "المعركة" "التدرب على

الفروسية" "الاستعداد للمعركة" او اي عمل جماعي، وهي بالتالي للحماس - اي ان الحداء لحن الحماس والتحمس والاندفاع لممارسة شيء ما وغالبا ما يكون عملا جماعيا.

اما الشروقي فهو لحن الربابة والمجالس الرزينة.

واما الهجيني فهو للحركة الفردية، والجماعية معا، ومن هنا فلا غنى للبدوي عن احد هذين اللحنين، لذا عرفهما البدو في كافة المناطق وان اختلفت الصور التي ظهرت بها هذه الالحان، فهو ان عمل يحتاج للحداء، وان سار يحتاج للهجيني ليروح عن نفسه، وان جلس يحتاج الى لحن يزيل عنه الهم والغم ولو الى لحظات قصيرة، والهجيني يمكن استعماله لجميع اغراض الشعر البدوي من غزل الى بكاء الى حنين الى انين ولنأخذ بعض نماذج الهجيني:

حـــي المنـــازل وهـــن اتلوف انجـــب عليهـــن واهلهنـــه
ســـود الليـــالي عطـــن احلوف عهـــد وثيـــق وخاننـــه
مـــا في يدي يا هل المعروف الا ما عيونـــي ومـــا هنـــه
مـــا دام قلبـــي بهـــا مشغوف يطـــرد هـــوى نـــازح عنـــه

واخر يقول:

حـــي المنـــازل جنـــوب السيف ممتـــدت الطـــول مصفوفـــة
امشي على حسنهـــا واقيف في حبهـــا الـــروح مشغوفة
دار الخـــدم والـــكرم والضيف دار المناعـــير معروفـــة
دار العجـــب والطـــرب والكيف والانس والفـــن ودفوفـــه

والهجيني يغنى باكثر من لحن او ايقاع والغالب عليه ثلاثة الحان منها البلقاوية وهي الغالبة في منطقة البلقاء وسط الاردن وهي تمزج بين اللحنين الاخرين (الكركي، والشروقي) اي بين البطء الشروقي، والسرعة باللحن الكركي.. والبلقاوي يخرج من موضعين في الفم هما سقف الفم، وبداية الحلق، ويعطي رنة خاصة بالفم في سقف الحلق عند غنائه.

واما الكركي فيخرج من نهاية الفم اي من الحلق، وهو يجمع بين بطء البادية وسرعة المدينة والمزارعين.

اما الهجيني الشروقي فهو بطيء ذلك ان المسافات التي يقطعها مغنوه عادة تتسم بالبعد والوحشة، والانقطاع، لذا جاء اللحن معبرا عنها، ووليدا شرعيا لها، يتهادى مع امواج الكثبان، وصيحات العذارى والصبيان.

اما البلقاوي فهو يجمع بين بطء اللحن الشروقي وسرعة التقدم الحديث الذي نشهده.

الجرة الهلالية: وهي جرة حزينة مميزة وسميت كذلك لأن اشعار سيرة تغريبة بني هلال كلها على جرة واحدة ونغمة واحدة تبدأ عادة بذكر الله والصلاة على رسول الله (ص)، وتنتهي كذلك ومن ذلك قولهم:

إنـــا اول ما نبـــدي نصلي على النبي نبـــي عربـــي شدت اليـــه الركايب

ومن سياق الشعر قولهم:

يقـول ابـو زيـد الهـلالي سلامة ونـيران قلبـي زايـدات اشتعايل
يـوم الشـدات ينادونـي يا سلامة ويوم الفضا ينادوا يا عبد قليل الاصايل

وهذه الجرة اقرب الى البكاء منها للفرح، لأنها تعبر عن الغربة والرحيل عن الديار والوطن وما يلاقي الراحل من الالام، والحسرات واللوعة والحروب والصعوبات في طريقة، كل ذلك مجسد في هذا اللحن، الذي لا تملك نفسك الا ان تنفر منه فورا، او تبكي له، وتحزن ويرق قلبك ولا خيار ثالث بين هذين.

المعيد والنعي:

وهو بكاء النساء على الميت، ويختلف في معناه ومبناه حسب ظروف الموت فاذا كان الميت رجلا مهما او شيخا يتضمن الشعر قولا ان القمر والنجوم والشمس والسماء جميعها حزينة لموته وفراقه، وان الحياة بعده لا قيمة لها.

واذا مات في المعركة فذلك فخر لانه لو كان جبانا وهرب لبقي على قيد الحياة لكنه فضل الاقدام والموت على الهروب والحياة، وبالمقابل يجري دم الجبان وانه (شردان) ورايته سوداء.

واما اذا كان زوجا فان الزوجة تنعيه من قلبها حسب مدى مودتها وحبها له.

ونجد المعيد في اكثر من وزن ايضا منه القصير كقول البدوية:

المـوت يصلـح للبقـور هيـل اللحـم هيـل القـدور

واخر طويل كقول البدوية:

رايـة الشردان سودا مع بلية يا مقنعي الاسمـر وثوبـي اللي علي

وعادة يكون المعيد من شعر النساء في رثاء الرجال، لأن البكاء للنساء (كما يقول البدو) وهن يعبرن عن شعورهن بكلمات موزونة تجاه الميت.

ومن مدح البدوية للميت تعداد مناقبة كقولها:

عابيـدره رف الحمام وعانقرتـه طاب الكلام
ربعـه بهـا الشاعـر يقول وربعـه بهـا ود العجول
وربعـه بهـا فرش الصبايا وربعـه بهـا ضيفـة ينام

والنعي عند البدوي يسمى (التنعي) وهو صوت المرأة في بكائها على الميت وقت موته او بعد دفنه مباشرة، واما المعيد فيكون بعد الموت واذا مات انسان عظيم او مشهور فتجتمع النساء بين فترة واخرى (تمعد) اي تقول (المعيد) حزنا على هذا الانسان الميت، وهو نوع من تعداد مناقب الميت على الطريقة النسائية، ولكن لا يشترط ان يكون ذلك بدموع، وانما لحن وكلام وربما تكون القائلة في وضع عادي جدا، بدون الشعور بالحزن، وهو يقابل ما نراه في عصرنا الحديث من الاجتماعات المستمرة والمقالات والقصائد التي تتضمن تعداد مناقب الميت خاصة اذا قتل على ايدي اخرين.

التفورد: اي الغناء في الفاردة، ويقال اثناء الزفة تقوله النساء عند زف العروس، ويتضمن مناقب اهل العروس عند الوصول هناك، مع مدح العروس والعريس، وانهم جميعا طيبون، كما يقال (التفورد) ايضا عندما تدعى الفاردة (القطار) عند احد الناس في طريق عودتها لاهل العريس، وتمتدح الاشعار هذا الكريم الذي اطعم (الفاردة)، ويمتاز التفورد ان المقطع الاول يعاد ثانية بعد المقطع الثاني مثلا:

لا تقـول نسيتـك = يابـي المبـدى = لا تقـول نسيتك
واول ما طريتـك = وانـت المبـدى = واول ما طريتك

والتفورد يأتي في اكثر من لحن منه القصير وهو المذكور اعلاه، ومنه الممدود (الطويل) وهذا (الممدود) لا تكرار فيه كاللحن اعلاه، بل تقال الشطرة مرة واحدة وكما يلي:

يـا بي فلان، وكم بيضـا تمنتك تمنتـك حليلهـا وانـت غايب

وعند مغادرة بيت والد العروس، او بيت من دعا الفاردة تقول النساء (وهذه تكون تكرارا للمقطعين معا، فيقـالان ثم يعادان هكذا):

يخلـف عليـكوا كثـر الله خيركوا يخلـف عليـكوا كثـر الله خيركوا

الترويـد:

وهو ما يقال عند العروس ليلة الحناء وليلة (الخشة) اي وهي في (البرزة) قبل دخول العريس عليها، وكذلك تردد الفتيات الواردات الى الماء وهن يتخيلن ليلة العرس، كما هو اي شاب وهو يتخيل نفسه عريسا، ومن اغاني الترويدة قولهم:

جيت اروح ما حليلي رواح = خي بنية يا مهبوب الصباح = كبش قرنفل كل ما دقه كن فا

وهذا الترويد للنساء فقط.

وهناك نوع اخر من الترويد وهو للرجال والنساء معا وهو ما نجده في هذه الابيا الشعرية:

ريدهـا ريدهـا كيـف ما اريدها طفلـة يا هلي والعسـل ريقها
صويحبـي لو ضربنـي بشبريته لامسـح الـدم وامشي ورا خطوته
يا هبوب الشمـال واستديـر للجنوب ريحة حبي معـاك مرحبـا يا هبوب

وهناك نوع اخر من الترويد للرجال فقط يشبه الجر على الربابة ويشبه (العتابة) الموجود في فلسطين وهو ما نجده في هذه الابيات

يـا نجـم يا وضاح واشرف على حبيبـي وقله
قلـة وليفـك باح بالسر باح وانـا على الصبـر ما اقواني

ومن الترويد قول النساء عند العروس قبل حركتها الى بيت الزوجية الجديد

البارحة يا رويـدة كنـت انـا وانت والفلفـك بحضينـي وانتحـب وابكي
يمـة يا يمـة شديلي قراميلي طلعت انا من البيت وما ودعت جيلي

وايضا قولهم:

هلا تطلعي عالشجر يا عليبة القهوة لا تأمنين العزب ترى العـزب يهوى

وقولهم بلحن التفورد عند العروس ما يلي:

ايديـن بنيـة يا مطـارق فضة والعـين سودا والـرمش تغضة

والترويد هذا الذي ذكرناه ينطبع بطابع الحزن والألم، للفراق، وللتحول الجديد في الحياة من...الخ... ومن الترويد على شكل اهازيج فرح سريعة الحركة وعادة تكون مع الصحجة، وهذه حديثة اي انها لحن حديث ظهر مؤخرا وذلك كما يلي:

عاننـــني ، عاننـــني فراق الحبايب راح يجنـــني

وكذلك هناك لحن اخر للترويدة ايضا:

فور يا قدري فور يا قدري = ومـن اللي يقـول لابـــوي يا ويلي وامـــي ما تدري
ورد ازرعونـــي ورد ازرعونـــي = على طريـــق الزيـــن يا ويلي ولا تنســـونـــي

الطهـــــور:

وهو مناسبة ختان الاولاد الذكور حيث يسمى (الطهور) ويسمى المطهر (الذي يقوم بعملية الختان) (بالشلبي) او (المطهر)، واثناء وبعد الختان نجد الالحان الخاصة بهذه المناسبة التي تتحدث عن استحلاف الشلبي الا يؤلم الولد وان تكون يده في الطهور خفيفة، وإلا تدعو عليه بالسوء وذلك ما نجده في هذه الابيات:

طهـــره يا شلبـــي وناولــــه لابوه واعطيــــه لاهلـــه حتـــى يشوفوه
طهـــره يا شلبـــي باالله عليك ولن اوجعـت (فـلان) لادعـي عليك
سمـــوا عا(فـــلان) وسمـــوا عليه طايــــح لطهـــوره حرز الله عليه

محـير الهـد:

وهو قريب من قصيد السامر الا انه يختلف في لحنه ووزنه قليلا بما يمكن ان يكون مشتقا من القصيد، ولكن بوزن اكثر طولا، ولنقل (اكثر اعوجاجا) وذلك كقول الشاعر:

اول مبتـــدا الله اكبر وطريـــا الله كامســـك وعنبر
على ما قدر المعبـــود تصبر حمدنــــا الله على فعلـــه وفنه
وثانـــي مبتـــدأ نذكر نبينا ويشفـــع من لهيـــب النـــار بينا
وصلـــوا واعبـــدوا يا مسلمينا وخمس اوقـــات بفـــرض وسنه
وخمس اوقـــات بسنـــة وفرض مـــع الحجـــة لوجـــه الله يرضن
تـــرى الايــــام لو طالن وعرضن يـــوم المنتهـــى لا بد منه
يـــوم النـــار تسعـــر بالحجارة يـا ليـــت المسلمـــين بعـــاد عنه

ونرى ان هذا الوزن نفس الوزن لجرة الزير التي سبق وذكرناها، الا ان لحنها يختلف حيث يلفظها البدو بطريقة اخرى:

جرة القطار:

وهي شبيهة بسرعة القطار او هذابة الابل او الخيل (اي هرولتها بما ليس سريعا ولا بطيئا) وذلك كقول الشاعر البدوي:

شفن انا راعي الهـوى قلبـي يحبه مـن يشـوف الزيـن بقليبــــه يظبه
واللي حلايـــــاه معطيهــا له ربه يـا ويلي يا زيـــن برمـــوشي لاخبه

الجرة الدينية:

وهي معروفة لدى الجميع، وحتى في المدينة والبادية، انها لحن الهجرة عندما استقبل اهل المدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، عندما هاجر اليها من مكة وابيات

هذه الجرة معروفة منذ القدم وهي:

طلـــع البــدر علينـــا مـــن ثنيـــات الــــوداع
وجـــب الشــكر علينـــا مـــا دعــــى لله داع
ايهـــا المبعــوث فينـــا جئـــت بالامـــر المطـــاع
جئـــت شرفـــت المدينـــة مرحبـــا يـا خـــير داع

وفي الواقع انه من الظلم والتجني ان ندعي اننا احطنا خبرا بكل ما لدى البدو من الحان وعزف وجرات، ذلك انهم باستمرار يوجدون الحانا واوزانا مستحدثة تناسب المواضع والمواقع التي هم فيها. نتيجة للحاجات والرغبات الاجتماعية، والاختلاط بالاقوام والبيئات الاخرى، وما لديهم من تطور.

والذي لا بد ان نخلص به هو ان الاوزان والالحان الموجودة عند البدو ليست جميعها (جرات) فالجرة شيء مقترن بالربابة من حيث الاصل. ولكن هناك اغراض رئيسية للقصيد البدوي، اهمها الافراح، على شكل اغاني، وحداء وسامر، او اتراح كجرة ابن عدوان، والمعيد، والنعي، او افراح كالترويد...الخ ومن هنا تأثرت الجرات او الحان العزف بأمور كثيرة، هي:

المناسبات: الافراح، الاتراح، المناسبات الموسمية الاخرى، المناسبات الدينية قدوم فصول: الشتاء، الربيع، الصيف...الخ

الحركـــة: وحتى في المناسبة الواحدة نجد لعبة السيف مع السامر هي عبارة عن حركة، بينما لا يكون هناك الا الاستماع والهدوء في جرة الشروقي وتكون الجرة بالحركة بالهد، او محير الهد، او الحداء.

نفسية البدوي: فعندما يكون مرتاحا يعبر عن فرحة وارتياحه بما يناسب وعندما يكون كئيبا، يعبر عن ذلك بنفس الوسيلة بطريقة اخرى مناسبة للموقف. ونفس الاوزان هذه ربما تكون حركة فقط، او حركة مع كلمات، او كلمات بدون حركة، ففي الصحجة (الرقصة) نجد ان احد اقسامها وهي الدحية: التي هي حركة سريعة للجسم والاكف قد تكون باخراج صوت فقط فحواه (ادحي) بتشديد الدال والحاء، وقد تزداد النشوة، ويرتفع الانسجام فيرافق ذلك حداء الذي لا يكون لحنا واحدا، احدها: الحداء، وقد يغنون لحنا اخر وهو على هذا الوزن،

يا مـــوت = روح لاهيلك = يا مـــوت

الألحان المحدثة:

وهناك الحان واوزان جديدة استحدثت واشتهر فيها اولئك الذين استقروا وهم من جذور اصيلة، وبداوة نقية، فكانت الحانا نابعة من اعماق الاردن، ومعبرة عن اصالة تراثه، وقدرته على متابعة ومسايرة التغيرات والتطورات الحضارية والاجتماعية من حوله، واشهر المناطق الاردنية في ايجاد هذه الالحان الرائعة منطقة شمال الاردن والكرك ومن هذه:

لحن بالليــل:

وهو لحن يناسب حركة الدبكة التي هي تراث اردني اصيل ويجمع هذا اللحن بين الهدوء والحركة، والفرحة، والحماس معا، اي انه لحن جامع شامل لاكثر من شعور معا، وفي كلمات هذا اللحن نجد التأثر بالتطور الحضاري الحديث، والالات الحديثة، اي انه مناسب للظروف الاجتماعية الحضارية، ومن هنا نرى ان التراث الاردني، والبدوي تراث متطور مرن قادر على مواكبة الحضارة، والتطور والحياة باستمرار، ومن الامثلة على هذا اللحن ما نراه في هذه الابيات.

فخـري يكوي بجكيتــه = قاعـد بالبيــت الغربـي، بالليــل يا عينــي بالليل
يابــو جاكيــت رمــادي = لا تتمشى بالـــوادي، بالليـــل يا عينـــي بالليل
بيــت الشعــر يا المبنــي = عواميــده من لولــو، بالليـــل يا عينـــي بالليل

ويمتاز هذا اللحن بتكرار المقطع الاول مرتين:

لحن ابو لاحـــة:

وهو لحن يجمع بين الصحراء والاستقرار، وتجميع الحان من اصول مختلفة، ذلك ان مصدره من معان التي يسكنها اناس من اصول مختلفة، وينتهي اللحن في اخر كل بيت بعبارة (آه يابو لاحة)، ومن هذا اللحن هذه الكلمات.

يــا ام الزنــار النيلي أه يابــو لاحــة
ميلي علــي ميلي وبطــرف عينــي لاحــة
خــدك كهربــا ويضوي أه يابــو لاحــة
نمــرة اثنــا عشر قنديل وبطــرف عينــي لاحــة

وهذا اللحن يجمع بين انات الحزن، ونشوة الطرب، وبين هدوء الصحراء، وزوبعة رمالها وصخب الحياة الحديثة، وبين الدحية (الصحجة) والدبكة، وحركة التمايل وايضا هذا اللحن الجميل:

يــا قرونهــا يا خوي تقـول حنشان حنشــان بارض الخلايــا هاشــن علي
يانهودهــا يا خوي تقــول رمان رمانـــة على امهــا مستوية
يــا خدودهــا يا خوي تقــول تفاح تفاحـــة من الشـــام مشترية

وهو لحن جميل يجمع بين الهدوء والصخب، والحركة والثبات.

لحن دلعونا:

وهو لحن للدبكة، ومستعمل بالاردن مثل:

على دلعونـــا على دلعونا مــن شوف الولــف لا تحرمونا
غبتـــوا وطولتـــوا الغيبـــة علينا يــا حبـاب القلـــب ليـــه نسيتونا

لحن ابو الزلف:

وهو لحن الراحة، والانبساط حتى ان البدو يقولون لمن لا يهتم بمشاكل الحياة او

مرتاحا منها انه (يضرب على ابو الزلف) ومثل ذلك قولهم:

هيهات يا ابو الزلف عيني يا مولاي   شريان قلبـي انقطـع من نظرتـك لي

ولا شك انه لحن بعيد عن البداوة في ظاهر لفظه، وحتى كلماته، لأنه وجد لد الجماعات المستقرة.

ونرى في هذه الالحان الاخيرة دخول معان وكلمات تعبر عن الحياة المستقرة بالاضافة الى اصالة البادية، وصفاء الصحراء.

لحن امان الامان:

وفيه تكرار كلمتي (امان الامان) في كل مقطع من بيت الشعر مع اضافة (بس انا حيران) في نهاية كل بيت وذلك كما يلي:

أمان الامان راعـي التـكسي الصغيرة
امـان الامـان خذنـي معـاك اجيرة   بس   انـا   حـــيران

امـــان الامـــان لا باكل ولا اشرب
امـــان الامـــان بس اسلي عشيري   بس   انـــا   حـــيران.

ونرى ان المقطع الاصلي المقصود بالمعنى والغناء هو

راعـــي   التـــكسي   الصغيرة   خذنـــي   معـــاك   اجـــيرة
لا   اكـــل   ولا   اشـــرب   بـــس   اســـلي   عشـــيري

وتضاف المقاطع والتكرار بالحان مناسبة وجميلة ونرى انه لحن للحركة خاصة للدبكات وبالتالي فهو لحن ليس صحراويا بل لحن المجتمع الزراعي المستقر، حيث الحياة تحتاج لسرعة الحركة والعمل رغم انهم مستقرون، وهذا اللحن اكثر ما ينتشر فيما بين سكان القرى الاردنية وخاصة في الشمال.

لحن عـــلا:

بفتح العين وتشديد اللام. ويمتاز هذا اللحن بتكرار المقطع الاول مرتين ثم يأتي المقطع الثاني، وبعد ذلك تأتي كلمة علا في نهاية البيت مثل قولهم:

لاركب سلم عاسلم = لاركب سلم عاسلم = واطلع عالسماء العـالي علا

وايضا هذا البيت:

خـوفي على بنيتهـم = خوفي على بنيتهـم = بـين الجبـال تضيـع علا

وهذا اللحن نجده في المناطق التي تجمع المجتمع الزراعي والرعوي، وهو لحن صالح للمجتمعين بسهولة واضحة.

لحن حنا ومنا:

وهو لحن حماسي ظهر في الحروب الحديثة، حيث انه نوع من الحداء يعبر عن



بدوية بالجلابية، على آخر موضة عصرية

العاطفة الجياشة لدى الانسان في حب وطنه والحرب دفاعا عنه، ويمتاز هذا اللحن باضافة كلمتي (حنا ومنا) في بداية كل مقطع واضافة كلمتي (شيل يالله في نهاية كل مقطع: مثلا:

حركونـا يا بنـات = حنـا ومنـا = مدفعيـة ودبابـات = شيـل الله
يا راكب الطيـارة = حنا ومنا = وش جايب لي بشـارة = شيـل يالله

هذا اللحن هو حداء محول الى دبكة حديثة وببراعة فائقة بالفعل، وهو جميل وحماسي ، حركي، يأخذ بلب الانسان كثيرا.

ومن الحان الدبكات المختلفة ما نجده في هذه الابيات ايضا:

يا زريف الطول طايـح وادي شعيب   والشعـر الاشقـر مدلى للكعيب
يا زريف الطـول وقـف لا قول لك   رايح عالغربـة وبـلادك احسـن لك



الفصل الثالث

فلسفة وجود المناسبات

الفصل الثالث

فلسفة وجود المناسبات

في حياتنا اليومية، وعبر السنين وتوالي الشهور نرى مناسبات او نحضرها او نشارك فيها، سواء في الصلاة او الحج، او الصوم،.. ولكن هل نقف وقفة بسيطة لنتأمل مثل هذه المناسبات لعلنا نصل الى كنهها؟ ولماذا لا تكون متشابهة او واحدة؟

ولا شك ان عدم تماثلها، او عدم تطابقها، هو سر جوهرها، وجودتها، تماما كوجود الرأس من الجسد لا يجوز ان يكون الا في موضعه، ولا تكون اليد بدلا من الرجل او في موضعها من حيث المبدأ، وان حدث في العادة ما هو نادر وعكس ذلك، والنادر لا يقاس عليه.

واذا كان للانسان عمر واحد مكون من سنوات، والسنة من اشهر والشهر من اسابيع، والاسبوع من أيام، واليوم من نهار وليل، وكلاهما الى ساعات، فانه لا شك ان لكل فترة من هذه الاوقات مناسبة تطابقها، وتناسب الوقت زمانا او مكانا، ولا بد من التفريق بين المناسبات التي يجب على كل من يحضر زمنها ان يمارسها او يشارك فيها اذا استطاع، او تلك التي يمارسها او يشارك فيها فرد او مجموعة عن افراد او جماعات (فرض كفاية) وبين تلك التي لا تقوم الا بادائها من قبل الشخص نفسه اي انها (فرض عين) ولا ينوب فيها شخص عن اخر، والان لا بد لنا من الحديث عن المناسبات

المناسبات الكبرى:

وكما ان الحياة مرة واحدة، ودورة واحدة بالنسبة للانسان، فلا بد له ان يؤد مناسبة معينة تلتصق به طيلة عمره، وتكون من احدى امانيه العزيزة في ان يحققها، ويرى في عدم تحقيقها نوعا من النقص، والضيق... ومن هنا فهي مناسبة صعبة المنال، ذات اهداف سامية وعظيمة، ويرى فيها الشخص انها تغيير في مسار الحياة والروح معا، وانه قبلها كان شيئا وبعدها شيئا اخر، وكذلك ينظر الناس اليه من هذا المنظار، لذا اقترن اداؤها بطقوس وتصرفات معينة لا يجوز تخطيها، وبالتالي فان مثل هذه المناسبات لا بد ان تكون في زمان محدد ومكان محدد، اي تنفيذها في وقت واحد، وزمان واحد، وحيث ان في ذلك مشقة وصعوبة، حيث انه قد يتعسر او يتعذر احيانا على الشخص ان يكون قادرا في ذلك الزمان للذهاب الى ذلك المكان، والذي قد يكون بعيدا عنه، ويتطلب المزيد من النفقة والجهد والاجراءات والسفر، والتنقل، والغربة عن الاهل والديار وقد يعود او لا يعود... من هنا نرى ان من يحضر مثل هذه المناسبات او يزاولها نسبة ضئيلة جدا اذا قيست باعداد السكان الذين يدينون او يؤمنون او يتبعون عقيدة هذه المناسبة، ونضرب مثالا على ذلك فريضة الحج في الديانات المختلفة، كالاسلامية والنصرانية او البوذية، لذا فانها مناسبة ليست اجبارية، اي انها للمستطيع فقط،.. انها تنعقد في زمان واحد فوق مكان واحد، ففي الاسلام يكون الحج عند بيت الله العتيق، وفي النصرانية في

بيت لحم والقدس، وفي البوذية لدى نهرهم المقدس، وهكذا.

ويعتبر اصحاب واتباع هذه العقائد ان من يلاقي حتفه في هذه المناسبات انه من اهل الجنة، اي انه في عداد الشهداء والاولياء. كيف لا، ومناسبة مثل هذه المناسبة يجب ان تكون لها مثل هذه الهالة لتجد من يستطيع ممارستها ذلك ان اصعب ما فيها هو تحديد الزمان والمكان بما لا يجوز تخطيه، ولولا انها في العمر مرة، لما عادت ذات اهمية بهذه الدرجة... وعلاوة على كل هذا فهي تمتاز باداء شعائر واحدة للجميع.

وقد تنبه الاسلام لمثل هذا المبرر الاجتماعي فنجده يجعل الحج للقادر المستطيع، وفي العمر مرة واحدة، وما زاد فهو تطوع منه، واصبح الحج الفريضة الاسلامية الخامسة، وتسهيلا للناس، حيث يصبح القادر ماديا وجسديا، قادرا في وقت اخر لاداء هذه الشعائر، ولكن باهمية اقل، وبطقوس مختصرة، وبالتالي باجر اقل نتيجة اقل، ومثل هذه اداء العمرة في الاسلام، وزيارات الاماكن المقدسة في الديانات الاخرى باوقات متفرقة.

ونخلص الى القول: ان مناسبة العمر هذه غالبا ما تكون مناسبة دينية، مرتبطة بأمور روحية وغيبية فوق مستوى الانسان وعقليته، وبعيدا عن رؤيته وحسه، وتمتاز انها تتجاوز الحدود السياسية، ويكون اتباع المناسبة في بقاع مختلفة، وجنسيات ولغات واجناس متباينة الا انها متفقة بالروح وليس بالمظهر.

وهناك المناسبات التي تكون بالسنة مرة واحدة لكنها تتكرر طالما ان صاحب المناسبة هو صاحب السيطرة او القوة والغلبة. وهذه عادة تكون مناسبات سياسية وتسمى الاعياد القومية او الوطنية، كاعياد الاستقلال، يوم الجيش، يوم الجلاء، يوم تولي الحزب السلطة، واعياد قيام ثورة معينة،... فهذه مناسبات تكون بالسنة مرة واحدة، وتمتاز انها تتحدد بحدود سياسية معينة، او حدود قبلية او عصبية او حزبية، وبالتالي قد تتجاوز الحدود السياسية ولكن في نطاق محدود، ولدى جماعات معينة... ومثل هذه المناسبة تكون مزاولتها او الاحتفال بها ليس نابعا من امور غيبية وروحية وانما من اوامر السلطة والمسؤولين، وذوي الامر في الحزب مثلا، وهم الذين يحددون اشكال الطقوس، وزمان ومكان المسيرات، وكيفية وضع الاعلام، واليافطات... اي ان كل ما يجري يكون بامر السلطة وترتيب، وايحاء منها اي انها من صنع البشر، ولها صفة الاجبار ضمن نطاق الاتباع او المنطقة الواقعة تحت السيطرة.

بعكس المناسبات الدينية التي تكون بوحي غيبي، ينفذه البشر اما السياسية فان التنفيذ يكون طبقيا، اي ان الطبقات الكادحة تسير وتهتف وتتعب، واما الطبقات العليا فتقطف الثمار فقط، وربما (وهذا هو الغالب) تسرق انجازات وانتصارات الاخرين وتلصقه بنفسها انها هي صانعته، وهي صاحبته، ونستطيع القول ان مثل هذه الاعياد هي مظهرية طبقية مادية، بينما الدينية، قولا وعملا وروحا، وتمتاز بالمساواة البعيدة عن الطبقية اطلاقا، بل انها تؤدى بلباس خاص موحد كلباس الاحرام عند المسلمين، بينما السياسية قد يتم فرض لباس خاص على المشتركين، لكنه لباس فيه طبقية ظاهرة حيث

نجد النياشين والرتب لعلية القوم بعكس الطبقات الاخرى،

وكما يتم استعراض القوة المادية في هذه المناسبات. فانه في المناسبات الدينية يتم استعراض القوة الدينية والروحية ولكن بعكس السياسية التي تكون في المظاهر، وتلك بين العبد وربه وبالتالي فهي روحية سامية، وهامة (السياسية) دنيوية مظهرية.

وتمتاز السياسية ان الاعتراض على الاشتراك فيها يعتبر مناهضة للنظام او الحزب وكفرا فيه بينما الاعتراض على الدينية يعتبر كفرا بالعقيدة او بالاله الذي تدين له هذه الفئة.

والمناسبات السياسية لا بد ان تكون احتفالاتها على اشكال ثلاثة:

الاول عام رسمي تابع للسلطة مباشرة ويكون في مكان وزمان محددين، ويحضره رئيس الدولة او الحزب، تكريما لهذه المناسبة وتتصف بوجود شكليات معينة، كالخطابات او الاستعراضات المختلفة، وتكون هذه اهم الاحتفالات لانها محددة بزمان ومكان ولوجود رئيس الدولة او الحزب، وبالتالي فهو احتفال السلطة من طرفها، علاوة على كونه يعتبر رسميا على مستوى ابناء الوطن او الدولة او اتباع الحزب.

اما الثاني: فهو الاحتفال الاقليمي او الموضعي: حيث يكون في الاقليم او المدينة او المحافظة وعلى مستوى ابناء الاقليم او اتباع الدولة او الحزب في ذلك الاقليم، ويعتبر الرئيس الاقليمي ممثلا للرئيس الاعلى، وينوب عنه في الاحتفال، ويكون العمل باسم الرئيس الاعلى رغم غيابه، والذي ربما يحضر كنوع من مشاركته للشعب في الاحتف وتكون احتفالات الاقاليم متفرقة، اي متفاوتة الازمنة والامكنة، ويجب ان تكون كذلك لاعطاء معنى اكبر للمناسبة التي كلما طالت وتعددت اعتبرت مهمة وعظيمة، وليرى كل اقليم كيف يشترك الاخر، ولا تكون الرؤيا واضحة الا بتفاوت الازمنة علاوة على ما يكو في ذلك من المزايات بقصد ارضاء رئيس الدولة او رئيس الحزب.

اما الثالث: فهو الاحتفال على مستوى الجماعات والاسر والافراد في نطاق ضيق، وعادة لا يحتفل هؤلاء في بيوتهم الا اذا كانوا ذوي علاقة مباشرة بالمناسبة، ويكونون اقلة جدا جدا، ومن هنا فالاحتفال بهذه المناسبة يكون امام الناس فقط، اي انه مظهري بحت، بينما المناسبات الدينية هي علاوة على مظهرها فانها مناسبة لكل واحد مع الاخرين ومع نفسه، اما السياسية فهي مناسبة امام الاخرين، وان كان لها معناها في النفوس، ويشترك بها من يؤمن بها ومن لا يؤمن، ربما مجاملة او تخلصا من العقاب او ملاحقة السلطة، اما المناسبات الدينية فلا يزاولها الا من يؤمن بها، فالحج هو للقادر المستطيع، وهو للمؤمن به قبل كل شيء.

ونخلص الى القول ان المناسبات السياسية تكون بايحاء من اصحاب السلطة وبترتيب منهم، وهي مظهرية، تتصف بالمزايدات، وتبيان الانجازات عبر المسيرة التي عاشتها السلطة او الثورة او الحزب، مع المبالغات من اجل كسب ثقة ورضى الشعب الذي يعمل لارضائهم ايضا.

المناسبات قليلة التعدد:

وهي التي لا تتجاوز اصابع اليد الواحدة في السنة، وتمتاز هذه انها تكون لفئات معينة قد تقل او تكثر، وتمتاز انها ذات صبغة روحية دينية، وهي ذات شقين، شق العبادة، والشق الاخر، هو الجانب المظهري، اما العبادة فيزاولها قسم من الاتباع، وقد يكون غالبيتهم، الا انه يستحيل ان يمارسها الجميع لاشتراط ذلك ان يتم في اطار محدد، وباسلوب معين، وقد يعجز البعض عن عمل ذلك، وبالتالي يكتفي بالمشاركة المظهرية التي تكون للجميع بطريقة او باخرى والمشاركة المظهرية تكون بارتداء الالبسة سواء اكانت هذه البسة معينة خاصة، اذا كان المشاركون رسميون او دينيون، او البسة حرة اذا كانوا من عامة الشعب، لكن نادرا ما تكون مثل تلك التي يرتديها الدينيون والرسميون...

كما انها تمتاز بتقديم شيء معين كالاضحية، والحلوى، او القهوة او الشاي، وربما المشروبات الروحية او التسالي المختلفة، ذلك ان الزيارات والمقابلات عادة تقتضي طبيعتها حتميا ان يكون هناك شيء يقدمه الطرف المضيف، للطرف الضيف وربما يكون اهل ذلك من عادة البدو في تقديم (العيش والملح) المتمثل بالطعام واحيانا بالماء والقهوة، وهذا بدوره مأخوذ من العهد والامان بين طرفين، فكان كل طرف حريص ان يأخذ عهدا من الطرف الاخر عن (البوق والغدر والخيانة)، وحيث ان هذا بحد ذاته شيء محرج ويعني عدم الثقة وان الكلام وحده لا يكفي، لذلك اصبح هذا يتمثل في شيء مهم الا وهو الطعام الذي هو قوت للجائع المسافر، وهو ايضا عهد وامان (عيش وملح)، وبالافراط في اعطاء الامان للطرف الاخر يكون الافراط ايضا بالاكرام الذي يحقق كما قلنا غرضين هامين لا غنى للانسان عنهما الا وهما الامن ولقمة العيش[1] وهكذا نجد ان تقديم العيش والملح الذي هو (امان) قد اخذ اشكالا مختلفة فاصبح في المجتمعات المتقدمة فنجان قهوة او كأس عصير، او شاي، او قطعة حلوى، او فواكه (اي شراب وطعام)، وقد سبقهم البدو الى هذا حيث كانوا يقدمون للزائر بالاضافة الى القهوة، الحليب والطعام وبالتالي فذلك، اكثر عمومية وشمولية وبعدا وعمقا من العادات الحديثة، ولا تستطيع المجتمعات المعاصرة ان تدعي تفردها بهذا الموضوع، وقد سبقهم البدو بالصحراء الى كل هذا.

نعود الى موضوعنا، فهذه المناسبات التي يتبادل فيها الناس الزيارات، والحلويات وما الى ذلك، تكون بعد تحضيرات مسبقة لها في امورها المظهرية اما في امورها العادية فهي بسيطة، ويستطيع ان يحضر اي واحد وان كان عدد الحضور لا يساوي الا جزءا يسيرا ممن يجب ان يأتوا ويحضروا او قل من اتباع هذه العقيدة. ولهذه المناسبات شبيه في الدين الاسلامي الحنيف (عيد الفطر والنحر، وعيدا المولد النبوي الشريف، والهجرة النبوية الشريفة) وفي النصرانية هناك اعياد الميلاد وعيد الخضر، والفصح...الخ

---

١) سبق وقلنا ان الماء والقهوة تعتبران من ضمن العيش والملح، والواقع انهما في الاصل ليسا كذلك لانهما جزء من الطعام، ولكن في العادة اذا لم يحصل الضيف الا على فنجان قهوة او شربة ماء، فان ذلك يكفي امانا وعهدا له، ويعتبر بذلك (عيش وملح)، لان القهوة والماء لا يغنيان عن الطعام.

وتمتاز هذه المناسبات ان لمزاولتها اماكن متعددة في اوقات محدودة ولكنها ليست في نفس اللحظة، وتكون الاماكن ضمن اطارين: اماكن العبادة وهي التي تتم اقامة الطقوس الدينية فيها ضمن وقت معين يتفاوت من بلد لاخر، وربما من موقع لاخر في نفس البلد... اما الاطار الثاني فهو الاماكن الخاصة اي التابعة للاشخاص او الهيئات او المؤسسات، كالمنازل والنوادي، والمتنزهات، واهم هذه هي المنازل حيث يهنىء افراد الاسرة بعضهم بها ثم يبدأ استقبال وتهنئة الاخرين بالانتقال الى بيوتهم او استقبالهم في البيوت ايضا...

والتهنئة هذه ملزمة اجتماعيا فقط، ولا توجد سلطة تجبر هؤلاء على ذلك، لأنه شيء شخصي، واحيانا مزاجي، كما انه يتم في اوقات متفرقة وان كانت ضمن وقت محدود كالعيد في الاسلام الذي يكون ثلاثة ايام، وهي نفس ايام الضيافة التي امر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. لأن الناس يضيفون بعضهم بعضا، كما ان الفرصة يجب ان تتاح ليتمكن الناس من السلام على بعضهم، وهذا يستحيل مطلقا ان يتم في زمان واحد ومكان واحد لأنه بين العبد والعبد، وليس من مخلوق من البشر قادر على الاحاطة بالاخرين جميعا بلحظة واحدة، بعكس الامر في المناسبات التي تكون بالعمر مرة كالحج فهي بين العبد وربه، والرب سبحانه قادر على الاحاطة بكل شيء في لحظة واحدة. وبالتالي يؤدي الناس مناسكهم جميعا في لحظة واحدة، فوق ارض واحدة، وفي زمان واحد

ونستطيع ان ندرك عظمة الاسلام في معالجة كافة هذه المناحي الاجتماعية والمناسبات التي لا غنى للفطرة البشرية عنها.

المناسبات الاسبوعية:

واذا كانت المناسبة من التي تتكرر بحيث تكون بالاسبوع مرة واحدة على الاقل فانها بذلك تتعدد في ازمنتها وأماكنها، ومن ثم تكون مزاولتها سهلة، وضمن حدود اكثر حرية من سابقاتها، لكنها اكثر اجبارا، اي ان اداءها لا يحتاج لمشقة المناسبات التي تكون بالعمر مرة، او بالسنة اكثر من مرة، ومن ثم نجد الالزام فيها يأخذ طابع الاهمية لسهولة ادائها، وانعقادها بعدد معين من الناس. او ظرف معين، ومثل هذه صلاة الجمعة التي يشدد الاسلام على ادائها، كما سمح بعد ادائها بالانتشار للابتغاء من فضل الله سبحانه وتعالى، كما انها تنعقد بوجود جماعة يزيد عددهم على نسبة معينة، ويمكن انعقادها في اكثر من مسجد في نفس المدينة او الحي او البلد. لأن اداءها ينعقد بعدد معين بغض النظر عن المكان في مسجد ام في الخلاء... وحيث يكون التعدد في المواقع تصبح مزاولة هذه العبادة ضمن اطار واحد ومسار واحد، ولكل امامهم المخصص لهم، والذي قد يتأخر او يتقدم على غيره من المساجد المجاورة، الا انها ضمن وقت محدد، ولكن لا تقع في نفس اللحظة، ونفس المكان...

المناسبات اليومية:

وهذه يكون اداءها باكثر ما تكون الحرية والمزاجية بالنسبة لوقت الاداء ومكانه،

حيث يمكن عملها في اي مكان مناسب، وفي اي وقت من النهار ضمن وقتها المحدد فمثلا وجبة الفطور قد يتناولها البعض دسمة. واخر لا يجدها، وغيره ياخذها منذ الفجر، واخر بعد الضحى. واخر تكون له وجبتان، وبعضهم (ولا وجبة)، وبعضهم تكون ضمن طقوس معينة كما هو في الطبقات الثرية، كأن تكون على مائدة وجبة الفطور، ومع مشروبات معينة، وضمن برنامج معين... الخ.

ومن هنا فهي مزاجية المزاولة، وكذلك ضمن الامكانات، والقناعات، لكنها مناسبة موجودة من حيث المبدأ لدى الجميع، اما تنفيذها فيعتمد كما قلنا على الامكانات والقناعات والنفسيات.

وهذه المناسبات قد تكون باليوم مرة او اكثر، فالطعام ثلاث وجبات او اربعة، والعبادات خمس مرات كالصلاة (في الاسلام) حيث الفجر، والظهر والعصر والمغرب والعشاء) وهذه المناسبات رغم انها اكثر حرية ومرونة الا انه لا غنى عنها، فقد يأكل الشخص طعامه وهو يسير، الا انه لا غنى له عن الطعام. وقد يصلي على قارعة الطريق او في البيت او المسجد، الا انه غير ملزم بالصلاة في المسجد اذا كان ذلك غير ممكن، اي انه غير ملزم بادائها في مكان معين، والا تركها اذا لم يتوفر هذا المكان او ترك عمله الذي منه لقمة عيشه اذا توفر المكان وكان مجبرا على ادائها فيه، لذا كان مجال الحرية والاختيار في هذه المناسبات، وقد تنبه الاسلام الحنيف الى ذلك كله فكانت تعليماته متمشية مع العقل والمنطق والمعقول، والحمد لله رب العالمين حيث يستطيع ان يؤدي الانسان الصلاة حيثما امكن، وضمن حد ادنى واعلى من الوقت لكل مواقيت الصلاة.

المناسبات الاختيارية:

وهي غير محدودة الزمان ولا المكان، ويتم ذلك ضمن اطارين:

الاول: من قبل الانسان حسب مزاجه الخاص، ورغبته هو. وذلك مثل الزيارات العائلية، التي يتم ترتيبها مسبقا او تأتي عفوا، وهي مناسبات غير ملزمة الا من الناحية الاجتماعية فقط. اي ان هذا الاطار هو اطار شخصي بحت قد يكون لسبب او بدون سبب، ويكون لغرض او بدون غرض ولمصلحة او بدون مصلحة.

والاطار الثاني: هو ذو الطابع السياسي او الرسمي، وهذا تتحكم فيه الأمزجة من جهة، والمصالح الدولية والسياسية، والشخصية، والعامة من جهة اخرى، ومع هذا فان تحديد زمانها ومكانها يتم من قبل الشخص نفسه، ولا دخل لتعليمات غيبية في تحديد مثل هذه ضمن وقت معين كما يتم في امور الحج او الصلاة مثلا... وان كان كل ما يجري هو بمشيئة الله سبحانه وتعالى.

المناسبات الموسمية:

وهي التي تكون في موسم معين، حيث ان الانسان بطبعه يحبذ ايجاد او تبني مناسبات تغير من الطابع المعتاد للحياة، وان تقوي مثل هذه المناسبات شعورا معينا لديه، كالدينية لتقوية الشعور الديني.

او مناسبات طعام ليأكل اكلا مميزا تشتاق اليه نفسه فنجد هناك انواعا من الذبائح لدى البدو، ونجد انه في كل مناسبة دينية تمر في السنة او الموسم لا بد وان تقترن بها الاضحية، وتقديم القرابين.

او مناسبات حزن كما هو لدى بعض الطوائف الدينية مثل يوم كربلاء لدى الشيعة، وحائط المبكى لدى اليهود...الخ

اما المناسبات الموسمية فلا شك انها ضرورية ذلك انها شيء فرعي من رئيسي، فالبدو لديهم مناسبات (قصاص الغنم)، (الخمسان)، (القرينية)...الخ، ورغم ان هذه تكون في السنة مرة واحدة، الا انها موسمية لأنها تحدث في وقت معين في السنة وفي موسم معين، وتتكرر في كل سنة لكل من يعملها، ومثلها عيد النيروز لدى الفرس وعيد القطن لدى المصريين، وعيد الشجرة لدى الامم الزراعية...

استنتاجات:

مما سبق نجد ان الانسان بطبعه (كما قلنا) يحب التغيير الذي هو سنة الكون والحياة، ويحب ايجاد او تبني، او اعتناق بعض المناسبات التي يجد فيها اشباعا لبعض المناحي لديه كالطعام، والشراب، والتدين، واللباس، والعمل، والاعمار، او الجلوس والتأمل والارتياح.

ولا شك ان الانسان هو الانسان اينما كان، وهو يتمنى ان يكون له شيء يعمله بالعمر مرة واحدة، به يرى الحياة او النجاة، او تغيير حياته وسلوكه وطريقته، او يضع حدا لتصرف واعتقاد معين، انه يحب ان تغفر ذنوبه جميعها مثلا، وان يتطهر من ادران سيئاته الاولى، فهذه الامنية هي في طبيعة الانسان... ان يعمل شيئا في عمره مرة واحدة يكون له من الثقل والاهمية والنتيجة والعبرة، والقوة والقدرة ما يساوي عمله طيلة حياته،... وان يكون ذلك طريقا لحياته الاخروية، يمهدها، ويسهلها، ليضمن بذلك نجاته في الدارين،... ونجد من هنا ان الاديان قد فرضت مثل هذه المناسبات، التي يقابلها في الاسلام الحنيف الحج الى بيت الله العتيق... ثم ان الانسان ايضا يحب ان تكون لديه مناسبة في كل سنة مرة يعيش فيها حياة اخرى، واسلوبا آخر، لأنه قد لا يستطيع تحقيق امنيته في مناسبة العمر، او انه يعمل تمهيدا لمناسبة العمر نفسها، والتي تكون عادة قمة لجميع المناسبات ومن اهمها، واعلاها، وارقاها، وحيث انها مناسبة العمر لذا تتمثل فيها جميع المناسبات اليومية، والاسبوعية والموسمية والسنوية - بالاضافة الى طقوس خاصة بها، ففيها النحر، والصلاة والعبادة، والتلبية والعيد، والسلام، بالاضافة للطقوس الاخرى...

ثم ان الانسان لا بد ان تكون عنده مناسبات موسمية مقترنة بموسم معين تعتبر كحقنة جديدة له للبدء في حياته بهذا الموسم، او الانتهاء منها، كما نرى في الزيارات للاماكن المقدسة او الاولياء، او مناسبات العمل مثلما ذكرنا من (النيروز، وعيد الشجرة،

والقصاص، اي جز الصوف، وقص الشعر لدى البدو) او رحلات الصيد عند الصيادين وشيوخ البدو.

ولا بد له من مناسبات شهرية ايضا، وهذه تتضح لدى الانسان المتحضر اكثر منها لدى الانسان المتجول والمتنقل، او البدائي، ففي اخر كل شهر تترتب امور معينة على الانسان المتحضر، كدفع الاجرة، او استلام الراتب.

وهناك المناسبات الاسبوعية، التي هي الاستراحات، والصلوات الخاصة بيوم الاسبوع الذي يختلف لدى كل ديانة عن الاخرى.

وهناك المناسبات اليومية كالصلوات، والاعمال اليومية العادية.

ونرى بذلك ان طبيعة الحياة الانسانية تتطلب كل هذا، وحيث ان اكثر من نظم هذه المناسبات واخذها جيدا بعين الاعتبار هو الدين الاسلامي، فان هذا التنظيم بحد ذاته، ولو كان لوحده فقط لجعلنا نشعر ان هذا الدين قد نظم الحياة الدنيوية والاخروية بكل دقائقها، من الهمسة واللمسة الى الكبائر وعظائم الامور، فهو الدين الحري ان يتبع، ويعتنق. انه دين الحياة والممات انه دين ودنيا، كما ان المناسبات فيه مهذبة منظمة، وسنرى كيف ان كل صغيرة وكبيرة من الامور الحسنة عند البدو قد جاءت من هذا الدين الحنيف، وبذلك يصدق قول الله سبحانه وتعالى **"إن الدين عند الله الاسلام"**.

قبل ان نبدأ
نظرة في تراثنا البدوي

عندما نقول: التراث البدوي فانما نقول التراث العربي الاسلامي الاصيل، اننا نتحدث عن تراث عريق ذي جذور اعمق بكثير من كافة التصورات السطحية لهذا التراث... ان دراسة التراث البدوي لا بد عند القيام بها من الاخذ بعين الاعتبار عدة امور معا، لتصبح هذه الدراسة متكاملة، شاملة، علمية تتناسب والقيمة العلمية للدراسة والتراث معا بعيدة عن العصبية والتعصب، والميول، ولا بد ان تكون منزهة عن الهوى، فلا يكون محورها الشخص او العشيرة، وانما محورها التراث نفسه، فكثير من القبائل المتنافرة المتناحرة لا تختلف في قيمها وعاداتها، ومن هنا فهناك فارق بين ان نتحدث عن البدو كعشائر وقبائل، وبين التحدث عنهم كتراث، وقيم ومثل، واخلاق، فالاولى تعني العصبية التي نهى الله ورسوله عنها **(ليس منا من دعا لعصبية)** كما انها تعني بالتالي تجزئة التراث، وربط القيم والمثل او الحقارات والقذارات، بقبيلة معينة او شخص معين، في زمن معين ومكان معين، وبالتالي ايجاد الحمية في نفس ابن القبيلة هذه، فاذا كان ما تم ذكره حسنا كان ذلك مصدر فخار لهل تباهي به سائر القبائل التي بدورها تتعصب لنفسها وترى ان تلك القبيلة ليست احق منها بهذا المجد، وعندما يحدث التفاخر، يحدث

التناحر تلقائيا كنتيجة له، ومن هنا فهذا يؤدي الى التفرقة، وبعث كوامن العصبية في النفوس، هذا بالاضافة الى ان التجزئة تعني هضم حقوق الاخرين، وذلك اننا عندما نربط عادة بشخص او قبيلة معينة في زمان معين "هذا ما لم نكن ندرس تطور العادة، او نطبق ميدانيا على قبيلة معينة"، فانما يعني ليس نسيان القبائل الاخرى فحسب بل وايضا نسيان ابناء القبيلة انفسهم في عصور سابقة او لاحقة، لأن مثلا عليا، وقيما انسانية لا بد وأن حدث مثلها عشرات ومئات سواء في القبيلة نفسها ام لدى القبائل الاخرى، ومن هنا فانني اتساءل: لماذا نهضم اولئك حقهم؟ ونلصق هذه بهذا الشخص او تلك القبيلة؟! ولكن عندما ندرس القيم والمثل هذه ونضرب الامثلة من خلالها، نكون بذلك قد انصفنا تراثنا، واما العكس نكون قد هدمناه حقا.

واما اذا كان ما نذكره عن قبيلة معينة هو من السلبيات، فان لدى كل مجتمع، وعائلة وقبيلة وانسان فوق هذه الارض - سلبيات، ولكن تتفاوت في كميتها ونوعيتها، ومدى اطلاع او عدم اطلاع الاخرين عليها... ومن هنا فان ذكرها يثير غضب القبيلة المعنية، وسخرية القبائل الاخرى منها... وانا اتساءل لماذا نذكر سلبيات قبيلة معينة، وننسى سلبيات القبائل الاخرى؟

ولكن عندما نتحدث عن السلبيات في المجتمع البدوي، ونضرب عليه مثالا، فان الامر يختلف.

مما سبق اخلص الى القول: ان الافضل ان نكتب عن شمولية التراث وعموميته بعيدا عن التجزئة، وان نكتب عن التراث لدى القبائل، وليس عن قبيلة بعينها فهذه القبائل مهما تنافرت وتناحرت وتحاربت فان عاداتها تبقى موحدة تقريبا، او قل قريبة من بعضها لأنها ذات جذور اصيلة واحدة.

وعلى اية حال لا بد من الاخذ بعين الاعتبار عند الكتابة عن التراث البدوي، عدة نقاط وامور مهمة وهي:

ان التراث البدوي العربي جزء من التراث الاسلامي والعربي، لأن البدو جزء من الامة العربية والاسلامية، يتحدثون لغة الضاد ويعتنقون الاسلام، ويعيشون فوق الارض العربية، كما انهم كانوا الاصل للعرب المتحضرين عندما نزح اجدادهم من الصحراء الى الخضراء بحثا عن الحياة الافضل، وصراعا من اجل الحياة والبقاء، وتخلصا من القحط والشقاء.

ان العادات البدوية مستمدة في غالبيتها من التراث الاسلامي سواء من الايات الكريمة، او الاحاديث النبوية الشريفة، او ما وافق عليه النفسية العربية المسلمة المعروفة باتصافها بالشهامة والنبل والكرامة والترفع عن الرزايا والدنايا... ولو تفحصنا ابسط العادات واعظمها تلك العادات الجيدة الحسنة لوجدناها ذات اصل اسلامي بحت، وان ما خالف منها الاسلام لوجدناه تفسيرا مخطوءا لاصل اسلامي... ولنضرب مثالا على ابسط الامور ان البدوي يغضب ويتشاءم من النفخ في اللبن او الحليب، خاصة حليب الناقة ولو تساءلنا من اين جاءت هذه العادة، ربما لسيطرت علينا الدهشة انها حديث

نبوي شريف وهذا ما نجد نصه كالتالي في موطأ مالك (ص ٥٧٦):

١٢ - وحدثني عن مالك، عن ايوب بن حبيب، مولى سعد بن ابي وقاص عن ابي المثنى الجهني، انه قال: كنت عند مروان بن الحكم، فدخل عليه ابو سعيد الخدري، فقال له مروان بن الحكم: اسمعت من رسول الله (ص) انه نهى عن النفخ في الشراب؟ فقال له ابو سعيد: نعم، فقال له رجل: يا رسول الله اني لا اروى من نفس واحد فقال له رسول الله (ص): (فأبن القدح عن فيك ثم تنفس)، قال: فاني ارى القذاة فيه، قال (فاهرقها) "أهـ"

هذه من ابسط الامور، ولا شك ان المطلع او القارىء لكتابينا السابقين وهما (المرأة البدوية) و (من القيم والاداب البدوية)، يرى كيف نجد ان للتعاليم الاسلامية علاقة في ابسط واعقد، واكبر واصغر الامور عند البدو. وسنحاول باذن الله من خلال هذا الجزء القاء الضوء على الحقيقة في هذا الصدد. ونسأل الله سبحانه ان يؤتينا القدرة، والبصر والبصيرة لتحقيق ذلك من اجل خدمة الاسلام والتراث والحقيقة.

ولو استطلعنا الامثلة البدوية لوجدنا أغلبها استمرارا لامثلة عربية قديمة او لايات كريمة او احاديث نبوية شريفة، او حكم واقوال لمفكرين مسلمين سابقين ولا مجال هنا لذكر امثلة تدلل على ما نقول لاننا سنجد ذلك من خلال ما كتبناه، وما سنكتبه بعون الله.



الباحث في مركز شرطة رم (١١/١٢/١٩٧٤)

طبيعة الصحراء والباديـــة

لا بد من الاخذ بعين الاعتبار طبيعة الصحراء والبادية بحد ذاتها، ذلك ان حياة التقشف، وشظف العيش تؤدي بالانسان (مهما كان) لأن يعيش فلسفة معينة تتلاءم مع طبيعة البشرية، وطبيعة المنطقة ايضا، فالامن، والماء والطعام والكلأ هي اهم شيء لدى انسان الصحراء.

فالامن يتم حفظه بواسطة امرين هما: القوة، والاعراف، فالقوة هي حماية الانسان لنفسه او تضامنه مع الاخرين للاشتراك في حماية انفسهم معا او انضوائه تحت لواء الاخرين ليحمي نفسه او بناء قلعة ذات اسوار عالية وابواب متينة تمنع الخصم من تسورها والسيطرة على من فيها، او النزول في اماكن بعيدة عن مضارب القبائل والغزاة، او الاعلان الحيادي، فهناك قبائل يمنع في عرف البدو غزوها لأنها ارتضت لنفسها الخنوع، والذل، تماما كأية دولة محايدة في العصر الحديث، تتمثل فيها سفارات لكافة دول العالم المتناحرة المتنافرة، وربما تمر عبرها او تتركز فيها الجاسوسية العالمية، او اسلحة بطريقة خفية، كذلك لدى البدو هناك قبائل ارتضت لنفسها ان تكون ذليلة مهانة، ويعاب على البدو غزوهم او الاعتصام بهم، او الاستنجاد بهم، واذا فعلوا ذلك كان هذا مستهجنا تماما كما نستهجن في العرف السياسي وقوف دولة حيادية او محايدة الى جانب طرف من الاطراف في خصام ونزاع، واذا كان الانسان في العصر الحديث يبحث عن اللذة والمتعة لدى سكان الاماكن المحايدة، كذلك الامر لدى البدو حيث يستمتعون بنساء هؤلاء، وهم (الصلبة) ويقال ان اصلهم من بقايا الصليبيين، وتاهوا في الصحراء واعتنقوا الاسلام الا انهم ظلوا موضع احتقار البدو، كما ان نساءهم يتمتعن بجمال كبير وعاداتهم فيها خلاف لعادات البدو، وان كانت لهجتهم بدوية، ولكنني لا أؤيد هذا الرأي ولا انفيه (ان اصلهم صليبي)، وان وجدت لدي روايات اخرى تؤكد اصلهم العربي وهكذا نجد ان الامن في الصحراء واسع المفهوم جدا، جدا.

اما موضوع الماء فيحصل عليه من القيعان حيث تتجمع مياه السماء، وكذلك من (الخبرات) وهي حفر عميقة في الصخر او التربة المتحولة القاسية بحيث يكون الماء في حفرة تشبه البئر، وفي ظل، وتسمى الخبرة، ويحصل البدوي على الماء من عيون الماء، والابار، والواحات...

اما الطعام فهو ما يأكله الانسان ويتوفر من خلال التمر، وحليب الناقة، وهو طعام بسيط، وكاف كغذاء جيد ودسم. ولا ننسى ان للزراعة، والرعاية والصيد، والتجارة، وتبادل السلع والمنتوجات، اهميتها في توفير الطعام للبدوي، وكما يقولون (الجوع كافر) ذلك انه يؤدي بالانسان الى اقتراف ما ليس من الشرف من اجل ان يأكل.

اما الكلأ: فهو ما ترعاه الماشية، وتوجد في الصحراء، رغم (انها قاحلة) كثير من (الشجرة) (بتشديد وكسر الشين وتسكين الجيم)، وهي جمع شجيرة بالطريقة البدوية، كما تتوفر الاشجار، والنباتات الاخرى، وكلها مفيدة للبدوي ولماشيته... ومن اجل الماء والكلأ يتخلخل الامن او يستتب لدى انسان الصحراء، هذا الامن الذي هو شيء نسبي

وجزئي، لأنه قد يكون لدى قبيلة او جهة معينة، وبالمقابل يكون عكس ذلك في مكان اخر ومع القبيلة تجاه قبيلة اخرى، وقد يكون اليوم متوفرا، ومعدوم غدا، ومن هنا فهو نسبي، وموضعي، وليس عاما أو مطلقا أو شاملا، كما ان مفهوم الامن مزاجي لدى انسان الصحراء، لأنه قد يحارب اي انسان اذا اضطر الى ذلك، حتى ولو كان هذا صديقه فيما سلف، بعد ان يخلق ويوجد الجو الذي يهيء الحرب ويؤدي اليها.

وعندما توفرت هذه الامور الاربعة، الماء، والطعام والامن والكلأ، استقروا واستبدلوا القوة الجسدية بالاسوار الحجرية، واستبدلوا ماء القيعان والخبرات بماء الابار، وطعام حليب الناقة والتمر، بطعام متوفر في اي وقت تطلبه، ومن اي صنف تشتهيه (ربما).. وبدأ الاستقرار لدى بعض جماعات البادية، قبل ان يستقر غيرهم، وان المستقرين هم اصلا بدو واكثر الناس الذين تضرروا من الغزوات، فبحثوا عن الامن ولم تكن لديهم القوة لايجاد وتوفير الامن لانفسهم، فوجدوه في الاستقرار المكثف سواء في الاسوار بالقرى، او بمناطق مليئة بالاشجار بحيث تصعب السيطرة عليهم، او بمناطق وعرة لا طاقة للجمل او لصاحب الجمل العيش والتجوال فيها.

كما ان الاستقرار ادى الى وجود ما يشبه السلطة التي تساعد على توفير الحماية لهذا الانسان الذي تضرر من الغزوات، وعدم توفر الماء والكلأ والطعام، فبحث عن ذلك لنفسه ولمواشيه فوجدها في اطراف الصحراء حيث اقيمت القرى التي تحولت فيما بعد الى مدن، وتحول سكانها الى متحضرين.

كما ان الاستقرار كان بالدرجة الاولى لا بد وان تتوفر فيه هذه الشروط الاربعة، (الامن، الطعام، الماء، الكلأ)، وبذلك تحول الماء من مجرد استعماله لسقاية الناس والماشية، الى مشاريع زراعية منتجة، وضخمة، بالاضافة للمهمات السابقة كما تحول الكلأ من مجرد نبات ترعاه الماشية الى مشاريع رعاية كبيرة، ترعاه القطعان بطريقة منتظمة وحديثة.

السـلاطين في الصحـراء

وعند دراسة التراث البدوي لا بد من الاخذ بعين الاعتبار النقطة التالية:

ان في الصحراء اربعة سلاطين وهي الرمال، والنخيل، والجمل، والانسان.

واما اخطرها واصعبها فهو:

سلطان الرمال: ذلك انه يأتي على الماء فينهيه ويتحرك فوق النبات ويطمسه ويتحدث التاريخ عن ابتلاع الرمال لقرى ومدن وجيوش، وحضارات.... ولكن وسائل البدوي البسيطة في تجنب خطرها او الحد منها، لا يزيد عن تجنبها، بالرحيل من امامها، الى حيث لا يكون مسار الرمال، وربما طالت رحلته، وهجر هذا القحط، والجفاف الى حيث البادية واطراف الصحراء، حيث تلتقي الغبراء بالخضراء... وفي العصر الحديث بذل الانسان جهودا كبيرة للسيطرة على الرمال، الا ان ذلك بقي شيئا محدودا وعلى نطاق ضيق نسبي.

واما سلطان النخيل:

ففي النخلة خير عميم للانسان البدوي، فيها الطعام الذي يجزي عن اطعمة كثيرة، حيث انه مغذ، ويمكن نقله مسافات طويلة، كما انه لذيذ، ويمكن خزنه طيلة اوقات السنة... كما ان منظرها في الصحراء جميل، ويدل على وجود الماء بالاضافة الى اهمية ظلها في لهيب الحر، وان البدوي عندما يرى نفسه انه يملك شيئا يفكر بالفرس، والجمل، والنخل فيقول: لديه حوطة نخل او كذا حوطة نخل كدليل على اهمية الشخص والنبات، وحالة الشخص الميسورة.

واما سلطان الجمل:

فهو وسيلة البدوي للركوب، ويعيش على حليب الناقة مع التمر، وقد يستغني عن التمر الذي يشكل طعاما، لكنه لا يستغني اطلاقا عن حليب الناقة الذي يعتبرونه (المروي المقيت) اي انه يغني عن الماء فيرويهم، وعن القوت فيشبعهم، ويلعب الجمل اهمية في حياة البدوي سواء للركوب، ام للزينة، ام للطعام ام للشراب، ام لاستعمال وبره كخيطان وحبال، وصنع البيوت والخيام، بالاضافة الى ما يستفيده من جلده لصنع قرب الماء واللبن، والاحذية المسماة (نعله - بكسر النون - ومفردها نعال)، وقرب التخزين، كما يستعمل مصارينه كأحزمة، ومشدات، ....الخ

ولكي ينتقل البدوي هاربا من خطر الرمال او العدو اوليجلب الماء، والتمر اوليرِ حيث الماء والكلأ، او يعمل في شؤون التجارة لا بد له وان يستعمل الجمل كوسيلة لتحقيق ذلك. انه احدى سلاطين الصحراء بلا منازع، خاصة وان الله خلقه بحيث يناس الصحراء سواء في صبره وجلده، ام في سعة خفه فلا تغرز في الرمال، ام في الفوائد الج التي يجنيها البدوي منه.

واما السلطان الرابع: فهو الانسان: انه سلطان السلاطين، وملك الملوك، فهو قادر على ان يستخدم كل هذه الامور السابقة، وقد خلقها الله وسخرها له، فهو يركب الجمل، ويقتنيه ويزرع النخل ويأكل تمره اذا اثمر، كما انه يتحكم باخيه الانسان ايضا، وحول هذا السلطان تدور الحياة، ويدور حديثنا او ما نكتبه عما لديه من تراث.

تقليد الحيوانات:

وعند الحديث عن التراث البدوي لا بد من الاهتمام بما لدى هذا الانسان من تراث نابع عن **تقليده للحيوان**، فالبدوي يعيش في صحراء او بادية فيها كثير من الحيوانات، واعجبه تصرفات ونفسيات كثير منها، بينما كره صفات وطباع البعض الاخر،

فنحن نرى الشاعر البدوي الذي وفد الى هارون الرشيد يقول:

انت كالكلب في حفظك للود وكالتيس في قراع الخطوب

ويقول الشاعر المعاصر:

شتمـــوا الخــؤون بقولهم مــا انــت الا ابـــن كلب
نســـوا الـــكلاب وفية يـــا ليتنـــا منهـــا وربي

ولو تساءلنا كيف تعلم الانسان طريقة دفن اخيه الانسان، لوجدنا الجواب في القرآن الكريم عندما قتل احد ابناء سيدنا ادم شقيقه فحمله لا يدري ما يصنع به فارسل الله اليه غرابا ليريه كيف يواري سوأة اخيه **"فبعث الله غرابا يبحث في الارض ليريه كيف يواري سوأة اخيه، قال: يا ويلتا اعجزت ان اكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة اخي".**

كذلك فالبدوي يرى كيف ينقض الصقر على فريسته بسرعة خاطفة، حتى سموا ابناءهم باسم الصقر، وكذلك يدركون سرعة الذئب، وخداعه وشجاعته فاحترموا ذلك وتيمنوا باسمه حتى اطلقوه على ابنائهم، وكذلك الفهد، والاسد، واذا عرفنا ان البدوي حقود، وصبور عرفنا كم اعجب البدوي بهاتين الصفتين للجمل لاهميتهما في حياته.

والبدوي حذر كالغراب ايضا، (فالمشهور عن الغراب انه اذا رأى الانسان طار خوفا من ان يكون لديه حجرا يضربه به)، كذلك البدوي يكون حذرا من كل من يعرفه او لا يعرفه، لأن التورط بكلمة واحدة او تصرف واحد قد تؤدي به الى الهاوية والهلاك، وقد يتعداه الى قبيلته، تماما كرجال السياسة المعاصرين عندما يتحدثون ويتصرفون بحذر لانعكاس أثر ذلك على بلدانهم وسياسة دولهم.

ونقطة اخرى هي التأثر بطبيعة الصحراء: والتي من طبعها او طبيعتها الهدوء ثم فجأة تثور عواصف لا اول لها ولا اخر، تهدأ فجأة، او تستمر، كذلك حرها اللاهب نهارا وصيفا، يقابله برد قارس شتاء وليلا، كذلك مطرها الذي يأتي فجأة سيول عارمة، وعواصف جارفة، حتى ليخيل الى الرائي ان السماء والارض اصبحت رتقا في طبقة واحدة، وان الحياة ستنتهي الى هنا؟! ثم يأتي جو من الصفاء والنقاء، والهواء الرائع.... اي ان الصحراء مجمع النقيضين وكذلك الانسان البدوي الهادىء الكريم اللطيف الطيب المهذب، اذا اثارته كلمة او تصرف من طرف اخر (خاصة فيما يتعلق بكرامته) يثور وينقلب الى وحش مفترس، حقود، صاخب، سفاك للدماء... الخ، ثم يعود بعد ان يرى انه انتقم لكرامته وشرفه يعود الى حيث كان من الطيب، واللطف، والكرم والتهذيب، وان الغريب على البدوي يرى هذا التناقض العجيب، واذا اردنا ان ندرس دراسة علمية، فلا شك اننا يجب الا نغفل دور طبيعة وطبع الصحراء في ايجاد هذا الشيء المتناقض في طبع البدوي.

ونقطة اخرى: هي دور الاجرام السماوية الاخرى: والمظاهر الطبيعية في التراث البدوي، فلديه خبرة بالقمر ومنازله، والنجوم ومواقعها، والكواكب السيارة وحركاتها وعلاقتها ببعضها، فالنجم المسمى (الفحل) اذا ضرب الثريا فالعام يكون عام خصب ونماء، وعلى هذا الاساس يتصرفون... وكذلك اذا طلع النجم المسمى (سهيل) دل هذا على قرب موعد الشتاء فيقولون (اذا طلع سهيل لا تأمن السيل).

وقد عبد بعض قدماء العرب بعض النجوم واهتموا بالبعض الاخر (كالشعرى)، حتى ان الله قال سبحانه في كتابه العزيز (وانه هو رب الشعرى) اي كم هي عظيمة في نفوسهم فان الله هو ربها وخالقها واعظم منها.

كذلك توجد الكثير من الحكايات والروايات حول نجمة الصباح، وعلاقة الشمس بالحية، والحيوانات الاخرى، مثلا يعتقدون ان الشمس والحية تحاورتا من يظهر بطنها للاخرى قبل الثانية. فقالت الحية للشمس: لا افعل ذلك حتى تفعلي انت، فاظهرت الشمس بطنها، وانهزمت الحية واختبأت بالحجر، وبقيت كل منهما على حالها، لذلك نراهم اذا قتلوا الحية قلبوها، ليكون بطنها للشمس انتقاما منها على فعلتها، وبطبيعة الحال فهذه الحكاية نابعة من طبيعة الحية انها دائما تزحف على بطنها الذي لا يظهر للشمس لذا يكون لونه مميزا بالبياض، فكانت هذه الحكاية، وهذا الاعتقاد.

كذلك نرى للقمر والشمس دور كبير في الاغاني البدوية، واعتبارهما المقياس لجمال الفتاة كقول البدوي:

الله خلـــق بالـــكون شمس مع قمر وانت اعتديـت والعـدا سبـب خطر
لا تبينـــي وســط النهــار تلفعي ما تحتمـل شمسـين اجسـام البشر

وقولهم:

والشــمس غابـت (يــا ابـــن فلان) واريــــد ادور معازيبي
والدلـــة تســكب على الفنجان وبهارهـــا جوزة الطيب

وقولهم:

يـــا قمـــر يالي تشــع النور واطلـــع من الشرق سليني

وقولهـــم

يـــا نجمـــة الصبـــح يالي حالـــوا عليـــك النشامى

وقول الشاعر العربي القديم (النابغة الذبياني):

وانـــك شمس والملـــوك كواكب اذا طلعـت لم يبـد منهـــن كوكب

وجود القلاع القديمـــة

ولا بد من الاخذ بعين الاعتبار ايضا **وجود القلاع** التي بناها الانسان سواء البدوي او غيره والموجودة في الصحراء والبادية عند دراسة التراث البدوي ويتحدث الشاعر البدوي حيث سيصل مرساله الى قصر (برزان)

تجـــي على برزان حلـــو المباني كل يقـــول بجيرتـــي ما يتعدن

وهذا البدوي الاردني يتغنى بقلعة الشوبك (في جنوب الاردن) ويقول:

هذي يا الشوبـك كنهـا شاة الفريد فيهـــا النشامـــى حامـــين اسوارها
هذي يا الشوبـك ما نبيعـه بالزهيد اليـــا فرعـــن البيض نحمـــي جالها

ويقول ايضا:

والشوبـــك يا بنـــت طمـــوح اللي تجـــر اردانهـــــا

وايضـــا:

والشوبـــك يا حلـــو اســـــواره فيهـــا العيـــال النمــــارا

وفي قلعة الكرك يذكر الشاعر كيف ان السجناء الذين وضعهم الاتراك فيها قد نقبوا السور والبناء، وهربوا فيقول:

يــــوم النمــــارا نقبـــون السوارا قلعة الكرك كن خربوها بلا افكار

وفي الامثلة الشعبية نجد الامثلة التالية: (نومة اهل الكهف)، وايضا، (خراب جرش، او البراطيل خربت جرش)، او (حتى تقوم ناقة صالح)، وهذه جميعها بالاردن وبالتالي يراها الناس ويمرون بها، ولا عجب ان تبقى الامثلة المطابقة قريبة من اصلها رغم اندثار معالم هذا الاصل.

الطرد السكاني:

ولا بد عند دراسة التراث البدوي من الاخذ بعين الاعتبار **ان الصحراء هي بحد ذاتها عامل طرد سكاني،** وهي في حالات نادرة عامل جذب سكاني اما الطرد فيكون بسبب الجفاف، والحياة الصعبة، وندرة الماء والكلأ، ويصبح المورد ومؤهلات الحياة والامكانات غير قادرة على تلبية احتياجات السكان الذين يضطرون من خلال حبهم للحياة والنجاة وحب البقاء ان يبحثوا عن بيئة تمكنهم من الاستمرار بالعيش والحياة، فيتركون قلب الصحراء الى اطرافها او الى الواحات، وهنا قد يحدث الاستقرار حيث تكون استراحة وربما رغد العيش، ويرى البدوي في ذلك نعيما كان محروما منه تماما.. ويختلط بحضارات اخرى، وقبائل اخرى، وهنا نجد التبديل والمرونة والتغيير والتطوير في الكثير من العادات بالامور التي تقتضيها الظروف الجديدة، ومن هنا نرى ان جميع البنايات، والاثار والحضارات الواقعة عند حدود الصحراء، هي لانسان الصحراء، وكانت موضع استراحته، او لانسان الخضراء المجاورة، وهذه مهرب، ومكان استراحة وامن له، عندما يحن لاصل حياته الصحراوي، او عندما يشعر بالخطر وعدم الامن في الخضراء، فيلجأ الى بحر الرمال، حيث لا يتمكن العيش والحياة الا من كان قادرا وقويا، ومن هنا فان الصحراء قد تكون عامل جذب ليس في طبيعة حياتها الصعبة، وانما في طبيعتها الامنية لأنها تكون حماية ووقاية فعليه وقوية لمن يدخلها، ونحن نرى في التاريخ كيف ان المسلمين، استطاعوا النجاة في معركة (مؤتة) عندما انسحبوا الى الصحراء. ونرى كيف ان الدعوة العباسية بدأت في الصحراء الاردنية في الحميمة قرب القويرة في جنوب الاردن، ونجد قلاع واحة الازرق كيف انها كواحة قد اجتذبت البدو، وامراء الرومان ثم امراء امية من بعدهم... ومثل هذه المراكز الحضارية، او السكان الموجودين هنا لا بد وان تكون هناك صلة في عاداتهم بين عادات الصحراء، والخضراء لأنهم مضطرون للتعامل مع الطرفين، كما انهم قادرون على الحياة مع الطرفين لأنهم يألفون حياتهما، وقريبون منهما.

وهكذا فان النقاط العديدة التي سبق وتحدثنا عنها، يجب اخذها بعين الاعتبار عند التحدث عن التراث البدوي، ويجب ان تتم الدراسة على اساس المبدأ (الاصل) والعادة، وتطورها عبر الزمن ومن خلال الاختلاط بالاقوام والاجيال.

قبل أن نبدأ ثانيـــــة

امور يجب اخذها بعين الاعتبار عند دراسة المناسبات.

ان المناسبات جزء من التراث، ولكن لا بد من وجود نقاط معينة يجب اخذها بعين الاعتبار عند دراستنا لهذه المناسبات، ويتحتم القاء الضوء على بعض ما نعتقده، وما هي الا محاولات، ونأمل ممن يأتي من بعدنا ان يكمل المشوار.

ان المناسبات هي نتيجة طبيعية لحياة الانسان: فالولادة مناسبة، وكذلك الموت، وهما (شيء طبيعي في حياة الانسان) - (المهد واللحد)، ففي الاولى فرحة انضمام عضو جديد للاسرة، وزيادة في عدد القبيلة والعصبة والعصبية. وفي الثانية فراق، والفراق صعب، وكما يكون الضحك في الاولى والرجاء، يكون في الثانية الحزن والبكاء، ومن طبيعة الحياة: الولادة، والنماء، ثم الموت.. وهذه امور مهمة في المناسبات البدوية سواء أكانت دينية ام دنيوية.

كذلك يجب اخذ اعتبار لنفسية الانسان، حيث يتأثر بما حوله من ظروف طبيعية وبشريه، فهو يتغزل بالربيع والصيف، ويشكو من برد الشتاء كما انه يرتاح لكل ما يريحه، ويغضب، وتتوتر اعصابه لكل ما يسبب ذلك. والانسان بطبعه يحب ان يعبر عما يجيش بخاطره بوسائل كثيرة، سواء بالضحك او البكاء، او الحركة او الكلمة، او العزف على الشبابة والناي او الجر على الربابة، او بقول الشعر وربما بالصمت، وكل هذا حسب طبيعته هو، وطبيعة الظروف والامكانات.

ان في المناسبات وسيلة للتجمع وزيادة مظهر العصبية الذي هو العمود الفقري لحياة الانسان البدوي، ففي الافراح يتجمعون معا، ويتعرفون على بعضهم ويتحسسون الام وامال بعضهم البعض، كما انها مظهر للاعتزاز والافتخار وتحذير للعدو، وبالتالي فان لذلك نتيجة معنوية حسنة للجماعة، وبالعكس على عدوهم.. وهكذا يكون التجمع بفرحتين الاولى هي المناسبة التي جاءوا من اجلها والثانية انهم تجمعوا معا وكما يقولون (نفس الرجال يحيي الرجال) وايضا (شيخ بلا عزوته تقل هيبته)، وفي ذلك رباط قوي مع الشيخ ايضا بالاضافة الى انه زيادة لروابطهم بشيخهم وولائهم له، تماما. كما يتجمع القادة في العصر الحديث لتحية قائدهم سواء للتهنئة، او ليطلعهم على اخر التطورات، وما يجب عمله، او التداول في شؤون اخرى. والانسان بطبعه لا يستطيع الا ان يعيش مناسبة، سواء أكانت فرحا ام ترحا، لأنها نقلة ضرورية في حياته من جو الى اخر، ومن حياة لاخرى - (حياة العزوبية - الى حياة الزواج)، كما أن الفرصة شيء تلقائي لأي لقاء جماعي في مناسبات الافراح، بالاضافة الى انه يخفف الحزن في مناسبات الاتراح.

والمناسبة وسيلة للتقريب بين بعيدين: بين الذكور والاناث حيث يتمكنون من رؤية بعضهم، وتكون فرصة الى الحياة الزوجية، والحب، وبين شخص واخر، وكل يحاول التعرف على الاخر، او التقرب منه، او ازالة خلاف او سوء تفاهم، فيغتنمون فرصة

الاعياد، او الافراح، او مناسبات التجمع، او العودة من مشوار وسفر... وبذلك تكون المناسبة شيئا ضروريا لخدمة الانسان في اغراضه هذه.

كما ان المناسبة ضرورة اقتصادية: فهناك النقوط في الزواج، وهناك عمل الولائم، وهناك العمل الجماعي في قص الصوف والشعر، وخياط البيوت، والحراث والحصيدة (فيما يسمى عونة) اي تعاون مختلف الاطراف معا من اجل تحقيق الهدف الفردي بطريقة جماعية..

كما انها اشباع لحاجات نفسية، مادية او معنوية، فالولائم تسد جانب حب اكل اللحم وحاجة الجسم الى ذلك بين فترة واخرى، بالاضافة لما تؤديه هذه المناسبات من النشوة الذاتية، واحيانا السعادة خلال ممارسة هذا الشيء.

والمناسبات وسيلة لتبادل الاخبار، واشباع حاجة حب الاستطلاع، وهاتان الخصلتان يحبهما البدوي كثيرا، وحياته تحتاج الى معرفة كل ما يدور حوله وفي المجتمعات المجاورة.

والمناسبات مدرسة يتعلم بها الجميع اصول التعامل والحديث والتصرف، وذلك بنقل ذلك من بعضهم بعضا، او ايجاد ما يناسبهم ليصبح امرا متعارفا عليه، وبالتالي يتحول الى عادة يتقيد بها الجميع.

ومناسبات الافراح وسيلة للترويح عن الانسان ايضا، هذا الترويح الذي يكون بصفة فردية كالحداء والغناء والعزف، والجر عندما يهيء الانسان بمفرده جوا لنفسه، او عندما يشارك الاخرين بذلك ضمن جو عام لهم اوجدوه لانفسهم، او احتفلوا بمناسبة ما.

وقد **يكون الترويح حرا**، اي ان الفرد او الجماعة يمارسونه بالطريقة التي تناسبهم في اي مكان وزمان سواء في مخيم او رحلة صيد، او في اماكن معينة او في البيوت، او في المرعى، **وقد يكون ترويحا مقيدا** اي ان الفرد او الجماعة يلتزمون به حسب اصوله المتفق عليها سواء من حيث الحركة، او الزمان او المكان.

وهناك الترويح التجاري الذي تقوم جماعات (النور - الغجر)، عندما يجتمع الناس في مجلس وتقوم الغجريات بالرقص والترويح عن الحضور سواء في مناسبة او بغير مناسبة، وكل هذا يؤدي الى راحة نفسية وجسدية، بالاضافة الى ما قد يؤديه من اهداف تربوية في تعليم الجيل الناشيء مثلا: كيفية التعامل والتصرف.

ولا بد من اخذ الاساطير البدوية، والامثال، والسير الشعبية بعين الاعتبار عند دراسة المناسبات، اما الاساطير فقد تتحدث عن نشأة المجتمع، او ما يتصل منها بالعالم الغيبي، والجن والشيطان، والملائكة.

كما ان للاعتقادات دورها الكبير، فمثلا زيارة قبر احد الاولياء، وذبح شاة عنده.

كما ان الامثلة بحد ذاتها هي مستودع ومخزن كبير للعادات والتقاليد، وتصنيف الحياة البدوية، ومن ضمنها المناسبات المختلفة كما سيأتي ضمن **التفصيل** القادم ان شاء الله.



الفصل الرّابع

مناسبات الافراح

الخطبة

الفصل الرّابع

مناسبات الافراح

الخطبة

في اللغة "الخطبة" بكسر الخاء، مصدر هي: طلب المرأة للزواج وايضا: المرأة المخطوبة/ وايضا: ما يقدمه الخاطب عربونا للخطبة (بكسر الخاء)

الخطب - (بكسر الخاء وتسكين الطاء) - وجمعها اخطاب: الرجل الذي يخطب المرأة - وايضا: المرأة المخطوبة.

الخطبة (بضم الخاء وتسكين الطاء، وفتح الباء): الخطابة، الخطاب (خطبة الكتاب) "بضم الخاء" مقدمته، وخطبة الافتتاح، كلمة تلقى عند افتتاح دورة، او دروس، في اول حفلة او احتفال.

خطب الفتاة: بفتح الخاء والطاء والباء دعاها الى التزوج/ طلبها للزواج/ (خطب وده) تقرب اليه تودده.

والبدو يلفظون الخطبة بكسر الخاء ليعنوا بها خطوبة الفتاة والخطوة العملية نحو الزواج، وفي المدينة يلفظونها بضم الخاء، ونرى ان اللفظ البدوي اصح من الناحية اللغوية.

كان اهل الجاهلية يخطبون قبل العقد، بما يرونه من ذكر مفاخر قومهم ونحو ذلك يتوسلون بذلك الى ذكر المقصود والتنويه به، وكان جريان الرسم بذلك مصلحة، فان الخطبة مبناها على التشهير، وجعل الشيء على مسمع ومرأى من الجمهور، والتشهير به يراد وجوده في النكاح ليتميز من السفاح، وايضا فالخطبة لا تستعمل الا في الامور المهمة والاهتمام بالنكاح وجعله امرا عظيما بينهم من اعظم المقاصد، فابقى النبي صلى الله عليه وسلم اصلها، وغير وصفها، وذلك انه ضم مع هذه المصالح مصلحة اخرى وهي: انه ينبغي ان يضم في كل ارتفاق ذكر مناسب له، وينوه في كل عمل بشعائر الله، ليكون الدين الحق ناشرا اعلامه وراياته ظاهرا شعاره واماراته، فسن فيها انواعا من الذكر كالحمد والاستعانة والاستغفار والتعوذ، والتوكل والتشهد، وآيات من القرآن، واشار الى هذه المصلحة بقوله **(وكل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء)** وقال صلى الله عليه وسلم **(فصل ما بين الحلال والحرام، الصوت والدف في النكاح)**[1].

والاصل (المبدأ) في الخطبة هو التشهير بذكر مفاخر القوم، ومحاسنهم سواء اهل الخاطب او اهل المخطوبة، فيقبل المطلوب ذلك ويعتبرها فرصة حسنة بالالتحام معهم ومصاهرتهم. وفي العادة تغيرت وتطورت، فقد كانت في الجاهلية تحتوي ذكر المفاخر، بما فيها من العصبية العمياء، اما في الاسلام فقد رأينا كيف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بقي على اصلها وغير وصفها.

---

١) سيد سابق فقه/ السنة/ م٢ ص ٢٣٠ دار الكتاب العربي/بيروت.

في الجاهليـــة

خرج سهل بن مالك الفزاري يريد النعمان بن المنذر ملك العرب، فمر ببعض احياء طي فسأل عن سيد الحي فقيل له: (حارثة بن لام)، فقالت له اخت حارثة: انزل في الرحب والسعة، فنزل واكرمته وحيته بما يستحق ان يحيا به الضيف، ثم انها خرجت من خبائها، فرأى اجمل اهل دهرها واكملهم، وكانت سيدة قومها وسيدة نسائها، فاستولى منظرها على لب سهل بن مالك، ووقع في هواها، واحب ان يشعرها بما في نفسه - ولم يدر ما يفعل ولا يعرف ما هو القول الذي يوافقها، ثم غلبه الامر فجلس في فناء الخباء يوما وهي تسمع كلامه فجعل ينشد ويقول:

يـا اخـــت خـــير البـدو والحضارة كيـــف تريـــن في فتــــى فزارة
اصبـــح يهــــوى حرة معطارة ايـــاك اعنـــي واسمعـــي يا جارة

فلما سمعت قوله: عرفت انه يعنيها، فبادرت قائلة له: ما هذا بقول صاحب عقل اريب ولا رأي مصيب، ولا انف نجيب، فاقم مدة اقامتك مكرما، ثم ارتحل متى شئت مسلما، ويقال انها اجابته

انـــي اقـــول يا فتـــى فزارة لا ابتغـــي الــــزوج ولا الدعارة
ولا فراق اهـــل هذي الجارة فارحـــل الى اهلك باستخارة

فاستحيا الفتى سهل بن مالك، وقال: واسوأتاه، ما اردت منكرا، واستحيت هي ايضا من تسرعها الى اتهامه وقالت: صدقت.

ثم ارتحل سهل بن مالك الى النعمان فحياه واكرمه، فلما عاد في طريقه مر بحي (حارثة بن لام) ومعه ما وصله به النعمان، وكان هو فتى وسيما جميلا، ومالت اخت حارثة اليه، فأرسلت اليه: ان كان لك في زواجي رغبة فاخطبني، فاني ساوافق على ما تريد، فخطبها وتزوجها وسار بها الى قومه[1]

وهذا الذي ذكرناه نوع من **الخطبة المباشرة**، حيث لا وسيط بين الطرفين، فما ان يقع الاعجاب بعد النظرة، ثم يدخل الحب، فيعبر اللسان عن هذا الشعور كل نحو الاخر، وقد يكون من الرجل تجاه الانثى، او من الانثى تجاه الرجل كما رأينا في نفس الحكاية.

خطبة الرسول (ص)

"يقال: ان ابا طالب هو الذي نهض مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو الذي خطب خطبة النكاح، وكان مما قاله في تلك الخطبة: اما بعد: فان محمدا ممن لا يوازن به فتى من قريش الا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا، وان كان في المال قل، فانما المال ظل زائل، وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك"[2]

---

[1]) عن مجلة العربي عدد ١٨٠ نوفمبر سنة ١٩٧٣.

[2]) سيرة ابن هشام ج١ ص ١٧٤ - دار الجيل

اشكال الخطبة

والخطبة لا تكون دائما من طرف واحد، وانما تتحكم امور كثيرة في ذلك، منها طبيعة الخاطب والمخطوبة، والقبيلة، والظروف التي يعيشونها، فهنالك فارق بين ان تتم في وقت الرخاء او الشدة، في السلم او الحرب، في التشرد او العز، في حالة وفاة والديها او بقائهما على قيد الحياة، وايضا نجد للفقر والغنى اهمية قصوى، وعلى اية حال فالخطبة تبدأ على اكثر من طريقة:

الطريقة المباشرة: وهي ان يبدأ الطلب من جانب العريس او العروس، او والديهما والمبدأ في ذلك ان تكون الخطبة من جانب الرجل، فهو الذي يختار، ويطلب، لأنه رجل وقوام على المرأة، وله عليها درجة، وهو الذي سيتملكها ويقتنيها كشريكة لحياته، اما اذا بدأت هي فينطبق عليها حينئذ قول البدو: (لا تدلل على بضاعتك ترخص وتنزل قيمتها)، فالرجل يستطيع ان يجد فتاة، مهما كانت سمعته حسنة او سيئة، وذنوبه قد تغفرها له شجاعته او كرمه، او ان يغير سلوكه وسيرته الرديئة، باخرى طيبة، اما الانثى فان اي طعن بشرفها او سمعتها يجعلها موضع الرفض، ليس كرها بها دائما، وانما هناك شيء اهم وهو: الخوف والخشية ان يقال: هذا فلان زوج فلانه، واولاده من بعده يعيرون انهم ابناء فلانة، اي ان الرفض لا يكون شخصيا، بمقدار ما هو رفض اجتماعي، وبالطبع هذا بحد ذاته عقاب لكل من تسول لها نفسها العبث بشرفها، وبالتالي تتحاشاه سائر بنات البدو، وهذا يساعد ان تبقى الواحدة بعيدة عما يدنس كرامتها، وبالطبع هناك امور اخرى الى جانب هذا الامر تجعلها بمعزل عن السوء.

ومن هنا فعلى الفتاة ان تترقب نصيبها، يساعدها في ذلك سمعة اهلها، او والدها او خالها، او امها، او جمالها، او عراقة نسبها او سيرتها الحسنة... الخ

وبينما يستطيع الشاب ان يطوف ويتخير، فان الفتاة تتخير من يتقدمون لها فقط ولكن في العادة قد يختلف الامر قليلا او كثيرا عما هو في المبدأ او الاصل.

فمثلا قد تختار الفتاة زوجها، وتوعز اليه بطرقها الخاصة، ان هيا واخطب، وقد قرأنا قبل قليل حادثة (سهل بن مالك الفزاري مع شقيقة حارثة بن لام). وكما سنرى من الامثلة العديدة التي سنوردها بعد قليل باذن الله عن البادية في عصور مختلفة منها العصر الحاضر.

ويأتي طلب الفتاة من طرفها على عدة صور سواء بصورة خفية او ايحائية، او علنية، او ذكر صفات الرجل وهي تقصد شخصا يفهم هو انه المقصود او ذكر شخص باسمه، وقد ترسل المراسيل من الذكور او الاناث من طرفها، وقد تعتمد على ذكر ما تريد امام احد حرم او اصدقاء الشخص الذي تريده، وربما تعتمد على نقل الاخرين للكلام، وقد تكون الطريقة بقولها: (عساك ما انت مثل فلان)، اي انها تفضل فلانا هذا على غيره، ولا شك ان ذلك يعتبر دعوة شبه صريحة له ليخطبها وهكذا نجد ان للبدوية الحرية في اختيار الخطيب والزوج.

ذكر الشخص بالاسم (من قبل الفتاة)

وهذا يأتي على اكثر من شكل. فقد يكون بعيدا بالنسب والمنازل، او عدوا، او غائبا، او منصرفا عنها في حب اخرى. وهنا يكون ذكر اسمه لانه لم يعد هناك مجال للمساومة، وتكاد الفرص ان تضيع، لذا فان تحديد الاسم يضع النقاط على الحروف، ويعجل (بنضج الطبخة) حيث لا خيار بعدها، ونادرا ان يترك الشخص المسمى الفتاة التي تسميه الا اذا كانت اقل منه مقاما بكل شيء، وبالطبع فانه في الغالب لا تجرؤ على هذا الا بنات الشيوخ والوجهاء، حيث لهن الحرية في التعبير عن الرأي، والحرية في الاختيار اكثر من سائر فتيات الحي.

وذكر الاسم هذا قد يكون بارسال مرسال معين اليه يقول مباشرة: فلانة تسلم عليك او فلانة تريدك... وقد يكون بارسال مرسال ليقول كلاما غير مباشر في مدح الفتاة امامه.

وهذا يأتي باكثر من صورة، مثلا ان يقال لشاب بعينه: الله لا يبلاك بحب فلانه، او الله يبلاك بحب فلانة؟! فيبدأ بالبحث عنها، وهذه وسيلة نفسية تشويقية بشكل ينم عن ذكاء بكرامة وشرف يحافظ على الانثى والرجل معا بعيدا عن السفاسف، وعندما يصل هناك تبدأ حياتهما، ربما بالاتفاق او بعدمه، وقد تكون الدعوة هذه بطريقة غير مباشرة اخرى، واذكر مثل هذه ان كان يأتي شخص وعادة يقوم بهذه المهمة بهذه الطريقة،



الباحث بعد سماع الروايات ومشاهدة بعض العادات عند عين لحظة/ لواء الطفيلة "حزيران ١٩٧٢"

الخدم، والعبيد، والكادحون من الناس والصناع: اي الذين يستطيعون الاطلاع على حرمة البيت دون ان يوجس صاحبه منهم خيفة، او يخشى جانبهم، وهذا يقوم بمهمة بسيطة متواضعة، اذ يقول للنساء او للشاب نفسه ان لدى فلان ابنة لا مثيل لها، ويبدأ بذكر صفاتها.

ومن طبيعة البدو ان اذانهم لا تشبع من الاخبار، فاذا اعجبهم ما يقوله الرجل فقد تكون هذه سببا في الانطلاق في حياة جديدة... الخطبة ثم الزواج.

وطلب الفتاة قد يكون على شكل تمني بالزواج من فلان، وهذا بحد ذاته نوع من طلبها له، ومن قصص ارسال المرسال من فتاة لشاب، ما نجده لدى فتاة بدوية اعجبت بشجاعة الشيخ الشاب عدوها وعدو اهلها، رغم انها لم تره، وكان اسمه جلعود، وحيث انها ابنة شيخ، وهو ابن شيخ، فلها الحق اذن ان تتقدم اليه لأنه سيجدها في مستواه وكفاءته، فارسلت الخادم اليه، وقال له: فلانه تسلم عليك وتريد الجواب، فوقف الشاب قليلا واجاب بصوت خرج من اصطدام اصبعه الوسطى والابهام معا مصاحبا لهذه الحركة بقوله: (سلم عليها وقول لها ان شاء الله) فعاد الخادم واخبرها وفرحت بذلك لأنه يعني انه سيأتيها بعد عام من يوم كلامه، وتخفى بهيئة خادم يصنع القهوة ويجمع الحشيش للخيل، واخيرا سئم هذه الحياة، فقال شعرا.

يا ونتي ونـة من سرى الليـل حشاش   عقـب الحيـا يطلـع على كل منقود

ثم قال ابياتا بين فيها شخصيته واسمه، فعرفت الفتاة انه هو، وبالطبع كان في هذ المدة يدرس الوضع وينتهز الفرصة ليقول كلمته في الوقت المناسب وتزوجته، وحل الوئا بين القبيلتين بدلا من الحرب بينهما[1].

وطريقة أخرى أو لنقل سبب آخر يجعلها تطلب شخصا بعينه وذلك عندما يكثر الخطاب (ومفردها خاطب) من حولها، وتخشى ان تقع هي او ولي امرها، او اهلها تحت

---

1) والقصة ان جلعود هذا قد تخفى بزي خادم فقير، وعمل لدى والد الفتاة مع المتفرقة (اي الخدم والرعاة) الذي اوكل اليه مهمة الحشيش للخيل، وراقبته الفتاة ذات يوم واذا به يمتص حثل القهوة، فعرفت انه صاحب كيف بالقهوة، وخبأتها عنه، لترى رد الفعل عنده، ذلك ان البدوي المدمن على القهوة لا يستطيع الانقطاع عنها طويلا، وذات ليلة بينما كان الناس نياما والفتاة لم تنم بعد، اخذ الربابة وراح يجر عليها جرا خفيا ويقول:

يا ونتي ونة من سرى الليل حشاش	عقـب الحيـا يطلـع على كل منقود
خلا هدوم الجز من الجـوخ وقماش	ومجـالس بهـا من الـزل ممدود
قم سوي فنجان ترى الراس منداش	يا شوق من قرنه على المتـن مرجود
وبدلـة مربوبـة عدهـا الشاش	وبهارهـا موقـوم خمسـة عشر عود
الياجوك عالفنجـان شفقـين وعطاش	وكبش الغنم يظهر على الزاد مرجود
لـذات بالدنيـا معاميـل وفراش	وصينيـة يدرج بهـا العبـد مسعود
صبي ما يروي شنظرة السيف لا عاش	يصبح عليـه مطـرز الجيـب مقدود
شفـي بصفـرا باول الخيـل تهتاش	اليا ناضها عقبـي تثـوع ثوع بارود
شفـي بصفـرا باول الخيـل تهتاش	واليا صار عند اقطيهن حسن جلعود

ورغم الاستنتاجات الكثيرة التي يمكن اصطفاءها من هذه القصيدة الا اننا اوردناها هنا لتدل كيف ان البدوية تستطيع ان تطلب من تحب أو تريد ولكن بطريقة مستورة مهذبة، مع اناس يحترمون ذلك.

التأثير، فتقع حيث لم تكن تحب أو ترغب، وبخلاف ما في ذهنها وعقليتها، فتضطر هنا لاعلان رفض المتقدمين، وحينها يجب ان تخرج بنتيجة وهي: من تريد؟ طالما أنها رفضت (فلانا وفلانا) وبالتالي تتوضح الرؤيا لدى الجميع، كرد على من يريد التقدم من غير المرفوضين ايضا. وهذا ما نجده في هذه الابيات حيث فتاة اسمها عجايب ترفض الخطاب الذين تقدموا وتعلن رغبتها من فلان بعينه فتقول:

قالت عجايب بنت مروي شبا الزان حيث ان ابويه ناشد عن خوالي
أبوي فكاك الضعن يوم الاكوان واخوي حماي البكار المتالي
ما اريد انا الجربا ولو ساق الاظعان لو جاب غرسات الحسا للشمال
وما اريد انا (باشا) حلب و(ابن شعلان) ما اني حليلتهم ولا هم رجالي وبعد

هذا الافتخار بالاهل، وانها من قوم اقوياء اشداء محاربين، لهم قيمتهم وكيانهم ورفضها (للجربا) رغم انه شجاع، بل انها ترفضه ولو نقل ماء الاحساء ونخلها وجنائنها الى منطقة الشمال الصحراوية، كما انها ترفض باشا حلب (اي حاكم حلب)، وابن شعلان، لأنهم ليسوا من مستواها (في رأيها) ولن تقبل ان تكون حليلة أي واحد منهم ثم تقرر ما تريد، انها تطلب هذا الشخص فتقول:

اريد انا ولد الخريشة سليمان ذباح زومات العساكر قبالي

وفي رواية:

أنا حليلة مطرب الخيل سلمان ذابح طوابير العساكر اقبالي

انه القرار النهائي العلني عما في نفسها، فهي تختار من تريده حليلا (زوجاً). وتسميه بالاسم مع ذكر بعض صفات الشهامة البارزة فيه فهو (مطرب الخيل) اي انه فارس في الحرب وفروسية الخيل، كما انه جرىء لا يهاب الموت حيث قتل طوابير العسكر وهم جنود من الاتراك جاءوا ضيوفا عنده، وحاولوا احتقاره. وطلبوا اشياء يعجز عنها، وأهانوه، فقتلهم جميعا، وقد يتساءل البعض: كيف يقتل ضيفه والرد أن هؤلاء ليسوا ضيوفا، لأنهم جاءوا باسم السلطة لا باسم الضيافة ولم يرضوا بالضيافة التي تليق بمقام الضيف، وانما اعتدوا على الكرامة والحريم وبالتالي فهم ليسوا ضيوفا اذن، ولا غرو ان يقتلهم أو يطردهم أو يشردهم.

وقد تكون خطبة الفتاة لشاب عن طريق اختيارها له، وقطع عهد على نفسها انها اختارته، وبالتالي لن تقبل له بديلا، حتى ولو لم تتزوج ما بقيت حية، وهذا برهان واضح ان البدوية تعبر عن رأيها بصراحة وحرية، وان لها نفس كنفوس الرجال تختار ما ترغب وتحب فنجدها تقول:

لي نفس مثل من نفوسكم يوم تختار والنفس يملكها الغلا والمودة

واذا كانت فتاة العصر الحديث تعبر عن رأيها في زوجها، الا انها لا يمكن ان تصل الى هذه الدرجة من التعبير والتفكير كما وصلت هذه البدوية، في البيت السابق الذي ورد ضمن ابيات قالتها بدوية كانت لحسنها وجمالها مثار اعجاب جميع شباب القبيلة وخارجها، فرفضتهم جميعا واعلنت حبها لابن عمها ورغبتها فيه، حيث نجد اسم (عياد)

الوارد في القصيدة هو الذي يحاول خطبتها فترفضه وتمدحه (انها لا تذمه) فأراد قتل ابن عمها الذي تصفه بالصقر (من صواريم سنجار) الذي تحبه ليبقى وحده في الميدان، الا ان ابن عم الفتاة سيطر على (عياد) الذي دخل بوجه الشاعرة فعفى عنه ابن عمها اكراما لها فقالت الشاعرة المحبة لابن عمها هذه الابيات:

(عيـاد) يا ريـف المسايـير والجار   مـا شفـت بالعينـين للنـاس عدة
عينـت حر من صواريـم سنجار   يـا كثـر ما شل الدمـي في مهده
عسـاك لي يا مكرم الضيـف عذار   بـالي عطـاك المنـع والمال رده
لي نفس مثـل نفوسـكم يوم تختار   والنفس يملكهـا الغـلا والمودة
مـن حال تنهانـا عن العيـب والعار   عشـق يجي بالعيـب ربـي يصده

وقد تعارض الفتاة رأي والدها حول موضوع الزواج وتصر على شخص معين وتفضله على غيره لأنه شجاع، ولو انه فقير، ذلك ان مقياس السعادة عندها ليس المال والوجاهة المادية بمقدار ما هي بالشجاعة والفروسية، فطالما أنه يحميها من العدو، وقادر على الغزو، فانه يأتي بالمال في اية لحظة، فالفقر شيء يعوض، اما الشجاعة، اذا فقدت منه فلا يمكن غرسها فيه ابدا، وبالتالي فهي لا تعوض وهي تقول: [١]

لعيـون من قـال لعيونـه يجـري   اخـلاف الرديـات
هـذاك يا بوي ما دونـه لـو   المواشـي قليـلات
اليـا درهـم الجيش ينخونـه يـوم   الركايـب حفيـات

وبالعادة يكون طلبها الصريح هذا من والدها، بينها وبينه، او لامها التي تنقله لأبيها، وربما لاختها المتزوجة، او لجدتها من الام او الاب، وربما تخاطب احد اجزاء البيت، ووالدها يسمعها على طريقة (اياك اعني واسمعي يا جارة). وأما الوالد فاما أن يطيعها في رأيها أو يحاول اقناعها، والأمر يختلف من وقت لاخر، وحسب الظروف

---

١) فهي تخاطب عياد وتمتدحه ضمن عادة البدو في مدح العدو والغازي، وتقول انه كريم يشبع القادم عنده من المسايير (الوافدين من قريب)، والضيوف الم تر كيف فعل ابن عمي الذي احبه، وما رايت منه من شجاعة واقدام اريدك ان تقوله للناس... الم تره هذا ابن عمي الذي هو من الصقور النادرة الممتازة من نوع (صواريم)، سنجار (وهو اسم مكان مشهور بالصقور الجيدة القوية)، وما اكثر ما اراق من الدماء في غاراته وهجومه.. ولعلك تعذرني ايها الكريم (وهذا تكرار لمدح عياد)، بالذي عفى عنك ولم يقتلك، ورد اليك مالك الذي فقدته، وكان بامكانه اخذه وسلبه منك. فاذا كنت كريما. فابن عمي الذي احبه اكثر كرما وشهامة منك لانه عفى عند المقدرة.

...ثم تقول: ان لي نفس مثل نفس اي ذكر، واذا اختارت انسانا وملكتها مودته ومحبته فلماذا تلومونها، فلماذا تلومون حبي لابن عمي ولا تلومون حبكم لي، وتنهاني عن هذا الحب الشريف العفيف، وليس فيه اي عيب، لانني احب ابن عمي، واحبه بشرف (من اجل الزواج) وهذا بحد ذاته ليس عارا واذا كان هناك اي عار بهذا الحب فاسال الله الا يحققه لي، وان يبعدني عنه، ويبعده عني.

١) انها ترفض الزواج اكراما لخاطر عيون هذا الشخص الذي كان في الحرب ينتخي من اجل عينيها (من قال لعيونه)، ذلك ان البدوي عندما يهجم على الخصم عادة يقول بعض الكلمات منها (خذها من يميني وانا اخو فلان، او وانا ابن فلان...) وقد يقول (خذها لعيون فلانه)، اي اكراما لعينيها ومن اجلهما... ومن صفات هذا انه يجري (خلاف الرديات) اي انه خلف الابل او الخيل البطيئات اللواتي قد يلحق بهن العدو وعندما يكون هو خلفها وهي عائدة، فهو بالتالي حاجز بينها وبين العدو، فهو يحميها.. انها تحبه ولا تاخذ غيره، وتعلن ذلك لوالدها صراحة، حتى ولو كانت مواشيه قليلة... ان قومه وربعه ينخونه وقت الحرب، ويقولون: وين راح فلان... وليس في الايام العادية فحسب، بل وايضا في الوقت الذي تكون فيه الركايب، مهترئة الاخفاف، وغير قادرة على المسير بسرعة فتحتاج الى من يحميها، ومن هنا نرى ان البدوي يشبه الركايب البطيئة (والتي حمايتها شجاعة ممتازة) يشبهها بقوله - الرديات - الحفيات - الوندات - اللحوحات... الخ) كما جاء في مواضع مختلفة وشرحناه.

والاشخاص، اما بنات الشيوخ، فنادرا ما يتزوجن الا برغبتهن، أي بمن يوافقهن عليه، أو على الاقل من لا يعارضن على التزوج منه...

وقد تطلب الخطبةوالزواج من الشخص على مسمع العشيرة، اذا عمل عملا بطوليا، حينها يعتبر هذا وسام شرف للطالبة والمطلوب، ويباركه الجميع، لأنه يعتبر نصرا للبطولة، وتشجيعا للرجال والشباب ان يكونوا دائما وباستمرار شجعانا، ابطالا تتغنى بهم الفتيات، ويطلبن ودهم، بدل ان يطلبوا هم ودهن، ويفتخر والد الفتاة، ان ابنته هي نصيب هذا الشجاع المقدام، لأن مصاهرته تشرفه.

إن الموافقة تعتبر نوعا من الدوافع والحوافز للشباب ونجد في العصر الحديث اعتماد الجيوش، والدول للحوافز والدوافع لجعل الجندي او الموظف يقبل على الوظيفة والجندية، أو يستمر بهما، وعندما نعرف أن الغزو هو حرب، ونار ودمار، واما قاتل أو مقتلول، عرفنا كم هي اهمية الاقدام والشجاعة، وما يجب ان تكون من الحوافز والدوافع لمزاولة ذلك برغبة لا تشوبها شائبة[1].

ونضرب مثالا على الزواج من فتاة تطلب الفارس، ذلك أن احد الشباب كان قد إنهزم من المعركة، فسمي (الشردان) أي الذي يشرد، (أي ينهزم) (أي ينكص على عقبيه)، فاصبح موضع احتقار واذلال القبيلة، ولكن في احدى الغزوات استطاع أن يثبت موجودية، وان يقتل عقيد القوم من اعدائه، وهزمهم شر هزيمة، وعندما عاد قومه يتحدثون عن شجاعته وشرب الفنجان الأول، واخذ الموضع المناسب في المجلس في بيت الشيخ، اطلت ابنة الشيخ من فوق الساحة واعلنت انها لا ترغب بالزواج الا من فلان فوافق الجميع، وأمسى عريسها بنفس الليلة...

وقد تكون خطبة الفتاة لشاب يصغرها وهي اكبر منه، وتختاره منذ ولادته، أو طفولته، انه سيكون زوجها في المستقبل، وتنتظره حتى يبلغ اشده وتتزوجه، ومن ذلك ان فتاة كانت في بداية سن المراهقة عندما ولد ابن عم لها وقد مات عمها، وشفقت على هذا اليتيم، الذي تزوجت امه في طفولته، فربته ابنة عمه، ورفضت الخطاب، واعلنت أن خطيبها هذا الطفل، وهكذا حتى كبر وبلغ اشده فتزوجها وولدت له سبعة اولاد.

وخطبة الفتاة للشاب، أو الانثى للذكر ليست محرمة في الاسلام، بل انها عادة مأخوذة من الشريعة الحنيفة، بشرط ان تتم بشروطها بكرامة، وشهامة بعيدة عن السفاسف والحقارات، والفضائح، واذا كان هذا العصر والمجتمع المتمدن يتيه أن فتاته تحب من تشاء، وتكره من تشاء، فان المجتمع البدوي الاسلامي قد سبقهم الى ذلك فتقول البدوية:

---

١) هناك دوافع وحوافز ايجابية، واخرى سلبية، اما الايجابية فهي ان الفارس القاتل له حق اخذ فرس قتيلة (قلاعه)، وله حصة من الغنائم تزيد على المحارب العادي، ويحق له التزوج من الفتاة التي تطلبه بعد القيام بالبطولة، ولو كان اقل منها نسبا، وشرفا، وله الفنجان الاول على سائر الرجال، وله مكان بالمجلس، ولو كان ممتلئا، فيقوم غيره ليجلس هو، وان يقال لعربانه – عرب فلان – اي يسمون باسمه، اما الحوافز والدوافع السلبية فهي، العار والمعيار، وعدم اخذ اخته او ابنته، ولا يفرش له فراش، ولا تصب له القهوة، ولا يقومون بوجهه، ولا يسمح له ابداء رايه..الخ

لي نفس مثــل نفوســكم يوم تختار والنفس يملكهــا الغــلا والمودة

وعلى أية حال فان الاصل الاسلامي لعادة البدو التي ذكرناها واضح في الحادثتين التاليتين: الاولى خطبة السيدة خديجة رضي الله عنها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، "وكانت خديجة امرأة حازقة شريفة لبيبة، مع ما اراد الله بها من كرامة، فلما اخبرها ميسرة بما اخبرها به، بعثت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت له: يا ابن عم... اني قد رغبت فيك لقرابتك، وسطتك (من الوسط، وهي من اوصاف المدح والتفضيل)، في قومك وامانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها، وكانت خديجة يومئذ اوسط نساء قريش نسبا، واعظمهن شرفا، واكثرهن مالا، كل قومها كان حريصا على ذلك منها لو يقدر عليه"[1]

والحادثة الثانية نجدها في هذا الحديث النبوي الشريف[2] فقد جاء تحت عنوان (باب ما جاء في الصداق والحباء)

"حدثني يحيى بن مالك، عن أبي حازم بن دينار، عن سهل بن سعد الساعدي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاءته امرأة، فقالت: يا رسول الله! اني قد وهبت نفسي لك، فقامت قياما طويلا، فقام رجل، فقال: يا رسول الله زوجنيها، ان لم تكن لك بها حاجة، فقال رسول الله (ص)، (هل عندك من شيء تصدقها إياه؟) فقال: ما عندي الا ازاري هذا) فقال رسول الله (ص) (ان اعطيتها إياه، جلست لا ازار لك، فالتمس شيئا)، فقال: ما اجد شيئا، قال: التمس ولو خاتما من حديد، فالتمس، فلم يجد شيئا، فقال له رسول الله (ص) (هل معك من القرآن شيء؟)، فقال: نعم، معي سورة كذا، وسورة كذا لسور سماها، فقال له رسول الله (ص): (قد انكحتكها بما معك من القرآن" واذا كانت هذه الحادثة تبرر عدم استهجان الرسول (ص) ان تخطبه امرأة، فانها تعني جواز مثل هذه الخطبة اذا وافق عليها الرجل، كما انها تعني ايضا انه يجوز لولي امر القوم تزويج الفتاة لمن يخطبها وترغب فيه، وهذه السنة يطبقها البدو كما سنرى باذن الله، فالشيخ يحق له تزويج اية فتاة من القوم للشاب الذي يراه مناسبا لها، واذا احب اثنان بعضهما، ورفض الاهل زواجهما، هربا عند احد الشيوخ الذي يجيز لنفسه ان يزوجهما، ولا شك ان البدو يأخذون ذلك من خلال حادثة تزويج الرسول (ص) لهذه الامرأة لخاطبها عندما لم ترفض ذلك ولنا في رسول الله عليه السلام اسوة حسنة، ورب مغرض يقول ان المجتمع البدوي اباحي في هذه النقطة مثله في ذلك مثل المجتمع الغربي او قل المجتمع الذي يسمي نفسه العصري، ولكنني اتساءل جوابا على ذلك:

اليس هناك فارق بين طلب الفتاة الشاب لنفسها بطريقة بعيدة عن الاخلاق والشرف ولممارسة عمل يخل بهذا الشرف وبالكرامة، وبدون هدف سام، وانما لتحقيق غاية عارضة، كاللذة، او المال، او ربما التجسس؟ وبين البدوية التي تطلب الشاب من اجل الزواج، الذي هو اشرف علاقة بين رجل وانثى؟، ثم اليست البدوية اكثر ذوقا وارفع

---

1) السيرة النبوية لابن هشام ج1 ص 172

2) الموطأ – مالك ابن انس ص 325.

اخلاقا عندما يكون الشاب الذي تطلبه انسانا حقق شيئا يجلب الهيبة والاحترام؟ كالشجاعة، والانتصار على العدو، او لجاهه بين ربعه، واحترامهم له، بغض النظر عن فقره او غناه؟! ورأينا هذا في الابيات الشعرية التي ذكرناها في صفحات سابقة... اليست هذه البدوية ارفع ذوقا من ابنة المدينة والعصر التي تطلب الشخص لا لانسانيته، وانما لسيارته او عمارته او منصبه؟

فالبدوية تبحث عن السعادة النفسية والشهامة، اما المدنية فتبحث عن السعادة المادية، واللذة العارضة، وهذا لا تجده لدى فقير الا ما ندر؟!

واذا التقت الفتاة العصرية والبدوية بهذه النظرة، فان الفارق بينهما: ان ذلك نادر عند العصرية - فنسبة من تبحث عن السعادة في احضان الفقراء نسبة ضئيلة للغاية، اما البدوية فان ذلك من شيمها وطبيعتها.

وقد تكون الخطبة من الانثى للرجل بكلمة تقولها: (عساك ما انت فلان)، او (عساك مثل فلان) او (يا ريت فلان بعدك)،[1] وهذه دعوة صريحة لحب الفتاة لهذا الشخص (فلان)، وكأنها تقول له: هيا واخطبني، واذا كانت متزوجة، فالغالب أن زوجها يطلقها، والذي ذكر اسمه (فلان) يتزوجها، وحدث أن فتاة كانت جميلة وتزوجها أحد اقاربها، وحصل شجار بينهما ذات يوم فقالت له: (عساك ما انت فلان)، فطلقها، فوصل الامر الى المقصود، فتقدم لخطبتها، وتزوجها، لكنه طلقها بعد عدة سنوات.

وقد تكون الخطبة من الفتاة بواسطة (عجوز، او امرأة) سواء بايعاز من الفتاة او من اهلها، او بدون ذلك ابدا، وقد تكون هذه (اللعبة الخطيرة) بقصد السوء كأن تعرف المرأة القائلة ان اهل الفتاة لن يوافقوا على الزواج من الفتى الذي يضطر للالتجاء للقوة والغزو، ليأخذها بهذه الوسيلة ومن ذلك، ان عجوزا قالت ذات صباح كلمة لشاب بدوي (ابن شيخ): (يا ريت الله يبلاك بحب فلانة)، فكانت هذه كلمة في ذهنه، وصمم عليها، وبحث عن الفتاة، ورفض اهلها تزويجه، فدارت الحروب بينهما سجالا، حتى انتهت بالصلح، والزواج.

وقد تكون الخطبة من طرف اهل الفتاة، كأن يقول الوالد او ولي الامر لشاب او لرجل: فلانه (اخته، او ابنته، او موكلته) وصلتك هدية ما من وراها جزية[1] ويكون هذا في حالات كثيرة منها: ان يعمل الشخص عملا بطوليا.. يستحق عليه المكافأة، واكثر ما يكون هذا الوسام، وهذه المكافأة: فتاة، لأن لها اهميتها وقيمتها، انها تقابل في عصرنا الحاضر الاوسمة، والمكافآت والجوائز المادية والمعنوية التي تعطى لمن يحقق عملا بطوليا، ولكن الفرق ان ما يتم في المجتمع البدوي مبني على العدالة الحقيقية، فالوسام والمكافأة، والجائزة تعطى لمستحقها الذي يعمل عملا يشهده الجميع، او يشهد له الجميع، او لا يوجد من ينافسه على انه فعله، بل يقر ويعترف كل واحد انه المتفرد بفعله، اما في عصرنا

---

١) اي ان (فلان) هذا يعتبر هو فارس احلامها، وانه مثال الرجل الذي تحبه وتريده، وانك تعتقد بنفسك ايها الذي اكلمك انك فارس احلامي، وما انت كذلك، ولو كنت مثل فلان لكان الامر كذلك، وطالما انك اقل منه، فانت بالتالي، لست الذي تستحقني، وانا ارفع من مستواك... وتاتي العبارات الاخرى في اطارها العام بنفس المعنى تقريبا.

الحاضر فالامور تتم على اساس من المزاجية الشخصية، والاهواء العقائدية والحزبية والمحسوبيات، فتضيع العدالة بجرة قلم جائرة.
وقد يكون منح الرجل الفتاة الى شاب لاعجابه به وباخلاقه او طمعا في التقرب منه، ذلك ان البدو يقولون (دور لبنتك مثل ما تدور لابنك) وقول اخر (دور لبنتك قبل ما تدور لولدك)، ذلك ان الفتاة تبقى مرتبطة باهلها، (وخيرها لزوجها، وشرها على أهلها). واي سوء يصيبها يتدخل الاهل فورا، وقد يكون اعطاء الاهل لابنتهم او الاب او الاخ... الخ للفتاة في معركة فيقول: من يعطيني رصاصة لاقتل عدوي اعطيه اختي او ابنتي ... الخ من ينقذني او يسقني ماء؟. من يكفيني شر هذا العدو ويأخذ فلانة (الابنة او الاخت..الخ) وبالطبع فهذه فرصة امام الجميع شيبا وشبانا ان يلبوا طلب الشخص ليأخذوا الفتاة التي حددها بالاسم، وهذه تعتبر بمثابة نطق لا يجوز الرجوع فيه حتى ولو كان الذي انقذه ابن عمه، او احد اقاربه، الذي له عليه حق الحماية.
وقد يكون التزويج او الخطبة من جانب الانثى ان يقوم الجد او كبير العائلة بتزويج احفاده من بعضهم دون ان يعارض اي منهما قراره، وقد تكون من طرف الوالد كشرط مقابل القيام بعمل معين كما فعل سيدنا شعيب عليه السلام عندما اتفق وسيدنا موسى عليه السلام ان يرعى غنمه مقابل الزواج من ابنة شعيب عليه الصلاة والسلام.

الخطبة من قبل الرجل

قصدنا من تقديم موضوع خطبة الانثى للرجل، لأن الغالبية يجهلون ذلك، و يتصورون حتى في الخيال ان تجرؤ بدوية على خطبة رجل، او الزواج ممن تحب، و عرفوا ان ابنة الصحراء قد سبقت ابنة المدينة والتقدم المادي في هذا المجال، وهي تسلك طريقة شريفة لطيفة، بعيدة عن الاضواء، فان نجحت كان به، والا (لا احد درى ولا احد سمع، ولا حد شاف)، بينما في المدينة يتباهى الشباب انهم موضع اعجاب الفتيات، ويتباهى احدهم ان فلانه تقدمت اليه ورفضها، فيفضحها بين الناس، اما البدوي او البدوية فلا يجرؤ اي منهم التبجح بان فلانة طلبته ورفضها، لأنه حينئذ يتعرض للعقاب، فعمله هذا بمثابة طعن لشرفها وقد يلاقي حتفه بالموت جزاء عليه، او يقعد (حق عرب) لقاء ما تكلمه على بنات الناس.. اما في المدينة (فاللسان مبلول ويش ما اشتهى يقول) بدون رقيب او حسيب، كما ان لوك الاعراض، والطعن بالناس والاناث، شيء معتاد في كل جلسة تقريبا،.. اما ما يقال ان فلانا طلب فلانة ورفضته فهو امر معتاد لدى البدو الا اذا كان المتقدم يستحق الزواج من هذه الفتاة نسبا او شجاعة، او سمعة حسنة؟! حينها يجب ان تكون هناك تفسيرات.. فهل هي مرتبطة بشاب اخر؟ وعليها حينئذ ان تعلن ذلك او تعطي (بالطبع لاهلها)، واهلها يعطون للاخرين اسبابا مقنعة، كأن يقال: هي لابن عمها، وعادة يقال: ان اهلها لا يريدون تزويجها الان، فهذا يعني عند البدو انهم لا يرغبون تزويجها منه، او إنهم يطمعون باخر... وعلى كل فان تصرف البدوي يبقى مبنيا

على الشرف والاخلاق، والضبط الاجتماعي، ومحاسبة الشخص لنفسه على كل كلمة قبل ان يحاسبه الاخرون.

كما انه يحق للاهل رفض خطبة شاب لابنتهم، اما ان ترفض هي اذا رغب **اهلها** بذلك، فعليها ان تعطي الاسباب لهؤلاء الاهل، ليطمئنوا.. لأن من اصعب الأمور ان يكتشف البدوي أن ابنته تعيش قصة حب، وان هناك اموراً تحدث من خلفه لا يحبها او تسبب له الدمار والعار والفضيحة.

وسنتحدث الان عن (المبدأ) وهو ان يبدأ الرجل باعلان الخطبة من الفتاة، وان يطلبها هو، وحول ذلك يعتقد البدو انه من ناحية ميل القلب والعقل فالانثى تبحث عن الذكر بما يساوي ضعفي بحث الرجل عن الانثى، فلها ثلثان وله ثلث وكما يقولون (لها ثلثين الخاطر)، وحول ذلك يعتقدون ان امنا حواء عليها الصلاة والسلام كانت تبحث عن ابينا ادم عليه الصلاة والسلام، ليل نهار بينما كان هو يبحث نهارا وينام ليلا، وعندما رأته حواء قبل ان يراها جلست في طريقه وكأنها لا علم لها بما حدث او يحدث، وفرح (ادم) وهو يجد ضالته، واعلن أنه بحث عنها نهاره منذ ان افترقا وهبطا من الجنة، اما حواء فقد ادعت انها هبطت في هذا المكان ولم تتحرك منه... ومن هذه الحكاية او الاعتقاد، يرى البدوي ان حواء هي حواء! فهي تبحث عن الرجل ليل نهار، والزواج هو شغلها الشاغل اكثر من الرجل، وعندما تعثر على ضالتها المنشودة تتظاهر انها هي المطلوبة وليست الطالبة، وانها لم تتزحزح من مكانها؟!

واذا عرفنا ان المرأة هي عورة، وأن الحياء يضفي على جمالها جمالا وهيبة ومحبة، وأن أي شيء يدنسها يدنس شرف اهلها جميعا، ويجعل حياتها في سوء وبلاء، وقد لا تجد الزوج وبالتالي لا تجد من يستر عليها، حينها يمكن تصور مدى خطورة الحياة التي لا تطاق ابدا... بالاضافة الى ان الجرأة والتقدم والصيد، والاعلان عن الرأي والرغبة هي من الامور التي يحتاجها الرجل اكثر من الانثى والتي يتصف بها، واذا كانت تلك تحتاجها المرأة فهي على نطاق ضيق جدا... بل انها صفات معيبة في المرأة اذا تصرفتها بشكل علني، فلها الحياء، والستر وقصر الخطوة، وعدم الاعلان الصارخ عن الرغبات.

إن الرجل يجب ان يتقدم للخطبة لانه يحتاج الى ابناء وعزوة ورجال يساعدونه، ويساندونه، يريد العصبة، وخطبة الشاب او الذكر للفتاة والانثى تكون في اكثر من صورة وطريقة كالتالي:

فقد يقوم الشاب نفسه بالخطبة، او تقوم امه بهذه المهمة، وربما احدى قريباته، او جده او عمه، او شيخه، او مرسال او صديق **واما خطبة الشاب لنفسه:** ان يرى فتاة او تذكر او توصف له، فيبحث عنها حتى يراها، ويتقدم منها ويخبرها بقصده الشريف بالزواج، وقد يلتقي بها على العين، ويطلب منها ان تسقيه، والماء يعبر عادة عن الحب، واحيانا عن الجنس وطلب اللذة، حتى يقال في شعرهم ان الحبيب اسقاه من ريقه كناية عن القبلة والحب فيقول البدوي مثلا:

حلــو من ريقـــه اسقانـــــي سكر نبات قوطـــر عنـــي وخلانـــي دشرنـــــي وفات

وتعطيه الماء، ومن هنا تبدأ الشرارة، وعادة يسألها عن الاسم بما يشبه اللغز، وعن اهلها - هذا اذا لم يعرفها - وصدف ذات مرة ان التقى شاب بفتاة على الماء فطلب منها الماء فاسقته، فسألها عن اسمها فقالت اسمي على جنبك، فنظر الى سيفه ثم نظر اليها فقال: قوك يا فتنة - ذلك ان السيف هو فتنة الحرب، وهو الذي به يقوى الشخص على الاخرين، ثم سألته عن اسمه فقال: اسمي بين عيونك، فقالت: يا هلا بك يا سعد اي ان ما بين عينيها سعادة وحظ عال"

وقد تبدأ رؤيته لها في معركة سواء من بنات القبيلة او بنات القوم (القبيلة المعادية)، فيبحث عنها حتى يتوصل اليها، وقد تبدأ في مناسبة فرح: كعرس او ختان، او الاحتفال بالانتصار في الغزو، خاصة اذا ابدى هو من الشجاعة والفروسية في الصابية، او بعد الحرب مع العدو، وكيف ابلى بلاء حسنا فيستقبل الناس الغزاة وتزغرد النساء وتقع النظرة والحب، خاصة وان الحب عند البدو يبدأ من نظرة، ويكون سريعا وفعالا، وصادقا...

وربما يراها وهي ترعى الغنم، ذلك ان الفتاة البدوية، ترعى الغنم، وليس في ذلك عيب ابدا، فنحن نعرف ان بنات سيدنا شعيب عليه الصلاة والسلام كانتا ترعيان الغنم عندما جاء موسى عليه السلام من مصر، وفتح البئر واسقى غنمهما، ونجد مثلا احد فرسان البدو يلاقي فتاة يحبها، ويطلبها من نفسها لنفسه خاطبا فيقول:

مـــن علمـــك يا بنـــت لسروح الغنم ريتــــه بشلفـــى من يمـــين الشافي
يـــا بنـــت لو جدي قريـــب لجدك لالبســـك ثوب الحريــــر الوافي
واريحـــك يا بنـــت من قول انعجي واركبـــك عالضمـــر العيافـــي

فهذه دوة طريفة لطيفة بخطبة فتاة التقى بها وهي ترعى الغنم، فبدلا ان يقول لها اريد الزواج منك بكلمة مباشرة يتحايل كما هي عادة البدوي في اعطاء الخلفية وليس الكلمة مباشرة، فيتمنى لو كان ابن عم لها، ليلبسها ثوب الحرير الوافي، ثم يتساءل: من علمك ان تسرحي الغنم.. ويدعو عليه ان يقتل بحديدة قوية حادة (شلفى) ويقتله بها شخص شجاع، ويجهز عليه تماما.. ثم يقول: لو تزوجتك لارحتك من الرعاية، وقول (انعجي) وهي كلمة تقال للغنم، وتستبدلين المسير على قدميك بالركوب على الابل الضامرة الاصيلة... اما جوابها فهي ترفض الزواج منه بكلمة في قصيدة بقولها "انا ما بشفي ملولح ردنه"، اي لا اريد شخصا صفته كذا وكذا، وهي تقصد هذا الذي طلبها، وكأنها بذلك ترده على عقبه خاسرا ما طلب.

وقد تكون الامور صدفة ان يراها ذات مرة بدون سابق ترتيب، وكما يقولون (رب صدفة خير من الف ميعاد)، والبدو يقولون (الصدفة خير من الميعاد) فيقع في حبها.

وقد يراها في الحقل تقوم بالاعمال المطلوبة من المرأة تحصد، او تلتقط الحب، او التمر، وربما تحلب الغنم او الابل، وربما مع اخته او احدى قريباته، وربما وهي ذاهبة



احدى دوريات شرطة البادية التي تساعد على منح الامن والطمأنينة للمواطن وتراثه

لجلب الحطب للبيت، وربما واهلها رحيل، أو ظروف الجيرة (الجوار). او حبه لشخص واعجابه به فيبحث عن اخت او ابنة له، وهذا يحدث بشكل مستمر وكبير عند البدو ان يعجب شخص باخر، فيجده كفوأ للنسب، فيبدأ البحث عن اخت او ابنة له، او ربما ابنة عم، يطلب خطبتها، بحثا عن خال لابنه في مستوى رفيع وممتاز.

وربما يعجب قوم او اسرة بفتاة تزوجت عند جيرانهم او اقاربهم فيبحثون عن اخت لها تكون بمستواها من الاخلاق، والقدرة على الخدمة. والمبادرة قد تكون من الشاب نفسه، بان يذهب للفتاة بشكل سري بعيد عن الانظار ويحاول ان يتحدث معها، وربما يتوصل معها الى (التعليلة) اي ان يأتي ليلا حيث تنام ويحدثها، وتكون هذه بعيدة عن التبذل، والاستهتار والعبث بالشرف، بل تتم بعيدا عما يدنس الشرف والكرامة.

وربما يصل بهم الحد الى الخطيفة عندما لا يوافق اهلهما (وخاصة اهلها) على مثل هذا الزواج، ذلك ان الخطف عند البدو يكون اخر حل لتحقيق الزواج، وهو يمثل قمة امرين اولهما رفض اهل الفتاة لهذا الزواج، والثاني حب هذه الفتاة للشاب، فهي لا تذهب معه الا وهي ترجح حبه بكل ما سواه، فقد تقتل وتموت، ولا تنسى شرفها وسمعتها هي واهلها وعشيرتها، التي تتلطخ كلها نتيجة لذلك، ومن هنا فالبدو يتجنبون قدر الامكان ان توضع فتاتهم (ابنتهم) في موضع تضطر معه للخطيفة، لأنه قد يحدث نتيجة ذلك حروب وغزوات.

...وعندما يتوصل الشاب مع الفتاة الى نتيجة الموافقة، ويعرف انها غير مرتبطة مع احد، ويعرف عنها معلومات كاملة (عن جو اهلها) (واولاد عمها) يفكر في كيفية الاقدام ويسير في باقي مراسيم الخطبة ثم الزواج، كما هو معتاد، وكما سيأتي ذكره بعون الله.

وقد ينقذها من سوء او بلاء طبيعي كالجوع أو العطش، أو المطر، أو الحر، أو الليل.... او حيواني، كحيوان مفترس، او بشري: كاعتداء من شخص، حينها يتفقان على الزواج على انه حاميها او ربما يخاويها، وتصبح كأخته، وتعتبر في عرف البدو كذلك، ومحرمة عليه عندهم.

ممن تكون الخطبة:

ليس هناك شخص واحد يخول بالخطبة في جميع الحالات، فكما ان الولد قد يخطب لنفسه، او تخطب له والدته، او والده، او عمه او خاله، او شيخه، او وجوه العشيرة، او (معلانه)، اي اذا كان يعمل راعي غنم، او مرابعي (اي حراث) عند شخص، فصاحب العمل اسمه (معلان)، والجمع معالين...فان خطبة الفتاة تكون ممن (ممون) على ذلك، اي قادر على اتخاذ اقرار سواء بدون معارضة الاخرين ام باتفاقهم...

وربما تكون الفتاة نفسها قادرة على اتخاذ القرار ولكن حتى في هذه الحالة. فأنه يجب العودة لأهلها، لأن التعامل مع النساء مباشرة بشكل شامل شيء مرفوض، لكنه مقبول بشكل جزئي، اي تسوية الامور معها، ثم يتم مع الرجال، وكما يقولون (نريد رجالا) لتتم الالتزامات بين الطرفين، وتحترم المواثيق والعهود، علاوة على ان المرأة غير قادرة دائما على اتخاذ القرار الصحيح ولا غنى لها عن رأي الرجال لحفظ حقوقها، وليهابها ويهاب رجالها اولئك الخاطبون وليعرفوا ان امامهم رجال، وهذا بحد ذاته حفظ لحقوقها وحياتها، واذا لم تكن لهذه الانثى اهل او رجال، تولى امرها اقرب من وجب عليه ذلك، كوجيه القوم او شيخهم، او جارها او من تربطه بها اية رابطة وطيدة، ويتصرف حينها كوالدها، ويطالب بحقوقها المعجلة والمؤجلة وعلى اية حال فان الفتاة لا يشترط ان تخطب (بضم التاء) من والدها فحسب، بل قد يتم ذلك بطرق اخرى... عن طريق شيخها او اخيها او امها او اخوالها، او وليها ايا كان، او من نفسها كما قلنا قبل قليل، وربما من اهل الرأي بالقبيلة.

من شيخها:

يعتبر الشيخ في عرف البدو هو الاب والوالد لجميع افراد العشيرة، لذا فان يتصرف من خلال مصلحتهم، وما يفيدهم، وينفعهم، فهو الذي يعلن الحرب والسلم، ولديه الصلاحية بتقرير مصير العشيرة كاملة، ومن باب اولى ان يقرر مصير فرد من افرادها ذكرا كان ام انثى، وتزويج الشيخ لفتاة يكون في اكثر من حالة: ففي الحالات العادية عندما يرى المناسب هذا لتلك، يأتي بوالديهما، ويعرض عليهما رغبة هذه، مع اعطاء المبررات، وتتم العملية بموافقة ولي الامر المباشر لكل من الطرفين، وحسب رغبة الشيخ وذلك اذا كان الشابان موافقين.

واحيانا عندما تحول الصعوبات دون تزويج اثنين من بعضهما، فيأتي احدهما للشيخ يقص عليه الامر، فاذا كان رجلا، قال للشيخ او لابنه، واذا كانت انثى قالت للشيخه (زوجته او ابنته او ام او حفيدة الشيخ)، وتتم دراسة الوضع، ثم يأتي بولي امر كل من الشاب والفتاة ويتصرف كما قلنا قبل قليل، واذا حدثت مشكلة بين شاب وفتاة، ورغب الشيخ في حل الموضوع بشكل سري ومكتوم يقرر الزواج وتتم الامور كالمعتاد.

وحالة اخرى ان تكون الفتاة والشاب من عشيرة اخرى، وتحول الصعوبات والظروف دون السماح بزواجهما، فيخطفها الشاب، ويدخل بها عند احد الشيوخ الذي له الحق بتزويجها، ويعتبر نفسه ولي امرها، واذا عجز العريس عن دفع المهر دفعه هو من

جيبه، واذا حال اهل الفتاة دون الزواج، زوج هذا الشاب ابنته او احدى بنات الحمولة، بحيث تكون عوضا للمخطوفة..

وقد يرغب بخطبة الفتاة شاب من قبيلة اخرى، حينها يتحرك شيخه، ووجهاء عشيرته واهله الى شيخ عشيرة الفتاة، وبالطبع فان مثل هذه الجاهة فرصة طيبة عادة للعريس ليعبر فيها عن قوته، وقوة اهله، ومدى اهميته هو لديهم، وبالتالي يرتفع في عين المخطوبة، وعين اهلها.. وهنا تكون الامور اكثر رسمية، لان ذلك الامر يهم كل عشيرة المخطوبة، فاذا كان الامر داخل العشيرة يهم اهل الفتاة واهل الشاب فان خارج العشيرة يهم العشيرة كاملة من شيخها حتى الراعي فيها، والنسب لها كلها شاملا، لا متجزئاً، ويصبح القرار جماعيا، اكثر منه فرديا، وللشيخ الرأي الراجح، الا ان والدها يبقى كأي فرد من افراد العشيرة الاخرى، وحيث ان الامر فيه غربة، فانه مرهون بموافقة الفتاة، فاذا كانت تجبر للزواج من ابن عمها احيانا باعتباره احق الناس بها (وينزلها عن ظهر الفرس وهي عروس) فان الامر مختلف حين الزواج من غريب... فرغبتها وموافقة العشيرة، والوالد، ثم القرار النهائي للشيخ، الذي قد يساوم، بنفس الطريقة التي نرى فيها الزواج السياسي في عصرنا الحاضر.

اما مبدأ تدخل الشيخ في تزويج فتاة من العشيرة فنجده في حادثة تزويج الرسول صلى الله عليه وسلم للمرأة التي عرضت نفسها عليه وزوجها لرجل بشيء من القرآن. وكذلك نجد اصلا اسلاميا لهذه العادة في هذا القول:

"حدثني عن مالك، انه بلغه عن سعيد بن المسيب انه قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تنكح المرأة الا باذن وليها، او ذي الرأي من اهلها، او السلطان"[1]، واذا عرفنا ان الشيخ يعتبر هو بمثابة السلطان في قبيلته، عرفنا كيف يعني تدخله في هذه الامور، كما انه يقوم مقام القاضي الشرعي في الشريعة ايضا، ومقام ولي الامر للفتاة ووالدها والعشيرة كاملة، ويعتبر اكثر شخص يحرص على مصلحة الفرد والجماعة لديه، ومن هذا المنطلق يكون امره مطاعا نافذا، ومقبولا، باعتباره لمصلحة الجميع، وليس ضدهم ابدا.

من وليها:

وولي امرها قد يكون الشيخ كما ذكرنا، وقد يكون الاب، او الاخ او الخال، او العم، او كبير القوم او الجد، او الجار.

الاب:

وبطبيعة الحال فهي بضعة منه، وهو احرص الناس عليها وعلى مصلحتها، وعلى سمعته وسمعتها، واولى الجميع في الحفاظ عليها، وشرها عليه، بينما خيرها لزوجها، واذا فشلت فهي تعود اليه، وهو ملزم بها، لذا فالقرار النهائي له، خاصة اذا وافقت الفتاة، ويستطيع اجبارها على شخص معين، وفي هذه الحالة يحق ويجوز لها ان تهرب الى بيت الشيخ او اي وجيه او اي شخص لتكون دخيلة مستجيرة، من قرار والدها في انها لا تحب

---

١) الموطا، ص ٣٢٥

هذا الذي خطبها اليه، وحينها على من استجارت به ان يفسخ الخطوبة، ويعتبرها باطلة، واذا طلبت الزواج من شخص ورغب ذلك، زوجها من استجارت به منه بعد اخذ خاطر والدها، وتحدث مشاكل معقدة في مثل هذه الحالات ربما تصل الى الحرب او الى قتل الفتاة، وتحطيم حياتها.. ونستطيع القول اذن ان قرار والدها بالاجبار يسهل كسره، وعدم التقيد به، بالطريقة الانفة الذكر.. والشخص الوحيد الذي لا تستطيع الفتاة كسر امر والدها فيه هو ابن عمها اذا كان الذي تطلبه هي شخصا ابعد من ابن عمها، ولكن يجوز لها استبدال ابن عم بابن عم بنفس القرابة، اما الغريب، فلا يمكن لوالدها او وليها ان يجبرها عليه، واذا فعل فتستطيع التخلص من ذلك كما قلنا..

والاب عادة لا يتخذ قرارا، الا بالرجوع الى ابنائه، وزوجته التي تأخذ رأي البنت فقد (يقول) بتشديد الواو - احد ابناء العم، اي يعترض على الزواج ويطالب هو بها لنفسه، وربما يرفض الاخوة هذا المتقدم، وربما ترفضة البنت او الزوجة، وبعد دراسة جميع هذه الاراء، يتخذ الوالد قراره بالاعطاء او بالاعتذار عن الاعطاء، فاذا (نطق) اي قال: ابشروا - او هي جاءتكم او ان يرد قوله، والا تمضي كلمته فيقال (قوله مثل بوله)، او (امره ما هو ماشي)، فالبدوي على استعداد ان يقاتل او يموت في سبيل كلمته، وقراره، ونفاذ امره، فهو يرمي باحتجاجات ابناء العم والاقارب عرض الحائط اذا (نطق)، لذا فهو يؤخر اتخاذ القرار حتى يرى ان الوقت قد حان، لان اتخاذه شيء لا رجعة فيه، وعادة تسوى الخلافات بعد (النطق) باسلوب الجاهات والوجاهات (وحب اللحية) كما يقولون.

من الاخ:

عند البدو تكون كلمة الوالد هي النافذة في العائلة، الا اذا اعطى الصلاحيات في ذلك لاحد ابنائه وهذا شيء معتاد عندهم، مع هذا لابد من الرجوع للاب ولو بشكل رمزي اما الاخ فيستطيع ان (ينطق باخته)، كما ان الوالد لا يزوجها ما لم يشاور اخوتها، واخوته، وابناء عمه، وابناء عم الفتاة هذا اذا لم (ينطق) كما قلنا، لأن النطق هو القرار الذي لا ينثنى عنه ولو مات.. اما كيف يقرر الاخ اعطاء اخته لطالبها، فهذا يكون في اكثر من حالة: عندما يحيل الوالد هذا القرار لشقيق الفتاة، فيصبح صاحب الرأي النهائي في ذلك ممن هم خارج الفتاة. وقد يكون له صديق حميم، ويعجب بشخصيته، ويتفقا على التبادل بالاخوات اي (بطريقة زواج البدل) وهو زواج فتاة بفتاة بدون مهر لأن مهرها فتاة مثلها:

وقد يكون الوالد متوفيا، ويصبح القرار في هذه الحالة للاخ كولي لأمرها، وقد يكون هو الشيخ، وهنا له حق الاخوة، وحق المشيخة. وقد ينطق الاخ باخته في ظروف معينة، كان يحتاج لمن ينقذه قائلا من ينقذني واعطيه اختي؟ وفي المعركة قد يطلب رصاصة لقتل عدوه مقابل اخته، ويعلن ذلك سلفا بقوله: من يعطيني بندقية او رصاصة او يأتي برأس فلان، واعطيه اختي؟

وقد يجرح في معركة ويحس بالموت، فينادي: من يأخذ ثاري من فلان واراه ميتا قبل ان اموت، واعطيه (يعطي قاتل قاتله) فلانه اختي؟ واذا مات بعد هذا العهد، فان

للمنتقم ان يأتي بالشهود الذين يثبتون امرين اولهما نطق الأخ بهذا القول، والثاني تنفيذ الطلب وهو قتل العدو (الشخصي بعينه)، واذا ثبت ذلك، حينها يعطى الفتاة التي عينها شقيقها بالاسم، واذا لم يعينها بالاسم، جاز للاهل الاختيار وجاز له الاختيار، وجاز للفتيات (الاخوات) الاختيار، وعلى كل حال تتم التسوية بتدخل الاجاويد عادة.

وقد يعمل شخص مع اخر حسنى بدون شروط وطلبات مسبقة فيجد هذا انه لا بد من مكافأة المحسن، فيعرض عليه اخته او ابنته، فان قبل اعطاها اياه.

وللأخ اهمية كبيرة في حياة الانثى فهو خال ابنها مستقبلا، وهو ينتخي فيها، فيقول، انا اخو فلانه، كما انها تفتخر به وتقول (يا اخوي يا فلان) فعندما تتضايق او يصيبها شيء مفاجيء تقول هذه العبارة، كما انها تفتخر بوالدها بقولها (باطل وانا بنتك يابيه) فالأخ كالوالد وهما المعنيان بسمعتها الطيبة او السيئة، فيقال في السوء (فلانه تسود الوجه)، او (تطمن روس الرجال) اي ان عملها غير مشرف، ومخجل لأن رفع الرؤوس يعني الافتخار، وطأطأتها اي خفضها، وانحسارها يعني الشعور بان شرفهم مكسور.

وفي الحالات العادية، نجد ان الأخ له شيء على زواج اخته احيانا، كأن يأخذ بندقية، او مسدسا او عباءة او نقودا... واذا خجلت الأخت من ان تقول لأخيها رأيها في الخاطب فيمكن ان تتوسط اختها الاخرى، او احدى نساء الحي (اكثرهن قرابة او صداقة).

من عمهـا:

والعم له اهمية، ذلك ان الروابط الاسرية في المجتمع البدوي قوية، ورغم ان للفتاة رأيها (خاصة بنات الشيوخ) الا ان للجميع اراءهم ايضا، فرأي العشيرة نابع من مصلحة العشيرة وسمعتها، وما يمكن ان يؤدي مثل هذا الزواج، وبعبارة اخرى نستطيع ان نقول: ان العشيرة تختار العشيرة اذا كان الزواج من خارجها، فعندما يقال ان العشيرة الفلانية صاهرت العشيرة الفلانية، فهذا يترتب عليه امور كثيرة كاصابة الغزوبحالة من الفتور يؤدي الى انقطاع، ثم الى بدء الحوار والصداقات وكما يقولون (كون نسيب ولا تكون ابن عم).. ثم ان العائلة تختار العائلة، فمثلا عائلتان او حمولتان في نفس العشيرة، فيقال: (عائلته ما تنفع)، او (عائلة محترمة)، ومن هنا نرى ان رأي العائلة مهم، لأنها تختار العائلة، لما يترتب على ذلك من الامور الكثيرة. بعيدة وقريبة المدى، ويعتبر العم من العائلة الذي له الحق في ان يقول كلمته، فمبدا البدو (العم والد)، لأنه لو مات والد الفتاة الذي هو شقيقه ولم يكن له من خلفه ذرية قادرة على مجابهة الحياة فان على العم ان يتولى تربية ابناء اخيه، والاشراف عليهم حتى يبلغوا اشدهم وللعم حق ان يأخذ (عباءة) لقاء زواج ابنة اخيه، فيقال (عباءة العم) او يأخذ ثمن هذه العباءة، وقد تقلصت هذه العادة، واصبحت شبه منتهية واذكر انها في الخمسينات من

القرن العشرين كانت متفشية وذلك لأن الناس كانوا عاطلين عن العمل، وفي حالة فقر، كما انهم كانوا لا يزالون يتقيدون بمثل هذه العادة البالية.. وهذه العباءة تعني سماح العم بزواج الفتاة من خارج ابنائه او ابناء اخوته، لأنها اذا تزوجت منهم فلا يحق له طلب العباءة او ثمنها، اي ان العباءة تعني ضوءا اخضر منه، ورسما لرفع اليد، اي انه اخذ اخر حق له، واستبدل الاعتراض والزواج بهذا المبلغ، او هذه العباءة.

ثم يبقى بعد رأي الاهل رأي الفتاة بالشاب فاذا اتفقت هذه الاراء جميعها تمت الخطبة، والا فان العثرات لا بد من تجاوزها، واذا لم يتمكن العريس من ذلك، قالوا: (ما فيه نصيب)، فالبدو دائما يعتبرون الامور قدرا في جميع حياتهم من حيث المبدأ خاصة في الامور التالية (الزواج، الموت، ولادة الذكور، او الاناث والرزق) ويعتبرونها قسمة ونصيب، او مكتوبا من عند الله، والمكتوب عالجبين لازم تشوفه العين و (المقدر ما عنه مودر).

ان هذه الضمانات الطويلة العريضة من العشيرة والحمولة والعائلة، ثم العم والاب، والفتاة، كل ذلك ضروري للزواج ليجعل في صعوبته لذة للعروسين، وللطرفين، انهم نالوا مآربهم بعد عناء، وما اجمل الراحة بعد العناء، والشبع والارتواء بعد الجوع والعطش.

اما اذا جاءت الامور بسهولة فلا شك انها تفقد كثيرا من لذتها وروعتها، كما ان العريس يصبح اكثر احتفاظا بالعروس، ويرى ان الاساءة اليها تعني الاساءة للكثير فيضع في اعتباره عشيرته وعشيرتها، وحمولته وحمولتها وعائلته وعائلتها، فكما ان الزواج قد تم بعلم واتفاق الجميع، فان النزاع والاساءة تصبح بعلم الجميع ايضا وبالتالي تسوء سمعته، وقد لا يجد من يزوجه، وكذلك الامر بالنسبة للفتاة، وبذلك فان هذه الضوابط تؤدي الى توثيق روابط الزوجين وتساهم في السعادة الزوجية بينهما.

من امهـــا:

قد يستغرب من يجهل عادات البدو هذا الشيء، فالام لها نصيب كبير في ابداء الرأي حين تزويج ابنتها، فالوالد يستشيرها ويستطلع رأي الفتاة بواسطتها، وهي تعطيه الضوء الاخضر للانطلاق، او الاحمر للوقوف والتوقف وهن كنساء في المجتمع البدوي يفرضن رأيهن لما يتمتعن به من قوة الشخصية، وعلو الهمة والاخلاق، وطيب الاصل... وعند الام تأتي ام الشاب وتتداول النساء معا في الاراء، ويتفقن قبل ان يطلع الرجال على الامر، واذا كانت المرأة ارملة اي مات عنها زوجها، وبقيت بعده بدون زواج، لتربي ابناءها، وبناتها، وجاء احد لخطبة ابنتها هذه، فان بعض النساء الارامل يتمتعن بشخصية قوية تستطيع فرض رأيها، او على الاقل ان تقول رأيها، ويكون الطلب المبدأي من الام التي عادة لا تبت بالامر حفاظا لحقوق ابنتها بالمستقبل، وخوفا من ان يقال لأهل العريس انهم تزوجوا وطلبوا من امرأة، لذلك فالام تحيل الامر لعم الفتاة او لاخيها، او لخالها، او لاقرب من يستطيع ان يتدخل من جهة المرأة او ابنتها، وربما يتدخل الوجيه او

الشيخ، لأن تدخل الرجال يعني ان الامر دخل في وجوههم، وبكفالتهم، ويعرف العريس ان الامر ليس فالتا، ولمصلحة الطرفين العروس والعريس، ان يكون كذلك (عن طريق رجال) حتى لا يعير العريس انه اخذ ابنة ارملة ليس لها احد، وحتى لا تكون هي كسقط المتاع.

صحيح انه قد تخطب الفتاة من امها ولكن اذا كان والدها متوفيا، او ليس للفتاة اخوة بالغون، واذا كان لها اخوة من ام اخرى، فلهم حق التدخل، وكذلك اخوتها من امها، من اب اخر.

وفي جميع الحالات لا بد من تدخل الرجال ضمانا للفتاة ولمصلحتها، مع هذا فقد تكون الارملة من القوة والشخصية حيث لا تسمح للرجال بالتدخل، خاصة اذا كان زواج الفتاة من ابن اخيها او ابن عمها، (اي من دمها ولحمها) بحيث يكون هذا رأي العائلة ببعضهم، ولا داعي لتدخل الاخرين في ذلك.

من اخوالهـــا:

للخال اهمية سواء في موضع الاحترام، او النسب، او امور الوراثة، وقد تحدثت عنه العرب كثيرا كما سيأتي في فصول قادمة باذن الله تعالى.

وقد يصدف ان تخطب (بضم التاء) الفتاة من خالها، خاصة اذا كان الخال ابن عم، وله بذلك قرابتان - الخال وابن العم - (اي النسب والمصاهرة) وقد تعيش الفتاة مع امها عند اخوالها اذا فارقت زوجها بسبب الطلاق او الموت، او غيره، وتبقى هناك، فاذا كان الاخوال من الاقارب (ابناء عم) تدخلوا وخطبت الفتاة منهم، ولا بد من اخذ الرأي النهائي من اهل الفتاة او ممن بقي منهم، ويؤخذ رأي الاخوال ايضا، حيث ربت فيهم، لأن لهم الحق في هذه الحالة ان يطلبوها لابنائهم، فهم ربوها وتعتبر ابنتهم بالتربية، وان كانت ابنة اهلها بالاصل والنسب، وكما يقولون (المربى غلب الاصل)، وعلى اية حال اذا حدث خلاف (يحله الاجاويد) عادة.

وقد يأخذ الاخوال تفويضا من الأهل بتزويج ابنتهم، وربما من امها يأخذون ذلك، كما ان لزوج الأم اذا ربت الفتاة في بيته ان يتدخل في تزويجها وزواجها لأنه يعتبر كوالدها بالتربية، وهي محرمة عليه.

وعلى اية حال فالمعتاد عند البدو ان المرأة اذا مات عنها زوجها او طلقها فانها تترك ابناءها لزوجها او لأهل زوجها، ولكن قد يحدث امران:

اولهما اذا مات زوجها:

حينها قد تبقى في عرب اهله وترفض الزواج اذا انجبت منه ابناءا لتربيهم، وهذه تكون موضع احترام وتقدير القبيلة كاملة. وقد تلتحق باهلها، وهنا تأخذ ابناءها الصغار معها حتى تربيهم، وقد يتربون في كنف اخوالهم او في كنف زوجها الجديد، والبدو لا يغضبون (في مثل هذه الحالات) من وجود ابناء مع الزوجة لأنهم يحبون الذرية وكثرتها، فاذا كبر الابناء فقد يعودون الى أهلهم، وقد يبقون عند اخوالهم، والقصص حول ذلك تجدها في كل قبيلة، ولدى الرواة من ان امرأة مات عنها زوجها او قتل في غزوة،

وعلى يديها طفل رضيع، او حامل به فتلحق باهلها، ويتربى هذا بدون ان تخبره، ثم نجده يسمع التحقير من ابناء العشيرة انه غير معروف الاصل فيعود لامه وتخبره الحقيقة فيلحق باهله، لأن البدوي مرتبط بعصبيته وليس برحمه من حيث المبدأ. وقد يطلقها زوجها، حينها تترك اولاده عنده لأنها تبحث عن زوج جديد، واذكر قصة شخص التقيت به لم يعرف امه الا بعد ان بلغ الثانية والعشرين من عمره لأن والده طلقها وتركته رضيعا، ولم تره، ولم يرها الا بعد هذا العمر، وبطريقة الصدفة، وتحكي لنا القصص في البادية ان امرأة اعجبت بشخصية شاب واحبها وتزوجته وتبينت ليلة الزفاف انه ابنها بواسطة اشارة في جسمه تذكرها وهو رضيع وعرفته على نفسها قبل ان يدخل بها، حيث كان والده قد طلقها قبل ان تتفتح عيناه على الحياة.

وغالبا ما يتفادى البدوي مثل هذه المآسي بان يقوم شقيق الميت بالاقتران من زوجة اخيه، ليبقيها تربي ابناءها (ابناء اخيه) وتحافظ عليهم لأن في ذلك حفاظ على الاسرة ايضا وعليها هي من الضياع.

من اهل الرأي:

من المعتاد انه في كل قبيلة، رجال ذوي رأي حصيف يشيرون على الشيخ في الامور الهامة، وهم كمجلس الشورى في الحكم الاسلامي، لدى الخليفة او الوالي او السلطان، ومن صفاتهم الرزانة، والذكاء والخبرة، وقد يكونون ذوي اصل معين في القبيلة، ولكن في الغالب تكون الكفاءة على ابداء الرأي هي المؤهل الأول لهذا الموضوع.. وقد يتم زواج بين قبيلتين مما يمكن تسميته بلغة الدبلوماسية (الزواج السياسي) فلا شك ان الشيخ يتخذ قراره بعد التشاور مع هؤلاء..

وقد تحدث مشكلة بين شاب وفتاة وتكون الامور سرية فتتم المعالجة بنفس الدرجة عند ذوي الرأي، وتتم الخطبة والزواج وكأن شيئا لم يكن، ويحدث ان يخطب الشخص فتاة من صديق والدها الذي قد يكون من اهل الرأي وحيث انه (يمون) على والد الفتاة يستطيع الوصول الى نتيجة ايجابية (وقد تربى فتاة في قبيلة وتخطب من الشيخ الذي يأخذ رأي هؤلاء القوم في ذلك، ويتدارسون الامر معا، ويخرجون بنتيجة نهائية).

التوقيت الزمني في الخطبة:

ليس هناك توقيت محدد ومعين في الخطبة عند البدو، وانما، يعتمد ذلك على مقتضيات الامور والظروف، وطبيعة العلاقة بين الطرفين، وسن الخاطبين والحالة المادية، والمهر، ومزاج الخاطب، وقدرته الجسدية والمادية والعقلية على ممارسة مسؤولياته كاملة.

الخطبة الفورية:

وهي ان يعجب رجل بفتاة او مطلقة او ارملة، فيقرر الزواج منها فورا، وربما يتزوجها في بيت اهلها، (تبنى لهما برزة - اي بيت الزوجية - بجانب البيت الرئيسي وبحيث تكون المسافة تساوي مالا يسمع اهل البيت اهات وانات العروسين اثناء المناجاة

او العمل الجنسي وتقدر بحوالي مائة خطوة وما فوق بحيث تكون بارزة وواضحة.

وعادة تمارس هذه الخطبة في حالات عديدة منها:

مزاجية الشيخ: قد يذهب الشيخ في رحلة ضيافة او صيد او قضاء، وربما في حملة للغزو، او في طريقه للمدينة لشراء شيء معين... الخ فيرى فتاة تعجبه، فيسأل عن اهلها، ويخطبها منهم ويتزوجها بنفس الليلة عند اهلها بعد بناء برزة خاصة بهما.. ومثل هذه الحالة ما حدث لشيخ كان في رحلة صيد عندما مر بفتاة وسألها! وين اهلك؟ فقالت: الله اعلم يا طويل العمر.. قال: وين بيت امك وابوك؟ قالت: خلف هذا التل، ثم وصفت له البيت، وذهب وخطبها من والدها وتزوجها بنفس الليلة وهو ضيف، فأمسى عريسا لها.

ويصدف ان بعض الشيوخ لا تعجبه هذه العروس من الليلة الاولى فيتركها عند اهلها، وتعتبر في حكم المطلقة، وفي قصص البدو الكثير من هؤلاء النوعيات، وكانه بذلك يتزوج زواج المتعة.

والزواج بالفتاة عند اهلها، عادة شائعة عند البدو بل انها هي المبدأ اي الأصل ان يتزوجها عند اهلها، والعادة ان يتزوجها خارج عرب اهلها.

ومن الخطوبة الفورية: المزاح كأن يقول واحد للاخر، وهم في احدى الجلسات - يقول كلمات تعني الخطبة، فيوافق ذلك مازحا او جادا، فيأخذ ذاك الكلام في جديته، ويقبل الخطبة فورا كأن يقول: ما احسن مقنى (اقتناء) مهرة من بيتك) فيقول ذاك: غالي وطلب رخيص، او جتك (جاءتك) او ابشر، او هذي بسيطة... وتعتبر هذه الالفاظ وشاكلتها موافقة على الخطبة، فيرد القائل الاول: وانا قبلت - اريد فلانه حليلة لي او لابني او لأخي...الخ الفاتحة (اي يقرأون الفاتحة) ويتحول الهزل الى جد، ومن هنا قالوا: (ضحك الرجال يبكي)، لأن المزح جد، والجد جد، وبذلك نجد البدوي حريص ودقيق في كلامه عندما يجلس في جلسة من الجلسات تماما مثلما يجلس اي شخص يخاف على نفسه في محضر ملء برجال استخباريين يراقبون حركاته وكلماته لتسجيلها مواقف ضده.

وعندما تقرأ الفاتحة تعتبر كلمات ولي الامر الذي نطق موافقة، وقد تتقرر الدخلة (اي الدخول على العروس بنفس الليلة)، ويتحول هذا المازح الى عريس وينام مع فتاة كأنها البدر بعدما كان على وشك النوم وحده، وقد يكون هذا ضيفا، او جارا، او قريبا.. وكثيرا ما يحدث ان الفتاة تفاجأ بابلاغها ان ساعة زفافها قد دنت، فيقال لها جهزي نفسك انت الليلة عروس لفلان وهذه النقطة نجدها سلبية بحق الفتاة، لأن (النطق) كما قلنا سابقا يعني عدم التراجع، واذا كان من ظلم للفتاة البدوية في الزواج، فان اصعب ظلم لها هو (النطق) في شاب او رجل لا تحبه وعلى اية حال فان ما ذكرنا حالات قليلة او نادرة لكنها موجودة، وهي تبقي كل فتاة انها تعيش على الامل في انها قد تتزوج الليلة او غدا، وتحقق احلامها.

مع هذا فانه ليس من المعقول ان تتم في هذه الحالة عملية زواج غير متكافىء بالسن، واذا حدث هذا فهو (عادة) وليس (مبدءا) او يمكن حدوثه بشكل قليل ونادر لكنه ليس قاعدة ثابتة...

وقد تكون الخطبة الفورية في حالة اكتشاف شخص (متخف) (من اجل خطبة فتاة) عند اهلها، ويعجب والدها بسلوكه واخلاقه اثناء قيامة بدور التخفي لأنها مرحلة دراسة له ومنه، حينها يقسم ان يزوجه اياها، وان تكون حليلته بنفس الليلة، ونجد قصة (جلعود) التي ذكرناها، كيف ان والد الفتاة قد اعطاها لجلعود، ودخل بها بنفس الليلة عند اهلها.

وفي مثل هذه الحالات وهي مواقف مشرفة للبدو فتصدف ان ينقطع رجل من اولاده وزوجته، ويأتي دخيلا او مستجيرا عند احد العربان وعندما يقص عليه قصة يرق لحاله ويشفق عليه، ويعرض عليه اخته او ابنته ويزوجه بنفس الليلة، وحدث ذات مرة ان طرد احد الشيوخ من عربانه فهجرهم ومعه اولاده وبيته وزوجته الجميلة وهجم عليه قوم في الصحراء فقتلوا جميع اولاده وماتت زوجته، فهام على وجهه حتى وصل بيت احد الشيوخ واخبره القصة، فامر الشيخ جماعته ان يجلب كل واحد من الابل ما يستطيع، وهيأ من عنده له بيتا وفراشا، ثم امر اخته ان تجهز نفسها، وبعد ساعة عاد لضيفه وقال: هذا بيتك وحلالك جاهز، وزوجتك تنتظرك، انها اختي اعطيك اياها بسنة الله وسنة رسوله ومبروكة عليك[١].

ويصدف ان يتزوج احد القوم من خارج عائلته فيحدث نزاع بين الزوجين تغادر الزوجة على اثره الى اهلها، وترفض (الترضية) (الرضوة)، فتجتمع عائلة الزوج وتقرر تزويجه بنفس الليلة من احدى بنات الحمولة التي قد يتبرع بها احد الحاضرين، وما يبيت ليله الا عريسا بين يدي فتاة جميلة ناعمة.

ويصدف ان يأتي احد القوم من غزو او طول غياب فيجد زوجته خارج البيت وبعيدة عنه لا تستطيع اليه العودة خلال يوم وليلة، فيغضب خاصة وانه مما يثير اعصاب الرجل ان لا يجد زوجته في استقباله، فيخطب ويتزوج بنفس الليلة من احدى فتيات الحي الذي يعيش فيه وربما يكون هذا القادم قد انتصر بشكل يأتي بالفخار للقبيلة، فتتقدم فتاة تطلبه كما سبق وقلنا، او يتقدم ولي امر فتاة فيقول: اعطيتك فلانة - وبالطبع اذا رغب تتم الخطبة التي هي الايجاب والقبول، ثم الدخول بالعروس بنفس الليلة اذا اراد، فينام مرتاحا، وقد حصل على ما يريده من النصر.

ويحدث في البادية الاردنية ان يعود موظف الى عند اهله، فتتم المداولة حول زواجه، فيقرر القوم بنفس اللحظة خطبة فلانة، وينتهي كل شيء خلال ساعات، ويصبح عريسا بنفس الليلة، وقد عرفت شخصيا بعض مثل هذه الحالات.

وقد تموت زوجة شخص، ويعود وهو كئيب بعد دفنها، وحالته المادية او النفسية لا

---

١) الاهل هنا: المقصود بهم، الزوج، وفهمت هي يسالها ان كانت متزوجة ام عزباء، فاجابت انها عزباء لذا خطبها.

تساعده على الحياة الكريمة، فيتقدم القوم يقنعونه بالزواج، ويخطبون له فتاة بنفس اللحظة، وغالبا تكون شقيقة الفتاة المتوفية اذا وجدت حتى تشرف على ابناء اختها وتربيهم كوالدتهم، واذا كان فقيرا فالعشيرة تقدم له المساعدات - كل حسب طاقته - هذه المساعدات التي تمكنه من امرين:

الأول: هو العيش بمستوى مستور.

والثاني: هو القدرة على الزواج، ولا شك ان هذه العادة من روح الاسلام ومن الحديث الشريف الذي ينص بمعناه "**لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحبه لنفسه**" والحديث الاخر "لا يؤمن من بات شبعان، وجاره جائع وهو يعلمه". وقول الله سبحانه "**وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان**".

ومن اسباب وحالات الخطبة الفورية ايضا: أن يأتي طرف لخطبة فتاة، فيتصدى لهذا ابن عمها، او أقرب الناس اليها، او شخص يحبها، وقد يفوز بسبب قرابته او اختيار الاهل او الفتاة له، فيضطر حينها للخطبة فورا، لأنه في هذه الحالة يجب عليه ان يخطب فورا، حتى يثبت نيته بذلك من جهة وليقطع دابر الطالبين للفتاة من جهة اخرى.

ان الخطبة الفورية هي اجراء سريع لحسم الامور عند البدو، وهي شيء ضروري لحياتهم التي تعتمد كثيرا على المزاجية، ورغم ان الزمن لا قيمة له عند البدوي في الحالات العادية، الا انه عند تقرير المصير، او اتخاذ القرار يلعب دورا هاما، ولا يتوانى البدوي حينها عن العمل بسرعة ويعتبر كل طرفة عين تمر بدون استغلال، نوع من ضياع الفرص التي لا تعوض، بل ان ذلك عندهم (ضياع الفرصة) غباء ما بعده غباء، ونجد في اقوالهم ما يحث على السرعة واتخاذ القرار بحزم فوري اذا اتيحت الظروف، وتهيأت الفرص، فيقولون مثلا: (من لاح له صيدة قوام يصيدها)، وقولهم: (اذا درت ناقتك احلبها). وقول العرب قديما (اذا هبت رياحك فاغتنمها).

ونجد في الخطبة الفورية فوائد كثيرة للبدوي ذكرا كان ام انثى:

فهي تعطي الامل لكل ذكر وفتاة او مطلقة او (عزبة) انها قد تكون الليلة عروسا، او يكون الذكر عريسا، وهذا الامل بحد ذاته شيء جميل للانسان خاصة عندما يكون بحاجة اليه، وكما يقولون (ما اضيق العيش لولا فسحة الامل). كما انها وسيلة لتحقيق رغبات بعض الرجال الذين يتصيدون لاخرين من اجل خطبة احدى اناثهم.

كما انها اجراء مناسب للحالات الطارئة عندما تموت زوجة شخص، او عند عودته من طول غياب، ولا طاقة له بالحياة بدون زوجة، فهذه العادة مخرج له لأن يخطب سواء نكاية بزوجته التي غابت عند اهلها، او اشباعا لرغبته. وهنا نرى الفارق بين هذه العادة البدوية، وبين ما لدى ابناء المدينة من تعقيدات من اجل الخطبة والزواج، فتضيع كثير من الفرص، وتساعد على تعقيد الشخص، وربما تؤدي به الى العزوف عن الزواج.

كما ان الخطبة الفورية تعتبر درسا لزوجة البدوي التي تخشى اذا هي لم تكن قادرة على اشباع وموائمة زوجها ان يخطب غيرها فورا، اي (يبحث عن البديل)، وهذا

بحد ذاته دافع كبير لها ان تبذل ما بوسعها لارضائه بكل شيء، ومن ثم اضفاء جو من السعادة على الحياة الزوجية بينهما.

كما ان هذه العادة تعطي الحياة بساطة وسهولة، وتعطيه مزيدا من الحرية الشخصية التي يبحث عنها الانسان المتحضر ولا يجدها الا في الكتب والمبادىء فقط.

وتكون الخطبة الفورية ايضا عندما يجد شاب او رجل ضالته المنشودة في فتاة تعجبه ويعتبرها فتاة احلامه، فيتقدم فورا لخطبتها لأنها ضالته المنشودة وخوفا من ان تقع عليها انظار غيره فتذهب من يده.

وقد يحدث شيء ما بين شاب وفتاة، دون ان يطلع احد من العالمين على ذلك، فيضطر خوفا على روحه وروحها ان يخطبها فورا ويتزوجها، ذلك ان البدو لا يعرفون موانع الحمل، وعندما تكون الخطبة والزواج في خلال ايام لا تتعدى الاسبوع فان الولادة بعد الزواج تأتي في وقتها، ولا يعرف الناس بالامر ويذهب مستورا بين عارفيه.

ومن هنا نجد البدو يتحرجون من خطبة شاب يعرف فتاتهم، والظروف مهيأة لعلاقة بينهما جهرا ام سرا، لذا فانهم عادة يفضلون ان تكون الخطبة قبل الزواج بفترة، عندما يخشون ان تكون الخطبة الفورية سلاحا بأيدي العابثين، وبايدي الفتيات اللواتي تسول لهن انفسهن ان يمارسن المحرمات.

ونجد ان الخطبة الفورية تجري في جو عادي بعيد عن الريبة والشك، مع قطع دابرها بمبررات لا ترقى اليها الشكوك... ذلك ان هذه العادة (الخطبة والزواج الفوري) لها جوانبها السلبية ايضا ولكنها على اية حال وسيلة للستر وتغطية الامور التي يمكن تغطيتها... فالبدو يقولون (العرض له الستر، والدم له النشر). اي ان قضايا العرض يحاولون سترها، اما قضايا الدم فيجب اظهارها لأنه يمكن الاخذ بالثأر واعادة الاعتبار اما قضايا العرض فانه حتى في حالة قتل الفتى والفتاة فان وصمة العار تبقى في جبين اهل الفتاة (انها عابت)، وهذا يضايق البدوي ويتطير منه وبه، كما انه مبرر لكساد بقية فتيات الحمولة او العائلة على ان فيهن (عيب) وليس الزواج منهن شيئا مشرفا، والبدوي يقتل الفتاة (اذا عابت) اذا عرف بذلك الاخرون، لأنه حينها يقتلها وهو مضطر اجتماعيا، لأن قتلها فيه غسل للشرف ولكن مع هذا يبقى (العار والمعيار والعيب) يلاحق اهل الفتاة اجيالا طويلة... وقد يقتلها بالسر ايضا. واذا قتلها فيجب عليه ان يقتل الفاعل، واذا لم يتمكن من ذلك فأهله مكلفون بقتله او يدفعون دية (مربعة) اي دية المقتولة اربعة اضعاف لأنهم يعتبرون الفاعل هو القاتل، لأنه هو السبب، وبعد دفع الدية المربعة يبقى مهدور الدم ايضا لقبيلة المقتولة.. وليس هنا مزاح في قضايا العرض عند البدو ابدا ويعتبر التشدد في هذه القضايا ضوابط اجتماعية للحفاظ على الشرف وقطع دابر الانحراف.

وقد تكون الخطبة الفورية تنفيذا لتوصية او نذر، كأن يقول احدهم نذر علي اذا رجعت سالما، او عوفيت من المرض، او شفيت فلانه من مرضها، سأخطبها، او سأخطب....الخ وتتحقق الامنية وهنا يتم تنفيذ النذر او الوصية، خاصة وان البدو

حريصون جدا على تنفيذ النذور باعتبارها مرتبطة بامور غيبية، اما الوصايا فهي مرتبطة بالاباء والاجداد والاعزاء وارواحهم، وهم حريصون على تنفيذ هذه بانضباط، لأن الانضباطية بحد ذاتها من ضرورات الحياة البدوية، ومن اولوياتها.

الخطبة بعيدة المدى (الطويلة):

ونستطيع القول انها خطبة الرضاع، او الطفولة، واقصد انها تلك التي تخطب الفتاة فيها لدى ولادتها، او في طفولتها قبل بلوغها، وربما هي في اللفاع، لشاب او طفل او رجل اخر اي ان الخطبة تكون (نطقا)، ثم تتم مراسيم الخطبة فيما بعد اي قبل الزواج باشهر او ايام او ساعات او سنوات.

والخطبة البعيدة المدى لها **مبررات في المجتمع البدوي**؛ فالبدوي يتزوج اكثر من واحدة وقد يصلن الى اربع حسب الشريعة الاسلامية التي يدين بها والتي تسمح له بجمع اربع نسوة كزوجات معا، وقد يتزوج اكثر على الا يجمع اكثر من هذا العدد في آن واحد... وبالتالي فان عدد الاناث مهما ازداد على عدد الرجال فهو غير كاف لحاجة الرجال، أي ان الطلب يفوق العرض، والحاجة تفوق المتوفر، واذا كان البدوي يفرح بمولود ذكر له، فانه يفرح بالمولود الانثى لغيره، لأن الفرصة تكون مواتية ان تتوفر عروس له او لابنه او حفيد، ثم انه في المجتمع البدوي من العيب ان يبقى رجل او تبقى انثى بدون زواج كون هذا الامر (الزواج) شيء طبيعي في حياة الانسان، علاوة على الهمس والغمز الذي قد يلحق باي من هؤلاء اذا لم يتزوج، حتى لتجد الرجل العجوز اذا ماتت زوجته او عجزت عن تلبية حاجاته يبحث عن شريكة حياة جديدة، وربما بدعوة وموافقة الزوجة الاولى، وفي عرف البدو كثيرا ما تقوم الزوجة بالخطبة لزوجها، خاصة اذا كانت هي لا تنجب، او لا تستطيع تلبية حاجاته ولا خدمته كما يجب، او وقع في صراع مع اخرين، وهي لا تحب ان يغلب زوجها على امره، فتقف الى جانبه ليكسب الجولة بالزواج من فتاة جرى حولها الصراع، وبعبارة اخرى فان البدوية تنظر الى اقتران زوجها باكثر من واحدة على أنه شيء معتاد وطبيعي وتحاول كل واحدة ان تستقطب اهتمام زوجها واسعاده اكثر من الاخريات، وذلك كبديل عن اعتراضها على زواجه.

اما الخطبة منذ الطفولة: فهي تدل ايضا على ان المبدأ في اختيار الفتاة هو نوعية الاهل، والام فيقولون (اذا ردت تزوج البنت لد لامها)، اي اذا رغبت الزواج من فتاة فانظر لامها، فان اعجبتك فخذ ابنتها وكما يقول اهل القرى (طب الجرة على ثمها تطلع البنت مثل امها)... وعندما تولد فتاة يقال (يا فلان جتك مهرة، او جتك عروس) اي ان الله رزقك (بمهرة، او عروس) بينما يقال عند ولادة الذكر (جاك فارس، او جاك راعي) ثم تطور هذا القول عند انتشار العلم فاصبح يقال (جاك خطيب) اي تلميذ يقرأ ويكتب، ثم اندثر هذا واصبح يقال رزقك الله مولوداً ذكراً..

وبالطبع فان القوم يترقبون ولادة الام، فاذا رزقت بمولود ذكر فهو للعشيرة، لأنه زيادة للعدد والمنعة والقوة، اما الانثى فهي اقل اهتماما، وهذه حقيقة اذكرها هنا بمرارة، واذا كان اهلها طيبون وامها ممتازة، اي اذا كانوا بمستوى النسب، فقد يتقدم

رجل لخطبة هذه المولودة له او لابنه او لحفيده، ويوافق الاهل ربما فورا، وربما يحتاج الامر الى مهلة لدراسة الطلب، ثم الموافقة او الرفض، وخطبة الوليدة الجديدة عادة لا تحتاج الى جاهة وانما كلام ملتزم مسؤول من الطالب للمطلوب، ويعرف الناس بهذا. لانه قد يوجد من يحتج، ابن عم او من هو اقرب من الخاطب.

وقد يرسل القوم امرأة تخطبها، ويعتبر هذا التزاما لدى الرجال، وقد تكون خطبتها على شكل مزاح كأن يقول رجل (مبروك العروس الجديدة)، وهذي مخطوبة لفلان، فاذا تمت الموافقة، اعتبرت التزاما، ونطقا..

وقد يقول شاب: (مبروك يا عم لوالدها)، فيقول الوالد: (هذه جتك عروس لك)، وقد يهديها والدها لأحد ابناء اخيه، او ابناء عمه.

وبذلك نرى ان هذا الامر دلالة على ان الجمال ليس هو المبدأ في الزواج طالما توفر النسب والمواصفات الاخرى من جهة الام والاب، كما ان اعتماد جمالها الطبيعي الذي ولدت فيه يعتبر نوعا من التسليم للاقدار والغيبيات (اي ان الجمال احدى مقومات الزواج وليس المقوم الوحيد او الاساسي).

وتشب الفتاة وتتربى تحت انظار اهل الخاطب، فيراقبون ويدرسون كل شيء فيها، وربما تقوم هي بمساعدتهم احيانا، اذا مرضت ام الخاطب، واحتاج الامر لخدمة البيت، (هذا اذا كانوا اقارب وجيران)، او (جيرانا ولو لم يكونوا اقارب).

ان خطبة الفتاة وهي رضيعة او طفلة، يدل على ان نظرة البدوي للمرأة، في ا تكون ربة بيت صالحة، ومستورة، لذا فهو يهيء لها مجال الستر الذي يكون في جل بالزواج الناجح، يهيئه منذ طفولتها، وتعيش الفتاة بعيدا عن الهوى والتعقيد والبحث عن فتى احلامها، اي انها ترتاح نفسيا، لأن ما تطلبه وهو حاجة طبيعية لحياة الانسان متوفر لها منذ ان تتفتح عيناها على نور الحياة، وبالطبع فان هذا الوضع مناسب جدا لمجتمع ليس فيه شيء اسمه العلم والتعلم، لأن العلم يخلق ويفتح افاقا جديدة في حياة الانسان لا تكون موجودة بالجهل.

وخطبة الانثى وهي طفلة، وسيلة واضحة لتطويق خروج ابنة العشيرة الى الخارج، وهذا لا يعني عدم تزوجها في غير العشيرة، وانما يعني محاولة البقاء ضمن نطاقها، ولا شك ان البدو يحافظون على عنصرهم، وبقائهم ما استطاعوا الى ذلك سبيلا، وهذا الحفاظ الذي يكون في بعض جوانبه بواسطة الانغلاق، وفي البعض الاخر بواسطة الانفتاح.

كما ان هذه الخطبة تدل على مدى الرابطة العصبية لدى ابناء العشيرة، بالاضافة الى انها تخفيف عن والد الفتاة الذي عادة يحب ان يرزق بولد، وعندما تصبح مخطوبة يعرف انها ذهبت في طريقها فورا..

وقد يتم الزواج احيانا من الفتاة الطفلة وهي لم تتم العاشرة بعد، ولكن الزوج لا يدخل بها، بل يتركها حتى تصبح قادرة على تحمل مسؤوليتها ومؤهلة للعمل اللازم بين الذكر والانثى، وخلال هذه المدة تكون قد تعلمت كيف تخدم زوجها، وتعامل اهله ووالديه وما ان تتحول الى زوجة بالممارسة حتى تكون قد تخرجت من مدرسة الحياة،

وحازت شهادة الخبرة العملية بنجاح.

وقد تكون الخطبة لها وهي في اللفاع، فقد حدث ان جاء رجل متزوج الى ابناء عمه، فبكت الطفلة وهي باللفاع في (الحمالة) - (وهي سرير الطفل عند البدو) - فقالوا له: هزها لعلها تصبح زوجتك، فخطبها، وعندما كبرت تزوجها، وانجبت منه ولدين وخمس بنات، وكان مؤلف هذا الكتاب نجل احد الولدين، وهذه الخطبة تدل ان الخطبة لا تعني الزواج فورا، بل ان هناك من حيث المبدأ، فارق بينهما اي قد تطول المدة او تقصر، وفي العادة قد تعني الزواج كالخطبة الفورية.

وكثير من اطفال البدو شبوا وتفتحت عيونهم على الحياة وهم مخطوبون لبعضهم البعض، وما عرفوا ان مصيرهم قد تقرر.. صحيح ان مثل هذا قد يكون فيه من السلبيات ما يصل لدرجة الحزن، الا انه في المجتمع البدوي شيء مناسب تماما، لأنه مجتمع بحاجة للانضباط، والوضوح امام بعضهم على الاقل، كما انه يجعل الحاجات الطبيعية واشباعها في درجة كبيرة من الاهمية ولا ينكر على الفرد حقه في ذلك ضمن الاصول والاعراف.

الخطبة لعدة سنوات:

وقد تخطب الفتاة عدة سنوات قبل الزواج، وقد يعود هذا لأن الفتاة لم تبلغ بعد، فينتظرون بلوغها والذي يكون بعد سن الثالثة، او الرابعة عشرة من عمرها، والحساب عندهم بالاشهر العربية (القمرية) وبالسنة الهجرية.

وقد يكون السبب وجود خلافات على الخطبة بين فريقين لكل منهما نفس الحق فيها، وتتردد الفتاة في قبول احدهما.. او قد تختاره شخصيا، فيهدد الذي لم يتم اختياره، يهدد الفتاة، ومن اختارت بالقتل ان هما تزوجا، فيؤخران الامر، حتى يتم حل الاشكال بواسطة الاجواد (الاجاويد) وعيال الحلال.

وقد يقوم من ترفض الزواج منه بالجيرة على الفتاة كأن يأتي عند شيخ فيقول له: فلانه في جيرتك من الزواج من فلان او من غيره فيقف الشيخ رافضا الخطبة ليمنع زواجها من اي شخص اخر، وقد يتدخل اكثر من طرف، ويأخذ هذا وقتا طويلا، ذلك ان البدوي صبور يتأنى كثيرا قبل ان يتخذ قراره، ويعتبر انه اذا صبر اكثر من خصمه ربح الجولة ومن هنا فالزمن لا قيمة له عندهم الا في ساعات الحسم واتخاذ القرار، اما ما عدا ذلك فان (طولة الروح هو الديدن الاساسي).

وقد يكون التأخر بالخطبة يعود لمرض الخاطب او المخطوبة، فينتظر كل منهما الاخر حتى يشفى خاصة اذا كانا يحبان بعضهما،.. وقد يعود لفقر الخاطب، وعدم قدرته على دفع المهر، وينتظر حتى يستطيع جمعه ودفعه، وقد يكون شرطا مسبقا من الاب او ذوي الخاطب ان يتم الزواج بعد كذا من الوقت لسبب او لاخر.. وقد يكون الخاطب متزوجا وتحدث مشاكل بينه وبين زوجته لهذه الخطبة الجديدة، تتطور الى خارج نطاق دائرتهما، ويكون مشغولا بما هو اهم من الزواج، فتدوم الخطبة عدة اشهر وربما اكثر من سنة.

وفي الحالات العادية يفضل البدوي ان تدوم الخطبة عدة اشهر، لأن لها اهمية خاصة في حياة البدوي بالذكريات والشوق، فهذه الاشهر العديدة تخلق لديه الشعور بالحنين والشوق لخطبته، واللقاء بها، وعندما يصل اليها ليلة زفافه يكون في قمة الرغبة فيها، وهذا من ناحية نفسية شيء ضروري، ولكن اذا طال هذا كثيرا قد يخلق لديه شعور معاكس.. وهذا يدل على اعطاء الاهمية عند البدوي للطبيعة الانسانية بصورة فطرية.

الخطبة بمقياس آخر:

والسؤال الذي يفرض نفسه الان، هو.. هل تتم الخطبة عند البدو خبط عشواء؟ اما كيف تتم؟، والجواب على هذا حسبما نعرفه عند البدو هو ان الخطبة تتم ضمن اطارين، الأول عشوائي، والثاني منتظم.. أي مدروس سلفا..

الخطبة العشوائية:

وهي أن يرى الشاب أو الرجل (غير الشاب) الفتاة أو المرأة، فتعجبه، ويقدم لخطبتها أو يتزوجها، او يعتبرها ملكا له، وهذه تتم في حالات كثيرة.

اخبرني كثير من البدو هذه الحكاية التي حدثت في اكثر من زمان ومكان وقبيلة، أن رجالا كانوا يتعللون (اي يتسامرون) في الشق، فعاد احدهم ومعه عروس، ودخل بها بنفس الليلة، والحكاية انهم في المجلس اخذوا يتساءلون: لماذا لم تتزوج فقال: لم اجد بعد، فقال: احدهم: هذه ابنة فلان، واتفقوا على الخطبة، فذهب اليها والدها وساقها لخطيبها الذي اقتادها الى بيته، وهذه الخطبة تمت بدون دراسة، وانما بطريقة عشوائية وهي تزويج لشخص اعزب.

وهناك سبب آخر للخطبة العشوائية **ان تكون تعويضا عن زوجة متوفية** وليبقى البيت عامرا ثامرا، ويجد الزوج من يخدمه، فانه كما جاء الموت بدون مقدمات، يتقدم اقارب الزوج ويعرضون عليه خطبة فلانة، بدون مقدمات الحب والدراسات: "اللي تقبلوها لي اقبلها لنفسي" فيزفونها اليه، بعد ان يخطبوها له، ربما بوجوده او بعدم وجوده، والامر سيان، وربما تأتيه العروس وهو في بيته حيث يكون الاهل والاقارب قد رتبوا كل شيء، واعتبروا انفسهم نوابا عنه فيأتون له بالعروس، واذا كانت هذه مدروسة دراسة سريعة من الاهل فهي بالنسبة له قد تكون مفاجئة وعشوائية.

وقد يتقدم اهل الفتاة المتوفية باختها او باحدى قريباتها للزوج، خاصة اذا كان له اطفال من الزوجة المتوفية، وهم بعملهم هذا يقصدون الحفاظ على الاطفال ابناء ابنتهم، ولتستمر حياتهم برعاية والدهم، وامهم الجديدة التي تكون مزودة بتعليمات من الاهل بان تكون حنونة لطيفة مع الزوج واولاده، وهذا عكس ما هو في المدينة حيث تشترط الزوجة الجديدة ترك الابناء من الزوجة الاولى، فيصبحون عالة على المجتمع ويتخرجون ربما مجرمون او منحرفون، والتفسير الحقيقي للسلوك البدوي في هذه الخطبة العشوائية، هي انها امر تقتضيه الظروف الاضطرارية لحياة الانسان البدوي،

فعندما يحين قطاف الثمر لا يتوانى عنه ويصبح لكل دقيقة معنى واهمية بينما في الحالات العادية لا معنى للزمن والوقت.

ونجد في العالم المتمدن الحديث ان الرجل اذا اضطر في الخطبة في لحظة من اللحظات واحتاج الى المرأة او الجنس يذهب الى الجحيم، واقصد يضطر لممارسة ذلك بطريقة غير شريفة، وغير شرعية، بطريقة تدنسه وتدنس الانثى نفسها، لأن الزواج يكلفه وقتا ومادة، كما ان مسؤولياته جسيمة، بينما هي في البادية بسيطة متواضعة.

وهنا فاننا نجيز لانفسنا ان نتساءل كم هو الفارق بين ابن العالم المتمدن الذي يأوى الى بنت الهوى في الحالات الاضطرارية للحظات مقابل المادة؟ وكم هذا سيء الوقع في النفس؟ وبين الزواج عند البدو في الخطبة او الزواج العشوائي حيث يشعر الانسان بالطمأنينة والمودة والرحمة، كما انه يستطيع ممارسة الجنس بطريقة مشروعة في الوقت الذي يشاءه دون ان ينظر الى ساعته؟!!

وقد تكون الخطبة العشوائية نكاية بالزوجة: وحدثني احد افراد الشرطة البدو ذات مرة وقد عاد توا من اجازته انه تزوج خلال اجازته اليومين والليلتين، حيث وجد زوجته تركت البيت غاضبة او هاربة، وكان غاب لمدة شهر، وهو بحاجة لامرأة، فخطب فتاة ودخل بها بنفس الليلة...

وهذه بالطبع عادة ممتازة، حتى ولو كانت زواجا فاشلا، لأنه حتى الزواج الفاشل عند البدو لا تكون له نتائجه السلبية الصعبة التي تظهر عند ابناء المدينة او الدول الغربية، حيث يكون الفراق (عند البدو) ويتزوج كل واحد من الطرفين ربما بسرعة، وبسهولة، واذكر ان بعض النساء تزوجت في حياتها سبعة ازواج، وبعضهن اكثر، وبعضهن زوجا واحدا، وهذا كله بحد ذاته يساعد الانثى والرجل ان يتخلص من المشاكل التي قد تواجهه عندما لا يرغب تجاوزها او لا يستطيع تخطيها وفي المدينة او الدول المتحضرة، اذا طلقت الانثى او اخفقت فانها قد لا تتزوج بتاتا، وهذا يلقي بها الى احضان الهوى، وتتصرف بما لا يتفق بما نسميه نحن الشرف، ونتمسك به، بينما الفرصة امام البدوية ان تجد شريكا لحياتها مرة اخرى، ومن هنا فهي تستطيع ان تبدي رغبتها بخطبتها لفلان او حبها له، بينما اذا حصل هذا في المدينة يعطى التفسيرات التي لا تنم عن الاخلاق، ان ابناء المدينة يراوغون، ويعتبرونها صيدة تقع في ايديهم لقضاء وقت للاستمتاع ثم يقولون: اذهبي للجحيم.

ثم ان الخطبة العشوائية تؤدي للراحة النفسية وتقطع دابر الهم والغم، ففي الوقت الذي يصاب فيه الشخص بالهم نتيجة غياب زوجته او موتها او هروبها من البيت، او انه بحاجة لزوجة ولم يتزوج بعد، وواتته الفرصة، فهو لا يتوانى عن اهتبالها، وبذلك يصبح وقته فرحا وارتياحا، واعتقد ان الانسان اينما كان يحب دائما ان يستبدل الالم بالامل، والغم بالفرحة، ولا شك ان البدوي يستعمل ذلك بشكل منتظم حقا بينما يهرب الانسان الذي يقول عن نفسه متحضرا الى احضان الغانيات وبنات الهوى، وشرب الخمر، ولعب القمار، وتعاطي المخدرات... وشتان بين الثرى والثريا!؟!

وقد تكون الخطبة العشوائية **اثناء لقاء في صيد او ضيافة**، فتعجبه فتاة ويخطبها فورا، ويتزوجها، وقد يرفض اول فنجان قهوة يقدم اليه حتى يأخذ طلبه - فيقول: أريد فلانة او الفتاة التي رأيتها على العين او التي دخلت البيت الان، فاذا كانت مخطوبة او متزوجة قيل له، انها كذلك، وقد يرفض اهلها، وقد يوافقون، ومن ذلك ان احد الشيوخ تزوج عدة نساء في رحلة واحدة - كلما دخل بواحدة ولم تعجبه تركها عند اهلها، وكان في (خرجه) صرر (مفردها صرة) من المال كلما تزوج واحدة دفع مهرها فورا،.. وليس غريبا ان يذهب شخص في رحلة او جاهة، ويعود ومعه زوجة، وحدثني كثير من البدو انه كثيرا ما تعود الفتاة مساء مع الغنم (حيث ترعى الفتاة عند بعضهم الغنم)، فيبلغها اهلها انها ستكون الليلة عروسا لفلان، وحتى عدم معرفة العروس او العريس مسبقا ليست مشكلة لأنه اذا لم يكن الامر موفقا، فان الطلاق والفراق هو الحل، وكل يجد نصيبه، وعلى كل فزواج اثنين لا يعرفان بعضهما مسبقا ليس مبدأ وانما هو عادة، لا توجد عند كل الناس ولا في كل الاماكن والازمنة بشكل مشروط، ولكن قد لا توجد اطلاقا لأنها تعتمد على الاشخاص والظروف، وان ما ذكرناه، ما هو الا عادات قد تحدث، وقد لا تحدث.

وقد تكون الخطبة العشوائية وقت الغزو: حيث يشاهد احد الغزاة فتاة عند اعدائه، وتعجبه بجمالها، او نطقها، او ذكائها، فيختطفها ويعتبرها خطيبته او زوجته.. وحول ذلك ان شيخا كان عائدا من غزو فمر بالصحراء بشاب وسيم وفتاة جميلة نائمان معا، فاختطف الفتاة، واعتبرها خطيبته وزفها اليه ليتزوجها، رغم انها اخبرته انها مخطوبة للشاب الذي كانت معه، وان الفاتحة مقروءة لذاك عليها[1] وهي ذاهبة معه ليتزوجها عندما يصل الى عربانه، لكن الشيخ الغازي لولعه بالفتاة وظلمه لها رفض كل هذا، وفي ليلة زفافه عليها، لحق بها خطيبها بالاثر، حيث انها عندما تركته عملت بقدمه سهما على الرمال نحو الجهة التي ستذهب اليها، فتبع خطيبها السهم، وسار حتى دخل عليها بالبرزة، وافهمته ما حدث وان الشيخ سيدخل عليها بعد قليل، فاختبأ خطيبها الحقيقي خلف الستائر حتى دخل ذاك، وقتله بالسيف، واخذ عروسه وهرب.

وقد يكون الشخص ضيفا فتعجبه فتاة فيخطبها من اهلها: وحول ذلك ان شيخا شابا تزوج فتاة جميلة وذهب واياها بعيدا عن الناس ومعه خدمه ومواشيه، فجاءه ضيف، ورفض شرب القهوة حتى يعطيه الفتاة التي عنده (دون ان يسأل صلة القرابة بينها وبين المعزب، معتبرها اختا له)، فوافق المعزب، واعطاه الفتاة (وهي زوجته) واخبرها ان تجهز نفسها لتكون عروسا، وضرب برفضها عرض الحائط قائلا: لا اريد انغص على ضيفي.. وهيأها له ودخل عليها الضيف بنفس الليلة، لكنها وضعت السيف بينها وبينه وهذا يعني عند البدو (حد الله بيني وبينك) اي كأنه دخالة عندما يكون من انثى، فقال الضيف العريس، خير ان شاء الله، فقالت: وانت تذكر الله انا ما زلت عروس،

---

[1]) ان قراءة الفاتحة عند البدو هي بمثابة عقد الزواج، او عقدة النكاح، او (كتب الكتاب) في المدينة، وعندما يقولون (البدو) فلانه فاتحتها مقرية (اي مقروءة) اي انها مخطوبة بعقدة النكاح وعندما يقال: فلان قرا الفاتحة عليةفلانة، فمعنى ذلك انه خطبها، وعقد عقده عليها، وبالتالي يعتبر ذلك التزاما رسميا، وما بقي الا عمل مراسيم الزواج.

وهذا زوجي، وما اراد يزعجك او ينغص عليك الضيافة) فخجل الرجل من نفسه، وعاد دون ان يمسها، وخاواها اي اعطاها العهد ان يكون اخا لها.. "وهذا دارج عند البدو ان (يخاوي) الواحد شخصا اخر او انثى، وبالتالي يتعامل معها كأخت، ولا يخشى عليها منه حتى ولو كانا في الخلاء" وعاد يعتذر لزوجها، وذهب بعد ان عرف على نفسه انه الشيخ الفلاني ومنازله منطقة كذا.. الخ ثم عادت الزوجة لزوجها واستمرا بقية الحياة.

الخطبة المنظمة:

قد يكون فيما ذكرنا شيئا من الغرابة، ولهذا استبقناه على هذا الموضوع، كما استبقنا من قبل خطبة الانثى للذكر على خطبة الذكر للانثى، ذلك ان الرأي السائد لدى الاخرين عن البدو هو عكس ما نقول، وللحقيقة ذكرنا وكتبنا ذلك. والخطبة المنظمة هي الغالبة في حياة البدو، ذلك ان الزواج هو اخطر قرار يتخذه الانسان في حياته، واختيار الشريكة ليس سهلا، ومن هنا فهو يأتي بعد دراسة عميقة ومنظمة في اغلب الاحيان....

وتشمل الدراسة عادة الاشياء التالية:

العائلة: لا بد من معرفة عائلة الفتاة، واصلها وفصلها، لأن قليلة الاصل هي خضراء الدمن، التي تكون امرأة حسناء، في منبت سيء، ومن يأخذ هذه النوعية يحتقره الاخرون لأنه (ان الطيور على اشكالها تقع)، ويقولون ايضا (جميع الطيور ترجع لعشوشها الا الصقور)، هذا في تأييد مبدأ الزواج من الافضل، والزواج من النوعية الجيدة، والغريبة، وهناك اقوال متناقضة تؤيد الزواج من القريبة معاكسة لتلك المؤيدة للزواج من الغريبة.

والعائلة شيء مهم، ذلك انهم كما يقولون (اللي وده ينصب ينصب عند الرجال) اي ان ينظر للرجال والعائلة فان كانوا بالمستوى العالي الممتاز تزوج ابنتهم والا فلا.

أن يكون هؤلاء (يطلعوا المخول)، ذلك ان الخال شيء مهم كما سيأتي ذكره باذن الله، وكما يقولون (الخال والد) اي انه ذا تأثير بالوراثة من جهة الام في الصفات الطبيعية والمكتسبة للانسان كما للوالد من هذا التأثير، بالاضافة الى ان له (الاحترام والاحشام) والتقدير كالوالد، ثم ان له حق الاشراف على ابناء اخته في ظروف معينة، لأنه يهمه امرهم كابناء لاخوته من جهة (اي صلة الرحم)، ولأن الاخرين سيقولون في المستقبل، هذا خاله فلان، فكلما كان ممتازا، دل هذا على ان خاله كذلك، ومن هنا قال البدو عن الرجل الطيب (مخول ومعمم) عندما يكون خاله من الرجال الفرسان الكرماء، واهله من هذه النوعية، لأن كلمة (معمم) تعني الاعمام، اي الاهل من جهة الوالد، لايمان البدو ان الصفات الاساسية من جهة الام (الاخوال) ومن جهة الاب (الاعمام) لا بد وان تجتمع بالمولود وتؤثر فيه. ويقال نفس الكلام عن الرجل الرديء عندما يكون اخواله واعمامه بهذا المستوى ايضا... وعندما يكون الرجل رديئا، وعائلته كذلك، وامه من العائلة يقال عنه (اخواله من اعمامه) اي والده لم يتغرب في الزواج، لتحسين هذا النسل.

والعائلة مهمة لدى البدوي كما رأينا لما تؤثره في الوراثة بالمولود، وهذا المهم لأنهم احوج ما يكونون الى رجل ذكي فارس شجاع، واحوج ما يكونون الى اقصاء النوعيات

الرديئة والقضاء عليها، وبذلك نجد ان الرديء محاصر اجتماعيا ولا تؤخذ ابنته او اخته ويحق لنوعيته ان تتزوج من لدنه وغالبا ما تنقرض مع الزمن النوعيات الرديئة او انها تبقى محصورة لا تتوسع، "ولا تقوى" كما ان للعائلة اهمية لمعرفة نوعية الفتاة ايضا: ذلك ان من تكون من اصل طيب تكون طيبة، او على الاقل لا تكون رديئة، فابنة الاصل تصبر على المكاره، والشدائد وتتعايش مع زوجها في الضراء والسراء، وتحفظه اذا غاب في شرفها، وسمعته، تقري الضيف لانها اعتادت ذلك في بيتها، بينما ابنة البخيل على عكس ذلك لأنها تربت في بيت والدها كذلك.. وابنة الاصل لا تفضح زوجها اذا قصر في امر من الامور، ولا تهين والديه، وهذا امر مهم عند البدوي ان يبقى والداه في حصن حصين ومناعة بعيدا عن كل ما ينكد عليها عيشهما، ذلك ان ابنة الاصل تستحي على اهلها واصلها وعلى نفسها، وتخاف على سمعتهم، لذا يقولون (فلانة تبيض الوجه بالغربة) للطيبة التي تحافظ على سمعة اهلها واصلها، وبالتالي هي دعاية مقدمة عن بنات عشيرتها، واخواتها، وتساعد في مزيد من الاقبال على الزواج منهن، وكثيرا ما يحدث هذا عند البدو، حيث ان تصرف فتاة تزوجت يساعد في الاحجام عن الزواج من اترابها من اخواتها وبنات عمها اذا كانت هي سيئة، والعكس بالعكس.

ويقولون للسيئة (فلانة تسود الوجه)، لذا يحرص البدوي عند تزويج ابنته من غريب ان تكون بالمستوى الذي (يرفع الرأس) (ويبيض الوجه)، والا فهو يرفض بتا تغريبها، وقد يصارح الخاطبين ان فلانة لا تصلح للغربة، بينما تصلح اختها او ابـ عمها، لأن السوء لا يكون مردوده عليها وحدها، ولا على والدها وعائلتها فحسب وايضا على العشيرة كاملة.

وتشمل دراسة العائلة: دراسة الاخوال، والوالد، والاخوة، فيقولون: (ابنة فلان او (اخت فلان) للذم او المدح حسب الحالة، كما تشمل الدراسة ايضا الام، فهم يقولون (اذا اردت ان تتزوج البنت لد على امها) اي انظر الى امها، ويقولون: اضرب القربة على ثمها تطلع البنت مثل امها). لأنها تلازمها منذ طفولتها، فتأخذ منها امرين الاول: الوراثة كأم، والثاني الاكتساب من خلال التربية والسلوك، كما تنعكس من خلال الام حياة البيت، فالام السيئة ذات العلاقة بالرجال بما لا يشرفها، تعلم أبنتها ان تكون كذلك، وبالتالي لا تصبح بذلك زوجة صالحة، وشتان بين الصالح والطالح.

ان هذه الدراسة لا بد ويجريها البدوي بواسطته مباشرة، او بواسطة اقربائه او بواسطة النساء (وهذا الغالب).

كما تتم دراسة طريقة حياة العائلة في البيت: فالبدو يقولون (المربى غلب الاصل) اي ان الاخلاق المكتسبة بواسطة التربية تتغلب احيانا على الاخلاق الوراثية الاصيلة، وحياة العائلة هي منبت الفتاة (سوءا ام حسنا)، كما ان الام الصالحة تربي ابنتها على الاخلاق الحميدة، واطاعة الزوج وخدمته، واذا كانت الام مع الزوج هكذا فان ابنتها تتعلم منها ذلك بالطبيعة.

كما ان طريقة حياة العائلة هل هي مبنية على قواعد خلقية ام العكس، وهل هم يعيشون في فقر مدقع؟!! ام في غنى فاحش؟، وهناك فتيات وجدن ولهن خدم وهن بنات الشيوخ، وقد لا يستطيع الزوج توفير ذلك، فهل هي قادرة على التكيف معه، وتضحي من اجل الحب بهذه الامتيازات ام لا؟!. هذه دائما اسئلة لا بد من معرفة الاجوبة عليها قبل الاقدام على الزواج.

وهل حياة الوالدين في شقاق ونزاع ام في اتفاق، وحتى انهم يسألون اذا كانت العائلة من النوع (القطعي) (بكسر او ضم القاف) اي التي لا تصل الرحم، لأن صلة الرحم شيء اساسي في التعامل بين ذوي القربى والرحم وقد امر الاسلام بذلك، وحث عليه في القرآن الكريم والسنة الشريفة، ويعتبر (القطع - او القطاعة) عيب كبير في العائلة او اهل الفتاة قد يكون كفيلا في كثير من الاحيان في احجام الناوي على الزواج من الاقدام على هذه العملية من هذه الفتاة بعينها او تلك ؟! لانها قد تؤثر في ابنائها مستقبلا، فيكون (قاطعين)مع سائر الأرحام بما فيهم الوالدين، والاهلين... والبدو يحبذون الرجل الذي يجمع صفة (اللين في غير ضعف، والقوة في غير عنف) اي يتحركون بمجرد ان يهز العصا (حمر عينك وارخي ايدك) او (هوب ولا تضرب).

دراسة اوصـــــاف الفتاة:

بعد دراسة الجو المحيط، والمنبت الذي نبتت وتعيش فيه الفتاة، يبقى **عنصرها، ودراسة اوصافها، وقدراتها** على تحملها للمسؤولية مستقبلا، والتكيف مع العائلة، فهل هذه الفتاة جميلة؟ عاقلة؟ ام عكس ذلك يا ترى؟ هل لديها استعداد لتحمل الحياة مع الزوج الجديد، وان تحترم والديه، واهله وذويه، هل تستقبل الضيف اثناء غياب الاهل؟، هل انها عفيفة شريفة تغض البصر؟ ام انها (وقحة) لا تعرف الحياء؟ هل هي (مستورة) اي تكظم الغيظ وتعفو عن الاخطاء؟ ام انها (إمفضحة) - بتسكين الميم وتشديد الضاد - وهي التي تعمل من الحبة قبة بالسوء، ولا تستر على عيب تراه، او كلام تسمعه - وبمعنى اخر تتم دراسة اوصافها الجسدية، وسلوكها، واخلاقياتها، واحيانا تصوراتها للحياة، وهذا يتم في الغالب من قبل النساء، كأن ترسل اليها فتاة من اترابها تعيش معها وتتعرف على كل هذا، من خلال الحديث والحياة معها، او ربما ترسل امرأة محترفة (تلتقط الامور على الطاير) كما يقولون اي تفهم الانثى مجرد الجلوس معها والتحدث اليها ولو لوقت قصير، وقد يتم تجنيد احد الجيران او احدى الجارات، وفي حالات (بنات الشيوخ)، قد يتم اخذ الاخبار بواسطة الخادم او الخادمة لانه المسموح له بالدخول الى هناك بدون حرج، وقد يتم التعرف عليها بالسؤال عنها - اي الحصول على المعلومات المطلوبة - بعد ان يسألوا الجيران والمعارف..والبدوي اذا امتنع عن الاجابة معناه ان صفات الشخص الذي يعرفه لا تعجبه ويكتفي بقوله: (ما عندي علوم)، او (بينا وبين شره الله). او (الله يستر عليها). اما اذا كانت الاوصاف ممتازة، فهو لا يتوانى عن ذكر ما يعرف... وقد يتجرأ احدهم على ذكر الصفات السيئة اذا كان بينه وبين السائلين

وحدة حال، ومن الصفات السيئة ان يقال عنها انها (بصاصة، او عينها ترف) اي انها تحب النظر الى الرجال، وتنتظر الصبابة منهم اليها ...الخ، ومن السوء ان يقال انها متيمة بفلان... فيقولون (ما ناخذ جسد بدون قلب) اي ان قلبها معلق باخر، وجسدها مع شخص غيره.

واما اذا كان قريبا او ابن عم، او اقرب اليها من الذي تحبه، فان أعتراضه على هذا الحب، شيئا معتادا، حتى ان الفتاة تحاول سلفا الا تميل او تحب من ليس لها (دنوة) اي قريبا طالما ان هناك قريبا يمكن ان يفي بالغرض، وطالما ان ذاك الحب لن يؤدي الى النتيجة المطلوبة وهي (الزواج).

ومن المهم دراسة **قدرات الفتاة على تحمل المشاق**، والعجين والخبز، وحلب النياق او المواشي الاخرى، واطاعة والدي الزوج، وجلب الماء، والاشتراك في الاعمال اليومية الاخرى التي منها الحصاد، والغمارة (جمع الزرع المحصود)، والتخزين (تخزين الحبوب والتبن) ويقولون: فلانه ما تعرف تساوي لزوجها لقمة خبز، كناية عن عجزها عن القيام بابسط الواجبات الزوجية وهي صنع الطعام لزوجها، ولا شك ان نساء البدو يعملن بما لا يقل عن الرجال، ويبذلن جهودا لا تقل عما يبذلونه من جهود... ان لم تكن اكثر (في الظروف العادية)

ونعود الى **طريقة الحصول على المعلومات عن الانثى**، فتكون اما بالتعايش اي ان القوم في فريق واحد، وعاشوا حياة واحدة بالرحيل والنزيل، خاصة وان البدو يراقبون كل شيء، خاصة تحركات وتصرفات الحريم والشباب، فتكون هذه كافية عن السؤال، وقد يتم الجمع عن طريق الاخرين، كما اسلفنا، سواء من الناس العاديين ام الخدم، وقد يكتفى بملاحظات العريس، وان الفتاة اعجبته وكفى، وتكون لديه القدرة في اقناع الاهل او اجبارهم على خطبتها له.

وقد يحدث شيء بين شاب وشابه بعيدا عن اعين الرقباء من الناس، فيصبحان تحت امر واقع، وخوفا على حياته وحياتهما وضمانا لهما، يتقدم لخطبتها والزواج منها فورا، بغض النظر عن اخلاقها، مهما كانت، وربما يطلقها بعد الزواج بقليل، لايمانه، ان التي خانت شرفها قد تخونه في اية لحظة ايضا لأن مبدأ الخيانة اصبح عنصرا في حياتها، وقد تكون هي تحبه ويكون هو بمستوى رفيع، وتستدرجه حتى تعطيه شرفها، فيضطر هو ان يفقد شرفه ايضا، وقد يصارح امه او شقيقه او والده بذلك حتى لا يعترضون على خطبتها وزواجه منها، خاصة اذا لم تكن بالمقام اللازم.

واما الدراسة بارسال انثى، فلا بد ان تكون هذه الانثى مخلصة لعملها بالدرجة الاولى، وهناك نساء محترفات للقيام بمثل هذه المهمات، فتذهب كضيفة او تحمل غزلا (صوف او شعر) لتقوم بغزله هناك، وتقوم هي بهذه المهمة عند اهل العروس، وتطول جلستها منذ الصباح حتى العصر مثلا، وتتحدث باحاديث كثيرة وهي تدخن على الغليون ذي العصا الطويلة او القصيرة، وهي تأكل غداءها الذي تطبخه الفتاة او امها، (اية دراسة للام هي دراسة للابنة)، وبعد ان تعود تقدم تقاريرها كاملة لأهل العريس او

للعريس نفسه، وربما تقوم بذلك مقابل اجرة معينة مثل (عباءة، او منديل، او ناقة، او شاة، او نقود، او خاتم، او حتى غليون بدل غليونها المكسور، او كمية من التبغ)، وربما تؤديه بدون مقابل، ولكن العريس يودها بهدية او مكافأة محترمة بعد نجاح المهمة، ثم تأخذ الضوء الاخضر للبدء بنشر الدعاية للشاب او لعائلته، وتعدد مناقبه واوصافه واذا كان اهل الفتاة لا يعرفون من قبل اسباب مجيء هذه المرأة، فبمجرد البدء بالمدح وتعداد المناقب فانهم يعرفون ان الامر متعلق بخطبة ابنتهم لهذا المذكور، لذا فان المراسالة لا تفصح عادة عن غرضها وهدفها الا بعد ان تجد الامور مناسبة. ثم تستمع الى رد ام الفتاة، او الفتاة نفسها على هذا المدح، فان اعطين الاهمية بالسماع، والتعابير على الوجه، تقدمت هذه اكثر فاكثر، فاذا تهيأت الامور تقدمت الامور وتوسعت وتأتي ام الشاب او اخته، وربما تسد المرأة الأولى عن ذلك اذا كانت من قريباته.. وتتداول النسوة الحديث بينهن، ويصارحن الفتاة وامها بالامر، وبالطبع تقوم هذه بدورها باخبار والد الفتاة، وتتم دراسة الموضوع، ويعطون الضوء الاخضر بالموافقة المبدئية، وهنا تقوم النسوة بابلاغ النسوة ثم يتم اجتماع اهل الشاب بصورة عائلية، وتتوسع الدراسة حيث يقوم الوالد ببحث الامر مع اخوانه (اعمام الشاب)، ويتداولون امرهم بينهم... ولا شك انه اذا كانت الفتاة من خارج (الخمسة) اي ليست من الحمولة ولكنها تكون من العشيرة، فان الدراسة التي ذكرناها لا تتم الا اذا كان الشاب واهله يثقون ان بقية الاهل سيوافقون، ونادرا ما يتزوج البدوي عكس رغبة اهله خاصة في امور الزواج، فالبدوي انسان منضبط بطبعه، ولا يقبل لنفسه ان يكون عضوا مرفوضا من جسم الاسرة او الحمولة او العشيرة..

وبعد هذه الدراسة يتم ارسال شخص او شخصين بصورة شبه سرية لدراسة الامر مع والد الفتاة او ولي امرها، وكما انه تم في البداية ارسال نساء الى نساء، ومهدت الطريق، فان الامر يتطور الى مرحلة جدية اوسع واكبر واهم، واذا كان كلام النساء تمهيديا الا انه كلام غير مسؤول الى حد جدي او قل نهائي، لأنه لا تزال هناك العديد من المراحل الطويلة التي لا بد من المرور فيها.. ويقوم المرسال (رجل او رجلان... ولكن لا يزيدون عن الثلاثة (لانهم ليسوا جاهة، فالجاهة لا تقل عن ثلاثة)... وهؤلاء يطرقون الموضوع بشكل دراسة وعرض، فمثلا الجاهة تطلب ما تريد بعد التوقف عن شرب القهوة، اما هؤلاء، فيشربون القهوة، ويعرضون الامر لوالد الفتاة او ولي امرها، وبالطبع يبينون حسنات الشاب واهله، وحسنات الفتاة واهلها، وانه انطلاقا من هذه الاسس، وان الطيبين للطيبات، والطيبات للطيبين. تبرز عناصر الكفاءة المشتركة بين الطرفين، واذا لم يكن الشاب بمستوى الفتاة فان المرسال يبين من صفاته ما يعوض على النقص الباقي، وفي هذه الحالة (عندما لا يكون التكافؤ) لا بد من حب الفتاة للشاب، والا فانه يصعب تحقيق الهدف، وقد يوافق والدها للمرسال، وقد لا يوافق، وقد يطلب مهلة للدراسة (وبالطبع تكون الدراسة من جهته مع اقاربه والفتاة، وامها) ودراسة عن الشاب واهله وذويه، والتحسس ان كان من هو اقرب من الطالب يرغب طلب يد الفتاة.

ان **الجاهة الاولية، او المرسال من الرجال** تتكون من شخص او شخصين (وغالبا شخص واحد) ولكن لا يزيد العدد عن ثلاثة رجال، لأنهم يصبحون حينها جاهة، والامر يختلف جدا في حالة أنهم مراسيل عن كونهم جاهة إنهم يجسون النبض، ويرودون الوضع. ويشربون القهوة وقد يأكلون ويشربون، ثم يفصحون عن رغبتهم في انهم يريدون (فلانة لفلان)، واذا كان لدى الرجل فتاة واحدة فقط، يقولون (نريد من بيتك كحيلة تأكل بيدها) وقد يذهب والد الشاب او شقيقه، وربما يخطب الابن لوالده ايضا، ونحن نتحدث عن المراحل الطويلة، وهذه قد يتم اختصارها جميعا بكلمة او بتصرف، اذا كانت جميع هذه التي تحتاج لهذه المراحل - واضحة، واحيانا تكون جميعها واضحة، الا انه لا بد من المرور بهذا الدوري الطويل والذي اراه عبارة عن عناصر تشويق في قصة مثيرة، وصراع بين طرفين من اجل ان يبرز كل واحد ما عنده من سلاح الرزانة والاهمية، فيرى اهل الشاب في اهل الفتاة انهم لا يسلمون فتاتهم بسهولة، وهذا بحد ذاته درس للزوج الجديد ان يكون جيدا وممتازا للزوجة. ويتعامل معها على ان الحصول على زوجة جيدة ليس بالشيء الهين، والبدو يعتبرون ان كل فتاة يتزوجونها هي جيدة بالنسبة لهم (والتي قد لا تكون جيدة بالنسبة لغيرهم) فالامر على مبدأ (ان الطيور على اشكالها تقع)، ومبدأ (الطيبون للطيبات).

وان التصرف الطويل هذا ايضا يعطي اهل العروس الفكرة عن اهل العريس وهي فرصة لاهل العريس ان يظهروا من خلال الصبر والاناة رغبتهم الاكيدة بالنسب فتصبح العملية (مثل ما تراني اراك) ومبدأ (اللي يشوفك بعين شوفه بعيونك الثنتين).

وهو يعطي العروس درسا في الصبر خاصة اذا كانت تحب الشاب فهذا الدور الطويل يجعلها تعيش على اعصابها لحظات طويلة، وبالتالي تتعلم درسا في الصبر والجلد. واذا كانت لا تحبه فهي فرصة لها ان تعرب عن عدم رغبتها الزواج منه وذلك لامها او لاقرب انثى اليها توصل صوتها لوالدها، واذا وجدت انه لا جواب بواسطة الاخرين قالت لوالدها صراحة انها لا ترغب الزواج من فلان، واذا رفض واصر على تزويجها ممن لا تحب يمكنها ان تدخل بشخص اخر طالبة اليه تخليصها من هذا الزواج، ولهذا الذي دخلت فيه الحق في فسخ الخطبة بطرق كثيرة منها انه (يمون على ابيها) اي يقنعه بالعدول عن الموافقة، خاصة وانه (في الزواج) يحق لولي امر الفتاة ان يعود ويتراجع عن الموافقة اذا رفضت الفتاة، وحينها لا عيب الا على تصرفه في عدم اخذ رأيها.

كما ان هذه المدة الطويلة (الفرصة في الاخذ والرد) تعطي الفتاة اهمية عند شباب الحي، والاقارب وابناء العم، الذين يتوافدون (للتفول) اي كل يدعي اولويته في الخطبة، وهذا بحد ذاته يزيد من تمسك عريسها فيها، ويعطيها اهمية كبيرة لديه، ويزيده حبا لها، واما اذا احبته من قبل، فان حبها له يزداد الان خوفا عليه الا يكون نصيبها وعلى نفسها الا تكون نصيبه.

كما ان المدة الطويلة تعطي فرصة للشاب والفتاة، كل منهما ان يتصرف تصرفا رزينا، ممتازا مبنيا على الاخلاق وما يناسب الطرف الاخر، ذلك انه بعد (دراسة وضع

الشخص او الفتاة أو مراقبة كل منهما من الطرف الاخر)، اذا رأى او احس اي منهما بشيء على الاخر او منه، فقد يعدل عنه، وهذا بحد ذاته (العدول) ليس في صالح اي منهما فالاساءة حينها لا بد وتلحق بسمعتيهما، ومن هنا فانها فرصة لاعادة تقييم التصرف، وتنشيط النصائح من اباء واصدقاء كل منهما في ان يتصرف بما يناسب، وقد يبقى كل على سلوكه هذا لأنه يرضى من يحبه، ونجد قصصا كثيرة عند البدو عن شباب او شابات كانوا (ملعبين) بتشديد العين، وعندما شعر اي منهما انه موضع الطلب بالخطبة، عدل عما كان يتصرفه، وحسن (بتشديد السين) سلوكه، وثاب واناب، وحسنت سيرته.

وفوق كل هذا فان (الوقت الطويل) بحد ذاته تعبير عن عفوية البدوي في حبه للتأني خاصة في قرار يخص العديد من الناس بالاضافة الى انه يخص فردين في المجتمع، وتتطور الحكاية وتتوسع الى عشيرة واهالي كل منهما، كما انه يملأ الفراغ الذي لدى البدوي، حيث كان لا قيمة للزمن عنده كما سبق وقلنا (الا في الوقت المناسب)... وهو بحاجة لما يملأ فراغه ووقته، كما ان ارسال المراسيل بحد ذاته هو تنمية لما يمكن ان تسميه (فن المحاورة والمناورة – الدبلوماسية) لدى هذا البدوي البسيط في الصحراء، واذا لم يكن الخاطب معروفا لدى الفتاة وامها واهلها، فالوقت فرصة مناسبة لمعرفة المزيد من المعلومات عنه، سواء بالسؤال عنه او عن اهله، وربما من خلال نوعية المرسال الذي يأتي، فاذا كان المرسال سيئا ليس من مستوى الفتاة، او هو في نظر الفتاة ليس بذي قيمة، فانه لا شك يعبر عن قيمة الخاطب.

فالرسول يدل على مرسله، وغالبا ما يكون المرسال معروفا لدى اهل الفتاة او ذي قيمة او ذي خبرة في شؤون (المحاورة والمناورة والاقناع) بل ان الاصل "المبدأ" أن يكون معروفا لدى اهل الفتاة، وان كانت العادة انه قد يتم ارسال شخص غير معروف لاهلها، وعادة يتم ارسال من هو معروف لدى الطرفين. او من يعرفه شخص له قيمته عنده من طرف اهل الفتى، اي انهم يرسلون شخصا ليتوسط لدى شخص اخر (صديق له) وله قيمة او كلمة او (يمون) على اهل الفتاة، وهذا بدوره لا يقوم بالمهمة الا بعد ان يأخذ المعلومات الكاملة عن الشاب، ويقتنع انه كفوء للفتاة وان الظروف مواتية، وان مهمته ستنجح.

وبذلك لا بد من الاخذ بعين الاعتبار (**امرين هامين من طرفي الطالبة والمطلوب تجاه المرسال؛**

اولهما اختيار نوعية المرسال من قبل المرسل "الطالب".

وثانيهما كيفية الرد من قبل المطلوب (المرسل اليه).

اختيار المرسال: اما الامر الأول فهو مهم، ذلك انه يدل على نوعية الشخص المرسل، او المرسل اليه، فمثلا لو تم ارسال احد العبيد لاحد الشيوخ فانما هي إهانة له على أن مقداره عند ذاك هي بمستوى الخدم والعبيد، وهنا تتعقد الامور، وتكون النتيجة سلبية، كما ان ذلك يعني ان المرسل اليه احد اتباع المرسل وعليه ان يسمع ويطيع فقط،

ولا رأي له، وانه لا يستحق اكثر من الخدم والعبيد وليس اهلا للاحترام بارسال اناس من وجهاء العشيرة، والاهل.

واذا ارسل شخصا غبيا، فهذا استهتار بالمرسل اليه الى حد كبير وانه لا يستطيع تمييز الخبيث من الطيب، وبالتالي فانه سيوافق، فقط مجرد ان يطلب منه، وهذه اهانة.

واذا ارسل شخصا متكبرا عنجهيا، فهو يعني احتقار المرسل اليه ايضا، ذلك ان البدوي لا يقبل لاحد ان يتكبر عليه، او يشتمه بل انه يتكبر على كل من يتكبر عليه، وعلى مبدأ (من تكبر عليك "قيراط" تكبر "فعل امر" عليه قنطار) وعلى مبدأ (وجزاء سيئة سيئة مثلها)، ومبدأ (تكبرك على المتكبر صدقة) وايضا (اللي يشوفني بعين اشوفه بعينين - او بعيوني الثنتين) اي ان العكس هو العكس ايضا وبالتالي يرى البدوي انطلاقا من المبدأ الاسلامي (جزاء سيئة سيئة مثلها) ومبدأ (تكبرك على المتكبر صدقة) يرون فيه قاعدة للرد على المتكبر بنفس سلاحه، وان عدم الرد عليه يرونه عصيانا للمبدأ، وبالتالي ذنب، واهانة، وهذا ما يرفضه البدوي.

واذا ارسل طفلا فهو شيء سيء ايضا.

من كل ما سبق نرى اهمية ارسال الشخص ونوعيته، التي تساهم بالتالي بتحديد مدى النجاح او الفشل في المهمة. وبالتالي نجد في حالات او عشائر كثيرة ان يقوم بهذه المهمة اشخاص لهم قدرتهم بالاقناع، والمحاورة والمناورة بما نسميهم في عصرنا الحاضر (رجال العلاقات العامة، او الدبلوماسيون)، حيث يعرفون مواضع الكلمة وتأثيرها. فالهدف واضح، وهم يفهمون جيدا ماذا يريدون، وكيف يتعاملون مع الاطراف الاخرى يدخلون من منافذ الضعف، والاقناع، ويتجنبون مواقع القوة واللا إقناع..

ان المرسال شخص له اهميته وعلى مهمته يتم بناء القاعدة الاولى للتفاهم، اونز الاوراق، والفراق...

انه يدل على نوعية من ارسله، ومعرفة ومدى اهتمامه بالموضوع، فقد يحاول شاب خطبة فتاة، ووالده لا يرغب ذلك، فيرسل مرسالا او جاهة، غير مرغوب فيهم محكوم عليهم بالفشل سلفا، وهذا ما يرغبه ولي الامر او اهل الشاب. خاصة وانه ليس هناك الزام او التزام من طرف اهل الفتاة بعد، وإنما هو عبارة عن دراسة، ومناورات، وقد يتراجع اي طرف في اية لحظة، وهناك طبع او قل عادة.

وهي: ان اهل الفتاة رغم علمهم المسبق بالامر، واعطاؤهم الضوء الاخضر بالطلب، الا انهم عند مجيء المرسال يتظاهرون وكأنهم لا علم لهم بالامر، ويعطونه حقه من التأني والدراسة، والامهال للنظر فيه، والعجيب ان المرسال واهل الشاب لا يرون في ذلك غضاضة ويقبلون الامر على علاته، ويصبرون وينتظرون..

ولا بد لاهل الفتاة ان يتصرفوا، وغالبا يكون بالامهال او ما يسمى (الفهق) - اي الامهال والانتظار بدون جواب نهائي - لا بالنفي، ولا بالايجاب - فيقولون: (انظرونا كذا يوم)، وغالبا لا تقل المهلة عن اسبوع (حتى نشوف) اي لنرى امكانية الموافقة او عدمها، وفي الواقع يتم ما يلي:

دراسة الامر من جديد على ضوء الطلب، والمرسال، ودراسة الامر مع الفتاة وامها، ومع ابناء العم، والاعمام، فقد يحتج اي واحد فيهم، فيرغب بالفتاة، وقد يوافق الوالد (ينطق) او يخيرها بين ابن العم والغريب، واذا وافقت على الغريب فهنا تكون المشكلة وتتعقد وقد تستمر عدة سنوات قبل ان يتم الزواج، حتى تنتهي القضية، وقبل ان نخوض بهذا نقول ان اهمية المرسال عند البدو يقابله في العصر الحديث، اهمية المبعوث من رئيس دولة لاخرى، فان نوعية المرسال، واهميته وقيمته واختصاصه وعقليته تحدد في الغالب مدى الاهتمام بالموضوع، وربما نجاحه او فشله، وكما ان والد الشاب قد يذهب بنفسه فان ذلك يقابله في الدول الحديثة ان يذهب رئيس الدولة بنفسه بما يخص شعبه او وطنه لانه يمثلهم، وينوب عنهم في دراسة الامر والموافقة عليه.

واذا كانت القضايا السياسية المعاصرة شيء مصيري بالنسبة للدولة فان الامر شيء مصيري بالنسبة للقبيلة او الفرد فيها، بل ان ذوق البدوي شيء ممتاز وفي مستوى عال من الحس في اعطاء اهمية للمرسال في التعامل بين طرفين على مستوى فردي، وهو يرفض ان يكون جسر اللقاء وحبل الربط بينهما - واهنا ضعيفا... انما يريده قويا متينا، لتقوية اواصر المحبة والصداقة، وهذا دليل ان البدوي، لديه استعداد كبير وفطري في عمل الصداقات المتينة الصادقة النقية مع الاطراف الاخرى، على اساس من تبادل الاحترام، خاصة وانه بحاجة للأمن والطمأنينة مع غيره، لأن رفض العلاقة احيانا يؤدي الى ردة فعل عكسية قد تخلق جوا من المشاحنات والبغضاء، وبالتالي الحرب والغزو.

والبدوي يرى في كسر خاطر (الوجه الطيب)، والرجل ذي الجاه والشهامة والاحترام يرى في عدم احترامه اساءة للكرامة الانسانية، ويرون دائما (ان من يحترم الناس انما يحترم نفسه)، فالذي لا يحترم نفسه اجدر الا يحترمه الاخرون وليس بمستوى النسب، وبالتالي قد يؤدي هذا الى كساد بناته اذا كان (المكسوف) رجلا محترما اما اذا كان العكس فالامر حسن لصالح من (كسف وطرد).

ان هذه الامور رغم بساطتها الا انها معقدة وعميقة، وذات فلسفة ومغاز واهداف لا يمكن فهمها لمجرد قراءة العادة، الا بعد ان نسجل تحليلها وفلسفتها وهذا الاهم.

الرد على المرسل من المرسل اليه:

من عادة البدوي ان يكون جوابه بمقدار السؤال، واذا زاد احيانا فهو للايضاح والاحاطة قطعا لمزيد من الاسئلة، ولو استفسرت عن اسم احدهم لاعطاك كلمة واحدة "فلان "ويحتاج معرفة اسمه وحمولته بمقدار الاسماء المطلوبة، وكذلك لو قلت لاحدهم انك ترجو قربه ونسبه، لقال كلمات مختصرة تكون عادة كما يلي: (نشوف ان شاء الله) (ان شاء الله يصير خير) (امهلونا)، (افهقونا)، (خلينا نشوف)، واحيانا يقول (ابشر باللي جيت به)

واذا رغب الاعطاء قال: (حنا ما نلاقي احسن منكم) او (قربكم شرف) وتأخير القوم له اهمية في المجتمع البدوي ذلك انه كما قلنا سابقا يعطي مهلة طويلة ولما لهذه المهلة من اهمية نفسية ومردودات سواء بالنسبة للفتاة او للشاب، كما انها فرصة لدراسة

الطلب وعرضه على اخوتها واعمامها، واقاربها الادنين الى (الخمسة) واذا كان الخاطب من عشيرة اخرى توسع الامر لمستوى العشيرة، ونحن نرى في الدول العصرية الحديثة كيف ان الدولة تدرس طلبات الدولة الاخرى، التي تتقدم بها لطلب المساعدات الاقتصادية او العسكرية، حيث يدرسها رئيس الدولة الذي يأخذ رأي مستشاريه ثم اراء مجلس الامة او الشيوخ والنواب، وكما ان لرئيس الدولة احيانا صلاحية القرار بدون الرجوع لسلطات اخرى في حكومته، عندما يرى ان مصلحة الدولة تتطلب ذلك فان والد الفتاة البدوي قد ينطق احيانا، بدون الرجوع الى غيره، واذا كانت تصرفات رئيس الدولة في امر سياسي مهم يخص الدولة والوطن والشعب، فان ذلك عند البدو يهم الشخص والقبيلة ايضا، ولا شك انهما قراران متقابلان.

يقوم الوالد او ولي الامر بالاتصال مع اخوة الفتاة للاسباب التالية: هناك كثير من البدو يتزوجون بالتبادل (البدل) اي ان يتزوج فتاة مقابل ان يعطي اخته لوالد او شقيق تلك الفتاة فتسمى العروسان (بدايل) اي كل منهما بدلا من الاخرى، وقد يتفق شابان ان يتزوج كل منهما شقيقة الاخر، ويكون هذا الاتفاق بعيدا عن علم الاهل، ومثل هذه الاستشارة قد تثير الموضوع، وهذا بحد ذاته احترام لارادة الرجل، وهي كذلك توثيق للروابط الاسرية، كما ان القرار يخصهم جميعا. حيث السمعة لهم، والضيق او الحيف الذي يلحق ابنتهم يضطرهم ان يقفوا جميعا، معا لمواجهته.

كما ان هذه الاستشارة، احترام للأخ وانه من الاهمية بحيث يؤخذ رأيه، وبالتالي تزداد ثقته بنفسه، ويشترك في اتخاذ القرار، وهذا تنمية لروح القيادة وابداء الرأي لديه وتقويه اعتباره. وهي ايضا تجعله يعرف ان فلانا هو الصهر الجديد اذا ووفق عليه وبالتالي تجعله يفكر مليا هل يوافق او لا يوافق، بالاضافة الى ان الفتاة جزء من اخوتها وانتزاعها يكون باخذ الاذن من الاخرين. وفي الاستشارة كذلك تبادل احترام في العائلة الواحدة، وان القرار قرار جماعي، وتحمل المسؤولية جماعية، وليس فرديا، وقد يقول الاخوة لوالدهم او اخيهم الكبير او خالهم او عمهم ان بامكانه اتخاذ القرار الذي يراه، وهذا عند ثقتهم به وانه قادر على ان يضع الامور في نصابها.

اما الاعمام (اي اشقاء الوالد)، فهو بالاضافة لما سبق من اسباب ومبررات، يعطيهم الانذار ان فلانا سيكون هو الصهر، كما انه تنبيه فيما اذا رغبوا في خطبة الفتاة لاحد ابنائهم ويبدون رغبتهم هذه، وطلبهم قبل اتخاذ القرار وقبل (النطق) للطالبين.

واما اذا كان الطالب من خارج القبيلة فلا بد من اخذ رأي الشيخ، ووجوه العشيرة. لأنه حينها قرار يهمهم جميعا، كما ان النسب والمصاهرة تزيد الالفة والمحبة بين الطرفين المتصاهرين.

ونلاحظ ان الاستشارات واخذ اراء الرجال يكون بعد مجيء المرسال من الرجال، وليس بعد مرسال الاناث، لأن كلام الرجال هو الذي يعول عليه، ومن هنا نرى كم هي اهمية المرسال، فاذا كان قويا محترما، فان ارساله يعني التزام اهل الخاطب بما يقوله، وانه جاء بالفعل، وليس على رأسه لأن المرسال قد يأتي على راسه، او لا يحترم نفسه ولا

يحترمه مرسلوه، وبالتالي ينكصون عن رأيهم، ويكون اهل الفتاة قد وافقوا، ويتحولون الى طلاب عريس لابنتهم بدل ان تكون هي المطلوبة، وهذا مساس بكرامتهم، ولا يقبلونه ابدا.

قلنا انه بعد اعتبار المرسال، وان الامر تحول الان من (حكي الحريم) الى (حكي الرجال) حينها يؤخذ بالجدية اللازمة وتتم المشاورات.

كما أنهم أثناء (الفهق) او (التأخير) يدرسون العريس واخباره واخلاقه، وما يمكن ان يترتب على الزواج مستقبلا. واذا كانت حصيلة كل هذه الدراسات والاستشارات ايجابية، وافقوا، والا فالجواب هو النفي والاعتذار بقولهم (يشرفنا، ولكن ما فيه نصيب)، او (عيا عليها ولد عمها)، او (حنا ما نغرب بنتنا) اي لا نرسلها للزواج في ديار الغربة.

والجواب قد لا يكون من اول (فهقة) اي قد يعد ولي الامر باعطاء الجواب بعد مهلة ثانية وثالثة، ولكن ليس اكثر من ذلك، والمهلة لا تقل في كل مرة عن اسبوع، ولا تزيد عن شهر قمري (عربي). وهذه مدة كافية عند البدو لئن يعرف بها الجميع، ويحتج من يحتج، تماما مثلما تعلن محكمة عصرية عن تعليق قرار او الاعلان عنه لاستقبال اي اعتراض حول ذلك من الاطراف المعنية.

واذا حصل المرسال على موافقة فقد نجح، واذا حصل على (امهال) فهذا يعني ان هناك فرصة للنجاح، واذا حصل على (النفي) في المرة الاولى او الثانية، او الثالثة، فان اهل الشاب اما ان يسلموا بالامر، واذا كانوا لا زالوا راغبين بالنسب والمصاهرة، فانهم يتقدمون بمرسال جديد يكون اكثر لباقة، وكياسة من الاول، واقرب الى القوم منه... وقد تدخل بعض الامور كالسحر والشعوذة ليوافق اهل الفتاة، هذا اذا كانت بالنسبة لهم امنية، ومن الصعب الحصول عليها.

والمشكلة هي عندما يعترض ابناء العم على (الطلبة) او (الخطبة). وتكون الفتاة تحب الطالب وتفضله على ابناء عمها، هنا يؤخذ رأي الفتاة فيقولون (رأيها يطلعنا من خطيتها)، وقد يسير الاهل حسب رغبتها، وهكذا يفعل غالبية الشيوخ لأنهم غالبا لا يزوجون بناتهم الا برغبتهن، وقد يسير الاهل على عكس ما تحب وتطلب، فتزوج من ابن عمها مفضلا على الغريب (لان ابن العم يطيحها عن ظهر الفرس) - اي له الحق من حيث المبدأ ان يحتج على الزواج ويعيدها او يأخذها زوجة لنفسه حتى وهي (مزفوفة) الى اخر من غير ابناء العم، (ولو كان ذلك يوم الزفاف) لأن البدوية غالباً ما تركب الخيل وهي (عروس) لان (الخيل معقود بنواصيها الخير) وهي موضع التفاؤل باليمن والخير والبركة.

فاذا رفضت الغريب انتهت المشكلة، واذا رفضت ابن العم فهذه مشكلة لذا وجب ان يكون لديها المبرر الكافي والا سئلت عن الاسباب، واعتبروا الامر يحوي شيئا مما يمس الشرف، ومن مبررات تفضيلها الغريب ان يكون فارسا، وان يكون قد عمل خيرا وحسنى لقومها، او انتخى بها وهو يحارب عدوه او عدو قومها، لكنها لا تستطيع الاصرار

على الزواج من الاجنبي طالما ان ابن العم يريدها، كما انها لا تستطيع رفض ابن عمها، وانما تحاول ان تقنعهم بعدم رغبتها بواسطة امها، وربما لابيها مباشرة.

والسؤال الذي يفرض نفسه الان، فيما اذا كان هنالك حالتان:

اولاهما: الحب من طرف واحد هو الخاطب (الشاب).

وثانيهما: وجود حب بين الشاب والفتاة، مع رفض الأهل في كلا الحالتين... فما هو التصرف، والحل؟!

هنا تبرز اهمية التدخل، وضرورة الاحراجات، والجاهات والوجاهات، اما اهل الشاب او الخاطب فيرسلون جاهة (طويلة عريضة) وتعتبر في نظرهم مهمة جدا، ربما ركبان، او راجلون، فيحلون ضيوفا عند اهل الفتاة، وعادة يكون ذلك في النهار (من الضحى حتى المساء)، ويربطون الركائب، يدخلون، وبالطبع يستقبلهم المعازيب كضيوف، وتصنع لهم القهوة، ويطلبون الرجل المعني بالأمر الذي يستطيع ان (ينطق ويمون)، اي يقرر بكلمة (نعم او لا)، ويطلب زعيم الجاهة منه ان يجلس قربه، ويوجه اليه الحديث ليشعره ويوحي اليه المقصود من المجيء، وعند تقديم القهوة او الطعام يرفضها هؤلاء الضيوف، حتى يحصلوا على طلبهم، وهذا منتهى الاحراج، واعرف عن حالات رفض فيها ولي الامر تزويج او خطبة ابنته لاناس معينين، وعندما رفضوا شرب القهوة واكل الطعام قال لهم: (ان خطبة ابنتي اعظم ذنبا عند الله من مجاملتكم). ولا يكون مثل هذا الرفض الا في حالات معينة، كأن يكره الرجل تزويج هذه الفتاة لهؤلاء القوم، او كأن ترفض الفتاة، فيستجيب لها والدها، او ان يصر ابناء العم على الزواج منها، ويضطر حينها والدها الخضوع لرأيهم لأنهم اصحاب الحق الأول، وبالطبع اذا تضايق الرجل فلا بد له ان يعطي المبرر فيقول: الفتاة ترفض، او ابناء عمها يريدونها، او انه لا يستطيع تزويجها الان لصغر سنها، او انه يرغب في تأخيرها في الوقت الراهن..

وقد يضعف امام الجاهة وينطق، وتنتهي الامور بنجاح للطالبين، وان كانت الامور احيانا لا تخلو من الخسارة بالنسبة للمطلوبين.

واذا كان الحب من طرف واحد، فان الفتاة قد تعلن رفضها الزواج منه مهما كانت النتيجة، وعادة تهدد البدوية بان (تحرق او تشنق حالها) اي تنتحر اذا لم تلب مطالبها، حينها يكون عارها على رجالها، واهلها، وذلك ما يخشاه البدوي ان تنتحر فتاته، ويحدث هذا لدى البدو وان كان نادرا وقليلا، ولكن الشيء الذي لا تهدد فيه البدوية هو الخطيفة، لأنها مجرد ان تقول (اذا لم تزوجوني فلان سوف اخطفه) على سبيل المثال، فان ذلك يعني ان لديها الاستعداد ان تفعل ذلك، اي انها مهيأة لممارسة شيء ضد الشرف، لأن الخطيفة لها اسباب ونتائج كثيرة من بينها اختراق الشرف لدى الخاطفين مع بعضهما، ولكي تتم التغطية وانهاء الموضوع تكون الخطيفة، والتي هي بحد ذاتها جريمة كبيرة عند البدو، تؤدي الى الموت المحقق لكليهما... ان تهديدها بذلك قد يعني اذن انها مارست الجنس مع الشخص الذي تحبه، مما يجر لها الشبهات والويلات، وقد تلقى حتفها، اي ان الامر فيه المخاطر غير المأمونة.

واذا نطق والدها لمن لا تحبه فهي كما قلنا قد تهدد بالانتحار.

كما ان لها ان تتوسل الى والدها، وعادة تغتنم فرصة الجلوس على عباءته وقت صلاته، فتجلس على قبة العباءة، وهذا يعني الدخالة فهو في حمى الله، وهي في حماه، واذا رفض طلبها عاقبه الله (اي كأنها تدعو الله سبحانه بذلك)، لذا فالبدوي يصعب عليه رد الدخالة وقت الصلاة، لما لذلك من اثر نفسي وروحي لديه، وتقول: (انا بربك ومغز ركبك) اي داخل على الله، ثم على دينك وصلاتك، اريد كذا وكذا، حينها يحق له ان يرسل اناسا لاهل الطالب بالرفض مع بيان الاسباب علنا، خاصة اذا كان هناك شهود، وقد يرفض الاب هذا ويقول (انا نطقت) وما ارجع، لأن كلمته شيء مقدس ومن العار الرجوع فيها.

ويحق حينها للفتاة ان تدخل بطرف اخر، بحيث لا يتجاوز شيخ العشيرة اذا وجد، والا ذهبت لاي شخص قوي، ذي نفوذ، يستطيع الوقوف معها، ويستطيع المجابهة، لأنه عمل يحتاج الى ذلك بالتأكيد، واذا لم ينقذها احد يحق لها الدخول بشيخ عشيرة اخر، وهذا كله منافذ للفتاة البدوية للتعبير عن الرأي، ورفض ما تكره بحثا عمن تحب. اما اذا كان الحب من طرفين بدون رغبة اهل الفتاة، حينها تتوالى الجاهات حتى الثالثة، وبعدها يكون مفترق الطرق، فقد تحدث غزوات وحروب من اجل كلمة، او اهانة، وهذا بحد ذاته يعتبر اهانة لهم ولكيانهم وتهدد الفتاة هنا بواسطة امها وليس امام الرجال (بالانتحار) اذا لم تتزوجه والام بدورها تضغط على الاب ليوافق، وهي ترفض ابناء العم حتى لا يبقى لهم مجال الاعتراض، وقد تسلك طريق المخاطرة وهو (الخطف) فتكون جاهزة، وتسير مع من تحب، ليعيشا في ارض بعيدة عن عيون الحاسدين والناس، رغم انها تصبح ومعها خاطفها مهددين باستمرار، وقد تذهب دخيلة عند شيخ قوي فتتوسط زوجة الشيخ لدى الشيخ الذي بدوره يتبنى الموضوع.

وقد يصل الحد ان يقتنع والدها بتزويجها، وهو بين امرين، قريب سابق، وقريب لاحق، اي يكون الأبعد قد تقدم اليها قبل الاقرب، فيأخذ رأي الفتاة ويقول: تقدم اليك فلان، وفلان، ايهما تختارين؟! وهذا ليس دارجا، الا انه يحدث، وليس عيبا ان يحدث، واذا اختارت احدهما نطق له الأب بالموافقة، وتواصلت الاجراءات الاخرى متتالية حسب الاصول، وكما ان لكل دولة مراسيم، في الامور الرسمية لا يجوز تخطيها، وكذلك الامر في عادات البدو رغم البساطة نجد الدقة المتناهية في الاسلوب والتنفيذ.

واساليب رفض الخاطب كثيرة:

منها العلنية وكما يقولون (بالقلم العريض، او بالعربي الفصيح) وهذا اما ان يكون بلطف، او بعنف...

اما باللطف فهي **ان يكون الرفض باسلوب الرفض غير المباشر** كأن يقول: انها مخطوبة لابن عمها، او لا تزال صغيرة... وما الى ذلك من الاعذار مع ربطها بكلمات مجاملة كقولهم (يشرفنا قربكم ونسبكم ولكن...الخ) اي على المبدأ (نعم ولكن) اي الرفض بأدب... خاصة وان البدوي يكره كلمة لا في المخاطبات والطلبات، ويتحايل على

ذلك بنفس المعنى بالفاظ تختلف....

وقد يكون الرفض العلني بعنف، وذلك في حالات عدة، كأن يكون الخاطب ليس من مستوى المخطوبة في كل شيء (كحيلة ما تنعطى لكديش).. او ان تكون الجاهة حقيرة المستوى والاسلوب، او غير مرغوب فيها لدى اهل الفتاة، او ان اهل الطالب من اصل رديء بالنسبة لاهل الفتاة، او انه ليس من الرجولة والشهامة بحيث يتحمل مسؤولية الزواج، وربما يصبح عارا على اهلها انهم زوجوه فيقال: جوزتوا بنتكم لفلان) او نسايب فلان؟؟؟!

وقد يكون الرفض قطعا لدابر الاشاعات التي قد تحاك ضد الفتاة والشاب انه (لولا كذا) لما وافقوا على خطبتها.

ومن اساليب الرفض المماطلة: ان يقال: بعد شهر، او بعد اثنين، وهكذا، واذا زادت المدة عن ثلاثة اشهر بدون رد بالنفي او بالايجاب فهذا يعني الرفض، ويكون هذا عندما لا يرغب أهل الفتاة مجابهة اهل الشاب بالرفض لصداقة او مصاهرة سابقة او جوار سابق او حالي، او بانتظار جواب ابناء العم والاقارب، او ان المطلوب اضعف من الطالب، وقد يؤدي الرفض بالمجابهة الى ردة فعل لدى الطالبين ويأخذونها بما يشبه القوة.

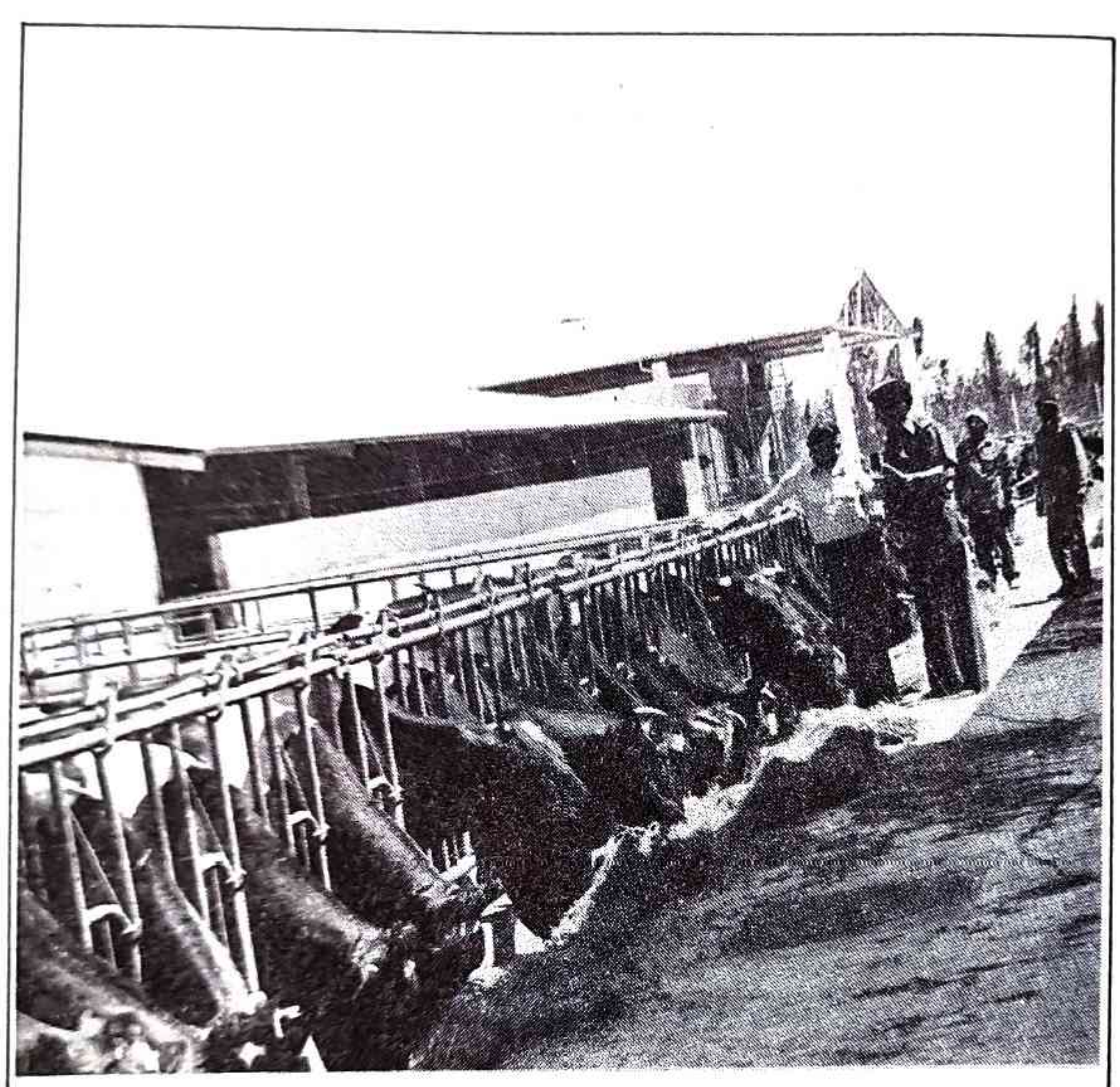
ومن الاساليب غلاء المهر: فاذا الح اهل الشاب على خطبة هذه الفتاة، واهلها يرفضون وجيء بجاهة ذات تأثير واهمية، او قطعا للمراسيل والجاهات المستمره وللارتياح من كل هذه المضايقات، قد يطالب اهلها بمهر غال وعال بحيث يصعب وربه يستحيل على اهل الشاب ان يحققوه ويدفعوه لأنه فوق طاقتهم (ولا يكلف الله نفسا ا وسعها)، ويقول البدو (اللي ما وده يجوز بنته يغلي مهرها)، وبالمقابل يقولون لهذا الذ يريدها انه مهما غلا المهر فلا قيمة له اذا كانت هي تستحق ذلك (ومن يخطب الحسناء يغله المهر) ويقولون:

اللي نهـوده تقول فنجان صيـــني   ما يحســب الشــاري ثمنها لو هو شراها

ولوجه الخطيبة اهمية على التحمس للاستمرار بالتمسك بها او العكس، فبمجرد عقد العزم والنية على خطبة الفتاة، ينتظر حظوظه بالحياة، ويدرس جيدا كل ما يحدث له، فاذا كان خيرا، قال: ان وجهها عليه خيرا فيقولون (وجهها خير، او قبولها خير)، ويقول البدو: (الدنيا نواصي واكعاب واعتاب) اي ان الخير يقترن بامور ثلاثة هي: الخيل (النواصي) لأنه معقود بنواصيها الخير كما يقول الحديث الشريف.

واما الاكعاب فهي النساء، واما الاعتاب فهي البيوت فيقولون اذا نزلوا منزلا واصابهم فقر او دين (غيروا اعتابكم ترزقوا) فيرحلون الى مكان اخر..

وبالطبع فالبدوي بحاجة الى ركوبة يمتطيها للتنقل والحرب وجلب الماء والطعام عليها، والى زوجة يسكن اليها (**لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة**) والى بيت يأوى اليه في رواحه بعد غدوه ويستقبل فيه ضيفه ويدافع عنه.



في وادي الظليل (الخالدية) عندما تتحول الصحراء الى خضراء (١٩٧٩/٦/٢٠)

وبعد الزواج اذا انعم الله على الزوج اعتبرت الزوجة ذلك بحظها فتقول: (جئتك وانت لا شيء عندك، واليوم الخير ما هو لاقي محل من كثره)، وقد تقول لأولادها ذلك، حيث لهذا الامر اهمية.. وخاصة في اعتقاداتهم.

واذا حدث ان خسر الرجل، او دهى العشيرة او الخاطب او اهله مصيبة عند النية او الخطبة قالوا: هذا بوجه فلانة، (ول على وجهها، كله هم ودم)، وقد تؤدي هذه الى فتور في العلاقات، رغم ان ما قد يحدث لا دخل للخطيبة به اطلاقا... وهذا بحد ذاته يؤثر عليها وعلى اهلها واذا كانت لها اخوات لم يتزوجن ربما ادى هذا الى كسادهن لنفور الخطاب عنهن ويقولون: (وجه الواحده يكب القدح المليان) اي القدر الممتلىء بالخير كناية عن هروب الخير من المكان الذي تكون فيه، اي انه لا يتفق وجودها والخير معا.



الفصل الخامس

الجاهة

الفصل الخامس

الجاهة

وبعد ان يوافق الوالد الموافقة النهائية للمرسال ننتقل الى مرحلة اخرى هي الجاهة، وهم نخبة من القوم يذهبون حيث الغرض المقصود، يطلبونه لصاحبه، وتتم الجاهة على مراحل:

اولها الاتفاق على تكوينها وما هي العناصر والنوعيات وذلك من قبل اهل الخاطب، **ثم اعلام وابلاغ هؤلاء، ثم تحديد الهدف،** وتحديد زمان ذهابهم وهم يعرفون الهدف او الغرض الذي يقصدون تحقيقه، ولا يأملون الرجوع بخيبة ابدا.

يجتمع والد الشاب مع اولاده، واهله واخوانه والاعمام مع ابلاغ الشيخ بذلك، ويتفقون على اسماء الجاهة والتي يكون من ضمنها المرسال الذي نجح في تضبيط وتوضيب الامور، وهو مطلع على تفاصيلها سلفا، وبعد تدارس الاسماء، وضرورة واهمية وجود كل واحد، على الا يشكل وجود اي منهم احراجا او حساسية للطرف المطلوب، كي لا يعتري المهمة فشل او فتور، يتم ابلاغ هؤلاء، ومعرفة من يرغب الذهاب او الاعتذار سلفا، ويحددون زمانا للانطلاق الى حيث الهدف، وعادة يعرف اعضاء الجاهة بعضهم بعضا، ويعرفون او يتفقون على من يتقدمهم بالحديث والجلوس، وكل شيء، ويؤخذ بعين الاعتبار عادة تناسق الجاهة تماما، خاصة من حيث الأمزجة، واعتراف كل بالاخر، لأن اي خلاف امام المعازيب يؤدي الى نتيجة عكسية ووبال على المهمة... وقد يتم اخطار والد الفتاة بمجيء الجاهة او يذهبون بغتة، ويجوز الامران، وفي حالة الموافقة مسبقا يفضل اعلامه ليكون موجودا، وينطق امامه بالموافقة، وهي الموافقة المعتبرة بالدرجة الاولى لأنها ملزمة، بينما الموافقة للمرسال غير ملزمة واذا كان الوالد غير موافق، تذهب الجاهة بغتة، حتى لا يتهرب منهم، فلا يحصلون على مرامهم، واذا كانت المسافة بعيدة يفضل عادة ان تكون الجاهة ممن معهم ركائبهم (كالذلول، والفرس او الحصان) لأن ذلك يعطي هيبة اكثر، بينما هيبة الراجل، وراكب الحمار اقل بكثير.

ويسيرون في انتظام لأن ذلك يعطي لهم الهيبة، والقيمة والحشمة، وهو بحد ذاته استعراض للقوة والمنعة لأنهم كضيوف من جهة، وانسباء مستقبلا من جهة اخرى..

وعندما تقدم اليهم القهوة، يعتذرون عن شربها، ويطلبون: (مهيرة اصيلة تأكل بيدها) او (نريد نسبكم وقربكم). فيقول ذاك جواب: (ابشروا) فتقول الجاهة نريد فلانه لفلان، فيقول: ابشروا، فلانه جتكم عطية ما من وراها جزية، ولا يكون هذا فورا (من حيث المبدأ) لأنه يجب ان ينتظر هؤلاء ولو قليلا رغم ان كل شيء قد انتهى مع المرسال، الا انه هذه اللحظات تعطي اهمية للقرار والجاهة في انها ليست بناء على تفكير ودراسة، ومشاورة الفتاة وأمها، كما انه احترام للغرباء الذين في الجاهة او الحاضرين، وان الموضوع ليس مسلوقا سلفا، او مرتبا مسبقا، وانما بالاضافة الى الترتيب فانه مهم وتم بعد التأني والتفكير.

يقول ولي امر الفتاة للجاهة حين يطلبون ذلك (بالاذن) اي ائذنوا لي، فيلوذ على النساء، ليأخذ راي الام والابنة، وربما الاعمام وابناء الاعمام، ثم يعود ليقول كلمته، ويصدف ان يقول لاقاربه المجتمعين من حوله (اذا كان الطالبون بعيدين قليلا) يقول: (يا ربعي هذا النسب ما هو لي لوحدي، هذا لكم وللجميع، واريد رايكم)... فيقولون وكأنهم لا علم لهم بالامر: راي خير؟! فيقول: (فلان يريد يتزوج فلانه) ويش تقولون؟ فيقولون (الرأي رايها ورايك) فيقول ولي الامر: (اريد رايكم انتم) فيفهمون ان راي الفتاة هو الايجاب.

واذا لم يوجد من يعترض على ذلك، يبدون موافقتهم، بقولهم (على خيرة الله) او (على بركة الله) او (ان شاء الله صبار بركة - اي كمية كبيرة من البركة)... ويجوز للرجل ان يلوذ عند الحريم اذا وافق ربعه ويأخذ رأي الام والابنة، وفي الواقع ما هو الا اخبار للام وابنتها موافقة العشيرة، لأنه يكون قد اخذ رأيهما فيما سبق، كما ان ذلك يجعل القوم يعيشون لحظات على اعصابهم وهم يتوقعون الرفض في اية لحظة طالما انه لم يتم (النطق بها)، تماما كمن يترقب نتيجة الامتحان، فهو خائف حتى ولو اعطي الاسئلة والاجوبة من قبل، وحتى ولو كان واثقا ان سيكون الاول او ناجحا على الاقل، مع هذا تجده يترقب النتيجة بخوف زائد، وكذلك الامر لدى هؤلاء القوم على مبدأ (ما بين طرفة عين والتفاتتها يغير الله من حال الى حال) ثم يعود بعد ذلك الى حيث المجلس، ولا تزال فناجين القهوة امام القوم على الارض لم يشربوها بعد، وبعد ان يعتدل الرجل في جلسته، ينتظر قليلا، وينظر الى وجوه القوم لحظات... وهي من اصعب اللحظات.. **بعدها يقول**: اشربوا قهوتكم... وهذا يعني الموافقة والقبول، وقد يقول: (ابشروا باللي جيتوا بيه)، وقد يقول: فلانة جتكم هدية ما من وراها عطية.. وبعد هذه الكلمات لا بد ان يقول: اشربوا قهوتكم، فيقوم احد الرجال المعازيب، بجمع الفناجين ثانية، وتفريغ ما فيها على الارض لأنها تكون قد بردت واصبحت (دافية) والقهوة لا تشرب الا وهي ساخنة او حامية، ثم تصب لهم القهوة من جديد، ويشربونها... وبالطبع تلازم اية كلمة اعطاء قولهم (بسنة الله وسنة رسوله)، ويرد القوم بالموافقة على هذه الهدية، او العطية بقولهم (وحنا قبلنا بسنة الله وسنة رسوله)، ثم يقولون: الفاتحة - وتتم قراءة الفاتحة - ولا يمكن ان تتم خطبة للزواج عند البدو الا وترافق كلمات الايجاب والقبول بقولهم (بسنة الله وسنة رسوله)، ثم يقرأون الفاتحة، ثم تبدأ المفاوضة على المهر، وتعيين تاريخ الذبيحة - (اي الجاهة مع الذبيحة والخطبة، وقراءة الفاتحة ثانية) والتي هي بمثابة العقد الشرعي عند اهل المدينة.

كلمات الخطوبة:

الاطراء والمجاملات والتهذيب، شيء في طبيعة البدوي، فهو لا يذم الناس ولا يشتمهم، حتى انه اذا استغاب احد الحاضرين شخصا، قام الاخرون احتجاجا على ذلك، وربما ابلغوا من قيل عنه الكلام فيطلب الحق من هذا القائل.

وفي الخطوبة يستعمل البدوي كافة كلمات المجاملة والتهذيب واللطف، فمدح العريس واهله، والعروس واهلها، وما هم عليه من الاخلاق، والاصل، والجمال والكرم والشهامة، شيء قد لا يخلو من المبالغات احيانا، او قل هي الصفات الحميدة فقط وكأنه لا صفات ذميمة لديه ابدا.

اما المرسال الاول (الطارش) الذي يأتي ليرود اهل العروس ويجس النبض، ويطرح القضية او الموضوع للمناقشة فهو يبدأ بالمجاملة وعندما يلفت نظر معازيبه انه سيتحدث شيئا بقوله (يا جماعة الخير) فيعرفون انه يريد ان يقول شيئا مهما، فيصمتون، واذا سكت قسم واستمر اخر بالحديث يقول القسم الصامت لاولئك. يا جماعة او يا فلان وحد الله، او صلي على النبي... وهنا يصبح القوم جاهزون لاستقبال ما سيتحدثه (الطارش - المرسال)، فيقول: الله يمسيكم بالخير (اذا كان الوقت مساء) او (اذكروا الله، او وحدوا الله، او صلوا على رسول الله).. فيرد الجميع التحية المماثلة، ويبدأ هو بالحديث قائلا: (تعرفوا سنة الله في خلقه، انه تكون الناس من بعضها وقريبة لبعضها)، وهكذا يتحدث عن الفلسفة الغيبية في الزواج وانه طبيعة اوجدها الله في الناس، والقصد من ذلك هو تمهيد للموضوع بشيء له علاقة بالله، بان هذا امر يريده الله ويقبلة ويحبه، ويحض على الزواج، ويامر به....الخ وهكذا يكون الحديث في الفلسفة العامة، ثم يتحول الى التخصيص بعد العمومية والشمولية رابطا تصرفه بما تعارف عليه الناس بعد ان امر به الله فيقول؛ (**وانا جيت عوايد الناس**) اي ان ذلك ليس مناقضا لما تعارفوا عليه ليمتد القوم الذين جاء عندهم ويهيئهم لاستقبال ما سيتحدث والموافقة على ما سيطلب فيقول (والناس الزينة اللي مثلكم عنبر ومسك، يجيها اللي يعرفها واللي ما يعرفها، من طيبها واصالتها)... فيردون عليه بقولهم: (**الله يخليك، هذا من طيب اصلك**) ذلك ان الاعتراف باصالة القوم او امتداحهم يعتبره البدو اصالة من القائل انه لا يبخس الناس اشياءهم وانه ما في الرجال (تعده الرجال - اي تذكره ولو كانوا لهم كارهين).

ثم يزيد في التخصيص فيقول: فلان من الناس رجل طيب، والطيب ما يجي الا عند الطيب، (وهكذا يمتدح الشخص الذي ارسله - بعد ان يكون امتدحهم هم) ثم يزيد في التخصيص وكأنه يعمل بذلك معادلة جبر او هندسة، اي كأنه يقول: وبما ان هؤلاء طيبون، وانتم طيبون، فانتم اولى ما تكونوا ببعضكم ثم يفصح عن الغرض او النتيجة بزيادة في التخصيص فيقول: (نريد فلانة لفلان) او ابنة فلان الى ابن فلان) ثم يردف قوله (بسنة الله وسنة رسوله).

وهكذا فان (الطارش - المرسال) كأنه يقرأ كتابا يقدم دراسة ميدانية حول منطقة معينة حيث يتم البدء بالعموميات ثم يزداد في التخصيص في كل فصل عن الذي سبقه حتى يصل الى النتيجة او الفصل الذي يشمل الدراسة التفصيلية او التخصصية... انه اسلوب البدو الذي يستعمل اليوم في السياسة العالمية ايضا، حيث يبدأ بين رجال السياسة عن الاوضاع العالمية والمعادلات السياسية الكبرى ليخلصوا الى وضع بلديهما

مقترنا بالعالم من حولهما، والقارة والمنطقة، ثم يبينون البنود التي تجري دراستها بندا بندا...

وكذلك البدوي يخلص الى الموافقة او عدمها، فان وصل الى الاولى، تم تبيان الامور اللاحقة - وقت الجاهة، والذبيحة، وزمانهما، ثم الزواج، والمهور، وشروط الزوجة (ان وجدت) واذا كان اهتمام البدوي بالزوجة يساوي اهتمام الدول الكبرى بسياستها ومصالحها العليا فهذا شأن عظيم للمرأة، واعطائها حقها الاساسي، وقيمتها الحقيقية والتي بلا شك لا تتوفر في المدينة، ولا في العصر الحاضر حيث اخذ البدو يتركون قيمهم لتحل محلها قيم مستوردة سائبة خائرة واهية، تمس الشرف والكرامة بصورة واضحة.

اما الرد فلا يكون فورا الا ما ندر، الا اذا كان بالرفض، وسبب عدم التأخير اذا وجدت الاسباب الوجيهة ان التأخير فيه، يعتبر اساءة للخاطب، فيقول الناس انهم تأخروا بالرد حتى درسوا حالته وسألوا عنه، ولم يكن بالمستوى اللازم، او كان سيئا... الخ لذلك رفضوه، تماما كما يرفض شاب فتاة... وتلوك الالسن هذا الرفض في غير مصلحة الخاطب، لذا فاذا كان الرفض حاصلا، فالرد فورا، الا اذا رغب الشخص بتزويج ابنته لهذا الخاطب، ثم سأل، ولم يجده في المكان اللائق، او كانت العوائق من طرف اهل العروس، واذا اجاب بالرفض فهو يتذرع بعدة اسباب كأن يقول: (البنت صغيرة) واذا اجاب ذاك: (ننتظرها).. فيقول هذا: (لحين الله يعين الله - يا حي وعايش...يفرجها الله) اي انه اذا كان ذلك الوقت فان الجواب سيكون حسب الظروف، وهذا لا يعني الموافقة، ولا يعني الرفض بل يعني: كأن الشخص لم يطلب اصلا. وقد يقول: (البنت مخطوبة لابن عمها)، وهذا جواب لا اعتراض عليه اطلاقا وما على الطارش الا ان يحزم امتعته ويعود من حيث اتى، وقد يقول: (ما دريت انها مخطوبة؟) - وكأنه بذلك ينفي القول بخطبتها، فيرد عليه: مثل ما أقول لك مخطوبة، وهذا حسم لأي كلام او جدال.

وقد يقول: جاءتنا فلانة (الأمرأة التي مهدت لمجيء الطارش) واخدنا رأي البنت وهي (معية) اي ترفض الزواج من فلان، وقد يقول: (بدري عالجيزة) اي لا يزال الوقت مبكرا لزواج ابنتنا هذه، وقد يقول: نحن لا نزوج ابنتنا خارج عائلتنا، ذلك ان بعض عائلات البدو لا تزوج بناتها الا داخل العشيرة، او لعشيرة مشابهة لها بالحسب والنسب والفروسية والقوة، يقال لهم (مجاويزنا) اي من يمكن لهم الطلب من هذه العشيرة والزواج منها او تزويجها.

واذا كانت الاجابة بالموافقة، فقد تكون فورا (وهذا نادر جدا) خاصة للناس الغرباء لأن ذلك باعتقادهم يجعل الفتاة سلعة رخيصة، ويعطي الانطباع للانسباء الجدد ان هؤلاء متهالكون لمصاهرتهم، وغالبا ما تكون الموافقة بشكل الوعد والتسويف فيقول مثلا: يصير خير، (يا هلا بكم وبقربكم). نشوف اخوانها وعمامها وعيال عمها، نشوفها (اي البنت).. ثم يمهله عدة ايام لا تقل عن اسبوع وقد تصل الى عشرة أيام أو أسبوعين ليدرس الوضع وليعود الطارش ثانية ويأخذ الجواب النهائي، حينها يجري تحديد يوم

لمجيء الجاهة والذبيحة، وربما تتم دراسة امور المهر، وشروط الزواج والتقييدات.

والسؤال الان: ماذا يقولون عند مجيء الجاهة؟؟

فعندما يقدم المعازيب (اهل الفتاة) القهوة للضيوف (اهل الخاطب) يضعها الضيوف امامهم على الارض، فلا يشربونها، وهذا بحد ذاته لفت نظر للمعازيب ان هناك شيئاً ما، ذلك انه عادة تقدم القهوة بثلاثة فناجين عندما يكون العدد كبيرا يزيد على الثلاثة، وخاصة عندما يفهم انهم جاهة حيث لا يقلون (كما قلنا سابقا) عن ثلاثة... وحين الانتهاء من صب الفنجان الثالث يعود الشخص (القهوجي) صباب القهوة، ليأخذ الفنجان الاول وحينما يراه على الارض يفهم ان الامور تقترن بالطلب، حينها يأخذ دلته ويضعها بجانب النار لينتظر مع المنتظرين، وهذا بحد ذاته تنبيه اخر للجالسين ان هناك شيئاً تريد الجاهة طلبه، ثم يتنحنح الضيوف ويعتدلون بجلستهم، وينظرون بوجوه بعضهم والى معازيبهم وهذا ايضا لفت نظر لضيفيهم وبالتالي تمهيد، وتهيئة للقوم حتى لا يفاجأوا بالطلب، لأنه قد تأتي احيانا الجاهة بدون سابق (طارش - مرسال)، ولا دراسة انثى حيث تكون الامور معروفة لديهم، فيختصرون كل هذه الخطوات وبعد كل هذه التصرفات، التي هي بحد ذاتها لغة صمت يفهمها القوم، يعتدل والد الفتاة او (المعني بالامر من المعازيب)، ويهيء نفسه لسماع الطلب، ونظرة منه الى سيد الضيوف (عقيدهم) تعني في لغة الصمت ايضا انه جاهز لاستقبال الكلام، فيبدأ عقيد الضيوف بالقول وذلك بالتحية: (مساء الخير، او صباح الخير، او السلام عليكم) او (مرحبا عليكم)ثم يقولون: (اذكروا الله، او صلوا على النبي) اي ان التحية لا بد ان يعقبها ذكر الله او الصلاة على رسوله عليه السلام. فيرد عليه ذاك بتحية مماثلة، وقد يقول قبل ان يبدأ الضيوف متسائلا: ليه ما تشربوا قهوتكم؟ فيقولون: حنا ما نشربها حتى تعطينا اللي جينا بيه، وقد يتم هذا بعد التحية مباشرة فيقولون: حنا ما نشربها حتى....الخ، وقد يقولون: لنا من عندك طلب - فيقول: طلب خير ان شاء الله؟ فيقولون: ما فيه الا الخير وسلامتك، وقرب الناس اللي مثلك شرف، فيفهم ما يريدون فيقول؛ الله يزيدكم شرف.. وربما يقول: ابشروا باللي جيتوا بيه اذا اقدر عليه.... فيقولون: تقدر عليه وما يحتاج منك الا كلمة وحده.. (وبالطبع يتحدث من الجاهة شخص واحد حيث ينوب عنهم، ويعتبر مفوضا بالقول، وكأنه العريس او والده).

فيقولون: تعرف يا طويل العمر: سنة الله وسنة رسوله.... وقرب الزينين اللي مثلك شرف وبذلك نرى ان الطلب هنا يبدأ بالتخصيص ثم ينتهي بالتعميم، لأن القول هنا يبدأ من نقطة معينة، من فنجان القهوة، فيوضع الهدف ثم تتم تغطيته وتهذيبه بالرتوش الاخرى ان ذلك خير وشرف، ويزداد التعميم حتى يقال: ان هذه سنة الله وسنة رسوله، وهكذا نجد ان الامر مرتب ترتيبا لطيفا عند البدو ففي (المرسال - الطارش) يبدأ بالتعميم ثم يخصصون حتى يصلوا الهدف، وتبدأ الجاهة من النقطة التي انتهى عندها (المرسال او الطارش) ثم ينتهون عند النقطة التي انتهوا منها... لأن النقطة بالتخصيص التي تم التوصل اليها هي التي يجب البدء منها، حيث لا حاجة الان للعموميات، ولكن

لكي تتم القناعة بالهدف (راس الحربة) لا بد من دق على الحربة الذي هو التعميم حتى تنتهي الى نقطة عامة اخرى، ان ذلك سنة الله وسنة رسوله، وان القرب من الناس الطيبين شرف عظيم (وانهم يريدون كحيلة تأكل بيدها ما ترتبط برجلها (فلانة، الى فلان)، وهذه العبارة تكون بعد ان يقال: طلب خير ان شاء الله، اي ان موضعها هناك.

وفي المفاوضات الحديثة سواء على مستوى السياسة ام غيرها عندما يكون الموضوع بين جانبي مفاوضة او بحث لدى لجنة لاحقة، فهي قبل ان تبدأ لا بد ان تطلع على قرارات اللجنة السابقة وربما تكون اول نقطة في جدول الاعمال تلاوة المقررات السابقة، ثم يبدأون منها، وربما ينتهون مرة اخرى الى تعميم او الى قرارات اخرى...

وهذا الشيء تماما كما هو لدى البدو، حيث ان جلسة المباحثات حول الموضوع كانت بين (الطارش - المرسال) وبين اهل العروس، وفي هذه الحالة فان الاصل ان تكون الجاهة قد اطلعت من المرسال على الامر، وعرفت القرارات، او ما تم التوصل اليه... كما انه قد يتم التوصل بين الجاهة واهل العروس هذه المرات الى قرارات اي الى تخصيص (الموافقة على زواج فلان من فلانة)، وقد يتوصلون الى متاهات جديدة، وعدم اتفاق، وفي الحالة الاولى (الاتفاق) تبدأ عند الذبيحة المباحثات بالتخصيص من جديد، بينما في حالة الفشل ولنفرض عادت جاهة جديدة فانها تبدأ من حيث انتهت الجاهة الفاشلة اي من التعميم باتجاه التخصيص. ولا شك ان هذه القرارات يحفظها القوم، ويلتزمون بها بما يغني عن تسجيلها على ورق والتوقيع عليها، لأن البدوي يلتزم بالكلمة بدل التوقيع ويقولون (الرجل ينربط بلسانه او (من لسانه) ما ينربط من رجله).

وغالبا لا يقول الوالد او ولي الامر او المفوض بالامر. لا يقول الموافقة فورا، وان كان في العادة ان يقولها (رغم ان ذلك نادر) لكنه ينتظر حتى يتشاور وقومه بالامر، فيقول: فلانة لفلان؟! او كحيلة تأكل بيدها؟! اي انه يكرر نفس الطلب بصيغة الجواب، وغالبا يمسك بيده اليمنى على لحيته ويداعب شعرها، وحتى لو لم توجد هذه الشعيرات، وهذا دليل على التفكير بالامر واعطائه الاهمية رغم انه قد لا يكون في حالة تفكير لأن الامر قد انتهى من قبل.

ثم ينظر الى جماعته، فيقومون، ويلوذ الى (المحرم) حيث الحريم ويتشاور معهن، وقد يلوذ بدونهم كدليل على اخذ راي الفتاة وامها، واود ان اقول هنا ان المبدأ هو اخذ رأي الفتاة وامها في زواج الفتاة، ولكن في العادة قد لا يؤخذ رأيها، حتى انه قد يعاب عليه انه اجبرها. فيقال (ظلمها) اي زوجها بدون موافقتها الذي هو في نظري ومعرفتي غالبا ما يكون مشهدا تمثيليا بدون الدخول لمعاهد التمثيل السينمائية، يعود ويقول لربعه وعلى شكل سؤال: يا جماعة الخير، وربما يخصص بالاسم بقوله: يا فلان، او يا ابو فلان، او يا ابن فلان، او يا اخو فلانه، او يا راعي كذا (اسم النخوة)، وهو يناديهم بالاسماء التي يحبذونها، وفي الدول العصرية نجدهم يستعملون الالقاب ايضا في المباحثات عندما يريدون زيادة في التوافق.

ويقول والد الفتاة: ويش تقولوا باللي سمعتوه؟ وربما يقول لهم: الفلان (اسم العشيرة) يريدون قربكم، او قربنا، وهنا نجد انه يبدأ بالتعميم كما تقول مثلا رايت انسانا، ثم يزيد في التخصص فيقول ولد فلان، او فلان ابن فلان وكان هذا الانسان ذكرا، او انثى. ويزيد في التخصص، هذا فلان ابن فلان، او الفلان (اسم العشيرة) يريدون قربكم، ويريدون فلانه (اسم البنت) لفلان ابن فلان (اسم العريس) وربما يكتفي بالكلمة الاولى ويسألهم: ويش تقولوا بالكلام اللي سمعتوه؟!، وقبل ان يقولوا القرار نجدهم يحترمون بعضهم، فاذا كان والد الفتاة هو الوجيه، او صاحب الكلمة في قومه او شيخهم يقولون له: اللي تشوفه زين حنا نوافق عليه، لأنه بذلك يقرر بصفته شيخ، او صاحب الكلمة، وبصفته ايضا والد الفتاة، واذا لم يكن شيخا او صاحب الكلمة، او كبير العائلة (اي عميدهم، وصاحب الكلمة النافذة فيهم) يقولون: شوفوا رأي فلان (الشيخ او العميد...)

ولا بد لنا ان نتوقف هنا قليلا عند هذا الضبط الغريب في روعته لدى انسان الصحراء، ففي الدول الحديثة لا يتم ابرام اتفاقية، او لنقل لا يتم الاعتراف فيها اذا لم تكن موقعة من مسؤول الدولة المعني بالامر سواء رئيس الدولة، او من ينوبه، او ممن تفوضه الدولة ذلك، فيقال: ان فلانا رئيس الوفد لديه تفويض بالتوقيع، ونجد ان اعضاء الوفد مهما بحثوا بالامر، ومهما اخذ رأيهم فان القرار النهائي، والتوقيع هو من صلاحيات المفوض بذلك، او من قبل رئيس الدولة. وكما تعرض هذه الاتفاقية المباحثات على رئيس الدولة ومجلسها، فانها كذلك تعرض عند البدو في النهاية على الشيخ او العميد، ولو صوريا لأنه تم اخذ الضوء الاخضر منه سلفا، خاصة وانه لا يتم ولا يحدث شيء بالقبيلة من مولد، وممات، وزواج وطلاق وحتى الشقاق والنزاع بين الزوج والاخوين، الا ويعلمه الشيخ او عميد القوم، واية اتصالات ما بين افراد عشيرته وعشيرة اخرى لا بد ان يكون على اطلاع وعلم فيها، تماما كما هو الامر لدى اتصال رجال دولة برجال دولة اخرى، فاذا تم سرا يعتبر نوعا من غير المشروعية، اما لدى البدو فيجب ان يعرفه ابناء العشيرة وشيخهم، او الشيخ او من ينوبه على الاقل.

ونعود الان لوالد الفتاة الذي قد يرسل لوجهاء العشيرة وابناء عمه ليحضروا، ويقول للجاهة: نأخذ رأي قرايبها (اي الفتاة) ومن هنا نرى كم هو مهم ان يسبق الجاهة ارسال الطارش، وتحديد وقت لمجيء الجاهة، حتى يكون القوم (آل الفتاة) ان لم يتواجدوا في نفس المكان فهم في متناول اليد على الاقل) وكما يقولون: (يجيبهم الصوت) اي قريبين بحيث يحضرون مجرد مناداتهم. وبعد اجراء المشاورات فيما بين اهل العروس، يتم اتخاذ القرار النهائي، تماما كما تتم المشاورات فيما بين اهل العروس، يتم اتخاذ القرار النهائي، تماما كما تتم المشاورات بين اعضاء الوفد الواحد في مباحثات مع طرف اخر قبل اعطاء القرار النهائي... وأما صاحب اعطاء القرار فلا يشترط ان يكون والدها. وانما صاحب الكلمة بالعائلة، والذي قد يكون والد الفتاة او جدها او عمها، او احد اقاربها، وقد يعطي الاب القرار النهائي ايضا بعد المشاورات وبعد ان يجلس القوم،

وتبدو عليهم علامات الاستعداد للجواب، وهنا يظهر سؤال من الخاطبين بقولهم: اه ويش قالوا ربعنا؟ او ويش يقول فلان؟... الخ وما هذا السؤال الا اشارة لافتتاح الحديث ومواصلته من جديد... فيقول المخول بتلاوة القرار او باتخاذه: ابشروا فلانه جتكم لفلان؟! وقد يقول: هذي عطية ما من وراها جزية؟ وقد يقتصر على الاعطاء بدون تحديد وهنا يحتاج الامر الاخر للتحديد وهو (تحديد يوم الذبيحة، والمهور، والشروط الاخرى، كالعم، والخال، والام، والأخ...الخ) ولكن اذا قال هدية ما من وراها جزية فهذا جواب عام شامل، يحتاج الى تفسير، وتفصيل، وهنا يبدأ الحديث من الخاطبين، فان قال هدية: يقولون: (وحنا من عندنا نهدي كذا وكذا لها او لابيها، او لاخيها، او لأمها، وربما لكل واحد منهم، وربما يقولون: حنا اجزيناكم كذا وكذا (وهو المهر)... فيرد أهل الفتاة: وحنا قبلنا، بسنة الله وسنة رسوله، فيرد الخاطبون: وعلى الله توكلنا بسنة الله وسنة رسوله، الفاتحة، فيقرأون الفاتحة جميعا، ثم يقومون ويتصافحون.

واما اذا كان الاعطاء (عاما شموليا) فيحتاج حينها الى تفصيل وتفسير، فيسألهم اهل الشاب عن المهر... ثم يتفقون عليه وعلى ملحقاته، حتى يتوصلوا الى نتيجة، ويذكرون ان ذلك تم بسنة الله وسنة رسوله ويقرأون الفاتحة، ثم يتصافحون ويتعانقون، ومثل هذه المصافحة والمعانقة نجدها في الدول الحديثة حيث يفعلون ذلك بعد عقد اية اتفاقية، ولكن الفارق انها عند العصريين تمثيل وعند البدو اصيلة حقيقية ومختومة بالفاتحة وذكر الله ورسوله، بينما تلك قد تخلو من ذلك تماما، وشتان بين الموقفين، احدهما يعتمد على الشرف، والالتزام الشفوي وهو اقوى من ذاك المعتمد على وثائق واوراق، وتواقيع..

حينئذ تقول الجاهة: صبوا القهوة، وقد يقول المعازيب: اشربوا قهوتكم... وفي الحالتين يتم افراغ محتوى الفناجين السابق من القهوة ويتم صب القهوة من جديد لهم ويشربون، وقد يطلق احد الضيوف او المعازيب او من كليهما عدة عيارات نارية تعبيرا عن الفرح والابتهاج بهذه المناسبة،... وسبب افراغ القهوة على الارض (ويقولون: كب القهوة) بضم الكاف في حالة الامر، او فتحا في حالة الاخبار العادي، وتشديد الباء في جميع الحالات. سبب افراغها هو انها اصبحت دافئة (اي فقدت حرارتها - ذلك ان البدوي لا يقول عن القهوة باردة، بل يعبر عن نفس المعنى بقوله (دافئة)، والبدوي لا يشربها وهي في هذه الحالة لأن المبدأ والعادة ملتصقان في ذلك وهو شربها وهي محتفظة بحرارتها العادية او العالية... ويقول البدو: (الجاهة الشاطرة قهوتها ما تبرد) اي انها ناجحة بحيث انها قادرة على اقناع من هم في ضيافتهم بالهدف والغرض والحصول على الموافقة بسرعة كبيرة، ولكن قد يكون التأخير راجع للطرف الاخر، لكن اللوم عادة يصبونه على الجاهة، وفي هذا القول الذي ذكرناه تكمن الفلسفة كاملة حول الموضوع،... اي انه يجب ان يكون اعضاء الجاهة من اللباقة، والذكاء، والقدرة على الحديث والتعامل، ومعرفة نفسيات الطرف الاخر بحيث تدخل من ابواب الضعف وتحصل على الهدف بسهولة ويسر... وان تعرف الجاهة ان المعازيب من الطراز المحترم اي ان في القول تكمن

القدرة على اختيار الجاهة واهل الفتاة هل هم من الذين يقدرون الناس، وهل هم من المماطلين حيث يجب التمهيد مسبقا، وحيث يجب الا تذهب الجاهة، الا وتكون الأمور شبه منتهية، والعراقيل قد تم تجاوزها وتخطيها.

واما سبب التأخير فقد يكون ضعفا في الجاهة، وقد يكون نكدا من اهل الفتاة، واما الفشل فرغم انهم يعزونه عادة الى القسمة والنصيب فيقولون (ما صار نصيب) الا انهم يعزونه ربما للجاهة انها فاشلة، او لأنفسهم انهم ليسوا بالمستوى اللازم، او باهل العروس انهم يطمحون بشىء معين لا يتوفر باهل العريس.

ومن هنا نجدهم يعزون الامر الى اسباب غيبية (قسمة ونصيب) واخرى دنيوية او لنقل اجتماعية تتعلق بالعريس او اهله او اهل العروس او الجاهة، وهم يستسلمون في النهاية الى الاسباب الغيبية.

وفي نفس الجلسة يتم تعيين وقت الجلسة الاخرى (في حالة الاتفاق) وهو زمن مجيء الجاهة والذبيحة، حيث تحضر جاهة من الرجال والنساء. ويكون في استقبالها كذلك وجهاء القوم من أهل العروس، والنساء للنساء.. ونادرا ما يتم وضع شروط معينة في موضوع الذبيحة والغالب المعتاد ان يتصرف اهل الخاطب بما يليق، بحيث يدعون صفوة قومهم من ذكور واناث بالاضافة الى أهل العريس، وكذلك يفعل اهل العروس، لأن في الامر استعراض للقوة والمنعة، والأهمية والهيبة أمام الاخرين.

ولا بد لنا أن نذكر شيئاً مهما ومرأ في آن واحد، وهو أنه قد تتعثر أمور الجاهة والطارش، ويصر القوم على خطبة فتاة بعينها، وحينئذ لابد من اجتياز الحواجز، ويتم هذا باكثر من وسيلة: فقد يلجأون للسحر (المسماة الحجب) اي عمل حجاب معين عند اناس متخصصين في ذلك يسمون (الشيوخ)، او عند رجال او اناث متخصصات في عمل (العقد). ومفردها عقدة، ويتضمن الفحوى ان تطيع فلانة واهلها وقومها لفلان واهله وقومه لزواجها من فلان بن فلانه ابن فلان، وامور السحر والشعوذة (والحجب، والعقد) لها اهميتها في المجتمع البدوي ذلك ان الامور الغيبية عنده موضع تقديس لأنها غير مرئية، وان كانت احيانا محسوسة بالشعور فقط.

وقد يلجأون الى ارسال شخص معين قادر على انتزاع الموافقة بالطريقة المناسبة، واذكر ان بعض الناس كان يتقاضى اجرا معينا من المال، او الحلال (الماشية) مقابل قيامه بهذه المهمة، وربما يعطي منها اناسا من اهل العروس، او قادرين على اقناعهم واقناع العروس بالموافقة، ويتم كثيرا ارسال هدايا من النقود او الملابس سرا لعم العروس او شقيقتها او خالها، او عميد قومها، (هذا اذا كانوا من نوعية الذين يقبلون ذلك)، ليقوم بدوره باقناع المعنيين بالموافقة، وربما يتم ارسال نساء متخصصات للفتاة وامها، ومعها بعض الهدايا او بدونها لتقوم باقناعهما بالموافقة، وتصور لها مستقبلا مزهرا ناصعا وفي العصر الحديث ظهرت فضائح الرشوات العالمية لوفود باعضائها ورؤسائها، ومسؤولي دول من اجل الموافقة على صفقات معينة او التوقيع على اتفاقية ما... فالانسان هو الانسان سواء في البادية ام الحاضرة.

وقد تتحول الامور عند البدو بطريقة اخرى، وهي ان يقوم بالمهمة مجانا، ثم يتقدم القوم منه بهدية محترمة عرفانا منهم بالجميل، وقد يرفضها واذا فعل ذلك فلا جناح عليه في عرفهم، واما الغالب والمتعارف عليه ان الجاهة تقوم بهذه الوساطة مجاناً بدون مقابل، تماما كما تقوم اية دولة للتقريب بين دولتين صديقتين. وتؤدي المهمة بدون مقابل، لأن نجاح البدوي في هذه المهمة سمعة حسنة له، يتباهى بها بين الناس تماما كسمعة الدولة او رئيسها التي قامت او قام بالوساطة وينجح بذلك، ثم ان الخدمات المجانية هي اساس التعامل بين البدو نظرا لما تتطلبه طبيعة المجتمع، كما ان النخوة والمصلحة المتبادلة تحل محل الاجر المادي.

وقد يضع اهل العروس شروطا معينه كما قلنا، ويتم تداولها وبحثها نقطة نقطة ثم يتوصل الطرفان الى قرارات معينة بخصوصها، وهم يلتزمون بها جيدا، اكثر من التزام الدول الحديثة بالاتفاقيات المكتوبة والموقع عليها، والشروط عادة توضع في الحالات التالية: عندما يجدون انفسهم شبه مجبرين او مكرهين ادبيا على التزويج، سواء من طرف الفتاة انها تحب الشاب، وهم مضطرون على ما هم كارهون له، او من طرف الطالبين ان تكون جاهة على مستوى رفيع قد جاءت ولا يمكن ردها فاشلة، وربما لكرههم العريس او اهله او لاشتهار هؤلاء بعدم الالتزام او ان الحياة معهم صعبة وبذلك يحافظون على حقوق ابنتهم من الضياع... وربما يكون الطالب غريبا، ويخشون ان يرحل بابنتهم حيث ديرته، فيشترطون سكنه مع اهلها...

كل هذه التشديدات لا بد منها اذا وجدت مبرراتها، ولضمانها يتم وضع الامر بوجه اشخاص معينين، او عشيرة معينة لضمان عدم الاخلال بهذا الشرط وبذلك يصبح العريس امام مطالبتين - اهل الوجه، واهل العروس...

وهكذا فانه في حالة عدم الثقة او التخوف او الماضي السيء للعريس، او لأهله فلان بد من ضمان يذهب بالتخوف، ويضمن للفتاة عيشا كريما، وحياة مستقرة، فتوضع بذلك شروط مشددة والتي تكون عادة: بزيادة المهر المقدم، والمؤجل واشتراط حد ادنى من العيش الكريم لا يصح تجاوزه، وربما تتضمن الشروط مكان السكن، وانفرادها فيه... وقد لا يقبل العريس بذلك، حينها يفرح القوم انهم تخلصوا من الاحراجات.

والسؤال الان لنفترض ان المعازيب صنعوا عشاء للجاهة، وبنفس الوقت رفضوا تلبية الطلب فماذا يحدث؟! وهذا يحدث كثيرا فالجاهة لا تشرب القهوة، ولا تأكل طعاما الا اذا لبيت مطالبها، وبالتالي هي لا تأكل الطعام انطلاقا من هذا المبدأ... وقد حدث كثيرا ان غادرت الجاهة بدون ان تشرب القهوة او تتناول الطعام الذي اصبح من نصيب المسايير والمعازيب، ولكن الذي يحدث هو ان المعزب يقول للجاهة، هذا غداكم او عشاكم كضيوف وليس كجاهة حينها عليهم ان يأكلوا ولو لم تلب مطالبهم، اما اذا اشترطوا سلفا انهم لن يأكلوه الا اذا حصلوا على ما جاءوا من اجله، واصر المعزب ان ذلك لهم كضيوف، فيحق لكل منهم التقيد برايه، وليس لأي واحد حق عند الاخر، لأن ذاك قام بواجبه تجاه ضيوفه، وهؤلاء قرنوا ذلك بنجاح المهمة، وما عليهم الا ان يرحلوا، ان الجاهة هم في

عداد الضيوف، ولكن جاءوا لقصد وهدف، قد يتحقق او لا يتحقق، ويحدث كثيرا ان يغادروا وهم غاضبون بدون ان ينالوا شيئا من القهوة او الطعام او الماء، حيث يرفض اهل العروس الموافقة - وطالما انهم لم يحققوا ما جاءوا من اجله، وان الضيافة لهم كجاهة، لا كضيوف، فلا عيب على اي من الطرفين. وهنا نجد فصلا واضحا بين شيء اسمه العمل، واخر اسمه المجاملة والضيافة، واذا كان الاجانب يتباهون بقدرتهم على التمييز والفصل بين هذين الامرين، مع الاحتفاظ بالصداقة فان البدوي في خيمته قد سبقهم الى ذلك، ورغم ان البعض يعود غاضبا لفشله بالمهمة، الا ان تصرف اهل العروس ليس عليه اية مسؤولية للرفض، لأنه قام بواجبه كمعزب تجاه اضيافه، بينما اولئك قاموا بواجبهم كجاهة ايضا، وطالما انهم لم يتوصلوا الى نتيجة فلا داعي للضيافة، فلا يقال: انهم ذهبوا يتضيفون (يبحثون عن الضيافة) وتركوا الواجب الاساسي. وهكذا لا عقاب على تصرف اي من الطرفين لأن النقطة التي فرقت بينهما هي مصيرية بالنسبة للجميع، وبالتالي ليس هناك قسمة ونصيب كما يقولون.

واذا تم الاتفاق شربوا القهوة، واكلوا الطعام اذا تم صنعه لهم... وهنا نتساءل: هل يفترض باهل العروس صنع الطعام للجاهة؟! والجواب على ذلك متشعب ومعقد، لأنه يخضع لعدة ظروف واحوال: فاذا كان المشوار بعيدا، وجاءوا قبل وقت الوجبة، واستغرق جلوسهم وقتا، فانه لا بد من اكرامهم، ولا تعتبر المكاليف من ضمن ما يكون للمعازيب على العريس، لأنه من باب اكرام الضيف، وقبل صنع الطعام لا بد من اشعار الضيوف بذلك لأنهم قد يفضلون العودة بسرعة، وحتى لو رفضوا ان يكون لهم طعام، فانه لا عيب ولا شناعة.

ومن الظروف اذا كانت الجاهة ذات اهمية لدى المعازيب، سواء من حيث قيمة الاعضاء واهميتهم، او العلاقة الوطيدة والحميمة بين الطرفين فان صنع الطعام يصبح في حكم المؤكد.

وقد تأكل الجاهة طعامها بدون ان تحصل على الموافقة عندما يقنعهم المعازيب ان ذلك لهم كضيوف، ولا علاقة لهذا بهذا لكنهم لا يشربون القهوة. فاذا شربوها فهذا يعني قبولهم بالرفض، وبالتالي لا يجوز لهم ارسال جاهة اخرى، فكما يلتزم اهل العروس بالموافقة ولا يجوز لهم النكوث اذا قالوا للجاهة (اشربوا القهوة) فان الجاهة اذا شربت القهوة على الرفض فهذا التزام منهم بعدم العودة، وتأييد للرفض، واذا شربوها قبل الطعام وكان مصنوعا لهم اصبح عليهم لزاما ان يأكلوه.

عودة الجاهـــــة:

وعند عودتهم بالرفض، يتم اعلان ذلك، ودراسة الاسباب فيما بينهم فاذا امكن ازالتها ثم العودة بالطلب مرة اخرى، كان به، والا قالوا: (كل شيء قسمة ونصيب)... ويقول الوالد لولده: عيش يا بني والبنات اكثار، الا انهم لا يطعنون بالفتاة، واذا طعنوا يكون ذلك بالذي تسبب بالرفض، وجل ما يذمونه به انه لا يقدر الناس، ويزداد الذم اكثر

فأكثر فيما لو كان قد التزم (للطارش) - (المرسال) بالموافقة، ويلقون باللائمة حينها على الطارش انه غرر بهم، وإلا لما (فضحوا حالهم قدام الناس)، لأنهم يعتبرون ذلك فضيحة، حيث يجب الا يقدموا على العمل الا وقد جرى التمهيد له بالموافقة مسبقا، وسلفا وبعدها اما ان يقرروا ارسال جاهة اخرى وربما ارسال (طارش) لدراسة الوضع من جديد، هذا اذا كانوا يرغبون الفتاة او العائلة بعينها وربما يطالبون باختها او ابنة عمها، طالما ان المقصود هو العائلة وليس الفتاة، والا غيروا الموجة للبحث عن فتاة اخرى في مكان اخر.

واذا كانت الحصيلة هي الموافقة، فان اهل العروس يتدارسون الامر بينهم فاما ان يخططوا بان يمر كل شيء بعيدا عن الضجة، وقد يثيرون بعض الطلبات والاشخاص كأن يعترض ابن العم، او احد الاقرباء على هذا الزواج، لأن هذا بحد ذاته يزيد من تمسك الانسباء الجدد بعروسهم، وانهم اخذوها بشق الانفس، رغم انها موضع الطلب لدى جماعتها، ذلك ان البدوي بطبعه يحبذ الفوز بالشيء الذي يطلبه اكثر من شخص..

واما اهل العريس فهم يجتمعون ايضا، ويتدارسون ما تم بالجلسة، وما يجب ان يتم عند الذبيحة كما لا يغيب عن بالهم ابدا التوقعات التي ذكرناها عند اهل العروس وحتى لو حدث هذا فهو ليس شيئا مفاجئا عند البدو لأنهم يتوقعونه في مثل هذه المواقف.

ثم يوزعون ادوارهم فيما بينهم، ويعينون الاشخاص الذين سيذهبون، والنساء اللواتي سيرافقنهم. ولا يغيب عن بالهم ما يأخذونه من طعام ومكاليف، وهدايا، ويستعدون لذلك استعدادا كبيرا، لأنه اول تلاحم بين الطرفين، ولا بد ان يحاول كل واحد جاهدا اظهار الكرم والشهامة والقدرة والعزة، ليقول كل طرف في نفسه انه صاهر رجالا اقوياء اشداء فالبدوي بطبعه يكره (الجبناء والبخلاء والاغبياء) لأن هذه الصفات تتنافى مع طبيعة البدوي كمسلم، ولا تتفق مع البيئة والظروف الاجتماعية التي يعيشها، ولا يفوتنا ان نذكر انه في حالة النجاح تتم تهنئة العريس ووالده على ذلك، لأن الامر وصل الى مرحلة الموافقة العلنية وقراءة الفاتحة، والتنصل الان صعب، ويحق لاي من الطرفين ان يطالب الطرف الاخر عند القاضي بحقه لاستنكافه، باعتبار الامر طعنا في شرفهم وكرامتهم.. وهذا الصعب جدا عند البدو... انها هنا مرحلة جدية، يصبح التراجع مسؤولية لا تخلو من العقاب الا ما ندر.

والسؤال الان: لماذا يرافق الجاهة للذبيحة وفد من النساء؟! فقد كان الامر مقتصراً على الرجال فقط (وان بدأ بالنساء) الا اننا نرى التوازن الواضح جدا: وهو انه يبدأ بالنساء فقط، في المرحلة الاولى، وفي المرحلة الثانية يقتصر على الرجال فقط، ثم تسير جميع الخطوات الاخرى (الذبيحة، والزفاف) والمرأة والرجل جنبا الى جنب معا، كل له دوره ومهمته، ونجد الاختلاط الشريف البريء الذي لا يتنافى وقواعد الذوق والاخلاق والشرف.

ان وجود المرأة يؤكد اهمية دورها الذي لا غنى عنه، انه الدور الطبيعي في انها متممة للرجل، وَلِيَرَيْنَ العروس، وامها، ونسوة اهلها، ويقدمن الاخبار المفصلة عن ذلك لاهل العريس فهم يقولون (ما يعرف المرة الا المرة) اي ان المرأة تعرف المرأة، كما ان

المجال لها مفتوح للجلوس مع النساء، وهذا لا يتأتى للرجال، وطالما ان اهل الفتاة معروفين فبقي ان يعرفوا عنها وامها مزيدا من التفصيلات اللازمة الضرورية.
وهي تقوم ايضا بنشر الدعاية اللازمة للعريس بحيث يصبح مهضوما ومقبولا اكثر، وبذلك نرى اهتمام البدوي بالدعاية فيقولون (الدعاية ثلثين الحرب) ويقولون (لن طلع صيتك خبي راسك) وايضا (اللي له صيت لا يتعب ولا يشقى) وايضا (الصيت بخت) اي ان الدعاية والسمعة شيء ممتاز، وهي حظ من عند الله، ومن اوتيها فقد اوتي خيرا كثيرا.

الذبيحـــــة:

وتسمى كذلك لأنه يتم ذبح شاة بهذه المناسبة، ولا يشترط ان تكون شاة واحدة فقد تكون اكثر، وهذا حسب قدرة اهل العريس، واهمية الموضوع، وعدد الحضور.
وهذه المناسبة او الخطوة هي عبارة عن حضور جاهة كبيرة من اهل العريس، ومعهم اعداد من الرجال تكملة عدد) والنساء، يتحركون حيث بيت اهل العروس، ومعهم الذبائح (واحدة او اكثر) مع الكلايف اي الرز، والسمن، واللبن، حتى - الملح، والطحين.. اما القدور والنار فمن عند اهل العروس، وعادة يصلون بعد العصر لأنها في الغالب تكون وجبة عشاء، ويحط القوم رحالهم حيث يكون في استقبالهم والد العروس، او ولي امرها، مع وجهاء العشيرة، ويصافحونهم، ويعانقونهم، ويربطون ركائبهم، ويقدمون اليها العلف، وتنطلق زغاريد النسوة بمجرد دخولهن (المحرم - مكان النساء في البيت بينما يبدأ صنع القهوة، ومن المفضل عدم صنعها قبل مجيء القوم ليعرفوا انها تصنع لهم امامهم، بينما يهلي ويرحب المعازيب بضيوفهم، فيفهم من ذلك استمرار القبول والاستعداد بالبدء بالمرحلة التالية وهي ذبح الشاة، وذلك بعد الاستئذان، فيقولون: نتوكل على الله؟! فيقول والد العروس: والنعم بالله، على بركة الله يا ليتها مبروكة، وهذا سماح وايذان بالذبح وتوكيد للموافقة، ويكون العريس موجودا مع الجاهة، حيث يذبح الشاة، هو او من ينوبه، ومن المفضل ان يفعل ذلك شخص يتيمنون به خيرا، (وعرضه جيد) وقد يتم اطلاق بعض العيارات النارية عند الذبح، واما الزغاريد فهي تحصيل حاصل.
ويبدأ الطبخ والعجن والخبز، حيث ان المبدأ ان يقوم به اهل العريس انفسهم لأنهم الان في حكم المعازيب، واهل الفتاة في حكم الضيوف وعليهم تقديم الاحشام، والاكرام اليهم، الا انه في العادة قد يساعدهم في العمل اناس من المعازيب... وان اي تقصير في الطعام ليس من مسؤولية اهل الفتاة وانما مسؤولية اهل الشاب.
واما الذبيحة بحد ذاتها فهي عبارة عن طعام للقوم، بالاضافة الى انها قربان الى الله ان يجعل بداية اللقاء خيرا ويمنا وبركة، وقد سبق وقلنا في بداية الكتاب كيف ان البدو يتقربون الى الله بالذبائح، كما كانت تفعل الامم ايضا بتقديم القرابين المختلفة عبر العصور.

اما حضور العريس فهي فرصة ليراه انسباؤه الجدد، وتراه (عمته) ام خطيبته، وعمه (والد خطيبته)، ويرون نشاطه وقدرته على مجالسة الرجال وخدمتهم، وصنع الطعام لهم، وملاطفتهم والتعامل مع الاخرين، كما ان ذلك درس له ان يتصرف بما يليق، وان ينسى ما مضى من حياته ليبدأ من جديد، انه عرض غير مباشر من اهله له امام الاهل الجدد: ان هذه بضاعتنا.

وبالمقابل تهرب الخطيبة الى بيت اخر طيلة مدة وجود جاهة الذبيحة، وتقضي الوقت عند اقرب الناس رحما اليها (عمها، عمتها) بحيث لا يكون المكان بعيدا عن بيت والدها، ولا يكون قريبا ملتصقا، وهروبها يعني الخجل والحياء من هذا التطور الجديد، بالاضافة الى انه ستر لها ومحافظة عليها من اعين الناظرين، ذلك ان الاختلاط يكون سهلا ومقبولا بهذه المناسبات، وعرض البضاعة بالنسبة لها اصبح امرا لا مبرر له طالما حصلت على عريس، بل ان الاهم الان ان تختفي عن الانظار ليزداد الشوق الى رؤيتها، وتتلهف القلوب الى ذلك، وهذا مفيد لها ولخطيبها ايضا الذي لا يألو جهدا في محاولة رؤيتها، واثبات نشاطه وقدرته وجدارته امام عمته (ام الخطيبة) لتتحدث لابنتها عنه، فتزداد تعلقا به..

بقي ان نقول ان على الخاطبين دعوة ما امكن من عرب الفتاة لوجبة الطعام المتوفرة... ويتم التداول في كثير من الامور، وتنتهي القصص والحكايات بالحان من الربابة.

وغالبا ما يغادر القوم الى بيوتهم بنفس الليلة اذا كان (مشحاهم) اي مشوارهم قريبا اي قصيرا، اما اذا كان العكس فلهم ان يبيتوا ليلة، واذا عادوا عاد العريس معهم وقد يبقى ولكن فرص الحديث للخطيبة قليلة، وعندما تعود الفتاة للبيت تأكل ما تركوا لها من الطعام وهو غالبا قطعة لحم جيدة وشيء من الثريد، لأن ذلك حقها ونصيبها، كما انها أحق الناس بتناوله، وتصبح الان مخطوبة.. (مقرية فاتحتها) - اي قرئت الفاتحة في ذلك وليلة الذبيحة يتم (فرض السياق) اي تحديد المهر اذا لم يكن حدد من قبل، كما يجري وضع الخطوط العريضة لتواريخ الزواج، فقد يحددونه بزمن معين، او بظرف معين كأن حتى يعود شقيقها، أو حتى يرحلوا للمكان الفلاني، او في الربيع او الصيف... الخ واذا كان العريس ميسورا فهو يدفع المهر كله او بعضه، امام شهود وطريقة الدفع ان يقوم شخص من الجاهة (لا يشترط العريس او والده) وينهض ليجلس امام والد العروس او من ينوبه، ويعد عليه على مسمع ومرأى من الجميع المبلغ المتوفر فاذا بقي شيء قال له: بقي لك كذا وسندفعه في الوقت الفلاني، وفي كلتا الحالتين (بقاء مهر، او انتهائه) يتم اعلان ذلك بنفس الجلسة وكل من حضر او سمع او رأى فهو شاهد مستقبلا حول اي خلاف، ونادرا ما ينسى البدوي هذا، بل يحفظه عن ظهر قلب، واذا كان المهم من غير المال وضع اهل العريس الوجوه والكفلاء على انفسهم للالتزام بتنفيذ المطلوب.

ويحاول اهل العريس ايضا الا يكونوا ثقلاء منذ البداية ومن هنا فهم حريصون على المغادرة بعد انتهاء مراسم الذبيحة، واكل الطعام، وبالمقابل يبدي اهل العروس

رغبتهم في بقاء انسبائهم وقتا اطول عندهم، وبعد الوجبة التي عملها الضيوف، فانهم يصبحون ضيوفا بالمعنى الحقيقي على المعازيب الذين يحاولون تقديم الاكرام اللازم الا ان خفة الدم من ابسط القواعد التي يجب ان يوصف بها الوفدان.

والشيء الجدير بالذكر هنا ان جاهة الذبيحة تقوم بالدرجة والاولى على اعضاء الجاهة التي سبقتها، لأن هذا الدور هو قطف لثمار انتصارهم، ويؤدون الدور في الحالتين من اجل تحقيق هدف واحد، الا اذا اعتذروا، وهنا نلفت النظر الى سمو ذوق الانسان البدوي بالفطرة والتربية في انه يسمح للاخرين ان يواصلوا دورهم ما داموا ناجحين، بينما في الدول الحديثة قد يحقق النصر شخص، ويقطف ثماره غيره، وينتهي دور ذاك ويسحق وكأنه لم يقم باية خدمة جديرة بالثناء او الاستمرار، فالانسان له قيمته عند البدوي، والكرامة اثمن من الانسان نفسه، ومن هنا نما ذوقه واستقامت اخلاقه مع فطرته ولم يبخس الناس اشياءهم.

قراءة الفاتحـــة وذكر الله:

رأينا كيف ان البدو يهتمون كثيرا ببدء الحديث بالتحية التي تكون من حيث المبدأ بذكر الله او الصلاة على النبي، وان كانوا في العادة لا يتقيدون بذلك تماما، وكل كلام لا يبدأ بذكر الله يعتبر بناء بلا قاعدة ولا اساس، ولا بركة فيه... كما ان ذكر الله يطرد الشياطين، ويجلب ملائكة الرحمة، وموقف مثل هذا ثمين وعظيم، لا يفوته البدوي ولا ينساه الا ما ندر، حتى ولو كان غير متعلق بشؤون البادية والعادات.

ولا بد لنا ان نذكر هنا ان اي اتفاق عند البدو يحتاج الى مواثيق وعهود، وشهود، وحيث لم تكن هذه خطية في غالبها، لذا فانه لا بد ان يوجد ما يحل محل المكتوب ويتفق عليه، وبكلمة تقال باشكال معينة، وبالفاظ (ربما محددة في غالب الاحيان)، وان الزواج هو اتفاق فيه تقرير مصير انسانين، ونحن نعرف كم هي عظيمة قيمة الانسان لدى البدو وان اي اعتداء عليه هو بالتالي اعتداء على القبيلة، كما نعرف كم هي قيمة الشرف المتمثل بالانثى، وبالتالي نرى ضرورة العهود والشهود في هذا الامر، اما الشهود الذين يحضرون (من الجاهة) فانهم تلقائيا اصحاب وجه ايضا، فعليهم التزام كبير، ولهم الحق في الوقوف بوجه (المنعوج) اي من ينكص وينكث بعد الاتفاق... كما ان الطرفين يخجلان منهم، ويراعون تدخلهم، وحقوقهم بالتدخل... وهكذا نرى ان هذا الجانب الدنيوي المنظور للعهد، هذا الجانب الذي يستطيع التدخل حين اللزوم، وبصورة فعلية، ويقف في وجه الانحراف (العوج).

وزيادة في اخذ الحيطة والحذر لا بد من وجود التزام معنوي مرتبط بالقوى الغيبية بالله سبحانه لأنه (عزيز ذو انتقام)، ومن يقطع وجه الله، فان سخطه سيحل فيه بالتأكيد، **(ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه)**، والبدو يخافون من القوى الغيبية اكثر من خوفهم من القوى الدنيوية المنظورة، لأن في الاولى لا يستطيع احد من الناس الدفاع عنه او الحيلولة دون وقوعها، اما الثانية فان عشيرته وعصبيته تهرع معه، وتحارب، وتدافع، وتساعد، وشتان ما بين بلوى لا يستطيع الانسان ان يحصل فيها على مساعدة، وليس

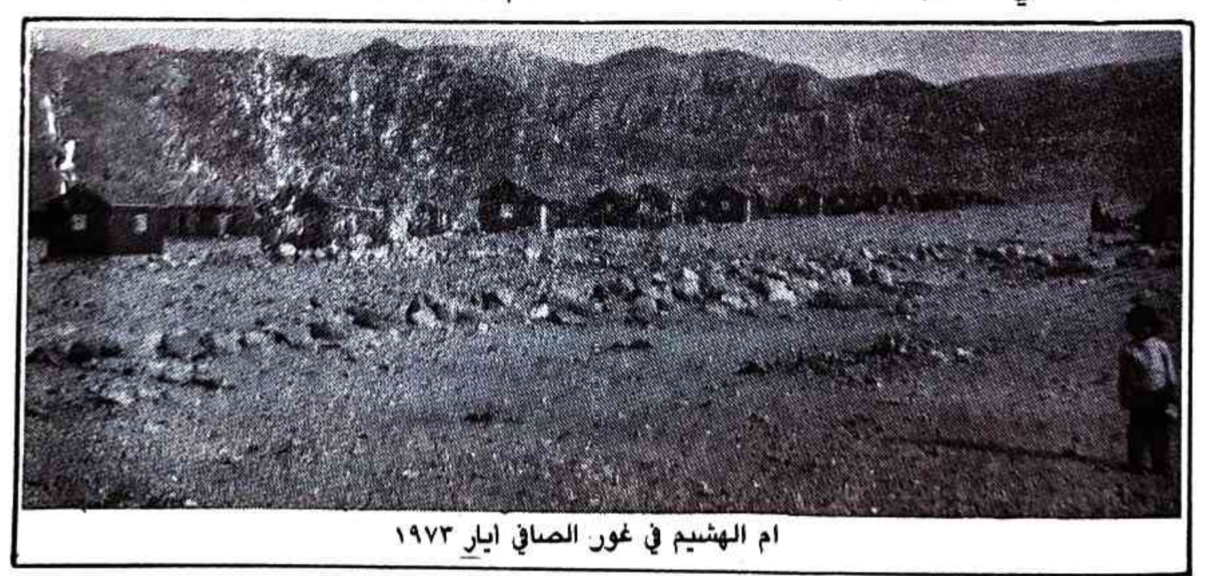
بمقدور احد تقديم المساعدة، وبين اخرى يساهم الاخرون في التخفيف منها او ايقافها قبل حدوثها.

وان قراءة الفاتحة تعني هذا العهد العظيم بين الطرفين، والبركة الالهية على الامر، وعندما يقال: (فاتحتها مقرية) اي انه لا مجال لاحد ان يتدخل بالامر في الفصل، لأن ذلك اختراق لحرمة الله، ولعهده ومواثيقه، ونحن نجد البدو حريصون جدا للوصول الى قراءة الفاتحة لأنها الرباط والسد المانع في وجوه المعارضين، والذين لن يجدوا الناس وحدهم امامهم. بل وسيجدوا انهم انما يحاولون التطاول على حدود الله سبحانه. ومن العهود المنظورة وجود المهر الذي هو عهد مادي ملموس، فاذا تم فهذا يعني الموافقة والرضا، ويشكل بذلك عقبة امام اي اعتراض مهما كان، فيقال (فاتحتها مقرية وقريشاتها مدفوعة) وقريشات هي جمع تصغير قرش.

وهكذا نرى ان الفاتحة وذكر الله هما موثق وعهد متعلقان بالقوى الغيبية.

حضور الجاهة:

والسؤال الان: ترى طالما ان هناك اكثر من طريقة للخطبة سواء ما كان منها تقديم الرجل لموكلته، او طلبها منه، فلماذا (في جميع الحالات) تذهب الجاهة الى بيت أهل العروس، ومن ثم يتم (الذبح هناك)؟! والجواب يستطيع معرفة كل قارىء بدون تسجيل، ولكن لا بد ان ننوه انه طالما ان الرجل من حيث المبدأ هو الذي يحدد الفتاة التي يريدها، وهي لها ان توافق او لا توافق، وقد تعين شخصا ولا يقبل بها (من حيث العادة)، ان المبادرة من جانب الرجل طالما ان الفتاة عورة، وانثى ولها الستر، وتمثل الجانب الضعيف لدى الانسان، فان البدوي يعطيها حقها في هذا الدور، فلا يتجاوزه اي من الطرفين، كما ان الفتاة الواحدة قد يحدث ان يختلف عليها اكثر من شخص، ولا بد من فوز احدهم في النهاية، والبدوي يحترم عرضه فلا يعرضه في السوق، بل يأتي الشاري، (اذا صح هذا التعبير القاسي) ليبحث عنه، وفي البحث لذة، ازاء كل ما سبق فان طبيعة الرجل تقتضي ان يبحث بنفسه عن الصيد اللازم وليس ان يجلس ويكسل، فالحياء



ام الهشيم في غور الصافي ايار ١٩٧٣

والكسل للنساء، وليس للرجال، والرجل هو قطب الرحى والمركز الذي يدور حوله اطار الدائرة، ومن هنا فهو يتحرك باحثا عن الانثى عن شريكة حياته ليأنس اليها.

وهكذا نجد الرجل هو الذي يبحث عن الانثى، وما هذه الجاهة التي تذهب الا تعبير عن الرغبة، بالتقارب، والزواج والمصاهرة، وهي بنفس الوقت تعبير عن التزام الرجل بطلبه بصورة جدية وصحيحة. كما ان الجاهة بحد ذاتها تصبح صاحبة وجه على الموضوع الذي جاءوا من اجله، انهم وفد وعليهم التزام ادبي آني، وتاريخي، حتى انه في الخلافات الزوجية تشتم الجاهة التي سارت في خطبة الزوجة كان يقال (يلعن الجاهة اللي مشت بطريقك)، انهم يتحملون مسؤولية كبيرة، وهو اعتراف ضمني ان هذا الشخص الذي ساروا، لتحقيق رغبته هو موضع الثقة والاحترام والتقدير، وانه جدير بهذه المسؤولية والامانة، اذن فهم شهود يدون ان يدلوا بشهاداتهم صراحة، والجاهة واقي صدمة بين الطالب والمطلوب في البداية الأولى...

ولا شك انهم يذهبون الى حيث اهل العروس، لأنهم اصحاب حاجة يريدون قضاءها، ومصلحة جاءوا لتحقيقها، وهذا الطلب لا يكون باستدعاء اهل العروس، وانما بالذهاب اليهم، حيث عليهم احترام ضيوفهم، بينما لو ذهبوا فعلى معازيبهم (الطالبون) احترامهم. وان الطلب من الضيف شيء من الابتزاز، بينما ان يطلب الضيف من المعزب شيء محبب عند البدو، لذا فالجاهة ضيوف، وتطلب الى المعازيب كذا وكذا.. كما ا الضيوف يستطيعون الامتناع عن شرب القهوة وتناول الطعام حتى تلبى مطالبهم، بينه لا يستطيع المعازيب ان يقولوا لضيوفهم لن نقدم لكم قهوة او طعاما او ماء حتى تعطونا كذا وكذا، فهذا الابتزاز بعينه، كما انه يتنافى مع عادات العرب الاصيلة وقيمهم واخلاقهم.. وبمعنى اخر فعلى المعزب ان يقوم بواجب الضيافة بينما يمكن للضيف ا يمتنع عن التناول حتى تلبى مطالبه. وبذلك نرى اهمية ان تكون الجاهة ضيفة على اهر العروس، وان تذهب هناك ولا يكون الشخص ضيفا على الاخر الا اذا حل في دياره او بيته لذا فالجاهة تتحرك الى حيث البيت والديار ليكونوا ضيوفا، ولديهم المبرر الكبير في طلب ما يريدونه، ولأن الضيف تقدم له الواجبات اللازمة تلقائيا، فهذا سلاح بيده لئن يمتنع عن التناول او الممارسة لتلبى مطالبه، وفي الدول الحديثة نجد ان المطالب قد تلبى بناء على تبادل المنافع والمصالح، واحيانا بعد ممارسة اضراب عن الطعام والشراب، ولكن بما يجلب السوء والضرر على الصحة، لأنه امتناع قد يطول اياما، او اسابيع، وهذا تعذيب للنفس الانسانية، بينما ما هو عند البدو شيء مؤقت جدا لا يدوم اكثر من لحظات او دقائق، كما انه احترام للذات الانسانية يزيدها شوقا للقهوة والطعام ليتناولهما بعد ذلك بنهم، ويعوض ما فاته سريعا... كما ان الجاهة اكرام لكلا الطرفين ايضا، ومن هنا فان مسؤوليتها تاريخية، ومهمة وخطيرة.

دعوة اهل العروس:

وبعد الذبيحة، تتوطد العلاقة بين الطرفين، وتزداد تلاحما برابطة المصاهرة

مضافة للروابط السابقة مهما كانت (الجيرة، القرابة، النسب السابق...الخ) وزيادة في المواثيق والعهود والاحترام فانه لا بد من ان يكون (عيش وملح) جديد مضافا لما كان، حيث توجد كما قلنا رابطة جديدة تحتاج الى ذلك، وعلى كل طرف ان يقدم شيئا من هذا من حيث المبدأ، وان كان الامر بالعادة أن يكتفى فيه احيانا على الذبيحة. او دعوة اهل العريس لأهل العروس او العكس.

ويتوجه اهل العروس بوفد (على مستوى رفيع) بالتعبير العصري الحديث... الى حيث اهل العريس، والامر هنا يتعدى الى الحمولتين او العشيرتين او القبيلتين، لذا يشتمل الوفد على الوجوه، واحيانا الشيوخ، ويجب ان يكون باستقبالهم وفد على مستوى رفيع ايضا، من الشيوخ والوجوه، واكرامهم بما يستحقون واحيانا يبالغـون في اكرامهم... وفي الدول العصرية نجد ان استقبال الضيوف يكون من مستواهم لدى الطرف المستقبل من مبدأ (التعامل بالمثل)، ويحل القوم ضيوفا، وتقدم اليهم وجبة طعام شهية (مأدبة كبرى)، وبمقدار الاهتمام بهم من حيث الاستقبال والحضور، والاكرام، بمقدار ما تتوطد علاقة الطرفين، وعلى اهل العروس ان يردوا بالمثل (فالمبدأ من كلا من صحن حط فيه)، ومبدأ (مثل ما تراني اراك)، ومبدأ (هل جزاء الاحسان الا الاحسان). وبذلك لا يغادر القوم بيوت معازيبهم حتى يدعوهم الى وليمة في مضاربهم، ويضرب لها موعد يتفق عليه الطرفان. وبذلك نرى ان رد الزيارة والطعام هذا قد اخذت به الدول الحديثة، في عرفها السياسي ومن الانصاف ان نذكر ان البدوي في خيمته قد سبقهم الى ذلك، لكنها في الدول الحديثة بقصد توطيد العلاقات، والمصالح وكذلك هي عند البدو لكنها هنا مبنية على الصفاء والنقاء بالاضافة الى انها عهد جديد و (عيش وملح) لا غنى عنه في هذه المرحلة من المراحل. كما انها فرصة لان يتعرف كل واحد على الاخر وكم هو كريم وشهم.. ونكرر القول: ان المبدأ (الاصل) ان يتم تبادل الدعوات بين اهل العروسين بعد الذبيحة، ولكن احيانا يكتفي بالذبيحة، او ان يعتبر اهل العروس هذه الذبيحة هي بمثابة دعوة من اهل العريس وذبيحة في ان واحد، ولكن كيف يتخطون المبدأ يا ترى؟! فيجب على اهل العريس ان يبدأوا بالدعوة ولاهل العروس الحق في الرفض ولكن باعطاء المبرر كاعتبار الذبيحة بمثابة هذه الدعوة مثلا. او ان القوم من بعضهم، او بينهم وحدة حال بحيث لا تصبح هناك حاجة لمثل هذه الدعوات.

والدعوات بحد ذاتها تزيد من تصفية وتنقية الجو، فيقولون: (إطعم الثم تستحي العين) (واللقم تدفع النقم). فمن يأكل من عند شخص قد يستحي بحيث يصبح في وضع غير قادر على رؤية جميع عيوبه لأنه (يغطى بالسماحة كل عيب، وكم عيب يغطيه السخاء) كما يقول سيدنا الامام الشافعي رضي الله عنه، وتبادل الطعام والسخاء والسماحة امور كفيلة بتعديل مسار الطرفين ليلتقيا معا في خط واحد نحو هدف الوفاق... كما ان البدوي في طبعه حب الاكرام للاخرين، واكرامهم له، باعتباره جزءاً من الكرامة الذاتية له..

الخطبة والطلبـــــة:

الخطبة تسمى عند البدو (طلبة) بكسر وضم الطاء، والطلبة هي الطلب الذي

يتقدم به الشاب لنيل الفتاة، وهي من حيث المبدأ طلب سواء تمت الموافقة عليه ام لم تتم، ولكن في العادة تطلق على ما بعد حصول الجاهة على الموافقة الاولية، واحيانا من مجرد المرسال، او المرأة من قبله... ويقولون: (ودنا نطلب)، اي ان النية تتجه لخطبة (طلبة) فتاة معينة، ويقولون: (طلبنا ووافقوا): اذا تمت الموافقة على الطلبة، ويقولون: (جينا نطلب)، ليفهم اهل الفتاة انهم جاءوا للخطبة، وان تسمية العملية بالطلبة، والطلب ومشتقاته انما هي طلب من طرف لاخر، من اهل الشاب لأهل الفتاة، طلب الموافقة ثم طلب المهر ومشتقاته، اذا تمت الموافقة او طلب الكف عن الطلب اذا كان الجواب هو الرفض... ان العملية تعتمد على الطلبات المختلفة، لذا فان (الطلبة) هي كلمة عامة وشاملة تطلق على كل ما يتعلق بمراحل ما نسميه بالخطوبة التي هي العملية الجاهزة للطلب، اي الطرف التنفيذي في حالة الموافقة..

وقد استبدلت كلمة الطلبة بالخطبة والخطوبة منذ ما بعد منتصف القرن العشرين. وأصبحت الخطبة هي الكلمة الدارجة وهي ذات أصل في القرآن الكريم.

وبعد الذبيحة يصبح الشاب هو خطيب (او طليب - بتشديد اللام) للفتاة، وكانوا يقولون: طليبها، والان يقولون: خطيبها،.. وفي ليلة الذبيحة اذكر كيف كان ابناء العم والاقارب الادنين يعترضون على خطبة هذه من شخص قد يكون من نفس العشيرة ولكنه ابعد نسبا، وكيف كان يتدخل العقلاء والحكماء او الجاهة بالامر وينتهي عادة في حدذه الاعتراض باكثر من طريقة وعلى اسس متعددة فمثلا قد يقرر الاب كلمته ويقول: ا نطقت بعد ان استشرت، ولا اعود بكلامي، وبنتي كانت موجودة، ولماذا لم تتقدموا لها ه قبل؟ وما تحركتم حتى جاء نصيبها الان؟ وكثيرا ما تكون هذه الاعتراضات ضمن سلسله من التآمر ضد الفتاة او امها او اهلها، نكاية بهم جميعا، ومقصودهم تأخير زواجها حتى تصل الى مرحلة لا تجد من يسترها (يتزوجها) - لأن البدو يعتبرون الزواج والموت ستيرة حال...

واحيانا يكون قرار الوالد او ولي الامر او الوجيه او الشيخ نهائيا ويعود المعترضون على اعقابهم، وقد يتحولون الى معازيب يخدمون الضيوف من اهل الشاب الخاطب الذي اعترضوا عليه قبل قليل؟!

وقد يتم تحويل الامر الى قاض لكي يبت بالموضوع بسرعة، وهنا يقول القضاء كلمته، "والمبدأ" في ذلك: طالما انه تمت قراءة الفاتحة في الجاهة الأولى (الطارش - والمرسال)، وتم الايجاب والقبول، فانها جينئذ في عرف القضاء البدوي مخطوبة او مطلوبة، وبالتالي لا يجوز خطبتها الا لذلك الذي قرأ فاتحتها، ما لم تكن الفتاة رافضة، اي انه يتم اعتماد ثلاثة امور: قراءة الفاتحة المبنية على الموافقة، ورأي الوالد او ولي الامر، ورأي الفتاة نفسها، حيث يكون هو الفيصل النهائي، فان اشارت على احد الخاطبين اضطر الثاني لقبول ذلك، وانسحب، حتى ولو كان الخاطب نفسه.. ان الخيار في ان تختار من تريد، وهذا المبدأ مأخوذ من الشريعة الاسلامية السمحاء حيث نجد ذلك في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لا يخطب أحدكم على خطبة أخيه)** وقال مالك: (وتفسير

ذلك - ان يخطب الرجل المرأة فتركن اليه، ويتفقان على صداق معلوم، وقد تراضيا، فهي تشترط عليه لنفسها، فتلك التي نهى ان يخطبها الرجل على خطبة اخيه ولم يعن بذلك، اذا خطب الرجل المرأة فلم يوافقها امره، ولم تركن اليه، ان لا يخطبها احد، فهذا باب فساد يدخل على الناس[1].

وبذلك نرى ان المبدأ (الاصل. الاساس) في الشريعة الاسلامية، انه ما دام يوجد اتفاق بين الرجل والانثى، اي انهما متفقان، لا يحبان بعضهما بعضا، وجرت الخطبة وركنت هي اليه، واستقرت انه سيكون شريكها وارتضيا فانه لا يجوز فسخ هذه الخطبة طالما توفرت جميع الاسباب والشروط الشرعية.

ولكن في العادة يتم تجاوز ذلك كثيرا، حتى انهم يقولون: (للبرزة ولمن تقسم) اي انها تصل الى (البرزة)، وهي خيمة العروس ليلة زفافها التي تلتقي فيها بعريسها، ورغم هذا فهي غير مؤكدة انها ستكون لعريسها هذا، وبالطبع فالقول مأخوذ من طبيعة الحياة الصحراوية التي تفتقد الامن، وتتقيد بعادات انضباطية قاسية، يحق فيها (لابن العم ان ينزل ابنة عمه عن الفرس)، اي ان يأخذها عن ظهر جوادها وهي مزفوفة لعريس اخر ابعد منه نسبا.. من هنا فالعادة لا تتقيد بهذا المبدأ الاسلامي، حيث يعمل بعض القضاة بموجب عادة (للبرزة ولمن تقسم) وعادة (ابن عمها يطيحها من ظهر الفرس)

وقد يعودون للفتاة لاخذ رأيها، ولها الحق حينها ان تختار من تشاء من العريسين، وعلى الثاني ان يقبل بالهزيمة.

وقد تعتمد الامور على مزايدات بالمهور وهذه تحدث كثيرا خاصة عند النوعيات المسحوقة والمغرورة وذوي البطون الجرباء، فمنهم من يدفع المبلغ كذا، وذاك يزيد عليه، واخر يزيد، وهكذا يستقر الامر لمن يدفع اكثر، من خلال مبدأ (اللي معاه فلوسه بنت السلطان عروسه) اي انه قادر على دفع اغلى المهور، وبالتالي يحصل على الفتاة التي يريدها.

واحيانا يصل الامر الى (شيمة وحشمة وواجب)، فيتدخل طرف بين الجهتين: (الطالبون والمعترضون)، فيقول لهما: (احشموا بعضكم) او (اذا ما خسرت من حقك ما ترضى الناس)، و (يا معازيب شوموا للضيوف). ومن ثم يتنازل طرف للاخر، بدون العودة للفتاة الا اذا كان غريبا، اما ابن العم (من حيث المبدأ) فلا تحتاج الى مشاورة طالما هي غير مخطوبة، فالغريب يؤخذ رايها فيه، بينما لا حاجة لاستشارتها بابن عمها، فصلة القرابة تنهي امامها الاستشارات أحيانا.

وقد ينتهي الاعتراض بالاسترضاء للطرف المعترض، حيث تقدم اليه بعض الهدايا النقدية، او الملابس او السلاح، او الركائب، وربما بالكلمة الطيبة، والتهدئة، وقد يكون هذا الاعتراض ضربا من التمثيل، ليزداد تمسك الخاطبين بها، ونادرا ما كان يمضي الامر بدون الاعتراض حتى ولو كان شكليا، اما اليوم فقد تقلص ذلك، واصبح التفاهم

---

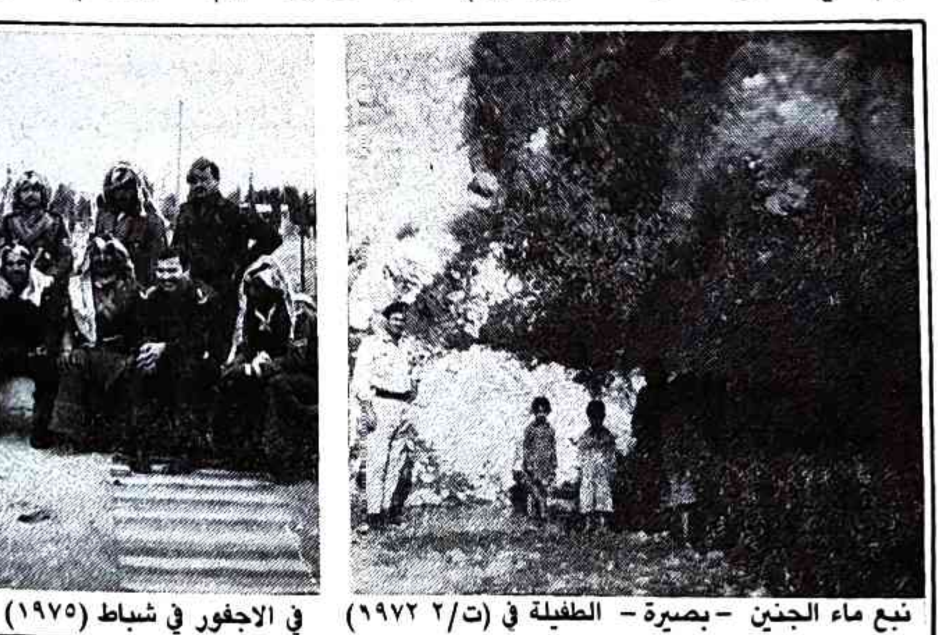
١) الموطا/ مالك - ص ٣٢٤.

المسبق، ينهي كل هذه الامور، حيث انتشر الوعي بين الناس، ومعه تجاوزت القبيلة حدودها المعتادة وتقطعت الانتماءات العصبية، والنظرة القبلية.

والآن لنتساءل: هل يقوم اهل العريس بتجهيز الطعام في الذبيحة اذا كان هناك اعتراض؟! ام يكنوا ويعودوا دون ان يعملوا شيئاً؟! والجواب هو ان هذه المعارضة، اما ان تكون قبل البدء بعملية ذبح الشاة وتجهيز الطعام، وذلك كأن يأتي المعارضون ويصلون الى بيت اهل العروس قبل الطالبين، او يتجمعون فور وصول اولئك، خاصة وان عملية الذبح لا تتم الا بعد ان يستريح القوم، ويشتموا رائحة الاخبار، وهل هناك شيء ما في الجو ام لا؟!.. وفي هذه الحالة وهي المعارضة الفورية ينتظر القوم الوصول الى حل او نتيجة، واذا لم يتمكنوا عادوا ادراجهم ومعهم ما جاءوا به، وذلك ان الذبيحة مقرونة ليس بالموافقة فحسب، بل باستقرار القوم، ليأكلوا هم وانسباؤهم، وطالما انتفى المكوث، وانتفت الموافقة فمعناه انتفت عملية الذبح... والسؤال الان... ما هو رد فعل القوم الذين عادوا على اعقابهم؟ فالجواب: اذا كان المعترضون اولى منهم، فلا حق للمطالبين ولكن لا بد من اللوم على ذوي الفتاة الذين كان عليهم اخذ رأي جماعتهم تجنبا للوقوع في مثل هذه الورطات.

ولكن اذا كان المعترضون قد وافقوا على الخطبة قبل الذبيحة ثم جاءوا للاعتراض الان فلا حق لهم بالطلب ولا بالمعارضة، لأنه كان عليهم ان يفعلوا ذلك قبل ان ينطق ولي الامر، ويرتبط مع الناس، واحيانا يصر والدها على تزويجها للشخص الذي يريد، ولا يطيع للمعارضين امرا... اما اذا كان المعترضون بنفس الدرجة مع الطالبين من حيث النسب او القرابة، فلوالد الفتاة ان يختار او يعودون الى الفتاة نفسها لتختار من تريد، ا يتنازل احد الاطراف الى الطرف الثاني.

اما اذا كان والد الفتاة قد تكفل من قبل انه لا علاقة لاحد بابنته ولا به وهو (ينطو لهم اي الذين عادوا خاسرين بها) فعليه ان يرد لهم اعتبارهم، لأنهم اهينوا.



نبع ماء الجنين - بصيرة - الطفيلة في (ت/٢ ١٩٧٢)



في الاجفور في شباط (١٩٧٥)

ويحدث ان يتم الاعتراض بعد ذبح الذبيحة بمدة قصيرة او طويلة، لاسباب منها غياب المعترض، او لأنه لم يهتم بالموضوع الا متأخرا، واذا نجح باعتراضه، فيجب ان يعيد للخاطب الاول كل شيء حتى ثمن ملح الطعام، وقد يرسل اليهم جاهة للاعتذار اذا كانوا يعزون عليه، او تربطه بهم رابطة صداقة، ولكن في (المبدأ) عند البدو لا يعتذرون لأن القرابة هو الأولى وهو صاحب الحق (اولى لك فأولى، ثم اولى لك فأولى). وهو عندما يحصل عليها انما يستعيد حقه من شخص اغتصبه، او اخذه على حين غفلة، او في الوقت الذي كان صاحبه غير قادر على الاعتراض. ومن هذا المنطلق، فانه لا يجوز ان يحال بين الحق وصاحبه، ولكن اذا تم الذبح، وجاءت المعارضة في هذه اللحظة، فهنا تقع الحيرة، ويكون الحل[1] في اكثر من طريق، فاما ان تعتبر هذه الذبيحة للمعترض وعليه ان يعيد كامل الحقوق لاصحابها، وربما يقال للمعترض (لقد تم كل شيء، ومن العيب ان نعيد الضيوف على اعقابهم)، وينجح الطالبون على المعارضين (بالناموس وليس بالدبوس).

واذا عجز المعارض ان يحصل عليها، فطالما ان له الحق اكثر من الخاطب، فان بيده سلاحاً قوياً لانقاذ الامر، وهو (الجيرة)، فيقول: فلانة بجيرة فلان (شيخ او وجيه) من الخطبة (اذا لم تخطب بعد)، او من الزواج (اذا خطبت)، حينها تتعلق ولا يجوز عليها زواج اطلاقا حتى يتم حل الموضوع، وقد منعت الدولة هذه العادة في بداية السبعينات لأنها عادة بالية وتتنافى مع ابسط قواعد العدالة الانسانية، رغم ان فيها بعض الحسنات عندما تكون الفتاة مجبرة على الخاطب، وتحب الذي وضعها بالجيرة، ولكنها عادة من حيث المبدأ سيئة جدا. وعلى الشيخ صاحب الجيرة ان يتدخل، ذلك انها اصبحت بوجهه الان، واذا فشل فعليه ان يزوج (المجير) بابنته او ابنة احد اقاربه، ثم يطالب والد الفتاة بتقطيع وجهه.. وهذا شيء معقد اكثر حتى من القوانين الحديثة المتشابكة.

ويقابل الجيرة هذه في العصر الحديث ما يسمى بالحجز، حيث تحجز على اموال او متاع فلا يجوز بيع او رهن او تصرف شيئاً منها الا باذن مسبق، او حتى تحل القضية المعلقة.

منافذ للفتاة:

والسؤال الان هل هناك منافذ للفتاة البدوية في التخلص من رجل خطبها او ينوي

---

١) ولمزيد من التفصيل نقول: انه اذا جاء اهل العريس وقاموا بالذبيحة، واعترض اخرون فانهم اما ان يتوقفوا، او يواصلوا بالذبح وصنع الطعام، وفي حالة المواصلة، او ان الاعتراض كان بعد البدء بالذبح، فانهم يستمرون بصنع الطعام على ذمة صاحب الحق، اي انه اذا كسب هؤلاء فالذبيحة جائزة لهم، واذا خسروها وكسبها المعترض فعليه ان يدفع ثمنها، وتكاليفها كاملة غير منقوصة، وعادة ياتي المعترض المسمى (المفول) بتشديد الواو، والاعتراض يسمى (التفويل) ويقول (جيرة دوم وسياق كوم) اي انه يضع العروس في جيرة (وجه) شخص معين كما قلنا، ويعطى مهلة مدتها ثلاثة ايام وثلث ليقوم خلالها بتجهيز المهر كاملا لاهل العروس وتكاليف الذبيحة لاصحابها، ويدفعها، حينها تصبح العروس من حقه. ومعنى (جيرة دوم) اي انه لا تتزوج من احد غيره ما دام كلاهما على قيد الحياة، والمقصود بالجيرة هو الزواج الاول، وليس الزواج الذي بعده للشخص الواحد مع الفتاة الواحدة، اي اذا وضعها بالجيرة وتزوجها، فانها تخرج من الجيرة الاولى التي اشترطها، واما معنى (سياق كوم) اي انه يدفع المهر كاملا دفعة واحدة، واذا لم يتمكن من ذلك خلال هذه المدة فلا حساب عليه، ولا حق له بالفتاة ولا بالاعتراض بل تصبح من حقوق اصحاب الذبيحة الاولى.

خطبتها، وهي لا تريده، ويصر اهلها على تزويجها منه؟! والجواب: نعم فلها ان تعلن ذلك لوالدها، او والدتها، وقد يؤخذ برايها والا دخلت بشيخ او رجل ذي جاه ليخلصها من ذلك، او تعلن لأهل العريس لدى قدومهم او للعريس نفسه انها لا تريده اطلاقا، ولا تحبه، او توعز لمن تحبه ليقوم بخطبتها مجرد ان تشتم رائحة الخطبة من طرف اخر، لتضيع الفرصة على ذاك.

ومن المنافذ (الجيرة) التي تحدثنا عنها قبل قليل، فاذا كان المتقدم اولى وقادر على دفع ما يترتب عليه، فهو يضعها في وجه شخص، وقد يضطر واقاربه لجمع المهر من اجل تنفيذ جيرته هذه، وقد تلجأ الفتاة لمحاولة الانتحار للتخلص من الخطيب الذي لا تحبه، وفي السيرة البدوية نستمع لقصص فتيات احرقن او شنقن انفسهن لاسباب منها عدم الرضا عن الخطيب أو (الطليب)، فتقول (اخنق حالي، او احرق حالي) وهذا سلاح قوي بيدها على اهلها، خاصة وانه عار عليهم (اذا حدث ذلك) لا يمحوه الدهر ولا يزال المجال مفتوحا لها ان تخطف من تحب اذا وجدت انه لا مناص من الزواج ممن لا تحب وسنتكلم باذن الله عن ذلك في وقت لاحق (عن الخطيفة) هذه، وطريقة الانتحاروهما معيبتان للغاية.

ومن طرق التخلص ان تعلن حبها لشخص معين، او تنتخي به فيهرع لانقاذها اذا كان صاحب حق عصبي او قبلي اكثر من خطيبها، كما ان البدو غالبا ما يرفضون الاستمرار مع من لا يحبونهم، ونقطة اخيرة يوم الزفاف او قبيلة قد تنادي ابناء العم او تقول كلمة على مسامعهم، تستثيرهم لانقاذها وصدف ان كانت بدوية في هودجها مزفوفة الى عريس لا تحبه وليس من جماعتها، فقالت بيتا من الشعر موجها لابناء عمها:

يا ريت عيون اعيال العم تبلى بالعمى يخلوا بنات العم للغريب

فقال لها ابن عمها: ابشري حنا عندك، وقاد جملها، واعترض على الزواج، وتزوجها هو وله الحق في العشائرية بذلك؟!

وليس الرجل فقط هو الذي يرغب الزواج من ابنة عمه، بل ان الفتاة عندها نفس الشعور واكثر ذلك انها تكره الغربة، وتفضل عليها الحياة بين الاهل والاقارب، كما انها تشارك ابن عمها في السراء والضراء، وتواسيه، وعندما تجمع المال او تأتي له بالولد، او تخدمه، فانما تفعل ذلك لعشيرتها التي يهمها امرها وليس لرجل غريب، كما ان الفتاة تعتبر نفسها غير مرغوب فيها اذا تزوجت في الغربة، ولو كانت جميلة او (محرزة) لما خرجت وكما يقولون (ما تطلع من عند عرب فيهم خير)، ويتساءلون: كيف يطلعون عنها؟! اي كيف يسكتون عن زواجها خارج العشيرة... والبدوي بطبعه ينتمي لقبيلته سواء ذكرا كان ام انثى، وولاؤه لها مطلق، لذا فهو يلتصق بها، ويرى من غير النعيم الانفصال عنها بزواج او بغيره، ومن هذه المبادىء والاسس بالاضافة لما ذكرناه في مواضع اخرى فان ابنة العم تتزوج في الحي، وهذا مبدأ، اما العادة فانها تتزوج في العشيرة وخارجها حينما (يقودها نصيبها) كما يقولون.

فسخ الخطبة:

ليس شرطا ان تستمر الخطبة (او الخطوبة) فقد تحول ظروف دون مواصلتها، وعندما يصل الطرفان او احدهما الى نقطة مسدودة، والى حد اللارجعة واللاعودة يتم الفسخ اما بسلام، واما بعد صعوبة بالغة، ولو صنفنا اسباب الفسخ لوجدنا انها تأتي من مصدرين مهمين: **اولهما: من طرف الخاطب، وثانيهما: من طرف الخطيبة.**

اما التي من طرف الخاطب، فقد نستطيع ان نجملها في عدة مبررات او اسباب، او دوافع، ولا ندعي الاحاطة بجميع الاسباب، ذلك انها قد تكون من التفاهة احيانا بحيث يستغرب الجميع كيف تم ذلك، وفوق وبعد وقبل كل هذا يقول البدو (قسمة ونصيب)، فهم في النهاية يسلمون امرهم الى الله سبحانه الى انه ليس هناك قسمة، ليس هناك نصيب، وبالتالي نجد اهتمام البدو في امور قد لا يلتفت اليها ابناء المجتمعات المدنية.

واما الاسباب من طرف الخاطب فهي:

اذا وجد ان الفتاة من اصل وضيع: يقل عن مستوى اصله، واحيانا يفسخ الزواج من اجل هذا السبب، لاهتمام البدوي بالاصل، له ولاولاده من بعده.

إذا وجد الفتاة منحرفة اخلاقيا: او أن لها علاقات مشبوهة مع الاخرين، فاحتواؤها عار عليه ويقال عنه حينئذ (امقرن) بتشديد الراء - اي ديوث يرى المنكر في بيته ويقره، ويسكت عليه راضيا، فالضبط الاجتماعي يمنعه ان يكون في هذا الوضع، بالاضافة الى طبع البدوي في رفض كل ما يمس الشرف والكرامة.

اذا اقترن اسم الفتاة بشاب او شخص معين تحبه ويحبها: ولم تترك ذلك او ضغط عليه الناس، واسمعوه كلاما كثيرا وطويلا عن مثل هذه العلاقة، فهو حينئذ لا يستطيع احتواء جسد فتاة تعلق قلبها وروحها بغيره، وتعلقت السنة الناس بقصصها بما لا يناسبه، وفي طرف اخر نجد شخصا يستهوي الزواج من فتاة تحب غيره، اي انه كان اعظم ممن تحب فاحتواها، وكانت نصيبه.

اذا ساءت سمعة الفتاة اثناء الخطوبة: او وصل الى اسماعه كلام من الناس يغمز في اخلاقها وشرفها.

اذا اعلنت بصراحة له انها لا تريده ولا تحبه فيستحي على نفسه ويتراجع.

اذا ضغط اهله عليه ولا يريدون له الا الزواج من فلانه (فتاة اخرى) او ابنة عمه، او على الاقل لا يريدون هذه التي وقع خيار العريس عليها.

اذا عجز اهل العروس بالوفاء بالتزاماتهم تجاه العريس، كالمماطلة بتأخير الزواج، او عدم قدرتهم منع ابناء العم من المطالبة بها حتى يصل الخاطب الى مرحلة اليأس، فيفسخ الخطبة.

اذا تبين ان الفتاة مريضة بمرض مزمن او يجعلها غير قادرة على القيام بواجباتها الزوجية وهنا لا بد من التفصيل حول هذا الموضوع: فاذا حدث لها ذلك بعد (العقد) فانها تصبح (في بخته) اي من حظه ونصيبه، فقد (قرأ فاتحتها)، وكأنها بذلك في

عصمته وان كانت لا تزال في كنف والدها ورعايته، واذا مرضت هذا المرض قبل ذلك (اي قبل كتب كتابه عليها) فهي من نصيب والدها، وللخاطب هنا ان يفسخ الخطبة ويأخذ كامل حقوقه، واحيانا اذا تبين بعد العقد هذا المرض يكون الخاطب ملزما بها، لأنها اصبحت من (حظه ونصيبه) ويفترض فيه ان يكون قد تأكد انها سليمة معافاة، ومن ثم فان اي شيء يظهر (من حيث المرض) لا يعتد بالاحتجاج عليه (هذا اما لم يكن اهلها قد غشوه بها) ورأى اخر هو رأي اهل الخاطب حيث يفترض ان تكون سليمة معافاة قبل الخطبة، وان اي عيب او مرض يجب على الاهل ان يقولوه، ويخبروا به، والا اعتبروا ذلك غشا وخداعا، وعلى كل فان قضية من هذا النوع تنفسخ من عند القاضي، فاذا كان المرض من النوع المزمن، فهم يعرفون كم مدة بدئه حتى ظهوره، ويقيسون ذلك بمدة الخطوبة، والعقد، وعليه يتم القرار.

اذا توفيت الخطيبة فانه يتم فسخ الخطبة، وغالبا تحل اختها محلها كخطيبة، سواء بطلب من الخاطب او اهله، او بهدية من اهل المخطوبة كتعويض، وعادة اذا ماتت قبل العقد يعود الى الخاطب نصف ما دفع لاهلها، واحيانا كل ما دفع لأنها لم تدخل حظه بعد، واما اذا توفيت بعد العقد فانها تكون في نصيبه وحظه ولا يعود اليه شيء، من حيث المبدأ، ولكن في العادة قد يحصل على نصف ما دفع كمساعدة من اهلها للخاطب ان يبحث عن ابنة حلال اخرى وكتنازل منه عن نصف حقه لاهلها الذين اصيبوا... وهكذا (تنازل نصفي) كل للاخر احتراما وتقديرا لظرف كل واحد منهما، ولكن اذا كان الموت بسبب حادث، فان الدية لأهلها كقتيلة، ولخاطبها او زوجها كخطيبة، او زوجة (له المهر والتعويض)، سواء قبل العقد او بعد العقد، لأن ذلك زيادة في الضبط والردع، وعقاب المنحرف والمسيء، فان (الجاهة) او (قراءة الفاتحة) تعتبر بمثابة عقد، وبالتالي فا للخاطب الحق في الطلب، من القاتل... يطلب كل ما دفعه، بالاضافة الى تعويض عن الاضرار المادية والمعنوية التي لحقت به وهذا يأتي لتقدير القاضي البدوي.

ولنفرض ان الذي قتلها اهلها، فان حقوق الخاطب تبقى كما ذكرنا، لأن قتلها من اهلها لا يكون الا لعيب فيها، سواء اكان هذا العيب في الشرف او قوة الرأس (اي العناد) (وعدم الطاعة) او اسباب اخرى، وكل ذلك يعتبر لدى الخاطب، اعتداء على حقه، ويجب اعادته اليه مع التعويض.

اذا قامت حروب وغزوات بين ذوي الطرفين بحيث وصلت .الامور الى نقطة اللاعودة فان فسخ الخطبة يصبح امرا محتما، حيث يمنع ابناء عم الفتاة من ان تكون نصيب عدوهم... وهذا السبب مشترك بين الطرفين.. وطالما انه توجد (حرابة) اي (قوامة - غزو وحروب) بين الطرفين، فان حقوقه تضيع لأن كسب مال القوم شيء مشروع في عرفهم (هذا من حيث المبدأ) ولكن في العادة قد يعيد القوم الحق لاصحابه اذا كانت الخطبة قبل الحرب باعتبار ان ذلك تم في وقت ليس فيه حرب بينهما ولكن اذا كان اهل الخاطب هم السبب في الغزو فان حقه يضيع، اما اذا كان من اهل الفتاة، فالمجال ممكن باستعادته (اقول ممكنا، وليس محتما)، لأن الامر يعتمد على نوعية اهل الفتاة بالدرجة

الاولى، وهل سيؤدي الرفض الى حرب جديدة يخسر فيها الطرف المنكر لهذا الحق؟!

اذا توفي الخاطب تعتبر الخطبة مفسوخة، ولكن قد يحل محله شقيقه او ابن عمه في خطبته نفس الفتاة على نفس الشروط، والمهر، ويتم ذلك بمنحه تلقائية من اهل الفتاة، او بتوسط (اجاويد الله) او بطلب من اهل الشاب، والمبدأ هو ان تنفسخ الخطبة فورا لأنها ايجاب وقبول بين طرفين مات احدهما وبذلك ينفسخ العقد، ولكن عند البدو نجد ان الامر جماعي اكثر منه فردي، وبالتالي فالعشيرة او العائلة تعتبر الزوجة زوجتهم والخطيبة خطيبتهم (وبالطبع ليس هذا يعني ان كل واحد هو زوج او خطيب) وانما يعني المسؤولية الجماعية، والدعم الجماعي للجهد او العمل الفردي، الا ان حق الاولوية لأهل الخاطب المتوفى، وعادة يعيد اهل الفتاة ما حصلوا عليه من الخاطب لأنه (لم يقسم النصيب)، ويكفي القوم بلوتهم، كما يعتبرون ذلك من سوء طالع ابنتهم، وطالعهم.. ولا جدال على اعادة الحقوق لاصحابها في حالة وفاة الخاطب... لأن ذلك بحد ذاته تعزية للقوم (هذا من حيث المبدأ) اما من حيث العادة، فقد يعيدون ما اخذوا وقد يعتبرون الفتاة خطيبة لشقيق المتوفى او ابن عمه... واعتبار ما تقدم من المهر والشروط كما هي، وقد يزيدون عليها قليلا باتفاق او بمبادرة من اهل العريس.

فسخ الخطبة من طرف الفتاة:

ونقصد بذلك ماكان منها بالذات، او من طرف اهلها وذويها، سواء لاسباب تعود الى العريس، او اهله، او الظروف، او الفتاة او اهلها.

فعندما يثبت ان **العريس** منحرف اخلاقيا، فان الاستمرار يصبح امرا شبه مستحيل، فكما ان الرجل يغار على الانثى فهي تغار عليه (وربما بدرجة اعظم) وكما يحب ان يكون الوحيد في قلبها، وحياتها، كذلك تحب هي ان تكون في عمره وقلبه... فاذا ما تبين بعد الخطبة ان هذا الذي وضعت املها فيه، وسلمت حياتها اليه لم تكن هي لديه الا واحدة من العديدات، فانها تطلب الى امها، ويصل الخبر الى والدها، انها لا تحبذ الاستمرار، وبالطبع تقوم حملة دعائية مكثفة (ليست علنية) وانما شبه سرية، وهذا كله تمهيد لانقاذ سمعة الفتاة في الدرجة الاولى، وللتهيئة لتبرير العملية عند حدوثها واعلانها.

كذلك لا يقبل البدوي لابنته او لاخته... الخ ان تكون قرينة (زوجة) لشخص لا تشرفهم سمعته وسيرته.. لأنهم بالتالي ينالون قسطا من هذه السمعة السيئة.

اذا اظهر عجزه المادي، وقصر عن القيام بالالتزامات المترتبة عليه، ولا بد من التنويه ان هذه النقطة تكون لدى البعض فقط، لأن البدوي اذا اصبح بينه وبين الاخر نسب ومصاهرة، حاول مساعدته بأية وسيلة، ولكنه يضع في اعتباره الامور التالية: هل يستطيع الخاطب ان يهيء الحياة الكريمة لزوجته مستقبلا؟ فقد يكون قصوره ناتج عن حياة العدم التي يعيشها وبالتالي فان تزويجه من فتاة يعني وضعها في جحيم لا يطاق من

ضنك العيش، ومن ثم فان قطع الطريق منذ البداية خير من التعثر اثناء المسير، بعد قطع اشواط بعيدة.

وقد يكون القصور ناتجا عن البخل، وهذا مالا يطيقه البدوي فهم يقولون (الكريم حبيب الله، والبخيل عدو الله - وهذا من مبدأ الاية الكريمة **(واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى)** كما ان البدو يكرهون (البخلاء، والجبناء، والاغبياء).

وهم يرون ان (قرب البخيل خسارة، وعزارة)، فاذا كان يبخل بالمهر الذي يخص على زوجته - شريكة حياته - فالخوف كبير ان يبخل بالانفاق عليها بعد الزواج، وبالتالي العودة الى ضنك العيش الذي لا يرغب البدوي ان تعيشه انثاه.

وقد يكون التقصير عن مماطلة والمسماة عندهم (نتافة) وهي جانب من البخل، ولكن على مبدأ (غيب قد ما تقدر تغيب ولن وقعت صير رجل طيب).. بتشديد الياء ما عدا في صير فيرى البدوي ان هذا يماطل الان، فكيف سيكون غدا! لذا فان الخير له (الباب اللي يجي منه الريح سده واستريح)، و (اخلع السن واخلع وجعها).

وربما يكون الفسخ بسبب اقتران اسم الخطيب والخطيبة معا، لدى الناس، بحيث تدور الهمسات، ان الخطبة كانت بسبب، وللتغطية على ما حدث بعيدا عن الانظار، ولكي يثبت ان هذا غير صحيح، يرفض تزويجها له وهذا لا يكون لدى الجميع، وانما سبب من الاسباب فقط، وعادة فان هذه النقطة بالذات تدور حولها المؤامرات، لأن فتاة من هذا النوع، تكون من الجمال بحيث تستقطب محبا له اهميته، وهو بدوره موضع اهتمام الفتيات، وكل تتمناه، كما انها موضع اهتمام الشباب، ويتمنونها، فتدور الألس بالاحاديث والتي قد تكون في اغلبها مفتراة، نكاية بالطرفين، وتنتشر الامور كالنار في الهشيم، وتحاك المؤامرات والدسائس ضدهما، وقد تؤدي الى نتيجة، وربما تبوء بالفشل لذلك فاننا نرى بوضوح، اهتمام البدوي والبدوية في عدم اظهار حبهما لبعضهما قبل الخطبة، وان يحاط بنوع كبير من السرية والمكتومية،... ونحن نجدهم في المدن يغنون عن العواذل، والحساد، والذين لا يخلو منهم مجتمع، لأن طبيعة النفس الانسانية لا تخلو من ذلك. وقد يكون من الاسباب ان **يقترن باسم الشاب اسم فتاة اخرى،** فيدب الحسد والغيرة في قلب الخطيبة، وتطلب فسخ الخطبة.

وتفسخ الخطوبة في حال حدوث **جمود في علاقات الطرفين،** بحيث يحل الخصام محل الوئام والكره محل الحب... وهذا قد يؤدي الى الاسراع في الزواج لزرع المحبة بدل الكره، وتجنب الاشكالات السلبية لأن المصاهرة تزيد من وشائج القربى بين الطرفين... وقد يؤدي هذا الجمود الى الطلاق، عندما تصل الحالة الى نقطة اللاعودة، ويصبح لدى الطرفين رغبة في عدم المواصلة، لأن كلا منهما او احدهما على الاقل قد اقتنع تماما انه لا ضرورة لأية علاقة بين الطرفين، كما ان البدوي يتخوف ان تهان انثاه عندما يزوجها لخصمه او عدوه، لأن زوجها ينتقم منها، ويؤدي هذا الى حروب جديدة بينهما، او طلاق، وفراق، وفي كلا الامرين سوء يمكن تجنبه منذ البداية.

في حالة مناقضة الشروط المتفق عليها.. كالمهر، ووقف الزواج.. الخ

في حالة رفض الفتاة رفضا باتا، وتستطيع ان تعلن ذلك لأمها ولوالدها، ثم للاهل، وعندما لا تتوصل الى نتيجة تستطيع ان تدخل بشيخ او وجيه في العشيرة او خارجها لانقاذها من الورطة، هذا اذا لم تلجأ للانتحار والذي يكون عادة (بالحرق) او (الشنق) فتقول: (اخنق حالي)، او (اشنق حالي)، وحدث كثيرا في المجتمع البدوي، عندما لا تتحقق رغبة الفتاة، ولا تسمع اذنا صاغية لتلبية المطالب.. وحول ذلك ان فتاة وافق والدها لخطبتها الى احد طالبيها، بعكس ما ترغب وتحب، فاغتنمت فرصة صلاة والدها عند الفجر، فجلست على قبة العباءة[1] اي مقدمة العباءة حيث موضع السجود، وقالت انا داخله عليك يابيه، فقبل الدخالة وقال: ويش تريدي؟! قالت: لا اريد الزواج من فلان؟ فقال: ابشري باللي تريديه،... وتم فسخ الخطبة..

ومن قول البدوية في رفض شخص يتقدم لخطبتها ما نجده في هذه الابيات

والله ثمان ايمان للشوق ما اسير — لو تشتبه فرقاه هي والفضيحة

فهي تحلف بالله ثماني ايمان الا توافق على الزواج من خطيبها، ولو اقترفت الفضيحة بفراقه، وهذا يدل ايضا على ان فسخ الخطبة بحد ذاته فضيحة عند البدو، ولكن طالما انها فضيحة ايجابية فلا مانع بل وتفضلها على الزواج السيء وسبب الرفض هذا عائد لصفات في خطيبها حيث تقول:

ما هو كريم تمتنيه المسايير — ولا فارس نصبر على شين ريحه
يفوح من صدره كما فايح الكير — يا ابوي خطو العفن ما اشين فحيحه
انا كما وضحا بوسط المغاتير — العين نجلا والمحاجر مليحة

فهو ليس كريما تتمنى المسايير (الرجال من نفس الحي) المجيء اليه للطعام والقهوة، وليس فارسا فتصبر على رائحته القذرة (اي بخيل، جبان، قذر) تفوح من صدره رائحة كرائحة الكير وهو ما يستعمله الصناع في نفخ النار، بينما هي جميلة كناقة وضحا وسط النياق الاخرى، عينها جميلة، ومحاجرها لطيفة مليحة.

وهذه اخرى ترفض الزواج من شخص قليل الهمة حتى ولو بقيت بغير زوج (لان الذي يصلح يصلح، والذي لا يصلح تركه اصلح) كما يقولون، وتقول البدوية:

حلفت انا ما آخذ العاقة — لو آكل العمر عند امي

وهذه اخرى تقول:

ما اريد انا الجربا ولو ساق الاضعان — ولو جاب غرسات الحسا للشمال
وما اريد انا باشا حلب وابن شعلان — ما انى حليلتهم ولا هم رجالي
اريد انا ولد الخريشا سليمان — ذابح طوابير العساكر قبالي

---

[1] للدخالة اكثر من طريقة، ومنها الجلوس على قبة العباءة عند الصلاة، ويقول الدخيل: (بمغز ركبك، ومطلبك من ربك) ومغز الركب هو موضع ركب الشخص عند السجود والمطلب من الرب هو كل ما يطلبه الانسان ويقولون ايضا (بصلاتك وعباتك) اي داخل عليك، واستحلفك بالله، وبجاه الصلاة عند الله وعندك، ان تلبي مطالبي، وفي هذه الحالة لا يجوز رد الدخالة الا اذا كانت منافية للعرف او الدين، وحتى في هاتين الحالتين يحدث ان يقبل البدوي دخالة ضمنهما، ويوافق عليها.

وهكذا فالبدوية انسانة تعبر عن رأيها، ولها عقلها ونفسها، وتختار من تحب، وترفض من تكره.

وهذا لسان حالها:

لي نفس مثل نفوسكم يوم تختار والنفس يملكها الغلا والمودة

وتفسخ الخطبة من جانب الفتاة: **اذا تبين ان الشاب مغمور النسب** (ابن خطيفة، ابن حرام، قليل الاصل، لفوفه "اي نسبه ليس من القوم الذين ينتمي اليهم عصبية" وينتمى الى اصل وضيع) وتعتبر الخطبة مفسوخة اذا توفى او اصيب بعاهة تجعله عاجزا عن القيام بواجبات الزوجية.

مما تقدم نجد ان فسخ الخطبة لا يكون من طرف واحد وهو الرجل كما يتصور البعض، وانما قد يكون من طرف الفتاة واهلها، لأن لها حقوقا، ومطالب، واذا لم تتحقق هذه فان الفسخ يصبح امرا محققا، ومفروغا منه.

ونجد ايضا ان الفسخ يدور في عدد من المحاور وهي:

النسب: فاذا تبين انه ليس بالمستوى اللازم، (خاصة لدى العائلات التي تهتم بالنسب) فالتراجع قد يكون في اية لحظة.

وكذلك الامر **اذا حدثت عاهة** لدى اي منهما بحيث يصبح عاجزا عن القيام بواجبات الزوجية واذا اعتقد البعض ان هذه نقطة ضعف ضد البدو، ولؤم منهم، فانني اتساءل! كيف يتسنى لانثى ان تقترن بشخص لا تتوفر فيه قدرات الزوج، او لزوج مع انثى لا تتوفر فيها قدرات الزوجية؟! ان ابسط مطالب الحياة ان يأنس كل منهما للاخر وهو قادر كفؤ، يحقق له رغباته، ثم ان الزوجية مبنية على القدرة والكفاءة (بكل ما تعد هاتان الكلمتان من معنى، خاصة النواحي النفسية، والاساس والاصل ان يتزوج لا يحوي لديه عاهة!!

ونجد ان الفسخ يكون بسبب كشف طرف لاخر **بانه كان يمثل عليه**، لأن (حبل الكذب قصير) كما يقولون... والبدوي لا يقبل الغش من غيره له، او من نفسه لغيره.

وللاخلاق والسمعة والسيرة اهميتها الكبيرة جدا في مواصلة الخطبة ان كانت حسنة والعكس اذا كانت العكس ايضا.

كما ان للحب، والقلب دوره، فاذا نفر اي منهما من الاخر ووجد انه لا سبيل لمواصلة السير، والمسير، فالاولى قطع الطريق من بدايتها، خوفا من مضاعفتها اذا زادت اكثر من ذلك.

كما ان لعلاقة اهلي العروس والعريس دورهم في المواصلة او الفسخ.

وهكذا نجد مدى اهتمام البدو (بالنسب، والعلاقات الشخصية، والكفاءة ورأي الشاب او الفتاة ودور اهليهما، وعلاقة قوميهما... الخ).

وقد يكون للفسخ نتائج سلبية، لكن الامر لا يخلو احيانا من النتائج الايجابية الحسنة، خاصة اذا وجد ما يبرر ذلك، فاذا كره كل منهما الاخر، فالحياة تتعذر ويصبح الفسخ ذي فائدة عظيمة ويلقى كل نصيبه ومن يحبه كما تقول البدوية.

تلقـــى العــوض عاشـــقة تشهاك والقـــى عشـــير يهلـــــي بـــي

كما ان الفسخ قد يحد من بعض المشاكل التي ربما تحدث وتتضاعف، وتتطور اذا بقيت خاصة اذا اعترض ابناء العم، وهددوا باستعمال القوة لمنع الخطبة، او اذا ساءت علاقات القوم.

كما ان الفسخ يتيح لكل طرف ان يعبر عن رأيه بالاخر، كما انه تعبير واضح ان البدوي لا يمارس ما لا يحب ما دام قادرا ان يمتنع خاصة في الامور المصيرية

البرة

ويلفظها البدو بكسر الباء، وضمها، ولفظ ثالث يكون بالضم والكسر معا، وهي العطية، او الهدية التي يقدمها الخطيب لخطيبته، او الرجل لذوي رحمه من الاناث، او الاناث للاناث، اما ما يقدمه الرجال لبعضهم فتسمى هدايا.

وتقول البدوية (ايبر من يبرنا) بسكون الياء وكسر الباء، وتشديد الراء في كلا الكلمتين، والبرة تعبر عندهم عن المحبة، والود، وحسن المعاملة، وتحسين العلاقات وتطويرها للافضل.. وتطلق الكلمة على ما يقدمه الخطيب لخطيبته في فترة الخطوبة قبل الزواج، كما تقال ايضا لما يقدمه لزوجته او لأهلها بعد الزواج، خاصة اذا كان ذلك على اثر غضب ومشاحنات، وتكون لتوطيد الثقة والمحبة من جديد.

وتعني البرة عند البدو ما يلي:

الطاعة/والصدق/ والصلاح/ والعطية/ واللطف والشفقة/ والمحبة، فهي تعبر عن صدق المحبة، وصدق الصفاء، والنية تجاه الخطيبة، بالدرجة الاولى، وتجاه اهلها ايضا.

وهي طاعة الخاطب لخطيبته، كيف لا وهو ياتيها بنفسه، ويزورها، طائعا مختارا او غير مختار، وليس هذا فحسب، بل ومعه هدايا، وعطايا يسميها (البرة) ليعبر عن صدق محبته وطاعته، وعن عهده ووعده انه يحبها، فكما ان الضيافة هي بحد ذاتها عهد بعدم البوق، ووعد بعدم الغدر، فان (البرة) هي كذلك من الشاب للفتاة، وعلى مبدأ قولهم (ما يبرك الا من يحبك).. والفتاة تطلب من خطيبها اثباتا لحبه اياها، وانه لا يحب غيرها، ولا يشاركها احد بقلبه، ولا بد من تعبير عن كل هذا، وبالطبع يكون هذا باشياء منها (البرة).

وكما ان هناك شيئا اسمه الخاوة عند البدو يدفعها الضعيف للقوي، ودفعها يدلل على استمرار الطاعة، فان لهذه البرة معنى مشابها ولكن بطريقة اخرى ولهدف يختلف، وكما ان لدى البدو شيء اسمه الخوة وهي التي تكون بين طرفين متحابين، فلذلك تعني هذه البرة بالمحبة، والصدق.

وكما يقدم الوالد لابنه، والشيخ لربعه شيئا من العطايا والهدايا، دليل شفقته

عليهم ومحبته لهم، وطلب طاعتهم وضمان ولائهم، فان للبرة مدلولا متشابها، فهي من القوي (الخاطب) للضعيف (المخطوبة)، وهي من الطالب للمطلوب، ومن المحب للمحبوب.

وهي تعني المحبة: فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول **(تهادوا تحابوا)** وهذه تزيد اواصر المحبة والعلاقة بين الطرفين، انه مبدأ الاسلام الذي يطبقه البدو في عاداتهم وتقاليدهم، حيث الامر بتبادل الهدايا، والحصيلة هي المحبة، والثقة، وتوثيق القربى والعلاقات، واذا كان الخطيب يقدم مثل هذه الهدية، فان الهدية المقابلة التي يحصل عليها من الخطيبة، انه يتمكن من رؤيتها والتحدث والنظر اليها، ومصافحتها، وهذه بالنسبة له اكبر هدية...

ان الحب شيء معنوي تدل عليه تصرفات محسوسة، واشياء اخرى ملموسة، فهو في القلب والروح، واذا توطد وتوثق هناك، سيطر على الجوارح الاخرى، ان مجيء الخطيب، دليل ملموس، والهدية (البرة) دليل مادي آخر، وسلام الفتاة عليه، واستقبال اهلها له وهم يعرفون انه جاء من اجل رؤية ابنتهم، كل هذا يدل على المحبة المتبادلة، وليس من طرف واحد فحسب.

وهي تعني الشفقة والرحمة: فالانثى ضلع قاصر، وضعيف، والرجل قوام عليها وصاحب العصمة والامر والنهي في ظاهر الامر على الاقل، وعندما يأتي ومعه هدية فانما يدلل على قوته المزوجة بالرحمة والانس تجاه من ستكون شريكة حياته، وانه يجمع في شخصيته جانب اللطف ملازما للعنف، وتحتاج الانثى للجانب الأول تجاهها، وتحتاج للجانب الثاني تجاه الاخرين لحمايتها، وكلاهما عناية بها، وتقدير لانوثتها ودليل على حبه لها، وكما ان للبيض او الجوز، او جوز الهند قشر قوي فان الحاجة ماسة لوجوده لانه يحمي الداخل، ولكي نستطيع اكل ما في داخله والاستمتاع به، لا بد من وجود قشرة القوية التي تحفظه لنا باستمرار قبل الاستعمال، وكذلك جانب القوة الذي تفتقده الانثى في نفسها، فهي تبحث عنه في الرجل، كما انه يبحث عن جانب الانس في جانبها، وبالتالي يكون كل شيء متمم للاخر، وهذا الانس يحتاج الى الرحمة والشفقة وكما يقولون (الولية ولية) اي ان الانثى انى كانت تحتاج دوما للمساعدة والرحمة والشفقة حتى انها لا تصاب باذى وقت الحروب والغزوات، وحتى ان البدوية تستطيع ان تجاوب اي شخص يسألها في الصحراء، ولو كان غريبا وهي لا تخشى على نفسها من سطوته، لأن العنف مع النساء والاعتداء عليهن غير وارد من حيث المبدأ في عرف البدو، فهي آمنة على نفسها، ولها الحرية في السؤال، والحديث والجواب. والرجل نفسه يشفق ويعطف عليها حتى ولو لم تكن من رحمه.

وهي تعني العطية: فالخطيب غير ملزم بالعقد واتفاقيات الخطبة بجلب البرة الا انها ضبط اجتماعي، واجبار اجتماعي لا بد منه، وعرف وتقليد يصعب الخروج عليه، فالرجل يأتي بهذه الهدية (عطية) اي مجانا، بدون ان يطلب مقابل ذلك، **(فالهدية، او العطية)** تعني عند البدو الشيء المجاني، بدون انتظار المقابل صغر ام كبر.

وهي تعني صلاح الامر: فالخطيبة تحتاج ضمانا الى اثبات وبرهان على صلاح العلاقة بينها وبين خطيبها، وعلى صلاحه هو في امر الخطبة، ولكي يبدد جميع الشكوك من نفسها، وانفس الاخرين فهو يقدم هذه كأضحية في محراب حبها، وقربانا في معبد قلبها، وكما يقدم الاخرون قرابين لاثبات صلاحهم وتقواهم ومحبتهم، فهو يقدم ذلك لاثبات هذا الامر معها.

وهي تعني الفرحة: حيث تجلب السرور الى نفس خطيبته، وهذا جل ما يتمناه لها، وتتمناه منه، وفرحتها من خطيبها تساوي فرحتها من الدنيا كلها.

كما انها تعني التفاخر الشريف: ذلك انها واهلها يفاخرون الناس ان خطيبها قد جاء (ببرة محرزة) اي لها قيمتها ووزنها، ويتناقل الناس هذا الكلام فيعرفون ان الصهر الجديد كريم شهم، وليس بخيلا، او نتيفا، انه قادر، وحالته ميسورة وليس فقيرا (على الحديد) لأن البدو يعبرون من جملة ما يعبرون عن الفقر المدقع انه (على الحصيرة، او على التراب، او على الحديد او ما فيه شيء، او يكفيك شره من القلة، او ميت من الضيعة) (وتدل هذه على الجوع ايضا).

فهكذا فللبرة اكثر من معنى في نفوس البدو، ويهتمون بها لما تعنيه من دلالات مختلفة، وبالتالي فالخاطب لا تفوته الفرصة في التدليل على جميع هذه المعاني ليس لخطيبته فحسب، بل ولأهلها والناس اجمعين، فيكسب السمعة الطيبة، وثقة خطيبته واهلها ومحبتهم جميعا.

وعلاوة على كل ما تقدم فان البرة تغطي الكثير من عيوب الخاطب، وكما يقول البدو (مد ايدك على جيبك ينسن النسوان عيبك)، وكما يقول سيدنا الشافعي رضى الله عنه:

يغطى بالسماحة كل عيب وكم عيب يغطيه السخاء

وبالتالي فهي تقطع دابر الالسنة والاقاويل، لأنها في كفة الميزان اثقل بكثير من هذه الاقاويل.

نوعية البرة:

والسؤال الان: ما هي نوعية البرة التي يقدمها الخطيب لخطيبته؟!

والجواب، ان ذلك يختلف باختلاف الازمنة والاماكن والظروف وقدرة الخطيب المادية، ولكن بوجه عام تشمل البرة عددا من الامور ولا يشترط ان تحتويها البرة دفعة واحدة، وانما قد يأتي الخاطب بصنف او صنفين، وقد يأتي بشيء عجالة (اي بسرعة وبكمية قليلة، او بشيء كثير).

واهم ما تشمله البرة امران هما: الملابس بالدرجة الأولى، والمأكولات بالدرجة الثانية وملحقات كل منهما.

اما الملابس فكما يقولون (هدايا وعطايا من الصندل للعبايا)، اي قد تكون ملابس كاملة للفتاة وامها، واهم الملابس هي الثوب الخارجي المسمى (ثوب، او مدرقة) والثوب الداخلي المسمى (بذلة او شلحة) وهو يقابل عند نساء المدن (الفستان والقميص) كما

تشمل الملابس ايضا: القمصان، والسراويل، ومنديل الصوف (وهو لباس الرأس) وتشمل الحذاء ايضا، وكان بدون جوارب، وهناك الدامر الصغير للعـروس، والمسمـى (بناتي - اي للبنات) لأنه خفيف ويصلح لمن تكن في ربيع العمر. وهذا الدامر مصنوع من الجوخ، بالوان مختلفة وهو يشبه الجاكيت او الصدرية في بذلات اللباس الافرنجي، وله جيبان جانبيتان، وجيب ثالث عند الصدر، وله بطانة ملساء بالوان مختلفة.

اما الدامر الحريمي الكبير فهو للنساء اللواتي اصبحن امهات ولونه اكثر هدوءا، وهو اكثر طولا، وسمكا، ويكون لام العروس، او جدتها.

وتشمل البرة احيانا: (العباءة)، وهي خاصة بالمرأة، رقيقة السمك، ناعمة الملمس، تضعها فوق جميع الملابس، ولكن من فوق رأسها بينما يلبس الرجل عباءته من على كفيه... كما تشمل البرة (المقنع) وهو يقوم مقام العباءة حيث يغطي الرأس والعنق والكتفين والوسط الاعلى للانثى، وتستطيع ان تغطي وجهها او عينيها به، ولونه عادة اسود او مائل للحمرة...

وتشمل البرة الحذاء ايضا: وهو انواع: منه الحذاء الشيوخي، وهو عبارة عن جزمة حمراء اللون ذات (شرشبة) امامية، او شرشبتين جانبيتين، وطوله يصل الى نصف بطة الرجل، كما ان له كعبا عاليا ايضا، ولونه احمر غالبا.

وهناك الحذاء العادي (البيتون) وهو قصير الساق، والكعب، وهناك (الكرمية' (بلفظ الكاف "جيما تركية")، وهي من الكوتشوك او البلاستيك.

أما ألوان البذلات (الاثواب لداخلية) فتمتاز بالوانها الزاهية المسماة (المشجره اي اختلاف الالوان في القطعة الواحدة، ومثل هذا نجده ايضا لدى نساء اهل الجزير الى الان، اما الاثواب الخارجية فهي من قماش يسمى (الملس) حيث انه ناعم الملمر ومن هنا جاء اسمه، واما (المدرقة) وهي ثوب خارجي يشبه الثوب عند الرجل، فتكون مر الملس، او من المخمل، وغالبا من اللون الاسود، او القريب من الاحمر..

وفي المدينة نجد ان الخطيب يقدم لخطيبته الهدايا من الفساتين المختلفة والاحذية وكما ان البدوي يعطي خطيبته اجرة خياطة الاثواب، فكذلك يفعل ابناء المدينة.

وتشمل البرة على العطور ايضا، والحلويات، واهمها (الملبس)، والكعيكبان وهو قوالب من الحلوى الجافة، لذيذة الطعم، ويحبها البدو كثيرا، وشبه معدوم هذه الايام، كما تشمل الملبس من نوع (كل واسكت - لأنه لا يخرج له صوت عند اكله)، ومن الراحة، والحلاوة، اي ان الحلويات التي تقدم هي من النوع الذي يمكن له ان يبقى عدة اسابيع دون ان يتعفن او يخرب (كالملبس بانواعه)، واخر يبقى يوما او بضعة أيام قليلة (الحلاوة، والراحة) وبالتالي يأكلون منها عدة ايام وعدة وجبات، وليس لوجبة واحدة او مرة واحدة وكفى.

والبدو بطبعهم يحبون الحلوى، حتى انهم يأكلون منها في جميع الاوقات حتى في الصيف الحار وفي البرة دليل على حلاوة الايام والخطبة، وهي حلوان للخير والبركة.

وعند مجيء الخطيب تأتي الخطيبة وتسلم عليه، وتصافحه، اقول: هي تأتي عنده

حيث يكون، ولا يجوز له ان يجلس في المحرم، وانما في الشق (مجلس الرجال). وفي ذلك تفسير واضح ورد على تصرف الخطيب، فهو قد جاء عندها ووصل اهلها، وهي ترد على هذا المجيء ان تأتي عنده من المحرم الى الشق، (مجيء مقابل مجيء) ولكنه بحياء، وضعف، واما الرد على الهدية فان سلامها وكلامها اكبر هدية، ومع هذا ينطلق البدوي انطلاقا من المبدأ الاسلامي **(الرجال قوامون على النساء)** بان الرجل يجب ان تبقى يده هي العليا وهي الطولى، فلو بقي الامر الى هنا لتساوت هي معه او قاربته، لأن تصرفها هكذا يكفي منها كأنثى، لذا لا بد من ان يتصرف الرجل ما يثبت (قوامته، ورجولته ومسؤوليته وعلو همته ويده)، فيقدم اليها هدية اخرى تسمى (مدة) من مد يمد، واليد اذا امتدت واعطت، وهذه الهدية مبلغ من المال، او قطعة ذهبية، كاجرة لخياطة الملابس، او حتى بدون هذا المبرر، او زيادة عليه، وانما هذا دليل على ما قلناه بالاضافة الى كونه دليل الحب والمحبة، وزيادة في التقرب، والشفقة وطلب العطف والحنان، فهو يقدم ما ينم عن رجولته وعنفه وقوته، وينتظر منها ان تقدم اليه ما ينم عن نعومتهاورقتها، وانوثتها... كما ان هذا عهد جديد منه على محبته وطاعته لها، انه تعبير رمزي على كل ذلك.

وفي المدينة نجد ان الخاطب يقدم لخطيبته هدايا من الفساتين والملابس والعطور، وادوات الزينة، والنقود ايضا، انه يفعل كما يفعل البدوي.

ونظرة الى مواد البرة نجدها تتركز على امور ثلاثة هي:

الملابس، والطعام، والنقود.

فالملابس تعني: الكسوة، والستر، فالزواج ستر، والرجل لباس المرأةوهي لباسه على المبدأ الاسلامي **(هن لباس لكم، وانتم لباس لهن)** والانسان يحتاج في حياته الى ضرورات ثلاثة، المشرب، والمأكل والملبس، وما بقي فهي متممات لذلك ربما يستطيع الاستغناء فترة اكثر من استغنائه عن اقل احدى الثلاثة.... وفي هذا الاطار نجد البرة ايضا، مع تجاوز موضوع الماء لاستحالة نقله من الخاطب للخطيبة كبرة...

اما المأكل والملبس: فتوفيره دليل الاهتمام من جهة، واثبات القدرة على توفيره منذ بدء الاقتران بها كخطيبة من جهة اخرى فالبدوي يرى ان توفير اللباس للمرأة، شرط اساسي ومهم وهذا ما نجده في قولهم (المرأة لها ثوب يجر وكوارة تهر)، وفي قول الشاعر البدوي:

يـا بنـت لو جدي قريـب لجدك   لالبسـك ثوب الحريـر الوافـي

فالثوب الذي يجر (الطويل): والثوب الوافي، هو الستر والستيرة لأنه يستر العورة، ويعطيها ابعادها وانوثتها الحقيقية، حتى ان القول الدارج (ترفل في اثواب العز) كاثبات ان اللباس له اهميته، وهو يدل على حالة صاحبه احيانا... وفي الجنة بدأ سيدنا ادم، وامنا حواء عليهما السلام بطلب الستر وطفقا يقطفان من ورق الجنة ليواري كل منهما سوأته..وهكذا فالبدوي ايمانا منه باهمية الثوب بمعناه كلباس وبما يدل عليه، وبقيمته المعنوية وابعاده وانه صورة تعكس قيمة الخاطب وذوقه وقدرته، ومدى محبته، وقوته...الخ لذا فان اهم مادة في البرة هي هذه الاثواب التي تعني الخطيبة بالدرجة

الاولى وتشمل بمعيتها امها، واخواتها، وربما اترابها، (حسب حالته، وقدراته)...

ثم يأتي الامر الثاني وهو (ما يؤكل): وهذا يعنيها كما يعني غيرها، فهي تأكل منه كواحدة من الاكلات، حتى انه يقال لها (يكفاك فرحتك) كما تقال هذه العبارة للرجل ايضا، ولكن ما يقدم للأكل هذه المرة ليس مما يتوفر في البيت، وانما مما لا يتوفر الا في السوق، ولا يتم الحصول عليه الا بجهد ومشقة، وثمن، ولكل من هذه معناها، ومبناها، في نفس البدوية.

وهكذا ففي البرة فرحة خاصة بها يقدمها الخطيب اليها - وهي الملابس والتي لا يشاركها احد بها، وتبقى مدة اطول، لانه الستر، الذي يحتاجه الانسان ان يستمر طويلا، ما دام على قيد الحياة، وبعد الممات، ثم يأتي الاكل الذي يكون امرا مؤقتا، يذهب بوقته، وبذلك تشمل اذن على فرحتين، واحدة مستمرة (او طويلة المدى)، واخرى قصيرة المدى تكون للفتاة كمثل اي انثى اخرى من العائلة، وهذا بحد ذاته ادب لطيف ان يفرح الاهل مع فرحة ابنتهم، وان يكون في البرة شيء يخصهم من الاكل.

واما الامر الثالث الذي تشمله البرة فهو (المدة): اي ما يمده على خطيبته من المال، وهذا لا يكون دائما، بل يعتمد على الظروف والامكانات، وتكرار الزيارات، لكنه كما قلنا قبل قليل دليل اخر من الخاطب لخطيبته على حبه لها، وبرا بالعهد والوعد خاصة وان طبيعة ونفسية الانثى تمتلىء عادة بالشكوك والتردد، والهواجيس، وقد ادرك البدوي بفطرته هذه النفسية، فعالجها بطرق كثيرة من جملتها البرة للخطيبة، وكلما قدم جديدا فانما يقدم دليلا على حبه ورغبته، وهذا ما تحاول الفتاة جاهدة ان تحصل عله باستمرار.

اوقـــات البـــرة:

ويأتي وقت البرة ضمن اطارين: الاول في المناسبات العامة كالاعياد (عيد الاضحى والفطر)، والثاني في غير هذين العيدين، اي في الايام العادية، يختارها العريس حسب ظروفه. ففي الاعياد العامة حيث يحتفل كل مسلم، فان الخطيبة يهمها ان يكون لديها فتى احلامها، وكذلك بالنسبة للخاطب ان يرى فتاته، ويقدم اليها هدية ترضيها، وتقربه منها وتقربها منه، وفي العيد يتجول الناس ويتحركون، ويهنئون بعضهم، ومن جملة احاديثهم، تساؤلات: ماذا حدث؟! وماذا قدم الخاطب الفلاني لخطيبته، واذا عرفنا ان البدوي يهتم بحديث الناس، الذي يعتبر في حالات كثيرة ضبطا اجتماعيا له ويروعه أي تصرف او كلام قد يؤدي الى فضيحته عرفنا كيف يهتم البدوي في كسب الراي العام لصالحه، ومن المعتاد ان يقدم الخاطب لخطيبته (عيدية) وهي (برة بالعيد)، ولا يجوز ان يمر العيد اطلاقا بدون هذه الهدية، بل ان المتعارف عليه عندهم ان يقدم ذلك... فالعيد هدية لجميع المسلمين وفيه تكون هدية الانسان للانسان (الخاطب لخطيبته). وفي العيد يتذكر الانسان احبته واهله، واصدقاءه، اي (اعز الناس عليه)، (والرجل تدب حيث القلب يحب)، وفي العيد يتفرغ الانسان للفرحة والبهجة، واتمامها على خير بالنسبة

للفتاة، بل انها لا تكون الا بوجود الخطيب، فتتباهى امام اترابها، انه جاءها، ومعه كذا، وكذا، وهذا التفاخر سلاح بيد الرجل لأنه يزيد خطيبته حبا به، ويوسع من سمعته الطيبة لدى النساء، ونحن نعرف ان العيد يتكرر مرتان بالعام، لذا فان (برة العيد) تكون في هذا الوقت الذي لا يتعدى فارقهما عن شهرين وعشرة ايام، وبالتالي فاقتصار البرة على العيد قد لا يجعلها من نصيب كثير من المخطوبات اللواتي يخطبن ويتزوجن في غير هذا الوقت، او خلال اسبوع... والسؤال الان: هل يعني انه لا توجد هدايا (برة)، ام ان هناك حلا للأمر؟! والجواب، واضح، فطالما ان للبرة العديد من المعاني التي سبق وذكرناها قبل قليل، وحيث لا بد من تجسيد مثل هذه المعاني لاهل الخطيبة او للخطيبة بعينها، لذا فان البرة تصبح امرا محتوما على كل خاطب لا يستعمل الاسلوب الفوري الذي سبق وتحدثنا عنه، وحتى في الخطبة والزواج الفوريين يقدم الخاطب لخطيبته هدية تعبر او لنقل تقوم مقام البرة، وتكون هذه على شكل نقود او حلية، او الوعد بمثل هذه، وقد لا يتمكن من هذا في حينه، لكنه يأتي بها بعد حين من الزواج، (اي تأخير بالزمن فقط).

وفي غير الاعياد يقدم الخاطب هديته، في الوقت المناسب، فعندما يفرغ من عمله، مع محاولة مراعاة ان يكون اهل خطيبته قد فرغوا من ذلك كالحصاد، والحراثة، وقص الشعر او جز الصوف والوبر، او الرحيل الى مكان معين (قريب، او مناسب)، او شفاء مريض، او فك الحداد على ميت، او تزويج احد الابناء... لأن البرة يجب ان لا تكون من حيث المبدأ في الحالات التالية انشغال اهل الفتاة بافراح، او اتراح، او عمل) ما عدا الاعياد لأنها عيد للجميع... ولكن في العادة قد يتم هذا في غير وقته لأنه ظرف مناسب للخاطب، وعلى فكرة فهو يأتي بالبرة بدون سابق علم من اهل الفتاة، من حيث المبدأ، لأنه يعتبر ضيفا، ولا يستطيع تحديد يوم معين، حيث يذهب للسوق لشراء ما يحتاجه، وقد يخاف عطب وهلاك وتعفن ما اشتراه فيسوقه فورا لخطيبته، ولكن في العادة يستطيع اعطاء ضوء اخضر خفي انه قد يأتي في حدود الايام الفلانية، وان مجيئة فجأة قد يسبب بعض الارتباك، ولا شك ان الافضل اعلامهم مسبقا لتكون الفتاة مستعدة لاستقبال خطيبها ايضا، وحيث ان امورهم على الطبيعة والبساطة، فهم يأخذون الامر بكل بساطة، بل وببساطة غريبة، ويرحبون بضيفهم، كضيف، (ونسيب)، ولكن يضاف لترحابهم ترحاب ابنتهم معهم ايضا التي تعيش سعيدة ولو لحظات تستمر يوما وليلة او بعض يوم.

وهكذا يختار الخاطب الوقت المناسب بالنسبة له ولاهل خطيبته، ويأتي (بالبرة) ومن حيث المبدأ يجب ان يأتي ومعه جاهة بسيطة من اهله، لأنها هدية الاهل للأهل، وزيادة للروابط بينهما، بالاضافة الى ان الشاب قد يخجل من المجيء وحده، ويحتاج لمن (يقوي عينه) كما يقولون، وينطق بلسانه ولكن في العادة قد يأتي ومعه اناس، وقد يأتي وحده، وقد يأتي ومعه امه او اخته او جدته، او حتى زوجته الاولى (ذرة الخطيبة الجديدة)، وفي حالة مجيء النساء معه يدخلن عند النساء، واما الرجال فموضعهم (الشق) مكان جلوس الرجال، وعادة تكون الهدية على الدابة التي يركبها او دابة اخرى، وتكون (في الخرج)، وافضلها ما يكون على فرس او حصان لأن (الخيل معقود بنواصيها

الخير)، وفيها التفاؤل بالخير واليمن والبركة على الطرفين وتأتي في الاهمية والمحبة ما تكون على ذلول، ثم على حمار، ثم ما تكون باليد، لأن هذه (التي باليد) تكون قليلة بحيث يحملها رجل واحد، واما التي على الدواب الاخرى فمعناه انها اكثر كمية، واذا عرفنا ان الملابس والطعام هي المحور الرئيسي في البرة عرفنا كم هي اهمية البرة التي تحملها الدواب من تلك التي يحملها بيده.

وحال قدوم هذا الضيف الذي حمل الهدية يهتم به معازيبه كضيف ونسيب كما قلنا، وله الحق في السلام على خطيبته، وعادة يهديها نقودا، وهذه تكون منه اليها، هدية خاصة لا يجوز استرجاعها، حتى ولو تم الفصل، اما البرة فيجوز المطالبة بها اذا تم الفسخ، لأنها من مستلزمات الزواج والخطبة، اما الهدية المباشرة منه اليها فهذه امور خاصة له الحرية أن يعطيها، او لا يعطيها، ولا يحق لاحد ان يطالبها بها من اهلها، بينما البرة يشاركها فيها جميع الاهل وربما الجيران ايضا.

والبرة تكون اكثر من نوع:

البرة الرئيسية: وهي لا بد منها وهي من حيث المبدأ مرة واحدة في فترة الخطوبة، وفي العادة قد تكون اكثر من مرة، خاصة اذا مر اكثر من عيد اثناء هذه الفترة.

اما البرة غير الرئيسية: فقد تكون بنفس حجم السابقة في اوقات اخرى، سواء في الاعياد او غيرها، وقد تكون بحجم اقل، وقد تكون صغيرة بحيث انه كلما جاء الخاطب للزيارة جاء ومعه شيء، واذا عرفنا ان عدد زيارات الخاطب لخطيبته تكون قليلة، عرفنا كيف تكون في كل زيارة امرا معقولا، فقد يأتي معه بشيء من البلح، او الحلوى، او القماش او العطر او ادوات الزينة (كالحرير للشعر، او البكلات وهي ما تمسك الشعر، و الدهان وهو الفيزلين لدهن البشرة)، ويصل الحد احيانا ان يكون العريس متهورا، واهل العروس لديهم جشع في الكسب منه. فكلما جاء بشيء طلبوا المزيد، وتكون الطلبات ـ لسان ام العروس، ومن هنا ندرك مدى اهمية تدخل اهل الخاطب في جلب البرة، واختيـ الكمية والنوع، والوقت، وحتى زياراته العادية تكون منضبطة وبعلم اهله ليس للسبب السابق فحسب، بل وتعويدا لابنهم على ضبط النفس، وحتى لا تمله عروسه واهلها، وحتى لا يصبح حديث الناس، وحتى لا يترك عمله، وتطبيقا للمبدأ (زر غبا تزدد حبا). ويحق للخاطب عند جلب البرة ان ينام ليلة عند اهل خطيبته، واذا لم يوجد احد من غير اهلها جاز لها الجلوس قبالته، او في الشق، وان تحدثه او تستمع الى حديثه... وبذلك نرى ان بساطة البدو هي (بساطة منضبطة جدا) (وبساطة عميقة)، ويمكن لاي انسان مثقف ان يدرك كم هي وسيلة تهييج، وتشويق لكل من الذكر والانثى عندما يكون كل منهما قريب من الاخر بضع سنتميترات او امتار، بينما هما بعيدان عن بعضهما بعد المشرقين عن المغربين، وعلى رأي البدوي:

شفـت غر سلاني بـاول نظـره سباني
خـذا عقلي وخلاني وهـو عنـي بعيـدي

بعكس ما نراه في العصر الحاضر حيث تفوح من مثل هذه العلاقات رائحة التمثيل المجوج، والبرود القاتل للعاطفة.

وعادة يؤتى بالبرة اثناء النهار او بداية الليل، ويتحكم في ذلك اسباب كثيرة منها المسافة المقطوعة، ونفسية الخاطب، او الظروف المحيطة.

ذلك ان المجيء في النهار يجعل كل الحي (الفريق) يرون ويعرفون، فاذا كانت البرة من الكمية والاهمية بمكان، فالافضل ان تكون نهارا خاصة اذا كانت كافية لأن ينال كل واحد بالحي شيئا منها (قطعة حلوى او اكثر)، وهذه تصبح ايضا موضع التفاخر، ومدار حديث القوم مما يثلج صدور اهل الفتاة.

واذا وصلوا قبل الظهر حتى العصر صنعوا لهم غداء، واذا وصلوا بعد العصر حتى وقت متأخر من الليل صنعوا لهم عشاءا. ما لم يكونوا من حي مجاور قريب بحيث يعتذرون عن الطعام وبعد شرب القهوة، واكل الوجبة. يعود القوم اذا كانت المسافة قصيرة، ويحق للخاطب ان يبقى لمدة ليلة واحدة فقط، اي ان الضيافة هنا تطبق كمبدأ (يوم وليلة) وليس كعادة، واذا كانت المسافة بعيدة جاز للجاهة ان تنام ليلة وتغادر بعدها، ثم يحق للخاطب، ان ينام ليلة اخرى (اي ان له ليلة واحدة خاصة به بالاضافة لما يمكن ان يقضيه مع الضيوف الاخرين).

بقي ان نقول: ان البدو قديما لم يكونوا يقدمون خاتما بعينه للخطيبة كما هو اليوم، وانما تستطيع الفتاة الحصول على خواتم واساور من الفضة والنحاس، والذهب، طيلة فترة الخطوبة، وبعد الزواج، دون ان يكون لخاتم معين دلالة معينة.. وفي الوقت الحاضر اصبح البدوي يعمل تماما كما يعمل ابن المدينة (خاتم الخطوبة - او الدبلة، والاساور...الخ) وتحولت البرة الى هدايا من الالبسة المختلفة، والعطور، وما الى ذلك، وفي المدينة نجد ان الزوج يقدم لزوجته الهدايا بمناسبة زواجهما او ميلادها، وهي تفعل كذلك لزوجها في عيد ميلاده، كما ان فترة الخطوبة اختلفت اليوم، فالخاطب يستطيع ان يزور خطيبته في اوقات متفرقة وان يتحدث اليها، وتجلس معه، وربما يأتي في اجازته الشهرية او الاسبوعية او عند العودة من الحقل او الرعاية او الدوام، وربما يحمل بيده شيئا اليها او يذهب فارغ اليد لأن الزيارات المتكررة تصبح مصدر خسارة اذا كان عليه ان يجلب معه شيئا كلما جاء، وبعض ابناء البدو الذين سكنوا المدينة او استقروا في القرية وانخرطوا في الوظيفة، يستطيعون الذهاب (الخاطب والمخطوبة) الى المدينة لشراء ما يريدانه، وربما يخرجان مشاوير للتنزه، واصبح بامكان الفتاة ان تعرب عن رأيها بصراحة او لتقل (بوقاحة) اكثر من ذي قبل في رغبتها او عدم رغبتها بالزواج من فلان او علان، واصبح الاختلاط بين الشباب والشابات اكثر سفورا، وبنية اكثر سوءا من ذي قبل، فقد كانت الناس تختلط مع بعضها الا ان حسن النية، والطيبة، والخجل من عمل المنكر، كل هذه ضوابط تجعل الناس يتصرفون بادب جم، ولا شك انه الان لا يتوفر بهذه الدرجة، فقد غزت سلبيات الاستقرار ايجابيات التنقل، وحاصرتها، وكادت او تكاد تقضي

عليها، خلال العشرين عاما التي عشتها بنفسي بين هاتين النقلتين من الخمسينات الى السبعينات.

انه تطور العادة، وابتعادها عن المبادىء والاصول ليس نحو الاحسن، وانما نحو الاسوأ وبوضوح كبير، وانحراف مرير...

ومن الاداب في تصرفات الخاطبين عند البدو ان الخاطب لا يلحق بخطيبته حيث يمكن ان تدور الشبهات، انطلاقا من المبدأ الاسلامي (اياكم ومواطن الشبهات). ولكن يستطيع ان يلاقيها وهي واردة على الماء، او ذاهبة في رعاية الغنم، او لجلب الحطب، واذا كانت البدوية تجاوب بحرية على اسئلة الاخرين، الا انها تخجل من خطيبها، خوفا على سمعتها وسمعته، من ان يقول الناس انها (وقحة) وجائعة او عطشانه للرجال، فالكلام مع الاخرين كلام عابر، اما مع خطيبها، فله معناه ومغزاه، وشتان ما بينهما. ثم ان الرجل حريص على فتاته، ويغار عليها حتى من امها وابيها، ومن نفسه ايضا، واذا كان مقصود الشاب عند لقائه بفتاة ان ينال منها شيئا ولو غمزة، فانه يكتفي من خطيبته بالنظر اليها، وحيائها منها، واذكر ان فتاة بدوية كانت واردة على العين لجلب الماء، والتقى بها خطيبها ونظر الجميع اليهما، ماذا سيقولان او يتصرفان، وطرح السلام، الا ان وجهها قد امتقع لونه وكأنه امامي الان، وساقت دابتها قاصدة الماء ولم تنبس ببنت شفة.

كما ان البدوية تترجل عن ظهر الدابة اذا التقت بخطيبها لأن ذلك ضرب من الاداب، فهي تترجل اذا التقت باي رجل بلغ الحلم (اذا لم تكن هي قد بلغت من الكبر عتيا او انها مريضة وحينها تعتذر او يعتذر من معها)، فكيف لا تفعل امام خطيبها؟ حت على الاقل لا يأخذ عنها فكرة انها وقحة ولا تخجل... واذا كانت بنت المدينة ترس لخطيبها او حبيبها الرسائل تعبر عن حبها وعواطفها، فان البدوية تكتفي بالصمت، وم اصعب الحب الصامت، وما اوقعه على النفس لأنه غليان بلا تنفيس، مما يزد الشوق للخطيب، لذا فان حب البدوية اكثر شدة من حب الفتاة في المدينة... وفي البادية ظهرت اقوى قصص الحب في التاريخ العربي (مجنون ليلى وجميل بثينة، وكثير عزة ومن ع شاكلتهم) وهناك اناس قتلهم الحب، الا ان عدم وجود شعر ولعدم تناقل الناس لقصصهم جعلهم نسيا منسيا، فالتاريخ الذي بين ايدينا هو ما تناقله الناس بواسطة الكتب او الآثار...الخ ولا شك ان هناك تاريخا اعظم لم يصل ولن يصل الينا، بالاضافة الى تاريخ بين ظهرانينا لم تصل اليه الاقلام للاسف.

وقبل ان ننهي الحديث عن الخُطبة نرى من المناسب ذكر بعض النوادر من البادية العربية القديمة، مع املنا الا نكون قد اطلنا الحديث: فقد ذكر الابشيهي في المستطرف في كل فن مستظرف ص ١٨٥ من الجزء الثاني ما يلي: روى عن عثمان الضحاك، قال: خرجت اريد الحج، فنزلت بخيمة بالابواء، فاذا بجارية جالسة على باب الخيمة، فأعجبني حسنها، فتمثلت بقول نصيب:

بزينب المم قبل أن يرحل الركب وقل لا تملينا فما ملك القلب

فقالت: يا هذا اتعرف قائل هذا البيت؟! قلت: بلى، هو نصيب، فقال: اتعرف زينبه، قلت:

لا قالت: انا زينبه، قلت: حياك الله وحباك، قالت: اما والله ان اليوم موعده، وعدني العام الاول بالاجتماع في هذا اليوم فلعلك ان لا تبرح حتى تراه، قال: فبينما هي تكلمني، اذا انا براكب، قالت: ترى ذلك الراكب؟! قلت: نعم، قالت: الي لاحسبه اياه، فأقبل فاذا هو نصيب، فنزل قريبا من الخيمة، ثم اقبل، فسلم ثم جلس قريبا منها، فسألته ان ينشدها، فانشدها، فقلت في نفسي: محبان قد طال التنائي بينهما، فلا بد ان يكون لاحدهما الى صاحبه حاجة، فقمت الى بعيري، لاشد عليه، فقال: على رسلك اني معك، فجلست حتى نهض معي فسرنا، وتسامرنا، فقال لي: اقلت في نفسك محبان التقيا بعد طول تناء فلا بد ان يكون لاحدهما الى صاحبه حاجة، قلت: نعم، قد كان ذلك، قال ورب هذا البيت منذ احببتها، ما جلست منها مجلسا هو اقرب من مجلسي هذا فتعجبت لذلك وقلت: والله هذه هي الصفة في المحبة.

ومن هذه النادرة نتبين كم هي دقة البدوي في تحديد المواعيد فقد ضرب معها موعدا في يوم معين بعد عامين، بدون ان تكون لديه مفكرة، او مذكرة، او ساعة، ويأتي وكأنه ضرب هذا الموعد في الصباح، او عشية البارحة، ويغيب عن معشوقته عامين!! انه زمن طويل وليس عجيبا، ان يصبح كلاهما شاحبا هزيلا، من وجد الحب، والنوى والفراق، ثم هو لا ينشد حتى تطلب اليه. وهذا منتهى الادب من الرجل، وقيمة رأي الانثى من طرف اخر، تريد ان تسمع رأيه، وكلماته كما هي طبيعة الانثى في كل زمان ومكان في تفضيل كلمات الاطراء، ولكنها خالية من الافتعال، والتمثيل، ثم انه لا يصافحها، بل يجلس بمكان يراها وويسمعها، وتراه وتسمعه، حيث لا مجال الا للعين والاذن، وبالتالي فلا داعي للالتصاق، والمناجاة التي لا تساوي الا تنفيذا لما يرى في التمثيل على الشاشة!! انه يجلس قبالتها وكفى، بعد شوق وانتظار طال ودام عامين كاملين!! ثم انه يغادر بعد لحظات ليزداد قلبه لوعة، ولا تقل المحبوبة تجاهه عنه، ثم هذه الفراسة البدوية وهذا الذكاء الفطري، وفهم لغة الصمت، فبمجرد ان يهم الرجل بالاستئذان، يستدرك (نصيب) ما يريد (عثمان)، ويطمئنه انه لن يكون اكثر من هذا، ثم يفهمه انه فكر في نفسه كذا وكذا، ليفند له عدم صحة ذلك اطلاقا!! وانني حائر في ان اعجب من ذوق عثمان الذي رغب ان يفسح المجال للعاشقين ام من نصيب الذي فهم عليه وذهب معه؟!

ولا شك ان هذه الصورة الشريفة العفيفة، وهذا الذكاء والصفاء كان عند البدو حتى بداية الخمسينات في الاردن، الا انه بدأ يتطور ويتحور نحو الاسوأ، ولقد كان البدوي يحب الفتاة، ويبحث عنها طويلا لكي يراها، او يسمع منها كلمة، او يكتفي بنظرة فقط، اما اليوم فان الامور تختلف، ونفوس الناس تبدلت، وغزت مفاسد التطور المادي كل شيء حتى الحيوانات، والبشر.. ولقد عانى السلف الصالح في القرون الوسطى من هذا التحول الاجتماعي الذي هو حصيلة طبيعية لترك الناس مبادئهم الاسلامية، وتراثهم الاصيل، وبالعودة اليه تعود القيم، والمثل، ولنضرب لذلك مثلا من كتاب الابشيهي، بنفس الصفحة السابقة حيث يقول: (وعن محمد بن يحيى المدني قال: سمعت بعض المدنيين

يقول: كان الرجل اذا احب الفتاة يطوف حول دارها حولا يفرح ان يرى من يراها، فان ظفر منها بمجلس تشاكيا، وتناشدا الاشعار) ويضيف الابشيهي (واليوم هو يشير اليها وتشير اليه، ويعده، وتعده، فان التقيا لم يتشاكيا حبا، ولم يتناشدا شعرا، بل يقوم اليها، ويجلس بين شعبتيها، كأنه اشهد على نكاحها ابا هريرة).

وقال الاصمعي: قلت لاعرابيةما تعدون العشق فيكم؟! قالت الضمة والغمزة والقبلة! ثم انشأت تقول:

ما الحب الا قبلة = وغمز كف وعضد ما الحب الا هكذا = ان نكح الحب فسد

ثم قال: كيف تعدون انتم العشق؟! قلت: (نمسك بقرنيها، وتفرق بين رجليها، قالت: لست بعاشق، انت طالب ولد) ولا اعتقد ان هناك فارقاً بين هاتين الصورتين فالاعرابية في البادية تعشق بعفة (لمسة يد ومصة خد)، ولكن في المدينة (نسمك بقرنيها، ونفرق بين رجليها) وهنا نجيز لانفسنا ان نفرق بين الاشتهاء، وبين الحب، فقد يشتهي الرجل نساءا كثيرات، ويمارس معهن الجنس، وكذلك الانثى مع الرجال: ولكن هذا الرجل لا يحب الا انثى واحدة، يعطيها قلبه وروحه لا بصفة او صورة عارضة، وانما بشكل استسلامي طويل المدى اذا لم يكن ابدي مدى حياته.

والحب شيء سام تماماً كما رأينا ما كان بين زينب ونصيب، اما الشهوة فهي: (نمسك بقرنيها ونفرق بين رجليها)، وكذلك يجب ان نلفت النظر ان بعض البدو يرون في (لمسة اليد، ومصة الخد) شيء لا يعاقب عليه بالموت، ويقولون (لمسة اليد ومصة الخد ما تهفي رجل) اي لا تجيز قتله، ونرى في هذا اصل لدى البادية العربية قول هذه الاعرابية (العشق هو الضمة والغمزة والقبلة) ففي القبلة (مص)، وفي الضم (لمس) انه المعنى ذاته بالفاظ اخرى وحول ذلك نجد هذه الحكاية ايضا في نفس الكتاب والصفحة.

قيل لرجل وقد زفت عشيقته على ابن عم لها: ايسرك ان تظفر بها الليلة؟ قال: نعم والذي امتعني بحبها، واشقاني بطلبها، قيل: فما كنت صانعا بها؟ (اي كيف صنعت بها اثناء عشقك لها، ولقائك بها باستمرار)، قال: (كنت اطيع الحب في لثمها، واعصي الشيطان في اثمها) ولا افسد عشق عشرين سنة بما يبقى ذميم عاره، وينشر قبيح اخباره، اني اذن للئيم لم يلدني كريم اه). وبذلك نرى انه كان يقبلها، ويلمسها لكنه لم يزن بها (اثمها). فهو يخاف العار والنار، وقبيح الاخبار، وان يقال عنه لئيم ابن لئيم او يشعر هو بنفسه ذلك، انها الكرامة البدوية الاسلامية. وفي البادية أيضا نجد البدوي يخاف العار حتى أكثر من النار فيقولون:

والله ما خوفي حرهــا واللواهيب ولا سيـف أبوهـا شنيـع الضرايب
أخـاف من مقعــد بــين الأجانيب يقـول ابـن عيـاش خان الطنايب

انه لا يخاف والدها ولا نار جهنم، وانما العار وكلام الناس، انه يخاف ان يقال عنه: لقد خان الطنيب، الجار الذي ائتمنه.

ويرى بعض البدو ان عقاب (لمسة اليد ومصة الخد) الموت الزؤام وانها (تهفي الرجل) اي يستحق عليها الموت، لان جريمة العرض في رأيهم لا تتجزأ.

فالمبدأ هو اعتبارها ذنبا لا يستحق الموت وفي العادة يرى البعض استحقاق الموت للمتوفى.

وحول اخذرأي الفتاة في الزواج نجد في نفس الجزء من الكتاب المذكور ص ٢٥٣ هذه الحكاية التي تصلح لأن تكون دستورا لتعامل بنات مجتمعنا مع ازواجهن والاهتمام بما يخلق منه رجلا يفرض وجوده واحترامه على الجميع ويصبح اداة فعالة، بناءة، ولبنة صالحة ذات قيمة عظيمة لا ينفع نفسه فحسب، بل وينفع الاخرين نفعا عظيما وهذه الحكاية: (حكى عن الحرث بن عوف بن ابي حارثة، انه قال لخارجة بن سنان: اترى اني اخطب احدا فيردني؟ قال: نعم، قال: ومن هو؟، قال: اوس ابن حارثة بن لام الطائي، قال: اركب بنا اليه، فركبنا اليه حتى اتينا اوس بن حارثة في بلاد، فوجدناه في فناء منزله، فلما رأى الحرث بن عوف، قال: مرحبا بك يا حارث، ثم قال: ما جاء بك؟ قال: جئت خاطبا، قال: لست هناك، فانصرف ولم يكلمه، فدخل اوس على امرأته مغضبا، فقالت له: من الرجل الذي سلم عليك فلم تطل معه الوقوف، ولم تكلمه؟، فقال: ذلك سيد العرب الحرث بن عوف، قالت: فمالك لا تستنزله؟ قال: انه استهجنني، قالت: وكيف؟ قال: لأنه جاءني خاطبا، قالت: الست تزعم انه سيد العرب؟ قال: نعم، قالت: اذا لم تزوج سيد العرب في زمانه فمن تزوج؟ قال: قد كان ذلك، قالت: فتدارك ما كان منك قال: فماذا؟ قالت: بان تلحقه فترده، قال: وكيف وقد فرط مني اليه ما فرط؟ قالت، تقول له انك لقيتني وانا مغضب لامر، فلك معذرة فيما فرط مني، فارجع ولك عندي كل ما طلبت، قال: فركب في اثرهما قال خارجة بن سنان: فوالله انا لنسير اذ حانت مني التفاتة فرأيته فقلت: للحرث وهو ما يكلمني، هذا اوس في اثرنا، فقال: ما اصنع به، فلما رآنا لا نقف، قال: يا حارث اربع (انظر) علي، فوقفنا له، وكلمه بذلك الكلام، فرجع مسرورا، قال خارجة بن سنان لما دخل منزله قال لزوجته ادعي لي فلانة (اكبر بناته) فأتته فقال لها: اي بنية هذا الحرث بن عوف سيد من سادات العرب، جاءني خاطبا، وقد اردت ان ازوجك منه فما تقولين؟! قالت: لا تفعل، قال: ولم، قالت: لأن في خلقي رداءة، وفي لساني حدة، ولست بابنة عمه فيراعي رحمي، ولا هو بجارلك في البلد فيستحي منك، ولا آمن ان يرى مني ما يكره فيطلقني، فيكون علي بذلك مسبة، قال لها: قومي بارك الله فيك ثم دعا بنته الاخرى، فقال: لها مثل قولها لاختها: فاجابته مثل جوابها فقال لها: قومي بارك الله فيك، ثم دعا بالثالثة، وكانت اصغرهن سنا، فقال لها مثل ما قال لاختيها، فقالت له: انت وذاك، فقال لها: اني عرضت ذلك على اختيك فأبتاه ولم يذكر لها مقالتهما، فقالت له: والله اني الجميلة وجها، الرفيعة خلقا، الحسنة رأيا فان طلقني فلا اخلف الله عليه، فقال لها: بارك الله فيك، ثم خرج اليه، فقال زوجتك يا حارث بابنتي (هنية) قال: قد قبلت نكاحها، وامر امها ان تهيئها له، وتصلح شأنها، ثم امر ببيت فضرب له، وانزله اياه، ثم بعثها اليه، فلما دخلت عليه لبث هنيهة، ثم خرج الي فقلت له: افرغت من شأنك؟ قال: لا والله، قلت: وكيف ذلك؟ قال: لما مددت يدي اليها قالت: مه، عند ابي واخوتي؟ هذا والله لا يكون، ثم امر بالرحلة فارتحلنا بها معنا، وسرنا ما شاء الله، ثم قال لي: تقدم فتقدمت فعدل عن الطريق، فما لبث

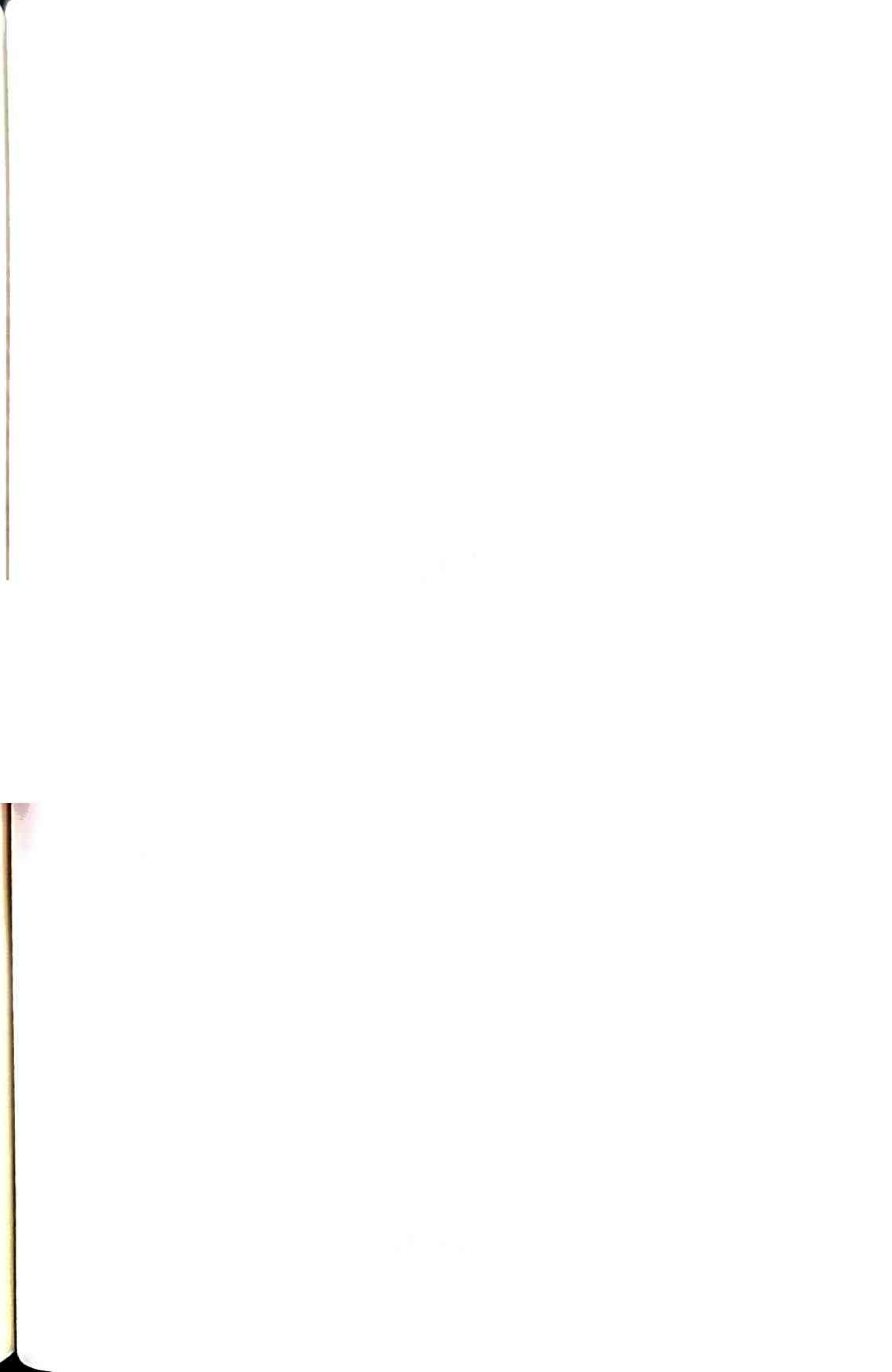
ان لحقني، فقلت: افرغت من شأنك قال: لا والله، قلت: ولم؟ قال: قالت: تفعل بي كما يفعل بالامة السبية، الاخيذة، لا والله حتى تنحر الجزر والغنم، وتدعو العرب، وتعمل ما يعمل مثلك لمثلي، فقلت: والله اني لارى همة وعقلا، فقال: صدقت، قال: وارجو الله ان تكون المرأة النجيبة، فوردنا الى بلادنا، فاحضر الابل والغنم ونحر، واولم، ثم دخل عليها وخرج الي فقلت: افرغت من شأنك؟! قال: لا والله، قلت: ولم ذاك، قال: دخلت عليها، اريدها فقلت لها: قد احضرت من المال ما تريدين، قالت: والله لقد ذكرت من الشرف ما ليس فيك، قلت: ولم ذاك؟ قالت: اتستفرغ لنكاح النساء، والعرب يقتل بعضنا بعضاً (وكان ذلك في ايام حرب قيس وذبيان) قلت: فماذا تقولين؟ قالت: قالت: اخرج الى القوم فاصلح بينهم ثم ارجع الى اهلك، فلن يفوتك ما تري(فقلت: والله اني لارى عقلا ورأيا سديدا، قال: فاخرج بنا، فخرجنا حتى اتينا القوم فمشينا بينهم بالصلح، فاصطلحوا على ان يحسبوا القتلى، ثم تؤخذ الدية، فحملنا عنهم الديات، فكانت ثلاثة الاف بعير، فانصرفنا باجمل ذكر، ثم دخل عليها فقالت؛ اما الان فنعم، فأقامت عنده في الذ عيش، واطيبه وولدت له بنين وبنات وكان من امرهما ما كان). "هـ"

ففي الحكاية نجد العديد من النقاط التي هي بحد ذاتها عادات عند العرب، كانت واستمرت عند البدو واخذت تتغير وتتطور حسب مقتضيات العصر.

فالرجل اخذ رأي زوجته في تزويج بناته من حيث المبدأ من شخص معين، وهو يأخذ برأيها المصيب ثم انه يشاور بناته، وتضع الاولى والثانية مبررات هي التي تضعها كل بدوية عند خطبتها من رجل غريب فابن العم يصبر على رداءة خلق ابنة عمه لأنه زوج ورحم، واي عار عليها هو عار عليه، كما ان الجار، او القريب المنزل ولو كان بعيد النسب فانه يستحي بحكم الجوار، اما البعيد فليس يربطه بها جوار، ولا رحم، وبالتالي لا يصبر ولا يسكت على اخطائها، ومن ثم قد يطلقها، وهذا يسيء للفتاة ويحطم حياتها، ومستقبلها ثم نجد الخاطب يتزوج في حي والد العروس، ووالدها هو الذي يجهزها له، ويجهز بيتا خاصا (برزة) لهما. ثم نخلص الى ذكاء هذه البدوية، وهي مصممة على تجاوز المخاوف التي ساورت اختيها، فهي تدفع بزوجها نحو الاحسن وتزيده اثارة، فما نفذ شروطها حتى زاد سيادة، وتضج من شدة الشوق والتشوق، فوصل اليها مستسلما، وزوجا طائعا معجبا.

الفصل السّادس

الزواج



الفصل السادس

الزواج

"الزوجية سنة من سنن الله في الخلق والتكوين، وهي عامة مطردة، لا يشذ عنها عالم الانسان، او عالم الحيوان، او عالم النبات.

قال تعالى **"ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون"**.

وقال سبحانه **"سبحان الذي خلق الازواج كلها، مما تنبت الارض ومن انفسهم، ومما لا يعلمون"** وهي الاسلوب الذي اختاره الله للتوالد والتكاثر، واستمرار الحياة، بعد ان اعد كلا الزوجين وهيأهما، بحيث يقوم كل منهما بدور ايجابي في تحقيق هذه الغاية:

"يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى)

(يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء).

ولم يشأ الله ان يجعل الانسان كغيره من العوالم، فيدع غرائزه تنطلق دون وعي، ويترك اتصال الذكر بالانثى، فوضى لا ضابط له، بل وضع النظام الملائم لسيادته، والذي من شأنه ان يحفظ شرفه، ويصون كرامته، فجعل اتصال الرجل بالمرأة اتصالا كريما مبنيا على رضاهما، وعلى ايجاب وقبول، كمظهرين لهذا الرضا، وعلى اشهاد على ان كلا منهما قد اصبح للاخر، وبهذا وضع للغريزة سبيلها المأمونة، وحمى النسل من الضياع، وصان المرأة عن ان تكون كلأ مباحا لكل راتع.

ووضع نواة الاسرة تحوطها غريزة الامومة، وترعاها عاطفة الابوة فتنبت نباتا حسنا، وتثمر ثمارا يانعة، وهذا النظام هو الذي ارتضاه الله، وابقى عليه الاسلام وهدم كل ما عداه[1].

وقبل ان نتحدث عن الزواج كمناسبة وافراح لا بد ان نتحدث عن المهر، وهو ما يدفعه الخاطب للخطيبة او اهلها او وليها، قبل ان يدخل بها او بعد ذلك، بحيث يكون متفقا عليه حين الخطبة كما قلنا.

والمهر (بفتح الميم وكسر الهاء، وتسكين الراء)، واحيانا بضم الميم عند اهل المدينة يسمى الصداق، ويسمى عند البدو (السياق)، لأنه من ساق الشيء يسوقه حيث المعروف ان المهر عندهم كان من الابل وسائر المواشي، واذا جاء وقت ارسالها لوالد الفتاة، ثم سوقها اليه، فيقال: ساقها، يسوقها

واحيانا يقولون **قادها من قاد يقود،** اما السياق فهي للابل والبقر (اي اذا كان المهر من الابل، واما قاد اذا كانت من الخيل لأن الخيل تقاد بارسانها (مفردها رسن) وتقال ايضا لسائر المواشي كالغنم والماعز لأنها تقاد بالقبض على نواصيها ورقابها.

ويقولون: **صداق:** وهذه الكلمة الاسلامية المأخوذة من الاية الكريمة **(وآتوا**

---

١) سيد سابق، فقه السنة م٢ – دار الكتاب العربي، بيروت ص ٧، ٨.

النساء صدقاتهن نحلة) وربما جاء ذلك من الاخلاص والمحبة، وان هذا الذي يدفعه الخاطب تعبيرا حقيقيا ملموسا عن شعور كامن في الروح، بل انه ترجمة مادية لشعور معنوي، او قل جانب واضح، لصدق الكلمة التي التي نطق فيها بالطلب والخطبة والمحبة... ولا شك انه معنى لذلك ويظهر بوضوح.

ويقال للمهر ايضا (**فيد**) وربما جاءت هذه الكلمة من الفائدة تيمنا وبركة انه بالدفع ستكون الفائدة ويكون الخير، من خلال مبدأ (لكي تربح يجب ان تخسر) فهو وان خسر المال، فقد ربح (راس المال) حيث يسمون الزوجة راس المال، وبالتالي فهو مستفيد، فلا غرو ولا عجب ان يسمى هذا المهر (فيد) اشتقاقا من الفائدة التي يجنيها.

ويقال له ايضا: **الاجر**، وهذه تسمية اسلامية بحته، ولا تستعمل لدى جميع العشائر، وقد جاءت هذه من الاية الكريمة في قوله سبحانه وتعالى **(فما استمتعتم به منهن فأتوهن اجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به بعد العقد)**، ذلك ان الخطبة عمل يستحق الاجرة، وهو هذا المهر.

ويقال له فريضة ايضامن خلال قوله تعالى: **"وان طلقتموهن من قبل ان تمسوهن، وقد فرضتم لهن فريضة، فنصف ما فرضتم الا ان يعفو الذي بيده عقدة النكاح"**، ذلك ان البدو يرون اي اتفاق بين طرفين له ما بعده ان جوهره يكون فريضة، من فرض الشيء عندهم (اذا حدد معالمه بوضوح فيقولون: (فرض الحق بتسكين الراء) اي تبيان الحق، وكل ما يفرضه الحق او القضاة، او عرف الناس يسمونه فريضة، وحيث ان المهر من جملة ما يفرضه الحق والناس واعرافهم، لذا فهو فريضة، بل انهم يعتبرون كل شيء جديد (فريضة) وقد يطلقون ذلك على البدعة ايضا فيقولون (فرض ما هي شرع) وأحيانا يقولون (فرع ما هي شرع) أي بدعة لا تناسب الشرع الاسلامي الحنيف.

ويقال نحلة: وهي كلمة ذات اصل اسلامي في قوله سبحانه **(واتوا النساء صدقاتهن نحلة)** والبدو يقولون عن النحلة بكسر النون: انها العرف العام للناس، وكانه بذلك يعني ان يواكب التطور الاجتماعي الذي يعيشه الانسان لأن العادات والعرف تتطور بالزمان والمكان والبيئة، فقد يتعارفون على المهر الان بمبلغ من المال او الجمال او سائر انواع الحلال، وقد يصبح هذا غير مقبول بعد فترة من الزمن وفي بيئة او قبيلة اخرى. والبدو لا يزالون يطلقون على المهر لفظ (السياق)، وقد درج في العقود المكتوبة من قبل السلطة الشرعية وضع كلمة (المهر)..

ومن خلال الالفاظ السابقة نتبين معاني المهر (السياق) بالاضافة الى كونه عهداً جديداً من الخاطب للخطيبة وبرهاناً على حبه لها واستمراره الاكيد العملي في رغبة الحصول عليها، واقتنائها انه وصل وصلة.

تطور المهر (السياق)

ولا شك انه تطور بتطور الحياة الاجتماعية للانسان، ويمكن لأي منا ان يتخيل بسهولة كيف ان الانسان البدائي الذي لم يعرف المال، والماشية بعد، كان عليه ان يجلب طعاماً من الصيد (طيورا او حيوانات) او من الطعام النباتي الذي يمكن الحصول عليه،

بالجمع والالتقاط، او من الجلود (لعمل الخيمة البسيطة او لصنع الملابس والاحذية "النعال" والمزودة "وهي كيس حمل الطعام وغيره")

وكان قبول هذه الهدايا والعطايا، يعني قبول الوصل، وبالتالي قبول نوعية المهر حيث لا يوجد غيره ولا اهم منه، ولا اكثر ضرورة، كما انه قبول بالشخص ان يكون زوجا للفتاة وبالتالي قبول التقارب والاتحاد، لأن اتحاد اي شيئين لا بد من وجود مادة لاحمة بينهما لزيادة الربط والشد، وهذا في البناء والنسيج، ولا شك انه لدى الانسان ومكون من الشيء المحسوس بالاضافة للامر المعنوي (وهو المحبة).

ولننظر الى ديك الدجاج كيف يقدم الطعام للدجاجة بعد ان ينقره ويضعه في فمه ثم يعيده للارض قرب منقار دجاجته، فاذا كان هذا عند الطير والحيوان، فأولى به ان يكون لدى الانسان.

ثم تطور هذا السياق او المهر **فعندما دجن الانسان الحيوان** واصبح اقتناءه مقترنا بالجاه، والحياة الاجتماعية، فان فقد الرجل لاحد ابنائه، ونقص عدده في الانسان لا بد ويقابله زيادة في الجاه الذي يغطي نقص الانسان، (اي زيادة في عدد المواشي)، واصبحت هذه السلعة مقبولة لدى الانسان الراعي بعد ان كان الطعام بشتى صوره هو المهر **عند الانسان الصياد.**

انه يرى في المهر تقوية لمهنته الجديدة، ولا بد ان كان الزواج من فتاة خارج العشيرة امرا صعبا، لذا كان على المحب الخاطب، ان يدفع الثمن غاليا، وحيث ان الانسان لا ثمن له لأنه اثمن من كل شيء، **لذا** فقد كان الثمن رمزيا، وملموسا، ولكنه كبير بالكمية والعدد. وقد يتحول الى نوع من الشراء بحيث يصبح ثمن العروس بمقدار ما يمكن ان ترعى من الماشية، فيبلغ بذلك عشرات الرؤوس من الماشية بما يعجز احيانا الشخص الواحد، فتضطر العشيرة جميعها المشاركة في ذلك.

ولدى الانسان البحري كان المهر بعضا من صيد السمك، وربما الماء العذب عندما يشح وجود هذا الماء للشرب، اما في الاماكن التي يوجد في مائها اللؤلؤ والمرجان الثمين، حيث تصنع منه العقود للحلي والزينة، بالاضافة الى انه يقوم مقام المال، في المقايضة والشراء، فانه بالتالي ربما اصبح وسيلة معقولة ان يتم اعتباره مادة مقبولة للمهر بكل احترام.

ولدى الانسان **الذي احترف التجارة**، ويعمل بالنقل والمقايضة، ربما اصبح المهر شيئا من هذه المادة، ومع اهمية الفتاة او الخاطب تكون اهمية مادة المهر وكميتها، وربما اصبحت وسيلة حمل التجارة، كالابل والخيول والبغال تقوم مقام المادة التجارية.

واما لدى الانسان الذي لم يكن يملك شيئالشراء فتاة او لنقل بعبارة (اكثر لطفا) دفع المهر اللازم المطلوب، ربما اضطر الى امرين احدهما ان يبادل فتاة باخرى، فهو يربح ويخسر بحيث تتساوى المعادلة عنده (يخسر فتاة ويربح اخرى) وهو يحل بذلك مشكلتين، بتزويج الذكر والانثى.

وربما وجد البعض انه لا ضرورة لدفع الابنة الى البعيد، او الجلب للابن من البعيد الغريب، فاضطر للامر الثاني وهو تزويج ابنته من ابنه على مبدأ (**من الحاها فت اليها**)،

ومبدأ (منها وبيها بارك الله بيها)، ومبدأ (خيرنا لنا، وشرنا علينا)، فهو بذلك يكسب الخير والشر في بيته دون ان يكون لغيره ضلع في ذلك، او نصيب من ذلك، وهكذا قد يكون الحل في التبادل (اي الفتاة مقابل فتاة) او زواج الشاب من شقيقته.

وعندما تطور الانسان واصبح (زارعا): يعيش في (مجتمع زراعي): اصبح بامكانه دفع شيء من المحصولات الزراعية، او الماشية التي ترعى الحقول، او تحرثها، كمهر للعروس بالاضافة الى ان الارض التي يعرف المزارع اهميتها وقيمتها قد تدخل كوسيلة لدفعها (مهرا) للفتاة التي ينوي الدافع الزواج بها.. فالارض هي التي يعيش منها الانسان وعليها يعيش، ويعتبرها امه ومرجعه ومآله، ومن ثم فان دفعها كمهر هو تجسيد لكل هذه المعاني والافكار من شعور الرجل تجاه الخطيبة، فهي ارضه التي سيزرع فيها زرعه، وتنجب الاولاد الذين يمثلون النبات ثم هو سيجني الثمر بوجود نسله من حوله فهم قرة عين له، ومتاع الحياة الدنيا وزينتها. وكما ان الارض الطيبة تنبت نباتا طيبا، فان الفتاة الطيبة ذات الاصل الطيب، والتربية الحسنة تأتي بنسل طيب ايضا، ومن هنا فلا غرو ان تكون اهمية الزوجة كأهمية الارض ليس في الزراعة والانتاج فحسب بل وفي الاهمية والقيمة والاعتبار ايضا.

اما الانسان الصناعي او لنقل (الحرفي) فربما كان السيف او السكين (الخنجر) او بعض الادوات كالقدور، والمغارف، والمشارب (الادوات التي يشرب بها الماء او القهوه او الشراب) ربما كانت مهرا معقولا لهؤلاء، وربما تعليم الصنعة بحد ذاته كان كذلك، عم ان المهر فداء يدفعه الشخص من اجل الحصول على شيء، ولكن عندما لا يتوفر، يكون هناك البديل الذي لا شك ان الغالبية يقتنعون به.

وعندما اخذ الانسان يستغل ويستخرج المعادن واصبحت مادة للمقايض والبيع والشراء، وموضع رغبته واحترامه، فانها قد دخلت ايضا ساحة الزواج، والمرأة للحلي، والمهور، واختلفت الكمية من عصر الى عصر، ومن شخص الى شخص، وحسب مدى توفر هذه المادة لدى الاخرين، او في الاسواق، او من مصدرها الاصلي، والواضح انهم فضلوا الذهب ثم الفضة ثم النحاس على غيرها، ثم يأتي الحديد وما الى ذلك من المعادن.

وفي المجتمع البدوي الذي يجمع بين هذه المجتمعات جميعا تقريبا، بحيث ان له نزرأ يسيرا، من كل منها، فالبدو يعرفون الزراعة في الواحة، والرعاية مع الجمل وبقية المواشي، والصناعة بوجود طبقة (الصناع) الخاصة بذلك، والتجارة حيث عملوا على نقلها عبر الصحراء على جمالهم في قوافل من منطقة الى اخرى.. الخ، لذا فقد جاء المهر عندهم عاما شاملا، غير متقيد بشيء معين، وانما حسب المتيسر والممكن، وحسب نوعية ونفسية اهل الخاطب واهل الخطيبة، وحسب موضع العقد والاتفاق.. ونستطيع ان نجمل المهر عند البدو **ضمن الخطوط التالية:**

● **ما جاء بعد جهد وغالبا ما يكون جهدا جسديا وعقليا،** فقد تحدث معركة بين قبيلتين فتتغلب احداهما على الاخرى، وتأخذ الآسرة كل ما لدى المأسورة (الحلة

والمحلة) من مال وحلال، ونساء ورجال، وتصبح النساء سبايا، توزع على المحاربين مجانا، وكان هذا يحدث في بدو الجاهلية قبل الاسلام، ونجد بعضهم اعتاد وأد البنات خوفا من السبي، اما في الاسلام فان سبي الكفار اصبح مباحا، وامكن اتخاذ ملك اليمين من اناثهم، كما وجدت هذه العادة عند امم اخرى قديمة وحديثة. وبذلك نرى ان الرجل لا يدفع مهرا لهذه الانثى، فقط يكفيه اشتراكه في الحرب ليحصل على نصيبه، وعندما يكون العدد اكثر من رغبته او طاعته، يبيع قسما من السبايا لغيره، ليتخذها ذاك ملكا لليمين لديه، ومع هذا نجد ان مهر مثل هاته النساء اصعب واكبر من تلك التي يدفع مهرها من المال او الماشية او المزروعات، لأن الاولى تأتي (بالهم والدم) (وتعب اليمين وعرق الجبين) (وربما يخسر الانسان روحه حتى يحصل على ما يحصل عليه) وبذلك فان مهرها غال جدا، ولكنه جهد فقط، وليس مالا للمشتركين مباشرة، وان كان المال او غيره من الاشياء المنظورة هو المهر الذي يدفعه من لم يكلف نفسه عناء بذل الجهد.

ما جاء بمثل نظيره من الانسان، وهو المسمى زواج البدل عند البدو، حيث يدفع المتزوج بفتاة تكون اخته او ابنته او احدى قريباته كمهر للفتاة التي ينوي الزواج منها، ويحصل اهل كل فتاة على فتاة مقابل ابنتهم وكفى، وهذا يجسد مبدأ مهما عند البدو وهو (النسوان واحد) رغم ان لديهم مبدأ اخر وهو (ما كل النسوان واحد) (وما كل الرجال واحد)، ولكن مبدأ التساوي بين الطرفين هو تفسير لرغبة الطرفين في التساوي، فالذي يعطي ابنته لا يرضى لنفسه ان تكون هي اقل من اية فتاة اخرى بكل شيء من الكفاءة، كما انه لا يرضى لنفسه ان يحصل على فتاة لاحد ابنائه او لنفسه تقل عن فتاته هو، ويرتاح عندما يجد التساوي، وهو بحد ذاته في رأيهم رفع من مستوى البنات، ان فلانة تساوي فلانة، فينظر الناس الى المكامن الايجابية ليقنعوا انفسهم بتساوي هذه الافضلية التي تخرس الالسنة، فالانسان بطبعه يحبذ الزواج ممن لا يقله افضلية وقيمة، ويحبذ تزويج ممن لا يقل عنه افضلية وقيمة، حتى ان البعض يحاول اقناع الاخرين ان نسيبه او صهره افضل منه، فاذا عرف الناس اهمية هذا، وان ذاك افضل منه، نظروا اليه بالعين الجليلة، وبالتالي نظروا الى الطرفين بكل اكبار واجلال، ان زواج البدل ايضا، انما هو يمثل المهر بالمقايضة ايضا، فكما كانوا يشترون السلع بسلع اخرى، كل يدفع ما عنده ليحصل على ما ليس عنده ممن يحل له وطؤها والزواج منها.

كما انه يمثل مبدأ من مبادىء التعويض، حيث يرغب الانسان بالحصول على ما يساوي ما فقده، فهو يقتل القاتل تعويضا مساويا للمقتول، ويدفع ثمن البضاعة نقودا، او بضاعة تعويضا يساوي قيمة ما ابتاع، وكذلك يدفع انثى مكان انثى.

● **ما جاء لقاء كلمة:** فالبدوي قد ينطق بكلمة قائلا: (زوجتك يا فلان)، او (ابشر تراها جتك "جاءتك" هدية عطية ما من وراها جزية)، دون أن يطلب لذلك مهرا سوى هذه الكلمة، كلمة الشرف، (كلمة النطق)، انها اعظم وابلغ من المال، وكثير من يرفض اخذ اي مهر اذا (نطق)، واذا جاء مثل هذا المهر يكون للفتاة نفسها، تتصرف به كيفما تشاء. وبذلك نجد ان الدول العصرية التي يتزوج فيها الشاب والفتاة بدون عناء المهر، لا تنفرد

بهذه العادة، ولكن الفارق ان زواج البدو يأتي بواسطة الالتزام الادبي والقبلي بين طرفين جماعيين، وبذلك يمتاز بالقوة والانضباط، والاهمية، بينما ذلك العصري يكون فرديا بين الشاب والفتاة بحيث لا يكون هناك التزام اجتماعي، او جماعي يجعلهما يحترمان مثل هذه العلاقة، او يستمران فيها، وبالتالي فالزواج البدوي اكثر متانة وقوة وانضباطا، والعصري المذكور اكثر هلهلة وفردية.

●**ما جاء لقاء دم:** قد تكون هذه الكلمة قاسية وصعبة ومستهجنة، ولكننا نجد عند البدو نوعا من المهر هو: (الدم)، وذلك عندما يقتل شخص اخر، وتجري مراسيم الصلح، فان من بين (الدية) عند بعض العشائر ان يدفع اهل القاتل بفتاة او اثنتين او ثلاثة حسب الاتفاق بحيث لا تزيد عن ثلاثة، لتكون من ضمن شروط المهر، ويتزوجها شقيق او ابن او والد القاتل او اقرب الناس اليه حتى تأتي بولد يكون عوضا (بفتح العين) عن المقتول، ثم يعيدها الى اهلها ان شاء، او يبقيها بموجب مهر وزواج جديدين، وتسمى (غرة مدى) وهي أشبه ما تكون بالسبية، وليس لها احترامها كزوجة، لأنها ابنة الاعداء، وزواجها يعبر عن رغبة اهل الدم في تحقير القاتلين، ذلك ان العرض هو اصعب ما على البدوي اهانته واحتقاره مقترنا بالكرامة، بقي ان نقول: ان زواجها الاول يكون بعد قراءة الفاتحة (بسنة الله وسنة رسوله) ولكنه زواج لا يشترط القبول من طرف الفتاة.

قد يكون مالا او حلالا: والمال كما قلنا يختلف في نوعه وكمه حسب الازمنة والامكنة والناس، والعرف السائد، واما الحلال (الماشية)فتختلف عددا، حسب نو الماشية كما سيأتي باذن الله.

وقد يكون على شكل شرط من الشروط، كأن يطلب الى العريس ان يأتي برأس فلان عدو القبيلة او اهل الفتاة التقليدي، او من اغتصبهم شيئا، او اعتدى عليهم، وربما يكون هذا الشيء قتل حيوان مفترس كالاسد، او الحية، كما نجد في قصة ذلك الشاعر العربي الجاهلي الذي قال:

أفاطم لو شهدت ببطن خبت — وقد لاقى الهزبر اخاك عمرا
اذن لرأيت ليثا رام ليثا — هزبرا اغلبا لاقى هزبرا

وهكذا فالمهر يكون في عدة اشكال واطارات، ولا يكون محددا بامر بعينه، ونحن نجد في الدول العصرية انه لا يزيد عن كلمة اتفاق بين الشاب والفتاة، وربما يتخذ بعضهم بعضا اخدانا وربما يذهبون الى مكتب الزواج المدني او الديني، وربما لا يذهبون.

وقد يكون المهر القيام بخدمة معينة، كان يقوم الخاطب، باداء خدمات كالرعاية او الزراعة او الخدمات الاخرى لوقت محدد قد يستغرق سنين عددا، او فصولا معينة، وبعد ان ينهي ذلك يحصل مقابلة على شريكة حياته من احدى بنات او موكلات من عمل لديهم. ونجد ذلك منذ القدم حيث عمل سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام راعيا لدى سيدنا شعيب عليه السلام لمدة ثماني سنين أو عشرة مقابل زواجه باحدى بناته، وفي المجتمعات البدوي صور مثل هذه الصورة ايضا، رغم تباين الزمان والمكان.

قيمة المهـــر:

ونجد ان قيمة المهر تختلف حسب الازمنة والامكنة والمجتمعات، وتطورها ونوعية حرفتها، وامكاناتها، وقدراتها، فالمهر هو ثمن ما يحصل عليه الشخص (اي الخاطب)، اذا صح هذا التعبير، ونظرة الى التاريخ والاحداث نجد انه ينخرط تحت اكثر من قاعدة وطريقة فهناك **القيمة المعنوية**، وهناك **القيمة المادية**، **وهناك الزمن** الذي يمكن اعتباره ترجمة للقيمتين او لاحدهما وخاصة المادية، ولكن لا بد من ملازمة القيمة المعنوية للمادية لأنها بمثابة الروح مع الجسد، وما هي الا تلك الكلمات المتعلقة بالطقوس الدينية، والامور الغيبية، او بالوجاهة، والاعتبارات الاجتماعية الاخرى.

ونحن نجد ان سيدنا شعيب قد زوج احدى ابنتيه الى سيدنا موسى مقابل ان رعى الثاني عند الاول ثماني حجج او عشرا، فكانت هي المهر الذي دفعه، لقاء زواجه بابنة شعيب عليه السلام.

اما القيمة المادية، فهي لا تقل عن خاتم من حديد أو شيء من القرآن في ادناها، وتصل في اعلاها الى غير حد معين وتختلف باختلاف الازمنة والامكنة والناس، واذا تباهى البعض بتقليل المهر فان البعض الاخر يتباهى بارتفاعه وازدياده، حتى انه جرت محاولات لتحديده منذ زمن سيدنا عمر بن الخطاب الذي اعلن عن رغبته هذه وهو امير للمؤمنين، الا ان امرأة تصدت له، وابدت رأيها معتمدة على القرآن الكريم، فعاد عن قراره، وقال (اللهم عفوا كل الناس أفقه من عمر).

واذكر ان هناك تحديدا عاما عند البدو لما يمكن ان يكون عليه الحد الادنى للمهر، ضمن اطارين الاول لابناء القبيلة او العشيرة الواحدة، ويكون المهر قليلا، بينما هو يزداد الى حد الضعف او اقل وربما اكثر من الضعف للخاطب من خارج القبيلة، وهو الاطار الثاني.

والمهر قد يكون شيئا معلوما من المال او الماشية او الارض او ....الخ الا ان بعض القبائل تشترط شراء حلي وزينة من الذهب او الفضة للعروس وهاته بالاضافة لكونها راسمالا لها، فهي زينة، ولا تكون الا للعروس، ولا دخل لاحد غيرها بهذه اطلاقا، وفي حالة الفسخ تعاد للخاطب اذا استوجب الفسخ الاعادة لأنها من المهر واذكر مثلا ان المهر في الخمسينات والستينات كان مائتين وخمسين دينارا اردنيا (وخمس قطع من الذهب)، اما المبلغ فهو لولي الامر، واما الذهب فهو للفتاة. ذلك انها قد تحتاجه بعد الزواج لاعانة زوجها على الحياة، فتبيعها لتيسير صعوبة الحياة.

وقد وضع الاسلام مبدءا للمهر وهو ما نجده في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي روته عائشة رضى الله عنها حيث قال عليه السلام "ان اعظم النكاح بركة ايسره مؤونة وقوله عليه السلام **(يمن المرأة خفة مهرها، ويسر نكاحها، وحسن خلقها، وشؤمها، غلاء مهرها – وعسر نكاحها، وسوء خلقها).**

ولا شك ان هذا المبدأ هو اكثر المبادىء عملية، ومرونة في قيمة المهر، حتى ان احدث المجتمعات تنفذ ذلك، وقد سبقها اليه الاسلام، ومع هذا نجد ان العادات

الاجتماعية قد اخذت حيزها، ولم تتقيد بالشريعة ذلك ان ما امرت به هو شيء للتحبب، لكنه غير ملزم، وهذا زيادة في ادب الاسلام بالفعل، تاركا للانسان نفسه وضع التفصيلات حسب المقتضيات، ونجد ان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد حاول تحديد المهر كما قلنا (فقد نهى وهو على المنبر ان يزاد في الصداق على اربعمائة درهم، ثم نزل، فاعترضته امرأة من قريش، فقالت: اما سمعت الله يقول: **(وان آتيتم احداهن قنطارا)** فقال: اللهم عفوا، كل الناس افقه من عمر، ثم رجع، فركب المنبر، فقال؛ (اني كنت قد نهيتكم ان تزيدوا في صدقاتهن على اربعمائة درهم، فمن شاء ان يعطي من ماله ما احب) رواه سعيد بن منصور وابو يعلي بسند جيد[1]

والسيرة الاسلامية تعطينا دروسا في الذوق والاداب والاخلاق، في امور المهر، كما هو شأن الشريعة السمحاء في كافة مناحي الحياة، حتى وصل في اقله الى خاتم حديد، والى درهمين، والى نعلين، فقد زوج سيد اهل المدينة من التابعين (سعيد بن مسيب) ابنته على درهمين، ولم ينكر عليه احد، بل عد ذلك من مناقبه وفضائله، وقد تزوج عبدالرحمن بن عوف على صداق خمسة دراهم واقره النبي (صلى الله عليه وسلم).

"وعن عامر بن ربيعة ان امرأة من بني فزارة تزوجت على نعلين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ارضيت عن نفسك ومالك بنعلين؟)، فقال: نعم، فأجازه، رواه احمد وابن ماجة، والترمذي وصححه"[2]

وفي صدر الاسلام كان عدة الحرب او اللباس يشكل المهر في بعض الحالات، وهـ ما نجده فيما رواه ابن عباس: ان النبي صلى الله عليه وسلم منع عليا ان يدخل بفاطمه حتى يعطيها شيئا، فقال ما عندي شيء فقال: فاين درعك الحطمية؟ فاعطاه اياها - رو ابو داود والنسائي والحاكم، وصححه[3].

وفي العصر الاسلامي نذر احد الخلفاء على نفسه ان لا ينشد شعرا، ومتى انشد بيت شعر اعتق رقبه، فبينما هو في الطواف، اذ نظر الى شاب يتحدث مع شابة جميلة الوجه، فقال له، يا هذا: اتق الله، اني مثل هذا المكان؟ فقال: يا امير المؤمنين، والله ما ذاك لخنى ولكنها ابنة عمي، واعز الناس علي، وان اباها منعني من تزوجها، لفقري وفاقتي، وطلب مني مائة ناقة، ومائة اوقية من الذهب، ولم اقدر على ذلك، فطلب الخليفة اباها ودفع اليه ما اشترطه على ابن اخيه، ولم يقم من مقامه حتى عقد له عليها[4]

ولا شك ان لدفع المهر اسبابا سنأتي اليها بعد قليل باذن الله.

والرأي النهائي الذي نراه جديرا بالاهمية كادنى حد للمهر المادي هو رأي سيدنا مالك رضي الله عنه حيث يقول (لا ارى ان تنكح المرأة باقل من ربع دينار، وذلك ادنى ما

---

١) فقه السنة/ المجلد الثاني ص ١٥٨، واما نص الاية الكريمة من سورة النساء اية (٢٠ - ٢١) فهو (وان اردتم استبدال زوج مكان زوج، وآتيم احداهن قنطارا، فلا تاخذوا منه شيئا، اتأخذونه بهتانا واثما مبينا؟ وكيف تاخذونه وقد افضى بعضكم الى بعض واخذن منكم ميثاقا غليظا؟)

٢) المرجع السابق ص ١٥٦.

٣) المرجع السابق ص ١٥٩.

٤) المستطرف في كل فن مستظرف/ج٢ ص ١٨٤.

يجب فيه القطع)[١]

وعند البدو فيما قبل الاربعينات من القرن العشرين كان هناك نمط معين للمهر، اخذ يتغير مع تغير الظروف الاقتصادية والاجتماعية، حيث كانت تسمى الاشياء المدفوعة (ستينية) نسبة الى الرقم (ستون) اذ يدفع الخاطب ستين رأسا من الغنم (ثلث وثلثين) اي عشرين راسا من صغار الغنم، واربعين رأسا من كبارها. بالاضافة الى زوج فدان، وبارودة، واثنى عشر كيلا من القمح، والكيل الواحد يساوي اثنى عشر صاعا، والصاع يساوي رطلين، والرطل ثلاثة كيلو غرامات، هذا بالاضافة الى (عباة العبد) يأخذها (عبد الحمولة) او عباة الراعي في حالة عدم وجود العبد حيث كان لكل حمولة عبد (وكلنا عبيد لله سبحانه) وعباءة للخال، وللأب. ودامر للأم.

ونظرة الى هذا المهر حتي على ما يحتاجه الانسان البدوي الذي عرف الزراعة والاستقرار، وترك حياة التنقل مع الابل، واستبدلها برعي الماعز والاغنام، وهذه قصيرة المنتجعات، وتحتاج لمزيد من المرعى المتوفر، وبالتالي تعيش قرب مصادر المياه، والارض الخصبة، ومن ثم فان الزراعة تصبح امرا ملازما لها، ولو كانت على نطاق ضيق وبسيط، ومن ثم فان الرعاية هي طرف حياة البداوة مع طرف حياة الزراعة، فهذا المهر يجمع بين البداوة وحياة الارتباط بالارض، فهو يأخذ مهرا يعبر عن بداوته، وتقديره للماشية والحلال، والرعاية والبحث عن الماء، والكلأ، واخر يعبر عن حياته الاخرى، التي جاءت متأخرة، لكنها اصبحت جزءا منه، فهو بحاجة الى فدان اي زوج من البقر للحراثة، والى قمح لاستعماله في الميرة والمؤونة، وكذلك ببذره بالارض، واما البارودة فهي تعبير عن حب الانسان البدوي للسلاح، للدفاع ليس عن نفسه واهله وماشيته، بل وعن مزروعاته ايضا، خاصة وان (المرأة والفرس والسلاح - البارودة) هامة لا تعار، لذا فالبارودة مهمة كالمرأة، بل وبها يدافع عن عرضه وشرفه وكيانه. وقد فقدت الحمولة فردا منها، ويجب استعاضته بشيء قوي، والبارودة تضيف قوة جديدة ازاء هذا النقص، لأن وجود الانثى بحد ذاته ايضا يقوي العشيرة حيث انها تشجع المقاتلين وتحمسهم، والبارودة تعبير عن القوة - قوة العريس الذي يدفعها، وزيادة في قوة اخذيها، لأن كل قطعة سلاح، وكل مولود جديد هما قوة للقبيلة بالاضافة الى كونها قوة لصاحبها المباشر. ان المهر الذي يدفعه هذا الانسان البدوي يجمع المتطلبات البسيطة المتواضعة لهذا الانسان، اما ما يكون للأم والعبد والعم والاب فما هي الا هدايا، لاسكاتهم على اخذ فتاتهم لرجل اخر، واذا كان العصريون يتناولون ويحصلون على ذلك بالرشوة، الا انها عند البدو تجري بطرق مشروعة ومتفق عليها.

فالفتاة هي العرض الذي يحتاج الى الستر (والستيرة) والعباءة (ستر وستيرة) ايضا، والزواج بحد ذاته هو ستر للفتاة، يتمناه البدوي لحرمه دائما، (فالموت والزواج ستر للرجل والانثى)، فهذه العباءة تعبير من العريس على انه ستر هذه الفتاة، وهي رمز

---

١) الموطا ص ٣٢٧

لهذه الفلسفة، فالاب هو المعني بالدرجة الاولى وهو المسؤول وامها عن تربيتها، فالعريس يقول لهم: ستر الله عليكم مثلما اعطيتموني فتاة مستورة، وهذا اعتراف مني بهذا الستر بتقديم العباءة، واما العم فهو معني بالامر ولكن بالدرجة الثانية.

واما عباءة العبد، فهو الخادم المطلع على اسرار العائلة، وهذه العباءة اعتراف من العريس له ان الفتاة مستورة، واعتراف من العبد نفسه ان الفتاة كانت من احسن الفتيات، وانها مستورة ومحترمة... ان هذه العباءة تعطي الرمز والفلسفة لكل طرف تجاه الاخر، فالزواج ستر، وستر الفتاة ستر لاهلها (امها واخيها وابيها وعمها، وخادمها) وستر لها، وستر لزوجها (لان الزواج ستر للرجل ايضا)، فالعريس يقول (ان ابنتكم مستورة، ولذا قبلتها، وهذه العباءة تذكرهم بهذا الرمز، وهذه المثل،... بالاضافة الى انها تذكرهم بزواج ستر) فتاتهم فترة طويلة من الوقت ايضا، والعباءة رمز الدعاء من العريس وكأنه يقول: الله يستر عليكم مثلما سترتم علي واعطيتموني مستورة. وعندما يقدم العريس هذه العباءة، فكأنه يقول ايضا، لقد اخذت منكم المستورة (الفتاة)، وهذا دليل الاخذ، اضعه لكم، كما ان قبوله من اهلها يعني انهم قبلوا هذا الستر، واعتزوا به، واصبح في حكم الذكريات التي لا تنسى ما دامت موجودة، واذا كان الستر موضع تفاخر بين الناس لانه دليل العفة والشرف والكرامة، فان العباءة تمثل هذا الستر ايضا..

واما الأثنا عشر كيلا من القمح، فانها واضحة بعدد اشهر السنة، وكأنها بذلك مؤونة للعائلة سنة كاملة.

واما جوز الفدان، فهو وسيلة الحراثة عند البدو الذين مارسوا الاستقرار واستبدلوا الابل بالبقر الذي يلائم حياتهم الجديدة، من توفر (المرعى الطري)، والماء قصر مسافة التنقل والمنتجعات، بالاضافة الى توفر المغارات او الدور القديمة.

والعروس عزيزة، والحلال عزيز على اهله كما هي الحبوب، لذا فالبدوي يدفع العزيز الغالي ليحصل على فتاة عزيزة غالية مقابل ذلك.

واما البدو الذين عرفوا الاستقرار، وتعلقوا بالارض التي اصبحت لا تعني منطقة نفوذ ورعاية فحسب كما هو بالنسبة لاخوتهم في بقية الصحراء، وانما تعني ايضا اشباع غريزة التملك والحيازة لديهم، وهي مصدر رزقهم وعيشهم وهنائهم، حتى (قالوا اللي ما اله وطن ما اله دين، واللي ما اله ارض ما اله وطن)، ذلك ان قطعة الارض الفردية هي جزء من الوطن الذي يعيش فيه الجميع، حتى ان الكثير منهم حافظوا على هذه الارض بعد حروب ودماء، مما زادهم بها حبا وتعلقا، وبالتالي فهو لا يتوانى عن الدفاع عنها، واصبح مفهوم الدفاع عن الوطن ضمن هذا الاطار ليحفظ امن نفسه وقطعة ارضه، واهله وعرضه، وعندما **يدفع هذه الارض مهرا لعروس**، فهذا لا يعني، انه لا يحب هذه الارض، او انه غير متعلق بها، بل العكس، فهو يعني ان حيازة الزوجة هو من الاهمية بما يساوي الارض، وهو رفع من قيمة الفتاة، وزيادة في اهميتها، وربط بين الأرض والعرض. وحتى في حالة استهجان عداوة شخص لآخر بدون مبرر يقول: (ما أخذيت له أرض ولا شطحت "اغتصبت" له عرض).

وعادة اما ان يكون المهر كله او جزء منه من الارض، فمثلا قد يكون (جوز فدان وقمحا، فهذا اذن يعني توفير مصدر رزق كامل لاهل الفتاة (الارض التي يزرعها، والبقر الذي يجر المحراث، والقمح الذي يبذر، فينبت الزرع)

ولا زال البدو يتحدثون كيف ان القطعة الفلانية كانت (سياقا - اي مهرا) لفلانة، الا ان هذه العادة تقلصت لدى الناس، لارتفاع ثمن الارض، وصعوبة الحصول على ارض جديدة، فكل من لديه قطعة لا يألو جهدا بالحفاظ عليها، كما ان الانثى رغم ما يدعيه المعاصرون من تقدمها ومشاركتها كل شيء في الحياة، الا انها اقل اهمية عند الرجل مما كانت عليه في بداية هذا القرن وما قبله.

فقد كان لدى البدوي من الامور ذات المكانة الكبيرة في نفسه (حضن القعوة، ودلال القهوة)، او كان الفراغ هو المهيمن، اما اليوم فالحياة عملية، ولا يستطيع العيش اذا لم يعمل كما ان البدو لم يكونوا يعرفون **النقود** على نطاق واسع وعندما عرفوها، اصبحت هي المادة الرئيسية في المهر، ولكن ليست هناك حدود معينة له. فقد يبلغ عشرة دنانير ذهبية، وقد يصل الى مائة، ولكن بدأ بما يساوي ثمن المواشي، والحبوب التي كانت تدفع كمهر فيما سبق، واذكر انه وصل في الخمسينات والستينات ما بين مائتين وخمسين دينارا الى ثلاثمائة دينار مع خمسة دنانير ذهبية (هذا للفتاة البكر)، اما (العزبة) وهي التي تزوجت سابقا، فان مهرها لا يزيد عن نصف الفتاة البكر ما لم يكن لها اموال وميراث، حينها يختلف الامر حسب الظروف والحالة، وفي الغالب لا يخلو اي مهر من الذهب قدر الامكان، لأنه استمرار للاهتمام بهذا المعدن الثمين جدا، والفتاة معدن غال ايضا، والغالي للغالي، كما انه استمرار او بقايا استمرار دفع الذهب كمهر ايضا. بالاضافة الى ان الذهب هو معدن الحلي والزينة، ولا تصل اليه الفضة والنحاس، رغم اشتراكهما معه في هذا الدور المهم للبدوية، ولكل انثى.

واما البدو في الصحراء **فهم يدفعون المهر من الجمال (الاباعر)** ويختلف العدد حسب اهمية الفتاة، ومدى التنافس عليها، ومدى رغبة والدها بتزويجها، وتعجيز العريس...الخ فهي لا تقل عن ثلاثة او سبعة اباعر او نياق، وبارودة، وقد تصل الى مائة، وقد روي الي قصص كثيرة كيف ان العروس او والدها يطلبان من العريس اثباتا على مدى رجولته، قبل ان يتقدم اليها علنا، او ان يطلب منه عددا من الابل فلا يقدر الا على جزء ضئيل منها وبالتالي فهو مضطر لأن يغزو ويحارب ليحصل على هذا العدد، والغزو بحد ذاته وسيلة لاثبات اقدامه وشجاعته، وانه قادر على حماية هذه التي سيتزوجها، فلا يتوانى الاهل عن تزويجها له اذن، وقد تكون هذه وسيلة وسلاحا في ايدي اهل الفتاة ان يفضلوا هذا على الاخرين الذين يحاولون التبجح والظهور، وخطبة ابنتهم، والجمل شيء مهم لانسان الصحراء، ودفعه مهرا يعني تقدير الفتاة والانثى بالاضافة انه اهم سلعة يمكن ان يدفعها البدوي لشريكة حياته

وعند البدو **قد يكون المهر (حوطة نخل)** اي مزرعة من النخل قد تساوي دونم ارض او يزيد او يقل عن ذلك، وغالبا يكون هذا مهرا يدفعه الشيوخ، او مهرا لبنات

الشيوخ لأن النخل مادة اساسية في حياة الصحراء، فنتاجها (التمر) هو الغذاء الرئيسي مع حليب النياق للانسان البدوي... انه يمثل استمرار الحياة، والعيش والبقاء، وهو جدير ان يكون مهرا لفتاة بهذة القيمة والاهمية.

وهكذا نجد في الصحراء ان المهر من الاشياء المتوفرة التي هي عماد الحياة (جمال، ونخيل).

وقد يكون المهر مختلفا جدا: كأن تضع فتاة شرط زواجها **ان يأخذ الشخص بثأر ابيها او اخيها او زوجها السابق**، وان يأتي برأس القاتل، او ان يشتت شمل العدو، وهذا المهر ثمن غال جدا لأنه يساوي الحياة، ويشبع نهم الانتقام لدى الفتاة، كما انه مخاطرة بالحياة وايجاد اعداء جدد وكان بالامكان تجنب ذلك بالنسبة للخاطب، ومثل كل هذا الجهد، وهذه النتائج كافية جدا كمهر لزوجة.

وقد يكون لغزا اذا حله تتزوجه وهذا تشترطه الفتاة والتي تكون في هذه الحالة ابنة شيخ، وفي ذهنها الاقتران بشاب بغض النظر عن جمالة ووسامته، فتضع لغزا او ما شابه ذلك، فاذا توصل الشخص اليه واعجبها تزوجته، وربما بدون ان يدفع شيئا كمهر، فيكون الحل هو المهر نفسه.

وقد يكون طلبا معينا: كأن تطلب دواء لامها او لابيها، بحيث يكون من المكان الفلاني، والذي تحول دونه مخاطر لا يتجاوزها الا المقدام الشجاع صاحب الحظ والبخت الذي يستحق حينها ان تتزوجه.

وقد يكون وخاصة عند البدو، وعند من بلغوا من الرقي والذوق او التدين مبد عظيما، **قد يكون كلمة**، يقول: (اعطيتك بنتي عطية ما من وراها جزية).

وفي المدينة يكون المهر (دينارا) وهو يشابه العطاء الهدية عند البدو بفارق هذا البدوي لم يأخذ شيئا، وهذا المدني، اخذ دينارا وعادة يقول الطرف المقابل (انت اعطيتنا) (واهديتنا)، (وحنا اعطيناك كذا، او اجزيناك كذا) على مبدأ الاسلام (هل جزاء الاحسان الا الاحسان) ومبدأ (واذا حييتم بتحية فحيوا باحسن منها او ردوها). فالعطاء بتقدير هو تحية، واحترام، وهو احسان، ولا بد من مقابلته بما يليق، وقد يقول ولي امر الخاطب مخاطبا ولي امر المخطوبة (انا الشيال، وانت الجمال) حملني (بتشديد الميم) وانا اشيل. اي انه مستعد لقبول جميع الشروط التي يفرضها وقد يكون المهر كما قلنا سابقا، فتاة بفتاة (مهرها فتاة مثلها)...

والان لنتساءل: ماذا يصنع البدوي بمهر ابنته؟

المبدأ في المهر انه حق الانثى ما لم تتنازل هي عنه لولي امرها من خلال الاية الكريمة **(وآتيم احداهن قنطارا، فلا تأخذوا منه شيئا، اتاخذونه بهتانا واثما مبينا؟)**

اما العادة: فبعضهم يعتبر الفتاة وافقت وطابت نفسا على اعطاء المهر لوالدها او ولي امرها، وهؤلاء عادة الطبقة المعوزة الذين يرون في زواج ابنتهم فرجا لهم لما يعانون من عسر الحياة وشظف العيش، فيأكلون وينفقون على انفسهم، كما يعتبر مثل هؤلاء ان

ما قام به الاب من التربية طيلة الوقت السابق، يستحق عليه اجرا، ولو رمزيا بسيطا، او ان يحل له اخذ المهر، وحيازته، ويقول البدو عن الفتاة (انك تربيها وتلبيها، ويأخذها غيرك عالبارد المبرد) بتشديد الراء الاخيرة اي انها تعيش في كنفه متكفلا حياتها وتربيتها ومعيشتها حتى اذا بلغت اصبحت ملك غيره... فالانثى (خيرها لزوجها وشرها على اهلها).

واما البعض الاخر فهو يتمسك بالمبدأ: اي ان ما يأخذه من مهر يعيده اليها بصورة او باخرى (نقودا، اثاثا، ذهبا "حلية ومصاغ")، اوماشية، ويدفع فوقه شيئا من جيبه وهذا يتصرف من مبدأ (سترتها بزواجها)، فيهمه ستر ابنته بزواجها، وهو يفرح كثيرا بهذا، ويسره ذلك جدا،... اما الطرف الاول فقد نظر من زاوية الحاجة او انه لا بد وان يحصل على فائدة من ابنته او تعويضا عن الخسارة، والموجودات التي قام بها.

وكانت العادة ان يقوم اهل الفتاة بارسال جهازها واثاثها والذي يكون من المهر، لذا يقال عمن ارسل اثاثا قليلا (هذا نتيف، ما اطلع معها شيء)، والبدوي يهمه الا يسمع مثل هذا القدح، بينما يقال عمن ارسل معها اثاثا وجهازا كثيرا (رجل نفسه طيبة، رجع "تشديد الجيم" معها) وهذا في العادة اعلى ما يتمكن من التضحية في ذلك. ان يعاد معها اثاث يوازي مهرها.

وفي الوقت الحاضر (الثلث الاخير من القرن العشرين)، اختلفت الوضعية تماما، حيث ان (الجهاز) (او الاثاث)، له حدود معينة لا يصح اجتماعيا تجاوز حدها الادنى، واختلفت الامور عما كانت عليه في الخمسينات والستينات، وما قبلهما..

فقد كان الاثاث لا يتجاوز الضروريات من فرشة، او فرشتين، ولحاف او لحافين، وعدل كفيت، وهي بمثابة الخزانة في الوقت الحاضر، فهي مصنوعة من الصوف والشعر نسجا يدويا، يكفت (اي يوضع) فيها الاثاث، وخاصة عند التنقل عندما كانت الوسيلة هي الدابة....

وكان الاثاث غالبا يتكون من **مفرشين** فيقولون (جوز مفارش)، **وملف** (اي قماش يلف به المنام الذي فيه الفراش، **وصحن عجين وصندوق** توضع فيه الاشياء التي لا توضع في (عدل الكفيت)، واذكر انه في الستينات اضيف للجهاز **(بابور كاز)** لتسخين الماء والطبخ، **وصحن غسيل، وصحون لاستعمالات الاكل** كما استبدل الصندوق بالنملية وهي خزانة صغيرة، توضع فيها بعض الادوات، اما **الان فالامر مختلف جدا**، فالبدوية لها جهاز واثاث يقارب ما هو لدى المدنية، مع فارق بسيط وهو انه بالمستوى المناسب لظروف الحياة الاجتماعية، ولا شك انه اكثر تقدما من اي اثاث او جهاز لفتاة مدنية في الخمسينات... وسنفرد للاثاث عنوانا خاصا باذن الله.

والبدو من حيث المبدأ ينظرون الى مهر الفتاة انه (لقمة وقف) اي انه شبه محرم لا يجوز اخذه، فهو حق للغير، وبالذات لانثى قاصرة، ولكن طالما انها انثاه، وموكلته فانهم يعتبرون موافقتها حاصلة تلقائيا، خاصة وانها تخجل اصلا ان تطلب والدها ذلك ولو فعلت فانهم يعتبرونها (وقحة - لا تستحي) وحتى خطيبها يخشاها، ولا يحترمها، فالتي

لا تستحي من والدها، لن تستحي من رجل غريب قد لا تربطها به الا رابطة الزواج، او لنقل انها الرابطة التي جعلتهما معا متممين لبعضهما..

ومن الصور التي يعيد فيها ولي الامر المهر للفتاة، تلك الاشياء التي يعطيها قبل او اثناء او بعد الزفاف، فلا بد له ان يشتري لها شيئا يبقى كذكرى، كالثياب او الحلي من الذهب، أو الملابس الاخرى، وعند الزفاف يدفع اليها نقوطا، يسمونها (قوامة) اي النقوط الذي يدفعه عند اخر لحظة للفتاة عن اهلها، فاذا دفعه قامت مع الزفة لتتحرك الى بيت الزوجية.. وغالبا ما يكون هذا النقوط مبلغا من المال، وفي الوقت الحاضر ارتفع المبلغ فيما يناسب تطور الحياة الحاضرة...

وبعد الزواج تقوم الفتاة بزيارة اهلها الذين يعطونها شيئا، يكون (في الغالب) عددا من رؤوس الماشية، حسب المتوفر منها لدى الاهل..

واذا كانت الفتاة تتنازل عن مهرها، او قل لا تطالب اهلها به، الا ان الاهل يعيدون هذا المهر كليا، او جزئيا بصورة او باخرى لهذه الفتاة... ولا شك ان طيبة البدو وهم يأخذون الامر ببساطة، تجعل التعقيد الذي يتصوره ابناء المجتمعات الاخرى غير موجود ابدا، فلا توجد مشاكل حول المهر بين الفتاة واهلها، او بين الاهل انفسهم لأن الذي يأخذه شخص واحد هو ولي امر الفتاة، ولا حق لغيره مشاركته به، الا في حالات غير عادية كأن تكون الفتاة يتيمة الاب، حينها يكون مهرها لامها او لمن تكفل امرها بحيث يأخذ ما يحتاجه للجهاز والاثاث، ويعطي الباقي لأمها، او اليها، لأن من العار اكل اموال (العو القاصرة - وهي الانثى في مثل هذا الوضع المذكور)

والسؤال الان: كيف يتم دفع المهـــر؟

هناك اكثر من صيغة وطريقة لدفعه، ولكن غالبا ما يكون امام جمع من الناس يعتبرون شهودا تلقائيا دون ذكر ذلك. لأن المهر لا يجوز ان يكون عليه شهود، حتى لا يقال: انه لا ثقة بين الطرفين، ولكن الحضور يقومون بهذه المهمة مستقبلا، اذا حدث ما يشيب الامر، او يشكك فيه خاصة وانه في لحظة الدفع يكون الجميع صامتون، وينظرون بدقة وتمعن الى ما يتم دفعه من المال او سوقه من المواشي.

وقد يدفع المهر دفعه واحدة، ربما ليلة الخطبة (بعد قراءة الفاتحة)، او بعدها بايام، ولكن على اية حال يجب ان يكون قبل الزفاف لأنه (اذا التف الساق عالساق يبطل السياق)، اي انه يدفع (بضم الياء) قبل ذلك، واذا لم يدفع لا تكون مطالبة الا ما ندر، ومقصود الساق عالساق، اي الزواج، والتقاء العروسين معا في فراش واحد.

واما دفعه ليلة الخطبة فيكون في حالات معينة، منها اذا كان هناك تنافس بين طرفين او اكثر على الفتاة، فالفائز يدفع المهر سلفا بعد قراءة الفاتحة، واكل الطعام، كدلالة على قدرته اكثر من منافسيه من جهة، وليقطع الشك باليقين، وينهي الجدال، والقيل والقال، من جهة اخرى، فلا يبقى للاخرين مجال الطعن او الاعتراض، فالفاتحة (مقرية) (والعيش والملح) حصل بين الطرفين، والمهر او السياق تم دفعه او سوقه، وما بقي الا الزواج، خاصة اذا كان المهر من الكمية بحيث يعجز المنافس عن دفعه، لأنه كثيرا

ما تصبح كمية المهر مقترنة بالمزايدات، وكل يطرح اكثر من الاخرقدرته على الدفع حتى يستقرون على رأي نهائي.

ومن الحالات التي يتم دفع المهر مرة واحدة ليلة الخطبة، عندما يكون الشخص قادرا على ذلك، او يرغب بالزواج قريبا، فاذا دفع اصبح له الحق ان يطالب بالزواج بعد مدة معينة، ما لم يكن هناك اتفاق مسبق بعكس ذلك، او ظروف تحول دون ذلك لدى اهل الفتاة ويتفقون على حل وسط في نهاية الامر.

وقد يكون الخاطب غريبا، وعليه ان يبدي قوته، وقدرته وغناه وذلك بدفع المهر بعد الفاتحة والطعام، وهذا فخر لانسبائه الجدد انه بيض وجوههم امام اقاربهم، وانه لا مزاح عنده، ولا مماطلة... والغريب دائما يحاول ان يتصرف بما يفوق ما يقدر عليه من هم حول الطرف المعني من اقارب الفتاة.

وطالما ان المهر هو على رأي البدو (اللي عليك عليك) اي لا بد من دفعه، فلماذا لا يكون ليلة الخطبة طالما ان العريس قادر على ذلك، والا قيل (معرس ومفلس) اي انه راغب في الزواج وباحث عنه ولكن لا مال عنده ولا فلوس، وحينها لن يجد من يزوجه الا ما ندر، فاذا عجز عن دفع المهر، فكيف يقدر على توفير العيش الكريم لها بعد الزواج؟ وقد يكون الشرط بالخطبة (اثناء المراسيل والجاهات) ان يكون الدفع ليلة الخطبة وان كانوا في الغالب لا يشترطون وقت دفع المبلغ الا انه يكون فيما بين قراءة الفاتحة والطعام، وقبل الزفاف، وفي أقصى مدة قبل اخذ العروس، لأنه قد يكون دفع بقية المبلغ الذي لا يزيد عن الربع او الخمس يوم الزفاف..

والسؤال الان: لماذا يكون الدفع بعد الفاتحة والطعام؟؟ والجواب: ان الفاتحة هي العهد، وبها يعد الايجاب والقبول والاتفاق ويستحل العريس نكاح عروسه، فهي دليل على العهد، ووثاق متين له، وهي تعني ان الامر تم بسنة الله وسنة رسوله، ولا حرام فيه، ولا يجوز من حيث المبدأ اذا قرئت ان تفسخ الخطبة الا لاسباب وجيهة، ولا يجوز من حيث المبدأ اعتراض اي شخص على الخطبة بعد قراءة الفاتحة، وان كان في العادة ان يعترض الذي هو اقرب للفتاة، وقد يفوز باعتراضه هذا، وخيانة ذلك هي خيانة للذمة والدين.

واما الطعام فهو (العيش والملح)، وهو العهد الثالث في الامر...فالاول هو (الايجاب والقبول) والثاني هو (الفاتحة)، واما الطعام فهو خاتمة العهود، ولا يجوز خيانة العيش والملح وان كان يتم نقضه احيانا لاسباب وجيهة، وتفاديا لتطورات بعض المشاكل، كما ان الفاتحة والطعام هي بداية الخطبة، وهي الخطوة التنفيذية العملية الرئيسية الاولى، والتي بناء عليها تتم مراسيم الخطوبة، ويحق للخاطب زيارة خطيبته (وفق العادات)، وان يشرع في تجهيز نفسه لمراسيم الزواج، وان يقول: ان فلانة خطيبته، وتقول هي: فلان خطيبي...الخ

واما لماذا يكون انتهاء دفع المهر قبل الزفاف او مغادرة العروس؟!

فهو ان المهر هو بتعبير (ولو كان خاطئا) **ثمن لهذا الزواج** (وان كان ثمنا رمزيا)، فكما ان التاجر يدفع ثمن بضاعة، كذلك على العريس، ان يفعل عندما يأخذ صيدته،

بالاضافة الى ان المهر شرط للزواج، ودفعه كاملا، شرط لتنفيذ عملية الزواج... وكما يأخذ العريس حقه كاملا (العروس) عليه ان يعطي الاخرين حقوقهم (المهر)...

علاوة على انه (اذا التف الساق بالساق يبطل السياق)، وبالتالي فالعريس يهضم حقا من حقوق اهل عروسه، اذا تزوج بدون ان يدفع ما يترتب عليه. وقد يوصف بانه (بلاص) اي لا يعطي الناس حقوقهم بيتما يستوفي حقوقه منهم.

كما ان الطرفين يخافان (المعيار) خاصة اذا وجد طرف منافس ان يقال عن العريس انه عاجز عن الدفع - والبدوي يكره ان يوصف بالعجز، او يقال ان اهل العروس قد ضيعوا ابنتهم (بالهفا، وقلة الوفا)، وذلك مالا يقبل البدوي ايضا ان يوصف به.

وقد يخاف الطرفان من الهمس (اذا وجد طرف منافس) ان يقال: ان هذا التعجيل بدون دفع المهر ربما يكون بسبب كذا وكذا، (اسباب قد تطعن بشرف الطرفين). خاصة وان ما يدفع من المهر يكون امام مجموعة من الناس، او على الاقل لا بد وأن يعرفوه (وهذا مهم عندهم). كما ان الدفع قبل الزفاف **هو قطع لاي اعتراض،** فلا يأتي شخص اقرب من العريس ويقول: هذه الفتاة لي وحجته ان مهرها لم يتم دفعه وبالتالي فعجز العريس سيجعلها تعيش ضنك العيش، اما هو (المعترض) فقادر على الدفع وتوفير العيش الكريم لها، بالاضافة لاحقيته كقرابة

والسؤال الان: ما هي مراسيم المهر، وكيف يتم؟!

قد يدفع جميعه مرة واحدة ليلة الخطبة او بعدها، او قبل الزفاف، ولكن المعتاد ا يدفع ما لا يقل عن ربع المهر ليلة الذبيحة، حيث توجد الجاهة، ووجهاء القوم م الطرفين، كما ان ذلك التزام من اهل العريس، وعربون منهم لرغبتهم في الزواج، وقطع لأي اعتراض واحتجاج على الخطبة (ان غالبية المهر مدفوع)، وحيث ان المهر جزء من الخطبة والزواج، وهو القناة التي تمر عبرها حياة الخطوبة الى حياة الزواج، فان دفعه يكون امام جمع من الناس، يعتبرون شهودا على ذلك، ففي العادة لا يجوز ان يقال: يا فلان اشهد على ما دفعته لفلان مهرا لابنته فالثقة يجب ان تكون بين الطرفين، خاصة وانهما سيكونان عائلة واحدة، واذا خلت من بينهما الثقة، فان تقاربهما يصبح امرا مؤلما، مبنيا على الشك، وبالتالي عدم المحبة، لذا فهم يتحايلون على هذا الامر بدفع المبلغ او سوق الماشية على مرأى من الناس يعتبرون كجاهة (السياق) وهؤلاء يستمعون (ينصتون بدقة)، وينظرون بتمعن ويباركون هذا التصرف، وهذه الخطوة، فالجاهة تقدير لاهل العروس، وتعبير عن اهمية اهل العريس، وهم شهود صامتون، لا ينطقون بشهادتهم الا عندما يطلب منهم ذلك وتخشى شهادتهم، ويخشى وجودهم دون ان ينبسوا ببنت شفة (لأن حضورهم يكفي)، اذا اراد احد الطرفين ان (يلف اذنه) اي يدعي انه دفع اكثر، او استلم اقل.

واذا لم يدفع المهر (ليلة الذبيحة) فان دفعه في اي وقت اخر يكون كما يلي: يذهب

ولي امر العريس او العريس نفسه او من ينوبه ، ومعه مالا يقل عن ثلاثة رجال، وقد يكون ذلك بموعد مسبق باخبار والد العروس عن مجيئهم، او بدون موعد، وقد يتناولون الطعام خاصة اذا كان مشوارهم بعيدا، وقد يفتقر مكوثهم على شرب فنجان القهوة، والدفع والعودة، واشاعة بين الناس. (انه تم دفع مبلغ من المهر قيمته كذا وكذا) خاصة وان حب الاستطلاع شيء بطبيعة البدوي، فمجرد وجود اناس من اهل العريس عند اهل العروس يفهمون ان شيئا ما قد حدث او على وشك الحدوث كدفع المهر، او الاتيان بالبرة اذ كثيرا ما يدفع مع البرة ايضا مبلغ معين من المهر.

ولا بد من كلمات المجاملة عند دفع المهر من كلا الطرفين فتشتمل الترحيب، والدعاء بالبركة، وهكذا نرى ايضا ان المهر قد يتم دفعه كاملا، او بالتقسيط، وهذا المبدأ المفتوح هو تيسير على الناس، فالمبدأ هو دفع المهر. والعادة دفعه تقسيطا او كاملا، وذلك ما يتناسب مع الطبيعة الانسانية، والقدرات المادية للناس.

المهر في حالةفصل الخطوبة او الطلاق:

في حالة فصل الخطوبة لا بد من حل مشكلة المهر، ضمن المشاكل الاخرى التي يجب حلها، او لنقل انهاءها. وعلينا ان نفصل الامر ضمن ثلاثة بنود هي:

الاول؛ ما كان مهرا مفروضا معروفا ومحددا، ضمن اتفاق الجاهة.

والثاني: ما كان هدية او هبة يدفعها او يأتي بها الخاطب او الزوج طوعا واختيارا.

والثالث: ما كان ضمن عادات اجتماعية معينة تتطلبها شؤون الخطبة.

اما المهر الاساسي: فهو المفروض من المال او الماشية او الحبوب، او الارض، او...الخ.

واما الهدايا: فما كان منها البرة (وتحدثنا عنها سابقا)او الحلي والاقمشة، والطعام بين فترة واخرى.

واما ضمن العادات: فهي الذبائح التي ذبحت عند الخطبة وتكاليفها من الملح، والطحين حتى السمن واللبن، بالاضافة الى علف الخيول اذا رافقت الجاهة.

وعند الفصل او الطلاق لا بد من الاخذ بعين الاعتبار الامور الاربعة التالية:

ما كان الفصل او الطلاق بسبب الخاطب.

او بسبب المخطوبة.

او تراضي بين الطرفين.

أو تحدي بين الطرفين.

أما ماكان بسبب الخاطب كأن يرفض هو ان يستمر بخطبته، فينظر إن كان سببه وجيها فيعاد اليه كامل ما دفعه أو نصفه حسب السبب، فاذا كانت الفتاة غير شريفة ولا نظيفة مثلا، وباثبات وشهود كأن تحصل لها قضية من هذا النوع أو تشتهر بين الناس بذلك - حينها يعاد اليه كل ما دفعه من المهر والهدايا، حتى ملح الطعام يتم تقدير قيمته

وثمن الأشياء الهالكة، كاللحم، والسمن والجميد، والملح والطحين (ما عدا الماء لأن به حياة الانسان، والماء احدى الاشياء الثلاثة التي امر الاسلام ان تكون للناس جميعا).

ولكن اذا استنكف هو عنها بدون مبرر او سبب معلوم ومعروف للناس، فلا يأخذ مما دفع شيئا (اللي خسر راح من كيسه)، الا اذا اعاد اليه اهل الفتاة، ما دفعه او بعضا منه، ولكن لا حق له بالمطالبة، واذا كان هو مسبب الفسخ لعدم اهليته من حيث الاصل او العقل، او الاخلاق، وثبت ان هذا كان قبل الخطوبة، فيذهب ما دفعه، ولا يحق له المطالبة، اما اذا كان السبب عاهة او ما يصيب الاهلية او العقل، وحدث له بعد الخطبة (قراءة الفاتحة)، فله نصف مهره، الا ان يعفو اهل الفتاة ويعيدون اليه كل ما دفع، اما اذا كان السبب من سوء خلقه، او اصله، فيذهب ما دفع، الا ان يعيد اهل الفتاة اليه ما دفعه او بعضا منه.

واذا مات هو، فقد مات في بخت الفتاة، ويعاد لأهله من حيث المبدأ نصف ما دفع، وفي العادة قد يعيدون اليه ما دفعه (باستثناء الهدايا) وذلك كمشاركة من اهل الفتاة لأهل الفتى، وتخفيفا عنهم لمصابهم الجلل.

واذا كان السبب من الفتاة: كسوء خلقها او رفضها للشاب، او غمز في اصلها او عاهة فيها قبل الخطبة وتبينت بعدها، فان للخاطب، اذا رغب الفصل او الاستنكاف ان يستعيد كل ما دفع من الاشياء القائمة (كالمال والذهب والماشية والارض)، او الهالكه كالطعام ومشتقاته والهدايا، والثياب... الا ان يعفو هو عن ذلك، ولكن اذا حدثت له عاهة اثناء الخطبة او ماتت، فان ذلك (في حظه) وله نصف ما دفع من المهر، ولا شيء من الهدايا، والاشياء الهالكة.

اما اذا كان الفصل **بعد تحد بين الطرفين،** فان الامر يصل للقضاء البدوي والقاضي يحكم لصاحب الحق، فاذا حكم للخاطب دفع اهل المخطوبة ما جاءهم من مهر قائم او هالك، بالاضافة الى مقدار مخاسير الجاهات واحيانا رزقة القاضي وربما يدفعون العطل والضرر المادي والمعنوي الذي يلحق بالخاطب نفسه.

واما اذا كان الفصل بالتراضي بين الطرفين، فان مصير المهر والهدايا حسبما يتراضون عليه، وليس هناك قاعدة ثابتة في ذلك.

وبعد ان فصلنا موضوع الفصل نستطيع ان نوجز طريقته حسب المبدأ والعادة كما يلي: انه في حالة الفصل من حيث المبدأ يعاد للخاطب نصف ما دفع، الا انه في العادة تكون استعادة ما دفع حسب الظروف، فان كان السبب هو الخاطب خسر ما دفع وان كانت المخطوبة السبب، دفعت كل ما خسره الخاطب، او يكون الامر بالتراضي، وهذا المبدأ وهذه العادة استمدها البدو من القرآن الكريم والشريعة الاسلامية السمحاء، حيث نجد ان الفصل من حيث المبدأ جائز في الاسلام اذا كان له ما يبرره، واستحال استمرار العلاقة حيث يقول تعالى (**لا جناح عليكم ان طلقتم النساء ما لم تمسوهن او تفرضوا لهن فريضة، ومتعوهن على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين**)، ونجد هنا مبدءا لطيفا نفصله بعد قليل باذن الله، ان الفصل قد يكون قبل

الزواج (تمسوهن)، او قبل الخطبة الرئيسية وهي الذبيحة وقراءة الفاتحة حيث يتم فرض المهر (او تفرضوا لهن فريضة) ونجد ان في عادات البدو شيء اسمه الهدايا والعطايا للخطيبة، وهذا ما نجده في الاسلام ضمن الاية الكريمة (ومتعوهن)، وهذه الهدايا تكون عندهم (على قد الحال - وعلى قد اغطاك مد رجليك) وفي قول الله سبحانه نجد (على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره) وقد سبق وقلنا ان هذه الهدايا تفرضها الضوابط والعادات الاجتماعية حتى ان من لا يأتي بها يكون موضع الاشمئزاز والكره. فهي حق اجتماعي يجوز تخطيه، ولكن يكره ويمقت متخطيه، وكل هذا له اصل في الاسلام في قوله تعالى (**متاعا بالمعروف حقا على المحسنين**)، والبدوي لا يقبل لنفسه إلا ان يكون محسنا كريما، شجاعا، شهما... وطالما انه لا يقبل على نفسه الا ان يكون محسنا، فقد اصبحت بذلك (الهدايا) حقا عليه (حقا على المحسنين ..الخ.

ثم تأتي الحالة الاخرى **وهي الطلاق بعد تعيين المهر وقبل الدخول بالفتاة (الزواج) (تمسوهن) حيث نجد ان عادات البدو مأخوذة من القرآن الكريم فيما نجده في الاية الكريمة التالية (وان طلقتموهن من قبل ان تمسوهن، وقد فرضتم، لهن فريضة، فنصف ما فرضتم الا ان يعفون او يعفو الذي بيده عقدة النكاح، وان تعفوا أقرب للتقوى، ولا تنسوا الفضل بينكم ان الله بما تعملون بصير)**صدق الله العظيم

فالمبدأ (فنصف ما فرضتم)، ونجد القرآن الكريم يضع بجانب ذلك حلولا للاعتبارات التي يتعرض لها الانسان حسب عاداته وبيئته الاجتماعية، فيقول **(الا ان يعفون)، اي عندما يكون سبب الفصل او الطلاق اصله من الزوج بحيث يترتب عليه دفع ما فرض عليه ان يدفعه**، او عدم المطالبة بما دفع، ولكن (الناس للناس والكل بالله) فقد تعفو الفتاة عما يستحق لها من المهر، او ان تعيد ما اخذته او اخذه اهلها، ولا تجعل في ذمتها شيئا من ذلك الانسان... انه الادب البدوي المستمد من الادب الالهي (الا ان يعفون).

والحالة الاخرى كما ذكرنا قبل قليل **عندما تكون الفتاة هي السبب وعلى اهلها اعادة ما يترتب عليهم**، وهنا يمكن للخاطب ان يعفو مهما كانت الاسباب وبالطبع هذه الحالة فيها اذن الهي في قوله سبحانه **(او يعفو الذي بيده عقدة النكاح)**.

وفي حالة التراضي والعفو بين الطرفين، وينتهي الامر بالتواد والتصالح، لها ايضا أصل قرآني في قوله سبحانه **(وإن تعفوا أقرب للتقوى.**

واما في حالة النزاع، والتحدي، يذكرهم الله ان مثل هذا هو نسيان للفضل، فضل الستر، والمتعة، والتقارب، وفضل الضوابط الاجتماعية بين الطرفين، فيقول الله سبحانه **(ولا تنسوا الفضل بينكم)** ولكن التحدي تلحقه المؤامرات والدسائس، وربما يصل الى الحرب والضرب والغزو، حينها يقول الله سبحانه **(ان الله بما تعملون بصير)** فالله يذكر الناس الا ينسوا الود والتراحم والخير والفضل فيما بينهم والا يحل البلاء

محل الدواء لشيء تافه، فالافضل ان يتذكروا الخير وليس الشر. وفي مذهب الشافعية ان الهدية ترد سواء اكانت قائمة ام هالكة، فان كانت قائمة ردت هي ذاتها، والا ردت قيمتها[1]

مهر المطلقة بعد الزواج

والمبادىء هي نفس الاربعة السابقة التي ذكرناها (من الزوج، من الزوجة، تحدي ونزاع بين الطرفين (على مستوى فردي او جماعي) تراض بين الطرفين) وهناك حالة خامسة وهي في حالة وفاة احد الزوجين، وأما اذا كانت الزوجة هي طالبة الطلاق وهي السبب وليس من سبب في الزوج ظاهر للناس او مقنع لهم فعليها او على اهلها ان تعيد له ما كان قد دفعه مهراً لها، (مهر قائم) او (نقود) او (ذهب) ولا تدخل في ذلك الهبات والطعام، والهدايا ما لم تكن من ضمن المهر.

واما إذا كان السبب من الزوج نفسه سواء برفضه للزوجة بدون مبرر او سبب فيها (الزوجة) ظاهر للناس او مقنع لهم، فلا يحق له المطالبة بما دفعه من مهر قائم او هالك، وعليه ان يدفع تعويضا اخر عن الضرر الذي يلحق بها، وهو ما يسمى في الشريعة وعند اهل المدينة (المهر المؤجل).

ففي الطلاق الذي من الزوج بعد الزواج لا يعاد للزوج مهر وذلك من خلال الايه **(الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان، ولا يحل لكم ان تأخذوا مما أتيتموهن شيئاً)**، ونجد كلمة **(اتيتموهن)** عامة تشمل المهر، والهدايا، والتكاليف، وما يدفعه الزوج.

والمبرر الآخر لمبدأ عدم رد الشيء هو قول الرسول صلى الله عليه وسلم: ما رواه اصحاب السنن عن ابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(لا يحل لرجل ان يعطي عطية او يهب هبة فيرجع فيها الا الوالد فيما يعطي ولده)** وقوله عليه السلام ايضا **(العائد في هبته كالعائد في قيئه).**

وفي العادة تتم استعادة المهر او عدمها حسب ظروف الفراق والطلاق، والمسبب فان كان من الزوج فلا يجوز له استعادة ما دفع، وعليه دفع ما يمكن تسميته بالمهر المؤجل، وان كان من الزوجة اعادت ما اخذت من مهر كما قلنا ايضا، ولمزيد من التفصيل نذكر هنا ما كتبه المرحوم سيد قطب[2].

(ولا يحل للرجل ان يسترد شيئا من صداق او نفقة انفقها في اثناء الحياة الزوجية في مقابل تسريح المرأة اذا لم تصلح حياته معها، ما لم تجد هي انها كارهة لا تطيق عشرته لسبب يخص مشاعرها الشخصية، وتحس ان كراهيتها له، او نفورها منه سيقودها الى الخروج عن حدود الله في حسن العشرة، او العفة، او الادب، فهنا يجوز لها ان تطلب

---

1) فقه السنة /مجلد2 ص 34.

2) في ظلال القرآن - المجلد الاول ج2 ص 198 دار احياء التراث العربي.

الطلاق منه، وان تعوضه عن تحطيم عشه بلا سبب متعمد منه، برد الصداق الذي امهرها اياه او بنفقاته عليها كلها او بعضها لتعصم نفسها من معصية الله او تعدي حدوده، وظلم نفسها وغيرها، في هذه الحال، وهكذا يراعي الاسلام جميع الحالات الواقعية التي تعرض للناس، ويراعي مشاعر القلوب الجادة التي لا حيلة للانسان فيها، ولا يقسر الزوجة على حياة تنفر منها، وفي الوقت ذاته لا يضيع على الرجل ما انفق بلا ذنب).

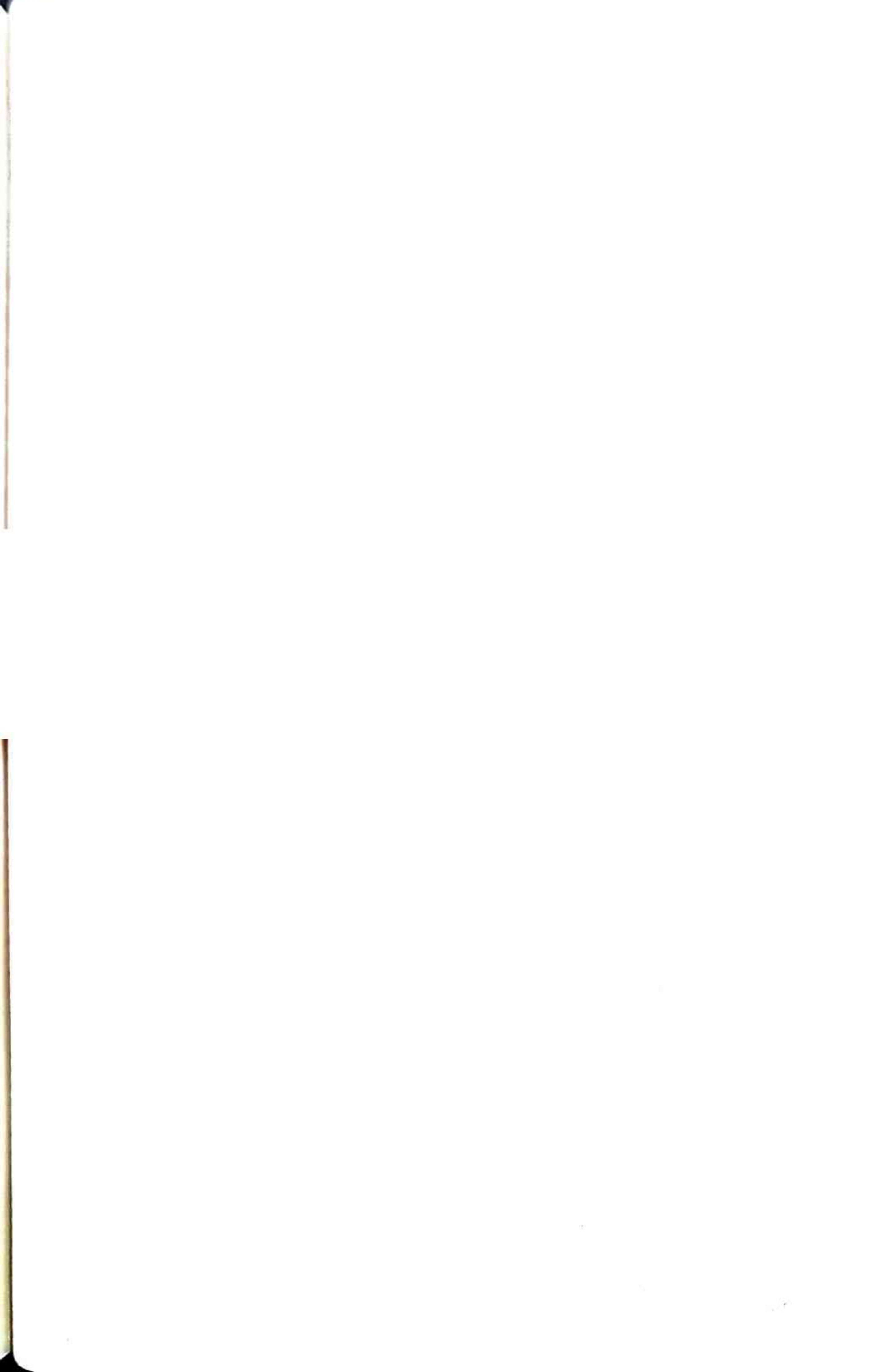
...(وفي رواية عن ابن جرير باسناد - عن ابي جرير - انه سأل عكرمة: هل كان للخلع اصل؟ قال: كان ابن عباس يقول: ان اول خلع كان في الاسلام في اخت عبدالله ابن ابي، انها اتت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالت: يا رسول الله لا يجمع رأسي ورأسه شيء ابدا، اني رفعت جانب الخباء فرايته قد اقبل في عدة، فاذا هو اشدهم سوادا، واقصرهم قامة، واقبحهم وجها، فقال زوجها: يا رسول الله: اني قد اعطيتها افضل مالي: حديقة لي، فان ردت علي حديقتي، قال: ما تقولين؟ قالت: نعم وان شاء زدته. قال: ففرق بينهما)[1].

واما البدو هذه الايام فالاغلبية العظمى تأخذ في فض المنازعات ما تقضيه المحاكم، اذ يسلكون طريقها، خاصة وانهم اصبحوا يعرفون المهر المؤجل، والمهر المعجل، واصبح العقد عندهم مكتوبا، وفيه نصوص على كلا المهرين، واتفاق، وتوقيع. واما النسبة الضئيلة جدا فلا زالت تسلك ما سلف من الطرق والاساليب البعيدة عن المحاكم، والاوراق المكتوبة، وسجلات الدولة، مع كل هذا فالنسبة اقل من ضئيلة حول الزواج بدون شروط مؤجلة ومعجلة (وهي المهر).

وعندما اعتمد البدو على الكلمة المكتوبة والتواقيع، اخذوا يعودون اليها، بينما كانوا يأخذون بالكلمة والوعد (كلمة شرف)، والتي يجد البدوي في تجاوزها جريمة، واي جريمة، اما الآن فان المحاكم هي صاحبة القرار النهائي رغم انهم كثيرا ما يجدون في تعقيداتها، والحاجة للوقت الطويل في ان يعودوا للاصل القديم باعتماد الكلمة، والصلح، والجاهات والوجاهات، فهذا في رأيي أسهل وايسر واسرع، وامر اكثر عملية بالنسبة للانسان البدوي.

---

١) فقه السنة/ مجلد ٢ ص ٨، ٩



الفصل السّابع

دوافع الزواج

الفصل السابع

دوافع الزواج

الزوجية سنة من سنن الله في الخلق والتكوين، وهي عامة مطردة، لا يشذ عنها عالم الانسان، او عالم الحيوان، او عالم النبات.

قال تعالى: **(ومن كل خلقنا زوجين لعلكم تذكرون)، (سبحان الذي خلق الازواج كلها، مما تنبت الارض، ومن انفسهم، ومما لا يعلمون).**

وهي الاسلوب الذي اختاره الله للتوالد والتكاثر، واستمرار الحياة، بعد ان اعد كلا الزوجين وهيأهما، بحيث يقوم كل منهما بدور ايجابي، في تحقيق هذه الغاية.

(يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى) "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء".

ولم يشأ الله ان يجعل الانسان كغيره من العوالم، فيدفع غرائزه تنطلق دون وعي ويترك اتصال الذكر بالانثى فوضى لا ضابط له، بل وضع النظام الملائم لسيادته، والذي من شأنه ان يحفظ شرفه، ويصون كرامته، فجعل اتصال الرجل بالمرأة اتصالا كريما مبنيا على رضاهما، وعلى ايجاب وقبول كمظهرين لهذا الرضا، وعلى اشهاد على ان كلا منهما قد اصبح للاخر، وبهذا وضع للغريزة سبيلها المأمونة وحمى النسل من الضياع وصان المرأة عن ان تكون كلأ مباحا لكل راتع، ووضع نواة الاسرة التي تحوطها غريزة الامومة وترعاها عاطفة الابوة، فتنبت نباتا حسنا، وتثمر ثمارها اليانعة، وهذا النظام هو الذي ارتضاه الله، وابقى عليه الاسلام وهدم كل ما عداه[1].

وفي معرض تفسيره للاية **(يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء)** يقول المرحوم سيد قطب كلاما لطيفا ورائعا نقتطف منه ما يلي: "والحقيقة الاخرى التي تتضمنها الاشارة، الى انه من النفس الواحدة (خلق منها زوجها)، كانت كفيلة لو ادركتها البشرية، ان توفر عليها تلك الاخطاء الاليمة التي تردت فيها، وهي تتصور في المرأة شتى التصورات السخيفة، وتراها منبع الرجس والنجاسة، واصل الشر والبلاء، وهي من النفس الاولى فطرة وطبعا، خلقها الله لتكون لها زوجا وليبث منهما رجالا كثيرا ونساء، فلا فارق في الاصل والفطرة، انما الفارق في الاستعداد والوظيفة، ولقد خبطت البشرية في هذا التيه طويلا، جردت المرأة من كل خصائص الانسانية وحقوقها فترة من الزمن تحت تأثير تصور سخيف لا اصل له، فلما ان ارادت معالجة هذا الخطأ الشنيع اشتطت في الضفة

---

١) في ظلال القرآن المجلد الثاني ج٤ ص ٢٣٤، ٢٣٥، دار احياء التراث العربي.

الاخرى، واطلقت للمرأة العنان، ونسيت انها انسان خلق لانسان ونفس خلقت لنفس، وشطر مكمل لشطر، وانما ليسا فردين متماثلين، وانما هما زوجان متكاملان، والمنهج الرباني القويم يرد البشرية الى هذه الحقيقة البسيطة بعد ذلك الضلال البعيد"

واخيرا فان نظرة الى التنوع في خصائص الافراد، واستعداداتهم، بعد بثهم من نفس واحدة واسرة واحدة، على هذا المدى الواسع الذي لا يتماثل فيه فردان تمام التماثل على توالي العصور، وفيما لا يحصى عدده من الافراد في جميع الاجيال، التنوع المنبثق من ذلك التجمع، لتدل على القدرة المبدعة على غير مثال، المدبرة عن علم وحكمة، وتطلق القلب والعين يجولان في ذلك المتحف الحي العجيب، يتمليان ذلك الحشد من النماذج التي لا تنفد، والتي دائما تتجدد، والتي لا يقدر عليها الا الله، ولا يجرؤ احد على نسبتها لغير الله. فالارادة التي لاحد لما تريد، والتي تفعل ما تريد، هي وحدها التي تملك هذا التنويع الذي لا ينتهي من ذلك الاصل الواحد الفريد).

(كذلك توصي الاية بان قاعدة الحياة البشرية هي (الأسرة) فقد شاء الله ان تبدأ هذه النبتة في الارض باسرة واحدة، فخلق ابتداء نفسا واحدة، وخلق منها زوجها، فكانت اسرة من زوجين (**وبث منهما رجالا كثيرا ونساء**)، ولو شاء الله لخلق - في اول النشأة - رجالا كثيرا وزوجهم، فكانوا اسرا شتى من اول الطريق، لا رحم بينهما من مبدأ الامر، ولا رابطة تربطهما الا صدورها عن ارادة الخالق الواحد، وهي الوشيجة الاولى، ولكنه (سبحانه) شاء لأمر يعلمه ولحكمة يقصدها، ان يضاعف الوشائج، فيبدأ بها من وشيجة الربوبية، وهي اصل واول الوشائج، ثم يثني بوشيجة الرحم، فتقوم الاسرة الاولى من ذكر وانثى، هما من نفس واحدة، وطبيعة واحدة، وفطرة واحدة، ومن هذه الاسرة يبث رجالا كثيرا ونساء، كلهم يرجعون ابتداء الى وشيجة الربوبية، ثم يرجعون بعدها الى وشيجة الاسرة، التي يقوم عليها نظام المجتمع الانساني بعد قيامه على اساس العقيدة).

ويفسر سيد قطب رحمه الله في المجلد السادس، الجزء ٢١، (ص ٣٥، ٣٦) قول الله تعالى (**ومن اياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها، وجعل بينكم مودة ورحمة، ان في ذلك لايات لقوم يتفكرون**) - كما يلي:

"والناس يعرفون مشاعرهم تجاه الجنس الاخر، وتشغل اعصابهم ومشاعرهم تلك الصلة بين الجنسين، وتدفع خطاهم، وتحرك نشاطهم، تلك المشاعر المختلفة الانماط والاتجاهات بين الرجل والمرأة، ولكنهم قلما يتذكرون يد الله التي خلقت لهم من انفسهم ازواجا، واودعت نفوسهم هذه العواطف والمشاعر، وجعلت في تلك الصلة سكنا للنفس والعصب، وراحة للجسم والقلب، واستقرارا للحياة والمعاش وانسا للرواح والضمائر، واطمئنانا للرجل والمرأة على السواء، والتعبير القرآني اللطيف الرقيق يصور هذه العلاقة تصويرا موحيا، وكأنما يلتقط الصورة من اعماق القلب واغوار الحس (لتسكنوا اليها) (وجعل بينكم مودة ورحمة)، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)، فيدركون حكمة الخالق في خلق كل من الجنسين على نحو يجعله موافقا للاخر، ملبيا لحاجته الفطرية: نفسية، وجسدية، وعقلية، بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار، ويجد ان في

اجتماعهما السكن والاكتفاء والمودة، والرحمة لأن تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما في الاخر، وائتلافهما، وامتزاجهما في النهاية لانشاء حياة جديدة، تتمثل في جيل جديد). "أهـ"

والسؤال الذي قد يتبادر لاذهاننا: ترى لماذا نتزوج؟! واذكر في صباي ان الاهل يحاولون تغطية الجنس بين الاب والام عن الطفل فيقولون له: جئت من مكان مجهول، او (لقيناك على المراح)، وهو المكان الذي امرحوا فيه ونصبوا بيوتهم ثم تركوه، ومن العيب ان يسأل الطفل عن العلاقة بين الاب والام عندما يكون مفادها الجنس، فيصل الى سن معين وهو يجهل ولادته من امه، ونطفته من ابيه.

وعند البدو نجد ان دوافع الزواج وان كانت في عمادها كما هي لدى الانسان اينما كان، الا انهم ينظرون للأمر بفلسفة، خاصة، فقد يعمد واحدهم للزواج فقط من اجل (ان يطري لحيته)، اي بدافع جنسي محض، او ربما من اجل الذرية حتى لا يكون اقل من غيره، او (طلبا للعوض) حتى لا يكون (ناشف الجلد مقطوع الولد)، ولا يخلو الامر من الغيرة والتقليد للاخرين، وانه لا يقل عنهم قدرة واهمية بالاضافة الى الضغط الاجتماعي، ونظرة الناس للاعزب، او لمن لا يتزوج باكثر من واحدة، ويلعب الحب دوره الكبير في الامر، والبحث عن الاستقرار العام وخاصة النفسي منه،.. وفي مجمل هذه الاسباب وغيرها، نجد اكثرها ينضوي في عدد من الايات القرآنية التي بينت فلسفة الزواج بطريق غير مباشر او مباشر. فيقول الله سبحانه: **(الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء)**، ويتضح من هذه الاية هدف التكاثر الذي يتحقق من الزواج، وهدف العزوة (رجالا) والتراحم (نساء). وحفظ النوع واستمراره (وبث منهما).

ونجد قول الله سبحانه **(ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها، وجعل بينكم مودة ورحمة)**، فيبرز هدف السكن والاستقرار النفسي، واشباع الحاجة الجنسية، وما ينجم عنها من لذة وملء الفراغ النفسي، والجوع الجنسي، ثم نجد نتيجة كل هذا ما يجب أن يكون وهي: المودة والرحمة، فبدونهما لا يتأتى السكن والاستقرار والمتعة وفي آية أخرى يقول سبحانه **(هن لباس لكم، وأنتم لباس لهن)** وهذا يعطي هدف الستر واذا أخذنا ما احتوته الايات الكريمة من فلسفة عن الزواج، وما استدعته طبيعة حياة البدو وعاداتهم الاجتماعية، خرجنا بالنتائج التالية:

الدافع الديـــني:

يؤمن البدو أن الزواج نصف الدين، فقد حض الرسول عليه الصلاة والسلام في كثير من أحاديثه على الزواج من الودود الولود، كما حث عليه الصلاة والسلام: على أنه من استطاع الباءة من الشباب ان يتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء هذا بالاضافة الى الايات التي سبق وذكرناها، وغيرها، التي تحض على الزواج... واذا عرفنا أن في البدو جانباً لطيفاً، وهو التدين، والايمان بالقوى الغيبية والاستسلام لها، وأن

العادات الحسنة مستمدة من الشريعة الاسلامية التي تحض على الزواج، ادركنا مدى اهتمام البدوي بالزواج من الوجهة الدينية. حتى انه عند الطلبة والخطبة والعقد (الكتاب)، يقول (بسنة الله وسنة رسوله)، وهذا يؤكد الجانب الروحي أو الديني في زواج البدوي، وحتى أنه عندما يأتي زوجته يذكر الله ويستعيذ من الشيطان، ويحرص على ان يكون ذلك ليلة الاثنين او الجمعة، وفي ذلك أصل ديني أيضا، ففي الاولى هذا حديث رسول الله (ص): **(اذا تزوج احدكم امرأة او اشترى خادما، فليأخذ بناصيتها، وليسم الله عز وجل، وليدع بالبركة، وليقل "واعوذ بك من شرها، وشر ما جبلتها عليه")**.

ونجد في قوله تعالى ايضا: **(فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث، ورباع، فان خفتم الا تعدلوا فواحدة، وما ملكت ايمانكم ذلك ادنى الا تعولوا)**.

وفي هذه الاية جواز النكاح عن طريقين: الزواج الشرعي، واقصاه أربع زوجات وادناه واحدة (فواحدة)، والتسري وهو ملك اليمين، حيث لا حقوق لهن كحقوق الزوجات. وفي الاية (فانكحوا) نجد الحض على الزواج بما يشبه الأمر، بل إن البدو يعتبرونه أمرا الهيا يجب تنفيذه، ففي الزواج (عندهم) تحصين للنفس من ذكر وانثى، وارضاء لله ولرسوله، واتمام لنصف الدين، كما أن الدين الذي يدينون به وهو الاسلام هو دين الدنيا والاخرة.

ويرتبط بالزواج إعتقاد أن من يتزوجها الانسان بكرا في الحياة الدنيا تكون له في الاخرة لأنه أول من كشف على عورتها، وافتض بكارتها، ويعتقد اخرون ان الزوجة تكون في الاخرة من نصيب اخر زوج لها في الحياة الدنيا سواء أكانت ثيبا ام بكرا، لذا فالاكثار من الزوجات في الدنيا، معناه الاكثار منهن في الاخرة، وهم بذلك يهيئون أنفسهم للحياة الاخرى، بما طاب لهم من أزواج الدنيا (فانكحوا ما طاب لكم) وبذلك نجد مدى اهمية الدافع الديني في زواج الانسان البدوي.

الدافـــع العصـــبي:

يقول البدو: (عد ارجالك وارد الماء) اي ان العزوة والأهل والعصبية من الرجال الذكور المحاربين هم الوسيلة لتحقيق الهدف، فحيث يكون النزاع على الماء فيشرب القوي قبل الضعيف ويتقدم عليه، وذاك يتأخر، ويشرب القوي الصفو، وذاك يشرب الكدر والطين، تلزم العصبية بكثرة الرجال وقوتهم، وهؤلاء لا يأتون الا بالتزاوج (تناكحوا تكاثروا)، (وبث منهما رجالا كثيرا ونساء)، ونجد اهمية العصبية منذ سيدنا لوط عندما تمنى لو كان له رهط ينصرونه على قومه الفاسقين، وزمن سيدنا شعيب عندما كانت بناته تسقي اغنامه بعد ان يصدر الرعاء، وزمن الجاهليـة (ونشرب ان وردنـا الماء صفوا = ويشرب غيرنا كدرا وطينا)، مما يدل على اهمية القوة والعصبية والعزوة.

ويقول البدو ايضا (بلاد بلا جهال راحت قطايع)، والمقصود بالجهال هم الذين ينفذون الاوامر بالحرب والضرب والغزو، وهم القوة المحاربة والعصبية المهمة، حملة

السيف، فبدونهم تضيع الحقوق ويتفرق القوم ضعفا أمام الاعداء، ولا يبقى واحد مع الآخر (راحت قطايع)، وهذا يبين مدى أهمية العزوة والعصبية ويقول البدو عن الذي لا يكون له اولاد انه (ناشف الجلد مقطوع الولد) وهذا في رأيهم لا حق له باداء الشهادة حيث لا تقبل منه، ولا يحق له الاستمرار او المطالبة بالمشيخة، لأنه ليس ابا وبالتالي قد لا يكون رحيما، ولا يعرف قيمة التوالد، وكثرة الرجال، والحنو والحنان على الابناء الذين سيكونون رجال المستقبل وعلى افراد القبيلة عامة.

ويعتبر البدو ان عصبة الرجل هم رفاقه (اي ان هذا اللفظ يستعمل لعزوته)، فيقول الشاعر البدوي:

يـا رب لا تموتنـي بديـر الاجناب غـير الرفاقـة واقفـين علـي

اي هو بينهم، وهم حوله، يدافعون عنه، تكتحل عيناه برؤيتهم اقوياء يتابعون المسيرة بعده في اخذ ثاره، او الدفاع عن القبيلة.

وكلما كانت الرجال كثر، كانت العصبية اكثر قوة (عد ارجالك وارد الماء)، وفي زيادة العدد زيادة في قوة القبيلة في **اتجاهين:**

الأول في حفظ مكانتها والدفاع عنها.

والثاني في التوسع على حساب القبائل الاخرى، وغزوها، والحصول على مزيد من الاسلاب والارض.

والمجلس: عندما يحوي افراد العصبة يكون محببا للنفس، حيث يأخذ كل واحد حريته في الحديث صراحة (مع) او (ضد) دون ان يستطلع اسرارهم واخبارهم احد من الاخرين ويقول البدوي في ذلك:

ياما حلى الفنجـال مع سيحـة البال في مجلس ما بيـه نفس ثقيلة
هـذا ولـد عم وهـذا ولـد خال وهـذا رفيـق ما ندور بديلـه

والشيخ المحظوظ: هو من لديه عزوة قوية، يتفاخرون به، ويفتخر بهم وهم يغنون

يـا شيـخ حنـا عزوتك جلايبـك يوم المبيـع
وان ما بعـت حنـا نبيـع بـارخص ثمـن لليشـتري

والعزوة او العصبية لازمة في اربعة وجوه اولها:

للفرد: ليكون موقعه في الاسرة او العائلة حيث يحترمون من له ذرية، ويحبونه، ويحبون زوجته، لأنها تقوي الاسرة

وللأسرة لتأخذ مكانتها في القبيلة، وكم من اسرة قويت عصبتها وشوكتها وسيطرت على اسرة اخرى، وانتزعت منها المشيخة، وسادت مكانها، وكم من فرد بعزوته (ابنائه او اخوانه) سيطر على اسرة، وانتزع السيادة او المشيخة من اخر من نفس الاسرة او العائلة.

وأما اهميتها ولزومها **للقبيلة**، ففي زيادته تزداد شوكتها، وقد تقلم اظافر المعتدين، او تنبت لها اظافر ومخالب جديدة، وتسيطر على قبائل ومشيخات واراضي

جديدة، واذا ضعفت فقد تندثر القبيلة كاملة، او تصبح تحت لواء غيرها طلبا للحماية وكل هذه الاوضاع لا يحبذها البدوي ويسعى جاهدا لتجنبها.

واما اهميتها للشيخ: فذلك انه يكون زعيم قوم كثر لأنه (انما تكثر القوم بالنصر، وتقل في الخذلان)، ولان التكاثر مهم(عد ارجالك وارد الماء)، فاذا ما كثرت عصبته، قويت، واصبح (مهيوب الجانب)، وحتى في الدول الحديثة وبعض النظريات السياسية يعطون اهمية لزيادة عدد السكان، من اجل توسيع المجال الحيوي للدولة، والدفاع عن كيان الوطن. وحتى ان الشيخ يتزوج اكثر من زوجة احيانا لتكون له عصبة داخل عصبية قبيلته، وكم من شيخ اغتصب السلطة من اخيه او قريبه، او شيخ اخر من القبيلة، لأنه اصبح ذا عصبة ذاتية قوية من ابنائه واحفاده، بحيث ترجح كفة الميزان لصالحه، ويكون ذكيا في استغلالها. وكم من قبيلة مستضعفة ازداد عددها وكثر رجالها فاستعادت مكانتها او اخذت لها حيزا جديدا، ومكانا جديدا، وكم من شخص ضعيف لا يعتد به، غلب على امره ممن هم اقوى منه رهطا وعصبة، فلجأ الى الزواج من اكثر من واحدة، فيلد له بالسنة اثنان او ثلاثة او اربعة، وعلى مدى عدة سنين تكون الحصيلة عائلة قوية، مدربة على الفروسية، فيغيرون على من اغتصب والدهم حقه وكالوا الصاع صاعين، (فهم اولاد اليوم وليسوا اولاد امس)، فاليوم اقوياء كثر اخذوا حقهم بعكس ما كانوا عليه من قبل، فهم في موقع وموقف جديد وليسوا في موقع وموقف سابق... انها معادلة تتخذها احدث الدول، قاعدة لها، وكذلك يستخدمها المفكرون، انها تعني ان الشيء الثابت في الدنيا هو التغير كما يقول علماء الجغرافيا، وانه ما بين طرفة عين والتفاتها يغير الله من حال الى حال.

وهكذا من اجل الدفاع عن حياض الاسرة، والعائلة، والقبيلة، ومن اجل الهجوم على العدو والانتقام منه (اي لاغراض عسكرية) ومن اجل ان يكون الشخص والشيخ والقبيلة اقوياء يحسب لهم الف حساب، ويأخذون مكانتهم اللائقة، فلا بد من العصبية والعصبة وهذا لا يتأتى الا بوجود الرجال الذي لا يكون الا بالزواج... انه هدف (العصبي) تفرضه طبيعة الحياة البدوية في الصراع من اجل البقاء والحياة، خاصة وان منطق القوة هو الذي لا غنى عنه حيث تنعدم السلطة الرسمية.

والبدوي يبدأ بارضاء القوى الغيبية (الدافع الديني)، وبعد ان يطمئن الى ارضاء هذه القوى، يبحث عن وسيلة لحمايته من قوى الشر المنظورة من اخيه الانسان (الدافع العصبي) وبعد ان يطمئن الى رضى الالهة، وانه في مأمن من العدو يكون الدافع الثالث وهو اللذة والكيف.

الدافــع الجنسي: اللذة والكيف:

انه الان يبحث عن الراحة النفسية، واللذة والكيف، وعن نصفه الاخر، عن جزء منه **(الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها).**

واذا كان الجنس احدى الغرائز الرئيسية في جميع مخلوقاته النباتية والحيوانية،

ومن ضمنها الانسان، فان اشباع هذه الغريزة وان اختلفت المخلوقات في ممارستها الا انها تؤدي الى هدف واحد لدى الحيوان لانقضاء الشهوة، والحصول على اللذة بالاضافة الى حفظ النوع، واستمراره، اما لدى الانسان فان ممارسة الجنس مع الزوجة هو بحد ذاته سكن وسكينة وطمأنينه وتفريغ لشحنات نفسية ومادية لا يطيق أي من الطرفين ابقاءها لديه اكثر من فترة معينة بالاضافة الى كونها لذة وانقضاء شهوة، واشباع للجوع الجنسي.

ومن هنا نجد الممارسات غير الشرعية عندما لا تتوفر الممارسات الشرعية في وقت الحاجة، (من حيث المبدأ) وان كانت العادة لا تتقيد بعدم توفر المشروع او توفره، لأن النفسيات تختلف وتتباين ايضا.

ان الدافع الجنسي في الزواج امر مهم وهو ثالث الدوافع اهمية عند البدو وان كان اكثرها بروزا للعيان، لأنه الاتصال الاولي من اجل تحقيق الهدفين السابقين، وبدون هذا الاتصال لا يكون الزواج، ولا اللذة، ولا التوالد، وبالتالي تنتفي الدوافع الدينية والعصبية، واحيانا يتحقق الدافع الديني وينتفي العصبي، عندما يتم الاتصال الجنسي، ولا يتم التوالد، فيبحث الرجل عن زوجة اخرى لتحقيق هذه الغاية المهمة (العصبية) التي لا غنى عنها في حياة الصحراء والبداوة.

وليس الجنس وحده هو المهم، وانما ما يرافقه من اللطف والحنان والحب والشوق شيء مهم ايضا، حتى ان الجنس يصبح جزءا منه، وليس هو جزء من الجنس، قال تعا! **(ومن اياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مود ورحمة)** فنرى السكن (لتسكنوا اليها)، و (مودة ورحمة).

وفي النكاح طيب، ولذة وكيف، واستهواء ورغبة، حتى قال البدو عن الزوا والجنس (هذا عسل ما ينشبع منه)، ويقول تعالى **(فانكحوا ما طاب لكم من النسا ..الاية)**

والجنس هو جزء من الكيف عند البدو، فمن الكيف (الكرم، ومشتقاته)، والقهوة، والغزو احيانا، والزواج، والجلوس مع النساء فيقولون مثلا:

الكيــف ما هو كيــف بن وغلاوين والكيــف ذبـح الحيـل باول كوانين

وايضا:

يــا ما حلا الفنجــال في فيْ وظلال وبمجلس ما فيــه نفس ثقيلة

وأيضا: (دلال القهوة، وحضن القعوة): وايضا (اطري لحيتي)

وايضا:

شفـي بحمـرا باول الخيـل تهتاش لصـار عنـد اقطيهـن حس جلعود

فالكيف عند الاول ليس التدخين وشرب القهوة فحسب، بل وايضا الكرم وذبح الغنم الحيل (جمع حائل وهي انثى الغنم التي لم تحمل ولم تلد في تلك السنة).

واخر يراه في شرب القهوة في ظل ظليل، ومجلس من الطيبين خال من ذوي الدم الثقيل.

واما ذاك فيرى ان الكيف في فنجان القهوة ودلالها وما فيهما، وفي حضن القعوة، اي الزوجة، وايضا يراه في (تطراية اللحية) وهذا تعبير يعني الانس والكيف واللذة في احضان فتاة جميلة.

واخر يرى الكيف في الحرب، والمعركة وركوب الخيل...الخ، ولا شك أن نظرتهم الى الكيف واللذة رغم تفاوتها، الا أنها في عمومها متفقة تقريبا، وهو اشباع الحاجة في وقتها.

وفي الاسر في الحنين للعشيرة والعودة اليها ورؤية الاهل والحبيبة، واما في اوقات الفراغ (في استراحة المحارب) فهو يبحث عن الجنس من أجل اشباع الحاجة وتلبية الغريزة، والحصول على النوع واستمراره الذي يعني استمرار البقاء (لان من خلف ما مات - اي من كان له عقب من بعده منه، لم يمت)..

والجنس في المجتمعات العصرية شيء مهم في علاقات الجنسين، حتى أن الفتاة ربما تخادن اكثر من شاب والشاب يخادن اكثر من فتاة بطريقة غير مشروعة ليحصل كل واحد منهما على جزء من الجنس قد يفتقده في الطرف المقابل، وبالتالي تصبح هناك تجزئه غير مشروعة لما يحصل عليه من لذة، بينما نجد اللذة واحدة عند البدوية حيث لا تمارس ذلك الا مع زوجها، بينما قد يتزوج هو اكثر من واحدة من اجل العصبية واستكثار النسل والذرية، وحتى لو كانت لذته مجزأة لدى زوجاته، ومكتملة في عمومها، الا انه يفعل ذلك بطريقة مشروعة وكل ما هو مشروع يمارسه الانسان مستقرا ومرتاحا، وكل ما هو غير مشروع يمارسه تحت وطأة القلق، ووخز الضمير والتجزئه.

ان الانسان في الزواج انما يبحث عن نصفه الذي يفتقده ويتممه (وخلق منها زوجها) فالزوجة في الاصل جزء من الزوج، وهي منه، وقد خلق الله سبحانه بني آدم عليه السلام (من نفس واحدة) ثم انه خلق منه امنا حواء عليها السلام(وخلق منها زوجها)، فكانت حصيلة علاقتهما، واتصالهما معا ان تكاثر الناس والبشر (وبث منهما رجالا كثيرا ونساء)، وبذلك نجد ان الزوجة شيء اساسي في حياة الرجل (لتسكنوا اليها) - ومن اجل الحفاظ على الجنس البشري، واشباع الجنس، وارضاء الله سبحانه، وحيث أن التجانس شيء اساسي وضروري في ممارسة الجنس ليتم حفظ النوع والمودة والرحمة، والسكن والسكينة خلق الله انسانة اخرى من نفس صنف ونوع آدم، وبذلك خلقها منه (كجزء منه)، وبذلك نجد اسمى المعاني في ان الزوجة جزء من الرجل، ومتممة له، فعليه ان يكون بها رؤوفا رحيما كرأفته بنفسه ورحمته لذاته. ثم نجد ان التزاوج يكون بين كل ذكر وانثى حيث يتمم كل منهما الاخر وبث الله من ادم وحواء (رجالا كثيرا ونساء) وبذلك يتحقق معنى الآية الكريمة **(يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، ان اكرمكم عند الله اتقاكم)**، فالذكر والانثى الذي نجده في الاية يعني (ادم وحواء)، ويعني الزواج بين الذكر والانثى في الممارسات العادية للزواج المتعارف عليه بين الناس (من ذكر وانثى) فالزواج بين طرفين متممين لبعضهما لكنهما متجانسين ليكون التوالد، وحفظ النوع، والسكينة والمودة والرحمة **(وجعلناكم شعوبا**

وقبائل لتعارفوا).

واذا عرفنا أن الفراغ في حياة الانسان البدوي كبير وكثير، وان الجنس في العقل والتفكير، وكلما كان لدى الانسان فراغ امتلأ بالتفكير في الجنس، عرفنا كم يملأ هذا الشيء فراغا لدى البدوي، ويستفرغ منه شحنات الملل، والارق، ويعوض البحث في امر اخر، بينما البدوية تعمل كثيرا في جلب الماء والحطب، واحيانا رعي الماشية، والغزل والنسيج، وبالتالي فالفراغ عندها اقل من الرجل، واذا كان المتعارف عليه او على الاقل هذا هو ما يعتقده البدو أن المرأة تفكر في الجنس أضعاف الرجل، فان البدوية (في حقيقة الامر) ليس لديها الفراغ للتفكير به الا يسيرا، فما يأتي المساء الا وقد تاقت للنوم من شدة الانهاك والتعب، بينما الرجل في عز نشاطه وحيويته ورغبته في ممارسة الجنس، وبذلك ليس غريبا ان يكون هذا هو احد اسباب تعدد الزوجات للرجل الواحد من الناحية الجنسية مضافة للدوافع الدينية والعصبية وغيرهما..

ومن دلائل الدوافع العصبية والجنسية في الزواج ان الزوجة اذا مرضت او أصيبت بما يعطل وظيفتها الزوجية، او يحد منها، نجد الزوج يسارع الى اخرى تقوم بالمهمة على احسن وجه، وكذلك الامر اذا كانت اكبر سنا من الزوج، (وهذا يحدث كثيرا) وبموافقة الزوجة الاولى ورضاها!!!

ولا بد لنا من الحديث عن نقطة هامة هنا وهي انه لا توجد مشكلة العزوبية عند البدو، بل انها تنعدم تقريبا، سواء بالنسبة للذكر ام للانثى فالرجل يجد زوجة في اي سن حتى ولو بلغ من الكبر عتيا وكما يقول البدوي:

حنا إليا شبنا خذينا شباشيب وانتن اليا شبتن كما الشن بالي

ورغم هذا فالانثى تجد الى حد الخمسين من عمرها زوجا اذا رغبت هي بذلك وغالبا لا تفعل بعد سن الخامسة والاربعين رغم انه ليس عيبا من حيث المبدأ الا انه من حيث العادة يعتبر صنفا من التصابي، والتشبب الذي وان كان مقبولا من الرجل، الا انه ليس كذلك من الانثى.

ويجد الذكر والانثى كل منهما زوجا، حتى ولو كان قد طلق اكثر من مرة، واعرف بدوية تزوجت سبع مرات كان اخرها وهي في سن الخامسة والخمسين.

واذا كان المجتمع المتمدن الذي يلجأ لما يسمى بالهجر، او (بالمعلقة)، اي (ليست مطلقة) فان ذلك تعقيد للمشكلة وخلق لمشكلة جديدة من جملتها الجنس الذي لا غنى لانسان عنه.

اما البدو فهم يفعلون عكس ذلك تماما، اذ انهم يحلون المشكلة بدون توقف، (فلكل ساقطة لاقطة)، (والطيور على اشكالها تقع)، (وكل من يلقى نصيبه)، (والزواج ستيرة)، (ونار الجوز ولا جنة الاهل)، (ومر الجوز ولا حلو غيره) كما ان اية ممارسات خارج هذا النطاق (أقصد العشرة غير المشروعة)، تجد الحرب والضرب بيد من حديد، وتواجه بالموت الزؤام، ومثل هذا العقاب الصارم يؤدي الى الحياة الشريفة ويزيل ما يمكن ان يساور النفوس من اشمئزاز من الزواج، وتعدد الزوجات، او الازواج.

واما في المجتمعات العصرية، فان الاشمئزاز من التعدد سواء للزوجة او الزوج، يجعل من فشل في حظه الاول يتعثر بقية عمره خاصة بالنسبة للانثى واذا لم يكن ذاك التعثر، فان المشكلة تواجه المعني بالزواج، وربما يتعقد نفسيا، وينصرف عن الزواج انصرافا كليا، او لا تتاح له فرصة الممارسة الشرعية لسبب اخر، فيضطر لعمل ذلك بوجه غير شرعي، وهذا يتمخض بمشكلة ذات حدين للانثى والذكر، خاصة وان العقاب الاجتماعي او العصبي ليس بالمستوى الموجود في المجتمع البدوي، ويمتلىء المجتمع المسمى متحضرا، يمتلىء بالعقد والمصائب، وهي التي تخلو طريقة المجتمع البدوي منها، ذلك ان البدو اخذوا ذلك عن الاسلام الذي فيه حل لجميع مشاكل بني الانسان في كل زمان ومكان.

واذا كان الانسان في المجتمعات العصرية يذهب الى حيث لا مكان للشرف عندما يرغب في قضاء حاجته لمجرد المتعة فقط، ويخون بذلك نفسه وزوجته، فان البدوي يزاول ذلك بطريقة شريفة ومشروعة تتناسب مع الدين، وتأتي بالولد والذرية، وتقضي الحاجة والشهوة في اعلى درجاتها السامية ولا شك ان هناك فارقاً عظيماً بين الموقفين...أليس كذلك؟!

الدافع الاقتصـــــادي:

يقول البدوي (اللي يصلح يصلح، واللي ما يصلح مع الغنم يسرح)، وبذلك فمن اهم الواجبات الملقاة على انسان الصحراء: توفير الحماية، ولقمة العيش، اما الحماية فهي الفردية تجاه الاخرين، والقبيلة تجاه ذاتها أي امنها وحمايتها من داخل افرادها الا يكونوا جبناء، وأن يكونوا فرسانا، متكاتفين، متفقين، يدا واحدة، وحمايتها من الخطر المحدق بها من الخارج من القبائل الاخرى، وبذلك فان استعدادت الحماية الداخلية تؤدي بالتالي وظيفتها في حمايتها من الأخطار الخارجية.

واما لقمة العيش، فتتوفر من الغزو، والصيد، والتجارة، والزراعة، والجمع والالتقاط، ومن الرعاية وهي اهم وسيلة لكسب العيش لدى البدوي، وبذلك نرى اهمية قولهم أن من يصلح للحياة والغزو، والكرم والصيد...الخ، فهو كذلك، والا فيمكنه ان يرعى الغنم، لأن الراعي يأتي في الدرجات الدنيا بالنسبة للتنظيم الطبقي عند البدو حيث يقول الشاعر البدوي:

وباقي الناس فحـول نسـوان ورعاة   حـراس مال ويتبعـون السروحي

والبدوي يستخدم الانثى عادة في رعي الغنم والابل ايضا وهذه عادة بدوية قديمة كانت في الجاهلية وما قبلها فيقول عنترة مثلا:

اذكري يا عبـل أيـام الصبا   يـوم كنـا في الفـلا نرعـى الغنم

ونجد في القرآن الكريم قصة سيدنا موسى كيف ورد ماء مدين فوجد اثنتين تذودان بغنمهما تنتظران صدور الرعاء عن الماء وسألهما عن ذلك... ونجد هذا في الاية الكريمة مفصلا: **(ولما ورد ماء مدين وجد عليه امةً من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال: ما خطبكما؟ قالتا: لا نسقي حتى يصدر الرعاء وابونا شيخ**

كبير، فسقى لهما ثم تولى الى الظل)، ونجد هذا البدوي يخاطب فتاة جميلة، كيف ترعى الغنم، ويدعو على من علمها ذلك بالموت بالشلفا: (من علمك يا بنت لسروح الغنم، ريته بشلفا من يمينالشافي)، وتستهجن بعض البدويات رعاية الرجال للغنم لأن ذلك من مهام النساء عند بعض القبائل فيقلن: (تسرح بعلها مع إبلها، او صنمها مع غنمها) اي زوجها مع مواشيها.

فالبدوية ترعى الغنم، وتجلب الماء، والحطب، وتعتني بالماشية وتربي الاطفال، وتصنع الطعام لزوجها وللعائلة، وللضيف، وتشارك زوجها في الحراثة، والحصيد، وجني الثمار، وكل هذه اعمال اقتصادية لا غنى للبدوي عنها، وتشاركه الانثى من زوجة وام وابنة.. وبذلك فالزوجة نفسها لها اهميتها الاقتصادية، وكذلك تنجب من أطفال يكونون رجالا أو أناثا يكون لهن مهور مربحة احيانا، او مشاركة بالطيبين عن طريق المصاهرة والزواج.

وعند البدو الذين استقروا وعملوا في الزراعة، ازدادت مهمة المرأة الاقتصادية فهي تزرع وتجني، مع الزوج، واحيانا تفعل ذلك وحدها، تماما كاختها البدوية المتنقلة التي قد تسرح بالماشية وحدها، او مع احد من الناس.

والبدوية تقوم بنسج (اشقاق) البيوت السوداء، ومفردها شقة بكسر الشين وفتح القاف اي انها تبني البيت واقصد صنع مكوناته الضرورية، وبما تيسر مما توفر يمكن بناء بيت جديد، ويقولون حينها، بارك الله من بيت طلع من بيت.

وان صنع الطعام للبدوي وتجهيزه له بحد ذاته عامل اقتصادي مهم ايضا، وما اهم في الدنيا لاستمرار الحياة من شربة الماء؟ ولقمة العيش؟. وفي المجتمعات العصرية يلعب العامل الاقتصادي دوره في الزواج، سواء بتأخيره، او تقديمه، او اختيار الزوجة الموظفة التي تشارك زوجها الحياة وتحمل معه اعباءها، خاصة في ضوء الغلاء الفاحش عندما يتعرض له المجتمع، أو بالحد من النسل، وما الى ذلك.

والمرأة البدوية ليست عامل هدم في الاقتصاد البدوي، بل العكس فانها تعمل احيانا اكثر من الرجل خاصة في الامور البيتية، لأن هذه واجباتها بالدرجة الأولى.

وفي المجتمعات البدائية تقوم المرأة بزراعة ساحة البيت، وتجمع الطعام من الاماكن القريبة، وتطهي الطعام وتربي الاولاد، بالاضافة الى كونها زوجة، وهكذا فاهميتها واضحة في جميع المجتمعات، الا انها في البداوة اكثر وضوحا، لأنها تعمل باستمرار، وهذا بدوره يقوي جسمها باستمرار فترى الواحدة وقد شارفت على الخمسين، وهي لا زالت قوية نضرة، بينما لا يتأتى هذا لامرأة المدينة الا بمساحيق التجميل والوسائل الاخرى؟!

دافع الضغط الاجتماعي:

الضبط او الاجبار الاجتماعي يلعب دوره في كافة مناحي الحياة، فالبدو يخافون من (كلام الناس)، ويحسبون لذلك الف حساب ويقولون (وراك مقاعيد الضحى) اي اذا

جلس القوم ضحى وتحدثوا في موضوع معين، وتطرقوا لفلان، فذموه او لعلان فمدحوه، وهذه يخشاها البدوي، واما دور الضبط او الضغط الاجتماعي في الزواج فكبير جدا، فمن العيب ان يوصف الرجل بصفات انثوية، او الانثى بصفات الاسترجال ويقولون: (لعن الله الرجل المخنث، والمرأة المسترجلة)، ومن صفات الانثوية فيه ان يعجز عن المواقعة، وهذا لا يؤثر عليه وعلى سمعته فحسب يتعداه الى عائلته، فيحجم الناس عن الزواج من اخواته لأنه سيكون خال ابنائهن، وسوف يؤثر (بالوراثة) على طبيعتهم ويكونون مثله، فلا تكون لهم ذرية ويكونون من نوع (ناشف الجلد مقطوع الولد).. وهذا يضعف العصبية ويقطع الدار، وكلها لا يطيقها البدوي لأن (من خلف ما مات)، وقطع الدار هي من الامنيات السيئة التي يرتجيها الشخص لعدوه، فهي بلوى ومصيبة.

واذا لم يتزوج الشخص، او تأخر بلا مبرر وصفوه (بالعجز) واشاروا اليه بالبنان مع ما يترتب على ذلك من اضطراب في علاقاته مع الاخرين، فيعتبرونه كالانثى (هصورا – أي غير قادر على **المواقعة**) وقد يؤدي التأخير الى وصمه بصفات سيئة كالانحراف الخلقي، فهو لا بد ان يشبع هذه الحاجة، واذا لم تتوفر الوسيلة المشروعة. فهو لا بد اذن اخذها بطريقة غير شريفة، وهذه سمعة سيئة يتجنبها البدوي للغاية، وشخص من هذا الصنف يصبح غير مرغوب فيه، كضيف او جار، او حتى وارد على العين، او حاضر الجنازة او زفاف او اية افراح (لأن عينه ترف ونفسه تشف)، ولأن هذه النوعية قد تجد الاقبال لدى بعض النسوة حتى ولو كان تجاويا بالكلام، مما يضع علامات استفهام وتساؤل حول من يتردد عليهم مثل هذا الشخص فهو ايضا يأتي بالبلاء لمن يصادقه، لأنه (رافق المقرد تقرد، ورافق المسعد تسعد).

والعشيرة لا تسمح بتأخير زواج اي فرد منها، فهم يريدون اعدادا جديدة من الرجال، من المحاربين، من العزوة العصبية. وان التأخير ايضا سيؤدي الى عدم اتاحة الفرصة امام بناتهم للزواج، وهذا بالتالي قد يؤدي الى انحراف لدى الطرفين، وذلك ما يخشاه البدو، بل انهم لا يسمحون به، فالزواج المبكر ينهي كثيرا من المشاكل الاخلاقية، (حتى ولو جلب المشاكل والخلافات العائلية) وربما ينهيها جميعها، وهو وان اوجد مشاكل جديدة فهي بلا شك لا تساوي شيئا امام اي انحراف خلقي وهكذا نجد ان الشخص يخشى العقاب الاجتماعي المتمثل في (كلام الناس)، واحتقارهم له، والاشمئزاز منه، والتعليق عليه، وعتب جماعته في انه يضعف عصبيتهم ويحد من ازدياده رغم انهم احوج ما يكونون الى ذلك، فيضطر امام كل هذا أن يلبس الثوب، ويرتدي الرداء الذي يقبله المجتمع ويباركه ويحبذه، حتى ان الجميع من حوله يشاركونه فرحته، كدليل على الاهمية الاجتماعية والمشاركة الجماعية، لهذا الشخص، وان الامر يعنيهم جميعا، حتى انهم في رقصة الدحية (السامر) يقصدون شعرا كما يلي:

يـــا هيـــل الفـــرح الجـديد يـــا ليتـــه مـــبـروك وسـعيد
يـــا ليـــت صغـــيركم يكـــبر ويجيـــب النفـــع من بعيـــد

انها مشاركة جماعية، واما في ان يكون المولود ذكرا يأتي بالنفع المتمثل بالغزو،

والرعاية، وربما العمل والتجارة، او الزواج من فتاة نافعة.

وهذه (عادة الزواج المبكر) او لنقل الضغط الاجتماعي في الحث على الزواج توجد فرصة جديدة للبدوي والبدوية ان يتحمل كل منهما المسؤولية منذ سن مبكرة، ويصبح أبا، وتصبح هي اما، وبالتالي في قلب كل منهما حنانا، وتطلعات للمستقبل الذي لم يكن يتعدى انذاك الرعاية والغزو، والضرب في الارض، وربما المشيخة في حالات نادرة اذا لم يكن شيخا اصلا.

ونجد في مجتمعات اخرى قديمة ومعاصرة نظرة للشخص الاعزب مشابهة لما لدى البدو.

ففي المجتمع الفرعوني القديم مثلا كانوا يعتبرون الرجل حكيما عندما يؤسس لنفسه منزلا، ويحب زوجته.

وفي السنغال قبائل تسمى (السانتال) يحتقرون الاعزب ذكرا كان ام انثى ويطلقون عليه اسم (لا رجل) وهو ما يقابل (الخنثى عند البدو - اي انه ليس ذكرا ولا انثى).

واما قبائل الكافير فليس للاعزب عندها حق الانتخاب.

واما قبائل الكاشين (في بورما) فتقيم طقوسا جنائزية ساخرة لوفاة كل اعزب او عانس.

وعند البدو يعتبر الزواج رباطا وسترا، فهو يثني الشاب والفتاة عن النظر يمنة ويسرة ويزيد من مسؤولياته.

ان العامل الاجتماعي يمثل الضغط الجماعي، وارادة الجماعة في تحصير الشباب، والفرحة بهم، وضمهم الى مجتمعهم المنتج المنجب للرجال وللعصبة، فتقوى شوكة القبيلة، وتهابها القبائل الاخرى. وان الدافع الاجتماعي هو حصيلة مجموعة الدوافع الدينية، والعصبية والاقتصادية وعندما تخجل الفتاة او الشاب ان يقول احدهما اريد زوجا، يتكفل بالمهمة جماعته من حوله فيحثونه على الزواج، بينما يبقى كل طرف محافظا على حيائه ورزانته، وما يمكن ان يخرجه من هذا الطور يقوم به غيره في اطار الحياء، والرغبة الفردية والجماعية، وقضاء الشهوة والارادة.

الدافع المزاجي:

وقد يضاف الى الدوافع السابقة دافع لا مبرر له سوى المزاج والرغبة التي تراود صاحبها منذ امد او تكون وليدة الساعة، فكم من شخص تزوج فقط من اجل ان يستمتع، او اعجبته فتاة، ودخلت مزاجه، وخطبها وتزوجها، وقد يعاني من مرض نفسي في داخله وهو (حب التغيير والتنويع) وحيث لا يتأتى هذا بسهولة بطريقة غير مشروعة، فانه سهل بالطريقة المشروعة، حتى نجد بعضهم مزواجا، وتصل عدد زوجاته طيلة حياته فوق العشرة او العشرين، وبالطبع لا يجمع بين اكثر من أربعة في وقت واحد، ويترتب على الدافع المزاجي في التزواج، تعدد الطلاق، وبالتالي وجود المطلقات "العزبات - ومفردها اعزبة، ويقال للفتاة التي لم تتزوج عزباء، ولمن مات زوجها ارملة)، ولكن هؤلاء ايضا

يجدن الازواج، فنادرا ما تبقى فتاة او مطلقة او ارملة بلا زوج في البادية، الا اذا رغبت هي عن الزواج، او بها عاهة تمنعها من ذلك بتاتا.

ومن الدوافع المزاجية، أن يجلس قوم في تعليلة، ويتحدثون عن الحب والزواج والجمال، فيطلب احدهم من الاخر اخته، وابنته او موكلته فيوافق ذاك، وقد يتزوجها بنفس الليلة او بعد ذلك حسبما يتفقون.

والشيء الذي لا بد من ذكره في نهاية الحديث عن دوافع الزواج، **ان الحب يلعب دوره في الزواج** ولكن في اختيار الزوجة، فهو لا بد ان يتزوج سواء احب ام لم يحب، ولكن قد يؤدي الحب الى تأخير الزواج خاصة اذا حالت الظروف دون تنفيذه، وتوجد هناك عقبات وصعوبات، فينتظر الطرفان ازالتها، وكم من شاب تواعد وفتاة على الزواج وانتظر سنين عددا، وربما توصلا الى تحقيق هدفهما، وربما حال الحظ بينهما.

والزواج ايضا يكمن فيه حفظ النوع، واستمراره، وفي الحصول على الاستقرار النفسي، وفي اشباع الروح، وكل هذا تطرقنا للحديث اليه ضمن حديثنا عن الدوافع السابقة.

وعلينا ان نذكر **ان الظروف الطارئة** قد تؤدي الى الزواج، كأن يتقدم رجل غريب او بعيد لخطبة (ابنة العم) فيضطر ابن عمها الاعتراض والزواج منها فقط لأنها ابنة عمه، وفي هذا الدافع الاضطراري تكمن دوافع هي حصيلة العوامل الاجتماعية المختلفة.

وكما ان دافع طلب الستر يلعب دوره، كأن تموت زوجة شخص، او ان يتزوج شيخ كبير دونما هدف لانجاب اطفال، او طلب اللذة، وانما فقط لتخدمه، وتستره في (تالي عمره)، وقد تكون صغيرة السن او ربما امرأة قنطت من الولادة، فتجد في ذلك سترا لها ايضا، انه اشباع للجانب الروحي ايضا...



بيوت الغوارنة في غور الصافي (نيسان ١٩٧٣)

وعلى اية حال فان الزواج في جله بشكل رئيسي يأتي تلبية للدوافع الرئيسية السابقة، ونرجو ان نكون قد القينا الضوء على بعض ما هو موجود، فالكمال لله وحده، ونسأله التوفيق والنجاح ونأمل أن يقوم آخرون من بعدنا لالقاء مزيد من التفصيلات حول ذلك.

نظرة في تطور الــــــــزواج

وجد الزواج مذ وجدت المخلوقات حيث يقول تعالى **(ومن كل خلقنا زوجين لعلكم تذكرون)** ونجد في نص الاية ان جعل الزوجية في جميع مخلوقاته الحية من النبات والحيوان، حتى ان الرياح تكون لواقح في حمل الذكورة من النباتات الذكر الى النباتات الانثى فتلقح ويعقد النوى ويكون الانتاج والثمر، فسبحان الله عز شأنه.

واما الانسان (ابونا ادم) فعندما خلقه الله خلق منه زوجه **(الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها)** - ثم يقول سبحانه **(وبث منهما رجالا كثيرا ونساء).**
ويقول البدو: المرة انخلقت من ضلع اعوج اذا قومته كسرته، واذا تركته بقي معوجا)

ويقصدون بقولهم هذا أن حواء خلقت من ادم، وبالذات من احد اضلاعه
وهكذا تزوج ادم حواء بامر الله سبحانه **(وخلق منها زوجها)**، ثم كان التكا
والنسل الذي منه البشرية ومنه نحن **(وبث منهما رجالا كثيرا ونساء).** ثم تحول هـ
التزاوج بين هؤلاء الذكور، وهاته الاناث، وبصور واشكال متعددة جدا، ويرى البدو ا
ابناء ادم وبناته كانوا يتزوجون بعضهم بعضا، وان حواء كانت تلد في كل مرة توأما. ويتبادل بالزواج كل توم مع الذي يسبقه او يليه، حتى كانت الذرية، من رجال ونساء... اي ان الزواج بدأ بخلق زوجة من نفس الزوج **(وخلق منها زوجها)** ثم يتزوج الشخص شقيقته، كما هو لدى ابناء وبنات ادم وحواء عليهما السلام، ولعل قصة قابيل وهابيل دليل في اعتقاد البدو على ذلك.

ونجد انه في بعض المجتمعات القديمة كانت تطبق نفس الشريعة حفظا للدم والعرق والنوع، ففي المجتمع الفرعوني القديم كان الأخ يتزوج اخته ضمانا للدم الفرعوني، وحفظا على السلالة، وحتى لا تكون ابنتهم خارج العائلة، ولا تأتيهم فتاة من الخارج... وربما تطور مثل هذا الزواج بتحريم زواج الاخوات الشقيقات والسماح به من غير الشقيقات، وقد يحرم البعض الزواج من الاخوات من جهة الام ويسمح به من الاخوات من جهة الاب، اي انه كلما التصق النسب واقترب، كان الزواج من اجل صفاء العرق والاصل والنسب والدماء، واحيانا تكون النظرة معاكسة وهي التي تطورت من خلال الشرائع السماوية المتعاقبة بتحريم الزواج من الاخوات عموما سواء كن شقيقات ام غير شقيقات، واصبح واضحا ان ابنة العم، قد حلت محل الاخت (كزوجة) زيادة في

رعاية حرمة الاخت في الا تمارس الجنس مع شقيقها من جهة، ورعاية ابنة العم من جهة الاخرى حيث تقوم بنفس الدور والواجب في الحفاظ على العرق والجنس والدم والنوعية، ولا زال الزواج من ابنة العم محللا في جميع الشرائع (فيما اعلم)، حتى ان الزواج من ابنة العم اصبح شيئا مقدسا لدى بعض المجتمعات وخاصة البدو، واخذوا ينظرون ان ابن عمها هو صاحب الحق بها بدون جدال حتى ولو كانت في زفافها الى غيره فيقولون (ابن العم ينزلها عن ظهر الفرس)، حيث ان العروس عادة تركب فرسا في زفافها تيمنا بالخيل انها (معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة).

كما ان العائلة عندما تتشعب وتتكاثر وتبقى في نفس البيت فان اللحمة تبقى بينهم وتربطهم العصبية الاسرية والنسب، وان وجود الاب او الجد الذي يجمعهم، وهو يزوج احفاده، من بعضهم، هو بالتأكيد بديل لتزويج الاخوان بالاخوات، بأن يكون بين ابناء وبنات الاخوان، وعندما اتسعت الاسرة الى عائلة ثم الى حمولة، وعشيرة وقبيلة....الخ توسع الزواج بتوسعهم، فاصبح من ابنة العائلة والحمولة والعائلة والحفاظ على الدم ومحاولة اعادته الى الاصول والربط بين الاطراف المتباعدة الى المركز تماما مثل عجن كمية من الطحين ثم اخذ اطراف العجينة الى المركز ثم توزيعها من جديد وهكذا تبقى متماسكة ضمن حدود معينة، كذلك القبائل تتجزأ بعد وصولها الى حد او عدد او امكانات معينة، فتتفرق التسميات والعصبية، وتتباعد مع الزمن والحركة والهجرات والظروف الاجتماعية ومن ضمنها الحروب والحالة الاقتصادية ومع هذا التباعد والتغيرات تطور الزواج الى الاقتران بفتاة بعيدة (غريبة) وان كانت في الاصول القديمة ترتبط بالشاب بنسب او بغيره، وعندما اصبحت الناس (شعوبا وقبائل) كانت احدى وسائل التعارف (لتعارفوا..) هي الزواج وهو مزج بين الدماء وربط بين المتباعدين وتوطيد روابط المتقاربين.

وعندما كانت الاسرة واحدة وكانت الممارسات الجنسية بين الاخوان والاخوات، لم تكن هناك ضوابط في البداية للممارسة الجنسية اي (المشاعية الاسرية) لاعتقادهم ان لكل واحد منهم الحق في اخواته، ولكل واحدة الحق في اخوتها، ويكون لكل منهم نصيب (بالزينة والشينة) اي بالجميلة وغير الجميلة، ولهن نصيب الجميل وغير الجميل.

واما ما ينجبون من اولاد فهم لهم جميعا... وقد وجد مثل هذا النظام مع الزمن صعوبات جمة خاصة اذا انعدمت الاخوات او الاخوان في الاسرة، فتضطر بذلك الى استيراد حاجتها من اسرة اخرى، بالاضافة الى توسع الاسرة الى عائلة ثم الى حمولة وعشيرة....الخ ومن ثم لم يصمد مثل هذا النظام طويلاً، وان بقي لدى بعض المجتمعات المتأخرة فطرأ عليه تطوير وتغيير بتحديد الزواج اي ان يكون للرجل زوجة او زوجات محددات، وللانثى زوج او ازواج معينين، ونستطيع ان نسميه (المشاعية المحددة، او المنظمة) والذي قد يشمل زواج عدد من الرجال لعدد من النساء، بحيث يمارسون الجنس بشكل (مشاعي) وجماعي، وهذا بحد ذاته تغيير لشكل الاسرة على اساس الزواج وليس على اساس النسب او الانتماء لرئيس الاسرة الروحي او العصبي او النسب

الحقيقي... وبذلك كونوا نواة لنوع جديد من العلاقة الاجتماعية الانسانية، ولنقل القبلية المشاعية، او القائمة على الفوضى وبدون اسس سوى الزواج والجنس. ولا يشترط في الرجال ان يكونوا اقرباء ولا بالنساء كذلك، وقد يكونون اقرباء ولكن المهم انهم يعتمدون على رابطة الزواج.... ومع الزمن اصبحت المشاعية ممجوجة عند المجتمعات التي نزلت فيها اديان سماوية، او مصلحون خلقيون حتى ان البدو الان والذين انتهت المشاعية عندهم بصورها المختلفة بمجيء الاسلام الذي نظم علاقة الزواج ...هؤلاء البدو يذكرون المشاعية مقرونة بالسوء، والانحطاط، واللا اخلاق، فيقولون مثلا (مشاع) عندما يصفون (انثى) انها تمارس الجنس مع اكثر من واحد بطريقة غير مشروعة، ويعتبرون هذا نوعا من الحيوانية القذرة حتى ان الاتان (انثى الحمار) عندما تطلب السفاد يقال لها (شايع) لأنه يتبعها اكثر من حمار بدون ضوابط ولا اخلاق، ويقولون عن الكلبة (صارف)، وعن الانثى اذا بان عليها انها ترغب الجنس (محمحمة) وللرجل (محمحم)..الخ (اي متهيج جنسيا).

وهناك كلمة تعني نفس كلمة (شايع) ويستعملها البدو والحضر وهي (عمومي) وفي المدينة يقال (اماكن عمومية - حيث توجد الساقطات يستقبلن طالبي الجنس مقابل الاجرة).

وعندما ازداد عدد النساء في مجتمع معين نتيجة لطبيعة الانجاب، او الحروب...الخ، اقتضت ظروف المجتمع تعدد الزوجات اي ان يقترن الشخص باكثر من زوجة معا في آن واحد، وهذا تفسير واضح لطبيعة الانسان سواء الذكر ام الانثى، وان الجنس غريزة لا بد من ممارستها، والافضل او الطبيعي الاصح ان يكون ذلك بالطريقة المشروعة التي يقبلها الجميع، حتى ولو كانت لا توافق دينا معينا في مكان اخر، او لا تتفق وطبيعة مجتمع في موضع مختلف، لكنهم متفقون جميعا على ممارسة الجنس بطريقة يسمونها (الزواج)، وقد اختلفت نظرة المجتمعات، وحتى نظرة المجتمع الواحد اليه بين مكان وزمان واخر.

وقد اختلفت الاعداد التي تسمح بها التقاليد للزوج الواحد في ان واحد، ففي الجاهلية عند العرب عرفوا تعدد الزوجات بشكل يصل الى اباحية لا حدود ولا ضوابط لها. وكذلك تزوج سيدنا ابراهيم عليه السلام زوجتين، وتزوج سليمان بن داود عليهما السلام تسعا وتسعين زوجة، بالاضافة الى السراري، وعندما جاء الاسلام حدد الجمع بين الزوجات بعدد معين وهو اربعة.. مع الاباحة بالتزوج من اكثر من ذلك او اقل بحيث لا يجمع اكثر من اربعة في ان واحد، وجاء ذلك في الاية الكريمة **(فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، وان خفتم الا تعدلوا فواحدة، وما ملكت ايمانكم)**، وبذلك نجد ان الاسلام قد اجاز احتواء نسوة يزدن على الاربعة او من غير الاربعة عندما يكن من ملك اليمين (سراري) ولم يحدد العدد المقرر لذلك. وبالطبع (فالسرية او الجارية) لا تعامل في الاسلام معاملة الزوجة.

واما المجتمعات التي لا تزال بدائية فهي استمرار للمجتمعات السابقة القديمة،

وتعطي الصورة الحقيقية عن تعدد الزوجات في تلك المجتمعات.

فلدى قبائل الانيورو يصل التعدد من عشرة الى خمس عشرة زوجة للرجل الواحد اذا كان ميسورا، اما اذا كان فقيرا فله ان يتزوج ثلاثة، او اربع زوجات.

وقد بلغت زوجات ملك بنين ما بين ستماية الى الف زوجه، حتى انه كان يهب لبعض رجاله الذين يخدمونه باخلاص بعضا من هاته الزوجات.

اما في شانتي فزوجات الملك (٣٣٣٣) فقط لا غير؟!

اما ملك اوغندا السابق(فنيسا) فبلغ عدد زوجاته سبعمائة زوجة.

ولو عدنا الى شريعة حمورابي لوجدناها تنص على الزواج بواحدة.

واذا بقيت عقيما يتخذ له محظية (تقابل الجارية او السرية) دون ان يكون لها حق مساواتها بالزوجة.

وأما التلمود فقد جاءت فيه نصيحة تنص على الا يتزوج الرجل باكثر من اربع زوجات.

وربما اخذ الزواج شكلا اخر، بان يكون للزوجة زوج معين، بينما يحق لاي مر افراد القبيلة مواقعتها، ويكون المولود للزوج حتى ولو كان اصلا من غيره، وربما ينسد للام وبذلك عرفت المجتمعات النظام الاومومي.

واما تعدد الازواج للزوجة الواحدة فقد عرفته المجتمعات عبر تطورها ؤ مختلف العصور، فالعرب في الجاهلية كانوا يسمحون للواحدة التزوج من عشرة رجال في ان واحد، واذا زادوا سميت (بغيا) وفي القرآن اشارة لهذه الكلمة كدليل على مقتها ومنافاتها للحياء ومجافاتها للشرف حيث يقول سبحانه وعلى لسان قوم السيدة العذراء مريم عليها الصلاة السلام **(ما كان ابوك امرأ سوء وما كانت امك بغيا)** وان كانت الاية تدل ايضا على ان الوراثة لها قيمتها وعلى رأي البدو (اضرب القربة على ثمها تطلع البنت مثل امها)، فطالما ان امها ليست بغيا، فيجب الا تكون هي كذلك، ولو كانت بغيا، لاعتبر الامر شيئا عاديا، لأن الوراثة، تلعب دورها حتى في السمعة، واخذ الفكرة عن شخص معين سوءا كان ذلك ام حسنا.

وقد ظهر تعدد الازواج من خلال المشاعية الجنسية عندما يكون عددمن الازواج لعدد من الزوجات يمارسون الجنس معا بطريقة مشاعية، وربما وصل اقصى تنظيم للعملية في مراحله الاولى ان اصبح بالاسم تحديد زوج معين لكل واحدة، مع شيوع الممارسة وعند العرب في الجاهلية تطور الامر بحيث تستدعي الزوجة اقرب الرجال الازواج شبها بالمولود ليصبح هو الاب، وفي مجتمعات بدائية يعتبر الوالد هو زوج الانثى ولو لم يكن منه حقيقة، وقد عرفت مجتمعات قبائل الجنوب الغربي للهند هذا النظام مع نسبة الولد الى شقيق الزوجة الا اذا قررت هي نسبته لاحد ازواجها.

وعند العرب في الجاهلية (نكاح الاستبضاع) اي ان تتصل الزوجة بشخص غير زوجها قبل او بعد زفافها فيواقعها دون ان تكون له صفة الزوج او حقوقه، وكان الاتصال بنوعيات معينة ليؤتى لها بولد شجاع قوي كأبيه الحقيقي، تماما كما هو الامر لدى

الحيوانات (الخيل) حيث يوجد حصان خاص للخيل لتلقح منه (يسمى شبوة، بتشديد الواو) لأن نكاح الخيل عند البدو يسمونه (الشبا)، ويقولون (الحصان شبى الفرس)، اذا واقعها - فعل ماضي)، والمضارع (يشبيها) لكي تلقح منه بحصان او فرس جيد او جيدة، وكذلك الامر في نكاح الاستبضاع.

وربما رأت المشاعية أشكالا اخرى في مجتمعات اخرى وهي ان يتزوج الاخوة عددا مساويا لهم من الزوجات، وتكون الممارسة جماعية باعتبار الاخوة اصلا واحدا في عدة فروع وان ما يأتي لاي واحد هو قوة للجميع، وعصبة.

وقد تكون في شكل اخر ايضا: ان يتزوج الاخوة اخوات من طرف اخر غير اخواتهم، حتى تبقى الرابطة المقدسة عند الاخوة في الاخوات، فيكون المولود مترابط الام، والاب وتكون الممارسة عامة، ومشاعا ليصبح الدم المجزأ من جديد دما واحدا، والفرع اصلا واحدا.

وهكذا قد تموت احدى الزوجات فيجد الزوج العوض فيمن بقي من زوجات اخوانه، وقد يموت زوج، فتجد الزوجة التي على اسمه او العدد المقابل له، تجد العوض فيمن بقي من الرجال.

وقد لا يجد العديد من الاخوة اخوات على عددهم، فيتزوجون واحدة او اثنتين او اكثر او اي عدد يقل عن عددهم، وهنا تصبح العملية بطريقة او بأخرى تعدد الازواج للزوجة الواحدة، خاصة اذا فقد الاخوة بعضا منهم في حرب او موت عادي او نتيجة لسبب معين، او فقدت الزوجات لسبب من الاسباب وبقيت واحدة او اكثر لما يساوي ضعف الرجال، ويكون بذلك تعدد الازواج للزوجة الواحدة كما كان قبل قليل تعدد الزوجات للزوج الواحد.

وقد ادت هذه المشاعية وتعدد الازواج للزوجة الواحدة لدى مجتمعات بشرية الى بروز تنظيم جديد للمجتمع وهو التبعية للأم، فهي المجمع الذي ترد اليه قنوات الاباء، ولا يعرف من اي واحد منهم كان هذا الولد او ذاك، فالافضل اذن ولحسم اي خلاف ممكن ان يتبع الابناء للام، وعليها تعتمد القرابة وتنتمي، لا الى الاب، خاصة اذا كان الازواج كثر، بينما كانوا لدى العرب بالجاهلية لا يزيدون عن عشرة، وكان لديهم من الذكاء والفراسة المقدرة على تمييز الولد والحاقه بوالده الحقيقي، وعرفت العرب الانتساب الى الام في عدد من القبائل مثل (ضنق، بجيلة، مزينة، عاملة، عفراء، باهلة، حبابة، بنو رقاش، بنو طهية، بنو حطي) كما ظهر ملوك عرب باسماء امهاتهم (عمرو بن هند) وانتسب المناذرة الى امهم (ماء السماء) ويقول امرؤ القيس وهو ينتسب لامه:

الا هل اتاها والحوادث جمة   بان امرؤ القيس بن تملك بيقرا

واصبحت بعض المجتمعات المتأخرة تجعل الام هي المحور المقدس، والانوثة هي رمز الحب والخصوبة، وقد ساعد الانتساب الى الام الى استمرار المشاعية الجنسية واعطاء اهمية للام (الانثى) اكثر من الاب (الرجل).

ولكن اسلوب المشاعية اخذ يتقلص في بعض المجتمعات، ويتصف بالتنظيم، فتحول

من الاستمرارية او العادة المألوفة الى (عادة في المناسبات)، حيث يمارس في بعض الاعياد، والحفلات الدينية، والوطنية، وربما الحفلات الترفيهية (كما يحدث اليوم في الهند، وفي العديد من المجتمعات العصرية) وتحول في النهاية الى نطاق محدود وهو تبادل الزوجات والمعروف لدى اليهود، ودول العالم الغربي، وبذلك اصبحت هذه الممارسة ملازمة لانعدام الاخلاق، والذوق، فاذا كانوا يمارسونها قديما لجهلهم، فانما يمارسونها اليوم عن علم ولؤم وانعدام الخلق والذوق، حتى ان جميع المجتمعات القديمة والحديثة التي نبذت الدين والخلق جانبا لا ترى بأسا في المشاعية الجنسية، ونجد ذلك في جمهورية افلاطون الذي دعااليها كما نجده في التعاليم والموجات الاباحية في المجتمعات العصرية.

وربما اصبحت المشاعية ذات قيود وحدود غريبة ايضا، فقد وجد المبشر الانجليزي (لويمرفيسون) في بعض المجتمعات المتأخرة في استراليا وافريقيا ان القبيلة مقسمة الى طبقتين كبريين هما: الكروكي، والكوميت، وان العلاقة الجنسية ممنوعة داخل كل طبقة من ابناء الطبقة بعضهم ببعض، ولكن كل رجل في احدى الطبقتين يعتبر زوجا بالميلاد لكل امرأة في الطبقة الاخرى ولا توجد اية موانع اخرى بسبب اختلاف السن او روابط الدم.

وقد تحولت المشاعية الجنسية لدى بعض المجتمعات في مختلف الازمنة الى شيء غريب وجديد وهو اقتراع العروس من شخص معين قبل الزوج الحقيقي.

ففي الجزيرة العربية كانت قبيلة (طسم) تقدم الفتاة قبل زفافها الى رئيس القبيلة، واذا كان هذا الامر صورة من صور طغيان رئيس القبيلة وسيطرته ونهمه، وانتهى الامر بقتله وسحقه، الا انه يمثل صورة من صور المشاعية الجنسية، ورغم انها صورة حقيقية للدناءة، والظلم، الا انها حالة او عادة اجتماعية قبل بها افراد المجتمع انذاك واصبحت عادة مسموح بها وان كانت في الداخل مرفوضة ولا تناسب العادات العربية والاصالة والشرف والشهامة. لكنها كانت موجودة واختطها احد رؤساء القبائل لشيء في نفسه.

والامر ذاته نجده لدى بعض قبائل استراليا، حيث على احد افراد القبيلة ان يتصل بالعروس قبل زفافها، وربما يكون لهذا رمز روحي ديني، بان العريس يجب الا يجد اية صعوبة مع عروسة حتى فض البكارة الذي يسبب الالم، والا يكون الألم منه وعن طريقه وانما من قبل فرد غيره، يكون الكره لذاك، والحب لهذا ... وربما يكون السبب ان العريس يجب ان يتزوجها مفضوضة البكارة، لأنه هو ايضا لا بد وفض بكارة فتاة اخرى تزوجت واتصلت به قبل زواجها من اخر.

اما في كينيا فنجد صورة اخرى لهذه الليلة الاولى لدى (قبائل كيسيجز) التي تقتضي عاداتهم اتصال الفتاة بعشيقها وان تقضي معه ليلة قبل زفافها متحاضنان ولكن بدون فض البكارة وبذلك نجد نوعا جديدا من المشاعية الجنسية المشروعة، ولكن بدون فض البكارة.

اما في الحبشة وجزر البليارك والاوجيلاس الافريقيين القدماء فهناك بعض القبائل التي تقضي عاداتها ان يمارس اصدقاء الشيخ واقاربه او ضيوف الزفاف حقهم التقليدي

في ليلة الزفاف نفسها ثم يأتي دور الزوج اخرهم.... وربما يكون هذا نوعا من الكرم والتكريم والاحترام للضيوف، وانهم جاءوا للمشاركة في فرحة الاعراس، ولهم الحق اذن بالمشاركة في الجنس كما اشتركوا في الفرحة، وما هي الا مرة واحدة، وما بقي فهو للعريس الذي سيعيش بقية عمره مع زوجته، فكما ان هؤلاء ضيوف على العريس، وشاركوه الفرحة، فهم ضيوف على العروس فيشاركونها اللذة ايضا.. وفي ذلك نوع من الاباحية والمشاعية المقرفة، والتي لا تنم عن اي ذوق او خلق او دين، وهو عمل حيواني همجي.

وصورة اخرى للمشاعية تظهر في دولة اوروبية، كما ظهرت لدى قبائل طسم فقد جاء في احدى المخطوطات القديمة باللغة الايرلندية، ان (كونشابار) ملك الستر الذي عاش حوالي سنة ٤ الاف قبل الميلاد، قام بفض بكارة جميع العذارى في مملكته ويذكر المخطوط ان فض البكارة كان واجبا مفروضا عليه.

وبذلك نرى في (طسم) كيف كان رئيس القبيلة يكره الناس على ذلك، اما في ايرلندا فكان المجتمع يكره الرئيس او الملك على ممارسة فض البكارة، وربما كان هذا نوعا من الطقوس الدينية، وان الزعيم او الملك كان يمثل الدين والدنيا معا، وربما نظروا اليه كأب روحي لهم، وان فض البكارة يعني ان الولد الاول للعروس هو من الملك وبالتالي تصبح روحه المقدسة في كل بيت، ومفتاح لكل مغلق، وبركة تعطي الخير والنماء... هراء ما بعده هراء... يقزز النفوس بالفعل!!!

واما في بلاد الاسكيمو فنجد نوعا من المشاعية الجنسية حيث يقدم (المعز زوجته للضيف ليقضي معها ليلة يمارس معها الجنس اذا اراد... وربما استطعنا تف ذلك انه لقحولة المنطقة وبرودتها، وحاجة الضيف للترويح عن النفس، والتدفئة احضان انثى، يقدم هذا زوجته ليجد هو نفسه زوجة غيره هدية له عندما يذهب ضيفا فما هو الا تبادل المنافع، ونوع من تبادل الازواج، بما يشبه تبادل الزوجات في العص الحاضر، انها صورة بدائية لانعدام الشرف، والذوق، والغيرة، والدم الحار، سواء لد الاسكيمو ام لدى بغاة وطواغيت العصر الحاضر.

وفي العصر الحاضر نرى نوعا من المشاعية الجنسية المتمثل في الاماكن العامة التي تجتمع فيها بائعات اللذة مقابل المادة، وتوجد اماكن مخصصة في مختلف مدن العالم، وتشرف عليها السلطات المختصة، وبعضها يكون سرا، يعرفه رواده.

وعند البدو نجد شيئا من هذه المشاعية ولكن بصورة اخرى حيث يوجد (الغجر - النور) والصلبة، فيرتع بهم من يرغب الجنس ويطلبه، وربما دفع لذلك ثمنا، وربما كان مجانا، ولكن (النور والصلبة) ليسوا من البدو، لا اصلا، ولا عادات ولا تقاليد - وانما هم مجتمع المتعة والطرب لدى البدوي صاحب القوة على هؤلاء، حتى انه من العيب غزوهم او محالفتهم، فهم (لا في العير ولا في النفير). وصورة اخرى من هذه المشاعية في الدول العصرية هي ما يسمونه (البوي فرند، والقيرل فرند)، حيث يتصلان جنسيا بشكل كامل لمدة قد تطول او تقصر وربما تؤدي الى الزواج، الا ان ما يقابلها عند البدو من

الصداقة البعيدة عن الجنس والبعيدة عما يخل بالشرف، وانما صداقة بريئة لا تتعدى النظر بالعين، وتبادل الكلمات اللطيفة، وربما وصل الامر في اعلى درجة (لمسة يد ومصة خد).

اما الليلة الاولى عند البدو فهي حق للزوج اطلاقا، حتى ان العروس في يوم زفافها لا يجوز ان يراها الجميع، حيث يغطى وجهها بستار اسود، وكل ما يمكن ان يتم هو ان يتقدم احد الفرسان ليزيح هذا الساتر ليراها هو وبقية الفرسان، ويتم اعادته بسرعة على الوجه ولا تتعدى النظرة اكثر من لمحة بسيطة، وقصيرة، وما عداه تكون جريمة كبيرة خاصة اذا كانت بقصد السوء الجنسي، لأن الشرف شيء اساسي عند البدو، ولا ثمن للشرف، وانه اغلى من الروح، لأن الشخص يبذل روحه من اجل شرفه وكرامته ولكنه لا يترك كرامته وشرفه من اجل النجاة بروحه (فهذه قيم البدو المستمدة من قيم الاسلام الحنيف).

وحتى الشيوخ لا يجرؤون على الطلب من احد افراد القبيلة اي شيء يتعلق بالجنس، لأن الشيخ هو حامي للقبيلة وهو اب وزعيم، اما الامور الخاصة فلا حق له التدخل بها، (واقصد بالخاصة الجنس وما يشبهه) الا اذا تحول من خاص الى ما يتعلق بالقبيلة والمصلحة العامة.. هذا عكس ما نجده في فرنسا حيث كان الحق في الليلة الاولى مطبقا فيها في العصور الوسطى في مقاطعة (اراجون) حتى ألغي عام ١٤٨٦ بالمرسوم الذي اصدره فرينادد الكاثوليكي، وقد جاء به (اننا نطبق العدل ونعلن ان النبلاء والبارونات لن يناموا الليلة الاولى مع المرأة التي يتزوجها الفلاح كدليل سلطتهم)... انها صورة قذرة للتسلط واللا اخلاقية وانعدام الشرف والشهامة، وصورة للعبودية التي لا تطيقها كرامة انسانية والتي حاربها الاسلام.

وبذلك نرى ان الاباحية الجنسية مرتبطة بعدد من العوامل والمبررات:

فعندما تكون مجموعة من النساء ملكا لعدد من الرجال، فان هذا النمط ربما ارتبط **بالوضع الاقتصادي** السائد للمجتمع، فكل ما يصطادونه او يجمعونه، ملكا مشاعا، وما الجنس والانجاب الا جزءا من هذا في نظرهم.

كما ترتبط بالام ايضا، فطالما ان العشيرة تنتسب لأم واحدة، وهي المحور الرئيسي للنسب والقرابة والعصبية، فليس من المهم اي الرجال من هذه العشيرة يكون ابوه. تماما كما في مجتمعنا فهو ينتسب لوالده، وليس من المهم من تكون امه، لأنها ليست موضع النسب والانتماء.

كما ترتبط بالدين، وما فيه من طقوس معينة كما هو لدى بعض قبائل استراليا، التي تفرض اتصال عدد من افراد القبيلة جنسيا بالعروس قبل زفافها، هذا في موسم الزواج، وكذلك قد تكون في بعض المواسم الاخرى كالمناسبات العامة والمهرجانات، والمناسبات الفصلية والاعياد، وتمارس الاباحية الجنسية طيلة مدة الاحتفال.

وترتبط بالدم، حيث ان جميع الاجداد، والاباء والجدات والامهات، قد انحدروا من دماء مختلطة تعود الى دم الجد الاول، لذا فانه يجب استمرار وحدة الدم لدى الابناء

ايضا، وقد تكون في هذه الحالة عودة للاصل الواحد.

وترتبط بالكرم وحب التغيير، وذلك كما نراه لدى الاسكيمو من تقديم الزوجة للضيف، وتبادل الزوجات لدى قبائل الكومانش خاصة وان قبائل الاسكيمو يعيشون في مناطق قاحلة تضطرهم لرحلات صيد طويلة يغيب الرجل فيها عن زوجته امدا بعيدا، ولا غنى له (كأي انسان) ولا لزوجته عن ممارسة الجنس، ولا يمكن فعل ذلك بطرق بعيدة عن الاعين، لذا نراهم يمارسون هذا الفعل بعرف اجتماعي متفق عليه.

وترتبط بالمساواة بين افراد القبيلة: المساواة بالحقوق، والمحبة، والاخاء، وقوة الترابط بحيث ان (كل واحد يسد عن الثاني) اي يقوم مقامه ويؤدي المهمة اذا غاب، وعند البدو نجدهم يقولون (الحاضر يسد) ولكن يجوز ان ينوب واحدهم عن الاخر، ويقوم مقامه اذا غاب، بالكرم، والشجاعة. وبياض الوجه، اما فيما يتصل بمواقعة الزوجة والابنة، فهذا الموت الزؤام، اما في مجتمعات بدائية، فقد عمموا هذا المبدأ (الحاضر يسد) او (اي واحد يسد)، او (كله مثل بعضه - كله واحد)، حتى في الامور الزوجية والجنسية، ففي قبيلة (الديري)يتخذ كل رجل زوجة رئيسية ومجموعة من الزوجات الاحتياطيات (بما يمكن ان يقابله في المجتمع العربي - السراري والجواري(كما يكون لكل امرأة زوجا اصليا، وعددا من الازواج الاحتياطيين (وهذا ليس له مثيل في المجتمع البدوي العربي) ويكون حق الاولوية للازواج الاحتياطيين، والزوجات الاحتياطيات، في ممارسة العلاقات الجنسية في المواسم والمناسبات والاعياد فقط، وعند غياب الزوج الرئيسي، اما بقية أيام السنة، فالاولوية فيها للزوجة والازواج الاصليين!!!

وقد ترتبط بالظلم والقهر والاستبداد كما رأينا في مجتمع (طسم) وفرنس القرون الوسطى او باللذة والبحث عنها، او لانجاب المزيد من الاطفال.

وفي ختام الحديث عن هذه الطريقة في الزواج لنا ان نتساءل: ترى من منا يقبل تمارس نساءه (امه، ابنته، اخته، زوجته) الجنس مع رجال غرباء بطريقة غير مشرو- وينسب الابناء بعدها الينا؟! او...الخ انها عملية اقل ما يمكن ان يقال عنها انها منافية للذوق والحياء والشرف والكرامة، والانسانية انها انحطاط لقيمة المرأة حيث تحولها الى سلعة رخيصة تستقبل الطامعين، وهي لا تستطيع منع اي واحد منهم لأنهم جميعا اصحاب حق فيها، وبالتالي قد يكون من نصيب هذه اضعاف تلك، وبعضهن اللواتي لم يعطين جمالا وجاذبية ليس لهن نصيب من الرجال، انها اذن حياة لا تمت الى العدالة بشيء.. ان مجتمعا هذا شأنه لا يختلف ابدا من اي مجتمع حيواني تمارس فيه الذكور والاناث ما ترغبه من الجنس بلا قيود ولا حدود... واذا نظرنا الى ما لدى البدو (المأخوذ من الاسلام) وجدنا كم هي الانسانية والاخلاق، والذوق: ان هذه العادة وحدها كفيلة بجعلي اومن بالاسلام كدين الهي مبني على ارقى اسس الذوق والاخلاق والانسانية.

الفصل الثامن

انماط الزواج



الفصل الثامن

انماط الزواج

سوف نواصل الحديث الان عن هذا الموضوع، فقد رأينا كيف تمارس المجتمعات البدائية او الحديثة او العربية قبل الاسلام، كيف كانت تمارس الجنس؟! وسنرى كيف تمارسه المجموعات البدوية العربية الاسلامية، وبذلك نجد الفارق الكبير العظيم بين وجهة نظر بشرية، واخرى الهية. اما عن انماط الزواج فسنتحدث عنه بشكل عام، ومن خلاله يتضمن الحديث عن البدو باذن الله، ولا شك ان الاباحية او المشاعية الجنسية هي نمط من انماط الزواج لدى المجتمعات الانسانية بشكل عام وقد
تحدثنا عن هذا الموضوع بما فيه الكفاية بكافة انواعه وصوره المتعددة والتي لا داعي للحديث عنها ثانية ورأينا نصيب المجتمع البدوي العربي منها ومن هذه الانماط:

زواج المشاركة:

ومن انماطه: المشاعية الجنسية حيث تحدثنا عنها، وهذا الزواج يعني مشاركة عدد من الازواج بزوجة واحدة، وكان هذا سائدا عند كثير من الامم القديمة من سكان الشرق والغرب، كالميديين، وقد جاء البريطان، والعرب قبل الاسلام، ولا يزال قائما لدى قبائل (ناريا) في غرب افريقيا، وجزائر (مركزي) في جنوب امريكا، وجزائر اليوسيين، وبلاد التيبت والكشمير في اسيا.

وذكر المؤرخ الجغرافي الشهير (استرابون) ان العرب كانوا يألفون الاشتراك في الزوجات وربما اشتركوا في امهاتهم واخواتهم، حتى ان ابنة احد الامراء كان لها خمسة عشر شقيقا يمارسون معها الجنس، وكان كلما دخل عليها واحد وضع عصاه على الباب، فاذا جاء احدهم ورأى العصاة فهم ان شقيقته في احضان اخوته، وهكذا، ولكنها لم ترض لهذا الوضع فراحت تضع عصاة على الباب، وكلما جاء واحد انتظر حتى تجمع الخمسة عشر، واذا العصاة وهمية، واعربت لهم انها لا تستطيع الاستمرار في هذه الحال...

ومن صور التعدد ان يشترك الاخوة في زوجة واحدة من غير اخواتهم، وينسب الطفل عادة الى الأخ الاكبر الا اذا رأت الام غير ذلك!!

ومن صوره ايضا ان بعض القبائل العربية (قبل الاسلام) كانت تسمح للولد ان يشارك اباه زوجته أو عشيقته (غير امه) وتروي قصص التاريخ أن امرؤ القيس كان يتردد على عشيقة والده.

كما حرم الاسلام الزواج من زوجات الاباء وحرم الاتصال الجنسي بهن باية صورة من الصور، كما حرم الزواج من الاخوات، وبنات الأخ وجميع الاصول والفروع بالنسبة للشخص.

ولنا ان نسأل للمقارنة والخروج بنتيجة: ترى كم هو فارق بين ما كان عليه الناس، وما جاء به الاسلام؟!

ومن صور المشاركة ايضا اشتراك عدد من الرجال بزوجة واحدة،وقد عرفته مجتمعات كثيرة كما سبق وتحدثنا، اما العرب في الجاهلية فحددوا العدد على الا يزيد عن عشرة... تصور اخي القارىء عندما تتزوج الواحدة عددا من الرجال؟؟ او الاخوة؟ بالمقابل عندما لا تقترن الزوجة باكثر من زوج في ان واحد كما امر الاسلام؟ وفي الجاهلية اذا ازداد العدد عن عشرة اعتبرت بغيا، وذكرت ام المؤمنين السيدة (عائشة رضي الله عنها في معرض حديثها عن النكاح في الجاهلية، انه (كان يجتمع الرهط دون العشرة فيدخلون على المرأة فيصيبونها، فاذا حملت ووضعت ارسلت اليهم، فلا يستطيع احد ان يتمنع، فاذا اجتمعوا عندها قالت لهم: قد عرفتم الذي كان من امركم، ولقد ولدت فهو ابنك يا فلان، وتسمي من احبت باسمه، فيلحق به ولدها ولا يستطيع ان يمتنع عنه الرجل) يا للغرابة لهذا النظام الذي اقل ما يوصف به منافاته للذوق والشرف والحياء، كما انه هدر لكرامة المرأة والرجل والمولود؟! بقي ان نقول ان مثل هذا النكاح غير موجود عند البدو، فهم مسلمون.

ومن نكاح المشاركة: ما كان في الجاهلية يعرف بنكاح الاستبضاع: وروت السيدة عائشة ايضا: انه (كان الرجل يقول لامرأته اذا ظهرت من طمثها... ارسلي لفلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسها ابدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه فاذا تبين حملها اصابها زوجها اذا احب، وانما يفعل ذلك رغبة منه في نجابة ولده، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع) والغريب ان الطفل في هذه الحالة يعتبر ابنا شرعيا للزوج!!! وقد منعه الاسلام منعا باتا وحرمه، لأن ابسط قواعد الذوق الانسانية تحرمه، فكيف بالقواعد الالهية الصالحة لكل زمان ومكان؟!

ومن نكاح المشاركة ما نجده لدى قبيلة (الارنتا)، فاذا ما كبرت الفتاة خصصها اهلها لشخص معين، الذي يتحدث في زواجه منها مع ابناء عماته، الذين يذهبون بدورهم الى ابناء عمات الفتاة، وغيرهم من غير محارمها، ثم يحمل الجميع (بدون الزوج) الفتاة بعيدا الى الاعشاب، ويواقعونها، ثم يسلمونها الى زوجها بعد ذلك... والاغرب من كل هذا ان الزوج نفسه قد يستدعي هؤلاء ليأخذوا زوجته ثانية الى الاعشاب ليواقعونها ثانية، ثم بعد ذلك تصبح هذه الزوجة المسكينة (المخردقة) من حق الزوج (المقرن بتشديد الراء) وحده ويحظر على غيره الاتصال بها... (نعيما)... انها اهانة لكل القيم والانسانية، والانثى والرجل... فسبحان الله الذي قال عن امة الاسلام **(كنتم خير امة اخرجت للناس)** لأن ابسط الناس لا يستطيع اعتبار مثل هؤلاء الاقوام الوثنيين من الامم الخيرة...

ومن انماط نكاح المشاركة: نكاح البغايا:

"قرأت في المستطرف في كل فن مستظرف ان اروى بنت الحارث بن عبد المطلب رضي الله عنها كانت اغلظ الوافدات على معاوية خطابا، وكان حلم معاوية اعظم من

خطابها، وتحدثت واغلظت له بالحديث، فقال لها: عمرو بن العاص، كفى ايتها العجوز الضالة واقصري عن قولك مع ذهاب عقلك، اذ لا تجوز شهادتك وحدك، فقالت له: وانت يا ابن الباغية تتكلم وامك كانت اشهر بغي بمكة وارخصهن اجرة، وادعاك خمسة نفر كلهم يزعم انك ابنه، فسئلت امك عن ذلك فقالت: كلهم اتاني فانظروا اشبههم، فالحقوه به، فغلب عليك شبه العاص بن وائل فلحقت به[1].

وحول معنى البغايا يقول سيد سابق في كتابه فقه السنة: ان البغايا هن النساء الزواني، وكن في الجاهلية يضعن رايات مميزة تكون اعلاما على ابوابهن ليعرف روادهن مكانهن، فيقضون حاجاتهم الجنسية، ولا يمتنعن عن رغبات من يطرق ابوابهن، واذا حملت الواحدة اجتمع جميع من اصابها، والحقوا الولد بمن يشبهه من الرجال على انه ولده، وهذا والده، ولا يمتنع عن ذلك ابدا... وقد تستمر هذه بممارسة البغاء او تلتحق زوجة لمن الحقت ولدها به!

وقبل العرب كان نكاح البغايا امرا شائعا في الشؤون الدينية والطقوس وسميت البغايا المقدسة كن يقضين اوقاتهن في المعابد لاستقبال رواد الجنس، كنوع من التدين والطقوس، والعبادة، وتناهى الى مسامعي انه توجد في امريكا وبعض الدول العصرية عيادات خاصة لمعالجة الشؤون الجنسية، حتى انه يوجد طبيب لممارسة الجنس مع من جاءت كمريضة، كما قد توجد طبيبة لممارسة الجنس مع القادم للتداوي في مرضه النفسي او العجز الجنسي، ويبدأ التطبيق العملي عليها؟؟.

وفي الجلاش الفارسي القديم كانت البغايا ترافق قطاعاته، حتى اذا ما حطوا رحالهم قضوا اوطارهم، ورفهوا عن انفسهم بالتمتع فيهن، كما ان الامر نفسه عرفته ومارسته الجيوش الحديثة حيث ترافقهم نساء بغايا بصورة او باخرى، بستار او باخر، وقد يقوم الجيش نفسه بالممارسة مع نساء المنطقة التي حل فيها، وقد تنبه الاسلام الى ذلك ابان الفتوحات رغم ما يردع الفاتحين من دين وخلق واستقامة، الا انه تجنبا لحدوث ولو امر واحد فقط، نجد كيف منع الخلفاء في صدر الاسلام من تغلغل الجيش في السكان وتجمعاته، كما منعه من الاختلاط بهم او العيش معهم، فحافظ على شخصيته العسكرية القوية، وحافظ على اعراض الناس ولو كانوا كفارا، كما حافظوا على انفسهم من الوقوع في الخطايا.

وفي العصر الحديث هناك البغايا اللواتي يتواجدن في المدن العصرية خاصة في دول اوروبا، وامريكا، ودول اخرى في سائر انحاء العالم فيما تسمي نفسها بالديمقراطية او المتقدمة، وهذه تكون تحت اشراف السلطات وبعضها يكون سرا، وفي الحروب الحديثة ترافق الجيوش احيانا نساء لغاية الممارسة الجنسية فيما يسمى باسماء مختلفة.

علاوة على ما يفعلونه، وما يعيثونه فسادا حيث يحلون، ونحن نعرف كيف ان عشرات الالاف من الاطفال في فيتنام كانوا غير شرعيين من ابناء الجنود الاميركيين اثناء

---

١) المراة البدوية تاليف احمد عويدي العبادي/ الطبعة الاولى ١٩٧٤.

حرب فيتنام بينما كانت النساء البغيات ينتشرن في كل مكان في فيتنام..ومتى اصبح الجنس سلعة تباع وتشترى خرج بذلك عن رسالته السامية وهي استمرارية نسل الانسان وتكاثره... ولا شك ان اي مجتمع لا يخلو من السلبيات، كما ان المثالية شيء نادر ان لم يكن مفقودا، ولكن الفارق هو بين ان يصبح مباحا يقره العرف الاجتماعي، فيتحول الى علانية خطيرة تطوح بالاخلاق والاذواق، وعلى مستوى جماعي وبين ان يكون على مستوى فردي محدود محاطا بمنتهى السرية والتكتم، واذا ظهر كان جزاء من يفعله الموت المحقق.

فالصورتان تختلفان بوضوح، فالاولى تعرض اي فرد ان يكون من غير والده، لأن والدته (امه) مسموح لها ان تأتي به من أي شخص ترغبه جهرا أو سرا (والسر هنا سهل ويسيط)، كما أن والده زوج أمه قد يكون أبا لأي شخص اخر سمحت أمه (ام الشخص لهذا أن يواقعها، فطالما أن القيود معدومة، فالفرص مواتية، والنفس أمارة بالسوء والضوابط مفقودة، ومن ثم قد يتزوج اي شخص فتاة هي أخته ولكن بطريقة شرعية أي ان والده واقع امها بطريقة غير شرعية، فكانت هذه العروس هي حصيلة المواقعة المحرمة.

ونخرج بنتيجة..والد يحوي ابناءا غير ابنائه الحقيقيين، واخوة من ام وكل واحد من أب، واخوة يتزوجون بعضهم، وابناء يحملون اسما غير اسم ابيهم الحقيقي، وام خائنة، ووالد خائن، وحياة كلها قرف، بقرف، كلها نتيجة ما يسمى بالديمقراطية

وبالمقابل مجتمع بدوي مسلم منضبط يلاقي كل منحرف فيه حتفه، وكل منحرفة حتفها، فأي انحراف ينكشف يعني نهاية الطرفين، ومن ثم فالانسان حتى الجاهل والغبي يفكر الف مرة قبل ان يجازف بروحه، وحياته، خاصة اذا كان الامر ليـ بالمستوى الذي يستحق بذل الروح والمهجة في سبيله، ونعيش هنا في مجتمع ينتسب الولد لوالده وليس فيه خيانة الا ما ندر، والنادر لا يقاس عليه، ولا يتزوج الأخ اخته ولا تخون الام ولدها بان تأتي به من والد بالحرام وتنسبه الى والد آخر... فيفتخر الانسان بنسبه. واهله، وامه وأبيه، وشتان ما بين الصورتين الأولى وهي الاباحية وما يسمى بالحرية، والثانية وهي المنضبطة المقيدة والمسماة في عرف الاباحيين، بالتأخر والرجعية. والتي حصيلتها اذواق واخلاق وشرف.

ونحن الان نتساءل اي الفريقين اوعى واهدى (من يمشي مكبا على وجهه؟) ام (من يمشي سويا على صراط مستقيم؟!).. ولا شك ان الاخير رغم ما يوصف به من التأخر هو مجتمع البادية الملتزم الشريف المستمد اصوله وجذوره وعاداته في ذلك من الخلق الاسلامي القويم، وتلك من أهل الهدى (ممن اتخذ الهه هواه) فضلوا السبيل والعياذ بالله.

ومن نمط المشاركة: (التسري) الذي عرفته المجتمعات البشرية المختلفة وهو يسمى في الاسلام (ملك اليمين) قال تعالى **(والذين هم لفروجهم حافظون الا على ازواجهم او ما ملكت ايمانهم)**، وهو أن يتخذ الرجل من غير زوجاته اناثا محظيات وضع

لها الاسلام اصولا معينة ومحددة، وكان هذا النمط نتيجة طبيعية للحروب بين المسلمين والكافرين، فيقع ضمن الغنائم نساء فيقتسمهن المسلمون، ويتملكوهن (ملك اليمين) ويجوز ممارسة الجنس معها، ولكنها لا تكون كالزوجة، واحيانا يتم شراء الجواري ايضا لنفس الغرض، وقد سبق وتحدثنا كيف ان بعض زعماء القبائل في المجتمعات المتأخرة يتزوجون مئات، والاف، وهن بالطبع بمثابة (محظيات) او جواري ليس الا، وفي المجتمع العبري القديم كان يحق للزوجة، ان تتنازل بمحض ارادتها عن حقها في الاستئثار بزوجها، لاحدى رقيقاته (محظياته) ولكن بشرط واحد، هو ان ينسب للزوجة الاصلية كل الابناء المنجبين من علاقة زوجها بتلك الامة؟!! انظر كم هي السخافة والحماقة؟! اذ كيف يكون ولدها من ليس من دمها ولا لحمها، الا بالقول؟! انه ذوق من لم يؤمن بشريعتنا الاسلامية السمحاء التي تنمي الذوق الفطري وتوجهه الوجهة الصحيحة، فيرفض المسلم تلقائيا كل ما هو غير صحيح ..

ومن انماط الزواج ايضا: زواج المتعة: وفيه يقترن الرجل بانثى بموافقتها لفترة معينة، ومحددة بغير شهود، ثم يطلقها بعد انقضاء المدة لتتزوج من اخر، وقد منعه وحرمه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه اثناء خلافته... ولا يزال بعض الشيعة تستبيح وتحلل زواج المتعة اعتمادا على فتاوي منسوبة الى سيدنا علي بن ابي طالب رضي الله عنه، وكرم الله وجهه، ويقابل زواج المتعة في المجتمعات الحديثة غير البدوية لقاء شاب وفتاة واتفاقهما على ان يكونا صديقين لمدة معينة، فان وجدا من المناسب لهما الاستمرار استمرا، واذا لم يجد كل منهما في الاخر ما يريد افترقا؟! ولا شك انها طريقة استعملها المسلمون، البدو قبل اربعة عشر قرنا وكانت طريقة لا تتناسب مع الشرف والاخلاق، وهي ان ناسبت مرحلة من المراحل المليئة بالتنقل والحركة والبعد عن الزوجة، الا انها لا تصلح لكل زمان ومكان، الا ان المجتمعات العصرية تعود اليها لتضيف الى مشاكلها ومتاعبها، مشاكل ومتاعب جديدة؟! ان المطابقة بين هذا وبين زواج المتعة واضح، حيث لا شهود على هذا الزواج، ويتم بالايجاب والقبول بين طرفين فقط (الطالب والمطلوبة) والفارق انه في العصر الحديث قد يتم وليس لأي منهما زوج، واذا وجد زوج لكل منهما فهما او لاحدهما، فالعلاقة تتم بطريقة سرية بعيدة عن النظر والسمع، اما في زواج المتعة فتبقى الزوجة موجودة وتبقى على ذمة الشخص، وفارق بين ان يمارس الشخص عادة مقبولة..واخرى مرفوضة او محرمة او ممنوعة.

وهكذا جئنا على ما نعرف، وما وصل الى علمنا من انماط الزواج في المشاركة، ونتنقل الان الى انماط اخرى من الزواج والتي نجد غالبيتها هو السائد الى الآن.

نكاح البـــدل:

وهو أن يتفق طرفان على الزواج كل من انثى من لدن الاخر مقابل الانثى التي من لدنه، وتكون كل منهما مهرا للاخرى، وقد يدفع أحدهما اكثر أو أقل من طرف اخر اذا

وجدت بعض العيوب التي لا تجعلهما متساويتين، كأن تكون احداهما ايما، والاخرى ثيبا (أي بكر، ومطلقة)، وكان البدل عند البدو شائعا رغم ما فيه من المآسي ليس على الانثى فحسب، بل وعلى الذكر والعائلة وربما العشيرة ايضا.. ويكون البدل باتفاق رجل مع آخر بتبادل انثيين ليتزوج كل منهما بمن لدى الاخر، سواء ابنته، او اخته او حفيدته ولكن لا يكون ذلك بأمه، لأن صاحب الحق في تزويج أمه هم اهلها، وهي نفسها، وكثير من البدو من يزوج ابنته ليتزوج واحدة بديلة لها ويقال للانثيين (بدايل - أي كل منهما بديلة للاخرى) ويقال للرجال (فلان بديل فلان) وللاناث (فلانة بديلة فلانة)، وهما بدايل (للذكر والانثى)... ونجد في مثل هذا الزواج مبدأ التعويض بالمثل، وليس بالمال أو غيره، فيعطي احدهم انثى مقابل أخذه واحدة...

ويكون زواج البدل على اكثر من صورة، وطريقة: قد يتزوج شخص فتاة بمهر، ثم بعد حين يتزوج شقيق الفتاة، شقيقة زوج اخته بمهر وهذا لا يكون بدلا، لأن كلا منهما دفع مهرا للاخر، وقد يعتبر لدى البعض بدلا اذا تساوى المهر ويترتب بذلك على مثل هذا الزواج كل ما يترتب على زواج البدل كما سنذكر ان شاء الله.

وقد يتزوج شخص بفتاة مقابل أن يزوج شقيقها الذي لا زال طفلا، أو لم يبلغ الحلم بعد من شقيقة المتزوج، أو ابنته من زوجة اخرى، وهذا يحدث كثيرا، حيث تكون المبادلة بين طرفين ولا يشترط تحققها في زمان ومكان واحد، وانما يجوز في ازمنة وامكنة مختلفة.... وقد يتم ضمن وقت واحد (مثلا خلال شهر واحد او اسبوع واحد)، ولكن نادرا ما يكون خلال يوم واحد.

وفي زواج البدل تكون العروس محددة بالاسم لدى الطرفين... وقد يترتب على التبادل دفع نقود اذا لم يكن هناك تساو بين الفتاتين كأن تكون واحدة اكثر جمالا. او ان احداهن مطلقة، أو اكبر سنا بشكل واضح، أو أن صفات احد الطالبين لا تتناسب مع صفات قبيلة الذكر الاخر. وبالطبع فالجاهة تحدد ما يجب على الطرف الناقص أن يدفعه.

واذا كان هذا النمط من الزواج منتشرا ويشكل غالبية حالات زواج البدو قديما، فانه اليوم قد انتهى في بدو البلقاء منذ بداية السبعينات وهو على وشك الانقراض لدى جميع البدو، لأنه طريقة لا تناسب روح العصر، كما أنه لا يتمشى مع الذوق، والانسانية.

وكان هذا الزواج يؤدي الى المآسي، وهدم البيوت، فاذا هربت احدى الزوجتين من عند زوجها، او اساء اليها او جار عليها احد قام شقيقها او قل اهلها بالاقتصاص من الزوجة بديلتها، رغم أنه لا ذنب لها، ويضطر زوجها لطردها ما دامت بديلتها مطرودة، ويطلقها إذا طلقت تلك... ويمكننا أن نتخيل مساوىء مثل هذا الزواج، اذا كانت البديلة آمنة مطمئنة مع زوجها أو كانت ام اولاد عنده. وكم من بيوت سعيدة اشقيت، وهدمت نتيجة لذلك بدون حق سوى أن زواج البدل يتطلب ذلك... ونظرة بسيطة الى فلسفة هذا الزواج نجده اشبه ما يكون بتبادل رهائن لدى طرفين متخاصمين، كل منهما يخشى الاخر، ويتطلب موقفه وجود سلاح بيده يستعمله ضد الاخر اذا اساء اليه أو خاصمه، وربما تكون هذه استمرارية لطريقة قديمة عندما كانت القبائل تتحارب، خاصة واننا

رأينا في العرف السياسي على مر العصور مثل هذه المراهنات، فلكي تضمن السلطة المركزية ولاء ذوي الجاه والشأن في مختلف ولاياتها، تقوم بحفظ أحد ابناء الزعيم الذي تخشاه، لديها، حتى اذا ما قام بأي شيء مريب أو معاد انتقموا فورا من الرهينة، ولا ذنب لمثل هذه الرهينة، ولا لتلك المرأة (البديلة) المسكينة...

بقي أن نقول ان زواج البدل قد يكون بين قبيلتين، اي ان تتبادل قبيلة مع اخرى زواج فتاتين، واحدة مقابل الاخرى وذلك لزيادة اواصر المحبة بين الطرفين، خاصة اذا عرفنا ان (البدل) اكثر ما ينتشر بين ابناء العمومة، والاقارب، بقصد زيادة المودة، والدم بينهما.

ولكن هناك حالة تصبح معقدة إذا كانت احداهما منجبة، وبديلتها لا تنجب (اذا عرفنا أن البدو يعتبرون العوق (العقم) كله من الانثى دائما، وان الزوج يجب أن يتزوج ثلاثة أو اربعة حتى يثبت عقمه عرفنا كيف سيتصرفون تجاه المرأة التي لا تنجب ومن ثم قد يعيدها لأهلها، ولكن في هذه المرة يستعيد هو اخته، وليس زوجها الذي يعيدها وهو بهذه الاستعادة لا يراعي مدى الحرية الشخصية واهميتها، والسعادة الزوجية وخطورة اللعب فيها، فالمهم الا يضيع حقه، وربما يضطر الزوج من اهل الفتاة العقيم أن يقدم فتاة اخرى لعلها تلد ولا تكون عقيما... وبذلك نرى كم هو مهم أن تكون الزوجة (ولودا) عند البدو، وانه لا يمكن للسعادة البيتية ان تعم قلوب الأسرة بدون وجود زوجة ولود ودود تنجب الاطفال والذين لا غنى للمجتمع عنهم ابدا... وكم هو الشقاء الناتج عن زواج البدل، لدى وقوع أي خلل أو خطأ؟!

ان هذا الزواج للكادحين شيء مناسب، خاصة اولئك الذين لا يستطيعون دفع المهر، ولكنه بالتأكيد في كثير من الاوقات يتحول الى كارثة.

ومن مساوىء البدل ايضا: أن الرجل يولد له عدد من الذكور والاناث فيخصص اكبرهن كمهر لاكبرهم، وهكذا بالتدريج، ويقرن زواج كل واحد بزواج اخته المخصصة له أن تكون مهرا لزواجه، واذكر كثيرا من هذه الوقائع، ويصدف أن تتزوج اصغرهن... فيتزوج بذلك (أصغر الاخوان قبل اخوته الباقين، كما أن هذه الطريقة أيضا، تجعل كثيرا من الشباب يتفقون فيما بينهم (زوجني اختك، وأزوجك اختي، نتبادل، ونتزوج)، فيتفقان، ثم يصل الامر لاهليهما، ويكون الزواج... ويصدف ان تكون احداهن (مليحة)، والاخرى قبيحة وتصدف ان تكون هذه القبيحة هي الكبيرة، وبذلك تكون الطامة على الاخ الكبير، ويتزوج اخوته من قبله، لأن الشرط هكذا كان، والشرط يعتبر عندهم عهدا ووعدا، والبدو ينظرون بقدسية نحو العهد من خلال المبدأ الاسلامي **(ان العهد كان مسؤولا)** ومبدأ **(والموفون بعهدهم اذا عاهدوا)**.. ان زواج البدل، صورة من صور المقايضة أيضا، وهو اعطاء ما عندك أو شيء منه للحصول على ما تحتاج او شيء منه.

نكاح الخطيفـــــــة:

ويكون عندما لا يستطيع الطرفان الحصول على ما يريدان بالوسائل العادية

المتعارف عليها بين الناس، فيطلب الشاب الفتاة، فيرفض اهله او اهلها، وهي تريده ويريدها، ويتبادلان الحب، فيضطران لكسر الطوق، وتجاوز العقبات، للوصول الى الهدف، فنكاح الخطيفة ما هو الا تعبير عن عدم الرضى عن بعض المواقف الاجتماعية، كما انه حل عندما لا يوجد حل سواه... والخطف لا يكون من اعزب لعزباء فحسب وانما قد يكون بين طرفين متزوجين، او احدهما اعزب والاخر متزوج، وقد يكون قسرا واجبارا، او اختيارا ورضى... وهو باستمرار يكون من طرف الرجل، واما الانثى فهي المنفذة، وان كان العقاب للطرفين معا.

اما خطف الاعزب للعزباء: فيكون من شاب احب فتاة وتعلق بها، وتقدم لخطبتها، الا ان اهلها رفضوا ذلك، واذا رفض اهله فبامكانه الزواج خارج مضاربهم وعلى مسؤوليته طالما أن اهل الفتاة لا يريدونه، لذا فالخطف لا يكون الا في حالة رفض اهل الفتاة، او اهلها واهله معا. وعندما لا يجد هذا الشاب حلا لمشكلته ويستبد به الحب، يتصل بالفتاة مباشرة بطريقته الخاصة، وبواسطة من يثق فيهم، ويشاورها ان (تعزم معه)، أي أن تذهب حيث يريد، فاذا وافقت جهز نفسه ومعه سلاحه، وربما يرافقه بعض اصدقائه أو اقاربه، وذلك لحمايته اذا وقع عليه اعتداء، ثم يواعد الفتاة في زمان ومكان معين، وقد يكون ليلا، او صباحا، فيلتقيان، ويسيران (على بركة الله)، الى شخص له قدرة حمايتهما، وتنفيذ رغباتهما... ويطلب اليه الجيرة، ومنه الحماية، ويعرض عليه الامر ويتأكد الشيخ او الشخص عادة من (رضاء الفتاة) ثم يقول:

أنـا اشهـد بحشري ونشري وذمتي ان اللـم ما بـين العاشقـين حلال

ويرسل الى اهل الفتاة، ويخبرهم بالامر فقد يرضخون، وقد يرفضون، فان رضخوا تمت الخطبة والزواج بالمراسيم المعتادة، ولكن (بوجه الشيخ)، فلا يستطيع احد الاعتداء، وتقطيع الوجه... واذا كان موقف اهل الفتاة سلبيا، قام بقراءة الفاتحة وتزويجهما وقد يدفع المهر هو من نفسه، فطالما ان الناس قصدوه فعليه أن يكون (قدها). اي (عند حسن الظن)، ويقوم العريس بذبح شاة قائلا (اللهم حلل لي هذه الانثى كما حللت لنا هذه الشاة)، ويشترط في مثل هذا التزويج بدون رضى الاهل طالما وافقت الفتاة: ان تكون بكرا، وتجاوزت الثامنة عشرة من عمرها، وان يكون اهلها قد رفضوا الجاهات المتتالية (٣ جاهات) لطلبها لهذا الشاب، والا تكون متزوجة وتركت زوجها، (والا تعتبر خائنة ويجب ان تعاقب)، والا تكون موضع طلب (ولد عمها)، الا اذا رفضته هي، وان تحب من خطفها وتصارح القوم بذلك. فاذا توفرت هذه الشروط جاز الخطف، والا اعتبر خيانة، وقلة حياء، وخروج على الاعراف.

فالمتزوجة يجب الا تترك زوجها بهذه البساطة، والبدو يدركون خطورة تحطيم الاسرة، ثم ان الفتاة اذا لم تبلغ الثامنة عشرة فتعتبر مغرر بها، وهذا يوافق الاسلام تماما أنها بعد هذا العمر تقريبا لها الحق في اعطاء رأيها صراحة بمن تتزوج، كما أن الدول الحديثة ترى ان هذه السن هي عتبة تحويل حرية الفتاة من مقيدة الى حرة مطلقة، ولها حق اختيار من تريد وتشاء، وان كانت الفتيات سائبات قبل ذلك بكثير.

واما ان تكون بعد الجاهات، فانه لا يجوز خطف فتاة مجرد حبها، فذلك احتقار ليس للزواج، والانوثة والرجولة فحسب، بل واحتقار لأهلها وللمجتمع، فعليه اذن أن يرسل في طلبها مرة واخرى واخرى، فاذا رفض طلبه، حينها يلجأ الى (مما ليس منه بد).

وأما ابن العم فهو صاحب الحق الأول (من حيث المبدأ) وفي العادة قد يتمسك القاضي برغبة الفتاة.

ثم ان الفتاة المخطوفة وخاطفها يصبحان في خطر حقيقي مجرد معرفة الامر، واذا قتل اهل الفتاة ابنتهم، فيجب على اهل الشاب قتله، والا طالب اهل القتيلة بدية ابنتهم (مربعة) اي اربعة اضعاف لأنها قتلت بسبب ذلك الشخص، وان ما عملوه هو (محو العار) من طرفهم، وعلى اهل الشاب ان يفعلوا ذلك والا فان دمه يهدر لاهل القتيلة. ولكن اذا لم يقتلوها فليس من حقهم المطالبة بالدية، وانما تسير الامور في شقين:

الزواج: ومراسيمه المتعارف عليها، وفي هذه الحالة يكون المهر مضاعفا، ومشدد للاسباب التالية: انتقاما من الشاب... وحفظا لحقوق الفتاة، فهي مخطوفة وبالتالي محتقرة عند اهلها، ويجب ان يحافظ عليها بوضع مهر متقدم ومتأخر، حتى لا يفعل الزوج معها الا الخير مستقبلا... بالاضافة الى رد اعتبارهم، وتخويفا لغيرهم من أن يقدم على هذه العملية مستقبلا (انه عقاب اجتماعي واضح).

الصلح: ولا بد من اجراء الصلح لقاء جريمة الخطف فالزواج يتم كزواج، والصلح يتم حتى يذهب تهديد امن وحياة الزوجين الجديدين، وحتى تنتهي المشاحنات والفتور بين الطرفين، كما أن الصلح (وهو مراضاة، ومصافاة، وتنظيف للقلوب) لا بد منه عند البدو بعد اي نوع من الخلاف بين طرفين، وان اختلفت وجوه الصلح فمنه (بوس اللحى) ومنه ما يكون بالجاهات، والذبائح، والوجوه، والحراسات المشددة، ومنه ما يكون بسيطا.

ونعود الى موضوع مهر المخطوفة: فاذا كانت بكرا، فالمهر لأهلها، ولكن قد تكون متزوجة، ولديها من المبررات لترك زوجها، وحتى مجرد تركها لزوجها، فهو يتركها (الا ما ندر) انطلاقا من مبدأ البدو (اللي يبيعك بيعه ولا تسأل عن ريعه) (واللي ما يفطن عليك لا تفطن عليه)، ولا بد للزوج من استرجاع ما دفعه من مهر اي ان الخاطف يدفع مهرا للزوج، واخر لأهلها... ولا ننسى ان على الخاطف ان يدفع ما يسمونه (طيبة خاطر) لبعض اقارب المخطوفة وذويها، والمعارضين، حتى يخفف من حدة الغضب على فعلته هذه. ولا بد للخاطفين الهروب من الديرة حتى تنتهي الامور ويتم زواجهما، والذي اريد ان ابينه وأؤكده هو أن الخاطفين لا يتماسا بسوء (دخول بها) اطلاقا الا بعد الزواج، لأن زواجهما غير مؤكد، فاذا دخل بها، فهو يحرمها من الزواج مستقبلا على انها (عايبة) وقد يشفع لها عدم التفريط بشرفها - يشفع لها عند اهلها فلا يقتلونها، بالاضافة الى ان الطرفين يخشيان على سمعتهما، وسمعة عشيرتيهما، وعلى حياتهما، فالموت هو النتيجة المحتمة لهما اذا دخل بها.

أما الخطف الجبري: فيكون اما انتقاما من الفتاة لرفضها الخاطب، او من

اهلها لسبب او لاخر، او اشباعا لعداوات قديمة، او نكاية بشخص معين ينوي خطبة الفتاة...الخ، فيقوم الخاطف بترصد فريسته، حتى يظفر بها (بعيدا عن بيوت الحي)، وغالبا وهي واردة للماء او ترعى الغنم، او تجلب الحطب، فيضعها تحت تهديد السلاح، ويسوقها معه بالاكراه، وقد يفترسها بعرضها، ليضعها تحت الامر الواقع، ثم يهرب بها لاحدى العشائر القوية (ويحتاج هنا لعشيرة قوية او شيخ قوي لعظيم جريمته المشددة)، ويطلب الحماية والجيرة، وقد لا يجد من يجيره بسهولة، الا ان البدو (من حيث المبدا يجيرون كل من يستجير بهم – سواء ظالما كان او مظلوما)، ويقوم الشيخ باجراء اتصالاته للصلح والزواج، ولاهل المخطوفة في هذه الحالة حق الانتقام ليس من الخاطف، وانما من ربعه وعشيرته، وقد تقوم الحروب والغزوات والقتال، ومن هنا فان الخطف الاجباري نادر للغاية عند البدو، لما تترتب عليه من مساوىء، وحروب وتشريد، وتخريب، فالعرض عندهم أثمن ما يملكه الانسان من شرف وكرامة، واذا تمرغت الكرامة والشرف فلا حياة بعدها... ولا يستطيع الخاطف ان يكون امنا على نفسه طيلة حياته، الا اذا تم الصلح، ومع هذا فهو يبقى خائفا يترقب.... واذا افترس الفتاة واصرت على رفضه كزوج، فلا بد من قتله، ثم تعتبر هي انسانة شريفة نظيفة، فطالما انها اخذت بالقوة فلا يساء اليها من اهلها، ويتزوجها الاخرون كاية فتاة في منتهى الشرف والعفة، وهذه من حسنات البدو، فهي لا ذنب لها وقد اصبحت ضحية ذئب بشري متوحش، فلن تكون فريسة اهلها وقومها... بل ان مقاومة الانثى البدوية لكل معتد عليها يعتبر شرفا لها. بشرط ان يرافق المقاومة، صياح، وصراخ، وتمنع حقيقي، يظهر على جسمها وذلك ما يسمونه (خرزه بدايد، وثوبها قدايد) وما يسمونه في الطب الشرعي بالتشخيصات الحديثة، (خدوش واثار مقاومة واستعمال العنف) وفي هذه الحالة المشددة وهي الخطف الاجباري، لا بد من وجوه وكفلاء، وصلح، ودفع مبالغ طائلة، كما أن اهل الخاطف يجب أن (يجلوا) أي (يرحلوا لأماكن اخرى – اذا كانوا من نفس المنطقة أو العشيرة)، ويحق لاهل الفتاة في فورة الدم ان يقتلوا وينهبوا ويدمروا ما عدا ما يكون في البيوت فلا يجوز الاعتداء عليه واخذه، من متاع وحريم واطفال، وشيوخ عاجزين، مع هذا فهم ينهبون الحلال، ويقتلونه، ونستجير بالله من شر تلك الساعات وسوءاتها.

وباختصار نرى ان للخطف احيانا مبررات، الا ان البدو يعالجونه حسب ظروفه وخلفياته، وما فعله الخاطفان، وهو بنفس الوقت نادر بين البدو، ويلحق مرتكبيه وذويهم العار، وحتى ابناءهم يقال لهم: (عيال الخطيفة)، انه طريقة منبوذة في عرف البدو، وليس المجتمع البدوي هو الوحيد الذي قد تمارس فيه بعض العادات المنبوذة، فالمحاكم في الدول العصرية اكبر دليل على الممارسات المنبوذة، والتي لا يسمح بها العرف ولا القانون، والخطف نوع من الجهل... بقي ان نقول انه قد يتم بايعاز من أهل الشاب احيانا عندما يرون ضرورة زواجه من فتاة تحبه ويرفضه اهلها، وقد يتم بترتيب من طرف معين من اهلها بمعارضة طرف اخر منهم، وقد يكون الشاب سطا بالفتاة بحب واتفاق بينهما، ويرفض الاهل الموافقة على الخطبة وهم لا يعلمون ما تم في السر، فيضطر المتحابان

لاقتراف الخطيفة خوفا من نتيجة (المواقعة - اي الاتصال الجنسي)، لأنها اذا ولدت في بيت والدها (وكان البدو لا يعرفون منع الحمل بالطرق الحديثة) فالدائرة ستدور على الطرفين، فما عليهما الا انقاذ الموقف منذ البداية، وبدون تأخير. والفتاة تخاف اذا (فضت بكارتها؛ ان تتزوج من غير الفاعل فيها، فتكون الطامة عليه وعليها فتحاول ان يتم الخطف، وتنتهي الامور اذا لم (يقسم النصيب بواسطة الخطبة)، فالخطيفة هنا انقاذ لتصرف شائن، وتستر شرعي على عمل غير شرعي.

وبذلك نرى أن الرجل هو الذي يمارس الخطيفة او لنقل هو صاحب زمام المبادرة، ولكن قد يكون للفتاة فيها ضلع كبير، فقد تكون هي بالمقابل اقل منه حسبا ونسبا وكفاءة، فتغريه، حتى توقعه في الشرك، وتضعه تحت الامر الواقع، فيخطفها...

وفي الغالب يكون زواج الخطيفة من انجح الزواج ذلك ان الطرفين ينبذهم المجتمع، ونادرا ما تجد من يكون على استعداد لتزويج الخاطف، او الزواج من المخطوفة... هذا بالاضافة الى ان كل منهما ضحى بسمعته، وخاطر بروحه من اجل الاخر، اي ان الخطف (الرضائي) تم بعد حب بينهما تجاوز كل الحدود.... هذا النبذ الاجتماعي، وهذه التضحية، وهذا الحب يجعلهما يلتصقان ببعضهما، ويجد كل منهما الطمأنينة لدى الاخر، فيتحابان، ويعيشان سويا في عش زوجية اذا لم يكن سعيدا نستطيع ان نصفه ان كل طرف يتمسك بالاخر....

وقد يكون الاختطاف احد اجراءات الزواج لدى بعض القبائل حيث يقوم الزوج بخطف عروسه عنوة وهي تبدي مقاومة عنيفة، بينما يشايعه اهله ويطارده اهلها، وقد يكتفي من الاختطاف احيانا بصورته الرمزية، وبغير مغالاة فيه، وقد يحدث العكس على الرغم من اتفاق اسرتي العريس والعروس، ورغبة العروس الشديدة في الانتقال مع زوجها الا ان الاختطاف هنا بما يضمه من عنف ومقاومة واصرار من جانب الفتى لدليل واضح على مدى حرصه على زوجته من جهة ولاثبات قدرته من جهة اخرى على حمايتها وتحمل المكاره في سبيلها، كما تثبت مقاومة اسرة الفتاة للعريس الخاطف انها اسرة عريقة لا تتنازل طواعية عن احدى بناتها لأسرة اخرى غريبة حتى وان كان ذلك باسم الزواج، وبعد ذلك كله، بعد ان تثبت الفتاة ولاءها وطهرها، وبعد ان توضح اسرتها مدى تمسكها بها وحرصها عليها، وبعد ان يبذل الزوج في سبيلها الجهد والعرق والدم احيانا يكون قد اكتمل للزواج شكله الخارجي والداخلي، (الخارجي بعلم المجتمع المحلي كله ورضاه) (والداخلي باتفاق الاطراف المعنية) بعد ذلك كله يهنأ كل من الزوجين بصاحبه وتصبح عملية الاختطاف بالاتفاق واحدة من احلى الذكريات[١].

زواج الغــــرة:

تسمى الزوجة (غرة المدى)، وهذا الزواج يتم في حالات وقوع دم (جريمة قتل) بين

---

١) صلاح الفوال/ علم الاجتماع البدوي ص ٢٤٥

طرفين، وعند الصلح يشترط الطالب من المطلوب ان يقدم فتاة وبعضهم يشترط اثنتين، ولكن لا تزيد عن ثلاثة (لأن المرأة نصف الرجل)، وتكون بنات او شقيقات القاتل او اقرب الفتيات (المجوزات) - اي اللواتي بلغن الزواج في وقت الصلح والاشتراط، وهاته الفتاة او الفتيات يتزوجها شقيق او ابن او والد المقتول او اقرب الرجال اليه. حتى تنجب الواحدة ولدا او ولدين او ثلاثة ولكن لا يزيد العدد عن اربعة اولاد، حينها اما ان يعيدها لأهلها لتجد نصيبها او يبقيها كزوجة له، وفي هذه الحالة الاخيرة يتقدم بجاهة وخطبة من جديد، وقد لا يعطيه اهلها ولا يوافقون، واذا وافقوا فعليه دفع المهر وتصبح بذلك زوجة حقيقية له، ذات حقوق كاملة، لأنها وهي (غرة) بضم (الغين وتشديد الراء) تكون كخادمة، ذليلة، او كجارية. واما الاولاد فهم من حق الزوج، وكذلك البنات، وهذا الزواج (شبه انتهى) في البادية الاردنية منذ الستينات من هذا القرن العشرين بعد الميلاد... ولا شك ان مثل هذا الزواج له حسنات من حيث المبدأ الا ان السيء فيه هي الممارسة بحد ذاتها، فهو يزيد الصلات بين الطرفين، على مبدأ (كن نسيب ولا تكون ابن عم) لأن النسب والمصاهرة يقربان الناس بعضهم الى بعض... كما انه قد يحد من الثأر والخلافات، خاصة اذا استمر هذا الزواج، ولكن السيء فيه ان تعاد الزوجة الى اهلها بعد ان فقدت عذريتها ونضارتها وجمالها، وتلطخت بالعار انها كانت غرة مدى، وهذا بحد ذاته عار على اهلها، فهو عقاب شديد، حتى ان المطلوب اذا كان قويا يفوق خصمه يرفض هذا الشرط ولكن اذا كان ضعيفا، واقتضى العرف ذلك، فلا يستطيع له ردا...

نكاح الناس اليوم:

هو الذي اقره الاسلام الحنيف، والغى ما سبق من الانظمة الجاهلية التي لا تتفق مع الذوق والاخلاق والشرف وكرامة الانسان.

وفي هذا يخطب الرجل الى الرجل وليته او موكلته، فيصدقها ثم ينكحها، ولا يكون صحيحا الا بتحقق اركانه، من الايجاب والقبول، وبشرط الاشهاد وبهذا يتم العقد الذي يفيدحل الاستمتاع كل من الزوجين بالاخر على الوجه الذي شرعه الله وبه تثبت الحقوق والواجبات التي تلزم كل منهما تجاه الاخر، ولا عيب في ذلك فالزوجية من سنن الله في خلقه، وهي عامة عند الانسان والحيوان والنبات، قال تعالى **(ومن كل خلقنا زوجين لعلكم تذكرون)** والله سبحانه خلق الانسان وجعل له من نفسه زوجة يسكن اليها وجعل بينهما مودة ورحمة، فقال سبحانه **(يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء)**

واذا كان عرب (بدو) الجاهلية، قد اتبعوا ما سبق من النكاح دونما تقدير لحرمة الغريزة وكرامة الانسان، فان الاسلام قد بين لنا كيف يحمي النسل من الضياع والهدر، ويصون المرأة عن أن تكون كلا مباحا لكل راتع الى شيء له حرمة وتقدير لا يجوز التعدي عليه وتجاوزه، وبذلك وضع نواة الاسرة التي تحوطها غريزة الامومة وترعاها عاطفة الابوة، فتنبت نباتا حسنا، وتثمر ثمارها اليانعة.

والان لنتساءل: ترى هل يرضى اي منا ان يجهل والده، او ان يكون له اب غير ابيه

الذي ينتسب اليه؟! هل يرضى او يحب ان تكون امه متاعا لاكثر من رجل؟ او ان تكون زوجته متاعا لغيره كما هي له؟ او ان يشترك مع اخرين مع زوجاتهم ينتسب ولده لغيره، او غير ولده ينتسب اليه؟! لا شك ان اي عاقل طاهر شريف عفيف نظيف يأبى ان يقبل على نفسه هذا، او ان يقبل به، فالانسان يحب ان يكون له والدا واحدا، وعدة اولاد ينتمون اليه حقا وحقيقة، وان تكون زوجته له ما دامت على ذمته، وهذا ما امر به الاسلام الحنيف، ان يتزوج الشخص انثى، وينتسب الابن لأبيه، ووضع العقاب القاسي لكل زانية وزان، فالزانية تأتى بولد ينتسب لغير والده، وتأتي بوالد لغير ولده، فهي قد اضاعت النسب والشرف والكرامة، فاستحقت العقاب بالرجم حتى الموت اذا كانت متزوجة، واذا كان خلط النسب، وتزويره وتحقيره، ونسبة الابن لغير ابيه يستحق الموت في الاسلام، فلا شك انه دين يستحق ان يتبع لأنه يحفظ للانسان كرامته ونسله وشرفه، من جملة ما يحفظ له كل ما في دنياه واخراه وقد وضع حد هذه الخيانة للاعزب بالجلد، فالفتاة اذا زنت وهي (عزباء أي لم تتزوج بعد) فلا بد حينها من أن يعرف والد ابنها بالحرام، ثم ينسب لوالده الحقيقي ولو انه منه بالحرام، فهي خانت بذلك نفسها فاستحقت مائة جلدة بموجب الدين الاسلامي، اما اذا كانت متزوجة فهي لا تخون نفسها فحسب، بل وتخون زوجها، وعشيرته، وذريته من بعده أن جعلتهم من اناس عند اخرين بدون حق، وبدون شرف، فارتفع بذلك عقابها من الجلد الى الرجم حتى الموت، اما المتزوج، فهو لم يخن زوجته فحسب، بل وخان زوج من زنى بها، فافرغ فيها ولدا اضاعه على نفسه بالحلال، ليعطيه الى غيره بالحرام.

انه دين مثالي وارقى ما يمكن ان يطلبه الانسان في قمة مثالياته الدنيوية، والاخروية.

في هذا الزواج اباح الله للانسان ان يجمع بين اربع نساء في وقت واحد اذا اقتضت ظروفه ذلك، وقرن هذا التعدد (بالعدل) فاذا لم يتوفر فلا تعدد **(فان خفتم الا تعدلوا فواحدة)**.

واذا كان في هذا التعدد شيء من كرامة الرجل على المرأة وانه دائما يفوقها **(الرجال قوامون على النساء)** فهو كرامة للانثى ايضا، خاصة عندما يزداد اعداد الاناث على اعداد الرجال، فبدل ان تشبع هذه الرغبة بالحرام، وبالتالي يتفشى الفسق والفجور في المجتمع، فان هذا الزواج ستر للاناث وللمجتمع، وعلى رأي البدو (ريحة الجوز ولا عدمه) اي ان تتزوج الانثى ولو من زوج لا يكفيها تماما فانه خير لها من الا تتزوج، فان وجوده لا بد ويعطيها شيئا ولو يسيرا، وهذا احسن بكثير من العدم.

والزواج عند البدو (ستر للانثى وللذكر)، وهو طمأنينة، واستقرار، انه صورة من انانية الملكية الموجودة لدى الانسان ذكرا كان ام انثى.

ولا بد لي ان اذكر هنا، أن البدو اعتادوا التعدد من خلال سماح الاسلام به، حتى انك نادرا ما تجد واحدا لم يتزوج باكثر من واحدة، ولكن هذا التعدد مقترن بالدرجة الاولى بالتنظيم الطبقي، اي ان الفقراء المعدمين الذين لا حيلة لهم (كرعاة الغنم والابل)

الذين يقضون جل ايامهم خارج المضارب طلبا للماء والكلأ للماشية، فهم يتزوجون واحدة، حيث لا فراغ عندهم ولا كفاية لغيرها.

اما الذين انعم الله عليهم بالمال والحلال، وخاصة الشيوخ (شيوخ القبائل) فهم يجنحون الى التعدد، لأن فيه متعة، وزهوا، وخيلاء، بالاضافة الى كثرة الانجاب وبالتالي قوة العصبية، ولا نريد هنا ان نعدد اسباب التعدد عند الشيوخ، ولكن لا بد من ذكر شيء من هذا، فهناك عوامل المباهاة، والغيرة، والتنافس، والحب بحد ذاته، والبحث عن اللذة، وحب الولد والعصبية، وان يقال عنه عند الناس ذلك، مع الاخذ بعين الاعتبار ان القاعدة التي ينطلق البدوي منها بالتعدد هي الشريعة الاسلامية التي تبيح ذلك وتسمح به، كما تسمح بالطلاق، وبالتالي قد يتزوج بعضهم خلال حياته ما يقارب العشرين، وقد لا يتزوج سوى واحدة، بل من النادر جدا، ان تجد شيخا لا يتزوج الا بواحدة، واذا عرفنا ان التسري واقتناء الجواري كان يوما في العصور الاسلامية السابقة، فان ذلك معدوم الان، وبالتالي يكون الاتجاه للزواج فقط، والحل لجمع اربعة فقط، هو الطلاق ثم الزواج بحيث تكون على ذمته اربع نساء فقط في وقت واحد.

ومع ان الاسلام يبيح الطلاق الا انه (ابغض الحلال الى الله)، ومع انه يبيح التعدد الا انه قرن ذلك بالعدل (وان خفتم الا تعدلوا فواحدة)، ومع هذا فلا بد من الممارسات الخاطئة التي لا تقبلها النفوس السوية المستقيمة، وقبلها رفضها الاسلام وحذر منها (ابغض الحلال..) ... (... فواحدة). اما اذا كانت الامور في طريقها الصحيح فلا غبار في السماح حسب القواعد الذوقية العامة



مشروع اسكان عيمة/لواء الطفيلة ت١ ١٩٧٢

الفصل التاسع

قبيل الزواج

(مراسيم تسبق الزواج)



قبيل الزواج

(مراسيم تسبق الزواج)

وقبل التحدث عن عملية الزواج، لا بد من التحدث عن الاجراءات التمهيدية قبل البدء بليالي السامر، ثم نتحدث عن ليالي السامر، ثم الفاردة، ثم (ليلة الخشة) وجميع هذه الاجراءات يمكن ان نطلق عليها مراسيم الزواج، لأنها تمهيد له ومكملة لبنائه.

والشروع في مراسيم الزواج بعد الخطبة والعقد يعني عددا من الامور المهمة. فهو يعني وصلا، واتصالا وتكميلا للاجراءات السابقة من حيث الشكليات الاجرائية، وللتصميم من حيث الامور الذهنية والروحية، تماما مثلما يقوم شخص باصطياد غزال ثم يشوي لحمه على النار ثم يأخذه جانبا حتى يبرد ليأكله، فالاخذ جانبا هو استمرار لعملية الاصطياد من اجل تحقيق هدف الاكل والمتعة وما الى ذلك، وكذلك الزواج فهو استمرار لهذا الاصطياد الذي هو الخطبة والجاهات والجميع حلقات في سلسلة تنتهي الى نقطة الحصول على الهدف.

كما انه يدل ايضا على أن (طرف) الخاطب لا يزالون على عهدهم ووعدهم، ويقتربون من تحقيق هدفهم، وحيازة (الصيدة) من اجل ممارسة حقهم فيها، كما انه يدل على انهم يقبلون هذه الصيدة ثم انه دلالة على ان اهل العروس ايضا من جانبهم يوافقون على الامر وانهم على عهدهم ووعدهم السابق، وانهم لا زالوا يقبلون باعطاء الصيدة لهذا الصياد، اي ان الامر تأكيد من الطرفين بان كلا منهما لا زال يقبل بصاحبه.

وبالاضافة الى ذلك فهو يشكل مرحلة من مراحل الاقدام على الهدف بحذر شديد فعندما يقترب الانسان من الاصطياد يسير بحذر بالغ خطوة خطوة، ليتصرف في اية لحظة تقتضي ذلك، كذلك الزواج فهو تقدم نحو الهدف خطوة بعد اخرى، وكل طرف يدرس ما مضى ويرقب الحاضر والمستقبل بشدة للانحدار، والجمود في اية لحظة تستدعي او تتطلب ذلك.

كما انه عنصر اضافي للتشويق، فما هو الا صعوبة او درجة اخرى تجعل العريس لا يصل لما يريد بتلك السهولة على مبدأ (بنات الناس ما هن لعبة). وكذلك الامر بالنسبة للعروس التي تقترب من عريسها ببطء (لأنه بالانتظار يرى الانسان كل شيء من حوله بطيئا، وما ان يصلا الى نقطة الالتقاء حتى تكون الروعة والرهبة والرغبة، الرهبة من

الرجوع للوراء بعد هذا الالم والأمل، والرغبة في جني قطاف ثمار المعاناة، واما الروعة عندما يكون الاتفاق والخير).

وتبين هذه الاستعدادات مدى تماسك ابناء العشيرة الواحدة، فكما يكون الاستعداد للمعركة يعني بالدرجة الاولى الشيخ وعقيد القوم ثم بقية الفرسان والعشيرة، كذلك الزواج يعني بالدرجة الأولى العريس واهله الاقربين، ثم بقية الشباب والعشيرة، خاصة اذا كانت الفتاة من عشيرة اخرى، حينها يكون الجميع من الطرفين معني في مجاله بكل ما يتطلب الأمر لأن (الستيرة للجميع)، (وبياض الوجه للجميع).. فالاهل يهبون لمشاركة ابنهم وذلك كفلسفة، واحتراما لأنفسهم وللناس،..

انه خطوة نحو التلاحم الحقيقي، واستعداد للفرحة الكبرى... انه ايضا مناورة واختبار اذا ما كانت القلوب لا تزال على ما هي عليه من المحبة، والوئام ام لا؟!

انه اسلوب القيادة البدوية، والتشاور، فجميع الاطراف المعنية تتشاور لاتخاذ القرار النهائي، او خطوة نحو هذا القرار، انه احياء جديد للمرسال الذي يبلغ اهل العروس بقرار اهل العريس بالزواج، ثم تأتي الجاهة الاخرى وهي الفاردة ولكن ليس لطلب يد الفتاة وانما لاخذ الفتاة نفسها، وهكذا، تشاور وقرار ومرسال من اجل الخطبة، ثم جاهة الذبيحة او الخطبة، ثم فترة صمت او ركود وهي فترة الخطوبة تقصر ام تطول، ثم تبدأ المرحلة المشابهة المتممة، وهي تشاور القوم، ومرسال للابلاغ بقرار الزواج ثم الجاهة الكبيرة لجلب العروس، وفي العصر الحديث نجد مراسلات دولتين ترغبان الاتفاق على نقطة معينة، فتوفد كل منهما طرفا نحو الاخر يقومون بدراسة الامر وتحديده، وربما يصيغون القرارات، ثم يأتي رئيسا الدولتين ليوقعا هذه القرارات وفي احتفال اخر جديد اكثر واكبر اهمية لكنه متمم للأول، ولكن الاسم يصدر باسم الاخير، فيقال زواج، ويقال اتفاق، بينما ينسى احيانا كل ما يسبقهما (على المستوى البدوي والعصري) والان نتحدث عن كيفة سير الامور قبيل الزواج.

من طرف اهل العريس:

يتخذون القرار بالزواج وربما يكون بالحاح من الشاب (العريس) سواء جاء هذا باسراع منه بسبب أمر عارض اوذاتي، او تقدير او عدم تقدير، فربما ينوي اهلها او اهله الرحيل مما يجعل من المتعسر الحصول على العروس بسهولة اذا بعدت المسافة وربما يخشى ان يقوم من هو اولى منه بها (بالتفويل، اي الاحتجاج على الخطبة، ويطالب بفسخها لتكون من نصيبه) وربما لقرار معين او اتفاق مسبق بين العريس والعروس، او لاسباب مخفية، فيسرعون بالزواج.

والقرار يأتي رغبة من والد واهل العريس، انهم يريدون ان يفرحوا بولدهم وهم على قيد الحياة واذكر ان عجوزا بدوية كانت على فراش الموت، وكانت تتمنى ان تبقى على قيد الحياة فقط حتى تكتحل عيناها بمرأى حفيدها (ابن ابنها) وهو عريس، واسرعوا

باستعدادات الزواج الا ان الموت سبق اليها ... والبدوي يفرح كثيرا، ويكون سعيدا وهو يرى ولده عريسا لأن ذلك اثبات بل ووسيلة لاكثار العشيرة، وزيادة العصبية والقوة، واضافة بيت جديد، ورجال جدد، وان ولده اصبح رجلا، قادرا على تحمل المسؤولية. وربما لا يكون لاي سبب سوى انه أحب ان يتم الزواج حيث لا توجد موانع اطلاقا.

وقد يكون هذا القرار بسبب كلام الناس، واذكر ان كثيرا من البدو قرر الاسراع بالزواج عندما تناهى الى مسامعه كلام واقاويل على العريس انه غير قادر على دفع المهر، او انه ليس في عداد الرجال، فيضطر اهله للاستدانةوربما الى درجة المهانة احيانا من اجل اثبات عكس ما قيل عنهم وعن ابنهم، وقد يتجمع الاهل والاقارب ويدفعون معا ما بقي من المهر او يستلفون او يستدينون ليكونوا وابنهم في موقف الرجولة واقوى من التحدي. خاصة وان التأخر في فترة الخطوبة يؤدي عادة الى مزيد من القيل والقال (كلما طالت تلم غمور)، ويعزى التأخير تارة للعجز المادي، او لخلافات تنتظر التسوية، او...الخ فيحدث ان ينقض العريس كالصاعقة على هدفه فجأة وبدون سوابق، فيتزوج بسرعة.

واما اتخاذ القرار بضرورة تنفيذ مرحلة الزواج فقد يتم من الزوج (العريس) او والديه، او ذويه، وربما من العشيرة نفسها، وتتجمع هذه الاراء بغض النظر عن المصدر عند اهل العريس الذين يدرسون وضعهم، وهل الظروف مواتية ام لا؟! تماما كاتخاذ قرار الحرب، لأية دولة، وما هو الوقت المناسب لخوض المعركة، وما هو نوع المعركة وحجمها التي يمكنهم خوضها؟! كذلك البدو يحددون احيانا حجم الاحتفالات بهذه المناسبة، وهل ان امكاناتهم تسمح على ضوء ذلك؟ وهل هم بحاجة للاستدانة؟ ام ان ما عندهم يكفيهم؟! وبعد دراسة هذه كلها يكون القرار الذي يتم ابلاغه لوجيه العائلة او للشيخ لأنه المرجع الذي يجب ان يعرف كل شيء في عشيرته او بين ربعه (جماعته).

ثم تأتي المرحلة الاخرى، وهي ابلاغ ذوي العروس بهذا القرار تماما كما يحدث في الدول الحديثة عندما تخبر دولة ما بما تم من مباحثات وقرارات عندها ذات علاقة بمصالح مشتركة مع دولة اخرى فترسل وفدا من شخص او اكثر بصورة سرية او علنية للدولة المعنية لاطلاعها على القرارات او المباحثات... انه نفس الشيء الذي يمارسه البدو في حياتهم البسيطة... ويقوم (المرسال - او الطارش) - بابلاغ القوم بقرار الزواج، ويأخذ رأيهم، لأن التنفيذ مشترط ايضا بقرار مماثل من طرف ذوي العروس والذين بدورهم اما ان يقرروا ذلك فورا، ويوافقون، او يتخذون قرار التأجيل فورا ايضا، او يطلبون مهلة للتشاور لاعطاء القرار النهائي.

والبدو لا يتخذون القرار من حيث المبدأ الا بعد تشاورهم معا، وبعد (المخالاة) اي (المناجاة) اي ان يتدارس الامر شخصان او اكثر بصورة مستعجلة وعلى طرف ثم يعودون برأي متفق عليه فيما بينهم، واما في العادة فقد يتم اتخاذ القرار بدون التشاور والمناجاة، وكذلك الامر من اهل العروس. يكون التشاور والقرار في بعض كلمات الترحيب والمجاملة. (وان امانتكم لا بد وتأخذوها، ومبروكة عليكم، لكن اريد اشوف ربعي)، فهذه المرحلة المتقدمة الاخرى من اقتطاع جزء من العائلة تحتاج الى موافقة

اخرى رغم ان المبدأ العام والموافقة الرئيسية قد حصلت منذ امد، منذ الخطبة ومراحلها الأولى.

يقوم ولي امر العريس بالتناجي مع ذوي العلاقة من العائلة، مع الأم حيث يخبرها بالامر، ثم مع الفتاة ليستمع الى رأيها من جديد وهل توافق مجددا على الاستمرار في تنفيذ المراحل، لأنها ربما توصلت الى قناعات خلال فترة الخطوبة بوجوب فصلها فهذه مرحلة جديدة، وجدية، وخطوة تنفيذية، وفيها تقرير المصير النهائي، فان اعترضت الفتاة وجب عليها اعطاء المبرر الكافي الشافي لرفضها وتصرفها، والا لا يعتد به، واذا حدث ورفضت العروس واهلها خطوة الزواج، فيجب اعطاء التفسير المقنع، واذا كان السبب معروفا ومعلوما منذ امد او منذ مرحلة سابقة وسكتوا عليه طيلة هذه المدة السابقة فانهم (يغرمون) (اي يدفعون الغرامة للعريس) اما اذا كان السبب مقنعا، وتبين للعروس واهلها مع الزمن والتعامل حينها يكون في الامر نظر، وهم غالبا يلجأوون للقاضي ليعرف الناس حكمه بالامر بالاضافة لمعرفتهم برفض الزواج من الشخص المعين لما له من اثر على سمعته وكيانه وشخصيته بين الناس والعشائر.

ويشمل التشارو ابناء العم اذا كان الخاطب من غيرهم، وهذه مرحلة جديدة تثبت حق ابن العم بابنة عمه على مبدأ (ولد العم ينزلها عن ظهر الفرس)[1] وبذلك تأتي الصعوبات الجمة من الزواج من غير ابنة العم، وكم هومهم ارضاء ابن العم اذا كان الخاطب غريبا، وقد يرضى ببندقية اومسدسا، او اية هدية اخرى لضمان سكوته وصمته.

كما يشمل التشاور شيخ العشيرة او كبير العائلة ووجيهها خاصة اذا كان العريس من خارج هؤلاء حسب درجة بعده، ومثل هذا التشاور مأخوذ عند البدو من المبدأ الاسلامي (وامرهم شورى بينهم) فكلمة (وامرهم) عامة جدا، تشمل كل امر يهم الجماعة، والزواج قرار يهم الجماعة، وقد تترتب عليه امور كثيرة، كفرار العروس مثلا، او اعتداء العريس او اهله عليها، او ظلمهم لها، او اي عارض اخر يستوجب تدخل ولي امرها الذي قد يعجز عن رد السوء، ولا مناص له من الاستعانة بجماعته وعشيرته، وكما انه لا غنى له عنهم في الشدائد، فيجب الا ينساهم في الرخاء ايضا، خاصة وان الروابط الاجتماعية، وتظافر جهود الاسرة والعشيرة هي احدى مميزات المجتمع البدوي.

وقد يتم التشاور في نفس الوقت الذي ينتظر فيه الطارش (المرسال) ويعود ومعه الجواب وقد يأخذ الامر وقتا، ويقولون له (سنخبركم بالقرار في غضون كذا من الوقت).

ويجب ان نعرف ان التشاور يشمل امرين من لدن اهل العروس:

اولهما: التأكد من استمرار موافقة العروس على الزواج، وموافقة ابناء العم والعشيرة على ذلك، لأن الامر يعنيهم بصورة او باخرى، وتترتب عليه مسؤوليات قبلية

---

١) من عادات البدو ان العروس من حيث المبدا تركب حصانا او فرسا وقت زفافها (لان الخيل معقود بنواصيها الخير) وهي موضع محبة وخير وتقدير (ظهورها عز وبطونها كنز)، ومن التفاؤل ان تساق العروس لعريسها على فرس او حصان، اما من حيث العادة فقد تسير العروس على الاقدام اذا كان المكان قريبا، او على جمل او ناقة اذا لم تتوفر الخيول، وفي العصر الحديث تركب السيارة وربما الطيارة مستقبلا؟؟!!

وعصبية قد لا يحتاج اليها، ولكن قد يحتاج اليها في اية لحظة.

وثانيهما: مدى توافق هذا الوقت لظروفهم، وهل الامكانات المتوفرة تسمح بذلك، فالبدو عادة يؤثثون لبناتهم ولا بد لولي الامر ان يعرف ان كان هذا الاثاث جاهزا بحيث يكون كافيا ويؤدي الى بياض الوجه، واذا لم يكن متوفرا فيحتاج الامر لتهيئته وتوفيره. وسنتحدث بعد قليل باذن الله عن تجهيز اثاث العروس.

ومع اعطاء قرار اهل العروس (للمرسال) يكون تبادل الاراء، واعطاء المبررات، ثم يكون القرار النهائي المتفق عليه والمتضمن اما تحديد وقت الزواج والزفاف، او تحديد اقصى مدة تتم فيها المراجعة ثانية لتحديد الزفاف، وهذه المدة التي لا بد لذوي العروس من تجهيز اثاثها او لاتخاذ خطوات معينة، سواء اخبروا بها المرسال، ام ابقوا الامر سر بينهم، الا ان اللطف والانسانية لا بد منهما كطبع في البدوي من جهة، وكزيادة للمحبة والقرب[1] من جهة اخرى.

ويعود المرسال الى قومه يحمل القرارات المتفق عليها، خاصة وانه اصلا مفوض باتخاذ القرار من جهة اهل العريس، وقد يجد هناك شيئا فوق طاقته، وطلبات لا يستطيع هو البت فيها، فيعود بها لربعه ليتدارسوها، ويتخذون القرار المناسب، وكثيرا ما يقوم اهل العروس بالابتزاز بوسائل غير لائقة خاصة اذا كانوا من غير اصل يعتب عليه، او غير راغبين بالعريس ويضعون ما هو تعجيز له لطرده، وكثيرا ما تنفك الخطبة ولا يتم الزواج على مبدأ (للبرزة ولمن تقسم؟!) فهذا تساؤل بدوي مبني على اعتقاد ان العروس قد تزف لعريسها، وتدخل البرزة (مكان لقاء العروسين للاتصال الجنسي المشروع) وهي غير مضمونة ان تبقى له، فكثيرا ما تختطف عرائس من هذا المكان (البرزة) او يهربن اذا كن غير راغبات بالزواج، او تتحول العطية من شخص لاخر، فيطلقها من زفت اليه، ويتزوجها شخص اخر، وعلى مثل هذه العادة نذكر هذه الحادثة.

مر شاب بدوي فارس بفتاة بدوية جميلة كانت تملأ الماء من البئر، فرأى إبطيها واذا عليهما شعر، وهذا دليل على ان الفتاة غير متزوجة عند البدو احيانا. فسألها عن اسمها عندما اسقته الماء (وهو مراق طريق) فقالت: اسمي شاهة فقال: يا شاه اللي باسفل البير مثل اللي باعلاها (اي هل لا زلت بكرا غير متزوجة)، فقالت (ما احد شرب من ماها وهي لمن بحق الله يرجاها) - (اي لم يذق عسيلتها احد/اي انها لا زالت بكرا لم تزوج) - فقال لها: (عالحول انا ابغاها "اي اريد الزواج منك بعد سنة). فقالت هي: (على الوعد وان شاء الله تأكل نواها) (اي اعاهدك الحب واتمنى ان تقطف ثمري انت ولا احد غيرك) وافترقا، ولم تفهم الفتيات والصبيان من حولهما ما دار بينهما (وبعد مضي عام كامل، عاد الرجل واذا بالفتاة في (البرزة) والافراح قائمة وقد زفت لابن عمها، فقال

---

[1]) البدو يقسمون المصاهرة الى قسمين: نسب: اذا كانت علاقة الطرفين قائمة على حسن التعامل وتبادل الاحترام، ونشب: اذا كانت علاقات الطرفين عكس الاولى تماما، ومليئة بالشقاق والنفاق، والنزاع، ويقولون نشب كناية عن التماسك العشوائي اللارضائي، البعيد عن اللطف والقائم على العنف ويقول (قشب) اذا تحولت المصاهرة الى عداء ونزاع تجاوز نقطة اللاعودة.

الرجل: (ما تذكري العهد وانت على البير تأخذي المية برشاها)

فسمعته شاهة وعرفت انه هو فقالت: (على الوعد، وتوخرت ولابن عمها بخباها) (اي لا زلت على وعدي، ولكن تأخرت، وانا في هذا الخباء عروس لابن عمي).. فسمعها العريس وفهم الامر وقال: (سامع ياباها ويش تقول شاهه؟) (اي هل سمعت يا ابا شاهة ماذا تقول ابنتك) فقال الاب: كلام جاهل ما يتخطاها؟! (أي انه كلام لا قيمة له وقرار لا نوافق عليه) فقال العريس: تراها تحرم علي وتحلل لي يبغاها، (اي انه طلقها واعطاها لهذا الرجل) وبالفعل تزوجها هذا الرجل ودخل عليها بدل ابن عمها، ومن هنا فالبدو صادقون وهم يقولون: (للبرزة ولمن تقسم؟) فالاحداث والحياة اقنعتهم صحة هذا المبدأ، وهذا التساؤل...

واذا وقعت الاشكالات في الامر بدأت الوساطات والجاهات، وقد تنتهي الى هذا الحد، او تتطور للوصول الى القاضي، وربما باكثر من هذا خاصة اذا كانت الفتاة تحب الشاب، فربما يلجأون للخطف، وللغزو والقوة. وهنا يكون المركب الوعر والبلاء والوبال على الطرفين.

واذا كان الاتفاق والوئام فهو على امرين كما قلنا: اما الموافقة او الامهال:

اما الموافقة: فهي خير جواب لأهل العريس فيشرعون بتنفيذ الخطوات حسب المخطط ويذهبون للتجهيز (اي شراء الجهاز – وسنتحدث عن ذلك ان شاء الله)، ثم حفلة السامر (الرقصة) ثم الزفاف، مع تحديد موعد الزفاف ثانية قبل يوم وليلة من وقوعه، اي تأكيد تاريخه، فتحديده يكون سابقا، ولكن تأكيده ضروري تماما كما يفعل اي مسافر على طائره فهو يعين يوما للسفر وعليه تأكيد حجزه قبل يوم وليلة من سفره، وكذلك اذا دعا شخص شخصا اخر على وليمة نجده يؤكد وقتها ثانية في صباح اليوم المعين او قبل بيوم... وبذلك نرى ان تصرف البدو شيء صحيح وضروري. وفي طبيعة الانسان ايا كان، سواء بدويا ام عصريا.

ولا شك ان ما نكتبه يبدو معقدا وطويلا في امر الزواج، ولكننا نكتب امورا تفصيلا لتصرفات بدوية بسيطة عشناها وعرفناها أو رأيناها أو سمعناها (في الواقع والميدان) بل وفي منتهى البساطة ولننظر كيف تكون هذه البساطة:

يجلسون على قهوة ومن ضمن الحديث يكون قرار تعيين الزفاف والزواج، ثم يرسلون المرسال ويأتي بالجواب، ثم يتخذون القرار النهائي على ضوء ذلك، ولا بد من عمل هذا بصورة او باخرى طالما تم الزواج بالطرق الطويلة، ولا شك ان هناك حالات من الزواج لا تتم فيها هذه الامور لا من قريب ولا من بعيد، وسبق ان تحدثنا عن الخطبة الفورية والزواج الفوري، والامر قائم على الاتفاق، فاذا وجد انتهت جميع الشكليات، وما هذه التصرفات الا لضمان استمرار الاتفاق لان (الوفق يقود الرزق – على رأي البدو)

اما الامهــــــال: فيحتاج الى اعادة النظر في الامور والقرارات: فهناك ارادات اخرى يجب احترامها وهي ارادة اهل العروس.. فقد يكون امهال مؤقت لتجهيز شيء معين، او لشفاء العروس من مرضها (اذا كانت مريضة مثلا)، او شفاء والدها او اخيها

او امها..الخ، اذا كانت مريضة بمرض يرجى شفاؤه اما اذا كان مرضا لا يرجى شفاؤه فلا مبرر للامهال، وقد يكون الامهال حتى تنتهي مدة معينة مثلا على موت احد ذوي العروس او من اقاربها (وتحدد المدة عادة باربعين يوما وتسمى - المربعانية او الاربعينية)، وهذه مدة الحزن (والكره)[1] ونادرا ما يمارس البدو خلالها افراحهم كزواج او طهور لأن (الكره والفرح) لا يلتقيان، ومثل هذا الامهال مقترن بانقضاء وقت معين، ولكن قد يكون مقترنا بانجاز عمل معين (يطول الوقت او يقصر)، كعمل المفارش وتجهيز الاثاث، او قدوم شقيقها او والدها من الغزو او من التجارة، او من السفر، او العزب (بضم العين والزاي، وتسكين اللام والباء)

وقد يكون الامهال من اجل مزيد من التشاور بين ذوي العريس لاصدار قرار جديد قد يؤدي الى الفسخ، او وضع شروط جديدة او الموافقة، او المماطلة ويكون رد الفعل من ذوي العريس حسب الجواب، وغالباً لا يدخلون في هذه التعقيدات التي لا تكون الا في حالات نادرة.

تجهـــيز العـــروس:

لا بد أن نعرف أن الاثاث الذي تحمله العروس معها من حيث (المبدأ) يكون من عند اهلها (وان اختلفت الامور حديثا بعد الستينات من القرن العشرين الميلادي). **ذلك** ان الاثاث والجهاز جزء من الستر للعروس وعلى ولي أمرها أن يرسلها (محفلة ومزفلة مستورة) الى عريسها، وما الاثاث الا قسم من هذا التحفيل - فالانسان يبدو مكتملا ولا اقول كاملا، بلباسه الجميل، خاصة اذا كان يحوز ما يحتاجه من الضرورات، والتي هي بالنسبة للعروس الالبسة والاشياء الأخرى... انه يزفها الى عريسها مستورة، ومزينة ذلك ان الألبسة والامتعة هي من وسائل الزينة ايضا، وهي جانب من جوانب الغواية بالنسبة للعروس، ولا شك ان الغواية والافتخار يكون افضل عندما تكون اسبابه وركائزه من عند الاهل، فهم القاعدة والاصل، والانثى تعتز باهلها وتفاخر بهم على زوجها الذي هو بالنسبة لحياتها شيء مكتسب.

وإذا نظرنا الى الاثاث الذي يكون للعروس وجدناه (من حيث العادة) من مصدرين: من العريس او من اهلها.

اما ما كان من العريس فاهمه الذهب (الحلية)، والبسة الجوخ (المسماة دريعية) لها ولأمها، وقد يشترط من ضمن المهر أن يأتي العريس بذلك لها، وقد يكون عن طوع ورغبة ومحبة - كأن يشتري لها اسوارة او خاتما، او قطعا ذهبية توضع في العنق ضمن سلسلة من القماش المخيط المبروم.

---

[1] الكرة (بفتح الالف والكاف والراء، وتسكين اللام والهاء: كلمة يعبرون بها عن الموت والحزن، وهي تقابل (الفرح) من حيث الضد والعكسية.

ويقدم العريس احيانا بعض الثياب او الاثاث خاصة اذا اتفق على ذلك مسبقا بين الطرفين.

اما ما كان من عند الاهل فهو كل ما تحتاجه لنفسها، وما يكون بصورة مشتركة لها ولزوجها معا كالثياب، والفراش، وامتعة الحمل (العدول - ومفردها عدل) وهي كيس من الصوف والشعر المنسوجان معا بالطريقة اليدوية بالاضافة الى الحلي وخاصة الذهب والفضة، وبعض الادوات لصنع الطعام الضروري، وهي (صحن)، وقدر صغير، ومغرافة (مصنوعة من الخشب وتستعمل لتحريك ما في القدر، وانتشاله)

ويمكن بذلك تصنيف هذا الجهاز او الاثاث الى قسمين:

الأول: **ما هو خاص بها -** كالحلي والملابس الشخصية، وهاته تكون حرة التصرف بها ضمن الاصول والمعقول، ولها ان تسمح لزوجها ببيعها والتصرف بالثمن لما فيه مصلحته، او مصلحتهما معا، واعرف كثيرا من البدويات وضعن ما لديهن من مصاغ وحلي تحت تصرف ازواجهن، حتى تجردن من كل شيء اسمه (المال). ومن الاشياء الخاصة بها ايضا: ادوات ومواد الزينة.

وهناك جهاز يرتبط بها وبزوجها: وهو الذي يستعمله الطرفان معا، كأوعية الطهي والخبز، والفراش وان كانت هذه ترتبط بالاخرين ايضا، فالفراش للضيوف ايضا، ولكن اذا اخذنا بعين الاعتبار ان الشاب المتزوج يسكن مع أهله، فان ما لديهم من اثاث يكون للضيوف، وما لديه يبقى له ولعروسه الا اذا احتيج الامر لاستعماله، ومن حيث المبدأ يكون اثاث العروسين هذا للعروسين، وفي العادة يستعمل لغير اغراض الزوجية ايضا.

وهناك الثوب الذي تلبسه العروس من بيت والدها وهو من القماش الابيض وتلبسه يوم الزفاف ثم تعطيه للعريس بعد ان (يفض بكارتها) ويرتديه العريس في صباح اليوم التالي، ويفتخر ببقع الدم التي عليه لدلالتها ليس على شرف عروسه فحسب، وانه على قدرته الجنسية ايضا..

وتعتبر العدول (مفردها عدل، وهي كيس منسوجة من الصوف والشعر معا لاستعمال البيت بما يخص العروسين معا طيلة حياتهما.

والاثاث الذي تأتي به العروس نوعان من حيث المظاهر:

فمنه الظاهر للناس: وهو موضع التفاخر، وتتحدث عنه الناس فيقال: **فلانة** (جابت معها)، او (ابوها اطلع معاها - اي اخرج معها اثاثا ما هو كيت وكيت)، ويزيد من احترام الناس للأب كلما كان ما اخرجه مع ابنته كثيرا وكافيا، ويوصف بطيب النفس، وبالشهامة والكرم، ويجعل الشباب يميلون لمصاهرته لهذه الطيبة التي يتمتع بها، واذا عرفنا اهتمام البدو بالسمعة وكلام الناس ادركنا كم هي اهمية هذا الضبط الاجتماعي وهذا الحسبان لكل تصرف وكيف سيكون رد فعل الناس وقولهم عنه... كما ان العروس تفتخر باهلها ووالدها امام الناس وعلى زوجها ايضا انها عزيزة على اهلها وانهم كرماء

وفي حالة تجعلهم قادرين على توفير العيش الكريم لها، وما على الزوج الا ان يستمر بهذا المستوى وكفى.

وأما أثاث النوم وهو الفراش فكثرته وجودته تدلان على ما فيه العروس ايضا من الدلال والنعومة وهذا يزيد لوعة الشاب البدوي فيها، اما الثياب التي ترتديها، فتكون براقة، وعليها التزويق والتطريز وهو امر يحبه البدو كثيرا، وبالطبع فان مثل هذا المنظر، والمظهر يجذبان الشاب، ويجعل العروس تبدو في حلة جميلة ولطيفة، وهو امر مهم ان توصف به العروس سواء أكان ذلك بالنسبة للعريس حتى لا يقال انه جاء بفتاة سيئة، او بالنسبة للعروس وأهلها ليكون ردا على الحاسدين والحاقدين الذين قد يقولون عن العروس مالا يليق بمقامها وفي ذلك كم لافواههم بشكل واضح ولكن بطريقة ضمنية.

وأما الاثاث المخفي: وهو الذي لا يبدو واضحا للناس، وان رآه البعض، او اخفي في (العدول)، وهو اثاث سفري، ما خف حمله، وغلا ثمنه، او ما تعلق بامور خاصة للغاية، فالثياب الداخلية، وادوات ووسائل الزينة، وما يتعلق بالعريس والعروس فقط، سواء احبوا اظهاره أم رغبوا اخفاءه، فان هذه من الاثاث المخفي والذي يكون اخفاءه باحدى الوسائل الثلاثة التالية:

ما مع العروس: كالملابس ما تحت الثوب، والحلي من ذهب واساور وهاته قد تكون مخفية أي ان شك الذهب (وهو الحبل الصغير الذي تربط به القطع الذهبية لتضعه في عنقها) عندما يكون تحت الثوب معلقا بالعنق، وقد تضعه العروس فوق قبة الثوب ايضا.

واما وسيلة الاخفاء الثانية فهي (الخرج): وهو مصنوع من الشعر والصوف ويكون ملونا زاهيا، او بدون ذلك ويوضع على الفرس التي تمتطيها العروس، فيملأ الخرج عادة بما خف وزنه وغلا ثمنه، او بما هو ضروري للعروس وتحتاجه في متناول اليد، كالثياب الضرورية، بحيث يوضع الخرج مع العروس في البرزة في متناول اليد ايضا.

اما وسيلة الاخفاء الثالثة فهي عدل الكفيت[1]: وفيها يتم حمل الاشياء ذات الحجم التي يتعسر وضعها في الخرج فهاته متممة لبعضها البعض (اي ان الخرج والعدل متممان لبعضهما)، واذا كانت العدول، والخرج من الاثاث الظاهر للناس فهما وسيلتان لاخفاء الاثاث ايضا، وتستعمل هذه ليس لهذا الغرض فحسب، بل وللحمل والحفظ ايضا، وتبقى تؤدي نفس الغرض (ما لم تبل) ما دام البدوي يرحل وينزل هنا وهناك... واذا كانت العروس في عصرنا الحاضر او في المدينة تأتي معها بخزائن لحفظ

---

١) عدل الكفيت (هي مصنوعة من الشعر والصوف او الوبر بطريقة تسمى (النطي) وهي طريقة النسيج عند البدو وتسمى العدل بهذا الاسم (بكسر العين والدال، وتسكين اللام) انها اذا واضعت فيها الاشياء القابلة للتلف او الكسر لا تحمل على الدواب الا كل اثنتين معا بحيث تكونان متقابلتين واحدة قبالة الاخرى، وتعادلها (اي تساويها) كما ان التساوي بحد ذاته هو (عدل) بفتح العين وتسكين الدال، ولكن البدو كسروا العين في هذه. واما الكفيت فهي مأخوذة من كفت الشيء (عندهم) اذا وضعه في حفرة او شيء عميق بحيث يتعسر خروجه او يكون وضعه محكما، وهاته الاوصاف تنطبق على العدل، وهي التي يكفتون (اي يضعون) حوائجهم الصغيرة فيها، لحفظها وحملها، ومن هنا سموها (عدل الكفيت).

الاشياء فان البدوية قد سبقتها الى حمل وسيلة للحفظ، وتزيد عليها باداء مهمة الحمل ايضا، فالمبدأ هو الحفظ. والعادة هي باستعمال، العدول، او الخزائن حسب المكان والزمان وطبيعة المجتمع... كما ان البدوية تأتي بالعدل او الخرج الذي هو من صنع يديها اما المدنية فتدفع لذلك ثمنا وتعتمد على غيرها في توفيره. وفارق بين ان يصنع الانسان لنفسه الشيء بنفسه، وبين ان يصنعه له غيره... فالروح والرغبة، والذكريات، واللذة تفتقد مما يصنعه غيره له، بينما تكون في كل جزء وحبة عرق وجهد فيما يصنعه هو لنفسه.

أثاث العروس بالتفصيـــــل:

وبعد أن تحدثنا عن ذلك بطرق مختلفة، لا بد لنا ان نبين ماهية هذا الاثاث فنقول: ان ذلك قد تطور بتطور المجتمع مع الزمن، فما كان قبل القرن العشرين يختلف عنه عما هو فيما بعد العشرينات والثلاثينات من هذا القرن العشرين، وقد لاحظت ان اثاث العروس يتألف من الاشياء المستعملة لها ولعريسها من زوجين متقابلين متساويين، متشابهين، كتعبير عن الأمل بالانسجام والمحبة والتماثل والوئام، ولا شك ان ما سنذكره ليس هو كل ما هو عند البدو من حيث المبدأ، وانما نحن نتحدث عن عادة موجودة على الاقل بين العشائر الموجودة في منطقة البلقاء في الأردن ومن خلالها استطيع استخلاص مبادىء عامة يعبر عنها البدو بوسائل مختلفة.

(فالمبدأ) بلباس العروس هو سترها، وزينتها، وتخفيها، واظهار مودة والدها للناس، ومهارة الفتاة او امها او بنات عائلتها بالتطريز، والتجميل، ويعبر البدو عن ذلك بوسائل تناسب الازمنة والامكنة التي يعيشون فيها، والامكانات المتوفرة لديهم.

اما المبدأ بالزينة فهو توفر ادوات زينة بسيطة تناسب البدوية، وحركتها وتنقلها

اما المبدأ في الاثاث الباقي فالفراش: للراحة والتدفئة والاستعمالات الاخرى فهـ تكون (دبية، او فرشة، او عدل، او مفرش).

كما ان هناك (مبدأ) يحتاجه الحمل والحفظ وتقوم العدول والغفرات والخرج بهـ المهمات كل حسب طريقة صنعها والهدف الذي صنعت من أجله... فمنهم من يكتفـ بالعدول، واخرون بالغفرات، واخرون بالمعانق، وبعضهم بها جميعها هذا بالاضافة الى الخرج والصندوق والفاتية.

ولنبدأ الحديث بالأشياء العامة ثم ننتهي للخاصة المتعلقة بالعروس:

جوز عـــــدول:

وهاته يكون لونها محدد من الشعر السادة، والصوف او الوبر السادة، اي لون اسود، وابيض او ابيض مختلط بالاحمر او الاصفر - اي ان لونها طبيعي جدا، وتسمى عدل كما سبق وقلنا لأن الواحدة تقابل الاخرى وتعادلها وتساويها وتشابهها، بحيث اذا حملت على ظهر الدابة ووضعت على طرف وضعت شبيهتها او (عديلتها) قبالتها فهي

معادلة لها اي مشابهة ومساوية، ويقولون للشيء اذا ساوى الشيء انه (يعادله).

وتختلف العدول من حيث السعة الحجم فمنها (ذات العرض) ومنها (ذات العرضين) (اي ضعف الأولى) وتتألف اما من جزء يتم ثنيه ثم تخاط جانباه ويكون له باب واحد، او من جزئين يخاطان الى جانب بعضهما البعض فيكونان جزءا واحدا يتم ثنيه ويخاط طرفاه ويكون له باب واحد ايضا، وهاته تسمى (عدل مجوز) - اما الأولى فتسمى (عدل مفرد) بكسر الميم والراء وتسكين الفاء والدال)

والعدول تستعمل لاكثر من هدف:

فمنها عدول الطحين وهاته قد تأتي بها العروس اذا كان والدها ميسور الحال، وعريسها سيعيش بمفرده لأنه اذا عاش مع اهله فلا حاجة له بهذه العدول ولا بادوات الطبخ والخبز والقهوة، وعدل الطحين لوضع الطحين فيها.

ومنها عدول الكفيت: اي التي تحمل بها الاشياء من أثاث لا يخشى كسره او تلفه، فبدلا من حمل كل قطعة اثاث لوحدها، والذي يتطلب جهدا كبيرا، فانه يوضع عدد كبير منها في وعاء واحد وهذه هي الطريقة العملية والمثلى بالنسبة لانسان بدوي متنقل متحرك، وسميت (الكفيت) كما سبق وقلنا من كفت الشيء اذا وضعه في حفرة او هوة عميقة او اناء محكم بحيث يصعب خروجه أو لا يخرج الا بعد ان يقوم صاحب العلاقة باستخراجه.

المعانـــــق:

ويشترط ان تكون خضراء وحمراء اللون اي يختلط اللونان الاخضر الدال على الخير، مع الاحمر الدال على الخطر، وهي من نفس لون المفرش (وجمعها المفارش).

اما لماذا هذا اللون بالذات **فهو يأتي** من خلال المهمة التي صنعت هاته من اجلها، وهي: لخزن الحبوب، والزينة، وتكون فراشا وغطاء، ووسائد للضيوف...الخ بالاضافة للحمل وقت الخطر. فهم يرون ان مهمتها تمتزج بالخير وذلك بحفظها للحبوب والاثاث، وفرشها للعروسين والضيوف سواء نام عليها الزوجان ام الضيوم فكله خير، وبركة او يمن بالخير والبركة.

اما الخطر: فهي تساهم في ابعاده او ايقافه، خطر العيب حيث تستر على الزوجين، سواء لانفسهم ام لاضيافهم، وتبعد خطر البرد كغطاء وفراش، وخطر ضياع الاثاث والحبوب،... ويأتي اللونان ايضا من خلال المصدر وهو الصوف الذي يعني وجوده ان الماشية (الاغنام) كثيرة، وهذا مؤشر خير، كما انه مؤشر خطر حيث يعني طمع العدو بها وحيازتها بواسطة الغزو وهنا نجد ان الدفاع عنها وحمايتها من الخطر هو خير وخطر بحد ذاته..

وبالاضافة الى كل ما سبق فالمعانق مأخوذة من كلمة العناق حيث تتقابل على ظهر البعير، وفي العناق دائما خير وخطر، وعبر كل لون عن فلسفة مما يتضمنه معنى هذه الكلمة.

ان المعانق: تعني المحبة بين العريس وعروسه، وبين عائلتيهما، وبين عشيرتيهما، او املا في ان يكون ذلك مستقبلا اذا لم يوجد في الوقت الحاضر، انه الخير والتعبير عنه، والامل بوجوده، وان الزواج بدون محبة او امل بالمحبة يبقى على كفة عفريت... واذا كان لا بد من معرفة سعة المعنقة الواحدة فالواحدة تتسع لما لا يقل عن ستمائة كيلوغرام من القمح، حيث انها تستعمل فيما بعد كمخزن للقمح وحينها تسمى (إصيارة) وتتسع لمائة صاع بلقاوي والصاع نصف مد اي تسعة كيلوغرامات ولا ننسى انهم يزينون المعانق بهدب من الصوف بحيث تبدو جميلة مسرة للناظرين.

الخـــــرج:

واعتقد انه معروف للجميع من بدو وغير بدو، حيث يتألف من صرعتين (ومفردها صرعة) تتقابلان، ويكون الجزء الذي فوق ظهر الدابة فارغا. وتوضع فيه (في كفتيه او صرعتيه) ما خف وزنه وغلا ثمنه، وكانت الحاجة اليه اثناء السفر او عند حط الرحال. لأن العدول تحتاج الى وكاء وثقيلة الحمل، وتحملها الدواب، من بيت العروس الى (البرزة) او بيت والد العروس واستعمال اي شيء فيها يحتاج لوقت وتأن، اما الخرج فهو بدون وكاء من جهة، وسهل الحمل من جهة اخرى، كما انه يكون على ركوبة العروس، وهو اشبه بحقيبة اليد بالنسبة لفتاة المدينة العصرية، والتي هي ايضا تتخذها احيانا من الغزل المنسوج الشبيه بالخرج، ولكن بصرعة (اي جانب واحد) وليس بصرعتين. والخرج عادة يكون متوسط العرض بما يناسب (معرقة او سرج الفرس او الحصان)، وهو في الاصل قطعة واحدة مصنوعة من الصوف والشعر، او من الوبر، ثم يؤخذ جانب من كل طرف ويخاط مثنيا، فيكون ما يشبه الكيس في كل جانب تسمى (صرعة). وما بين بابي الخرج يبقى الاصل فقط، واحيانا تتخلله من الطرف الخلفي فتحة، وذلك لتدخل منها مؤخرة المعرقة او السرج، فيثبت ولا يتأرجح من مكانه ويتم تزيين الخرج بالشراشب والاهداب، واكثر الوانه الحمراء، والبيضاء، والخضراء، والزرقاء، والسوداء، وبمعنى اخر جمع الالوان المستعملة في الاثاث الاخر، ذلك ان الخرج يمثل جميع المعاني التي تعنيها ادوات الزينة والاثاث عند البدو، فهو غواية وخطر وخير، وظمأ وارتواء، وحب وحرب...الخ

الغفـــــور:

ومفردها غفرة (بفتح الغين وكسرها)، ولونها ازرق فاتح، وهو لون السماء، ذلك انها تستعمل للغطاء عند النوم، وربما جاء لونها من فلسفة مهمتها، كما ان اختلاف الالوان يساعد البدو على معرفة ما خرج مع العروس من عند والدها، فاذا رأوا لونا ازرق فاتحا عرفوا انها تحمل معها (غفور)، واذا كان اخضر واحمر فهي تحمل معانق ومفارش واذا كانت الالوان طبيعية فقد جاءت ب (عدول) واذا حملت هذه الالوان فقد جاءت باثاث شبه مكتمل بما ينص عليه العرض.

والغفور عبارة عن اكياس منسوجة من الصوف والشعر او الوبر، تستعمل

لاغراض الحمل والحفظ بالاضافة لمهمتها كغطاء، وهي المهمة الرئيسية في سائر المهمات المترتبة عليها.

المفـــــارش:

ومفردها مفرش، وهو ما يفترش للضيف العزيز، وللعروسين ليلة زفافهما، وهو مصنوع من الصوف والشعر ولونه احمر واخضر. مع بياض وسواد خفيفين، اي ان المفارش تشبه المعانق في اللون وان اضيف اليهما الابيض والاسود، ذلك ان الفراش اما ان يكون ما عليه سواد وجه وخطر، او بياض وجه وخير، ومن هنا اضيف اللونان اليه.

فالعريس مع عروسه ليلة زفافهما: اما ان يحل الوئام بينهما وتكون المحبة، والامور على ما يرام، وهذا بياض وجه لأهل العروس عند العريس، وللعروس عند زوجها واهلها، واما العكس فهو سواد وسوء.

ويغلب اللون الابيض على الاسود تيمنا، واملا ان يغلب الخير على السوء والشر.

وهناك جزء في المفرش يكون نسجه بحيث يتعاقب اللونان الاسود والابيض فيه يسمى (نميلية)، وهذا تعبير على ان لكل امر وجهين اسود مظلم، او ساطع البياض والنور، وهذا يعتمد على وجهة نظر الشخص، فما يعجب هذا ويكون ابيض قد يكون في عرف ذاك اسود، ولا يعجبه، وبذلك نجد في (النميلية) ان ما يكون من طرف ابيض يقابله على نفس (الدرزة) أسود والعكس ايضا.

وهذا بحد ذاته تعبير للعريس والعروس، ان يتأنى كل منهما تجاه الاخر ويفترض فيه الخير، وان ما يكون ابيض وخيرا فليأخذ به كابيض، وكخير، واما اذا بان الوجه المظلم، فليفترض كل منهما ان هناك وجها مشرقا لم يكتشفه بعد، وهو عميق في الطرف المقابل.

وبذلك نجد ان الالوان عند البدو في الاثاث تعبر عن فلسفتهم العميقة في التعامل مع بعضهم البعض. والمفارش يطلق عليها ايضا (البسط) بتسكين اللام والطاء، وضم الباء والسين، من بسط الشيء اذا جعله مستويا غير متجعد وليس فيه انثناء او طوي.

ولا بد لنا ان نعرف ان صنع البسط او المفارش، عملية صعبة وطويلة، فالصوف يغزل بعد تنظيفه جيدا، ثم يرسل الغزل الى الصباغة حيث يصبغ بالالوان التي يحتاجونها، الا ان اللون الابيض هو اللون الطبيعي للصوف، ثم بعد ذلك يتم (شر) اي نشر الغزل المصبوغ على حبل البيت ولكن ليس على صفاة او حجر او ما الى ذلك، وانما على الحبل بالذات لعدة اسباب من اهمها (ليتشرب بالهواء) ان جاز هذا التعبير، كما ان الحبل صلة، وهذا الغزل سيصنع منه بساط للعروس، او كأثاث للبيت، وكل ذلك يحتاج للصلة القائمة على المحبة، والمودة، بالبيت واصحابه.

وبعد ذلك يعين يوم يسمى (مد المفرش) اي بدء ترتيب الخيوط قبل نسجها او كخطوة اولى في النسيج، وتقوم نساء متخصصات بهذه العملية بحضور جمع من النساء الاخريات سواء للتعلم، او لتكملة العدد، وبعد اكمال المشروع، تدشنه فتاة او امرأة يرون

فيها الفأل الحسن، والخير، وتنسج[1] عدة غرز بالعرض ويفضل ان تنطاه (تنسجه) العروس بنفسها لما لذلك من اثر في النفس، واهمية في الذكريات، كما انه من مبدأ (صاحب الحاجة اولى بحملها)، وهنا صاحب الحاجة اولى بصنعها، ويستغرق نسجه مالا يقل عن اسبوع، ويقاس ما تنطاه (تنسجه) الانثى عادة بالاذرع، وتقيس الانثى بذراعها من الكوع، حتى نهاية الاصابع ممدودة، والمفارش اما ان تكون ابو عرض او ابو عرضين كما سبق وقلنا في (العدول).

الدبيـــــة:

وهي من الاثاث المهم للعروس، خاصة فيما قبل بداية القرن العشرين، وتتفنن البدويات في صنعها، وزخرفتها، وزركشتها، وتتألف من الصوف، والشعر معا او من الوبر لوحده ويتم نسجها بطريقة خاصة، وذلك بان يكون لها هدب من وجه، ونسج من الوجه الاخر، وهذا الهدب، من خيطان النسيج، بحيث تكون طويلة وجميلة، ودافئة، وبذلك تكون فراشا، وغطاء، للعروسين، وللضيوف، وبالطبع كانت العروس تأخذ معها زوجين من الدبيات (غطاء وفراشا لها ولزوجها)، ذلك ان البدو يرون من العيب ان ينام الرجل مع زوجته طول ليله، وانما فقط عند ممارسة العمل الجنسي فقط، ثم يعود لفراشه الذي قد يبعد، وقد يكون قريبا من زوجته بضعة سنتيمترات .

الفاتيـــــة:

وهي صندوق صغير توضع فيه الاشياء الخفيفة الوزن الصغيرة الحجم الثمينة، وهي بمثابة حقيبة اليد عند نساء المدينة، فالبدوية تضع صيغتها، وادوات الزينة والمرآة والمكحلة، والمشط، والعطر في هذه الفاتية، وكذلك ابنة المدينة تضع ادوات الزينة والمرآة الصغيرة في حقيبتها، واما اليوم فبنات البدو قد استبدلن الفاتية بحقيبة اليد كبنات المدينة اللواتي ايضا يحملن احيانا حقائب كبيرة كالصناديق الصغيرة.

وكانت الفاتية موضع غواية وتجميل حيث ترصع الثمينة منها – لبنات الشيو[خ] والاغنياء – بالصدف، والخشب الملون المختلف، وكان يؤتى بها من الشام..والفات[ية] مصنوعة من الخشب القوي الثمين.

الصنـــــدوق:

اذا كانت الجيوش تعطي الجندي صندوقا ليضع فيه عهدته ويغلقه بقفل ومفتا

---

١) البدو يقولون عن النسيج (نطي) والناسجة (نطاية) بتشديد الطاء.

٢) ان النوم مع المراة عندهم يرون انه يؤدي في النهاية الى ان يصبح الرجل مثلها، وتخف عنده دوافع الجنس، ذلك ان الابتعاد عن الزوجة (او الانثى) يزيد الشوق والتشوق اليها وبالتالي، يجعل الجنس اكثر لذة لانه على عطش وجوع له، ولا شك ان هذه النظرة البدوية البسيطة قد تكون قاعدة لنظرية علمية، واذا تخاصم الزوج وزوجته (عند البدو) يحاول النوم قربها وتلمس يده يدها وجسمها بصورة تبدو عفوية لكنها تحرك الجنس فيها، وبالتالي تتم العملية ويزول الخصام.

فان الامر مثل ذلك عند العروس البدوية، حيث تضع ملابسها الخاصة بها، والاشياء التي تؤكل، وقد تتعفن او تهلك اذا وضعت في العدول الاخرى - تضعها في صندوق يكون من جملة الاثاث الذي تأتي به من بيت والدها الى بيت الزوجية.. ويصنع الصندوق من الحديد الصرف، او من الخشب المكسو بالحديد (وهو الغالب) او التنك ذي الالوان الزاهية المختلفة، لأن الزركشة موضع محبتهم، وتلفت انظارهم كثيرا... ولا شك ان هذا الصندوق قد تطور الان الى الخزانة ذات الاحجام المختلفة، بالاضافة الى ادوات الحفظ الشبيهة الاخرى.

والصندوق يعبر عن الاسرار المهمة المكتومة، التي تعتمد اشاعتها وذيوعها بين الناس على الانسان نفسه، فالانسان صندوق مقفل مفتاحه الكلام ومفتاح لسانه، واي شخص قادر على ان يجعل من صدره ونفسه مستودعا للأسرار ومفتاحها بيده تماما كمفتاح الصندوق الذي به هذه الملابس الخاصة التي لا تحبذ العروس اطلاع الاخرين عليها الا من تحب او تثق به، ويقول البدوي: (يفضح اسرار كتمته بصندوق) ويقولون (الرجال صناديق مقفلة مفاتيحها الكلام).

ادوات الزينـــــة

ولا بد ان تكون لدى البدوية بعض ادوات الزينة البسيطة المناسبة وهي المرا والمكحلة، وبعض مواد التجميل وهي الوزلين، الذي يشترونه من السوق، (والذنبة) وهي لية الخروف يتم دقها مع قرنفل واعشاب ذات رائحة جميلة ثم توضع في زجاجات او في اوان اخرى، وتحفظ لمدة طويلة، حيث تدهن البدوية بها الوجه وما ترغب من بقية اعضاء الجسم، ويؤدي الى طراوة ونعومة البشرة، بالاضافة الى الرائحة العطرية من القرنفل والاعشاب المرافقة.

كما تحمل البدوية معها ايضا خاتم فضة، واسوارة من فضة، واستبدلت الان بخاتم ودبلة واسوارة من الذهب..من الضروري ان يكون مع البدوية **ماسكة** وهي ذات اشكال مختلفة فاما ان تكون على شكل مستطيل، او شبه مثلث مخروطي. تضع فيه الحجاب (الحرز) من الداخل واما من الخارج فيكون منقوشا عليها ايات قرآنية كريمة، واما اطرافها فتحيط بها دوائر وحلقات صغيرة تسمى (دناديش) وقد جاءت هذه التسمية من صوت الدندشة الذي يطلقونه على خرفشة هذه الدوائر التي تتدلى منها زوائد اخرى من الفضة، او من العملة القديمة او ما الى ذلك.

واحيانا تكون الماسكة على شكل سمكة.. وهذا تعبير عن الحياة والحب والماء الذي جعل الله منه كل شيء حي وسميت الماسكة لأنها تمسك الحجاب (أي تغلفه).

ومن ادوات الزينة التي تحملها العروس: (ازميم "بتسكين الزاي وفتح الميم وتشديد الياء وكسرها" الفضة) ويوضع في الخشم، وقد يكون حلقة صغيرة، او حلقة كبيرة، او معلق بها قطع فضية او ذهبية وهذا ما تستعمله نساء المدينة عند التبرج.

وكذلك لا بد من وجود التراكي: والمفرد تركية وقد جاءت التسمية فيما يبدو من اسم الذهب الذي كان من صنع تركي زمن حكمهم للبلاد العربية، وجمع البدوي هذه الكلمة وقالوا: **(تراكي)** وهي زينة الأذن المسمى (الحلق) لدى بنات المدينة وتكون التراكي من الذهب في الغالب، واما عند الفقراء المدقعين فتكون من الفضة، ولا بد ان تكون لدى البدوية شيء من هذا فالمرأة هي المرأة، وادوات الزينة لدى البدوية قد اصبحت لدى المدنية، ولكن بصورة اخرى، وان كانت من حيث المبدأ واحدة ونرى ان هناك زينة للوجه وهي (الدهان اي اللية والوزلين)، وهناك زينة للانف وهي (الزميم)، وهناك زينة للأذن وهي (التراكي او الحلق)، وزينة للعنق وهي (شك او طوق الذهب) وزينة اخرى للجبهة وهي صفوف الذهب او الفضة او العملة القديمة التي تكون كطوق على الرأس، وتاج له، هذا بالاضافة الى ادوات الزينة للاصابع (خواتم) والرسغ (اساور)، والقدمين (الحجول من الوبر، واحيانا من الفضة).

ولو نظرنا الى ما تعبر عنه هذه الزينة في هذه المواقع من الجسم بالذات لوجدنا ما يلي:

فحلق الاذنين: وعد بالخير، ويقولن (وعدتني بالحلق - خزقت انا ذاني)، وفي المدينة يرددون هذا القول بصيغة اخرى بنفس المعنى...والمسك بالاذن يعني الانصياع والقبول والخنوع، حتى ان الرجل اذا مسك الاخر مع اذنه قاضاه المسوك، ذلك ان هذه للشاة والعجل عندما تساق للذبح او للرباط، وهي للانثى عندما يطلب الرجل الجنس منها، ومن العيب على الرجل خرق اذنه للحلق، ومن الضروري خرق اذن الانثى لهذا الغرض، حيث يتم الاستعداد له منذ الطفولة بواسطة ابرة كبيرة الحجم وفي نهايتها خيط اخضر من الحرير (لليمن والخير والتفاؤل والبركة)، ويبقى الخيط في الأذن، حتى لا يعو، الثقب للالتحام، وحتى يشفى الجرح، ثم يؤخذ، وتوضع في اذني الفتاة في وقت مبك بعض التراكي او الحلق من النوع البسيط جدا، ليكون زينة بسيطة، وتأهيلا للأذ لاستقبال ذلك فيما بعد.

ومن دلالات الانصياع على الاذن، قولهم (اقضبه من اذنه)، وللتنبيه على معد التمرد وضرورة العودة للطاعة قولهم (افرك اذنه) وايضا (افرك خشمه)، حتى ان (ف الخشم يعتبر منتهى التحقير والازدراء). والمرأة تنصاع للرجل، وتتهيأ له، وهذا دليل جديد على ذلك.

وأما معنى الزميم (بتشديد الياء): وهو ما يوضع في الانف، وتارة يكون واحدا، وربما يكونان اثنين والأنف عند البدو يدل على الانفة، والكبرياء، والرجولة، والكرامة والاباء، حتى ان بعض القبائل سميت (بأنف الناقة) ومدحهم الشاعر بذلك بقوله (ومن يسوي بانف الناقة الذنبا)، ويعبر البدو عن المتكبر المعتز بنفسه بقولهم (خشمة[1]

---

١) الخشم: هو الأنف، والجمع عند البدو (خشوم)، ويطلقون اسم الخشم على الظواهر الطبيعية المرتفعة كأطراف الجبال، اذا كانت طبيعتها تشبه الأنف (الخشم) واحيانا يطلقون ذلك على طرف الشيء.

بالسماء، خشمه مرتفع) او (عينه ما هي شايفة خشمه)، ويدللون على معنى الاذلال والعبودية بقولهم: (يفرك خشمه) واذا وقف شخص امام التحدي قال (لا اسمح لأحد ان يفرك خشمي)، ويدل الانف على استمرار الحياة بكرامة واباء فيقولون (لا انسى ذلك ما دمت حيا، وخشمي يشم الهواء).

وللسيطرة على الجمل يثقب البدوي انفه، ويضع فيها الخزام وهو حبل رفيع يرافق الرسن للسيطرة على الجمل، خاصة وقت طلبه للسفاد، ووقت السفر، وكذلك الأمر بالنسبة للناقة والذلول من حيث استعمال (الخزام).

ويبدو ان منطقة الانف حساسة، بحيث يسهل ضبط الحيوان والانسان من خلالها: كما انه دلالة على ان الرجل (يفرك الخشم "الانوف"، ولكن انفه "لا يفرك – بضم الياء")، ومن هنا فهو يثقب انفه، طالما انه هو السيد القوام (بتشديد الواو) وليس عيبا ان يكون هذا الثقب من نصيب غيره، بل ان ذلك ضرورة لتؤكد سيادة الرجل وسيطرته ولتغطية ذلك لدى الانثى يوضع في (الأذن) ادوات الزينة التي تزيد من جمالها وجاذبيتها، وبالتالي يزدهي خضوعها زهوا مقبولا.

ان وضع الزميم في الأنف دليل واضح على سيطرة الرجل على الانثى، وخضوعها له. بالاضافة لما يعنيه الامر من الضبط والربط.

اما الأساور والخواتم: فتكون في اليدين والأصابع، وهي تعني بوضوح، الارتباط والقيد والانصياع، والطاعة.. ان الزواج يعني ارتباط الانثى بالرجل، وربما كان الامر قديما ان الرجل كان يقيد الانثى، ويأخذها بالقوة وهي مقيدة، اليدين والرجلين، عندما كان كل شيء يجري بصورة بدائية بعيدة عن الذوق، والاخلاق، وكان منطق القوة واستعراض العضلات هو السائد، وان تحول اليوم في قالب اخر وحيث كانت العروس ترفض الموافقة على (افتضاضها)، فكان الرجل يقيدها لتكون حينها لقمة سائغة. وربما دل هذا على ان الانثى فريسة للرجل لا يستطيع السيطرة عليها، وقضاء حاجته منها طالما انها تتحرك وتقاوم.. فيفعل ما يفعل لتستسلم، ثم ليقضي ما يريد، وما هذا الا تعبير عن الصراع بين طرفين يتغلب فيه احدهما على الاخر، فيضع القيود في يديه (او معصميه)، والاغلال في قدميه، فيبقى اسيرا..

واذا فكرنا بكل ما ذكرنا وجدنا ان في كل نقطة طرف من الفلسفة العامة في التعبير عما يتم بين العروسين والزوجين ومن ثم ما نجد من اساور وخواتم.

فما هذه الاساور الا بديلا للقيود، وكذلك الامر في الخواتم، وتحولت بذلك الى زينة يحبذها الرجل وتهواها الانثى، وتهواها الى الحد الذي بلغ بالمجتمع ان جعلها من ضرورات الاثاث والزينة... انها رباط للزوجة من زوجها، حتى انها اذا طلقته خلعت تلك التي لبستها زمنه كدليل واضح انها تعبير عن القيود الخاصة بالشخص، واذا تزوجت شخصا جديدا لبست اساور جديدة الا ان لها الحق في استمرار ارتداء الاساور التي كانت تلبسها قبل الخطبة الأولى، وفي المدينة نجد ان الطلاق يؤدي الى خلع خاتم الخطوبة والزواج الذي جاء به الزوج المطلق، بينما ترتدي الانثى الحلية الجديدة من الزوج

الجديد اذا شاء الله ورزقها زوجا.

ان الاساور ايضا دليل على رغبة الرجل في كبح جماح الانثى باستمرار، لاعتقاده ان لديها شهوة تفوق ما لدى الرجل، ولولا الحياء لتعدت الحدين الادنى والاعلى من الذوق.

واما الحجول في القدمين ما فوق الكعبين وتحت بطة الرجل فتكون من الوبر الاحمر، او الأبيض، ويكون احيانا من الفضة او الذهب وتسمى حينها الخلخال... وجمعها (خلاخيل)، واما مفرد الحجول فهو (الحجل)، وربما جاء هذا من لفظ الفرس المحجلة، واذا عرفنا ان طائر الحجل ايضا يزدهي بالوانه الجميلة، خاصة عند عنقه ورجليه، وما يتصف به هذا الطائر من الصوت الجميل، والسرعة في الحركة والمشي، والقدرة على التخفي والمراوغة عن سهام العدو، عرفنا ارتباط الحجل بالفرس المحجلة، بالانثى وخلصنا من كل هذا ان الفرس المحجلة اليدين والقدمين هي موضع تفاؤل ومحبة وتقدير وهي عزيزة على صاحبها حتى انها (يجاع لها العيال ولا تجاع)، وهي ركوبة صاحبها يبلغ عليها المكان الذي بغيرها لا يبلغه الا بشق الانفس، وكذلك الزوجة يحصل منها على مالا يحصل عليه من غيرها الا بشق الأنفس، وهي ام الأولاد، وقرة العين، وسكن الزوج، وبالتالي فانها اشبه ما تكون بالمهرة الاصيلة الجميلة، حتى انهم يشبهونها كذلك في اقوالهم واشعارهم، وفوق ما تعني الاساور ما سبق وقلناه، نراها تعني بوضوح هذا (التحجل)، او البياض الجميل في يدي الفرس وقدميها.. الذي يزيدها جمالا وسماحة، ويدل على اصالتها ونقائها، ولكن ذلك لا يكون في الانثى بطبيعة خلقتها وانما شيء مكتسب يمكن الحصول عليه بصنع يد الانسان وتلك هي الاساور التي تحل الاشكال وتعطي نفس المعنى والفلسفة، والتعبير.

واما طوق الذهب في العنق (القلادة): فيسمى حبل الذهب، او شك الذهب وتسميات اخرى تختلف حسب المواقع والقبائل...

وللعنق دلائل كبيرة، ومعان واسعة متعددة، فاذا استعبد شخص اخر عبروا ذلك بقولهم (حط النير على رقبته)، والنير هو ما يوضع على رقاب البقر عند الحراثة الدراس او الحمل لأنه يضبطها، ويسمح بوضع او جر او حمل الاثقال المختلفة، وبالتا ينصاع البقر لسائقه، بينما يصعب ذلك بدون النير.

ويحفظ البدوي صغار الغنم ويضبطها بربطها مع رقابها بما يسمى (الربق)، وهو حبل مصنوع من خيطان الشعر والوبر والصوف، وينتهي بطرفين في وتدين، وما بينهما توجد فتحات تسمى (دراعات، او دراريع - ومفردها دراعة بتشديد الراء) يوضع فيها راس الغنم الصغير (الصخل او الجدي او الخروف) فينضبط.

والبدوي لا ينسى وضع الطوق/ في عنق فرسه وعلى صدرها، من الوبر او الصوف المنسوج بطريقة خاصة بعرض اصبعين وبسمك بسيط، وعليها الودع والزينة المختلفة.

وكذلك الامر بالنسبة للذلول، خاصة تلك المخصصة للسفر، وتسمى (صدرية) لأنها تطوقها من جهة الصدر والمقدمة.

والبدوي اذا اعتنى باحدى رؤوس الغنم وخاصة (المرياع)[1] البسة حلة جميلة حول عنقه، ورأسه، يصنعها من الصوف او الوبر وعليها الودع، وتسمى (السفيفة) لأنها عريضة صغيرة السمك وتتدلى منها جديلة جميلة.

واذا صنع احدهم مع الاخر صنيعا جميلا قالوا: (لقد طوق عنقه بصنيعه)، واذا عفا احدهم عمن اساء اليه او عن المطلوب له بدم يقال: اعتقه لوجه الله، او (اعتق رقبته)، والبدو يدعون الله بقولهم: اللهم اعتقنا من النار، او اللهم اعتق رقابنا من النار، واجعلنا من عتقاء رمضان.

واذا اقسم احدهم قال: (على رقبتي) اي احلف بالذي عنقي بيده. ويقولون: (قطع الاعناق ولا قطع الارزاق)، ويقولون عن الدين مهما كان من مال او صنيع جميل او ثأر: له دين في عنقي، وفي المخاطرة يقولون: (فعلت كذا على دم رقبتي) دليل المخاطرة والمجازفة.

والعنق ايضا موضع الغزل، والشعر اللطيف، فعنق الفتاة الجميلة: هي كعنق المها، او عنق طائر الغرنوق، او انها زمرد وماس، وكلما كان عنقها طويلا كلما سمت نحو الكمال، وكلما كان قصيرا انحطت نحو الحقارة واللؤم والشؤم، حتى انهم يتشاءمون بقصيرة وقصير العنق، ويتفاءلون بطويل العنق، وطويلته.

وتعبيرا عن كل ما سبق من فلسفة في مختلف الامور والاغراض نرى اهتمام البدوي بتزيين هذا الجيد، هذا العنق، فالمرأة هي: مهرة أصيلة (بطنها كنز وظهرها عز)، وهي سكن لزوجها، يتغاوى بها بينه وبين نفسه، واحيانا امام الناس كما يتغاوى ويفتخر بمهرته، وهي ذلول، خاضعة له، ينجز منها مرامه وغرامه، واذا بلغ الاماكن البعيدة على ظهر ذلوله، فان هناك ما هو اعمق وان كان اقرب مسافة، يجده لدى زوجته ولا يجده في ذلوله، وهي مطوقة بجميل صنع زوجها ان سترها. وهو مطوق بجميل قبولها وصنعها ان سترته واصبحت زوجته.

انها زوجة، وخادمة، وام الاولاد، وسكن وطمأنينة، ثم هي تستحق بعد هذا وساماً وقلادة في عنقها.. انه الذهب او الفضة او الماس او اللؤلؤ حسبما يتوفر، وحسب قدرة الزوج، او الأهل.

ولا بد لنا ان نعرف اقسام القلادة (او الشك) في عنق الانثى البدوية فهو ثلاثة اقسام رئيسية واحيانا يضاف اليها نوع رابع، ولنقل ثلاثة ادوار، ولنقل ثلاث قلادات مصنفة كما يلي: (حتى مفرق النهدين)، (وحتى حبة الديدين)، (وحتى معقد الخصرين)، (واحيانا يكون الرابع صغير وهو عند اسفل الحنكين).

فالعقد الأول او القلادة الاولى تتسع بحيث تنتهي دائرتها من الاسفل على الصدر

---

١) المرياع: راس من الغنم ذكرا ام انثى وغالبا ما يكون ذكرا، يدرب تدريبا خاصا على قيادة الغنم ويرافق الراعي، والحمار، واذا رغب البدوي بجمع الغنم امسك بالمرياع (القائد) وصوت للغنم فتجيء اليه بدون استثناء، واذا سار المرياع سار القطيع خلفه لذلك يعتني به الراعي ويضع في رقبته (جرسا، وقرقاعا خاصا، بالاضافة الى التزيين الاخر على الراس لتمييزه عن بقية القطيع).

الى حيث يتصل بداية النهدين، وهذه للفتاة الفقيرة التي لا يزيد عدد قطع الذهب في قلادتها على الخمس، لقد تزداد القطع مع الزمن بحيث يتوسع العقد، او يكون والدها او زوجها قادرا على توفير ذلك لها.

واما العقد الثاني: فهو ما يزيد على خمس قطع وقد يصل الى خمس عشرة قطعة، فتتسع قلادته بحيث تحتوي غالبية الصدر الى نهاية طرفي الثديين.

وأما العقد الثالث او القلادة الثالثة فهي للاناث الميسور اهلهن. او ازواجهن، والقادرات على شراء قطع الذهب التي تزيد على الخمس عشرة قطعة، وقد تصل الى ثلاثين او خمسين او ما يزيد على ذلك، وبالطبع فان هذا يحتاج الى قلادة واسعة بحيث تصل الى موضع الحزام في البطن وهو ما يسميه البدو (معقد الخصرين).

وأما العقد الرابع فهو للفتاة الفقيرة المدقعة او الغنية الفاحشة، اما الفقيرة فعندما لا يزيد عدد قطع الذهب عن واحدة او ثلاث. فاما ان تخيطهن على قبة ثوبها من الامام، او تضعها في قلادة، صغيرة تضعها في عنقها بحيث لا تصل الى مفرق النهدين.

وأما الفتاة الغنية فهي التي تشتري قطعة ذهبية او ماسية ثمينة جدا وتعلقها في عنقها لتبدو للناس كدلالة على ثرائها وغناها. وقد يصل الحد ببعض اناث الشيوخ وامراء البدو ان يلبسن قلادتين او ثلاثة، او اربعة، وليس في ذلك حرج او عيب، انما هو دلالة على غناها وثرائها، وعادة ما تكون في نهاية القلادة من الاسفل نقطة وسط فيها خرزة زرقاء على شكل دائري او على شكل قلب.

واذا نظرنا الى فتاة المدينة فانها في زينتها بالقلائد لا تصل بذوقها وترتيبها ودقتها الى هذا المستوى.

ولا ننسى ان القلائد لدى البدوية تكون احيانا من الصدف او الخشب، او الودع ما الى ذلك، وهو نفس ما يوجد لدى فتاة المدينة ايضا.

ولا شك ان (قبة الثوب) وهي تلك التي على الصدر مصممة على هذا الاساس ء البدويات لأنها تعبير عن هذه الاطواق والقلائد، فهناك قبة بدون فتحة، تستر العنق مباشرة الى ما تحت الحنكين، وهناك اخرى تنتهي الى معقد النهدين، واخرى الى حد الثديين، واخرى الى معقد الخصرين، وكلما تدلت القبة الى الاسفل كلما احتاج هذا الى الملفع الذي يستر العورة المكشوفة، كما ان القميص الداخلي يغطي هذه تغطية مباشرة ايضا، حتى ان البدويات كثيرا ما يطرزن القميص لأن فتحته من الخلف حيث يسترها الثوب بينما هو يستر الصدر والعنق من الامام حيث ينفتح الثوب.

ومن ادوات الزينة - بعض الاثـــــاث:

الوسادة، وهي تختلف في وظيفتها عن الوسادة المعروفة لدينا الان، فبالاضافة الى وظيفتها في انها توضع تحت الرأس عند النوم، وعلى طرف الفراش للزينة، وللاتكاء عند الجلوس، وغير ذلك، فان البدويات كن يستعملنها كمستودع لاثمن الاشياء، حيث يضعن ذلك في جوفها الذي يغلق بواسطة (صرار) (بتشديد الراء) وهو ما يفتح ويغلق بواسطة

السحب ويسمى ايضا (السحاب - بتشديد الحاء)، وحيث ان الوسادة قريبة وفي متناول اليد وعند الراس حين النوم فهي في مأمن باستمرار، وتطمئن البدوية ان تجعلها مستودعها للاشياء الثمينة الصغيرة كالذهب والفضة وما الى ذلك.. وتسمى الوسادة احيانا (المزودة).

ومن الاثاث: الثـــوب: ويكون ابيض ترتديه العروس وهو مخاط بطريقة (الشل) اي الخياطة الاولية بالابرة، وبطريقة غير محكمة نهائيا، تماما بنفس طريقة خياطة ثوب الميت (الاكفان)، وهذا الثوب يصبح في اليوم التالي للزواج من حق العريس، ولكن بعد ثلاثة ايام تقوم العروس بخياطته من جديد بشكل نهائي ليصبح ثوبا للعريس، ويبدو ان اللون الابيض يرمز لبياض عرض الفتاة انها شريفة عفيفة، وانها لا زالت بكرا، وان البكارة ستظهر على الثوب من خلال بقع الدم بينما يقوم اناس اخرون بوضع الدم على قطعة قماش بيضاء (محرمة) ليتم تعليقه في مكان يراه الجميع ليقتنعوا ان الفتاة شريفة عفيفة، ولا بد من ان يعرف ويطلع الجميع على ذلك من رؤية خلال هذه البقع الحمراء على القماشة البيضاء فالعريس هو الذي مارس وتأكد بنفسه، وعليه ان يثبت ويؤكد الامر للاخرين بهذه الطريقة ايضا.

ان الثوب الابيض ايضا دليل على ان الزواج ستر وبياض عرض للزوجين معا، وانه بدل ممارسة ذلك بطريقة غير مشروعة فهو يتم بصورة مشروعة وهي الزواج.

وهو ايضا يرمز من جهة ذوي العروس كخطاب للعريس، اننا نسلمك فتاة بيضاء نقية **العرض**، شريفة عفيفة، ونأمل ان تكون كذلك انت معها، وتجاهها.

واما ما تعبر عنه خياطته بطريقة (الشل) اي ان الزواج سيكون في بداية امره فحصا من الطرفين كل للاخر، فان وجدها شريفة بكرا (ان تزوجها كبنت)، فانه يتم الوصل ويستمر الزواج، اي تتم الخياطة، بشكل نهائي، واذا وجدها العكس بقيت الخياطة على ما هي عليه، واعادها الى اهلها مع ثوبها... اذن نجد الامر اما توثيق الرابطة والاتصال، او فرط الامر وانهائه.

واما ما يعبر عنه لبس العريس للثوب فهو يعني انه قبل الزوجة بارتداء الثوب، وانها قبلته باعطائه اياه، وانه وجدها كما كان يجب ان تكون وحتى لا يقال ان هناك اتصالا أو اتفاقا مسبقا بين الطرفين بطريقة غير مشروعة وان الزواج جاء لتغطية الامر، فان بقع الدم الحمراء اكبر دليل على صدق النوايا، وصدق الطرفين، ليراها الجميع، خاصة وان البدو قادرون على تمييز الدم الانساني من الحيواني بالعين المجردة[1]

وبعد الانتهاء من (القرى) تبدأ حياة جديدة بين العروسين اكثر تلاحما وتوطيدا

---

١) ان القادرين على تمييز ذلك هم اقلة ولهم اختصاص وخبرة، وقد يحدث ان يتصل الشاب بالفتاة قبل الزواج ويفتض بكارتها (سرا) ثم يتزوجها. فانه لا بد من وضع الدم بجرحها باتفاقهما بحيث يكون دم ولا اذى، اما اذا كانت قد فقدت بكارتها من غير عريسها او من حادث غير الاتصال مع الرجال فانها قد تكون من الذكاء بتغطية الموضوع مع جرح نفسها في المكان الضروري. او تضع دم حيوان تكون قد جهزته وتضعه في الوقت المناسب في المكان المناسب بدون علم العريس خاصة وان الظلام هو الغالب انذاك.

وهنا يعبرون عن هذا بخياطة الثوب الخياطة القوية النهائية، كتعبير عن قبول الطرفين بعضهما بصورة نهائية بعد تجربة الايام الثلاثة من الممارسة العملية في حياة الزوجية الحقيقية، واما ان العروس تخيطه بنفسها او بمساعدة المحترفات، فان ذلك يعني انها زوجة قادرة على خدمة زوجها فيما يحتاجه من المنام، وخياطة الثياب واعداد الطعام وانها قابلة بزواجه، وانها من طرفها توصل الامر ولا تقطعه، وان ضيافتها قد انتهت بعد هذه الايام الثلاثة، واصبحت وزوجها شيء واحد ولا فراق الا بارادة الله.

ومن ادوات الزينة: القراميل: وهي ما تكون مع شعر الفتاة المجدل... وتتألف القراميل من شيئين: الصوف او الوبر، والحرير، اما الصوف او الوبر فيكون بشكل خياطات طويلة وتتفرع من نقطة واحدة ثلاث قنوات تسمى (شلل، ومفردها شلة بتشديد اللام) وتتألف الشلة او الفتاة من عشرات الخيطان المتوازية معا، وتنتهي كل شلة بجديلة من الحرير وتسمى (الشرشبة او الهدب او الجديلة او الكبكبة) ويتم جدل هذه الشلل مع شعر الفتاة.

ويكون للرأس الواحد قرمولان احدهما للطرف الايمن والثاني للطرف الايسر. **ويسمى القرمول مع الشعر – القرن –** – والجمع قرون – وتسمى الجدائل – والفرد جديلة – والقرمول ضروري للبدوية لأن الشعر عندها من مواضع الغواية المهمة، ومن سمات الجمال، والانوثة والاناقة، لذا فهي تربي شعرها وتطيله ما استطاعت الى ذلك سبيلا... ولا شك ان القرمول، شيء تعبيري بالاضافة الى الزينة والبهاء... فالحرير موضع تفاؤل للجريم، ودليل النعمة، والنعومة والدلال، وتفاؤل بالخير والبركة، اما الصوف فهو دليل المنعة والقوة، والمتانة، واما طول القرن فهو للغواية والجمال، ذلك ا. البدوية تفتخر أن تربط حزامها على شعرها، وتفتخر اكثر اذا فرشته وجلست عليه، واذا وضعته من الامام وهي عارية كساها، وبينما يبحث زوجها عن مفاتنها من خلال هـ الجمال الاسود (الشعر) فيفتح ستائر الشعر رويدا رويدا، فتبدو الشمس الزاهية والزمرد، والذهب والفضة، والماس، والنعومة وكل خير... ويتحدث البدو عادة عن بنات الشيوخ القدماء او عن ساحرات الجمال في القصص الشعبية الخيالية ان شعر تلك الفتاة قد سترها حتى ما تحت الركبة، ولا ابالغ ان بعض البدويات كن ولا زلن يتصفن بهذه الصفة، ودهشت وانا بالقاهرة أقدم الماجستير عام ١٩٧٦، عندما رأيت فتيات من الجزيرة العربية يصل، شعر الواحدة الى ركبها، او ما تحت عجيزتها، وكنت اعتبر قصص البدو عن ذلك ضرباً من الخيال حتى رأيته، ولا شك أن هذا الشعر اذا وضعت معه القراميل يكون الهدف منها ان ينتهي بالحرير ليزداد جمالا وهو مجدول ذلك ان سماكة قرن الفتاة هو دليل قوة الشعر وهذا موضع تفاخر ايضا، والقرمول يزيد من سماكته وقطره حتى انهم يشبهونها بالحنشان (جمع حنيش) وهو الثعبان الاسود الغليظ الناعم الملمس فيقولون:

يـا قرونهـا يا خوي تقـول حنشان حنشـان بارض الخـلا هاشـن علي

وأما طول القرن فهو ضروري وفي ذلك يقول البدوي: (والقرن يطلع لك من

البير شنة)، وايضا:

القرن الاشـقر مايل   على جيب المزويــــة

واذا كان الشعر قصيرا اضفى القرمول عليه جمالا وطولا، ونضارة كما ان ذلك يدل بوضوح على اهتمام البدو بهذه المقاييس من طول الشعر، ولا شك ان يضفي جمالي الوصف على الفتاة فعلا حتى ان كثيراً من البدويات يستعملن اكثر من قرمول فالمراسم والاعراس والحفلات لها قراميل جديدة وممتازة وانيقة واما العمل فله قراميل عادية لمسك الشعر فقط.

والبدوية لا يكون لها الا قرنين فقط احدهما على اليمين والاخر على اليسار، ويضاف الى ذلك ما يسمى (بالقصة) او (القذلة) واحيانا (ذويبة) وهي من الامام تتدلى على الجبهة والعينين ويقولون:

والقذلـة لجبينها تبـرى   وام الذوايـــب تحنيهـــا

وحتى لا تضايقها او تحجب عنها الرؤيا يتم ربطها بالشعر الرئيسي بواسط (البكلات) ومفردها (بكلة) وهي من الصدف او الحديد تمسك الشعر وتضبطه.

العبـــاءة:

ولا بد من تغطية العروس بعباءة جديدة او جيدة على الاقل، ويسمى ارتداءها (تقنيع) اي ارتداءها بشكل يغطي الرأس، فلا يظهر منها شيء، وانما للعروس ان تضيق او توسع من الامام بتحريك طرفي مقدم العباءة من الامام، ويكون وجه العروس مغطى بستار اخر من القماش الاسود الشفاف ايضا، حتى لا يراها احد الا بطريقة خاصة وهي ان يقوم احد الفرسان برفع الخمار عن وجهها، فتعود لاسداله ثانية.

وأما العباءة فهي ترمز للستر، تماما كأن والدها واهلها يقولون للعريس هذه امانة نعطيكها، عفيفة شريفة مستورة في المخبر والمظهر، وهي ليست مكشوفة او مباحة لكل الناس، تماما مثلما يتم شحن شيء ثمين جدا وتوضع من حوله الاطواق والستائر، والحواجز ليصل آمنا سليما من العثرة والبلاء.

والعباءة قد تكون هدية للفتاة من اهلها او احد محارمها، وتصبح ملكها، وقد تكون (عيرة مستردة) اي تؤخذ بالاعارة من شخص معين يتيمنون به خيرا وبعد انتهاء الزفاف تعود اليه... ولا بد لنا هنا ان نلفت النظر ان طريقة ارتداء العباءة من قبل الانثى تختلف عنها لدى الرجل الذي يضع قبتها اي نهايتها العليا على الكتفين فيما تحت العنق، فيما اذا تدثر بها، اما الانثى فترتديها بوضع نهايتها فوق رأسها، وبالتالي تعرف فورا من ذلك انها انثى، وان كان الرجال احيانا يرتدونها بهذه الطريقة، ولكنها معيبة فيقولون، (متقنع بعباته) ومن ذلك يقول البدوي ان الرجل اذا (تقنع) اي غطى رأسه كالانثى حتى لا تعرف هويته ولاذ الى جارته يريدها بسوء فانه هالك (ثبر - بكسر الثاء والباء) فيقول:

مـا ثبـر الا اللي يقنـــع بردنه   ويلـــوذ عالجـــارات والرجـــل غايب

لأن (التقنع) اي تغطية الرأس والجسم معا يقصد به الستر وعدم معرفة الهوية،

وهاتان تلزمان للأنثى، حتى لا تتعرض للألسنة الحادة، والنظرات الجائعة.

والمبدأ في الانثى الا تخرج يديها من فتحتي يدي العباءة لأن ذلك للرجل، ولكن في العادة قد تفعل ذلك في حالات نادرة، لتتمكن من تثبيت العباءة عليها، كما ان الرجل له ان يفلت يديه من فتحتي العباءة لأنه يرتديها بالطريقة المميزة له كرجل، وليس بطريقة الانثى (التقنيع).

واما الخمار الذي يوضع على الوجه مباشرة، فهو يرمز لاكثر من شيء، فاذا كانت العباءة ستر عام، والثياب ستر خاص على بقية اعضاء الجسد، فان الوجه بحاجة الى ستر خاص وهو الخمار او المقنع (بفتح الميم والنون وتسكين القاف والعين) واذا عرفنا ان المبدأ عند المرأة هو التحجب الكامل، عرفنا ايضا ان هذا التصرف وهذه العادة ما هي الا عودة للمبدأ، خاصة وانه يوم يتجمع فيه العديد من الشباب والرجال، ومنهم المحب الذي حسد، والكاره الذي يحسد، ومنهم فارغ العين الذي قد يسبب الاذى بنظرة ويصيب العروس بالعين (كما يعتقدون)، وهذا ما يتمنون الا يكون. كما ان هذا الخمار هو وسيلة لحب الاستطلاع، وايجاد التكهنات حول جمال العروس، وهو طريقة بارعة في ان تكون حديث الركبان في الفاردة، حتى انه في العادة يجوز لاحد الفرسان ان يرفع الخمار بسرعة خاطفة بينما يتعرض له الفرسان الاخرون ويطاردونه فيما يمكن ان يسمى (مناورات)، وتدريبات بالاضافة لمايعنيه من رؤية العروس والتأكد من درجة جمالها.

ولا شك ان هذا الخمار يقيها الغبار ايضا، واما اللون الاسود فيرمز الى الليل والستر فالبدو يقولون: (الليل ابو ساتر)، وهو مأخوذ من قوله سبحانه **(وجعلنا الليل لباسا)** ولا بد ان يطلع النهار ولكن بين يدي العريس الذي يزيل هذا الليل (الخمار) بيده... وفي المدينة يضعون القناع الابيض الذي يرى من خلاله وجه العروس ويرفعه العريس بيده فهم بذلك انما يقلدون البدو.

الثــوب المطـــرز:

سبق وقلنا ان العروس ترتدي الثوب الابيض، ولا بد ان نذكر انها ترتدي ثو مطرزا خاصا للزواج، يتم تفصيله وخياطته لهذه الغاية، وعادة تلبسه في زفافها للمر الأولى.

ويفضلون ان ترتدي في زفافها ثوبا جديدا تفاؤلا بالخير الجديد، وان الحياة الزوجية الجديدة بحاجة الى ثوب جديد ايضا، احتفاء بها، وتبريكا لها.. خاصة وان الثوب القديم يدل على استمرار الحياة القديمة بشقائها وبلائها... واذا كان من حيث المبدأ يكون الثوب جديدا. فانه في العادة قد يكون ثوبا قديما او استعارة من فتاة او امرأة اخرى في حالات الزواج المفاجىء مثلا، او ان العريس فقيرا، او ان والد الفتاة قدمها (هدية عطية ما من وراها جزية) ولم يتمكن من شراء او تفصيل ثوب جديد، وربما يكون الزفاف وقت حداد الفتاة او العريس على عزيز وهنا يكون الثوب الجديد نوعا من الزينة والفرح الذي لا داعي له في هذا الظرف، وان تم الزواج والزفاف لاسباب خارجة عن

حدود الحداد أما بالنسبة لاستعارة ثوب الزفاف عند البدو فهم بذلك اكثر رقيا من اهل المدينة الذين يستأجرون هذا الثوب مقابل مبلغ معين، وهناك فارق بين الاعارة الدالة على الترابط الاجتماعي والعلاقة الحميمة الطيبة، وبين الاستئجار الدال على الجشع والطمع. انه فارق بين حضارتين وذوقين ومجتمعين، فارق بين الصفاء والنقاء من جهة، وبين الزحام الذي يفسد النفوس.

وثوب البدوية الجديد تحفة فنية جميلة حقا، فعلى جنبيه تتوازى مطارق (اعمدة) من الحرير المخاط بعرض لا يزيد على سنتميتر، وقد يصل عدد هذه الاعمدة الى اربعة او خمسة، لكنها لا تقل عن ثلاثة، ثم هناك القبة (على الصدر) المطرزة بالحرير ذي الالوان المختلفة ايضا، وهناك تطريز آخر على الردن الذي يكون طويلا بحيث يعقد طرفاه من خلف العنق، كما ان فتحته من الخارج واسعة، حتى ان طول الردن مقترن بسعته وان ذلك موضع غزل البدوي حيث يقول:

لاكتب لك هواي يا دمي دواتي   يا طويل الردن يا زين البنات

ويقولون (ملولح اردونه) وهذه تقال للرجل والانثى معا بمعنى الاعتزاز والمدح وان جاءت احيانا في باب الاستهزاء لمن لا يستحقها.

والثوب البدوي للأنثى يتكون فيما تحت الحزام من ثلاث طبقات، الاولى هي الخارجية التي يكون عليها التطريز، والثانية هي ردة الى الحزام الذي يربط عليها. والثالثة هي الداخلية التي تبدأ من الحزام حتى اخمص القدمين، واحيانا تنتهي بمؤخرة تجر خلف المرأة، حتى انهم احيانا يفتخرون بالمرأة التي تجر اذيالها، وهي تفتخر بنفسها ايضا. لأن ذلك دليل الستر من الخلف كما هو من الامام، وعلى الطبقة الداخلية تكون هناك (البنايج) (ومفردها البنيجة) وهي ذات لون ازرق تحوط الثوب على شكل دائرة، واما الحزام الذي تحت الطبقة الاولى من الثوب فيسمى (شويحية) وهي منسوجة باليد من الصوف الاصلي، المصبوغ باللون الاحمر وأحياناً يتخللها اللون الأبيض أو الأخضر، وتتدلى من طرفيها اهداب (شراشب)، وتزين خصر الانثى كما انها بمثابة مشد للبطن خاصة وانها بعرض لا يقل عن عشرة الى سبعة سنتميترات، وهذه ضرورية للبدوية، واذا لم تتوفر استعملت خيطا او حبلا اخر كحزام مؤقت او اكثر من كونه مؤقتا.

وكانت البدويات بالاردن يرتدين الثوب بدون سرابيل (سراويل - مفردها سروال)، ولكن في بداية هذا القرن العشرين عرفوا السراويل للرجال والنساء، وبذلك اضافت البدوية وسيلة جديدة للزيادة في الستر والتستر.

وكانت ترتدي الثوب على جلدها مباشرة بينما يغطي الخمار ما يتكشف من صدرها، واذكر ان العجائز كن يرتدينه مباشرة، فتبدو صدورهن ونحورهن، علينا ونحن صغار، وكان ثوب العرس الابيض الذي تحدثنا عنه هو الساتر الوحيد الذي يلامس الجسد تحت الثوب، ولا يفصله عن الجسد شيئا، ومن هنا نعرف كم هي اهمية هذا الثوب/ الذي هو لباس وستر/ للعريس الذي يحل محله في ستر العروس، ومع الزمن عرف البدو القمصان (مفردها قميص) حيث ترتدي البدوية القميص الذي يخالف

بفتحته فتحة الثوب، والذي لا يتعدى طوله الى الخصر والحزام... ثم عرفن بعد ذلك ما يسمينه بالبذلة او الشلحة وهي ما يساوي الفستان الداخلي عند المرأة في المدينة ولكن الفارق ان هذه البذلة عند البدوية تكون تحت الثوب او المدرقة وتكون قصيرة الى الركب او بطة الرجل، واحيانا الى الكعبين، وتكون احيانا ضيقة عند الخصر واسعة من الاسفل.

المنديـــــل: وهو من اثاث العروس وهو غطاء الرأس، ويكون من الصوف ذي الالوان الزاهية (المشجر - بتشديد الجيم) والعروس ترتديه بدون (العصبة) اذا كانت بكرا، اما الثيب (العزبة) فيمكنها ان ترتديه على شكل (العصبة - العصابة) اي ما يعصب على الرأس...

الحــــذاء: كانت البدويات يقضين فترة طويلة حافيات الاقدام لفقر الناس وبعدهم عن الاسواق ولكن لا بد للفتاة ان ترتدي حذاء عند زواجها، فهي قد انتقلت الى حياة جديدة، وعليها ان تأتي مكسوة مستورة من (رأسها الى ساسها) اي من الرأس حتى القدمين...(من الصندل حتى العبايا).

المحرمــــــة: ويجب ان يكون مع العروس محرمة من حرير او قماش اخر وذلك لاستعمالها في عدة مجالات، منها مسح العرق، ووضع الاشياء التي يمكن ان توضع بها مثل النقود مثلا، ولها فيها مآرب اخرى، فقد توضع على شعر الرأس تحت المنديل ايضا

اســـتنتاج موجــز:

ولو نظرنا الى ملابس البدوية لوجدناها تشكل حصنا للحماية والدفاع، والهجوم فهي حماية من الحر والبرد والانظار، ودفاع عن الانثى والعرض واهلها ان تصاب بسوء او بلاء، وهي هجوم وجذب، حيث ان التطريز الجميل والالوان الزاهية ما هي الا سهام للشباب والعاشقين تجذبهم وتحرمهم، وتهاجمهم لتدل على ما في الداخل والجوهر والمخبر، وما هذه الطبقات الا خطوط دفاع اولى وثانية وثالثة، وحتى ان البناء الصحراوي البدوي يعطي نفس الاداء والهدف حيث الجدران العالية السميكة القوية، ذات النوافذ العلوية الصغيرة التي تشبه عيني الحسناء اللتين تطلان من خلال البرقع والمقنع... ثم نجد هذه الخطوط الدفاعية والجدرانية تنحسر وتخف وتضعف وتقل كلما اقتربنا من المدينة، ومعها نجد بالمقابل ايضا بصورة غالبة التحرر من هذا اللباس البدوي الصحراوي فيبدو الوجه ثم الرأس ثم القدمين والركبتين والصدر... وكلما ضعفت وسائل الدفاع، ضعفت ملابس المرأة وانحسرت عن سترها وتغطيتها، وكأن الامرين يرتبطان بعضهما ببعض الى حد عجيب... اليس كذلك؟! وفي البيوت الصحراوية تطل من اعلى الجدار نوافذ صغيرة، وكذلك القلاع الصحراوية القديمة واحيانا تكون بدون نوافذ ما عدا فتحات للنبال والسهام قديما تماما كما تطل عيون الحسناء من خلال البرقع الجميل.

الاستعدادات الاخــرى:

وهناك ثلاثة انواع من الاستعدادات عند العروس قبل الزواج.

منها ما يتلو الخطبة مباشرة وهي البدء بتجهيز الاشياء التي تحتاج الى وقت طويل: كالمفارش (البسط)، والمعانق، والدبيات...الخ.

ومنها ما يتلو قرار الموافقة النهائي بالزواج، او عند الاقتراب منه حين تكون هناك تباشير اولية حول ذلك وهاته الاشياء هي الملابس، وخاصة الثوب والذي يستغرق تجهيزه وقتا لا بأس به، واذا لم ينته في الوقت المحدد فانها تستعير كما قلنا ثوبا من انثى موضع تفاؤل، او ترتدي ثوبها القديم.

ومنها ما يكون قبيل الزواج مباشرة اي قبيل الزفاف: وهي الحناء حيث تضعها البدوية على يديها، وقدميها، وشعرها وفي مواضع حساسة اخرى لتزداد نعومة ملمسها... كما انها عادة تستحم (قبيل الزفاف) وتتعطر بما يتوفر لديها من عطور.

اما في حالات الزواج المفاجىء او الفوري فان كل هاته المراحل لا وجود لها تقريبا، وانما يتم الاستحمام والتطيب، اما الاثاث فيؤخذ من بيت اهلها مما تيسر.

المدرقــــة: وفي بداية الثلث الاخير من هذا القرن العشرين بدأ لباس العروس يتبدل لدى بدو البلقاء بالاردن، وبعض البدو في الاماكن الاخرى. حيث ان الثوب الذي كان يشكل في رمزه وحقيقته حماية للفتاة وتعبيرا عن وقت يخاف فيه الانسان على نفسه وعرضه، فان الامان والطمأنينة هما السائدان الان، وتم التعبير عن هذا باللباس ايضا، بما يسمى (المدرقة)، وهي ثوب من طبقة واحدة يغطي الجسم ويستره تماما، ويكون من (الجز او الملس، او المخمل) اما الثوب فلا يكون الا من الحبر (وهو ناعم بما يعادل قماش البرلون الذي يتم غسله ولباسه بدون كوي)، او من الملس وهو قماش اسود لكنه يتطوى ويقرفص ويحتاج للكوي حتى يعود الى نضارته.

اما المخمل فكانت النسوة الموسرات يرتدينه، واصبح اليوم هو اللباس الرئيسي لنساء الريف والبادية.. واصبح لباس المدرقة هو الرئيسي في جميع بوادي وقرى الاردن حاليا، بينما الثوب لا تزال له بعض البقايا عند النسوة اللواتي عشن عصرا سابقا تعودن خلاله على هذا الثوب وأكثر ما يوجد الآن لدى نساء الكرك من الجيل القديم.

وتمتاز المدرقة بانها اكثر خفة، وعملية من الثوب، كما انها ازهى واجمل خاصة على الفتيات الجميلات... وتتفنن البدويات في تطريزها، بالحرير او بالقصب او بكليهما، وتتسع الاعمدة المطرزة للفتيات، وللعروس، وتكون صاخبة عليها رسوم ورد وعصافير، او تعاريج وزخارف (وكذلك على الجانبين احيانا) بينما تضيق هذه القبة، وهذه الاعمدة لتصبح مثل قبة الثوب القديم واعمدته عندما تكون المدرقة لامرأة كبيرة يزيد عمرها على الاربعين او الخمسين وكانت اما لاولاد... واذا كان الثوب احيانا يتم تطريز طرفه الاسفل من الطبقة العليا، فان المدرقة من حيث المبدأ يتم تطريز طرفها الاسفل بحيث يشكل هذا دائرة كاملة، تبدو زاهية، وتتسع في عرضها لتصل ربما عشرة سنتمترات وقد تضيق

لتصل الى سنتميتر واحد، او تنعدم احيانا، وبذلك (اما يدا المدرقة فاما ان تكونا كاملتين حتى المعصمين وفي هذه الحالة يكون التطريز بشكل عمود (مطرق) من الكتف وعلى الطرف العلوي حتى المعصم حيث يحاط بدائرة عريضة من التطريز ايضا).

وقد تكون اليدان قصيرتين وتنتهيان الى ما تحت الكتف، وهذا طراز حديث جدا...

وترتدي البدوية تحت المدرقة ما يسمى بالشلحة او البذلة وهي فستان ناعم يتكون عادة (للفتيات) من الوان صاخبة وجميلة، وقد بدأ ينحسر ارتداء السروال الطويل، الى اخر قصير يصل ما فوق الركبة، ثم بدأ هذا ينتهي لدى الفتيات واستبدل بملابس اخرى أي الاكتفاء بما ترتديه أبنة المدينة... وبذلك نرى هذا التطور السريع في اللباس بعد الستينات من هذا القرن العشرين حتى ان العروس غالبا ما ترتدي ثوب العرس الابيض بدل الثوب او المدرقة، كما انها تغطي رأسها بحرير ابيض بدلا من المقنع الاسود وكل هذا التبديل يعكس من حيث التعبير ليس المفهوم الاجتماعي وتطور العادات فحسب، بل ويعكس الشعور الامني لدى الانسان، فكانت المرأة بالنسبة له خلعة يحافظ عليها او ان لباسها جدران قلعة يحافظ ويحمي ما بداخلها من الاعراض والارواح والكنوز اما الان فان الخوف قد تبدد، ولو بقيت القلعة مفتحة الابواب، فلا خوف عليها وفي اعتقادي ان شيئا اخر ساهم في الامر، وهو ان ما كان ينظر اليه الناس خطرا يخيفهم قد تحول الى امر عادي، فخروج الفتاة مع شاب غريب او التحدث اليه، او نظرها اليه بنظرات جائعة، كل ذلك اصبح في عرف الناس امرا شبه عادي، بينما كان فيما سبق خطورة امنية وشرف كبيرة جدا.

لقد اصبح الامر متشابها في الريف والبادية والمدينة تقريبا مع فوارق بسيد ستذوب مستقبلا، او تزداد بعدا عن بعضها البعض؟!

ونحن نرى كيف ان المدارس تلزم الطالبات بلباس معين بعيد عن الاصالة، فتتس الفتاة على ارتداء الملابس الافرنجية، وترى في لباسها العربي الاصيل المستور شيئا قدي غير مشرف لها ان ترتديه؟؟؟ يا للأســـف...

الفصل العاشر

في مضارب العريس

الفصل العاشر

في مضارب العريس

وبعد ان تنتهي المداولات والمفاوضات بين طرفي اهل العروس والعريس الى قرار نهائي بالزواج بدون اعتراض، فان اهل العريس وبالدرجة الاولى عائلته معنيون قبل غيرهم بالامر، ويتدارسون فيما بينهم كل شيء: قدرتهم على ما تحتاجة امور الزواج، وهل لديهم الامكانات ام يحتاجون الى اقتراض مبالغ لهذه الغاية، والتي يربطون سداده عادة بعد اتمام مراسم الزواج اعتماداً على النقوط حيث يتم اعادة ما استدانوا لاصحاب الدين مما افاء الله عليهم من نقوط من الاصدقاء والحضور... وان كان النقوط احيانا لا يفي بسداد الدين.. او ان اهل العريس لا يحتاجون للاستدانة اصلا، بل يتم كل شيء من ضمن الامكانات المتوفرة.

وبعد ذلك ينتشر الامر ليكون موضع دراسة وموافقة العائلة الكبيرة، ليقوم كل واحد بدوره، الأخ، والاب، والعم، وابن العم (هذا اذا كانت العروس بعيدة)، واذا كانت من قبيلة اخرى، فللشيخ دور وعليه مسؤولية ايضا... فالعريس فرد من رعيته.. والبدو يؤمنون بالمبدأ الاسلامي **(كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته)** ..ثم ان الامر خارج العشيرة قد يترتب عليه اي شيء، وربما مسؤولية جسيمة، حيث لا غنى عن الشيخ، اما داخل العشيرة، فعلم الشيخ بالامر هو من منطلق مسؤوليته ليعرف ما يدور ضمن اختصاصه وفي رعيته... وفي الدول الحديثة نجد ان اية علاقات ما بين دولتين حتى ولو كانت على المستوى التجاري، لا بد وان تكون السلطات على علم بذلك، فكيف اذا كانت تبادل السفراء خاصة اذا استطعنا ان نقول، ان الزواج بين قبيلتين او عشيرتين هو اشبه ما يكون بتبادل السفراء واقامة العلاقات الدبلوماسية بين دولتين، والذي لا يتم في العصر الحديث الا بتقديم اوراق الاعتماد لرؤساء الدول، اما عند البدو فان الزواج يتم بعلم الشيخ، والزوجة لزوجها، والزوج لزوجته... خاصة وان (الغربة) اي الزواج الخارجي عادة لا تكون الا بين الشيوخ او اشباههم، لأنه كما يهم اهل الفتاة ان تستر وجوههم في الغربة، فانه يهم اهل الشاب ان يبيض وجوههم بزواجه من (غريبة)، لأن كلا منهما يمثل عشيرته، واي فشل من طرف يلصق بالجميع، حتى ان اول سؤال من الاب لأم الفتاة او من الشيخ لوالد الفتاة: هل تستر غربتنا؟؟ هل تبيض وجوهنا بالغربة!! فان قيل: نعم، تم الامر والا ابدلت بفتاة اخرى... وكثيرا ما يحدث هذا حتى ان شيخ قبيلة كان في رحلة صيد عندما اعجبته فتاة بجمالها الفتان، فخطبها من اهلها، وعند الزواج قدموا شقيقتها الاقل جمالا، وعندما رفضها لاطفته وسيطرت عليه، وقالت له: لقد زوجوني اياك لأن اختي لا تستر الغربة.

وبعد هذا الاستعداد وهذا العلم لدى ذوي الشباب والشيخ يتم تحديد كل شيء: تحديد بداية السامر (المسماة الرقصة)، واقامة الافراح، تحديد يوم الزفاف، تحديد طريقة التجهيز للعرس، والمسماة (الجهاز)... اي انه يتم رسم خطة عمل، ويبدأون بتنفيذها في الوقت المحدد.. ولا شك ان الافراح مناسبة اخرى لاجتماع القوم وصورة للتكاتف والمحبة، والمشاركة العامة، وتعبير عن الفروسية، ومبارزة بين الشباب والفتيات ليحوز كل منهما اعجاب الطرف الاخر ومحبته، كما انها مناسبة لاختلاطها على طهارة وكل منهما باحسن حلة، ويتم توزيع الادوار، بشكل بسيط، لكنه منظم، وكل مسؤول عما يسند عليه، واذا قصر قد يجد العقاب بكلمة: (ان فلانا قد قصر) وهذا عقاب شديد عند البدوي، وتوبيخ صعب جدا، لا يتحمله بسهولة..

شـــراء الجهاز:

ويتم تشكيل وفد من الرجال والنساء لشراء الجهاز.... ويذهبون الى اقرب سوق او مدينة، ويكون الرجال عادة، والد العريس، والعريس او شقيقه، وعدد من اعضاء العشيرة ممن لهم خبرة في هذا المجال، كما ترافق العريس والدته او اخته او احدى قريباته، بالاضافة الى امرأة لها خبرة في هذا المجال ايضا... ولا شك انها فرصة كبيرة للأم والاب ان يفرحا بفرحة ولدهما في جميع المراحل خيرها وشرها...

ويذهب الجميع الى السوق (بالنسبة للبدو الذين هم قرب المدينة، او على مسير عدة ايام منها)، وهناك يشترون الجهاز الذي يحتوي على عدة امور:

اللبســة: من لبس الشيء اذا ارتداه، وهي من القماش، سواء للرجال او النساء والغالبية في التعبير هي للنساء، حيث يتم شراء القماش ذي الالوان الزاهية بحث تساوي القطعة قميصا حريميا او بذلة حريمية[1]، فالنساء البعيدات لهن القمصان واللواتي هن اقرب مودة ورحما، لهن بذلات، اما الرحم المباشر كالام والاخت والعمة...الخ فلها منديل صوف (وهو ثمين - وهو غطاء الرأس) حيث يكون مزخرفا وجميلا... وقد تكون اللبسة ذهبا او فضة للأم والاخت... كما ان الحاضرات والحاضرين في الجهاز لا بد وان يكون لهم نصيبهم من هذه اللبسة، يتم شراءها حسب مزاجهم من السوق بحضورهم وموافقتهم (فالذي يحضر السوق يتسوق - كما يقولون) ومن الاشياء التي تكون ضمن اللبسة (العباءة لعم العروس، او لوالدها، او لشقيقها او لخالها وربما لكل واحد منهم عباءة) وقد يعطى الواحد من هؤلاء ثمن العباءة الرمزي وقت الزفاف. كما ان لعبد العشيرة حق المطالبة بالعباءة على كل فتاة تتزوج، فاما ان تشتري له، او يدفع ثمنها الرمزي وقت الزفاف ومن اللبسة ايضا:

الدامـــر: لأم العروس ويعطى اليها يوم الزفاف، او عند عودتها من عند ابنتها بعد الزواج بثلاثة أيام... وقد يشتري العريس هدية لعروسه يقدمها لها يوم الزفاف

---

١) القميص والبذلة الحريمية: اي قطعة القماش التي تكون على جسم الانثى مباشرة، اما القميص فهو قصير ويصل الى الوسط فقط، اما البذلة فتصل الى الركبتين واحيانا، الى الكعبين، او الى بطة الرجل.

بواسطة امه او احدى حرمه. او (ليلة الخشة) - اي ليلة الدخول عليها، المسماة ليلة الزفاف حيث يقدمها بنفسه اليها...

وقد يستغرق الشراء وقتا طويلا، اذ لا بد من ارسال اللبسة لكل من يعتب اذا لم تصله مثل هذه اللبسة، خاصة وانها يمن وخير وبركة وتفاؤل، ودخولها للبيت يعني ان جزءا من الفرح قد دخل الى هذا البيت وهذه الاسرة، كما ان اللبسة بحد ذاتها تعبير من اهل العريس ان فرحتهم هي فرحة للجميع، وأنهم يتمنون الخير والفرح للجميع، بينما قبولها يعني ايضا، المشاركة بالافراح، والتمني بدخولها بيوتهم... انها تعبير عن صورة التكاتف والمحبة، والترابط والتراحم بين الجميع...كما انها عطف على المرأة على الاناث بشراء ملابس لهن وقت الفرح والزواج، فهو تذكير للمتزوجات، وامل وتفاؤل للعازبات وصلة رحم للبائسات.

كما ان هناك لبسة للرجال ايضا، وهي عبارة عن مناديل، وعقل (ومفرد عقال - او مرير).

ولا شك ان تقديم اللباس للنساء هو نوع من طلب الستر، وصلة الرحم، كما انها تقدير للنساء، ان هذه فرصة يجب ان يفرح بها الجميع، واذكر ان النساء كن يفتخرن بمثل هذه الهدايا، ويذكرنها، ومهديها بالخير ما دمن يلبسنها، كما انها فرصة لهن للحصول على الالبسة، خاصة وان ما يأتي على شكل هدية تكون له قيمة معنوية كبيرة تفوق ثمنه المادي.

وبالاضافة الى كل هذا فان هذه اللبسة تعتبر بمثابة دعوة لذوي الانثى التي قدمت اليها هذه القطعة، على مبدأ (كل شيء قرضة ودين) ومبدأ (مثل ما تراني اراك) ومبدأ (اللي يشوفك بعين شوفه بعيونك الثنتين)... وهكذا فهي اذن حبل مودة يربط طرفين الى بعضهما ويشدهما.

ولا بد من التنويه هنا، انه اذا قدم شخص لبسة الى زوجة شخص ولم يأت زوجها، فلا يحق لمن يقدم الهدية ان يطالب بها او يعود عنها، لأن الذي يعطي عطية لا يجوز ان يعود بها، فيقولون (من تفل (بصق) تفالة (بصاقة - او بصقة) عيب يعود فيها)، ومن يعود اي يطالب بها ويتراجع عن هديته فهو كمن (يلحس تفاله - اي يلحس بصاقه بعد ان يكون قد بصقه)، ولكن اذا كان لأحدهم عند الاخر (دين نقوط)، اي كأن يتزوج شخص ثم يأتي اخر فيدفع اليه نقوطا، فانه في حالة زواج الدافع او ابنه، فانه يفترض بالشخص الاول الذي تزوج سابقا ان يعيد ما دفعه اليه هذا الاخير، واذا لم يفعل ذلك عامدا وهو يعلم بالزواج، ودعي اليه فانه في العادة يحق للعريس مطالبته، اما من حيث المبدأ فلا يجوز لأنه دفعها كهدية ومساعدة، وعمل باصله بينما ذاك لم يفعل اي لم يرد الجميل، ربما لضيق ذات اليد، او عمدا، او بخلا فيكفيه اذن انه (لا يمشى مماشي الرجال)، ولا يجاريهم، وهذا ما يفعله بعض الناس بان لا ينظروا ابدا الى ما اعاد ذاك ام لم يعد، بينما يحاسب البعض الاخر كل شخص تخلف عن اعادة ما دفع هذا اليه من نقوط، على مبدأ (كل شيءقرضه ودين حتى دموع العين) وهنا نجد ان اللبسة اذن وسيلة

لفحص الرجال وتسجيل المواقف، لذا يصفها البعض بانها (جهد بلاء) اي تحميل الشخص فوق طاقته، او لنقل مسؤولية اجتماعية صعبة جاءت في غير اوانها (واللي في غير اوانه يا هوانه)، اما من يحصل عليها ممن لا يقدرون المسؤولية ويهتمون بها، وان موزعها صاحب الفرح لم يكن عمل خيرا في حياته، فان الكسب من مثل هؤلاء البخلاء شيء محبب في عرف بعض البدو على مبدأ (خذ هالحفنة من اللحية العفنة).

ومما تعنيه اللبسة ايضا: انها احيانا استجداء ولكن بطريقة مهذبة – خدمة مقابل خدمة – واذكر ان نقوط قطعة القماش القميص الحريمي كان لا يقل عن نصف دينار، والقطعة البذلة كان نقوطها دينارا، ومنديل الصوف نقوطه لا يقل عن ثلاثة دنانير، الى خمسة دنانير، وقطعة الذهب بنفس المستوى تقريبا، ومنديل الرجل من نصف دينار الى دينار، والعباءة، والدريعية او الدامر نقوطهما عشرة دنانير، وقد كان هذا حسبما اذكر في الخمسينات والستينات من القرن العشرين، الا ان الموازين اختلفت مع الزمان والتطور، ولا شك انها ستتغير عما هي عليه الان ولكن ليس نحو الاحسن دائما؟!

والتجهيز قد يكون لعريس واحد، او لاكثر من عريس في ان واحد خاصة عندما كان الذهاب للسوق بالمواسم والمناسبات والضرورات فقط، فقد يتجهز عرسان الشهر او الموسم الواحد معا، ويبقى الجهاز مخزونا في مكان امين حتى يحين الوقت والاوان لذلك.

وقد يقوم الشيخ بالتجهيز لاكثر من عريس وعروس لعشيرته ايضا في ان واحد عندما يذهب (يخطر[1]) للسوق، وحول ذلك يقولون نكتة بدوية طريفة حول صاحب دكان ضخم لبيع الاقمشة، وكيف كان يروده البدو للشراء منه الا انه كان يغلبهم بالثمن فاجتمع الشيخ ذات يوم بعشيرته، وطلبهم الانتقام منه، فتقدم لهذه المهمة شاب صعلوك من القبيلة بشرط ان يعطى ملابس شيخ وذلول سريع، ليقوم بتمثيل الدور كشيخ بدوي وعندما وصل الى صاحب الدكان في المدينة، وقال لهذا المحتكر: انا شيخ قبيلة اريد اتجهز لخمسين عريسا وخمسين عروسا اريد ازوجهم من عشيرتي ففرح صاحب الدكان وهو يجد فريسة جديدة، فجاء له بفطور دسم جيد، ثم اخذ بتنزيل اثواب القماش الفاخر ليطلع عليها الشيخ المذكور، وعند الظهر جيء له بغداء ايضا، وبينما كانت الاثواب مكومة، ومبعثرة ليجسها بيده، وبعد ان تناول غداءه انصرف اخونا الشيخ، فلحق به المدني صاحب الدكان، وتصايحا حتى تجمهر عليهما الناس والشرطة، اما صاحب الدكان فشكاه انه اتعبه منذ الصباح ولم يبع احدا لأنه كان مشغولا مع هذا الشيخ الذي تركه بلا مبرر ولا سبب، وعليه الان ان يشتري كما طلب، فقال البدوي: يا ناس هذا رجل لا يخاف الله ولا يعرف رسول الله، فلقد وضعت عنده امانة مائة ليرة ذهب، وعندما جئت لاخذها رفضها وطلب الي ان اخذ قماشا بدلا منها، وانا لا حاجة لي بالقماش، وانما اريد

---

١) البدو كانوا يقولون لمن يبحث عن مكان للرحيل اليه الرائد بلفظ الهمزة بالياء، وايضا الرواد (فتح الراء وتشديد الواو) اما من يذهب الى السوق فيسمونه الخطار، ويقولون (راح يخطر) اي ذهب للسوق وكان الجميع ينتظرونه حيث يحمل البضاعة والاخبار، حتى ان الاطفال يحاولون ان يبشروا بمقدمه فيوقدون النار على الطريق التي سياتي منها ويغنون: (اوقدي يا نارنا، قبل يجي خطارنا).

نقودي... فاخذت الشرطة الطرفين، وحولتهما في اليوم التالي للمحكمة، ووضع المدني محاميا له، يوافع ويدافع عنه، وكان المحامي ذكيا بمحاولته التمويه على البدوي ليخطئه، ويبين كذبه، فقال له: ايها البدوي هل انت متأكد ان مائة الليرة الذهب قد وضعتها عند هذا التاجر، فقال البدوي: نعم متأكد من ذلك وكما تتكلم معي؟! فقال المحامي: لقد اعطيت هذا المبلغ لي شخصيا، وانت تتهم هذا الرجل بالظلم... فقال البدوي: سبحان الله انت ابن حلال وتخاف الله، وما تبوق الامانة، هذول المائة اللي عندك حارات قارات (اي مؤكدات لا جدال ولا نقاش فيهن) ولكن المشكلة هي انكار هذا الانسان، فليته كان مثلك ابن حلال، واعترف بما عنده والتي هي غير التي عندك). وهكذا كان البدوي اذكى من التاجر بدهائه، والمحامي بذكائه، وغلبهما في الخطاب، واخذ ما يريد، واستعاد ما ظلم به هذا التاجر عشيرة هذا الصعلوك.

ولا بد ان نقول انه بالمقابل قد يذهب اهل العروس الى السوق لشراء ما يمكن ان يوجد بالسوق ويتعذر صنعه عندهم بسبب قصر الوقت، او عدم توفر الوسائل والامكانات واذا ذهبت لا بد ان يذهب معها بعض اترابها من واحدة الى ثلاثة، وحينها يجب شراء لبسة مرضية لكل واحدة مرافقة لها، على حساب ولي امر العروس، واذا لم يفعل عد ذلك منه نقيصة عليه، كما انه يجب ان يدعو من معه للأكل في المطعم ايضا، وكذلك بالنسبة لمن يرافق ذوي العريس، فلهم حق في ان يحصلوا على لبسة مناسبة لذلك قال البدو (من حضر السوق تسوق)، ويقولون ايضا: (عواس السم يذوقه).

وبعد شراء هذا الجهاز من الملابس والحلي والزينة، لا بد من شراء اشياء اخرى ايضا وهي: الحلويات والتي لا غنى لمناسبة فرح بدوي عنها، لأنها تعبير عن حلاوة المناسبة، وعذوبة مذاقها، ومن الانواع المهمة التي كانت مستعملة هي (التوفة والمسماة عندهم شقلاطة (وهي نفس كلمة شوكلاته)، بالاضافة الى الكعيكبان (وهو صفائح من الحلوى ذي اللون الابيض والاحمر بشكل خطوط عريضة متوازية) والراحة والمسماة عندهم (الراحة الذبلانة)، والحلاوة، والملبس المسمى (حلو - وان كانت كلمة حلو تطلق على جميع الحلويات)، كما يشترون الحبال للحاجة اليها، في الربط، وشد الاحمال والاثقال، وبعض ادوات القطع كالفأس والقاطعة او القطاعة (بتشديد الطـاء)، والكؤوس - مفردها كأس، وعند البدو يقولون كأس بالهمزة وبدونها ويقولون كاسة) كما يشترون القهوة والبهار، والشاي والسكر (بعد ان عرفوهما)، والعطور، وكل ما يحتاج اليه الامر من طعام لا يوجد لديهم، او اواني غير متوفرة وحلويات لتوزيعها على حضور الزفاف والقرى... ويشترون الرز ايضا، وبعض ما يحتاجه الطعام من (ملح)، واصباغ

ان الكعيكبان من الحلويات المحببة اليهم، وسمي كذلك لانه قوالب، والبدو يقولون للقالب (كعب - وتلفظ الكاف جيما تركية)، وللقوالب: اكعاب، وان كانت هذه الكلمة تطلق ايضا على كعب الرجل، الا ان لفظها يكون بصورة مختلفة قليلا... واذكر من حلويات الاعراس البدوية: (حلو كل واسكت)، وهو نوع لا يسمع له صوت تحت الاسنان حين اكله ويذوب بسرعة، لذلك قالوا عنه: كل واسكت اي ان اكله يكون بسكوت وبدون صوت، ومن الحلويات ايضا التي اذكرها والمفضلة عندهم: المسماة بيض الحمام وهي بيضاء تشبه بيض الحمام وفيها لوز من الداخل.

اذا لم تتوفر لديهم، واذكر ايضا في الخمسينات والستينات ان بعضهم كان يشتري السجاير المصنعة لاستعمال العريس لأن رائحتها ازكي من الهيشي ذي الرائحة النتنة التي تنفر منها العروس، خاصة وان اول ليلة يجب ان تتوفر لها جميع الظروف لتكون جميلة، رغم انها ليست كذلك في العادة مما يخالف المبدأ في ذلك، وقد تؤدي العادة الى تعقيد العروسين، وهدم بيت الزوجية من اجل مزاج فلان، او علان او التمسك بعادة مخالفة للمبدأ.

وأذكر من الاشياء التي كان يتم شراءها مع الجهاز ايضا: الاباريق لاستعمال الغسيل والوضوء، والصابون، واحيانا المناشف (البشاكير - وذلك في الخمسينات والستينات)، وايضا يشترون عتادا لسلاحهم من بنادق او مسدسات او الجفت[٣] ويشترون للعريس ايضا حذاء وملابس جديدة (من راسه الى اساسه)، غطاء للرأس، وثوب او كبر (بكسر الكاف والباء، وتسكين الراء) او كليهما (اي ثوب وكبر)، وعباءة، وسروال (بعد ان عرفوه في هذا القرن العشرين في منطقة البلقاء، كما انهم في الجزيرة العربية لم يعرفوه الا نادرا، وشاهدنا في ذلك ما نراه الى الان من انعدام السروال لديهم، ولا شك انه عرف لدى المستقرين قبل البدو نظرا لحاجة المستقر في لباس عملي يغطي عورته، ويحافظ على هيبته واصالته، فتحول الى بنطال لدى الغرب والى سروال لدى القرى العربية، ثم تسرب، ووصل الصحراء لما فيه من ستر ودفء (ولا مجال هنا لذكر التفاصيل حول ذلك).

كما يشترون شفرات وعدة الحلاقة، وبعض الهدايا للعروس ايضا، التي يمد للعريس ان يقدمها من نفسه (كالعطور، الملابس، الحلي، من الذهب او الفضة او ما ذلك) ولكن لا بد من شراء الحلو بانواعه مخصصا بعضه لبرزة العروس ليمتزج ايضا مع الحلو الذي تأتي به هي، كدليل وتعبير عن امتزاج حلاوة الايام واللقاء والمحبة، والتفاؤل بالزواج الناجح.

ان وجود النساء في لجنة الشراء هو تقدير لدور المرأة في مشاركة الرجل بالمسؤولية والتعبير عن رأيها عما ترغبه هي واترابها وبنات جنسها من الوان وانواع من الالبسة والحلويات، وما يرضى فلانة، او هذا السن، وذاك السن (اي معدل العمر).

وبعد شراء كل هذه الاشياء او بعضا منها، اذ لا يشترط شراءها جميعها، لأن ظروف العريس، وامكاناته، ونوعية العروس، كل ذلك يلعب دوره بالامر... فاذا كان امام التحدي، والمنافسات فهو لا شك يبذل جهده في شراء كل ما يحتاج اليه امره، وما فيه زيادة على المعتاد، اي انه يحاول ان يأتي بشيء جديد، وكأنه بذلك سن سنة يسير عليها من سيكون بعده، ويبقى ذكره مرتبطا بها لفترة قد تطول او تقصر، وان يضرب به المثل

---

٣) من احب البنادق للبدو بعد الحرب العالمية الثانية كانت الهترلية، اي الهتلرية نسبة الى هتلر اي الالمانية، ثم تاتي الانجليزية، ثم العصملي (قبل الحرب الثانية)، اي العثمانية وهي صنع تركي، وهناك بنادق فرنسية، وايطالية وهما اسوأ البنادق عند البدو.. اما المسدس فكان يسمى الردنية لانها تكون على الجانب، موازية للردن وهو ما يصل بالثوب من جهة اليد، ويكون طويلا وواسعا كما كانوا يقتنون الخراطيش، ومفردها خرطوش والمسمى عندهم (جفت).

فيقال: فلان جاء بكذا خاصة وان هذا بالنسبة للبدوي شيء مهم، فالسمعة، والدعاية من اخطر واهم ما يمكن ان يتداولوه فيما بينهم... واثناء العودة، يتحدث القوم بما اشتروه، ويتساءلون فيما اذا نسوا شيئا مما يجب ان يشتروا؟ ام نسوا اثاثا كان عليهم ان يأتوا لهم بهدية رمزية وهي (اللبسة) لذا فهم في العادة يحتاطون على عدد من اصناف اللبسة للرجال والنساء، حتى اذا احتاج الامر سارت الامور بشكل طبيعي، خاصة وان البدوي يغضب جدا عندما يجد نفسه منسيا من عزيز او شخص يعتب عليه لأنه (العتب على قدر العشم)، فتكون اللبسة جاهزة وتسد الثغرة؟!

شـــــر (نشر) الجهـــــاز:

(والشر) هنا عند البدو تعني النشر والجهاز: هو ما يتعلق بالعرس من ملابس وحلي وحلويات واعلانها للملأ بفخر واعتزاز فبعد جلبه من السوق[1]، ووصولهم الى بيت اهل العريس، وتنطلق الزغاريد، ويتجمع الناس، وتوقد النار، وتصنع القهوة، ويدق المهباش، ويتم اعداد البيت اعدادا خاصا بتوسيع الشق (مجلس الرجال) على حساب المحرم (مجلس الحريم)، او يبتنى بيتاً جديداً (بيت من الشعر) لهذه الغاية اذا كان المتوفر لا يفي بالغرض.. ولا بد أن ننوه هنا أن الجهاز لا يشترط جلبه قبل البدء بالسامر (اي افراح العرس)، خاصة اذا كان السوق بعيدا، ويتم شراء الحاجيات المطلوبة ضمن قوافل وفي مواسم معينة، اما في الاماكن القريبة من السوق، وخاصة في الخمسينات والستينات من القرن العشرين فان جلب الجهاز كان يقترن بالافراح، لقرب السوق، وسهولة جلب الاغراض والحاجيات منه... كما أن الناس بدأت تعرف الاستقرار، والقرب من اماكن التجمعات السكانية، وتواجدت الحوانيت في هذه التجمعات سواء في المضارب او في القرى والمدن.

وكانوا يشترون الجهاز، ويضبونه (اي يحفظونه في مكان أمين بعيداً عن العبث)، ولكن ليس لاكثر من شهر الا اذا كانت الظروف لا تسمح بغير ذلك.

ويتم الاستعداد من جهة اخرى لدى اهل العريس باحدى الطرق الثلاث التالية:

أما أن يكون البيت من السعة، أو العرس من البساطة، (ونطاق ضيق) بما لا يزيد عن حجم البيت مهما كان، وهنا **يبقى كل شيء على حاله بالنسبة لترتيب البيت**، فالمحرم، والشق يستمر كل منهما باداء دوره الحقيقي، ويتوافد الرجال الى الشق، والنساء الى المحرم، وتكون (الرقصة – السحجة – السامر)، وهذا الوضع ايضا – أي عدم التغيير – يكون في حالات الزواج السريع او المفاجيء الذي لا يتمكن القوم معه

---

١) يتم حمل الجهاز عادة على ظهور الجمال، او البغال، او الخيل او الحمير، واهمها على ظهر الخيل والجمال للمسافات الطويلة، اما الخيل والبغال والحمير فتستعمل للمسافات القصيرة ايضا، وربما يكون الجهاز من القلة بحيث يحمله الرجل على ظهره، اما النساء فيركبن الدواب، بينما يسير الرجال، لان المسافة الطويلة تتعب النساء. بينما يتحمل الرجال ذلك اذا لم تتوفر الرواحل... اما في العصر الحديث فيتم نقل هذه الاشياء بواسطة السيارات، الى اقرب مكان تصله، وبعدها يحمل على الدواب الى البيت المقصود اذا كان بعيدا، او بدون ذلك اذا كان قريبا.

اجراء تغيير، ولا يتمكنون من الحضور جميعا بحيث يغص بهم المكان، وانما (الحاضر يسد)، والحاضرون قله...

والحالة الثانية هي اجراء التغيير في نفس البيت: ذلك ان بيت الشعر يقسم الى (شق ومحرم)، الاول للرجال، والثاني للنساء، وحيث أن اجتماع الرجال هو المهم، وان اجتماع النساء يعتبر امرا ثانويا، بالاضافة لتوزيعهن على المحرم، والبرزة (حيث العروس)، فانه يتم توسيع الشق مسافة (واسط) - اي نقل الساحة الفاصلة الى داخل المحرم، فيتسع الشق وبذلك يهيأ لاستقبال المزيد من الناس... وهذا التوسع اشبه ما يكون بالاخلاء، واجراء فوري مؤقت لحل مشكلة الضيق، فتحل لطرف على حساب طرف. والذي يكون (المحرم) قد توسع مقابل ذلك في مجال البرزة (مكان العروس)، كما أن هذا التغيير هو اهتمام باجتماع الرجال والعصبة في مكان وزمان واحد تحت سقف واحد، مما يساعدهم على الشعور بالقوة والنشوة، ويزيد من تآلفهم وتعاضدهم ومحبتهم لبعضهم، بل إن هذا اللقاء هو تعبير عن هذه الامور جميعا، ويتجلى ذلك في الصابية التي يقيمونها، واطلاق النار على الاهداف يوم القرى - (كما سنتحدث ان شاء الله).

والحالة الثالثة هي بناء بيوت خصيصا لهذه الغاية: وهذه النقطة بالذات هي التي اصبحت سائدة بعد منتصف القرن العشرين، وعند الميسورين، والوجهاء، وذوي المكانة لدى قومهم، لأن ذلك تعبير عن قيمتهم هذه لدى قومهم من جهة، كما انها ترجمة لقدرتهم على تحمل الصعاب والمسؤوليات الجسام...

فاذا كان بيت الشخص الاصلي لا يتسع للحضور سواء اخلاه، ام ابقاه كما هو... فالاحسن ايجاد مكان مناسب للعدد المدعو، وقد لا يكفي بيت او صابيتان فقد يزيد على هذا وعادة يتم بناؤها بشكل خط واحد، او بشكل زاوية، ويكون الجلوس على الجانبين على فراش يعد خصيصا لذلك، ويبقى الوسط فارغا... اما مكانه فيجب الا يكون بعيدا عن البيت الأصلي، وانما (الحبل بالحبل) اي بحيث تكون حبال الجديد تصل نهايتها بنهاية حبال القديم، كتعبير عن الاتصال، والاستمرار والانطلاق، وان هذا من ذاك ومولود عنه ولو كان اكبر منه. وانه فرع من أصل متصلا لا منفصلا.

ولكن قد يحدث تأخر بناء مثل هذا البيت الى يوم الزفاف والقرى وهما اكثر أيام العرس تجمعا للناس.... بينما تجري الرقصة (السامر) امام البيت الأصلي... وحتى لو تم البناء منذ اليوم الأول لشر الجهاز، فان كل شيء ينطلق من البيت الأصلي، وتبقى وظيفة البيت الجديد هي استيعاب تجمع القوم ليس الا... ويبقى فرعا مهما كانت سعته، وتبقى الاهمية للأصل، حيث النساء يغنين، وحيث (شر الجهاز) على الحبال، وحيث الذبيحة هناك...الخ.

وإذا لم تتوفر البيوت الكافية لدى الشخص استعيرت البيوت من نفس الفريق، وهذا بحد ذاته تعبير عن التآلف والتعاون، وسد النقص والحاجة من الجميع عندما تكون لدى الفرد...كما انها مسؤولية مشتركة، ومشاركة في المسؤولية، وكدلالة على ذلك بالاضافة الى هذا، ما نجده في تعاون القوم جميعا في نقل البيوت وبنائها، وتجهيز ما

تتطلبه، ولا نجد من يقف مكتوف الايدي، بل يعملون، ويتعاونون معا كل حسب طاقته، دونما انتظار لاجرة او من او حمد او شكور...فالفرحة للجميع، وهذه صورة من صور التعبير عنها والمشاركة فيها، وتبادل المنفعة والمصالح يتحقق بصورة تلقائية، وبسيطة، بعيدة عن التعقيد واللؤم... فكل واحد يأتي بحبل من عنده اذا لم يتوفر الحبل، واخر يأتي بعمود، وذاك يأتي بفراش، حتى يكتمل العمل موحدا غير منقوص، فاذا ما حقق الغاية والغرض، وانتهى العرس، اخذ كل واحد ما قدمه، واعتبره (عيرية مستردة)، وبذلك يرون ان البيت بيت الجميع، والفراش للجميع، والستر للجميع، والخير للجميع، ويشعر كل واحد ان له الحق في ذلك وعليه ان يحافظ محافظة دقيقة وفعالة على المحتويات، فاذا حافظ هذا وذاك كل بقدر استطاعته، وعلى ما بين يديه، توصلنا في النهاية الى ان الحفاظ على المحتويات مسؤولية جماعية، ومردوده جماعي ايضا.

ونجد (الى الان) ابناء الريف والبادية الذين استقروا يأتون ببيوت الشعر لاستعمالها وقت الافراح والاتراح، لأنها اكثر عملية، بالاضافة الى ارتباطها باصالة الناس وعقلياتهم وذهنيتهم... فيصعب بذلك التخلي عنها بين عشية وضحاها، بالاضافة الى انه يندر وجود الديوان او الغرفة التي تتسع للحضور بصورة مجتمعة معا.... ذلك ان اجتماع الناس وتحدثهم الى بعضهم هو هدف مهم من اهداف الاعراس، وجميع المناسبات لدى الانسان سواء اكان بدويا ام غير بدوي.

ونعود الان للحديث عن الجهاز: فاذا كانت الأفراح ستبدأ بوصوله، أي ما يمكن ان نسميه باتخاذ الشيء او الاجراء في اوانه، فان وصول الجهاز يعني البدء بالأفراح، فتنطلق الزغاريد من ام العريس او شقيقته، او ابنته (فقد يكون العريس ابا لعائلة ايضا)، وتلعلع اصوات العيارات النارية، وتوقد النار، ويدق المهباش، وتصنع القهوة... فيتجمع كل من يسمع بذلك، ثم يشر الجهاز (اي توضع اقمشه بيضاء او خضراء على حبال البيت او على بابه من الامام، او على كليهما، كما قد توضع بعضها على حبال البيت من طرف الشق، والمحرم (من خلف الرفة) .. وما هذه كلها الا دعوة للقوم، ذلك ان هذه المرحلة من الفرح لا تحتاج الى دعوات فردية، وتعتبر وسائل الاعلام والتبشير التي ذكرناها دعوة مشروعة للقوم... ونرى ان الانسان البدوي بوسائله البسيطة قد استعمل الوسائل المسموعة والمرئية، والمادية والمعنوية في جمع القوم اليه ودعوتهم لمشاركته فرحته.

فالوسيلة السماعية هي الزغاريد، والعيارات النارية، وصوت المهباش: فالزغرود يعني الفرح، وهذه فرحة للجميع، بينما **العيارات النارية** تعني ابلاغ القوم مع الفرحة لكنها تنطوي على جانب القوة لدى البدوي، فهو وان كان فرحا، ومشغولا بالاعراس، فهو جاهز للدفاع، وضرب العدو، وكسر شوكته، كما انها تعبير عن القوة التي تنتج عن اجتماع القوم معا، وربط عائلتين برباط النسب والمصاهرة... وتفاؤل بالخير والقوة حيث سيكون الانجاب والتكاثر وزيادة العشيرة... ولا ننسى ان اطلاق العيارات النارية يعني ان لدى القوم سلاح قوي يمكن استعماله في الافراح وغيرها، خاصة وان تجمع القوم سواء

في الافراح: او الاتراح، او الشدائد والغزو إن هو إلا مظهر من مظاهر القوة... وما هي قيمة القوة بدون سلاح؟!!

أما **الزغرود:** فهو تعبير عن حق الانثى في المشاركة، ذلك انه ليس من حق الانثى ان يرتفع صوتها الا في حالات الضرورة، والأمور المشروعة كطلب النجدة - صايحة الضحى، او مستجيرة، او مظلومة...الخ)

أو في حالات الاتراح: كالبكاء على الميت، او فراق القوم والاحبة...الخ.

وفي الافراح: حيث الزغاريد والغناء، وما الى ذلك من التعبير المشروع عن فرحتها هذه، فالامر اشبه ما يكون بوسيلة تنفيس عن كبت المرأة (اذا قلنا أن هناك كبتا للبدوية) - كما ان زغرود المرأة دافع جيد لحماس القوم في المعركة، وهو هنا دعوة لهم ليس الى الحرب والهجوم على العدو، وانما للتجمع والمشاركة في الفرحة...

واما صوت المهباش: فهو من حيث المبدأ (دعوة للتجمع) سواء لشرب القهوة أم لغير ذلك، وهو تعبير ايضا عن الكرم، والسيادة حيث لم يكن يقتني المهباش الا من عنده دلال القهوة التي كانت في عصور بدوية قديمة (قبل القرن العشرين) عند الشيوخ والوجهاء فقط لأنها وسيلة مهمة لتجمعهم وشدهم الى بعضهم ولو لفترة السهرة والمسامرة. في زمان ومكان واحد، واجتماع القوم بحد ذاته فرحة، وكرم (كرم لمن يجمعهم حيث يترتب عليه اطعامهم احيانا، وما الى ذلك).

فالمهباش اذن وسيلة مهمة لدعوة القوم، فدقاته اللطيفة هي لغة حديث صامت يفهمها البدو، دونما حاجة احيانا الى من يدعو القوم بصوت ولغة مفهومة[2].

او الوسائل المرئية: فهي ايقاد النار، وشر الجهاز،

ونحن نجد في القرآن الكريم دعوة لسيدنا موسى بواسطة النار **(اذ رأى نارا فقال لاهله امكثوا لعلي آتيكم منها بقبس او اجد على النار هدى، فلما اتاها نودي يا موسى)**. فنجد (راى نارا)، ونجد (فلما اتاها)، فالنار اذن دعوة للقوم، ومن وسائل البدو في ذلك ايضا ايقادها على تلة او جبل ليراها القوم فيجتمعون، واستبدلوا ذلك بالعيارات النارية الثلاثة التي ذكرناها، ونجد ان العرب قديما، وفي الجاهلية استعملوا الامر نفسه (النار) لهذه الغاية قيل في الامثال (اشهر من نار على علم)، وحتى انه في العصر الحديث

---

١) كان الشيخ اذا اراد ان يجمع قومه لامر هام وضروري في نظره يرسل احد رجاله الى اعلى تلة في الحي ويطلق ثلاثة عيارات نارية متتالية بشكل متقطع، فيفهمون ان الشيخ يريدهم لامر هام فيتجمعون فورا بدون تاخير مهما كان الوقت، كما ان دق المهباش في بيت الشيخ يعني دعوتهم للاجتماع، واما في الليل فتوقد النار، فيجتمع القوم... فهذه وسائل بسيطة لدعوتهم في اي وقت خاصة وان الشيخ قد يبلغهم اي خبر جديد من غزو او صد لغزو، او رحيل، او ما الى ذلك.

٢) نجد ان الدعوة المسموعة على ثلاث مراحل او دوائر الاولى هي الزغرودة، والتي تصل الى الحي المحيط فقط، وهي تتناسب مع حياء الانثى وطبيعتها، والثانية تصل الى مسافة اكثر واكبر وهي: المهباش الذي قد يصل الى اكثر من كيلومتر اذا كان (الدقاق)، اي الذي يدق المهباش محترفا ويجيد الاستعمال، اما الوسيلة المسموعة الثالثة فهي صوت البندقية والذي قد يصل الى ٣ كم. وبذلك يغطي بقية الاحياء في العشيرة الواحدة التي يجب ان تجتمع، وتتبلغ الامر.

نرى في الطائرات الضوء الأحمر للتحذير، وكذلك في المنارات الجوية والبحرية للهداية والدلالة، وعلى محطات الارسال المرئية والمسموعة للمذياع والأذاعة المرئية للتحذير من الاصطدام بها من الطائرات وما الى ذلك... والبدوي يجد في النار وسيلة لجلب الضيف، والقوم التائهين، والغائبين، وجمع الجيران والفريق، وكل من يرى، خاصة اذا كانت في بيت الشيخ. فالبدوي يقول:

وارجـد عليهـا من هشيـم بخبــه   لما سناهــا يجيــب ربــع غيابي

وفي العصور القديمة والاسلامية استعملوا النار للتحذير وتوصيل الاخبار من قلعة لاخرى ثم الى مركز القيادة.

وأما شر (أي نشر) الجهاز: فهو دعوة مرئية اخرى للقوم، فبعد ان يسمعوا الزغاريد، واصوات العيارات النارية، والنار الموقدة، ينتبهون ليروا الى ماذا ستكون الدعوة؟! وما شر الجهاز ووضعه على الجهات المختلفة للبيت الا طمأنة للسامعين أن دعوتهم ليس للحرب والضرب، وانما للفرح، والرقص، فيفهمون ان الامر للزواج... لذا فانه لا يشترط التلبية الفورية، وانما حسب الظرف، (واقصد انه يحق للشخص ان يتأخر بضع دقائق او ساعات، وقد لا يحضر في الليلة الاولى)، اما اذا لم يروا الجهاز مشرورا، فهذا يعني ان الدعوة فورية سواء بغزو، او خبر جديد مهم، وعليه ان يترك كل شيء بين يديه، لأن هناك ما هو اهم من ذلك بكثير، وعليه ان يأتي بكامل سلاحه وعدته (اذا لم يكن هناك جهاز مشرور)، لأنه قد يكلف بمهمة عاجلة يؤديها، خاصة وان كل فرد في القبيلة هو جندي في الخدمة الدائمة، وعليه تنفيذ اية مهمة تسند اليه لصالح العشيرة، خاصة اذا كانت من الشيخ، او باجماع العشيرة...

ويصحب وضع القماش (شر الجهاز) على الحبال وباب البيت، زغاريد النساء، والعيارات النارية، واحيانا حداء الرجال، خصوصا اذا ما كان المتزوج ابن الشيخ، او وحيد والديه، او حصل على فتاة كانت مطلب العديد من الشباب، وكان هو الفائز بها... انها معركة مع الشر والسوء فالخير هو الزواج، والشر هو ما يعوق ذلك، والانتصار على الشر خير وفرح لا بد من التعبير عنه بشتى الوسائل المتوفرة، والبدوي لا يتوانى عن القيام بالمهمة بروح متعاونة وبسيطة، ولا ننسى ان نشر القماش تدل على اهمية وكمية، وتعدد انواعه واشكاله، وفي ذلك مباهاة، ومنافسة ايضا: فاذا ما جاء البدوي نظر اليه، وقد يلمسه لفحص نوعيته، وتيمنا أن يكون عنده فرح مثلما هو عند هذا الذي نحن بصدد الحديث عنه وبذلك نرى في هذه الوسائل المرئية والمسموعة، دعوات مادية ومعنوية للقوم، خاصة وان المهباش يعني صنع القهوة وبالتالي شرب القهوة، وشر الجهاز يعني توزيع الحلوى (اي اكل الحلوى)، وايقاد النار يعني، صنع القوة والطعام، وبالتالي (اكل الثريد وما الى ذلك).

فهذه الوسائل هي بحد ذاتها، وسائل مادية ومعنوية، او تؤدي اليها، انها تتلاءم مع طبيعة الانسان في السمع والبصر والاحساس...

وأما شر (نشر) الجهاز: فمهمة يقوم بها الرجال في جزء الشق من البيت، وتقوم بها

النساء في جزء المحرم من البيت، وبذلك نرى صورة اخرى من مشاركة الرجل والمرأة لمسؤوليات الحياة، بالاضافة الى كونها فرصة للانثى ان تعبر عن فرحتها، فهي ليست فرحة الرجال وحدهم.

كما نرى صورة المشاركة ايضا في ان الرجل الذي يطلق العيار الناري او يدق المهباش، او يوقد النار... انما يقوم بدور من الدعوة، بينما تقوم المرأة بدور اخر هو الزغرود، والغناء وبذلك تتاح لها فرصة المشاركة ليس بالقلب فحسب وانما بالفعل والعمل ايضا.

ان الغناء يقابل حداء الرجال اثناء وبعد نشر القماش... فالنساء يدعين النساء، والرجال يدعون الرجال، وفي دعوتهم جميعا، دعوة للرجال والنساء جميعا... انه تخصيص وتعميم، وتعميم وتخصيص، بناية واحدة تتكاتف جزئياتها معا لتشكل هذه المبنى الكبير.

وتتضمن اغاني النساء المسماة (الغنا، او التفورد (بتشديد التاء وضم الفاء وكسر الراء). تتضمن التعبير عن الفرحة، ومدح العريس والعروس واهلهما، كما تتضمن دعوة للعزوة (قوم العريس) ان يشاركوه هذه الفرحة، والا يتوانوا عن ذلك، وان يهنئوه بحرارة، مع التمنيات بدوام الافراح في الديار العامرة بالخير والرجال.

وحنا مشينا من الصبح للعصر — وحنا خذينا جيدات الأصل
وحنا مشينا واتكلنا على الله — يا رب احمانا من لغى خلق الله
رشوا الوسايد بالعطر والحنا — يا بي (فلان) ياخذ وبتهنا
رشوا الوسايد بالورد والريحة — يا بي (فلان) ياخذ المليحة
يا بي (فلان) لا تنم غضبان — والحمد لله فزعتك صبيان
اعلى بظهرها يا ولد نخيتك — كبير المهابة يا كريم ببيتك
يا بي فلان وسع الميدان — والعز لك والفرح للصبيان
قدر ابو فلان والحقوه بنار — مربوب ساقه من شحوم الضان
يا طيب ولد يا حلو عروشي — عدوا لي عنك بنهار الهوش

وأما حداء الرجال فهو تعبير عن الفرحة بقوة، وعن القوة بفرحة، ويكون باكثر من صيغة ولحن، فقد يكون حداء سريعا او بطيئا، لكنه على اية حال لحن يشبه ذاك الذي في المعركة.

يا يمه غذي مهيرتي تسلم وانا خيالها
واشري لها سرج جديد ريش النعام قذيلها

وفي حدائهم هذا يبينون قوتهم وهيبتهم، وأنهم لا يخافون العدو والموت، بل يقيمون الافراح لتزداد العشيرة وتقوى العصبة، وتحصن الفروج.

ويجتمع القوم، ويتوافدون تباعا، والكل يهنيء قائلا: مبروك ما سويتوا، فيرد المعازيب: (الله يبارك لكم) او (الله يبارك بكم)... ويقول الوافدون: (ان شاء الله تظل

ايامكم مسرات ودياركم عامرة وثامرة)... فيرد اولئك: (حنا والسامعين جميع): ويصافح الوافدون والد العريس والعريس نفسه، واهله من الرجال، بينما تفد النساء الى (المحرم) ليقمن بنفس المهمة ولكن على صعيد النساء فقط.

بقي أن نقول ان القماش باللون الابيض الذي يتم نشره من الجهاز يعبر عن الامل والتفاؤل بالصفاء وبياض العرض سواء للعريس انه نقي شريف عفيف، ام للعروس انها كذلك، وان العلاقات بين الطرفين واهليهما بيضاء لا تشوبهما شائبة.

اما اللون الاخضر فهو دليل على الخير والبركة التي تحل بديار العريس على وجه العروس، ذلك ان البدو يتفاءلون باشياء، ويتشاءمون من اخرى، اما اللون الاخضر والابيض فهما موضع تفاؤل.

وقد يقوم صاحب العرس بارسال اشخاص لتبليغ العربان المجاورة ان الليلة هي الأولى للسامر في بيت فلان لزواج فلان من فلانة ابنة فلان، وبذلك يعرف الجميع هذه القربى بين طرفين، ونقطة الوصل بينهما (العروس والعريس)، وقد يصاحب هذا الاعلام دعوة لتناول العشاء، او بدون ذلك، لأنه من حيث المبدأ يجب ان يذبح ذوو العريس ذبيحة في اول ليلة (لشر الجهاز)، وتبدو هذه الذبيحة **معبرة تماما عن عدة أمور منها المحسوس، واخر غير المحسوس.**

فالامور المحسوسة: ان هذه تدل على مدى فرحة القوم بهذه المناسبة، كما ان توافد القوم اليهم لا بد وان يؤخذ بعين الاعتبار، ويجب اكرامهم بالقهوة والحلوى، والطعام، فيتناولون عشاءهم والذي يكون عادة بعد الغروب مباشرة **للاسباب التالية:** ان من يأتي بعد المساء يكون قد تناول عشاءه عند اهله بالاضافة الى مبدأ (ضيف المساء ماله عشا) هذا كمبدأ، وفي العادة قد يتأخر اكثر من ذلك، ويقدم العشاء لضيف المساء من الموجود، ويحق للمعازيب الا يصنعوا له شيئا خاصاً به[١]، ولكنهم يكرمونه من الموجود على اقل تقدير.

وفي الاعراس يتوافد كثيرون لحضور السامر، مما قد يتعذر على المعازيب أن يكفوهم جميعا نظرا لانشغالهم في امور الفرح والاعراس وليس في امور الضيافة.

كما ان تقديم العشاء مبكرا ينطوي على انجاز عمل للتفرغ الى عمل اخر، وهو تقديم القهوة، وممارسة الفرح (الرقصة - السحجة - والقصيد "الغناء")، وما الى ذلك. كما ان النساء مشغولات ايضا باعمال اخرى خاصة وان البدو يعتبرون اهل العرس مشغولون ولو كانوا غير ذلك بقولهم (مثل ام العروس، او مثل ام العريس، مشغولة وما هي مشغولة)، انهم مشغولون لأنهم في حالة استعداد وطوارىء لخدمة الضيوف الوافدين، وممارسة الفرح وغير مشغولين، اذا لم ياخذ هذا الامر كثيرا من

---

١) ونجد ان كلمة (ضيف المساء ماله عشاء) مبدأ، وتختلف العادة مع ذلك احيانا بشكل واضح، والمقصود بهذا القول: ان الضيف اذا جاء بعد صدور وجبة طعام العشاء للمعازيب او للضيوف، فانه ليس من حقه ان يتكلفوا له بعشاء جديد، من لحم وما الى ذلك، وانما يقدم اليه مما هو موجود (الجود من الموجود) ولا يحق له ان يلوم او يقاضي اذا وقف الامر عند ذلك. ولكن اذا جاء قبل صدور العشاء فله الحق بالعشاء كمثل اي شخص حاضر، ويزاد له طعام ولو تاخر طعام الجميع عن الصدور في حينه.

وقتهم، تماما كمثل ارسال طابور من الجنود لحراسة شخصية مهمة، او المشاركة في مراسم حراسة او ما الى ذلك، فهم في واجب، ومشغولون، اما المار بهم فيراهم بدون عمل يمارسونه، ولكن مجرد وجودهم، وتأهبهم لأي طارىء هو انشغال لهم.

وهكذا فاهل الفرح مشغولون، ويجب ان ينجزوا الامور بسرعة، فيكون العشاء قد صدر مبكرا، ويأكل منه كل من حضر، حتى ولو قام عن وليمة قبل قليل، لأن المبدأ والهدف في ذلك ليس الشبع وملء البطن، وانما هو صورة من صور مشاركة الوافدين لأهل الفرح بفرحتهم، ونوع من التهنئة الصامتة بالاضافة الى الكلمات التي تقال، واما لغة الصمت في ذلك، فأهل الفرح يقدمون الطعام وكأنهم يقولون ها نحن قد بدأنا فرحتنا، فيقول الوافدون: مبروك، ولكن بدل ان يتصافح الطرفان بالايدي، يقدم الاول المنسف بديلا عن يده، والثاني يقدم يده ليأكل وهو بمثابة المصافحة، بل انها مصافحة من نوع اخر.

وبعد الانتهاء من الأكل يقولون: كثر خير المعازيب، (ان شاء الله الفرح دايم في بيوتكم)، (ودياركم عامرة ثامرة).

وأما التعبير غير المحسوس: فهو الشعور الذاتي الطبيعي الذي قد لا يفهمه الجميع، ولكن بالبحث والتقصي. تجد بصماته ظاهرة للعيان: انها مناسبة اخرى لجمع القوم، الذين سينشغلون بالفرح، وبالتالي قد يحدث اي شيء لا تحمد عقباه، كأن يغزوهم عدو، او يتعذر جلب العروس لتمنع اهلها، ويترتب على هذا استعمال العنف والقوة، كما ان العروس صيدة جميلة يحتاج الصياد لئن يطمئن الا تنظر اليها الاعين الاخرى لسلبها منها على مبدأ (للبرزة ولمن تقسم؟!)، وازاء كل هذا لابد من عهد جديد بين القوم ان يكونوا يدا واحدة مع العريس وأهله ليبلغ هدفه الذي يبتغيه، هذا العهد يتمثل في شرب القهوة، وفي اكل الطعام ولكنه عهد على مبدأ (فرض الكفاية اذا حضر واحد سد عن الاخرين)، بدليل ان البعض لا يأكلون لأنهم قد جاءوا بعد انتهاء الطعام، حينها يكتفي بتناول قطعة من الحلوى، وفنجان القهوة، او شربة ماء، ليسد مسد الطعام بالنسبة للعهد.

كما ان الطعام يعطي صورة اجتماع القوم معا.

هذا بالاضافة الى ان الذبيحة تعتبر (كفداء) او (اضحية) يقدمها القوم لوجه الله سبحانه في بداية مسيرة الحياة الجديدة، حياة العروسين، من اجل رضاء وسعادة، وتوفيق من الله، خاصة وان كل شيء مهم عند البدو يقدمون فيه اضحية، باعتبارها قربان الى الله ان يدرأ عنهم الشر، ويجلب اليهم الخير.

ولا ننسى ان تقديم الطعام هو نوع من الاكرام (للربع والعزوة) في مناسبة عزيزة على الجميع، بايجاد اسرة جديدة منتجة للرجال والفرسان في القبيلة.

وأما الوافدون: فعند سماع الخبر يلبون النداء، حسب ظروفهم، فمنهم من يتأخر، ومنهم من يذهب فورا، اما من هم من نفس الفريق او الحي فيسمون المسايير، ويقولون يالله نسير (بتشديد وكسر الياء) ويقول الشاعر البدوي (بتشديد الياء).

يا ابــو بشير وانــا باحلــم متحير
لــم الرفاقــة خ نسير واذبــح لي شاة تفداني

ويسمى هؤلاء مسايير، لأنهم يسيرون بسهولة الى حيث بيت المعازيب، كما انهم لا يغضبون اذا لم ينالوا طعاما او اكراما من المعازيب طالما ان الضيوف الحقيقيين قد اخذوا حقهم بالاكرام والطعام، فالمسايير يأتون بالدرجة الثانية بعد المعازيب وهم يسايرون الوضع، اي لا يؤاخذون المعازيب على التقصير تجاههم طالما احسنوا صنعا مع الضيوف ويقول الشاعر البدوي:

كم حايـل بالسيـف نرمـي شنقها ونطعـم لحمهـا للمسايـير وضيوف

ورغم ان الشاعر قدم المسايير على الضيوف، الا ان ذلك جاء مسايرة للقافية من جهة، كما انه مبالغة بالكرم انهم يقدمون الطعام بشكل كبير للمسايير كما يقدمونه للضيوف، وهذا منتهى الكرم لأن المسايير من الحي، والعزوة، واكرامهم واجب كاكرام الضيوف، لكن اكرام الضيف اولى لأنه ابعد قرابه ومكانا.

ومن الوافدين ايضا: السرى (بتسكين السين وتشديده)، وتطلق هذه على حالتين

الأولى: الوافدون من نفس الحي بحداء، وزمر (مفردها زمرة) وذلك عندما يجتمع شباب او رجال من الحي، ويبدأون مسيرة من مكان يبعد قليلا عن (بيت الفرح). ويرددون خلال المسيرة كلمات الحداء، حتى يصلون المكان المقصود، حيث يلاقيهم (اهل الفرح)، يرحبون بهم، لينخرط هؤلاء في السامر والرقصة، ومن اثر الجلوس يستطيع ان يفعل ذلك.

والثانية: ان يكون الوافدون من خارج الحي، حيث يتكرر المنظر نفسه. وبذلك نجد ان المبدأ في (السرى) انه من يأتي من خارج الحي، وفي العادة يطلق على كل من يأتي الى بيت الفرح على شكل زمر وهم يتحادون.

وقد يكون الوافد خيالا (راكبا) او راجلا فاذا كان خيالا فله الحق ان يعلف المعازيب راحلته.

ولا بد هنا ان نتساءل ما هو تصرف المعازيب تجاه ضيوفهم هؤلاء؟

وللجواب نقول: يقسم الضيوف هنا الى قسمين: الشيوخ والوجهاء، وهؤلاء يجب ان يأخذوا مكانهم في المجلس، فهم عمدته، ومركزه بالاضافة الى ذوي القدر من اهل الفرح.

واما القسم الثاني فهم بقية الناس، فهؤلاء يجلس من يجد منهم مكانا، بينما يستمر الاخرون في المشاركة في السامر (الرقصة - الصحجة او السحجة)، ومن لم يجد مكانا في الشق ولم يرقص فيجلس حيث يجد مكانا بطرف البيت، هنا وهناك، وبذلك نرى اهتمام البدوي في توسيع البيت، او الشق او الديوان ليتسع الى اكبر عدد ممكن من الوافدين.

واهل الفرح يجب ان يتحملوا جميع الاساءات، وان يتصرفوا بلطف وانسانية، وسعة صدر وعلى الوافدين الا يغضبوا اذا قصر المعازيب بشيء بسيط، ولكن السمعة سوء

اذا كان هذا التقصير كبيرا، ومن هنا نجد ان المعازيب يجندون كافة طاقاتهم لتفادي هذا الامر، حتى ان جميع افراد العائلة، واحيانا العشيرة والاقربين يعملون بكافة طاقاتهم لتقديم الخدمات اللازمة، تماما مثلما يكون في احدى الدول الحديثة انعقاد مؤتمر مهم ومفتوح يفد اليه من يرغب بدون دعوة، فنجد الدولة المضيفة تجند كافة الطاقات الممكنة والضرورية من اجل انجاح المؤتمر من جهة، والمحافظة على سمعتها، وتقديم الراحة والخدمات للوافدين من جهة اخرى...

والسرى يعبر عن تكاتف القوم اذا دعا الداعي، مهما كان نوعه، فالصديق يأتي للاطمئنان والمشاركة في الفرحة، والعدو يأتي ليرى ماذا عند عدوه، او يأتي للتخريب (واقصد بالعدو هنا – هم الحاسدون والكارهون ولو من نفس العشيرة)، لذا فان البدو يأخذون احتياطاتهم من اية عمليات تخريب، تماما مثلما تحرص اية دولة حديثة على اتخاذ كافة الاحتياطات الامنية في حالة انعقاد مؤتمر فيها، تفاديا لأية عملية تخريبية حتى ولو لم تحدث... فهم يفترضون ويتوقعون، وهم بذلك يفعلون مثلما يفعل البدو الذين يتوقعون التخريب حتى ولو لم يحدث، ويعبرون عن ذلك بقولهم (يخربط، او يخرب، او يعكر او يلوث "من لاث يلوث، اي لاث يلوث")، او يبرط (من برط يبرط، اي فرط، كفرط العقد، اي تناثره وتفريق جزئياته عن بعضها) فهذه الكلمات يعبر البدو فيها عن اية عملية تسيء الى نظام السحجة او الرقصة، او تعمل لفشلها... وسنتحدث بعد قليل عن وسائل تخريب الرقصة (ان شاء الله) عند البدو.

فالدعوة للفرح هي دعوة للتجمع، الذي هو تلبية لهذه الدعوة في مكان واحد، وفي الرقصة نفسها اكثر من تعبير: فهي ترويح عن النفس في ان يتصرف الجاهل والعاقل فلا ينتقده احد، فلو رقص واحد بدون سبب وفي غير الوقت المناسب لضحكوا منه، اما هنا فان هذا التصرف مقبول، ومسموح به حتى انه من حيث المبدأ يجب ان يشارك الجميع في ذلك، ولكن في العادة تكون هذه المشاركة باكثر من وجه وطريقة فتكون في الرقص، او مشاهدته مع الحضور الذي هو بحد ذاته مشاركة في التلبية والتجمع... كما ان الرقصة هي احدى الوسائل التي يقوم فيها البدوي بالتمثيل، حيث نجد التعبيرات المختلفة عن التقدم والهجوم، والاستسلام والحرب، سواء بالحركات ام بالكلام، ونجد الفرصة مواتية لأن تبين الفتاة (الحاشي) براعتها بالرقص، وتمثيل الدفاع عن نفسها وعرضها وشرفها، بينما يظهر الراقصون قدرتهم في مباغتتها للقبض والسيطرة عليها، كما تبين تكاتف القوم وانسجامهم معا، واختلاطهم من مختلف العائلات في عائلة واحدة وزمرة واحدة ولو الى حين، وهذا شكل من اشكال الوحدة القبلية في اطار واحد لتحقيق هدف معين، حيث يتصرفون تصرفا واحدا، او يقرون مثل هذا التصرف... كما انها بالنسبة للشباب تعبير عن حماسهم وجهلهم فيما يقره العاقلون... وهي بالنسبة لعلية القوم وذوي العقول الراجحة منهم مسرحية يشاهدونها، ويستمتعون بمشاهدتها، حتى تصل بهم درجة الاستمتاع هذه الى ان ينهضوا من مكانهم ويتركون رجاحتهم ويرقصون، ويحدون (من الحداء)، ويقصدون (من القصيد)، ولا يجوز حينها للجاهلين ان يخربوا على العاقلين

فرحتهم وان تصرفوا بين حين واخر تصرفات هزلية هي بحد ذاتها مكملة لهذه الرزانة.

وسائل تخريب الرقصة او السحجة:[1]

وتتم هذه ضمن طريقين وهما ما يلي:

الأول: **اما بوسائل التخريب التي سنتحدث عنها.**

والثاني، **اما من المعازيب انفسهم عندما تستدعي الحاجة ذلك...**

اما وسائل التخريب فهي متعددة ونذكر منها ما يخطر بالبال هذه اللحظة وهي:

النقيدة: (بتشديد القاف، وكسر النون وفتح الدال). فهي استعمال الحجارة الصغيرة (الحصى) بنقد القوم لبعضهم البعض، اي ان يقوم شخص او اشخاص بضرب مثل هذه (الحصاة) على اخرين مما يثيرهم، وقد يصل الامر الى الشتائم، والتشابك بالايدي، وربما المشاجرة، فتنتهي الرقصة، ويعود كل واحد الى بيته او يتحولون لمعالجة المشكلة، وذلك كي لا تستمر اسباب القضية وتتضاعف.

وكثيرا ما تحدث الاشكالات والتعقيدات، او يسيل دم شخص او يصاب بعينه او رأسه من حجر صغير فيؤذيه، وبالطبع فان حجم الحجر يتراوح ما بين حجم حبة الحمص، وحجم بيض الحمام، ويحاول (النقاد) الا يراه الاخرون، بل انه يتظاهر بهدوئه ورزانته، وانه بعيد عن كل هذا؟! كما انه في الغالب لا يكون من المعازيب، وانما من (المسايير)، او من (السرى).

وهذه العادة كما هو واضح معبرة عن المداعبة الخفية، وقدرة الشخص في اصابة الهدف دون ان يراه الاخرون او يعلموا بوجوده، كما انها ترويح عن النفس بالايذاء او الانتقام بما لا يضر، وقد يكون المقصود الاساسي فيها (خربطة الرقصة)، خاصة وانها تستعمل ضد الحضور الذكور، سواء منهم الاطفال ام الرجال.

القصيد: قد يقوم بعض القصادين (بتشديد الصاد) بالقول بما يسيء لبعض الحضور او غيرهم مما يعتبر اهانة لا يجوز السكوت عليها سواء من قبل المعنيين ام من قبل المعازيب الذين قد يتقدمون من القائلين، مطالبينهم بالكف عن هذا، او بالانصراف عن المكان، خوفا من العواقب السيئة، فيستاء الناس وقد يتوقفون، او يواصلون (نكاية بما حدث)... وكثيرا ما كان القصيد سببا في مشاجرات ومشاحنات في نفس السحجة.

وقد يكون في القصيد دعوة للثأر او العصبية او مدح لقوم على حساب اخرين، او الافتخار بامجاد امام من لا يعنيهم هذا ولا يحبونه.

الاسـاءة للحاشي: قد يتطاول البعض في الاساءة اليها بمسك ثوبها. او شدها، او محاولة مد يده اليها، او التصرف بما لا يليق او التلفظ بكلمات مشينة، وقد تضرب

---

١) يطلق البدو على الرقص الذي يؤدونه في الاعراس او في غيرها: (الرقصة) وهي لفظ مؤنث من رقص يرقص، ويقولون: السحجة - وهذه ماخوذة عن ضرب الكف بالكف والمسمى السحج حيث تتحول السين الى صاد في اللفظ احيانا. ويقال ايضا: السامر، من تسامر القوم اذا تبادلوا الحديث المفرح فيما بينهم، اما السامر هنا فهي المشاركة بحركات الرقص باشكالها المختلفة.

الحاشي من يسيء (تضربه بالخيزرانه او السلاح) حتى ان واحدة ذات مرة بترت عدة اصابع لشخص مد يده اليها محاولا مسها... وبالطبع قد يتضاعف الامر، ويتعذر حينها مواصلة السحجة، فهي السبب الاساسي في حدوث ذلك، ومن الافضل توقيفها وهذا بحد ذاته تخريب لها. والحاشي تمثل العرض والكرامة لأنها انثى، لذا فالاساءة اليها تعني الاساءة لعرض القوم وشرفهم.

التجمهر بدون الرقص: قد يتجمهر اناس من غير اهل الفرح، وبدون سبب دون ان يرقصوا بل ويمتنعون عن ذلك، كما انهم، يقفون بطريقة استفزازية... وهذا يثير البدو فيجري التنبيه عليهم بطريقة لطيفة ومهذبة بمعنى انه لا ضرورة للتجمهر، مع دعوتهم للمشاركة بالرقصة او الجلوس في اماكن معقولة ومقبولة... فاذا رفضوا نجد استعداد اهل الفرح بطريقة شبه سرية، يفهمونها فيما بينهم، ليقوموا بالدفاع او الردع في اية لحظة تستدعي ذلك... وان ايقاف الرقصة هو لقطع السبيل امام اي تصرف قد يستغله هؤلاء اثناء (تعمير الفرح) بما يؤدي الى سوء او مضاعفات، ان هذا التجمهر عندما يكون كبوادر للشر يمنع في مثل هذا الموقع تماما مثلما تمنع الدول الحديثة تجمهر اكثر من عدد معين في حالات معينة.

الكلمات البذيئة: سواء اكانت في القصيد او الكلام العادي، وسواء اكانت ضد اهل الفرح، ام ضد غيرهم.

تمزيق الرقصة الى اكثر من واحدة بقصد التفرقة: حينها لا يتوانى المعازيب اذا خافوا المضاعفات السيئة ان يوقفوا السحجة فورا حتى لا تتضاعف الامور من سيء الى اسوأ، وانما يقضي على الفتنة في عقر دارها سلفا... خاصة اذا كانت كل رقصة تمثل عشيرة معينة وهنا تحدث (المبازاة - اي التنافس) بينهما والتي قد لا تقف عند هذا الحد.

وبذلك نرى ان توقيف الرقصة نتيجة الاساءات هو عمل للحد من هذه الاساءات او توقيفها او القضاء عليها في عقر دارها. انه يمثل تدخل اي سلطة في اية حوادث انشقاق او عنف او اضطرابات (تدخل فوري) لأنهاء الامر ومعالجته بما يناسبه من لطف او عنف.

وأما تخريب الرقصة او ايقافها من قبل المعازيب انفسهم فهو عندما يجدون الاساءات قد تجاوزت حدودها، حينها يصبح من حقهم ايقافها تجنبا لأي مضاعفات اخرى.

بدء تكوين الرقصـــة:

وبالامكان الان ان نتصور حشودا عسكرية تتجمع بناء على نداء، في مكان واحد للقيام بعمليات موحدة، كمعارك او مناورات، او لنقل كيف يمكن ان نتصور وفودا مختلفة جاءت من شتى الاماكن للاجتماع في مكان واحد والتباحث في امر واحد.... كما يمكن تصور توافد ضيوف الى قصعة طعام، ولكن تناول هذا الطعام، او هذه المباحثات او

العمليات العسكرية، تتحول هنا الى لعبة رياضية معينة. وهي الرقص بانواعه المختلفة، وكما تصدر الاوامر للبدء في المعركة بعد التجمع، والدعوة للطعام بعد تجهيزه، وحضور القوم، واعلان بدء المباحثات بعد حضور الاطراف المعنية. فان الرقصة تتم على نفس النمط اذ يبدأ بعض المعازيب او من ينوب عنهم بالدعوة الى (السحجة - الرقصة) تماما كما يدعو هؤلاء المعازيب ضيوفهم لتناول الطعام بعد تجهيزه.... ويقف امام الشق (حيث تتم الرقصة عادة ببضع رجال من المعازيب بجانب بعضهم البعض، وهم يتمايلون بنشاط او ببطء او فيما بين هذين الوضعين وهذه الحركات بحد ذاتها هي دعوة اخرى لبدء التنفيذ، حيث انهم عندما يتحركون للتنفيذ يتنادون كما يتنادون للحركة الى غزوة، او للطعام او للنخوة، او ما الى ذلك، لأن الرقصة تعبير عن محتويات هامة الامور جميعها... واذا عرفنا ان المعازيب عندما يضعون المناسف (الطعام) يدعون ضيوفهم حتى يصطفون، فانهم يدعون الى البدء بتناوله بعد ان يصطف القوم حول المنسف او القصعة، فان الامر مشابه لذلك في الرقصة ايضا[1] اذ ان وقوف زمرة من المعازيب يشجع الباقين للانخراط في هذا العمل، الذي يحتاج في البداية الى تمهيد من المعازيب لما فيه من الخروج عن الطور المعتاد للناس، والتحول الى طور يسمونه (الجهل) حتى انهم وهم يرقصون يقولون (اجهل) ويكررونها، وذلك تبريرا لعملهم انه ليس للعاقلين وانما هو للجاهلين، ولا مانع من ان يتحول العقال الى جهل ويمارس جهالته عندما يفعل الجميع ذلك، وعندما يصبح الشذوذ عنهم شيئا غير مألوف وعلى مبدأ (اذا انجنوا ربعك عقلك ما ينفعك).

وتبدأ الرقصة بحركات بطيئة حتى يتكامل عدد مناسب لا يقل عن عشرة رجال، ثم تبدأ الحركة السريعة للجسم، مع حركة اليدين والرأس، واللفظ حيث يلفظون (ادحي - بتشديد الدال واضافة ياء او هاء بعد الحاء غالبا) ويستمرون في ذلك مدة تطول او تقصر حسب رغبة قائد الرقصة وهو (القاصودة - او القصاد بتشديد الصاد)، او (البداع - اي الذي يبتدع الكلام ويقوله).

ونجد في الحركة السريعة هذه تعبيرا عن الحماس وجمع القوم حتى يسمونها (الشوشة - بتشديد الشين الاولى وضمها) ويقولون (شاشت - اي تحمست وعظمت)، وهي شبيهة بالتحام المعركة عندما يختلط الحابل بالنابل ويعمل كل من عنده جاهدا، كما انها تعبر عن التعب الذي يلاقيه الانسان، والجهد الذي يبذله في طريقه للوصول الى الهدف والحصول عليه...

وبعد هذا الجهد والتعب لا بد **من الاستراحة والراحة**، فيكون الرقص شبه البطيء،

---

[1]) يتنادون للمشاركة في الرقصة بقولهم: النشامى وين راحوا، يا الله هابين الريح... وهذا شبيه بالنداءات التي يتلفظون بها عند الغزو، او رد الغزو، او اي معركة وقد ياخذ شخص بيد اخر يدعوه للمشاركة او يناديه باسمه، او (اخو فلانه) او (راعي كذا - النخوة التي تخصه) وربما يخجل البعض فيقوده اخر او يمارس هذا المشجع عملية الرقص، ذلك ان البدء فيه شيء من الحياء لانه خروج الشخص عن طوره المالوف الى طور اخر، وهذا لا يتاتى الا بدعوة من المعازيب، اصحاب العلاقة وببدء منهم، علاوة على ضرورة التيمن بالامر في ان البدء منهم واليهم يجعلهم يتفاءلون خيرا.

وهم يرددون (هي دحي - بتشديد الحاء)، وهذه اخذ للنفس... وفيها يكون القوم منتصبي القامة بينما في الأولى يكون الانحناء قليلا والنظر الى الامام بزاوية منحدرة نحو الاسفل، واحيانا ذات اليمين وذات الشمال، واما في الثانية فالنظر للأمام، واحيانا ذات اليمين وذات الشمال... واما النظر للاسفل فمغزاه ان الشخص اذا صمم على تحقيق الهدف اغمض عينيه عن الخوف والصعاب وتقدم غير هياب مهما كانت النتيجة، اما النظر ذات اليمين والشمال، فهي شبيهة بتأكد الشخص من الجو المحيط قبل ان يمارس عملا ما، بالاضافة الى تفقد القوم من حوله، ومدى انسجام الزمرة معا، في هذه العملية الجماعية المشتركة... انها رياضة جيدة لسائر اعضاء الجسم، بما فيها الجذع والظهر والرجلين واليدين واللسان.

ثم يأتي النمط الثالث وهو **الرقص البطيء**: وذلك اثناء القول (اي عندما يبرز القاصود او البداع) فهذا يريح القوم وكأنه يتلو قرارات او ينادي كل باسمه، والجميع سكوت من حوله، كل بانتظار دوره، وعادة ينظم للقاصود شخص اخر ولا يزيد العدد عن اثنين، فالمبدأ هو ان يكون شخصا واحدا لأنها عملية قيادية. ولا يجوز ان يكون اكثر من قائد في وقت ومكان واحد، وفي العادة يعاونه شخص او اثنان كما يعاون القائد مستشارون يبلغ عددهم واحد او اثنان، واما من يرد على القاصود فيكون واحد (اذا كان القاصود واحدا) لان الامر شبيه بمبارزة حربية تعتمد على التكافؤ والتماثل. وفي العادة يكون عدد من يرد اكثر من واحد (ربما اثنان، وربما ثلاثة) او نصف عدد الاشخاص الذين في الرقصة... والرد اما ان **يقتصر القول فيه على كلمات معينة (مثل هلا، هلابي هالا** = لا يا حنيفي يا ولد).

او تكون قصيدا مقابل قصيد، وقولا مقابل قول وفي هذه الحالة الاخيرة لا بد من ان يكون الرد من حيث المبدأ مشابها لما يقال في القصيد، حتى ان البدو يقولون (يقصد ويرد) وهذا مثل يضربونه للشخص الذي لا يناقض نفسه في الكلام فهو يقول او يسأل ثم يجاوب نفسه، ويقال ايضا لمن لا يجد من يرد عليه فيقصد ويرد على نفسه لقلة من يرد عليه وهذا تعبير عمن لا يجد من ينسجم معه ولا يجد من يأخذ كلامه بعين الاعتبار...

والقصيد مهم جدا فهو يبين قوة القائل، ومقدرته على الحفظ اذا كان الشعر لغيره، ويبين قدرته وذكائه، ومدى تفاعله مع الاحداث اذا كان القول من عنده وهذا يسمى (البداع) لأنه من حيث المبدأ يجب على من يقول القصيد في الرقصة ان ينظمه من بنات افكاره، لذلك سمي (البداع)، ولكن في العادة هناك من له قدرة الحفظ وعاجز عن الابداع فيسمى (القاصود او القاصودة)، اي الذي يقول القصيد (الشعر البدوي في الرقصة)... ولكن البدو احيانا يخلطون بين هاتين الكلمتين، فمنهم من يقول (البداع، ومنهم من يقول القاصود)، ويعنون بالاولى مدحه وقدرته على الابداع، وفي الثانية قدرته على قول القصيد سواء اكان من عنده ام من عند غيره..

وفي العادة ايضا... قد تنقسم الرقصة الى قسمين: قسم يقول القصيد، واخر يرد عليه، وهذا في حالات ترديد شعر محفوظ ومعروف لدى الجميع، ويكون لكل قسم

قائد يلفظ الكلمة الأولى فيلفظ معه فريقه الكلمات الباقية... وهذا النوع تعبير عن حرب متكافئة بين طرفين متساويين بالعدد، وكل يحاول التفوق على الاخر، والتغلب عليه.

(وأما موقع البداع) - فيكون في منتصف الرقصة، بينما يحيط به الاخرون، فعلى يمينه او يساره يقف من يرد عليه، ومن حيث المبدأ لا يفصلهما وجود شخص اخر، وفي العادة ان يفصل بينهما شخص او شخصان في بداية القول، حيث يترتب انسحابه او انسحابهما ليتجاور الطرفان مباشرة فالمعركة بينهما سجال ولا ضرورة لوجود حاجز بينهما اطلاقا، وبقية القوم متفرجون او مشاركون.

واذا ما تعب القاصود: طلب من يريحه متحججا بضعف صوته، وليس بضعف مقدرته، فينتخي بشخص معين ان يتسلم مكانه، وياخذ الراية فيقول:

يـــا خـــوي وانـــت يا فـــلان يـــا حســـي بايـق بـي

وهنا يحضر ذاك فورا اذا كان خارج الرقصة، او يغير موقعه الى جانب البداع اذا كان داخل الرقصة: فيقول كجواب على زميله واستعداده لتلبية النجدة، يقول له ان يرتاح ليقوم هذا بالمهمة.

واقعـد تريـح يا البـداع دير المحـامـل علـي

وهنا يواصل البداع الجديد القيادة، بينما يستمر ذاك بالرقص او يذهب للجلوس والراحة، والعملية كما نرى اشبه ما تكون بساحة حربية، يتسلم فيها قائد راية القوم، فاذا شعر بالارهاق وخاف على الراية نادى شخصا او عينه خليفة له، لما يرى فيه من المقدرة على مواصلة حملها (الراية) بينما يخلد ذاك الى الراحة او يواصل حربه كجندي من الجنود. وهذه نقطة جميلة تعبر عن مدى، اعتراف البدوي بقدرات الاخرين، وعدم وضع نفسه في غير مكانه، وانه ينسحب من الموقع عندما يعجز عن المحافظة عليه بينما يوجد من صفوف القوم من هو اقدر على استمرارية المحافظة عليه.

ويحق للقاصود ان ينتهي من الرقص البطيء في اي وقت يشاء لكن لا بد من التغيير الى السريع، وله ان يطيله الى ان ينتهي من قصيدته، وعلى بقية الرقصة الالتزام بقيادة البداع، او القصاد (بتشديد الصاد)، وخلال ذلك تحدث امور اخرى داخل الرقصة ذاتها، فهناك جانب اخر منهم يرقص بحركات مختلفة هي: الخزع (بتسكين اللام والعين، وفتح الخاء، وكسر الزين أو تسكينها)، ومراقصة الحاشي.

واما الخزع فهو الرقص البطيء ولكن مع ثني الركبتين والجذع وبسرعة وضرب الكف بحركة متناسبة مع حركة الجذع والرجلين، وتمايل الرأس، ولكن بسرعة خاطفة ولكنها ليست متواصلة، ويرافق هذا لفظ (ادحي بتشديد الدال والحاء، واضافة الهاء باللفظ احيانا)...

واحيانا يكون الخزع مع ضربات سريعة متتالية بالكف تصل الى ثلاثة او خمسة ثم تتلوها ضربة بطيئة ثم ضربات سريعة، وهكذا، وخلال ذلك يقولون (اخزع، اجهل ابو الحوش) اي الفتاة التي ترقص امامه، وتعتبر هذه الحركات متممة للهدوء في الجانب الاخر في الرقصة، وهي تحميس للراقصين وخروجهم عن صمتهم خاصة الذين لا يقولون

مع البداع، ولا مع (الرداد)، اي من يرد عليه كما انه جذب للمشاهدين، وتحميس (للحاشي) الذي عليه ان يرقص بحركات سريعة، تمشيا مع الراقصين... ويزاول هذه عادة الشباب المتدفق حماسا والذي لا يهدأ له بال حيال البطء الذي يمتاز به الرقص مع القصيد...

واما مراقصة الحاشي: فهي اما اثناء الرقص البطيء او السريع... فاما اثناء البطيء ففي الوقت الذي ينظم البداع قصيدته، فان هؤلاء الشباب المتحمس، يتأهبون لمراقصة الحاشي بعد ان ينبهوه الى ذلك بقولهم: ابو الحوش... وهو بمحاذاتهم فيتقدمون خطوة ويتأخر هو خطوة، ثم يتأخرون اخرى، فيتقدم هو مقابل ذلك، وهكذا كلما تقدموا نحوه انسحب وكلما تأخروا تقدم، وتنتهي هذه العملية بان تمتد يد احد الراقصين او اكثر من واحد نحو الحاشي ليمسكوا بطرف ثوبها، فتهرب منهم، او تضربهم بالخيزرانة... ثم يعودون للخزع، بينما يتأهب الطرف الثاني للرقصة لمراقصتها، وهي مضطرة لئن تفعل ذلك (وتتجاوب معهم).

وبذلك نرى ان الحاشي يمثل قلعة معادية، والراقصون يمثلون جيشا للهجوم عليه، فتتقدم الموجات تلو الموجات، بينما تصد هذه القلعة بجنودها، اولئك الغزاة فيندحرون ثانية حتى يخرجوا عن مدى الدفاع، ثم يعودون ثانية وهكذا الى ان تنتهي المعركة بدخولهم القلعة او استعصاءها عليهم فيعودون من حيث جاءوا، بالاضافة الى انها تدريب للفتاة ان تكون دائما حذرة وحريصة على نفسها وعرضها من الرجال خاصة الجاهلين منهم، وعليها ان تتعلم وتتدرب كيف تدافع عن نفسها وعرضها... واما العصا او السيف التي في يدها فسلاح للدفاع، ولها الحق ان تضرب الايدي المعتدية، وكنت اشهد كثيرا من هذا الضرب، فيقولون احيانا (ضرب الحبيب زبيب) ولكن بدون ان يسمعه الاخرون لأن ذلك سيؤدي الى طلب الحق بوصف الفتاة (وربما تكون متزوجة او خاطبة) بانها حبيبة، واذا قطعت فتاة إصبع (راقص) مد يده، فليس له حق المطالبة[1] وروى لي بدوي عجوز ان من كان ينال خيزرانة من الحاشي محظوظ، ويقول: (يا ويلي ما احلى ضربه) ويقولون (ضربه مسكرة (بتشديد الكاف) اي ضربة حلوة وجميلة).

وهناك مراقصة للحاشي اثناء الرقص السريع ايضا: ويقوم على نفس الاسس السابقة. كما ان الراقصين يلجأون للمحاصرة، وذلك بتطويق الحاشي، والتقدم نحوها ببطء بينما هي تتأخر للخلف، وعندما تشعر بتضييق الخناق عليها تستعمل السيف او الخيزرانه (العصا) وتضرب الراقصين على اصابعهم لتعيدهم الى مواقعهم السابقة، وهذا يحتاج الى مهارة وقوة ومراس. وهذا تعبير عن اية خطة حربية في الزحف البطيء نحو الهدف. لتتم محاصرته ثم السيطرة عليه، وعلى اهل الهدف والقلعة ان يدافعوا عن انفسهم بمهارة وشجاعة، وذلك ما تعبر عنه هذه الفتاة الحاشي... ولنفرض انها ظلت تتراجع، فانها عندما تدخل داخل البيت فعلى المهاجمين التراجع الى مواقعهم السابقة.

---

١) فالامر شبيه بمعركة يخوضها طرفان كل واحد يتحدى الاخر وليس من حق ايهما مطالبة الاخر بالخسارة لان احدا منهما لم يترك من جهده شيئا للنيل من الاخر، وكان احدهما اذكى واسرع فتغلب وانتصر.

وهذا يدل على احترام القوم لحرمة البيت، وان دخول المدافعين فيه يعني الضعف وطلب الحماية. وبذلك يعمل المهاجمون بمبدأ (العفو عند المقدرة). بالاضافة الى ان ذلك تعبير عن استسلام الحاشي، وتبيان ضعفها امام هذه القوة فلجأت الى غيرها تستنجد، وازاء هذه النجدة القوية الكبيرة (والتي تعبر عنها بدخولها البيت) يضطر المهاجمون الى العودة لتقييم امورهم الحربية ثانية فعدوهم او هدفهم لم يعد وحده وانما يقف الى جانبه اخرون... ان كل هذا تعبير عن هذه الافكار، بشكل متواضع وبسيط، انها لغة الصمت التعبيرية عند البدو.

والسؤال الان هل يمكن ان تكون اكثر من رقصة واكثر من حاشي معا؟!

والجواب على الحالتين: نعم وسنذكر التفصيل باذن الله كما يلي:

فقد يكون في الفرح الواحد رقصة ضخمة، او رقصتان ضخمتان واحدة امام البيت وهي الاساسية (والمبدأ) واخرى خلفه (عادة)، وتكون هذه الضخمامة وهذا التعدد لاسباب اهمها:

عندما يزداد عدد الحضور بحيث لا يتسع لهم المكان جميعا امام البيت، وعندما تمتلىء الساحة في الوقت الذي لا يزال هناك العديد من الشباب والرجال ممن يرغبون الرقصة، ومشاركة الفرحة حينها يؤلفون رقصة خلف البيت، وهذا قمة القوة والكثرة في عدد الحضور.

واما السبب الاخر فهو عندما يستاء البعض من غيرهم في الرقصة الاولى فانهم ينشقون عنهم ويشكلون رقصة مستقلة خاصة بهم، في مكان اخر، ليأخذوا حريتهم بعيدا عن النكد، كما يشكلون مصدر نكد لاولئك الاولين الذين لم يكونوا موضع رغبة من الانفصاليين، وهذا اشبه ما يكون بانشقاق جزء من حزب سياسي، ليشكل حزبا جديدا مقابلا للحزب الاول، ولكن الاصل يبقى مكانه بينما، المنشق يأخذ مكانا جديدا، محاولا جهده ان يبارز، ويضاهي ليتغلب على خصمه وربما ليحل محله.

وسبب اخر عندما يريد شخص ان يتزعم جماعته برقصة منفصلة سواء لقي عنتا من اولئك ام لم يجد، ألف ومن معه رقصة مستقلة.

وعند حدوث الرقصتين تبدأ المبارزة بينهما، بالقدرة على الصمود، بالشعر او بلفت انظار الجالسين والفتيات، وكأنهما قنالان تبث كل منهما برنامجا تنافس فيه القنال الاخرى لاستقطاب جمهورها... وتخرج لكل رقصة حاشي او اكثر...ولكن اذا فشلت احدى الرقصتين ونقصت وتلاشت عليها ان تنضم للقوية، (على مبدأ البقاء للاصلح)، ومبدأ (الذي يصلح يصلح والذي لا يصلح تركه اصلح)... فاذا تلاشت الرقصة التي امام البيت فانه بعد قليل يجب ان تسلم مواقعها للرقصة التي كانت خلف البيت، فالامر اشبه بحرب بين جبهتين، اذا انهارت احداهما استسلمت للمنتصرة، واعطتها مواقعها، ولكن اذا فشلت الرقصة الثانية (التي خلف البيت فان فلولها ينضمون الى الرقصة الاصيلة فهم اشبه بالفارين من ساحة المعركة ثم يثوبون الى رشدهم وينضمون الى الصفوف ثانية. ويكفيهم العقاب الاجتماعي، وهو فضيحتهم وضحك الناس عليهم...

واذا حدثت الرقصتان فيجب رفع الرواق (وهو الساتر الخلفي للبيت) فيكون مفتوح الوجهين احتراما للجميع، وتقبلا من المعازيب لكل الضيوف طالما انهم يتصرفون وفق المبادىء والعادات والاعراف، ولزيادة التنافس بين الطرفين، وعلى مرأى من بعضهما، ومرأى من الجالسين من ذكور واناث في الشق، والمحرم.

وطالما انه توجد رقصتان، فلهما الحقوق كاملة، (كل يأخذ حسبما يستحق) فالرقصة التي تستحق (حاشي) واحد يخرج لها (حاشي) والتي تستحق اثنتين تخرج لها اثنتان، وهكذا دواليك، ولا يحق للمعازيب ان يتحيزوا مع طرف ضد الاخر. فالجميع جاءوا للمشاركة في الفرحة. ويجب الا يحرموا من ذلك ابدا طالما أنهم يتصرفون ضمن الأصول، كما ان المعازيب يهمهم بالدرجة الاولى ان تسير امورهم بالفرح على ما يرام، وان تستقطب اكبر عدد ممكن من الناس، وان يكون الجميع راضياً ومرتاحاً، وان تكون النتيجة هي السمعة الحسنة الطيبة.

واذا اشتد ساعد الرقصتين، بدأ كل طرف يرقص ويقصد من عنده وقد يستمر ذلك حتى الفجر، حتى يستسلم طرف للاخر ويعترف بضعفه وعجزه وهزيمته، وتنتهي (بلا غالب ولا مغلوب)، وانما برأي (الاجاويد) حيث يتدخل العاقلون عندما يرون استمرار قوة الطرفين، او استمرار ضعفهما او قوة طرف وضعف طرف قد يؤدي الى مشاحنات وسوء تفاهم ومهاترات... حينها على العاقلين التدخل بالأمر، فيقولون:) (الله يعطيكم العافية، وحدوا الله واختموها بالصلاة على النبي)، عند ذلك يجب انهاء الموضوع، لأن الله ورسوله اعظم جاهة في نفس البدوي من اي جاهة اخرى... حينئذ ينصرف القوم لا غالب ولا مغلوب... ويكون الكاسب هو صاحب الفرح لأن هذا مصدر عظيم لجلب السرور الى قلبه ان يؤم فرحه هذا العدد الهائل من الناس. ونرى ان الرقصتين اشبه ما تكونان بجبهتين حربيتين تتقدمان نحو هدف معين وكل منهما يحاول احتلال الهدف من جهة، وتدمير الجبهة الاخرى المعادية من جهة اخرى، وعندما تطول الامور يتدخل الوسطاء كما يحدث في الدول الحديثة عندما تتوسط دولة ذات شأن واحترام لدى الطرفين المتنازعين، لأنهاء ما بينهما من خلاف.... ان الصورتين متشابهتان، ولكن الاولى بسيطة، ونتيجتها مضمونة، اي ان البدو يحترمون ويطيعون بعضهم، واما الثانية فهي معقدة وغير مضمونة النتيجة، ونحن نرى على صعيد الواقع العملي في السياسة العالمية فشل الوساطات بين طرفين متخاصمين.

واما وجود اكثر من (حاشي) في الرقصة الواحدة: فهو جائز وتدعو الحاجة اليه عندما تتسع الرقصة وتقوى وتشتد، ونجد قسما يرقص رقصة سريعة، واخر يرقص رقصة بطيئة (قصيد) واخر ما بين ذلك، اي ان الرقصة الواحدة تتألف من ثلاث رقصات جزئية، او لنقل ان الراقصين باكملهم يمارسون الرقصة بكافة اجزائها فقسم يقصد (رقصة بطيئة) واخر يخزع (بطيء سريع) واخر يرقص دحية (رقص سريع) واحيانا يكون لكل لون من هذه الالوان (حاشي) اذا كان عددهم كافيا، واحيانا (حاشيان للرقصة كاملة)، وكلما اصبحت الحاشي بمحاذاة اي قسم فعليها ان تقلد حركتهم او يقلدونها (اي

ان المهم هو التشابه والتماثل بين الطرفين)، وبالطبع فان وجود الحاشي يحمس الرجال، ويزيد من رغبتهم في مواصلة الرقص والفرحة... فالرجل بطبعه يتحمس لوجود المرأة بجانبه، فكيف اذا كانت تشاركه فرحته، ورقصته، وحركاته، فهذا انسجام يبحث عنه الرجل، بالاضافة الى ان كل واحد من الراقصين يحاول لفت نظر (الحاشي) اذا كانت انثى، خاصة اذا كانت لا تزال فتاة.

واما سلاح الحاشي: فهو السيف او العصاة، او الشبرية (في اليد اليمين)، بينما تحمل منديلا (محرمة) في يدها اليسرى... واذا كان السلاح في اليمين يمثل القوة والدفاع والتحذير، فان المنديل يمثل اللين والسلام والضعف، والرقة واللطف، فاذا لم تنفع هذه الاساليب الانسانية، وحاول الراقص الاعتداء فالسيف جاهز، والمبدأ في السلاح هو (السيف) وفي العادة تحمل الحاشي (الشبرية، والعصا، واحيانا بدون ذلك، وانما محرمة فقط)... ونحن نجد في عالم الفن الحديث كيف يمسك المغني او المغنية بمحرمة في اليد، للتلويح او تجفيف العرق، او للتمزيق عند شدة الانفعال مع الغناء والكلمات.

وعندما عرف البدو السلاح الناري، استعملوه في (التحوشي) فالرجل اذا كان (حاشي) فله ان (يحوشي) وبيده مسدس، او بندقية، ونحن نجد في الدول العصرية، وفي عالم الحروب الحديثة والقديمة كيف يرقص المحاربون وهم يلوحون باسلحتهم، لأنها تشاركهم النشوة، وكانت وسيلة للوصول الى هذا النصر، وهذه النشوة.

فالتحوشي بالسلاح: يعبر عن ضرورة الدفاع بالسلاح عند هجوم عدو، وان السلاح هو الرفيق الامين الذي لا يخون الا اذا خان او جبن صاحبه... وبالتالي فهو موضع اعتزاز وتفاخر، بالاضافة الى انه تلويح للمعتدي فيما لو سولت له نفسه بالعدوان، فالسلاح جاهز للحرب رغم ان القوم في غمرة نشوتهم، كما انه تحذير للمعازيب والراقصين كي لا ينسوا السلاح حتى ولو مارسوا مهمة غير مهمة الحرب، بان رقصوا او غنوا، لأن حاجتهم للسلاح مستمرة، بينما حاجتهم للفرح ذات ظروف ومناسبات، ولكنها ليست مستمرة ودائمة على الاطلاق.

كما ان اللعب بالسلاح يبين مدى قدرة تحويل هذه الاداة الجرمية الخطيرة القاتلة للعدو الى اداة دفاع، ووسيلة سلمية تجاه (الربع) اي (العزوة والعصبة).

ولا شك ان نوعية السلاح تدل على حالة الامان، وتطور المفاهيم، فعندما كان الناس في الحروب والغزوات كان (السيف) هو سلاح الحاشي، بينما تحول ذلك الى شبرية (وهي شبيهة بالسكين يلبسها البدوي على حزامه) وتسمى (جنبية) لأنها توضع على الجنب اليمين. ثم الى خيزرانة، ثم الى عصاة عادية ثم بدون ذلك اطلاقا، حيث ان مد اليدين نحو (الحاشي) اصبح الان اقل شيوعا مما كان عليه من قبل... ذلك ان الانسان اصبح في امن وطمأنينة من ناحية الغزوات والاعتداءات اكثر مما كان عليه الامر من قبل، اي ان مبدأ الامن والحماية، والدفاع والهجوم قد تغيرت مفاهيمه.

وأما انواع الحاشي: فاما ان يكون رجلا ظاهرا، او رجلا متخفيا، او انثى سافرة

او انثى محجبة، او انثى ترتدي لباس الرجال: او رجل وانثى، او رجلان (الدرج – لعبة السيف) والتحوشي يبدأ به الرجل ليحمس الراقصين، حيث يشاركهم ذلك امامهم، حتى تتأهب الفتاة التي ستخرج، حيث ترتدي لباسا خاصا، وهذا يحتاج الى وقت، ولا يجوز البدء به الا بعد التأكد من بدء الرقصة، اي انه تابع للرقصة ومترتب عليها، فلا حاشي بدون رقصة، ولكن يمكن ان تكون رقصة بدون حاشي، لأن الاصل هو الرقصة، والتابع هو الحاشي...

ويقوم الرجل بدور الحاشي ويكون من احد الحضور، او احد الراقصين، وقد ينضم اليه (حاشي) اخر (ذكر)، وهنا عليهما ان يقوما بمهمتين الاولى (التحوشي) امام الراقصين والمشاهدين، والمهمة الثانية (المبارزة) فيما بينهما بما يسمى (الدرج) (وهو رقص بدوي خاص ورائع) والذي لا يملك من يراه الا ان يعشقه، ويطيل النظر اليه رغم ما فيه من ارهاق للمتبارزين ولا يجوز ان يكون اكثر من اثنين، وكل منهما خصم للاخر..

ويبدأ الدرج بان ينزل رجل اخر للساحة للتحوشي مع الرجل الاول، وهذا يعبر عن التحدي في الميدان حيث يتحول الراقصون والحضور الى متفرجين، وكل واحد من المتبارزين يحاول جهده التغلب على الاخر، وفي يمين كل منهم سيف او شبرية او عصاة، او مسدس او بندقية، ويمسك بيده اليسرى بالطرف الاخر لهذه الاداة تارة، بينما يتركها حرة الحركة بيده اليمنى في غالبية الاوقات تارة اخرى...

وفي المرحلة الثانية بعد نزول الخصم، يبدأ التحدي من احد الطرفين حيث يتجه للاخر، ويترك الاخرين، وهذا في لغة الصمت عند البدو يعني رغبة هذا ببدء المبارزة، فيدور كل واحد حول الاخر، بحركات سريعة مع ثني الركبتين والجذع بما يشبه مسيره الشخص الاعرج بينما يحرك العباءة التي يساعده الهواء في فتحها مما يشكل مظلة واقية له من الخلف، ومنظرا جميلا كمنظر الطاووس عندما يتباهى بنفسه، حتى اذا ما اصبح كل واحد قبالة الاخر بحيث يشكلان خطا موازيا لطول الرقصة، او لنقل يكون احدهما عند طرف الرجال الراقصين والاخر عند الطرف المقابل... حينها تتحول حركة الدرج الى الدفاع والهجوم فيما يسمى (المراقصة) اي يتقدم احدهما خطوتان ويتأخر ذاك بالمقابل خطوتان ثم تتبدل الامور فيتقدم كل منهما نحو الاخر خطوتين، حتى يكادا يصطدمان، اي ان العملية الاولى تمثل المناورة والدفاع والهجوم، والانسحاب والتقدم، بينما العملية الثانية تمثل المجابهة والالتحام، عندما يندفع العدو نحو الهدف حتى يصطدم به، ثم يتراجع ليعود بقوة اندفاع جديدة نحو هدفه، والامر نفسه نجده في مقاتلة الكباش (مفردها كبش وهو ذكر النعاج) حيث يتأخر كل منهما مسافة ثم يهجم على الاخر بشدة وقوة محاولا القضاء على خصمه، واثناء هاتين العمليتين الأولى والثانية، وعند نقطة تقاربهما او باللغة العسكرية (لغة التحامهما.. يمسك كل منهما السيف بكلتا يديه (اذ يكون نصله باليد اليمنى وراسه باليد اليسري) وكأنه بذلك يشكل درعا واقيا عن نفسه ضد هجمات الاخرين وبعد ان يستمر هذا التلاحم، وهذا التراجع والتقدم قليلا ينقلب الموقف الى اسلوب اخر، وهو ان يصبح الطرفان جبهة واحدة فيتقدمان ثلاث خطوات

معا، وفي الرابعة يغيران الاتجاه بسرعة نحو الخلف، مع انحناء الظهر الى الوراء والسيف (او العصا) بكلتا اليدين (كل منهما تمسك بطرف) وكأنهما بذلك يشكلان جبهة واحدة ضد عدو مشترك، واذا تعب احدهما جاز للاخر المتغلب المتفوق ان يمرر السيف او العصا من فوق رأسه كدليل على تغلبه عليه، وعلى استسلام ذاك، وقدرة الغالب ان يقضي عليه لكنه يعفو عنه ويعتقه لوجه الله.

واثناء ذلك يكون التمايل بشكل لطيف فعلا... بينما هما ملثمان كدليل على الجدية، والاهتمام بالامر. وينسحب المغلوب وهو يبتسم بروح رياضية. بينما يستمر الغالب في التحوشي كاثبات لتغلبه على خصمه، وانه لم يبق في الميدان الا هو واثناء (الدرج - او المراقصة - او لعبة السيف) لا يجوز للحاشي الانثى الدخول الى المكان ولكن يجوز لها التحوشي في طرف اخر من الرقصة اذا كانت ضخمة وكبيرة واذا كان موقعها خارج مجال الدرج بين الرجلين واحيانا يتبادل المتبارزان الضرب بالسيوف بشكل وهمي، فيضرب هذا، ويتلقى ذاك، وهكذا يتبادلان الامر بلعبة خفيفة لطيفة لكنها خطيرة، وتعول الناس اهمية كبيرة عليها. والدرج[1] مهم وصعب الاتقان حتى انه يوجد اناس مشهورون بهذه اللعبة الشبيهة بمسرحية وتمثيلية لا يستطيع اي انسان ان يمثل فيها حتى ولو اخذ دورا للتمثيل... ويجب تحريك العباءة اثناء المراقصة بل انه في الاصل (المبدأ) يجب ان يكون الراقص مرتديا عباءته، وكامل عدته وسلاحه، لأن العباءة تعبر عن درع الحرب، بينما الاسلحة هي وسائل الدفاع، او الهجوم على العدو... فبالاضافة الى ان العباءة تعطي منظرا جميلا للراقص اثناء تحريكها في الهواء فهي تشكل تحد للخصم في ان يفتح له هذا ثغرات يدخل منها، بينما بمهارته وقدرته يستطيع تفويت الفرصة عليه، فلا يستطيع الوصول الى هدفه.

وبذلك نرى ان الدرج يعبر عن معركة وما فيها من استعدادات، واحتلال شخص لارض فيتصدى له اخر محتجا على هذا الاحتلال ويبارزه، مبتدئا بالمناورة، ليرى كل منهما قوة الاخر ونقاط ضعفه، ثم تبدأ المعركة المتحركة (نار وحركة) يتقدم هذا وينسحب ذاك امامه، ثم ينسحب هذا ويلحقه ذاك، حتى اذا ما بقي كل منهما في أوج قوته، ولم يستسلم او يتحطم، تحول الطرفان الى (فرق انتحارية) وتحول لقاؤهما الى (التحام) كما هو الامر في حروب الشوارع، والسلاح الابيض، وعمليات التطهير العسكرية واثناء الهجوم يكون جزءا للدفاع وهو عمل السيف فوق الراس ليتلقى ضربة سيف الخصم.

وحيث ان الطرفين اخوة، فانهما يثوبان الى رشدهما فيندمان على ما فعلا، ويدرجان معا، اي يحاربان معا ضد اعداء الجبهتين الداخلية والخارجية، وحينها يعترف البدوي الضعيف بضعفه، وقوة خصمه، فينسحب مؤمنا ان البقاء للأصلح والاقوى، قبل ان يؤمن (دارون) بذلك بمئات السنين!؟.

واما النوع الاخر من الدرج **فهو ان يتخفى رجل بزي امراة** (اي يرتدي ثوبا ومنديل انثى) ويحوشي على انه انثى، وقد لا يعرف الراقصون انه رجل، وهنا يعاملونه

كانثى، واذا عرفوا انه رجل فانهم غالبا يتمادون عليه (بالمزاح، وبالامل) فيضايقونه بالحصار، والتقدم والمراقصة، وربما بالكلام.

واما النوع الاخر فهو **الانثى السافرة المعروفة:** وغالبا ما تكون ام العريس او جدته او عمته او اخته او احد محارمه فهي تعبر عن فرحتها وربما تكون انثى (لا ترجو نكاحا) اي بلغت من العمر بحيث لا تشتهيها النفس للجنس، فتخرج لتحمس الراقصين وتعدهم بفتاة (إمحوشي، او حاشي – من البنات النقية – اي فتاة منتقاة)، وهذه المرأة السافرة عادة لا تستمر طويلا بالتحوشي، وقد يراقصها احد الرجال او الراقصين بشكل هزلي ولكن ليس للسخرية، ثم تأتي بعدها الحاشي، او رجل من الحضور. وبذلك تكون قد عبرت عن فرحتها، بالاضافة الى انها قامت بوصلة مقبولة (تماما كما يتم في عرض مسرحية او مسلسل كيف ان هناك وصلات تسمى في عالم الاخبار التلفزيونية النقلة – كات اوي).

اما النوع الاخر فهي **الانثى الملثمة وتظهر عيناها فقط:** وهذه تصعب معرفتها، لأنها تتخفى وتتنكر بحيث يكون شقيقها او والدها او زوجها بالرقصة، وهو لا يدري من تكون، وهذا التنكر شيء ضروري وجيد، لأن معرفتها تحز في نفس ذويها ان ابنتهم ترقص امام الرجال – ومن هنا فيجب ان يقال (المحوشية – او الحاشي) لا ان يقال فلانة بنت فلان، ويكتفون بوصفها انها (من بنات النقية)، أي منتقاة من الصفوف (مير ودي لربوعي حاشي ومن بنات النقية)، لأنه من حيث المبدأ لا يقبل بدوي ان ترقص انثاه امام الرجال، اما اذا كان الامر مجهولا حتى بالنسبة له، فهو شيء مقبول، واحيانا يكون على علم بذلك، ويسكت، واحيانا تؤخذ موافقته سلفا بالاضافة الى موافقة الفتاة.

واحيانا تكون محجبة تماما، فلا يرى منها شيء ابدا...

والمبدأ ان تكون محجبة وترتدي **العباءة** كما هو مبدأ لباس الانثى اصلا وهو التحجب الكامل مع عباءة (وهذه ترمز الى القلعة) واللباس الكامل حماية لها، واسوارا تحيط بغوطة وحديقة غناء فتساهم في حفظها من العدو، والاعتداء، والرمال والبرد القارس، والحر اللاهب فهذه العباءة سور يحيط بالقلعة، وذلك حين لا يشعر الانسان بالامان والطمأنينة.

وفي العادة قد تتقدم الحاشي بدون عباءة وانما بالثوب او المدرقة فقط، وهذا يدل على مزيد من الشعور بالطمأنينة والامان، وقد ترتدي المنديل والعقال (لباس رأس الرجل)، وهذا تعبير عن انه رغم كونها انثى، فهي قادرة ان تدافع عن نفسها ضد الرجال تماما كالرجال، وتعبير عن ان من خلفها رجال يعاقبون كل معتد، واعتزاز برجولة اهلها، واعتراف بانوثتها.

وقد يكون الحاشي رجل وانثى: اي ان يدخل الرجل الى الميدان متحديا (الحاشي – الانثى) او ان تأتي هي اثناء وجوده في الميدان فيبقى ليتحداها، فيتراقصون (لعبة الدرج او السيف) الا ان ممارسة الانثى لهذه اللعبة تختلف، فلا يجوز لها ان ترفع يديها بحيث يظهر ابطاها، ولا ان يظهر بطنها وهي تنثني للخلف، لذلك فهي تستبدل ذلك

بتحريك العصا او السيف للامام بحيث تكون عضلة يدها شبه ملاصقة لجسمها (اي لا يظهر ابطها بتاتا لأن ذلك عيب عند البدو، كما ان من العيب ان ترفع الانثى يداها بشكل يظهر ابطها)، واما التثني فيكون بانحنائها قليلا (اقول قليلا) الى الامام بحيث لا تبدو عجيزتها ظاهرة للخلف كثيرا.

طلـــب الحاشــــي:

ويكون ذلك بطريقتين: الاولى **بتقديم طوعي من المعازيب بدون طلب**، والثانية: **بطلب من الراقصين بواسطة القصيد.**

واما الحالة الاولى: فهي تحصيل حاصل لوجود الفرح في ديار المعازيب الذين عليهم ان يوفروا له الجو، والمستلزمات والتي منها (الحاشي)، فتقوم النسوة، او احد ذوي العريس بالايعاز لفتاة معينة، او بالطلب من الفتيات الحاضرات، ان تخرج من لديها الاستعداد بالخروج لتؤدي المهمة، بعد ان ترتدي الالبسة اللازمة (العباءة، واللثام او الحجاب...الخ) كما سبق وشرحنا (ولا يشترط ان تكون الحاشي واحدة التي تذهب وتعود، وتذهب وتعود) بل قد تقوم فتاة (بالتحوشي) وعندما تنتهي مهمتها، بتقصيرها او تعبها، او خجلها، او هروبها امام هجمات الراقصين، فان فتاة اخرى بعد دقائق يجب ان تأخذ مكانها، اي ان البديل جاهزباستمرار وخلال هذه الفترة يقوم احد الرجال مقامها ويؤدي مهمتها امام زملائه، وقد يحضر البديل وهي الانثى (راقصة اخرى) اذا شعر المعازيب ان الاولى تكاد ان تهلك تعبا او ان تجربتها قد فشلت، فيتفادون الامر بسرعة فورية، وقد يطردها شخص يدخل ليرقص، فتخجل او تخاف فتنسحب الى قواعدها.

ولا بد لنا ان نذكر ان الانثى إذا (حوشت).. اي مارست التحوشي امام الراقصين فانها تفعل ذلك رغبة منها او رفع عتب (اذا وقع الاختيار عليها) او عندما لا يوجد احد سواها، ومشاركة منها بالافراح، لأنها يجب ان تكون من عزوة العريس او من رحمه، لأن الغريبة لا حق لها من حيث المبدأ باداء هذه المهمة، بينما في العادة قد يحدث ذلك.

واخراج (الحاشي) الى ساحة الرقص لا يكون فور البدء بالرقصة وانما بعد فترة قصيرة، حتى يثبتوا انهم يستحقون وجود (حاشي) امامهم، فالامر بحاجة لاثبات كفاءة وهي العدد، والحماس، والممارسة بقوة، وهم يكررون كلمات للتذكير اثناء ذلك ويوجهونها الى الرجل الذي قام بالتحوشي (حيث يقولون... ابو الحوش) فاذا نسي اهل الفرح الامر تذكروه بهذه الكلمة، كما ان الفتيات يتأهبن نفسيا لممارسة العمل المذكور.

وعندما تحضر الحاشي يقودها رجل او انثى كبيرة السن الى ساحة الرقص مع زغرودة وهو عبارة عن أداة تنبيه للجميع بحضور مطلبهم، فيرد الراقصون بزغاريد وحماس، ويبدأ الجميع رقصا موجها للحاشي، فاذا جلسوا على ركبة ونصف جلست، واذا وقفوا وقفت واذا راقصوها راقصتهم، اي انها تقلدهم، تقلد حركاتهم تماما، وهذا نوع من الانسجام والتفاعل بين الطرفين.

واما طلب الراقصين للحاشي فيكون باللسان بالقصيد، فاذا طال عليهم الامد وادوا الرقصة الاولى والثانية (السريعة، والخزع) ولم تأتهم، قام احدهم يقصد (يقول

القصيد - شعر السامر) فيقول كلمات تحتوي الطلب، والصفات وهو يتكلم باسمه واسم ربعه (جماعته) فيقول: ومـــن البنـــات حاشي النقية

ماهـــي حي الله سمارة ثـــاري بعضهـــن دهيـــة

انه يريدها فتاة منتقاة من النوع الممتاز الجيد القادرة القوية، المحترفة بعملها، وليست اية فتاة ترتدي عباءة ومغطاة ونحن لا ندري ما فيها، فبعضهن مصيبة، ثقيلة دم، وبدل ان تحمسنا تأخذ بنا الى الفتور (دهية).

ويرد احد المعازيب احيانا: ابشر، ابشر - عناك (لاجل عينيك) يا البداع... وكأن في هذا التأخير نوعاً من التشويق للقوم، رغم ان السبب قد يعود الى قصور من المعازيب انفسهم حتى اذا لم يجدوا اناثا (للتحوشي) لبس احد الشباب ثوب امرأة ودخل الساحة ليحل محلها.

ربـــط الحاشـــي:

واذا ما اشتدت (الرقصة) تقدم شخص وامسك بثوب الحاشي، واجلسها فتجلس ثم يجلس هو بجانبها متربعا، او على ركبة ونصف ويسمى هذا (ربط الحاشي) وهذا يعتبر تحديا (للبداع، او للقاصود) الذي عليه ان يفك الحاشي من ربطها ولكن بالقصيد وليس بالقوة العضلية او قوة السلاح، وفي الربط يكمن الاحراج له، والامتحان لقدرته على القول وابتداعه وعلى حفظه للقول وذلك اضعف الايمان، كما يعتبر تحديا لبدء معركة وهمية تعبيرية. اما هي فيجب ان تستسلم، وتسكت، وان تتحول الرقصة الى بطيئة اذا كانت سريعة وتبقى على بطئها اذا كانت كذلك... ويبدأ القاصود بالقول، بينما بقية الراقصين لهم الحق في الوقوف بصمت، او الجلوس، ولكن ليس من حقهم مغادرة اماكنهم، واذا جلس القاصود جلسوا، ويحق لهم ان يجلسوا وهو واقف، وان يحركوا ايديهم (والمسماة - كف اي ضرب الكف بالاخر) او بدون الحركة المذكورة (اي بدون الجلوس العادي او الجلوس على ركبة ونصف).

واما بقاؤهم فهو تعبير عن التفاف القوم حول القائد وهو يخوض المعركة، فمن عادات البدو والعرب القديمة ان يتبارز القائدان، وقوماهما ينظرون فاذا قتل احدهما او ولى الادبار انتهى هو وقومه، وكذلك الامر في هذا الربط فهو تعبير عن هذه المبارزة الوهمية بين فارسين، واذا كانت مبارزة القاصود بالكلام، فان مبارزة الذي ربط الحاشي تكمن في ربطه لها، وبجلوسه بجانبها... جلوس الرابط فهو تعبير عن السيطرة والهيمنة على الهدف، واحتلاله، بل انها تمثل كذلك عادة اخرى عند البدو وهي (المنيع) اي عندما يتم القبض على شخص ووضعه في حفرة ويوضع عليه حارس، فالحاشي هنا (منيعة) والرجل حارس مانع، والقاصود فارس مسلح عليه ان يفك اسرها ولكن بالكلام الذي يتضمن عدة امور متسلسلة تقريبا وهي: التساؤل عن سبب هذا الربط، ثم يسأله ان كان يريد المال او الحلال...الخ فهو على استعداد لتقديمه له الان من اجل فك الحاشي، وفي النهاية يسأله بالله وبالرسول ان يتركها، فيفعل هذا ذلك، وهنا يرتاح القاصود وقد انتصر

في المعركة، فيسخر من (الرابط) ويقول له: ان الذي وعدتك به لن ترى منه شيئا، وتنتهي بذلك هذه المناورة اللطيفة الجميلة، وتعاود الحاشي رقصها او تعود الى بيتها بينما ينصرف من ربطها .

ومن خلال الابيات الشعرية عن (فك ربط الحاشي) التي سنذكرها بعد قليل باذن الله، نرى ان عملية الربط شبيهة ايضا بالاسر في المعركة، ومحاولة الفرسان في فك اسر هذه المسكينة ويبدأ القاصود بالتساؤل التالي:

لا يا رباط حويشينا يا خيي وش لك علينا
ما بيك الحق تماشينا عند العوارف يجدونا

وبعد ان يسيروا الى القاضي ليفرض الحق وليعرف المعتدي، من المعتدى عليه يتبرع القاصود بما تشتهيه نفس (الرابط)، ويسأله ان كان يريد بيتا فيقول:

ان كان انك كيفي جهوة خذ لك حملين قهوة
نقيته بايدي نقودها سيلاني ما هي غرقية[1]

ثم يسأله ان كان فقيراً فسيعطيه مالا فيقول:

وان كان انك فقير افرش عباتك للخير
عالدرب حنا نسير وعلى الله يا التدابير
ان كانك للذهب كيالي قم هات عدولك واكتالي
خذ مني كلام رجالي والصاع الجاير علي

ويقول ايضا

واجيب لك مال العصملي اللي لعدولك يملي

ثم يسأله ان كان يريد ماشية وحلالا فيقول:

اجيب لك حلال البلقاء من الزرقا للزرقاء
بيضا والسمرا والبرقا وهذول دونك ما يباتن[2]
واجيب لك مهرة سابق برجله ماناشه الطارق
معطيها خير اللي ترافق سبوق وتسبق الطير

ثم يخاطب الفتاة ليطمئنها على مصيرها، وانه سيفكها، وينهي اسرها هذا، ويقوي بذلك من معنوياتها:

يا بنت كان اتطيعيني وانخيني واخزعي لي

ويقول ايضا:

عشيرك وايا وديعك ما اظني انه يبيعك

---

١) الصهوة: هو البيت الذي يكون وسطه قائم على عمودين بالاضافة الى العمودين في طرفيه، واماكيفي: اي اذا كان ذلك يحب الكيف اي شرب القهوة هنا، وما يرتاح اليه نقوها اي منتقاه

٢) اي سوف يحضرن عندك قبل ان تبات (البيضا: اي النعاج، والسمرا اي الغنم الماعز والبرقا: اي البقر، ومن الزرقاء للزرقا: اي من نهر الزرقاء حتى زرقاء ماعين (حمامات ماعين جنوب مادبا في وسط الاردن)

واما قوله في البيت السابق: العصملي: اي الذهب العثماني المشهور بجودته، والعدول: سبق وتحدثنا عنها، وهي اكياس متينة مصنوعة من الوبر او من الشعر والصوف، واما معنى يملي: اي يملأ.

ويقول ايضا:

ليطـب قليبـك هوجـاس لافـك يا اشعـل الـراس

بينما يخاطب الشخص بعد ذلك مباشرة حينما لا يترك الحاشي فيقول:

بينـت وانـك طمـاع للحـاشي ما انـت بيـاع

وبالتالي فهو على استعداد لأن يفتديها بروحه رغم انه وحيد امه فهو لا بد وان يستعيد الهدف ويبذل روحه من اجل ذلك:

ان كانـك لروحـي اخاذي مـا انـي عليهـا مناع
يـا شاري انـا اول من باعي بـراي امـي ماليهـا غـيري

وعندما يستمر الرابط برفضه لاطلاق سراح الحاشي، وقد يدخن على غليونه او سيجارته بهدوء اعصاب غريب، لأنه مطمئن انه لا يجوز لاحد ان يفكها بالقوة، وانما بالكلام، لذا فان اي مقاومة لربطها يجب ان تقتصر فقط على القصيد، وتتحول الطلقة الى كلمة، والعنف الى لطف، والاجرام الى كلام... لذا فالرابط مطمئن انه لن يأتي اي مسلح ليستعمل سلاحه في السيطرة عليه، واستعادة الصيدة من يده، لذا فان القاصود ينبهه الى تصرفه هذا ويحذره من مغبة عصيانه، فيبدأ باسلوب العنف والتهديد لعله يجدي نفعا فيقول الشاعر

لنـك ما اطلقـت حويشينا لاهجـم عليـك بشـبرية

كما يهدده بقوله ايضا:

جنـا نشريهـا بام المشط اللي لن ثارت لهـا قشط
ونكتّـك مع السرايا بسـوق لون المرايا
تحبس لو مالك جنيـة[1]

وبعد هذا الاسلوب العنيف، وهذا التهديد، الذي لا يأبه له رابط الحاشي، يلجأ القاصود الى اسلوب اخر، وهو اللجوء الى الله ورسوله، حيث لا يستطيع اي بدوي ان يرد جاه الله ورسوله، بينما القاصود يبين حرصه على (رابط الحاشي) وتقديره له، وانه لا يهون له ان يسيء اليه فيقول:

يـا روحـي ما اقـدر اسبك ادنـق عليـك واحبـك
واجوهـك بالله وبربك تطلـق حاشينـا النشمية

كما يقول في موقع اخر ايضا:

جهتـك بسيـد الناس ووجـوه ربـوع جـلاس
تطلـق لـي عـين الجرنـاس

وامام هذه الجاهة العظيمة، الله، ورسوله، ووجوه الربع والعصبة الجالسين، لا

---

١) اي نفتديها بالبندقية، اي نستعملها لقتلك وفكها من اسرك لها، هذه البندقية التي اذا خرجت منها الرصاصة كانت قاتلة، او ناخذك الى حيث مقر الدولة (السرايا) تسير مهانا الى ذلك المقر عبر سوق يراك فيه كل الناس، وتساق الى السجن حتى ولو لم تكن جاني، (جنية - بكسر الجيم والنون، وتشديد الياء) اي جناية).

يستطيع (رابط الحاشي) الا ان يلبي الطلب، وينسحب..وبذلك نرى ان للناحية الدينية مكانة عظيمة في نفس البدوي، فليس (وراء الله للمرء مذهب) وكما يقولون - ما فيه بعد الله يمين للمسلمين - ومضافا لكل هذا نجد جاه رسول الله (سيد الناس، سيد الخلق) وبالاضافة الى ذلك هناك جاه الجلوس، وهذه ضربة قوية وذكية للغاية. لأنها اخر ورقة بيد القاصود، وليس في يده بعدها ورقة اطلاقا، ولنفرض ان (رابط الحاشي) قد تمرد، ولم يحترم جاه الله ورسوله، حينها يقوم عليه (الربع الجلاس)، اي القوم الحضور ويأخذون منه صيدته بالقوة، لأنه اصبح (في نظرهم) عدوا لله وللرسول وللربع.

وبالتالي نرى ان هذه الشطرة الاخيرة تحريض قوي ضد (رابط الحاشي) من وجهين: الاول: بتحريض القوم مع القاصود ضد خصمه والثاني: اضعاف معنويات الرابط، وتخويفه، فلا يجرؤ على الاستمرار بتحديه اطلاقا....

ويتنبه القوم جميعاً بانتظار ماذا سيتصرف (الرابط) فان استمر في تماديه لقي العنف، واخذوا الحاشي منه عنوة، واما التصرف الصحيح فهو ان يمسك بطرف ثوب الحاشي ويقوم لتقوم هي، وينصرف من الساحة، وهذا يعني في لغة صمت البدو، استسلام الرجل، واعترافه بالهزيمة واعتاق صيده حرة مرة اخرى...

وفي اللغة الحربية البدوية: نجد قصيد البداع عبارة عن جيوش، وسيوف وبنادق نحو عدوه (رابط الحاشي) المحاصر (بفتح الصاد) والذي يرفض الاستسلام، الا ان القاصود المهاجم يزج بكل ما لديه من سلاح، من الضرب والحرب، والمفاوضات (المتمثلة بتلبية الطلبات من الحلال والمال) والترهيب والترغيب (المتمثل في ذكر قوة القاصود وما عنده من سلاح)، والتهديد المباشر المتمثل في هجمات مكثفة مباشرة في قوله (لاهجم عليك بشبرية، وقوله: حنا نشريها بام المشط أي البندقية.

واذا فشلت جميع هذه الجهود السلمية والحربية، يأتي اللجوء الى القوى الغيبية، بالاحتكام الى الله ورسوله والحضور، وهؤلاء يمثلون القوة الحربية الاحتياطية الكاسحة التي لا تبقي ولا تذر، ويعجز وينهار امامها اي عدو مهما كانت قوته وعظمته على مستوى الحضور، واذا كان رابط الحاشي قد تحدى القاصود ووقف في وجهه مدة طويلة، فهو غير قادر الان على الصمود اطلاقا، بل ينسحب ويترك ما اخذ، حيث لا قبل له ولا طاقة بالمدد القوي الجديد.

وتنتهي بذلك مأساة الحاشي الشبيهة باية عملية اختطاف في العالم الحديث عندما يقوم شخص او اشخاص بالسيطرة على رهينة او رهائن، وتجري المفاوضات التي لا تخلو من مختلف الاساليب العنيفة واللطيفة، حتى اذا ما رفضوها جميعا، وعجز المفاوضون او لنقل المهاجمون، اكتسحوا الشخص او الاشخاص باقصى ما لديهم من قوات خاصة، وجنود وسلاح، وسيطروا على العدو، وخلصوا الرهائن منه، الا ان البدوي اكثر ذكاء من الانسان الذي يقول عن نفسه انه عصري ومتمدن، حيث يترك الرهينة مجرد معرفة هذا الهجوم، وانه قد اصبح قاب قوسين او ادنى وبالتالي لا يعرض نفسه ولا رهينته للخطر، وانما ينسحب بكرامته، كما ان الفارق بين هذا البدوي وذاك العصري،

ان الاول لا يحدث له اي شيء يسيء اليه او اي عقاب يؤذيه طالما التزم بالادب، وانسحب بينما يجد الثاني (العصري) العقاب والسجن والذل، وربما القتل اذا استسلم بسهولة وبدون شروط ويمتاز عمل البدوي بانه تمثيلي لاختبار قدرة الانسان على التملص من المآزق اذا وقع فيها وبالتالي لا خوف منه، ولا اهانة فيه للكرامة، بينما يمتاز عمل العصري، بانه ملىء بالرعب والخوف، والاهانة للانسانية جميعها.

والبدوي لا يقتل رهينته ولا يرعبها بينما يقدم العصري على القتل احيانا، واما الرعب فهو شيء طبيعي لهذه العملية عند العصري.

ان ربط الحاشي هو ايضا عملية لطيفة للتسلية، وتساعد على استمرار الرقصة، وعلى معرفة قدرات الرجال ولكن لننظر ماذا يقول القاصود بعد اطلاق سراح الرهينة.

ياما عطينا ومنينا والله ما تشوف المصرية

ويقول ايضا:

جبنا حاشينا بحيل والله ما تشوف المل

ومن خلال هذين البيتين نرى ان العملية عبارة عن مسرحية هزلية لطيفة ومداعبة، مختلفة الجوانب، متعددة الأهداف وأن جميع الوعود التي وعد بها القاصود من إعطاء الحلال والسلاح والمال...الخ ما هي إلا (خيال بخيال).

ويشابه هذا ما تفعله بعض الدول أو الهيئات عندما تلتزم باعطاء الوعود لطرف آخر، وعند تحقيق الهدف، تنسى ذلك، ولا تلتزم به، طالما أنها حققت مصلحتها، فلم يبق إذن سوى النكوث بالعهد والوعد، ولكن الفارق أن عمل البدوي شيء تمثيلي، ووهمي وخيالي بعلم الطرفين، بينما في الدول العصرية تبدو الأمور جدية، وربما يتم تبادل الاتفاقات والبروتوكولات الموقعة والخاصة بذلك، ويترتب عليها تقرير مصير حقيقي، وليس وهمياً، مع هذا فهي تنكث بوعودها، وتنسى كل ذلك بسهولة كبيرة.. وربما تعطي التفسيرات التي لا يقبلها إنس ولا جان، من أجل مصلحتها...

بقي أن نقول: أن في ربط الحاشي تتمثل طريقة تلجأ اليها أحدث الدول ضمن خططها الحربية والسياسية: وهي تقوية معنويات الطرف المأسور أو المرهون أو المحاصر، فالبدوي يخاطب الرهينة (الحاشي) أنها يجب الا تهتم، والا تخاف، حيث ان النصر شيء مؤكد، وهو قادر على اعادة الحرية والحياة اليها، ولو احتاج هذا الى زمن ووقت حيث يقول:

لا بطب قليبك هوجاس لافكك يا اشعل الراس

بقي ان اقول ان ربط وفك الحاشي، قد اخذ من وقتي الكثير في البحث والتنقيب ذلك انه شيء شبه انتهى منذ الخمسينات في مناطق الاستقرار بالأردن، وقد اضطررت لتأخير كتابته حوالي شهرين حتى استطعت الحصول على المعلومات اللازمة التي قدمتها للقارىء العزيز بما لا تستغرق معه قراءتها اكثر من دقائق معدودة.

تجـريد الحـاشي ملابسـها:

ونتحدث الان عن شيء آخر يلجأ اليه البدوي القاصود (او القصاد)، في تعامله مع الحاشي أو (المحوشية)، حيث يطلب اليها العديد من الاشياء، ولكن تلبيتها تكون من المعازيب، وليس من الحاشي نفسها، فيطلب منها الخاتم، والمزوية، والعباءة، والثوب...الخ، وكلما طلب شيئا اضطر المعازيب لتلبيته نيابه عن الحاشي، الذي قد تعطيه ذلك احيانا اذا قصر المعازيب، وهذا تعبير عن مهاجمة الهدف، وسلب شيء منه عند كل هجوم، حتى يجرده امكاناته ثم يقوم باحتلاله، وأما باعطاء المعازيب فهو تعبير عن المدد المستمر حتى لا تنهار القلعة، وتبقى صامدة أمام الهزات، وهذه مناورة اخرى نجدها إذن بين الحاشي والقاصود، وكانت الأولى هي ربطها وفكها، وأما الان فالهجوم من المقابل وليس من شخص خارج اللعبة كما هو في الربط، ويقول القاصود طالبا العباءة:

واعطتنـــي يوم الله اعطاني زيـــن العبـــاة شـيوخية
بنـــت الاجـــواد ال تعطيني وبنـــت الانـــذال معيـــة

فالعطاء من (بنت الاجواد) الكريمة، ذات الشهامة، واما البخيلة ابنة البخيل فهي لا تفعل ذلك ابدا، وما ذلك الا اسلوب مناورة واستدراج، حتى يضعها امام الامر الواقع ويأخذ منها ما يريد باسلوب لطيف، فيعطيه المعازيب هذه العباءة، او يفعل ذلك احد الحضور، ثم يطلب المزوية اذا كانت ترتديها وهي سترة تشبه المعطف (تلبسها البدويات) مطرزة جميلة فيقول:

يـــا بنيـــة يا ام الثنايا واهـــدي لك الـــف مسية
لديـــارك شد المطايـــا حتـــى نجيـــب المزويـــة
وبنـــت الاجـــواد ال تعطيني وبنـــت الانـــذال اللي معيـــة

وبذلك يمتدحها ثانية، وأنه شد مطاياه قاصدا ديرة أهلها، ليأخذ هذه المزوية ذات الأهمية الكبيرة وقد يقول:

يالحـــاشي هي يا البنية وانـــا صابتنـــي بردية
قالـــوا لي دفـــاي عندك حيـــث ان تهدينـــي المزوية

فقد اصابه البرد، ويطلب الدفء في هذه المزوية التي ستهديها له الحاشي (او المحوشية).

ونرى ان الطلب من الحاشي بصيغتين متقاربتين هما (العطية، والهدية)، لأنه تجريد من السلاح ولكن بأدب، تماما مع المبدأ الذي يقول: (قل له سيدي، واقتله).

ثم يطلب منها الخاتم فيقول:

واعطتنـــي يوم الله اعطاني خاتـــم لايـــدي هديـــة[1]

---

[1]) ومن طلبات القاصود من الحاشي قوله ايضا:

طلبتـــك يا حويشي ربعي ترمـــي عصاتـــك علي
يـــا خيتـــي اعطينـــي منديلك وانـــا اللي اقـــول الحذية
يـــا خيتـــي واعطـــين الخاتم مـــن ايـــدك لايـــدي هدية
طلبتـــك يا حاشي ربعي بـــالله ترميلـــي النصية
طلبتـــك ترميلي ثوبك واوعـــى لا تزعـــل علي
طلبتـــك يا حويشي ربعي بـــالله تعطينـــي المزويـــة

وبعد أن ينتهي من الطلبات والقصيد، يعيد كل شيء الى اصحابه سالما غانما.

ولا شك أنها عملية تسلية جميلة، بل انها مثيرة، خاصة لشخص يراها أول مرة في مجتمع تؤدي فيه أقل غلطة او مزحة الى عواقب وخيمة، وسيئة جدا...

القصيـــــد:

واما الشعر الذي يقوله البدو أثناء الرقصة فيسمونه القصيد او البدع (بتسكين اللام والعين، وفتح الباء وكسر الدال)، وان اختلفت الألحان التي يرددونها حول ذلك، ويأتي القصيد ضمن رقصة ذات حركات بطيئة، بينما يتمايل الراقصون يمنة ويسرة.

وتشمل مواضيع القصيد اغراض الشعر المختلفة، من الوصف، والغزل والملاحم، والاعتزاز بالاباء والاجداد، والألغاز، وحلها، والملاحم الشعرية، ووصف النيـاق، والحلال، والدار والديار، والحنين...الخ، ويقول مثلا في ذكر الشد على الذلول:

شـدوا لي حر القعدان اشعـل مدمـوج الذرعان
مـن سلايـل وضيحان لن زوع يشــداك الطير

ويقول ايضا:

يـا ولـد شد الثنتين مالهـن مثايـل بالعين
يطربهـن حس الهجيني لن مدن والسطـر جاهن
وبعينـي يومـن تقافن غـزلان وللبعدشافن
والهجـن يولـدن الهجن والسبـق جنـك ينشدن

ومن مخاطبة الحاشي بالقصيد، ما كان من أمر بدوي حضر رقصة عند بدو في منطقة أخرى، فاعجبته الحاشي وخاطبها يريد معرفة بيتها ليعللها (أي ليذهب ويقضي بعض الوقت يتحدث معها ويستمع اليها، حيث تنام وعلى انفراد وبشرف) فقال لغزا في ابيات شعرية:

يـا مديـر الريـح جيـب المليح ال شوفـه سبـب لي حيرة
قلبـي يشهـاه راعـي العباة اللي تلامـع صديره
لا يا الغطـروف اعمـل معروف افرحنـي بخطـوة قصيرة
حلـو ثمانـك يلعجن لموع بروق يبرقن
غتيلي يم بويـت اهلك يـا زينـة قولي هالوزن[1]

فهو يطلب الله أن يأتي له بفتاة جميلة وعندما تحققت الأمنية اذا بها تحير العقل لجمالها، ترتدي عباءة، وصدرها يتلامع بالذهب، فاشتهاها قلبه، وخاطبها ان ترقص امامه ثم ان تخبره عن بيت اهلها ليذهب ويعللها.

وهناك قصيد آخر أثناء الرقصة السريعة بما يسمى الحداء، والشوشة (اي

---

[1]) انه يسأل الله الذي يحرك الريح ان ياتي له بالمليح (الفتاة الجميلة) حيث رؤيته سببت الحيرة للقاصود، فقد اشتهاها قلبه، وهي ترتدي العباءة، وقد تلامع صدرها لما عليه من الذهب والمعادن الثمينة ذات اللمعان، ثم يخاطبها: ايتها الغزال الجميلة (الغطروف) ارجو ان تعملي معي معروفا وذلك ان تفرحي قلبي بخطوة قصيرة في الرقص متجهة نحوي... ثم يصفها بقوله: ان اسنانك الثمانية الامامية يلمعن (يلعجن)، كالبرق في الليل، واريد منك ان تشيري الى بيت اهلك (غتيلي)، وقولي لي انه في هذه الجهة او تلك (قولي هالوزن)

التصرف بمنتهى الحماس) فمن الحداء:

يـــا يمـــه غذي مهيرتـــي تسلـــم وانـــا خيالهـــا
واشري لهـــا سرج جديـــد ريش النعـــام قذيلهـــا

وبالطبع تقال هذه بلحن مناسب للحركة السريعة التي يقوم بها هؤلاء الراقصون.

وأما لحن الشوشة[1]، فيكون في قمة الحماس في الحركة السريعة حيث يقولون:

يا مـــوت = خلك لهيلك = يا موت
يا زين = شوف التشاما = يا زين

وهذا دليل واضح ان الرقصة شبيهة بالمعركة، لأن هذا اللحن يقال اثناء المعركة ايضا. ومن قصيدهم اثناء الشوشة ايضا:

هيهـــي يا ابـــو الجديلـــة يـــا قايـــد الخـــروف
عنـــك مالي بديلـــة ريقـــك يا تمـــر الجـــوف

واما اوضاع الراقصين فتكون: وهم وقوف، أو بانحناء للأمام (اثناء المراقصة والشوشة) كما يرقصون ببطء او سريعا على ركبة ونصف، وعلى الحاشي أن يفعل مثلما يفعلون، كدليل على الانسجام من جهة، وتكامل المناورة بين الطرفين. ويرافق الرقص عادة صيحات مختلفة كصيحات الحرب تماما، وتقدم وتأخر، وفوضى ونظام، واعتداء، ورد اعتداء، تماماً كأية معركة أو حصار لقلعة او هدف وكيفية احتلاله او اخلائه، او انقاذه.

ولا يشترط في القصيد أن يكون على قافية واحدة، بل قد يكون هناك قافية رباعية، أي تكون المقاطع الثلاثة الاولى ذات قافية واحدة منفصلة بينما تتحد قافية المقطع الرابع مع جميع المقاطع النهائية في القصيدة ومن ذلك قول الشاعر:

واللـــوزي يســـوي مثايل شـــدوا لي من الهجـــن حايل
حـــرا ما تدانـــي الزوايل شقحـــا وابوهـــا وضيحان
يـــا خيـــي لا يا ابـــو بشير وانـــا بالحلـــم متحـــير
لـــم الرفاقـــا خ نسير واذبـــح لي شاة تفداني

وقد يكون في كل بيت ومقطعة قافيته الخاصة به، ذلك أن البيت يقال منفردا، اذا كان ثنائيا، ولكن اذا كان ثلاثيا، فتقال المقاطع الثلاثة معا وقد يقول القاصود كلاما لغيره، وقد يكون من عنده فيسمى البداع.

وقد يرد الطرف الاخر (كما سبق وقلنا) بقصيد من عنده، او من حفظه، وقد يرد بمقطع واحد فقط وهو (هلا هلا بيا هلا = لا يا حنيفي يا ولد).

طلبـــات القاصـــود:

وفي حديثنا السابق، وجدنا أن للقاصود دورا مهما في ادارة الرقصة ادارة سليمة

---

[1] الشوشة: اللازم هنا تسمية لا تلفظ، والشين الاولى مشددة بين الضم والفتح، مع تسكين الواو وفتح الشين الثانية.

او عكس ذلك، كما أنه لا يعيش بمعزل عمن حوله من رجال، وحاشي، وحضور، ومعازيب لذا، فان له الحق في المطالبة ببعض الاشياء، والتي لا يشترط أن تكون من المعازيب، وليس عيبا التقصير فيها قبل الطلب، اذا طلبها فيجب تلبيتها.

يطلب الحاشي: وتحدثنا عن هذا مفصلا، فاذا بدأ القاصود ولم تأت الحاشي بعد، يحق له أن يطلبها بصفات معينة وطيبة وان يستبعد بالمقابل ذات الصفات السيئة فيقول:

يا من عين لي معزبنا ويا من اذكره لي
مير ودي لربوعي حاشي ومن البنات النقية
ما هي حي الله سمارة تاري بعضهن دهية

فيقول المعزب: ابشر يالبداع، عناك (اي من اجل عينيك) يالبداع، جتك (جاءتك).

طلب الماء: واذا عطش القاصود طلب الماء، فجيء له به، فيشرب اثناء رد الطرف الاخر (هلا هلا بيا هلا - لا يا حنيفي يا ولد).
ويقول القاصود:

هنيه ما من هنية يا معزب واسقيني ميه

فيقول المعزب: ابشر جتك - وينادي القوم بعضهم: مية للبداع، مية للبداع، ونراهم يقولون له البداع هنا اكراما له لأنه اهم من القاصود الذي يردد شعر غيره، اما البداع فيبتدعه من عنده.

طلب اطلاق الرصاص: ويطلب من بعض الحضور ويسميه باسمه ان يسمعه صوت بندقيته او مسدسه او خرطوشة فيقول:

لا يا محبوبي يا ولد سمعني حس الردنية

فيضطر المسمى المطلوب أن يطلق عيارا ناريا وهو يقول: ابشر، لعيناك، وتنطلق الزغاريد مع سماع اسم الشخص الذي طلب اليه اطلاق العيارات النارية، كنوع من الحماس، والتحميس.

طلب الاشياء من الحاشي: وتحدثنا كيف يطلب القاصود من الحاشي خاتمها، وعصاها، وسيفها او شبريتها، وعباءتها، وكيف ان المعازيب يوفرون له هذه الطلبات بدلا من الحاشي، كنوع من افتداء الشيء بالشيء.

طلب النجدة بقول القصيد: قد يعجز القاصود او البداع عن الاستمرار في القول لاي سبب كنضوب ما يحفظه، او شعوره بالعجز امام خصمه، او التعب والاجهاد، وما الى ذلك...الخ ولكن البدو دائما يعزون العجز الى صوت القاصود وليس الى شيء آخر حيث يقول: (يا حسي بايق بي)، أي ان صوته قد باق به، اي خانه وخدعه، وبالتالي لا يسمعه

احد اذا استمر في قصيده، لأن سماع الاخرين له والصوت الجيد المتناسب هي من شروط القصاد، فالبدو يحبون الصوت الموسيقي الرنان الجميل، ويكرهون الصوت المزعج الهش على المبدأ الاسلامي (ان انكر الاصوات لصوت الحمير).

واذا سمع الشخص المقصود بتلبية النجدة، لباها فورا، وجاء بجانب القاصود ليحل محله فيقول:

واقعـد تريـح يا البـداع ديـر المحـامـل علـي

ويقوم القاصود الجديد بالمهمة، بينما ينسحب الأول، وله الحق في البقاء داخل الرقصة، او الخروج منها، والأفضل أن يخرج، لأن مكانه أصبح مشغولا بمن يسد مسده...

وهذه العملية اشبه ما تكون بتسليم راية القيادة من قائد لاخر، عندما يحس الأول انه عجز عن الاستمرار في ادارة دفة المعركة، واذا كانت القيادات الحديثة تقوم بتعيين القائد البديل، فان البدوي لديه فسحة اكبر واكثر، وديموقراطية اعمق في انه يستطيع تعيين القائد البديل بما يمكن ان نسميه (تعيين ميداني)، دونما حاجة الى مشاورات ومباحثات، لأنه يعرف بالضبط الرجال القادرين على القيام بالمهمة، بالاضافة الى انه تدريب للجميع في أن أيا منهم معرض في موقع من المواقع أن يكون قاصودا كما هو مطلوب منه ان يكون فارسا في المعركة... واذا كانت عمليات انهاء القياديين المقصرين في المعارك والمفاوضات في الدول الحديثة تتم عن طريق دولهم عندما تشعر هي بذلك او تكتشفه واحيانا لا يكون الا في مرحلة متأخرة، فانه فقط من بلغ منها مبلغ الديموقراطية العظيمة، ومن بلغ من اشخاصها حد النزاهة أن يتخلوا عن مناصبهم عندما يحسون بالعجز، فان البدوي البسيط في خيمته بالصحراء قد سبقهم الى ذلك، فهو لا ينتظر ان يقال له: اذهب فقد عجزت او (لم تعدل فاتعزل)، وانما يقيم نفسه بنفسه، وينسحب بأدب، فاسحا المجال لمن هو اقدر.

مع هذا فالبدوي يعزو الامور لاسباب خارجة عن ارادته (يا حسي بايق بي) لأن العجز بحد ذاته عيب، وهذا تحايل مهذب، مؤدب لطيف.

كما انه يستطيع ان ينسحب بطريقة اخرى ايضا، فينتهي القصيد، ويبدأ هو (بالدحية – الرقصة السريعة) وتنتهي الامور كأن شيئا لم يكن، وانما مرور وتعاقب مراحل فقط...

انهـــاء الرقصـــة:

واذا اراد المعازيب انهاء الرقصة لهذه الليلة، تصرفوا تصرفات مؤدبة بقولهم: اختموها بالصلاة على النبي – فيقول الجميع: اللهم صلي على روح النبي، ويقولون ايضا: (الله يعطيكم العافية، كثر خيركم) فيرد الراقصون: وخيركم (اي وكثر الله خيرك)، ان شاء الله مبروك. ويتم انهاء الرقصة عادة باكثر من طريقة بالاضافة للطريقة السابقة. فقد تكون من طرف المعازيب ويبدأون بالكلمات التي ذكرناها.

وقد تكون من الضيوف، ولكن بطريقة اخرى، حيث ينسحب الراقصون واحدا تلو الاخر حتى تنتهي الى عدد قليل، فيقف المعازيب طالبين اليهم ان يرتاحوا، وبذلك نرى ان الامر باتفاق (ضمن لغة الصمت) بين الطرفين (المعازيب والضيوف)، اذ ان الارهاق والتعب لا بد ويبدو على الراقصين، وهذا يلاحظه ويراقبه المعازيب، ثم يقدمون اليهم، وكأنهم يعطونهم رخصة بالانصراف، وكأن التعب والاجهاد طلب رخصة بالاستئذان... تماما كانتهاء المعركة عندما يبدأ القائد (العقيد) بقوله: كفوا الطراد، اي ان ينتهوا من الحرب والضرب بعد أن اخذ التعب منهم مأخذه، وبعد أن يرى القوم ان العدو غير قادر على محاربتهم، واما هنا في الرقصة، فان الطرف المحارب (الراقصون) يعتبرون منتصرين حيث انهزم الخصم الذي نعتبره مثلا (الحاشي) اذ ان اول انهاء الرقصة في مراحلها الاخيرة هو انسحاب الحاشي، وبالتالي ينسحب القوم، تماما كانسحاب العدو من المعركة وعودة المحاربين باعتبارهم قد قضوا عليه وأنهوه.

تجـديد الرقصـة:

وقد يتم احيانا تجديد الرقصة من جديد، لمدة تطول أو تقصر وذلك لأسباب كثيرة: فقد يأتي أناس جدد ويسمون (اسرى بتسكين السين وفتح الراء)، وهؤلاء لهم حق المشاركة، خاصة وان من يأتي متأخرا يكون عادة قادما من منطقة بعيدة، وهم يرون أن العودة بدون الرقص شيء ينتقص من حقهم، او (سمه ما شئت)، وهم ممثلون لجماعتهم وعليهم اداء المهمة، كما انهم يشبهون اي مدد حربي في معركة شبه منتهية، فيقومون باكتساح العدو لانهائه، واذا نظرنا الى طريقة دور الخيالة (السينما) الحديثة وجدنا ان تجديد عرض الفيلم يتم اكثر من مرة في اليوم الواحد حيث يأتي لكل عرض من تتاح له فرصة المجيء، ويقابله عند البدو: ان من حق كل من يحضر (من حيث المبدأ) ان يشارك بالرقصة بل وعليه (من حيث المبدأ) ان يشارك، لأنها كالمعركة، والمتخلف عن المعركة عندهم لا شك أنه سيكون سيء الذكر، أما من حيث العادة فقد لا يشارك الشخص بذلك، وتتحول الامور من واجب عين، الى واجب كفاية اذا اداه البعض سقط عن الجميع.

ولا يحق للمعازيب منع الوافدين الجدد من ممارسة الرقص، بل ان لهم قيمتهم وحشمتهم، ولهم الحق في الحاشي ايضا... ويحق للبقايا من الحضور القدامى ان يشاركوا الوافدين ايضا فيقولون (عمرت من جديد)، ويقولون: (النشامى عمروها) وهذا تعبير يدل على ان الانتهاء خراب والاعادة اعمار، والامر بالاعادة يعني الأمر بالأعمار.

وقد يكون التجديد نابعا من سبب محلي من المعازيب، عندما يقوم مثلا بعض الوافدين بتخريبها، فيقوم بعض المعازيب ويتنادون فيما بينهم، ويصطفون، ويتناخون، ويرقصون، لأن ذلك رد على التحدي، وتحدي ايضا لأولئك الذين خربوا الرقصة، واساءوا اليها. وان تداعي المعازيب معا صفا واحدا انما يعبر عن المحبة، والتجمع وقت الشدة والضيق، والرد على التحدي، ويعني التجديد هنا انه يستمر متجاوزا العراقيل.

وقد يكون التجديد بعد تعكير صفو الرقصة العام سواء من المعازيب ام الوافدين،

ولكي يضمن القوم استمرار الفرح، ونسيان السوء والخلافات، يلجأون الى الرقص من جديد، فينسى الغضبان، اما الحاسد فيتاكل قلبه، كما ان السمعة تذهب بين الناس (ان فرحهم قد تجاوز الصعوبات التي احاطت به من كل جانب)

وقد يكون التجديد نابعا من اسباب مزاجية، فمثلا بعد انتهاء الرقصة والمسمى (كفت "بتشديد الفاء" اي انتهت الرقصة) يتمازح القوم احيانا، ويتحدون بعضهم من هذا الباب، وقدرة فلان على الدرج او لعب السيف او الرقص، او القصيد، او المراقصة فيقولون: (هذا الميدان) فينزلونه ليبين كل واحد قدرته على ما ادعاه امام الاخرين ويعتبر تجديد الرقصة نوعاً من اعادة التنظيم فمثلا يقوم الجيش بعد انتهاء المعركة باعادة التنظيم كذلك الامر في الرقصة البدوية احيانا يتم اعادة تنظيمها من جديد من اجل تحقيق هدف معين حقيقي او رمزي.

دور الشبابة والدبكة في الرقصة: ويعد الانتهاء من الرقصة، قد يتحول التعبير عن الفرحة باسلوب اخر، وهو الدبكة والشبابة او الناي، حيث تتشابك ايدي عدد من الشباب، يقودهم احدهم الذي يكون تارة في مقدمة الصف، واخرى في الساحة التي امامهم، وبيده، (محرمة او منديل)، ويتحرك الشباب حركات تتناسب والايعاز الذي يعطيه اليهم قائدهم المسمى (اللويح) اي الذي يلوح لهم بيده، من لوح يلوح (بتشديد الواو) لويح (بتشديد الواو ايضا) اما عازف الشبابة او الناي فيكون بالوسط واقفا يدور حول نفسه مع دوران الراقصين او الدبيكة (بتشديد الدال والباء)، وتارة يقترب من المغني الذي يبدأ بالقول، ويرد عليه الباقون...ونجد ان الدبكة تقسم الى عدة أقسام:

اللويح: وهو القائد الذي يقودهم ويعطيهم الايعازات بالصوت والحركة، وهم يقلدونه وينفذون اوامره، ويكون غالبا امهرهم في هذه اللعبة. وعادة يعرف شخص بهذه المهمة، لأنه قادر على التملص والتخلص من اي احراج، وقادر على القيادة، تماما كما يقود الاوركسترا الموسيقية رجل منهم، واللويح يجب ان يتحرك تارة في اول زملائه، واخرى في الساحة، اي انه يقود ويضبط نفسه قبل ان يفعل ذلك بالاخرين، ويراقب جماعته، ويصفهم وينظمهم، وهو الذي يعطي اشارة البدء، واشارة الانتهاء، واشارة الغناء، وقد يكون هو المغني احيانا.

عازف الشبابة والناي: وهذا موقعه في ساحة الدبكة، يدور على نفسه، وتارة يقترب من المغني الموجود مع شباب الدبكة والذي (المغني) يقودهم من حيث اللحن سواء بايعاز من (اللويح)، او بايعاز من ذاته، ويجب ان تتطابق ضربات الاقدام والصيحات مع صوت الناي او الشبابة، واذا اراد التغيير من لحن الى لحن عمل فاصلا وهو صوت موسيقي اشبه ما يكون بالوصلة التي تدوم بضع ثوان تماما كما نرى في عمل الافلام الاخبارية للتلفزيون، او أفلام السينما حيث تكون هذه النقلة من الضرورات في العمل الفني بما يسمى (كات اوي) وعلى العازف ان يتقن مهمته، لأنه اذا لم يكن قادرا على ذلك فهو

(يخربط) اي يشوش الشباب، ويضيعهم. كما انه يجب ان يمتاز بطول النفس، والقدرة على الاستمرار مع الشباب لوقت طويل، ونجد عند البدو اناسا مشهورين بذلك، وقادرين على الوقوف والعزف ساعة او ساعتين بدون انقطاع.

المغـــــني: وهو الذي يقول كلمات الغناء واللحن بالصوت بما يطابق لحن الناي او الشبابة، ويجب ان يكون ندي الصوت يقول او يحفظ الشعر والقصيد على كل لحن يؤديه العازف، وهذا يكون اما في بداية الزمرة أو في منتصفها، ولكن لا يجوز أن يكون في مؤخرتهم.

بقية الشــباب: وهؤلاء هم بقية الراقصين في الدبكة، وهم يقلدون مع القائد حركاتهم وينفذون اوامره، ويرددون مع المغني كلماته، بصوت جماعي لطيف ورنان يعطي الجو روعة ولحنا. وقد يلتحق لهؤلاء بعض المتدربين او الذين لا يتقنون الدبكة ويكون موضعهم في النهاية، ولا يؤبه لهم الا كتكملة عدد فقط.

ونجد في الدبكة حركات تعبيرية وهي الهجوم، والانسحاب، والدفاع، والتراجع من طرف واحد نحو هدف واحد، او من طرفين متقابلين نحو هدف واحد.

وللدبكة صور وطرق عديدة تختلف باختلاف الازمنة والامكنة والعشائر، بل ان تسمياتها تختلف من موضع لاخر، فهي عند بعضهم وخاصة بدو شمال الاردن تسمى (حبل مودع) اي تصطف الفتيات الى جانب الشباب، ويرقصون ويتمايلون معا، وقد اخذها ابناء القرى والمدن، حتى اصبحت هذه ارقى انواع الدبكات والرقصات الشعبية الحديثة في دول العالم العربي، ونجد في المواقع التي تدعي العصرية والتقدمية ان يرقص الذكر والانثى معا منفردان ضمن مجموعات مختلفة في ناد ليلي او حفلة خاصة او عامة، وبطريقة تناسب الايقاع الموسيقي الصادر عن الات خاصة بذلك، واذا ادعى اهل هذا العصر انهم سبقوا الناس بهذا النمط البعيد عن الشرف بطريقته، فان البدو قد سبقوهم الى ذلك ولكن بطريقة شريفة نظيفة، حيث تكون في الاصل بنات وابناء العمومة او العرسان (جمع عريس وعروس معا) ثم في العادة تطور الامر فاصبح للشباب والفتيات الحضور حق المشاركة مع زملائهم العرسان وان رقصة (حبل المودع) من اجمل الرقصات، ويعرفها الاكراد في شمالي العراق والفوارق في شمالي افريقيا، وان مارسوها بطريقة تختلف الا انها على نفس النمط وهو الذكر والانثى جنبا الى جنب.

ونستطيع ان نجد اسما اخر لرقصة الدبكة، وهي ما يسمى بالعارضة التي تشتهر في نجد، ولكن العارضة تجمع بين الرقص، والدبكة، مع ما تعبر عنه كل منهما، وفي العارضة نجد جميع الحضور يتشابكون الايدي بالمقابض، او بالاكتاف، ويتحركون في شبه دائرة بينما ما يمكن ان نسميه اللويح يتحرك امامهم ويحمسهم، وربما ينزل معه للميدان شخص اخر للتشجيع او للمبارزة (على نمط لعبة السيف)، وتنطلق الصيحات مع اصوات الطبول، وتلعلع اصوات الزغاريد، والرصاص في الجو تعبيرا عن البهجة

والفرحة، والتحدي للعدو، والثقة والطمأنينة بالنفس، ان صاحبها قادر على خوص المعارك، وقد رأيت ذلك في الرياض وفي ابها مركز عسير اكثر من مرة.

وهناك المراقصة سواء في الرقصة او بعدها، عندما يوجد طرفان، يتقدم كل منهما اذا تأخر وهكذا دواليك، واحيانا يتقدمان ويتأخران معا، وكأنهما خصمان استرجعا عقليهما عند الوصول الى نقطة الالتحام ثم يعودان حيث كانا دون أن يصاب اي منهما بسوء.

ويمثل الطرفان تارة اخرى عملية الدفاع والهجوم، والافتراق، والالتحام في صور تعبيرية مختلفة، نجدها في فرق الدبكة الحديثة التي تسمى بفرق الاغاني، اوفرق الفنون الشعبية المختلفة.

يوم الخيـــــاط:

فرصة اخرى لتهيئة القوم للانطلاق والعمل، الا وهي اليوم الذي يسبق الفاردة بيوم، ويسمى (يوم الخياط)، واذا نظرنا الى اية معركة هجومية، فانه لا بد من الاستعداد لها، وعمل نقاط تجمع وانطلاق، وتمركز....الخ، وكذلك الامر عند السفر في قافلة كبيرة سواء للحج ام للتجارة...الخ فانه لا بد من يوم او اكثر يسبق الحركة تتم فيه جميع الاستعدادات اللازمة.

واما عند البدو: فان يوم الخياط هو الذي تتم فيه الترتيبات النهائية، والتجهيز ليوم الفاردة... حيث تجتمع النسوة في بيت العريس بدعوة من امه او جدته او شقيقته...الخ بينما يجتمع الرجال في الطرف الاخر من البيت... والمبدأ فيه لتجمع النساء، واما العادة فيجتمع الرجال ايضا. وبالمقابل تتجمع النسوة ايضا في بيت العروس يغنين عندها، ويأخذن نصيبهن من الحناء.

والان نتحدث عن الأمر بالتفصيل:

منذ الصباح، تستيقظ ام العريس نشطة، وتنظف البيت، والاواني، وترتب كل شيء، وتوقد النار بينما يضع احد الرجال القهوة في الشق، وينطلق الدخان عاليا كنذير بوجود شيء ملفت للنظر، ثم تقوم الام المذكورة او من ينوبها باخراج ملابس العروس التي ستهدى اليها وهي منديل، ودريعية نصية (ما يشبه الجاكيت)، والعباءة، وتضع كل هذه على حبل تربطه خصيصا اما داخل البيت من واسط الكاسر (الواسط الذي يكون في نهاية البيت من طرف المحرم الذي فيه الاناث)، الى واسط الساحة وهو الذي يفصل بين موضع النساء والرجال في البيت، ومع وضع هذه الملابس على الحبل تنطلق الزغاريد، وكلمات (مبروك، يا ريته مبروك)، وقد تنشرها على حبل يكون امام البيت ما بين نقطتي انتهاء الحبلين بالبيت عند الواسطين المذكورين آنفا.

ويدق المهباش مع الزغاريد: بينما تفوح رائحة القهوة، وبذلك نرى ان الدعوة للحضور قد تمثلت في هذه الوسائل (دخان، وصوت المهباش، ورائحة القهوة، والزغاريد، وشر "اي نشر الملابس")،... هذا بالاضافة الى ارسال فتاة او طفل لم يبلغ الحلم بعد من

قبل ام العريس أو من ينوب عنها، لدعوة النسوة الجارات والجارات بالجنب، وجار الجار حتى سابع جار، ومن قد يعتبن من الاقارب في نفس الحي.

وتتوافد النسوة وقد لبسن حلة مقبولة (ان لم تكن احسن ما لديهن من حلة)، لانه يوم فرح والتزين فيه لا يظهر زينة الانثى او يعبر عن مدى مشاركتها للفرحة فحسب، بل يدل على مدى اهتمام هذه الانثى بهذه الفرحة وهذه الدعوة ايضا والمبدأ في الخياط ان تحضره النسوة المتزوجات[1] وفي العادة تحضره الفتيات ايضا، وكلما دخلت انثى او وفد نسائي انطلق زغرود، والذي يحل محل العيار الناري بالنسبة للرجال، ففي العادة عندما يدخل رجال في الافراح، اويأتي فوج جديد، يستقبلهم المعازيب بالعيارات النارية، بينما تزغرد النسوة فرحا بذلك، تماما كما هو الامر عندما يزداد حماس القوم في المعركة اذا وصلهم مدد جديد وانضم اليهم.

ومن وسائل الدعوة ايضا: التفورد[2]: حيث تبدأ النسوة الحاضرات اذا وصل العدد الى اربعة، يبدأن (بالتفورد)، مما يشجع ويحمس البقية ان يسرعن بالحضور والتوافد، ويجوز المجيء بدون دعوة، لأن الوسائل التي ذكرنا هي عبارة عن لغة صمت بالدعوة...

وكلما جاء فوج قالوا: مبارك، او مبروك، ان شاء الله تهنوا وما تعنوا (اي تهنأوا بلا عناء ولا تعب ولا مصاعب، وتصب احدى نساء المعازيب القهوة للضيفات او لنقل للوافدات، وقد يصبها احد المعازيب، وليس في ذلك حرج او معابة.

وتكتمل الحلقة بحضور عدد مناسب من الاناث يمثل مختلف اطراف الحي او العشيرة او العائلة، وهنا ينطلقن بالغناء (التفورد) ونجد ان البدء دائما: باسم الله، والتوكل على الله والدعوة بالخير، وتسهيل الامور، والتوفيق، وانهم بوجه الله، وبوجه النبي من كل شر وسوء ومن ذلك قولهن:

حنـــا نوينـــا واتكلنـــا باللّه	**يا رب تسلـم من قصدْ باب الله**
يـــالخضر الأخضر وافتـح البوابة	**(ولـد) دخيـل عالنبـي واصحابه**

(الولد) هنا المقصود به العريس حيث يضعن اسمه ضمن القصيدة، واذا كان اسمه مركبا او طويلا، فيستعملن تصغير التحبب لكي لا ينكسر الــوزن مثـلا (عبدالرحيم – يقلن: رحيم بتشديد الياء): ومن اغاني البدء ايضا:

---

١) لان الفتيات في هذا الوقت مشغولات، ولا بد من توفير اصواتهن في الغناء الى يوم الفاردة، فاذا حضرن اليوم وغنين، فقد يعجزن عن فعل ذلك يوم غد، اما المتزوجات والنسوة المتوسطات، فعليهن القيام بالمهمة يوم الخياط، ويتركن الباقي للشابات، هذا بالاضافة الى ان النسوة يكن عادة في بيوتهن اثناء النهار، اما الفتيات فيجلبن الحطب والماء وربما يذهبن لرعاية الغنم.

٢) ومن وسائل الدعوة في هذه المناسبة ايضا اطلاق عدة عيارات نارية، والتي هي في الاصل لدعوة القوم لشيء مهم وطارىء وسريع، وسبق ان شرحناها، وهم هنا يستعملون هذا الاسلوب لدعوة الرجال والحريم ايضا، كما ان الاخبار تكون قد وصلت لابناء العشيرة ان يوم الخياط هو اليوم الفلاني، خاصة وانه عادة يوم الاربعاء من الاسبوع.

اول ما نبــدي برشيــد وراشد وثاني ما نبـدي بالصــلاة عالنبي
صلوا عالنبـي وانتـوا يالحضرية صــلاة محمــد تطــرد اللعنية

وبذلك نرى ان البدو اذا ما بدأوا بأي عمل يرتجون منه الخير بدأوا باسم الله والصلاة على رسول الله، لأن ذكرهما يكون مع كل خير ونعمة وبركة، واما (رشيد وراشد)،اي الرشاد والسداد والفلاح، وذلك بالصلاة على النبي، ثم تتسع الدائرة الى الحضور ان يلفظوا ذلك، لأن الصلاة على رسول الله تطرد اللعنة والشر، والشيطان، فاذا ما كانت هنالك اية لعنة مقصود بها تسليط الشر على هؤلاءفان الصلاة على الرسول تطردها.

ويتم توزيع الحناء يوم الخياط على الحاضرات والغائبات بطريقتين:

الأولى باهداء كمية منها على شكل مسحوق لكل واحدة بحيث تكفي الكمية لليدين ولمفرق الراس.

واما الثانية فهي بتوزيعها بشكل معجون وذلك بخلط كمية كبيرة منها بالماء وفي المساء تقوم الاناث الخاصات بالعريس بالذهاب للنساء في بيوتهن واهدائهن كمية كافية لحناء اليدين او بتوزيعها عليهن عند حضورهن في المساء الى بيت العريس.

ونرى في توزيع الحناء تعبيرا عن العمل الجماعي المتعاون، وكيف ان الفرحة في الاصل هي للجميع الذين هم في الاصل شيء واحد، ولكنهم تكاثروا وتفرقوا، ولا بد من دلالة على الفرحة المشتركة بينهم، في أن الحاضرات مسرورات بهذه المناسبة (بقبولهن الحناء)، وحضورهن الخياط، وان اهل العروس مسرورون بمجيء هؤلاء، ومشاركتهن بتوزيع هذه الكميات القليلة، انها ايضا تفاؤل باليمن والخير والبركة ان الخير يجب ان يدخل كل بيت، وان يعمه الفرح الذي ليس للعروس واهلها فحسب، بل ولمن حولها من الاقارب والجيران والاصدقاء، فرحة بسترها، والعثور على شريك حياتها... وقد نستطيع اعطاء تفسير في جانب اخر ان الحناء تعبير عن الدم والحرب والقتال الذي به يأخذ الانسان صيدته، ويحقق هدفه، ولكن بدلا من هذا يبقى اللون فقط، وهو الأحمر.

ولا ننسى ان الحناء تكسب الفتاة جمالا ونضارة، بالاضافة الى انها تعطي نعومة للجسد حتى ان العروس، والمتزوجات يضعنها ايضا في اماكن حساسة، كما ان العروس تخضب رجليها بالحناء...وكل هذا يزيدها زهوا وجمالا... ويفضل ان توزع الحناء على جميع الفتيات اللواتي سيذهبن مع الفاردة، لتكون حلتهن وجمالهن في صبيحة اليوم التالي في أروع صورها وبهائها. ولا يحسدن العروس على ما هي عليه، ولا ترى نفسها غريبة عليهن، حتى ان بعض (الفرادات)، والمفرد فرادة بتشديد الراء يلبسن اجمل مما تلبس العروس، ولكن العروس تعرف بامارات خاصة (بتغطية الوجه، وركوبها على فرس او حصان، يقوده شخص...الخ)

وعلى كل انثى وصلتها الحناء ان تستعملها، تعبيرا منها عن مشاركتها للفرحة كما قلنا، واثباتا لمحبتها الخير للعروس والعريس بقبولها الحناء.

اما الغداء يوم الخياط فلا بد منه، فهذا الجمع من النساء والرجال الذين يمكثون يوما تمر خلاله فترة وجبة الغداء، لا بد من اكرامهم كضيوف، بغداء يكون اما ذبيحة (اي منسف) او فويرة (اي ثريد من مرق اللبن وعليه السمن)، ويعتمد هذا الامر بحسب اهمية الحضور، فاذا كانوا من العاديين والجيران، فتكفي (فويرة)، واما اذا كانوا من ذوي الشأن او من طرف بعيد، بحيث يقتضي الامر بياض الوجه، والاكرام الزائد، فان (الذبيحة) تصبح امرا محتما.

ولنفسية المعزب هل هو بخيل ام كريم دور كبير ايضا في تحديد نوعية الغداء، بالاضافة الى ما هو عليه من حالة عادية، فاذا كان ميسورا اختلف الامر عنه اذا كان في ضنك من عيشه...

وقد يحضر عدد من الرجال ايضا، ويلعبون على الخيل (صابية)، ويطلقون العيارات النارية، ابتهاجا بهذه المناسبة العزيزة، ولكن دون ان يتعبوا الخيل او ينفذ منهم العتاد، وذلك استعدادا لليوم الذي يليه (الفاردة)... كما ان اعمالهم هذه تعبير عن اختبار قوتهم وقدرتهم تماما مثلما تستعد جهة حديثة لخوض معركة، فهي قبل كل هذا وقبيل ساعة الصفر، لا بد ان تختبر معداتها، وجيوشها انها قادرة على البدء بالعمل، غير منهكة القوى، وقد يتم اجراء عرض عسكري، او مناورة حربية استعدادا لذلك، وهذا شبيه تماما بما يحصل عند البدو، وان كان بصورة بسيطة للغاية.

ومما يحصل يوم الخياط ايضا تجهيز (الفرادات)(بتشديد الراء)، وذلك بابلاغ عدد من الفتيات بالذهاب مع الفاردة (القطار) والتأكد من الموافقة التي تتم بمعرفة ولي امر الفتاة وامها، بالاضافة اليها هي شخصيا، فاذا ما عرف القوم اعداد الذاهبات قسموا العدد على اثنين فورا اذا كانت المسافة بعيدة والمشوار يحتاج للركوب على الجمال.

وببساطة يعرفون حاجتهم لعدد الجمال (البعارين – مفردها بعير)، لتركبها الفرادات لدى اهل العريس، استعاروا الباقي من لدن الجيران والاصدقاء، والاقارب، ومعها يستعيرون المفارش (مفردها مفرش)، والبسط (بضم الباء والسين – ومفردها بساط)، حيث يتم فرد احدها فوق شداد الجمل، بينما يطوى الثاني بما يسمونه (حوية) اي دائرة مريحة تجلس فيها فتاتان على الجمل الواحد...

ويتم الاستعداد لكل هذا بحيث يكون مساء يوم الخياط جاهزا، وتبات الابل لدى بيت العريس، حيث يطعمونها وجبة محرزة لتقدر على السفر بدون عناء...

وتتجلى صورة التعاون الكبيرة بين افراد القوم في جميع المناسبات الضرورية ومنها هذه المناسبة، فاذا احتاج احدهم الى شيء يفتقده، وموجود عند غيره، لا يتوانى عن اعطائه له لمدة تطول او تقصر حسب الظروف والهدف، ونوعية الشيء، وما هذه الاستعارة للجمال، والمفارش الا تعبيراً عن التعاون المؤدي لبياض وجه الجميع، فكلهم يسعون لأن

يظهر الفرح امام الناس بصورة مناسبة، حيث ان القصور هو قصور للجميع، وتعبير عن عدم المحبة والتعاون، وهذا ما يتحاشاه البدوي الذي يحبذ دائما ان يظهر للآخرين انه وقومه اقوياء كالبنيان المرصوص...

ولا ننسى انه يجب اعلام اهل العروس مسبقا بترتيبات الزفاف، وتحديد يومه تماما، ويتم في هذا اليوم خياطة الثوب الذي ترتديه العروس ليؤخذ مع الفاردة غدا وتلبسه العروس. **وأما ما يحدث عند اهل العروس في يوم الخياط،** فهو دعوة الفتيات والنساء فقط للتوديع، ويغنين، ويزغردن، وقد يبكين، وتوزع عليهن الحناء بنفس الاسلوب الذي تم عند اهل العريس... كما انهن يتناولن وجبة طعام الغداء... وتبقى العروس اليوم جالسة في البيت وذلك لترتاح استعدادا لايام قادمة متعبة ومرهقة لطول السفر وما يليه من ليلة الزفاف. كما انها تستحم اليوم، وتنظف نفسها حسبما يصدر اليها من اوامر من والدتها او شقيقتها او احدى اترابها اللواتي تزوجن قبلها، وتعطيها الدروس في كيفية التعامل مع العريس في الليلة الاولى، وكيف تكسب قلبه، وما الى ذلك...

وتتضمن اغاني النساء عند العروس معاني الحزن والفراق والألم، وكيف انها جزء من الجسم سيقتطع ليغرس في جسم آخر، وكيف ان الحياة التي مرت قد مضت وانقضت كلمح البصر، وانها الان تغادر بسرعة حتى انها لم تودع بنات جيلها، ومن ذلك:

يمــه يا يمــة وحشـــيلي قراميلي طلعت انا من البيت وما ودعـت جيلي
يمــة يا يمــه وحشـــيلي مخداتي طلعت انا من البيت وما ودعت خياتي

وقد تجد ام العروس باكية دموع الفرحة والفراق، وبذلك نرى انها تمثل اجمل مشهد في الدراما الكوميدية. عندما يضحك الانسان وهو يبكي، او يبكي وهو يضحك.

ويتم ايضا توزيع الحلوى والعطر كتعبير عن حلاوة الامر، وروعته وزكاء رائحته، بالاضافة الى التيمن بكل هذه الأمور عندما تكون من عند العروس، خاصة للفتيات اللواتي لم يتزوجن بعد، حتى ان بعضهن يمسكن بها، ثم يمسحن ايديهن على انفسهن، او تحك الواحدة ساقها بساق العروس، املا في ان ييسر الله لها زوجا كما يسر لهذه العروس...فالافراح كلها خير، ولا يتوانى البدوي ان يأخذ من هذا الخير ما استطاع.

مما سبق نرى ان الفرحة والاستعداد لها ليست في ديار طرف دون الاخر، وانما لدى الجهتين، فاذا كانت فرحة العريس واهله هجومية، فانها لدى العروس واهلها دفاعية استسلامية... وكل ينتظر غدا للالتحام ثم للانفصال من جديد بكسب الطرف الأول لصيده من الطرف الثاني، والعودة بها الى موقعه الذي انطلق منه.

بقي ان نقول: أن أهل العريس يستعدون لطلبات اهل العروس: العم، الخال، الأب، الأخ، الأم، اولاد العم. فأما العم والخال والأب والأم، فلكل منهم عباءة او ثمنها، ما عدا الأم التي تعطى اليها عباءة حقيقية أو دريعية. وحطة (منديل كبير من الحرير غالي الثمن يلبس على الرأس على شكل عصبة او منديل عادي)، واما اولاد العم فلهم الرضى

سواء بالجاهات الانية في حينه او بالمال، او بالناموس اي باثارة النخوة في نفوسهم... وقد يتصدى للفاردة ايضا شباب من الحي يريدون اكرامية لهم على ما افتقدوه من حيهم او عشيرتهم، وكأنهم بذلك يطالبون بحقهم في ذلك... حتى سميت لدى بعض البدو المستقرين (شاة شباب) اي شاة يذبحونها ويأكلون لحمها، اي بمثابة صيدة او وجبة طعام، يكتسبونها من الخارج، وبالاضافة الى كل هذا فقد يتوقعون هجوما، وتمنعا من الأهل والاقارب، وكثيرا ما تحدث مشاجرات قوية في مثل هذه المواقف.

كل ما سبق يأخذه اهل العريس بعين الاعتبار، ويستعدون بالمال للأمور التي تحتاج الى مال، فاذا لم يتوفر لديهم اخذوه قرضة من هذا وذاك، ويكون معهم احتياطي حتى لا يظهر اي قصور منهم امام الاخرين وحتى لا يقال لهم (معرسين ومفلسين[1])، او (تريدون بنات الناس بالافلاس)، انهم يحاولون الظهور بالقوة والغنى حتى ولو كانوا غير ذلك؟!

واما الامور التي تحتاج الى قوة، فيستعدون لها بهذه اللغة، فعلى كل ذاهب بالفاردة ان يحمل معه سلاحه وعتاده، وان يمتطي فرسه او ذلوله ان وجدت، ليظهر قويا، وكما انهم يجمعون اكبر قدر ممكن من المحاربين (الرجال) الذين يؤدون دورا اخر في الفاردة وهو حماية النساء اللواتي في الفاردة والجمال من اي غاز او معتد اثيم.

ويجتمع كبير القوم الى رجاله قبل ذهابهم،أن يكونوا مؤدبين بقوة، ولطيفين بعنف، وصامتين بكلام، وان يتصرفوا بما يليق بهم كضيوف، وطلاب حق... وان يتجنبوا الاصطدام بالقوم حتى لا يعودوا خاسرين بدون عروس، حتى ولو سمعوا شتمهم بأذانهم يتظاهرون أنهم لم يسمعوه لأن المهم لديهم هو جلب العروس وليس الحرب والضرب، والشتام والخصام.

وبالمقابل نجد عند اهل العروس استعدادات استقبال القوم لصنع الطعام لهم، وحصر المطالب سلفا، فيعرفون من المطالب؟ وبماذا يطالب؟ وقد ينهون بعضهم، وقد يوزعون الادوار، وكل هذا يعتمد على نوعيتهم من جهة، وعلاقتهم باهل العريس من جهة اخرى.

وحول موضوع الاعراس والفاردة قرأت ما يحدث في بادية غربي السودان (حيث ديار قبائل الكبابيش)، وهو مشابه لما يحدث في باديتنا احيانا، ومخالف لها احيانا اخرى، وان اتفقت من حيث المبادىء في ذلك.

وفي كتاب ذكرياتي في البادية تأليف حسن نحيلة نجد حول هذا الموضوع ما يلي[2]:
وجاء وقت السيرة (اي المسيرة)، وأنا انظر للعريس يتهيأ، لقد لبس ثيابا جديدة كلها من الديلان (نوع من القماش) الناصع البياض، وسروالا طويلا، وقميصا تجاوز الركبتين بقليل، وثوبا كاسيا كبيرا يتدلى طرفاه حتى مواطىء قدميه، وتضمخ النساء راسه بالعزيرة

---

١) مفلسين (من الافلاس) اي لا مال عندهم يدفعونه لمستحقيه لياخذوا حقهم... ومعنى (معرسين ومفلسين) اي يطلبون عروسا للزواج، ولا مال عندهم يدفعون ما يستحق عليهم، بالاضافة لما يدل عليه هذا القول من التطفل، والضعف، والسوء، وانه باحث عن اللذة بدون مقومات للحصول عليها بحقها الاساسي.

٢) منشورات دار مكتبة دار الحياة – بيروت ص ١٤٧ وما بعدها.

(نوع من الاصباغ) ولفوا على رأسه منديلا يتوسطه خرص من الذهب عند الجبهة، وفي يده الحريرة ذات الخرزة الخضراء، وسوار من الفضة، وعلى عنقه سبحة من اليسر الاسود، وفي يده سوط وسيف، ثم جيء بعظمتين، متصلتين من عظام السمك، ربطتا مع الحريرة في يده بجوار السوار، وحرت في تعليل هذا التقليد من اين جاء للبدويين (البدو)، وهم في الصحراء التي لا يرى فيها السمك، وقل من بينهم من رآه بعينه...الخ، وقد عرفت ان العروس تلبس ايضا مثلهما مع ما تلبس من حلي العرس...الخ.

وتجمع اصدقاء العريس على ظهور الجمال والخيل وانطلقت الزغاريد والاغاني، وجاء بعض الفتيات يحملن مجامر الطيب والدخان العطر يعبق في الجو، ودوى صوت ادلوكة (ربما تكون شيئا كالطبل) يحملها بعض الاماء على اكتافهن، وتحرك الموكب صوب دار العروس[1] ...بعد ان امتطى العريس جوادا مطهما[2] واحاطت به الفتيات من اهله من جانبي الحصان ومن خلفه وظهره يغنين ويرقصن[3] وقد اخذ بعضهن بمقود الحصان... كان الفتيات يرقصن وهن سائرات على طول الطريق، وكن يحرصن على الاحاطة بالعريس وان يمنحنه (الشبال) وهو يهز بالسوط او السيف ومقود الفرس تتناويه الفتيات من خاصة اهله والبخور في ايدي بعضهن يعبق من حوله، واسراب اخرى ترقص من كل جانب، والفتيات على ظهور الخيل تارة يبدون فروسيتهم بان يطلقوا للخيل اعنتها لتعدو بهم كالجن، وتارة يحفون به يبشرون ويتصايحون، والموكب يقترب من دار العروس، وكلما دنا منه زاد تصايح الفرسان، وعلت زغاريد النساء وتكاثر السرب الراقص حول العريس، وانهالت الشبالات على ملابسه من كل راقصة حوله وهن يتوثبن كالفراشات ليبلغنه بالشبال بينما الحصان يتهادى به بينهن، ومقوده يتنقل بين ايديهن.

ونقترب من الحجيل، وهي خيمة صغيرة مربعة من الدمورية البيضاء تعمل خصيصا للعروسين (وتسمى في البادية الاردنية البرزة)...

وما يكاد الموكب يبلغ الحجيل حتى يجتمع الشبان حول العريس قبل ان ينزل عن حصانه، وتخرج ام العروس من خبائها الى لقائه، وتدنوا من مقود الحصان وتتناوله، لتطلب من العريس ان ينزل بالكرامة في دارها، وتعلن انها تنزله باهدائها اليه كذا من الابل او الغنم، وهكذا يستقبل العريس حياته الجديدة بهدية سخية من ام العروس، ابلا او غنما حسب ثراء الاسرة، ثم يتتابع اصدقاؤه، ليعلن اليه كل منهم انه يهديه كذا من الابل او كذا من الغنم، وهذا يشبه عندنا النقطة[4]، ويظل العريس امام الحجيل على حصانه يتقبل هدايا اصدقاءه واهله من الابل والغنم، بعد ان تقبل تحية ام العروس وهديتها اولا، بينما رصاص رفاقه يئز ويدوي في الفضاء فرحة وبهجة، والزغاريد تتعالى والعطر العبق يتلوى من المباخر في ايدي الحسان وهن يتماوجن حوله راقصات وقد

---

١) نرى بذلك أن الزفاف يكون من بيت العريس الى بيت اهل العروس حيث تجري مراسيم الزواج هنا.
٢) انهم يتيمنون بركوب الخيل اينما كان من البادية الاسلامية.
٣) نرى ان النساء يشاركن في الفاردة كما هو في البادية الاردنية، ويمارسن الغناء والرقص بينما في الاردن يقتصر الامر على الغناء فقط، ولعل طبيعة البيئة عندهم تفرض زيادة الرقص في مراسيم الفاردة.
٤) في البادية الاردنية يسمى النقوط الذي يكون مالا او عقارا او مواشي وسنأتي الى تفصيل ذلك في فصل النقوط

كشفن عن مفاتنهن في غير خشية، وبعد ان تتم كل هذه المراسم ينزل العريس عن حصانه، ويدخل ورفاقه (الحجيل)، بينما تذهب فتيات العريس الى خباء العروس، ويواصل تقديم المريسة (وهي المسماة بالبادية الاردنية اللبن او المريسة ايضا بنفس اللفظ والمعنى)، والطعام لهم مثلما كان يحدث صباحا في دار العريس.

وهنا يجب ان يكون العريس قد قدم سلفا لام العروس عددا من الخراف والابل وفق حالته المادية لتتصرف فيها كما تشاء، فقد تذبح منها لاكرام ضيوفها، وقد تهدي منها من تشاء وقد تحتفظ بها لنفسها، ويدفع العريس المهر العادي قدرا من الجنيهات وعليه ان يشتري كل الملابس التي يراها للعروس، وقد يبالغ الاثرياء منهم فيشتري العريس عددا كبيرا من الثياب والملابس لا لتلبسها العروس وحدها، وانما لتهدي منها لصويحباتها وقريباتها ومن خدمنها خلال ايام العرس[1]، التي يجب ان تمتد الى اربعين يوما كاملة، لا يزاول لعريس خلالها عملا ولا ينزع ثياب العرس التي جاء بها اطلاقا، حتى يستحيل لونها الى السواد بفضل البخور والعطور والدهون (والدلكة) التي يوالي بها صباح مساء طيلة ايام العرس، وتحرم عاداتهم على العريس ان يغير ثياب عرسه التي لبسها جديدة منذ اول يوم حتى يكمل الاربعين كما ليس للعروس ايضا ان تغسل ثياب عرسها الا بعد الاربعين ايضا، الا ان العروس احسن حظا من العريس اذ لها ان تغير ملابسها باخرى جديدة مما جيء به اليها لمناسبة العرس، وليس للعريس هذا الحق.

وتتبعت مراسيم العرس بشغف، وجيء بالعروس تتهادى، واخواتها يحطن بها، وقد لفت في الثياب ولم يبن منها شيء[2] واوقفت (العروس) وسط الحجيل، وامتدت يد العريس من تحت ثوب العروس ليقطع من الرهط (سبع سيور رقيقة ايذانا بانتقال الفتاة من حياة الى حياة).

وفي اليوم الثالث تولم ام العروس وليمة كبيرة ينصرف بعدها أهل العريس واصدقاؤه الى احيائهم، ويترك العروسان وحدهما يبدآن حياتهما الزوجية ويظل العريس حبيس (حجيلة) لا يغادره الا لماما لمدة اربعين يوما، يضمخ بالعطور والدهون، ويدلك جسمه ويعنى بطعامه وشرابه، حتى تتبدل حاله ويبدو عليه السمن، وهذا يعني عناية اهل العروس به، وفي يوم الاربعين توجه الدعوة الى اهله واصحابه وتذبح الذبائح وتجدد مظاهر الفرح، ويدور الرقص بين الفتية والفتيات، وفي هذا اليوم ويسمى يوم الغسيل، تغسل ثياب العروس والعريس، بعد ان تكون العطور والدهون قد جعلتها داكنة اقرب الى السواد.[3] "أهـ"

الاستعداد النهائي:

ويبدأ ما يمكن ان نسميه العد العكسي في اقتراب ساعة الصفر للحركة نحو الهدف،

---

١) وهذه تسمى في البادية الاردنية (اللبسة) بتشديد اللام وضمها او كسرها وقد تحدثنا عنها.

٢) تغطية العروس كاملة عادة موجودة في البادية الاردنية ايضا.

٣) نفس المرجع السابق ص ١٥٠ – ١٥١

وهو جلب العروس، او لنقل (نقلها) او (المجيء بالصيدة وكسبها) ولا بد لهذا من وسيلة وزمن وظروف، اما الظروف فهي واضحة حيث الافراح، والزغاريد، وتجمع القوم، واستعدادهم النفسي، اذ انه عادة لا تتم العملية الا وقد وصلوا الى هذه التهيئة النفسية في ان يروا شخصا يأتي بفتاة ليفترعها (وبالطبع هنا بسنة الله وسنة رسوله) اي بالحلال، بينما لو تم هذا عكسا لما وجد هذان الشابان الا الموت الزؤام ولو تم بدون استعداد وتهيئة لقوبل بالاستنكار والغضب، او بما قاربهما لكنهم ينفسون عن ذلك بوصم الشخص بالبخل، او ربما يكون قد اقترف مع الفتاة شيئا معيبا بحيث تم التستر والخفية... ونجد ان الاسلام قد تنبه للنفسية البدوية والعربية بل والانسانية جمعاء، وامر باعلان الزواج، ليعلم به اكبر قدر ممكن من الناس مع من ينطوي عليه من فلسفة اخرى، ودروس وعبر لا مقام لذكرها هنا. اما الوسيلة فقد كان المهر جزءا منها، كما ان الذهاب للعروس وجلبها يعتمد على بعدها او قربها، فاذا كانت في (شنق العرب) اي طرف الفريق او الحي ذهبوا اليها راجلين، واذا كانوا في مكان بعيد قليلا يتحمل مسيرة عدة ساعات جاءوا بالابل لتنقل الاناث (الفرادات – ومفردها فرادة (وهي الانثى التي تذهب مع الفاردة لجلب العروس)..

ونحن نريد التحدث هنا عن الاستعداد للذاهبين على الابل، حيث يتم جمع اكبر قدر ممكن من الجمال (مفردها جمل)، من الجيران والاقارب اذا لم تتوفر كلها من العريس او والده او اعمامه...الخ ويؤتى بالجمل وعليه الشداد (الوثر – بكسر الواو والثاء وفتح الألف وتسكين اللام)، ثم يوضع عليه بساط (مفرش) بشكل منفرد، بحيث يزيد من جمال وزينة الجمل. ثم يؤتى ببساط (مفرش) اخر ويطوى طولا بما يسمى حوية، ويربط طرفاه من فوق (الوثر – الشداد) بحيث يشكل شبه دائرة، ويربط الى الوثر ربطا محكما كي لا يتحرك هذا بالاضافة الى تجميل المركب. (اذا صح هذا التعبير) بوسائل الزينة المختلفة من الاقمشة ذات الألوان الزاهية والصاخبة.. وعادة يكون على كل جمل فتاتان او ثلاث فتيات.

بينما يجهز جمل خاص للعروس اذا كانت المسافة طويلة بعيدة، ويجهز لها (فرس صبحا) اي غراء اذا كانت المسافة متوسطة او قصيرة... واذا كان للعروس جملا فيجب ان تركب عليه فتاة من قريبات العريس ممن يتوسم فيها الخير والبركة، وتعود على متن نفس الجمل عندما يؤتى بالعروس وتكون رفيقة لها، واحيانا تركب فتاتان، وتكون العروس ثالثتهما.

قلنا: انه يتم تحضير الابل، واطعامها علفا مناسبا لتكون قادرة على المسير بلا كلل او تعب، خاصة وان البدو يعتنون بابلهم وخيولهم كما يعنون بابنائهم. وتناخ هذه امام بيت العريس في الوقت الذي يهيأ فيه الاثاث الكافي، لاستعماله بعد ان يستيقظ النائمون لدى المعازيب، اذ العادة ان يتجمع القوم الذين تبعد ديارهم عن بيت العريس بحيث يستطيعون السفر صباحا مع الفاردة، اما اذا كانوا قادرين على الحضور في الوقت المناسب بدون عناء فلا ضرورة لنومهم لدى المعازيب...

ونستطيع القول ان بيت العريس عبارة عن محطة تجمع استعدادا للانطلاق وخوض المعركة ولا تقتصر هذه النقطة على الرجال، بل وتتعداها الى النساء ايضا، اذ يتم استدعاء الفتيات والنساء اللواتي سيشاركن في الفاردة، ويبلغن سلفا بالمهمة الموكولة اليهن، بموافقة اولياء امورهن، ولا يمكن ان يتم ذلك بدون مثل هذه الموافقة، لأن خروج الفتاة خارج البيت اصلا يجب ان يعرفه البدوي، وبموافقته فكيف اذا كان هذا للمشاركة في نشاط معين، ومشاركة للرجال سواء اكانوا غرباء ام من (الدم واللحم) كما يقولون.

والفتاة التي يتم اختيارها تكون سعيدة للغاية، وغالبا توزع ام العروس او اقرب انثى اليه الحناء عليهن، ليخضبن ايديهن كنوع من المشاركة في هذه الفرحة بصورة او باخرى وعليها ان ترتدي اجمل ما عندها من اللباس، والعطر، وقد يكون نصيبها ان تركب جمل اهلها، وهذا يتم بشرط او بدون شرط، وقد لا يتم اذ ليست هي هناك قاعدة معينة يجب التقيد بها.

ولا ينام المعازيب[1] الا وقد جهزوا الابل، والاثاث، والفتيات، وعرفوا بوجه تقريبي عدد من سيذهب من المعازيب مع الفاردة.

ولو نظرنا الى الرمز التعبيري لكل ما ذكرنا، لوجدنا ان هذه العملية كاملة اشبه ما تكون باستعدادتهم للمعركة التي يشارك فيها الرجال والنساء، من اجل تحقيق النصر والهدف بجميع الوسائل المتاحة ومهما كلف ذلك من ثمن، كما ان جمع الابل واخذها بطريقة (الاعارة) يعبر عن التعاون الجماعي عند الحاجة او هو استمرار لهذا التعاون التلقائي الذي تحول الى تعاون عند الحاجة فقط، او عند الطلب والضرورة ونجد في دعوة النساء والرجال ما يشبه التنادي عند الشدة والغزو، ويوجد (عادة) من الرجال من يرافق الفاردة ويسير معها (يغني،او يطارد على الخيل) او يسير صامتا، واقول قد يوجد مثل هؤلاء بدون دعوة ويحق لهم ذلك تماما مثلما يحق لأي شخص ان ينضم الى معركة وينحاز الى اي طرف يراه مناسبا له ولكن لا يمكن للفتيات ان تنضم اي واحدة (للفاردة) بدون دعوة وبدون علم اهلها، الا اذا كانت من اللواتي لا يجوز دعوتهن اصلا، لانهن معنيات بالدرجة الاولى بالفرحة، كاخوات العريس، والقريبات من حرمه، فهؤلاء واجب عليهن دعوة الاخريات لا ان ينتظرن الدعوة من غيرهن.

واذا كان المشوار طويلا، فان الصحجة (الرقصة – السامر) تنتهي مبكرا في الليلة التي تسبق المسير ليتمكن القوم من اخذ قسط من الراحة، حيث سيتعبون كثيرا... فينصرفون الى النوم بينما يستيقظون مبكرين، وما ان تبزغ الشمس واحيانا قبل ذلك حتى تكون (المدة) اي المسير الى حيث الهدف قد بدأت خطواتها الأولى.

اما النائمون في بيت العريس او لدى الجيران سواء ضيوف او معازيب فانهم

---

١) من العادات الطريفة اللطيفة عند البدو انه اذا ازداد عدد الوافدين الذين سينامون عند اهل العريس فانه يتم ترتيب الامور بوسيلتين الأولى هي جلب الفراش من عند الجيران لينام عليه الضيوف، والثانية ان يتوزع الضيوف على المعازيب والجيران كل حسب استطاعته ليهيء لهم المكان والفراش حتى صباح اليوم التالي، وهذا لا يحدث في حالات الفرح فحسب بل ويتعداه الى حالات الحزن او الضيوف الذين لا يتسع لهم مكان واحد في زمان واحد. وهذا الامر تعاون لطيف واستمرار لمبدأ التعاون الجماعي عندما يعجز الفرد عن تحقيق ذلك.

يتأهبون منذ الفجر وعادة تكون الاشارة، طلوع نجمة الصبح، ويدق المهباش، ويحمص البن، وتساوى القهوة، ويؤتى بطعام خفيف يسمى (كسر الصفرة) اي اللقيمات او اللقمة التي يتناولها الشخص (على الريق) - قبل تناوله للوجبة الرئيسية او اي طعام، وقد يبقى البعض على (زبد بطنه)، كما يقولون، اي لا يتناول شيئا في الصباح.

وفي ايقاد النار، ودق المهباش دعوة للقوم ليجتمعوا، ثم تضاف اليهما جعجعة (البعارين) (الاباعر) حيث يبدأون بالشد عليها وتقديم العلوفة اليها...

المســـير:

وبعد انهاء الاستعدادات تبدأ الفاردة - او القطار - او المدة فيقولون: سيروا وتوكلوا على الله - او مدوا وافلحوا، او شدينا ومدينا، واما اشارة البدء او الانطلاق فيعطيها كبير القوم، او الشيخ، تماما مثلما يعطي قائد المعركة اوامره بالحركة الى الهدف، وتبدأ المسيرة بعد التأكد من تجهيز الابل تماما، والنساء والرجال، ونستطيع القول انه يتم تقديم تقرير ميداني بسيط وسريع لعقيد القوم ان كل شيء على ما يرام، وهنا يكون البدء بكلمة (توكلوا على الله) وكلمات اخرى كلها ذكر لله والتوكل والاعتماد عليه، وانهم يسيرون برعايته وحصنه سبحانه، ويأمر العقيد احد القوم باطلاق عدد من العيارات النارية اذا لم يطلقها هو بنفسه، بينما تنطلق الزغاريد، وهذه ايذان بالبدء الفوري للتنفيذ، ووسط الزغاريد واغاني النساء، يقف رجال يغنون، بينما يقف شباب امام الاباعر، يمسك كل واحد منهم بخطام (رسن) الجمل ينتظر قدوم الفتيات، بينما يقوم اشخاص مهمون من المعازيب بتوزيع الفتيات على هذه الجمال، بحيث يقود كل جمل اقرب الشباب او الرجال للفتيات اللواتي يمتطينه، على اساس انه من محارمهن، وهن من حرماته.

وتتحرك الفتيات كل اثنتين او ثلاثة وقد تقنعن بعباءة غالبا ما تكون عباءة احد الرجال القريب لهن او لاحداهن - كالاب او الأخ... الخ، ويغنين من داخل البيت حتى يصلن امامه (بضعة امتار) حيث الجمال المناخة، وحيث يركبن وتبدأ مسيرتهن.

واول ما تقول الفتيات في الغناء كلمات فيها ذكر الله سبحانه:

حنـــا نوينـــا واتكلنـــا بالله	يا رب تسلـم من قصـد باب الله
يـــالخضر الاخضر وافتـح البوابة	وانـــا دخيـل ع النبـي واصحابه

وبعد أن يمتطين الجمال، وربما قبل ذلك ايضا نجد هذه الابيات في غنائهن:

ياما مشينـــا بسمـــوم وضاحي	يـــا خي ولـــد ردنـــا نرتاح
يـــا بي ولـــد وســـع الميدان	والعـــز لك والفـــرح للصبياني
طلي (يا فلانة) من شبـاك القصر	بيـك وربوعـه ادعـي له بالنصر

وبذلك يكون التوكل على الله، والدعاء اليه ان يسلموا من كل اذى، وعثرة وسوء وبلاء، ثم انهم يتيمنون خيرا بالخضر الاخضر، وبالنبي عليه السلام، وباصحابه رضوان الله عليهم ويتوسلون الى الله بجاه كل هؤلاء ان يحفظ الفاردة وما ضمت.

ثم تعزي النساء بعضهن، ويعزين الرجال بما سيلاقون من نصب وتعب، وانه ليس هذا هو اليوم الأول ولا الاخير، فطالما ساروا بوقت حار سام الحرارة، ووقت الضحى حيث يبدأ اشتعالها، واشتدادها، ومع هذا تعبر المرأة عن طبيعتها الضعيفة وتطلب ان يردهن صاحب الفرح ليرتحن بلا عناء، وهذا لا يمكن ان يتحقق الا بعد المجيء بالعروس وتحقيق الهدف.

واثناء ركوب الابل ينقطع الغناء قليلا، بينما تنطلق الزغاريد، وقد تقوم ام العروس برش العطر على رؤوس (الفرادات – الفتيات اللواتي يغنين): وقد تقوم ايضا بنثر الحلوى على الارض كدليل خير ويمن وبركة. وانها نزلت من السماء الى الارض حلوة جميلة، وقد لا يتوفر الحلو والعطر، او لا يتوفر الوقت لنثرهما، ورشهما...

وعندما تركب جميع الفتيات، تتجمع الابل واقفة وهن يغنين، وقد ينهض الجمل بعد الركوب عليه مباشرة او تبقى مناخة حتى يركب الجميع، ولكن لا تسير هذه الابل الا خلف (جمل العروس)، الذي يكون قائدها، وفي بداية المسيرة، يقوده احد ذوي العريس وتركب عليه فتاة او فتاتان، لأن تركه بدون ذلك ليس مستحسنا، بل ويتشاءمون بهذا الفراغ، ويتفاءلون بوجود اناث يغنين، ليبقى الفرح متصلا غير منفصل.

ولا تقتصر الفاردة عادة على **الابل**، بل هناك (الخيالة)، وهم رجال يمتطون صهوات جيادهم، وهناك (الرجلية) اي الذين يسيرون على اقدامهم، وهناك (راكبو الاذلة) اي الذين يذهبون مع الفاردة على اذلتهم (ومفردها ذلول – وهي الناقة او الجمل للسفر)، وهناك راكبي الحمير وينقسم الخيالية المرافقين للفاردة (اذا كان هناك خطر) الى قسمين الأول في بداية الفاردة، والثاني في مؤخرتها.

واهم من في الركب ضمن الفاردة **هم الخيالة** (الفرسان) لأن مهمتهم لا تقتصر على الغواية والصابية، وتكملة العدد فحسب، بل انهم يمثلون خط الدفاع ضد اي اعتداء وهمي او حقيقي وقد ذكرنا قبل قليل ان الفاردة تمثل الغزو والمعركة، وهذا يعني ان الصورة او الصيغة الحربية في روحها وفلسفتها تكمن في عناصر الفاردة ايضا، وبذلك نجد مدى اهمية الفرسان الشجعان، وكيف انهم (يتناخون)، (من النخوة)، ويتسابقون لاظهار مهارتهم امام الفتيات وعناصرها من جهة اخرى وقد يسير الخيالة وفي ثلاثات او ثنائي مزدوج يغنون ويتحادون، وقد يفعلون ذلك وهم يتسابقون، بينما النساء يغنين، وهن مقسمات دائما الى طرفين، وكل طرف يقابل مثيله، ويرد عليه بالغناء، ولا يشترط ان يغنين جميعا طيلة المسيرة (ما عدا في بداية الانطلاق)، وعند الوصول للهدف، اما على الطريق (خاصة اذا كانت طويلة) فانه يتم توزيع الادوار بينهن، بحيث يستمر الغناء من قسم، ثم يحل محله قسم اخر، وترتاح الباقيات، وهكذا، تكون الفرحة موضوع مشاركة الجميع، في الوقت الذي اخذت كل واحدة راحتها واستراحت، والأمر نفسه ينطبق

بالنسبة للرجال.. وبوجه عام فان غناء الرجال والنساء يمتزج ويستمر، كنوع من التعبير عن الفرحة من جهة، واعلان ذلك لدى الملأ من جهة اخرى.

هذا بالاضافة الى ان الخيالة ينقسمون الى قسمين (خاصة في حالة وجود الخطر على الفاردة) الأول في البداية كمقدمة للفاردة، والثاني في المؤخرة، ومهمة كل منهما هي الحماية والدفاع، وتوفير الثقة بالنفس، ليعمل الطاقم في جو من الامن والطمأنينة، خاصة وان الفاردة بحد ذاتها تمثل (الحلة والمحلة)، ولكنها متنقلة متحركة، فالدفاع عنها متنقل متحرك ايضا حيث توجد النساء، والمتاع والابل، ومع هذا فان البدوي لا يمكن ان يسلب الفاردة، أو العروس الا في حالات نادرة جدا جدا، وان مجرد الاحتمال الضئيل، وما تمثله الفاردة للحلة والمحلة، يجعل البدوي يتصرف هذا التصرف لضمان الحماية.

واما الأبل فهي لركوب الفرادات وحمل المتاع، بينما الحمير لنقل الرجال والنساء الذين لا اباعر لهم تحملهم وخاصة العجائز، والشيوخ (من تقدموا بالسن)، والاطفال وذلك ان هذا تعبير منهم عن الفرحة ومشاركة منهم فيها.

وهناك الراجلون الذين يسيرون على الاقدام وهم عادة من الشباب والرجال الاقوياء الذين لا خيل ولا جمال هم، وهم غالبا الذين يغنون اثناء السير.

اما اذا كانت المسافة قصيرة لا تتحمل الا ساعة من الزمن او اثنتين والمسماة عندهم (ضحوية) - اي بما يساوي وقت الضحى، وهو ما بعد ارتفاع الشمس حتى اقترابها من الظهر والذي يمكن تحديده ما بين الساعة السابعة والعاشرة صيفا (على سبيل المثال) - اذا كانت المسافة تستغرق ذلك تذهب الفاردة راجلة نساء ورجالا وان اعتادوا ان يباريهم الفرسان على صهوات جيادهم، لكنها بالتأكيد تكون بدون هوادج وجمال... ولكن قد توجد الحمير كركائب للعجائز وامثالهن كما سبق وقلنا، واذا كانت المسافة قريبة فانه لا يجوز دعوة الفاردة (وهي ذاهبة للعروس) لتناول الطعام عند احد على الطريق، اما اذا كانت بعيدة تستوجب ذلك فانه يجوز دعوتها، اما في العودة بعد الحصول على العروس فانه لا بد من وجود مثل هذه الدعوات التي تعتبر ضيافة، واكراما، ومقايضة ايضا، بل انه يتوجب على كل فريق من البيوت او بيت منفرد ان يتقدم بمثل هذه الدعوة، ولا يشترط قبولها، وسنفصل ذلك بعد قليل باذن الله[1]، اذا كانت المسافة طويلة، فالسير يبدأ مبكرا، بالاتكال على الله، وشد الرحال، وعند بدء المسيرة لا بد من اطلاق عيارات نارية مع الزغاريد، كدلالة على بدء الحب والحرب، واحيانا يلعب الفرسان بما يسمى الصابية، (او طراد الخيل)، **فالاولى تعبر عن الدعوة** كما سبق وشرحنا علاوة على ما تعنيه من القوة، والاستعداد للرد على العدو الذي تسول له نفسه بخطف العروس او الاعتداء على الفاردة... **اما الثانية (الزغاريد) فهي تعني الحب،**

---

[1] من موجبات الدعوة ايضا: ان يقدم شخص لاخر مثل هذه الدعوة، فعلى ذاك ان يقدم اخرى مشابهة عندما تحدث لديه مناسبة من نفس النمط والنوع، فاذا دعا احدهم فاردة الاخر فعلى الاخر ان يغتنم فرصة فاردة ذاك او اقرب الناس اليه ليرد الجميل الذي اسدي اليه من الاول. ومنها ايضا القرابة، ومنها الحسنى ان يكون صاحب الفاردة ذي حسنى عند شخص على طريقها فعليه ان يعرض الدعوة، وعلى اية حال فالمبدأ ان يتقدم الجميع للدعوة، ولكن العادة قبول واحدة على مبدأ فرض الكفاية.

والفرح، والسرور، ومشاركة العنصر النسائي، العنصر الضعيف الذي يحتاج الى الحماية والدفاع عنه، وبذلك تكون دلالة مكملة لدلالة الحرب والقوة وعنصر الرجال للدفاع والحماية المتمثل في اطلاق العيارات النارية... كما ان الخيل واللعب عليها دلالة القوة والمهارة والفروسية، ونشوة العصبية، بالاضافة الى الظهور امام (النشميات) - اي الفتيات -).

وتسلك الفاردة عادة الطرق السهلة الامينة، التي تمكن اعضاءها من الغناء، والسير معا دونما صعوبات، وعراقيل، كما ان توفير الماء امر ضروري اذا انعدم أمن الطرق التي ستسلكها الفاردة... ومما اتذكره ايضا، ان الفرادات (مفردها فرادة وهي الفتاة المشتركة في مسيرة العروس، وتغني) يحملن بيارق (مفردها بيرق اي علم) من قماش اخضر او ابيض او زهري، لكنه لا يكون احمر كاملا، وكل مجموعة من الفتيات (اثنتين او ثلاثة) يحملن بيرقا، وهذا يعطي منظرا جميلا بالفعل للفاردة، خاصة اذا اختلفت الالوان، وربما دلت هذه على راية الخير والسلام والمحبة، فهم اذا دعوا لشخص بالخير قالوا: الراية البيضا تغشاه، كما انهم يتفاءلون باللون الاخضر وبذلك فان اللونين (موضع إلتفاؤل) وهما الابيض والاخضر لا بد وان يأخذا موقعهما في الفاردة فالابيض دليل بياض السمعة والعرض، ونقاء الشرف، اما الاخضر فيعني النماء والخير والبركة. وكل هذه يعنيها البدو في امور الزواج بكل تأكيد، او يتمنون ان تكون كذلك!!

وفي العصر الحديث اذا سارت الفاردة في موكب السيارات نراها تحمل هذه البيارق او الاعلام من اللون ذاته (الاخضر والابيض) الذي استعمله البدو من قبل، كما انهم يزينون سيارة العروس بالقطن ذي اللون الابيض الدال على النقاء والصفاء، وبياض العرض، بينما وكر العروس الذي تصمد به (في العصر الحديث) يغلب عليه اللون الاخضر، وان وجد اللون الاحمر فهو دليل الخطر وربما دليل الدم الذي لا يخلو منه امر الزواج كما يعرف الجميع، واما العروس عند البدو فلها بيرقها الخاص الذي سنتحدث عنه ان شاء الله في حينه.

وكلما مرت الفاردة بفريق او حي من البيوت او من بقربهما تجمهر الناس لينظروا (ويتفرجوا)، ويستمعوا، وهذا نوع من حب الاستطلاع، تماماً مثلما يحدث في العصر الحديث عندما يمر موكب او استعراض عسكري، باحد الاحياء، ويتجمهر الناس ينظرون اليه بغض النظر الى الاهداف والاسباب.. فهذه طبيعة الانسان وان اختلفت الازمنة، والامكنة والوسائل.

وهناك احيانا نوع من المشاركة من هذه الاحياء التي تمر بها الفاردة، وتتمثل في اطلاق عيارات نارية، وزغاريد من النساء بالاضافة الى ان بعض الفرسان يقومون باستعراضات ضمن منطقة الحي، وكثيرا ما يحدث السباق (مسابقة) ما بين فرسان الفاردة وفرسان هذه الاحياء، والتي لا شك انها تمثل المشاركة بالفرحة بالاضافة الى التعبير عن صراع غير مسلح، وتمثيل لتدريب كلا الطرفين في كيفية الهجوم والدفاع، وتدريب الخيول، وتدريبهم هم، وقد يتحدثون طويلا كيف ان حصان او مهر فلان سبق

بقية الخيول... وقد تصبح المشاركة على شكل انضمام جماعات جـــــدد من هذه الاحياء للفاردة، خاصة من عنصر الشباب الخيالة او الراجلين، والذين يجدونها فرصة طيبة للتعبير عن طبيعة الشباب الميالة للفرح، والغواية امام الفتيات.

وعندما تتجاوز الفاردة هذا الحي او ذاك يعود المتفرجون ليتحدثون عنها، مع ما يتبع ذلك من مقارنة بين العائلات والعشائر، وفاردة فلان او فلانة...الخ.

ماذا يجري في بيت العروس:

كما ذكرنا سابقا يكون اهل العروس على علم واطلاع بيوم الزفاف، واحيانا وقت وصوله، حيث يتم تقدير ذلك حسب المسافة ونوعية الركائب، اما ساعة وصول الفاردة فان هناك اكثر من طريقة لمعرفتها: وذلك ان اهل الفاردة يرسلون شخصا (طارشا) ليخبر القوم ان وصول الفاردة اصبح قاب قوسين او ادنى بين لحظة واخرى، كما ان اهل العروس يرسلون الرواقيب (اي المراقبين) الذين ينظرون هل اقتربت الفاردة ام لا؟! وهم يستعملون المناظير احيانا والمسماة (درابيل) خاصة في الاراضي الصحراوية.

هذا بالاضافة الى ان الوسيلة الاخرى هي السماع والرؤيا، عندما يرى اهل العروس، الفاردة وقد اقبلت من بعيد، فهم بذلك يعرفون قدومها.

وهذه التصرفات تشبه تماما اي تصرف عسكري في الكشف عن الهدف، فمثلا (الطارش) يشبه الاستطلاع المسمى عند البدو (سبر) الذي يأتي بالخبر او يقوم بابلاغ خبر او دعاية معينة، واذا وجد أن الجو غير مناسب عاد واخبر الفاردة ليأخذوا حذرهم، ويحتاطوا لما تقتضيه الامور تماما مثلما يؤدي (السبر) اي الاستطلاع، او الكشافة او العمل الاستخباري الاولي، في المعركة البدوية البسيطة مهمته.

اما الرواقيب من اهل العروس فهم يقومون بنفس المهمة، فاذا كانت الفاردة اكثر عددا من المتوقع فيجب زيادة الطعام الذي صنعوه لافرادها ليكفيهم، وحتى (يستروا حالهم) مع انسبائهم الجدد، كما ان معرفة الوصول سلفا خير من المفاجأة لما يهيء الامر نفسية المستقبلين تهيئة طيبة، وذلك بالتأكيد خير من المفاجأة، بينما تزداد المغنيات حماسا، وتنطلق الزغاريد بصورة اكبر، ويركب فرسان الحي لاستقبال الفاردة، بنوع من المشاركة، والسباق معا، والاحترام، وتمثيل المعركة والحرب اما الباقون فيحمل كل واحد سلاحه، ويتأهب منتظرا، ويهيئون الفراش للضيوف.

ونحن الان في مضارب اهل العروس، وقد تأهبوا رجالا وركبانا لاستقبال ضيوفهم الذين هم ايضا يمثلون (اقول يمثلون من التمثيل) عدوا، او صائدا ينوي اخذ الصيدة واكتسابها، او اخذ الهدف ولكن ليس عنوة، وانما بالتراضي، وبقي ان تتم الاجراءات الاخرى من التظاهر بالاحتجاج والفرح اللذين يمتزجان معا علاوة على الاستعداد الشبيه بما هو للمعركة، ولكن بدون ضرب وحرب وانما تمثيلا لهما، او لنقل تعبيرا عنهما بما لا يؤذي الاخرين او يؤدي الى هلاكهما.

الرجال وقد تسلحوا بكامل اسلحتهم، ولبسوا ابهى حلتهم، والخيالة فوق صهوات

جيادهم في استعراض للقوة، واستقبال للضيوف، ليس لاحترامهم فحسب، بل وانما للبرهنة على انهم اقوياء، وان مصاهرتهم شيء مشرف، ولا غنى عنه لما يتمتعون به من قوة...

يطاردون ويتسابقون معا، ثم يقومون بنفس المهمة مع ضيوفهم اعضاء الفاردة. اما الرجال الاخرون فيبقى قسم منهم في البيت لاعداد الفراش، واخرون يستعدون لصب القهوة، وغيرهم لا بد من حضورهم، ورغم انه يمكننا القول انهم (تكملة عدد)، الا ان لكل واحد واجب ومهمة، ولحضوره تعبير عميق، واهمية كبيرة، سواء لمشاركته افراح قريبته، او كنوع من التضامن الاجتماعي والترابط الاسري، في ان الجميع متكاتفون في السراء والضراء وان الفرد يذوب في الجماعة من اجل الفرد، وان الجماعة تتحول الى فرد من اجل الفرد والجماعة.

واما في (المحرم) حيث تجلس العروس ومن حولها بنات الحي او الفريق يغنين ويزغردن الاغاني ذات الحنين المؤلم، والمبكي، اما هي فقد تفرح، وقد تتألم وعلى كلا الامرين فالدموع لا بد منها، والله وحده الذي يعلم ان كانت دموعا للفرح ام للغضب... وتكون قد اصطبغت يداها وقدماها، واحيانا شعرها، ومواطن الشعر الخفية فيها بالحناء لتعطي اللون الجميل الزاهي بالاضافة الى نعومة الجسم... كما تكون قد لبست احسن ما عندها من الالبسة... الثوب والعباءة، وقلائد الذهب او الودع، ومنديل الصوف، والدريعية، والحذاء، والخواتم، والاساور...الخ، اما بقية المتاع فيكون جاهزا للشحن والحمل، ولكن في العدول او المقارن، المعدة لذلك خصيصا، كما سبق وذكرنا في موقع سابق حول اثاث العروس ونوعيته وماهيته.

ولا بد أن تحمل معها الحلوى واحيانا العطور والتي تكون مع المتاع ايضا.

الفتيات والنساء من حولها يزغردن ويغنين ولكن على لسانها تارة، وعلى لسان المغنيات انفسهن تارة اخرى، فعلى لسانها يقلن:

يمـــه يا يمـــه وحشـــيلي مخداتي طلعت من البيت وما ودعت انا خياتي
يمـــه يا يمـــه وحشـــيلي قراميلي طلعت من البيت وما ودعت انا جيلي

واما الفتيات العزبات (ومفردها عند البدو اعزبة وهي الانثى التي تزوجت سابقا، وهي الان بدون زوج سواء بالطلاق او الموت، وتشمل ايضا الارملة التي مات عنها زوجها)... فهؤلاء يقمن بلمس العروس تيمنا وبركة ان يأتيهن نصيبهن كما اوتيت هذه العروس نصيبها من الزواج.

اما ام العروس فهي تبكي وتتألم لفراق ابنتها، وان كانت هذه فرحتها ان تجد لابنتها عريسا يسترها... وتقوم الأم بتوزيع الحلوى ليس على الحاضرات فحسب، بل وعلى الاطفال، اذ تضعه في وعاء وتقوم هي بتوزيعه كل واحدة بملء يدها او اكثر، او ان تضع هذا الوعاء امامهن وكل واحدة من الحاضرات تأخذ ما يروق لها، الا ان الطريقة المستخدمة في المدينة، وهي اخذ حبة واحدة او اثنتين، وكفى فهي غير دارجة عند البدو في

عاداتهم القديمة، وان اخذت طريقها حاليا لديهم خاصة اولئك الذين سكنوا المدينة.

الا ان الطريقة القديمة تبرز احيانا خاصة لدى الجيل الأول ولو انه سكن المدينة واستقر فيها... بقي ان نقول انه قد توضع الحلوى (من الملبس والكعيكبان) في صحن تحمله انثى وتدور به على الحاضرات لتأخذ كل واحدة نصيبها، وهي بالتأكيد لا تكتفي بقطعة واحدة، فالفرح عندهم خير، وكلما نالوا منه اكثر كان ذلك اكثر طمأنينة وفرحا ومتعة ولفرط تفاؤلهم في حضور الفرح (الاعراس وما شاكلها) والمشاركة فيها، والتيمن بما يأخذونه منها قالوا (هذا فرح اللي ما يطوله يسرقه) اي انهم اجازوا الاخذ منه سواء جهرا ام سرا، بالرضى ام بالخفية... لذا تكثر حالات فقدان الكثير من اشياء اهل العرس وهم لا يتذمرون من ذلك ولا يعيبون آخذها على اخذه لها، لأنه (فرح، واللي ما يطوله يسرقه).

كما انه يتم توزيع (الملبس – الحلوى) على الرجال في الشق ايضا... وهكذا ينال الرجال والنساء والاطفال نصيبهم من هذا الخير.

ونعود ثانية الى موكب العرس، حيث يقود كل جمل رجل من اقارب الفتيات اللواتي يركبنه، او قريب لاحداهن، (وهذا الغالب)، وقد يكون هذا الشخص من اهل العريس.

ويترتب عليه ان يقود الجمل عبر الطريق المناسب بعيدا عن التعثر او الحفر، او ما الى ذلك، واذا اقترب من مكان يخشى منه اثناء المسير، فعليه تنبيه الفتيات الى ذلك، وهو ينيخ الجمل، ويتكفل بربطه وعقاله، والتأكد من تقديم العلف له.

كما انه يجب الا يتحدث بفحش القول، وانما يمضي وقته شبه صامت، لأن مهمته محددة وهي قيادة الجمل.

اما الرجال الذين يحدون (من الحداء) مع هذا الموكب، فهم يستعملون الالحان العديدة، والكلمات المختلفة من الغزل، حتى الفخر والوصف ولكن لا يكون للرثاء والحزن مكان في هذه الاغاني، ومما يقولونه في اغانيهم ما نجده في هذه الهجينية (من الهجيني)[1]:

يـــا راكب اللي زهـــى الزول	مزعوجـــة من هل اللبة
سلـــم على راعـــي الشول	مـــن خوف قلبـــه يعـــذب به
قـــول له ثاري الـــزرع ماكول	جـــاه الجـــراد وتنـــكب به
الجيـــج يظهـــر على الحول	يـــاكل عيدانـــه باثـــر حبة

---

١) انه يصف ناقته الجميلة ذات الزول (الشكل العام والجسم) الزاهي، وهي سريعة جدا ومدربة تدريبا حسنا، ثم يقول لصاحبه الذي يركب هذه الناقة ان يحمل معه سلاما الى الحبيب حتى لا يبقى هذا الحبيب معذبا، فلعل السلام يخفف من ذلك، وارجو ان تخبره ان الزرع ماكول، وقد اكله الجراد (وهذا رمز بينهما ان جسمه قد نحل من الحب، وبراه العشق مثلما ياكل الجراد النبات الاخضر)... ومن ثم يواعدها انه سيلتقي بها بعد عام (على الحول) حيث سيرتويان من الحب والعشق ولكنه يرمز الى ذلك بقوله ان صغار الجراد تظهر بعد عام وتكبر لتاكل الاخضر واليابس، وهو يقصد ان حبهما بعد غياب عام سيجعل لقاءهما صاخبا للغاية.

وهذه هجينية اخرى يقول فيها البدوي:

يــا راكب اللي قطــب عجة   واربـــع قوايـــم بلا روحي
خــوفي عليهــن من اللجة   وان ابعـــدن يا بعـــد روحي
سلـــم على اللي قفـــا البجة   قـــل له ترى الزيـــن مطروحي

واما البيت الأول فيقصد به السيارة ذات العجلات الاربعة (قوايم – اي قوائم) فهو يخاف على الأحبة من الكلام (اللجة) اذا ما صار البعد حيث الشوق والتبريح الذي يؤدي للشعر والقول وبالتالي حديث الناس... ثم يرسل سلامه لمن هو من خلف (قفا) المكان المسمى (البجة)، واخبره ان حبيبه قد مرض (مطروحي) من حبه له.

ومن الهجيني في الفاردة ايضا، هذه القصيدة الجميلة[٢]:

القلـــب ورد على دبلة   مـــار البـــلا انـــكان تنحاني
مـــا هي خفيفـــة ولا خبلة   يـــا ليتهـــا عقـــب عماني
يـــا مبســـم التـــرف به قبله   وانـــا ماجيتـــه ولا جاني
ونهيدهـــا يوم تقـــرب له   لـــون الزبيـــدي بريضاني
يـــا ليتنـــي طايـــر جبله   واحطهـــا فوق جناحاني

ومن اغاني الفاردة ايضا: لحن سريع ليس بالهجيني ولا بالحداء وذلك ما نجده في هذه الابيات[٣]:

يـــا ام الثمانـــي العذاب   خمـــي حيـــاة الشباب
قبـــل غثيـــث التراب   يجبـــر عليـــكي وعلي
يـــا ام الثمانـــي الرهاف   لا بد لك من قبـــر واف
عنـــك الضعايـــن مجاقي   بس انـــت بارض الخلا

وبذلك نجد غالبية الهجيني في الفاردة هو ضمن اغراض الافراح، والسرور، بعيدا عن الحزن والألم، لأن الجو هو جو مرح وفرح وحركة وليس العكس.

واما طريقة الغناء والرد فتكون في اكثر من صورة، تماما مثلما يحدث في (السحجة) فقد يغني اثنان ويرد عليهما اثنان، وقد يغني قسم من المسيرة ويرد عليه

---

٢) ورد (بتشديد الراء): اتجه واردا كما يرد العطشان على الماء، او جاء، واتجه – دبله: اسم انثى – مار: لكن، ويقول البدو ايضا: مير وهي اختصار للكلمة العامية مغير اي (غير ان) – البلا: البلاء، تنحاني من نحا اي قصده واتجه نحوه – خفيفة: (عكس الرزينة الثقيلة الوقورة) خبلة: اي هبلاء، وثقيلة الظل. عقب: اي بعد، عماني: اي عمامي. الترف: الفتاة الجميلة. به قبلة: اي يتمنى قبلة من ثغرها رغم انه لم ياتها، ولم تاته (ما جئته ولا جاءني). نهيدها: تصغير نهد. تقرب له: تقترب منه. الزبيدي: نوع من الكماة لونه ضارب للبياض والحمرة. الريضان: جمع روض. جبلة: قبلة من القبلة اي ناحية الجنوب. احطها: اضعها واحملها. والجنحان هي الاجنحة ومفردها جناح.

٣) الثماني العذاب: هي الاسنان الامامية، اربعة من الاعلى واربعة من الاسفل، ويناشدها ان تنتهز فرصة شبابه وشبابها لانها ازهي واجمل فرصة في العمر، وذلك قبل الموت وقبل ان يوضعا في القبر، ويهال عليهما التراب، ثم يخاطبها بانه لا بد لها من قبر واف يكون في ارض خالية، وتغادره الضعائن التي جاءت لدفنها وحضور جنازتها.

فما دام الامر هكذا في النهاية موت وتراب، وقبر، فلماذا لا يستغلانه بالحب، وهذا شبيه بقول الشاعر البدوي:

اليا حصل لك ساعة وانت مشـــتاق   اقطف زهـــر مالاق والعمـــــر ملحوق

القسم الاخر، وقد ينقسمون الى عدة اقسام، ولكل قسم مغنوه، بالقول والرد، ولكنهم بالتأكيد يبقون على انفسهم، بحيث يرتاح البعض، ويغني البعض وهكذا بالتناوب، ليستمر الغناء طيلة الطريق، وهذا مالا يستطيع فعله شخص واحد، بل لا بد من التناوب، والراحة والعمل وهكذا دواليك... وقد تمر فترة تسير فيها الفاردة بدون غناء لا من الرجال ولا من النساء، وهذه عندما تكون في ارض خلاء ليس بها احد من العربان، وهذه فترة راحة جيدة لهم، يصمتون فيها ويكتفون بالمسير او الراحة، ولكن تزداد شدة الحماس عندما يمرون بحي او فريق من العريان، لأن لذلك دلالات على القوة، والنشوة وحتى لا يقال: انهم كانوا يسيرون وكأنهم في جنازة... لأن الاعراس شيء والجنازات شيء آخر... ولو نظرنا الى التعبير الرمزي لمثل هذه التصرفات لوجدناها تشبه في المعركة اشتداد القوم، وحملهم على العدو بصولة وقوة عندما يرونهم رأي العين، بينما يلجأون للتمويه او الراحة عندما يختفون عن انظارهم، كما ان اوقات الاستراحة بحد ذاتها هي توفير للجهد الى الاوقات التي تحتاج مجهودا ... انه توزيع وتناسق الجهد حقا، ووضعه في حينه.

وأما حول استقبال اهل العروس للفاردة، فيكون كما قلنا بالنسبة للرجال، اما النساء، فتقوم ام العروس وبعض النسوة من الحي بضرب (الفرادات) - اي(الفتيات المغنيات)، على رؤوسهن. باغصان شجر يابس او رطب، بحيث (يحر ولا يضر) اي تشعر المضروبة بالألم ولا يلحق بها ضرر، ذلك ان الرجال يدخلون الشق وما حوله خارج المحرم، بينما تدخل النساء الى (المحرم)، وهو المكان الخاص بهن في البيت... ولا يتسبب هذا الضرب باي غضب او تشاؤم، بل العكس هو شيء محبب تلاقية الوافدات بالترحاب، والابتسام، ويدخلن بسرعة الى داخل البيت، ذلك ان الضرب يتم خارج الباب، واذا دخلن الحمى، فلا يجوز حينها الضرب، لأنهن يصبحن ضمن الحماية... وأثناء الضرب تنطلق الزغاريد من الداخل ايضا، فرحا بقدوم هؤلاء.. وينقطع الغناء قليلا اثناء عملية الضرب والدخول السريع...

وفي هذه العملية (الضرب) نجد اكثر من تعبير وتفسير... فهي عملية دفاعية بحته امام هجوم للحصول على هدف وهو (العروس)... ولنقل تعبير عن هذا الدفاع، وعن القوة، التي لا تصدر عن الرجال فحسب، بل وعن الاناث ايضا... وهي تعبير للدفاع عن العرض ايضا، والذي لا يعطى بهذه السهولة التي قد يتصورها الخصم.

وهي ايضا تعبير عن التلاحم بين الفريقين، وحتى ان الضرب محبب في مثل هذا الوقت من خلال المبدأ البدوي (ضرب الحبيب زبيب)، فالعروس هي حبيبة، و (كن نسيب ولا تكون قريب)، واهلها هم الانسباء لأهل العريس: ومثل هذا الضرب شيء محبب من خلال المبدأ الذي يؤمنون به (ضرب الحبيب زبيب)، ولا داعي لحرمانهم من هذا الزبيب، ذلك الطعام اللذيذ، المحبب عند البدو...

وهي عملية التحام حربي بين فريقين، فريق ينوي الخطف، واخر يدافع ويمانع فكأن هؤلاء جاءوا لاختطاف هذه الفتاة، واهلها لا يألون جهدا في تخليصها، هذا

الاختطاف الذي هو بحد ذاته عملية شريرة، يرافقها الشيطان، وعندما يضربون القادمين، فهم بذلك يضربون الشيطان الرجيم، لأنه هو الذي يوسوس للانسان بفعل الشر والسوء... والبدوي اذا اراد طرد الأوهام اشارة بيده مع اللفظ فمثلا يقول: (اعوذ بالله من الشيطان) او (عوذان) مع الاشارة الملازمة لهذا.

واذا كان تحقيق الهدف في الحرب يؤخذ غلابا وعنوة، فان المشروعية في هذه العملية تحول الحرب والضرب، الحامي الانتقامي الى شيء تعبيري ليس الا.

وتدل عملية الضرب ايضا على أن البيت له حرمته، وهو قلعة حصينة، ودخوله ليس بالسهولة، كما أن الحصول على فتاة منه ليس بالسهولة اليسيرة ايضا.

وعندما تدخل الفتيات في المحرم، يختلطن مع اولئك اللواتي كن من حول العروس، من نفس حيها وفريقها، وتتم المصافحة (سلام) وقد تكون بالمعانقة احيانا، وهذا يدل على ان الجميع متفقون متحابون، وكل يرحب بقربه من الاخر. وبعد عملية السلام هذه وما تعبر عنه من حب، وسط الزغاريد يعود الغناء ثانية، في عملية مشتركة من الوافدين والمضيفين، سواء بأن يكون لكل قسم شعبتان كل واحدة منهما من طرف او تكونان من طرف واحد، ولكن لا بد من عملية مشتركة تدل على المحبة المتبادلة والوفاق بين الجهتين...

ونتحرك الى الشق حيث الرجال، وحيث تقدم القهوة لعقيد الفاردة او لوالد العريس والذي لا يشربها فورا، بل يترك الفنجان امامه على الارض طالبا العروس بقوله: (قهوتكم على الرأس والعين، لكن ما نشربها الا ناخذ طلبنا). فيقول والد العروس او عقيد قومه او من ينوب احدهما (اي المفوض باعطاء القرار) يقول في حالة الموافقة: اشربوا قهوتكم، وابشروا باللي جيتوا بيه) او (امانتكم تأخذوها بردا وسلاما، ومبروكة عليكم).

حينها يشربون القهوة، وتنطلق الزغاريد، والعيارات النارية كدلالة على هذا السرور بهذه الموافقة الخيرة... وفي حالة تعثر الأمر كوجود بقية للمهر مثلا في ذمة العريس، او التقصير باحد الشروط، وطلبات جديدة لأهل العروس لم تكن من قبل أو لها علاقة بالاعراف فيجري التداول والتشاور بهذا ثم يتخذون القرار الذي غالبا ما يكون بالخير والموافقة، لأن الصعوبات التي قد تمنع اخذ العروس تكون قد ذللت مسبقا قبل البدء بالتجهيز، وقبل انطلاق الفاردة من بيت العريس. ومن النادر جدا ان تعود فاردة بدون العروس التي جاءت من اجلها.

ولكن لا بد من بعض المشادات، فالأخ قد يعترض طالبا هدية معينة (كمسدس، أو مبلغ من المال، أو رؤوس من الابل او الماشية)، والخال لا بد له من أخذ حقه وهو (عباءة الخال) - سواء أكانت عباء حقيقية او ما يقابلها من المال، والعم ايضا يحتاج لشيء من هذا، وأبن العم هو أخطر الجميع والذي يجب ترضيته واسكاته لأن له الحق باخذها حتى وهي في موكب الزفاف الى مخدع الزوجية من خلال المبدأ (ولد عمها ينزلها عن ظهر الفرس)، اي وهي عروس مساقة الى عريسها على صهوة الفرس، وهذا دليل ايضا على

تيمن البدو بالخيل والحرص ان تركب العروس على فرس او حصان اثناء زفافها.
وشهدت كثيرا من المشاجرات في مناسبات زفاف، بين ابن العم واهل العروس، واحيانا بينه، وبين اهل العريس، وذلك عندما تكون طلباته غير معقولة، او غير ممكن تنفيذها من العريس وذويه، خاصة اذا اصر ان يتزوجها هو، حينها يتدخل ولي امر العروس، ويعتبر ذلك تحديا لقراره السابق بالموافقة على الزواج، والذي يفترض فيه ان اتخذه بعد اجراء المشاورات مع الأهل والاعمام، وابناء العم....

ولكن في الغالب فان الامر ينتهي بترضية ابن العم بما يمكن ان يكون معقولا، ومقبولا، لأن اهل العروس انفسهم يحرصون الا يقال عن مصاهرتهم انها (قشب لا نسب)، وهذا القول يطلق على الانسباء السيئين، الذين لا يتوانون عن استغلال العريس... وكثيرا ما كان ذوو العروس يدفعون من جيوبهم للمعترضين، حتى لا يساء الى سمعتهم، وأحيانا يسكتون المعترض بالقوة، حفاظا على سمعتهم ايضا.

وشهدت حالات اخرى، أن اهل العروس يتفقون مسبقا على كل شيء، وعندما تأتي الفاردة تكون الأمور ممهدة ومنتهية وعلى خير ما يرام.

واذكر ان بعض الاخوة كانوا يطلبون هدايا (مسدس، او بندقية، وفي وقت متأخر اخذوا يطلبون ساعات) - وقد يطالب ابن العم بحل الزواج، لتكون ابنة عمه من نصيبه وهو يعني الحصول على هدية (محرزة) - فيطالب بالكثير ليحصل على القليل ذي القيمة والأهمية.

وربما تنتهي الأمور (بالرضوة)، أي ما يرضيه كالبندقية أو السيف، او المسدس، وربما عباءة، او مبلغا من المال، وربما لا شيء، ويقتصر الامر حينها على التخجيل (وبوس اللحى).

وفي الوقت الذي يطالب فيه الرجال الوافدون بالعروس، بامتناعهم عن شرب القهوة حتى يضمنوا الموافقة النهائية، فان للأمرشبيهاوبوسيلة اخرى لدى النساء حيث يقمن بالغناء بكلمات لطيفة فيها مدح للعروس واهلها، وللعريس، وأنهن جئن عبر الطريق الطويل فقط لأجل الحصول على الجميلة الحلوة (الزينة)، وانهن ضيوف وواجب الضيافة يقتضي الموافقة على طلباتهن. ومما يقال في هذا الاثناء على لحن الفاردة: -

عالندى مدينا، يا بي فلان، وعا الندى مدينا
وللمليحة الزينة، حنا طلاب، وللمليحة الزينة
وتأخذ وتهنى، يا بي (فلان)، تاخذ وتهنى
لما نصل اهلنا، حنا ضيوفك، لما نصل اهلنا
وال يدافع عنا، (فلان) الشجاع، ال يدافع عنا

وعادة يكون الوصول الى بيت اهل العروس ما بعد الضحى، حتى الظهر اذا كانت المسافة غير بعيدة، وقد يصلون ظهرا او عصرا، واذا كانت المسافة طويلة، ووصلوا مساء، فلهم الحق في المبيت عند ذوي العروس، وتقام الرقصة هناك، والأفراح تماما مثلما هي عند اهل العريس حيث تقام رقصة اخرى ايضا.

نقول: بعد الموافقة النهائية على اعطاء العروس يقدم الطعام للفاردة، وهذا شيء

مهم وضروري عند البدو، وتكون الوجبة من اللحم والثريد، حسب حالة المعازيب، وهذه الوجبة دليل جديد على العيش والملح بين الطرفين، والتحامهما معا، وقوتهما.. بالاضافة الى انه اكرام من المعازيب لضيوفهم، ووجبة للقادمين بعد عناء السفر، وصورة عن نطاقة اهل العروس ومدى قدرتهم على اتقان الطعام، وكرمهم، وتكريمهم لضيوفهم، وانسبائهم... ان في هذه الوجبة تتجلى الكثير من المعاني بشكل واضح وكبير.

وبعد ان يأكل الرجال، يتم اصلاح نفس الصحون، والمناسف، ويوضع عليها اللحم ايضا وتقدم للنساء وبعدها تقدم القهوة للقوم.

وقبل المغادرة لا بد أن يستأذن عقيد الفاردة من صاحب الامر من ذوي العريس أن يأخذوا (صيدتهم) او (امانتهم) ليعودوا الى اهلهم ومضاربهم، ويوافق هذا موافقة اخرى، وبذلك نرى موافقة اولية عند الحضور تعبر عن تحقيق هدف معين. بينما تعبر الثانية عن الحصول على هذا الهدف، ونستطيع القول انها المرحلة العملية النهائية التي لا رجوع بعدها عن القرار. وهذا نوع من الاحترام والمجاملات الذي يسبق فيه بدوي الصحراء انسان المدينة المعاصر...

قوامـــة العـــروس:

بعد أن يوافق ولي الأمر او عقيد القوم بصفة نهائية، وقد انتهت جميع الترتيبات من ارضاء الاعمام وابناء العم، والخال والعبد [١] والأخ، يكون الايذان ببدء الانفصال بين العروس واهلها، ومغادرتها بيت طفولتها الذي تربت به، اقول تبدأ هذه المرحلة بصورة عملية بما يقدمه - الاب، والأخ، والخال، والعم، واحيانا يضاف اليهم ابن العم، - من نقوط يسمى (تقويم العروس) حيث أنهم بعد ذلك يمسكون بيدها لتقوم بعد أن كانت جالسة، لتنطلق وتسير بيمن الله ورعايته وعلى بركته سبحانه، مع كلمات بالدعاء بالخير من والدها، واحيانا نصائح وتعليمات امام الحاضرات لتعم الفائدة للجميع بدون اقتصار عليها.

يبدأ الوالد بتقديم الهدية، ثم يليه الخال او العم، وهكذا، ولمن يقدم ذلك الحق في الانتظار حتى يأتي من بعده، واحيانا يتأخر الوالد حتى يعطيها الجميع، ثم يؤدي المهمة بالاعطاء والايذاء بالنهوض والمسير، لأن ولي الامر (الوالد او غيره) هو صاحب الحق في اعطاء اشارة الانطلاق النهائي (بعد ان تودع بنات حيها بالسلام بالمصافحة، حيث تمر

---

١)ضمن التنظيم الطبقي في المجتمع البدوي تاتي فئة الخدم، التي تشمل العبيد، وهؤلاء رغم مهمتهم التي قد تبدو محتقرة، الا ان لهم اهمية وقيمة في المجتمع، حتى ان الواحد ينتسب من حيث الاسم الى العائلة او الشيخ او العشيرة التي يعمل كخادم لها، وللعبد حق في اخذ عباءة عن كل فتاة تتزوج، كرمز عن اعترافهم لخدماته التي قدمها ليس للرجال من المجتمع، بل وللنساء، حيث له الحق في مخالطتهن وخدمتهن، وهذه العباءة رمز للستر الذي كان يمارسه، او لنقل اجرته على ذلك، ولنقل اعتراف منه انه لم يصدر عن الفتاة الا الخير، وانه لم يصدر منها تجاهها الا الخير، وان هذه عهد بينهما ان يبقى مستودع الاسرار فيما يخصها، وما هذه الا هدية او طلب بطريقة اخرى ان يحتفظ بذلك.

كل واحدة بها وتصافحها، وربما تعانقها وتدعو لها بالخير).

ويقبلها ثم يمسك بيدها، قائلا: الله يسهل عليك، او يرضى عليك، او مع السلامة او في امان الله، او رافقتك السلامة، او مبروك عليك تهني وما تعني (اي يطلب لها الهناء بلا عناء)، وتدور كلمات الأب في هذا الاطار، مع الدعوة بالخير واليمن والبركة لها ولزواجها، وزوجها، بينما دموع امها تنهمر بشكل واضح، وتقوم الفرادات (المغنيات) مع قيام العروس، وهن يزغردن ويغنين، ويطلبن في ذلك الخير للمعازيب: (يخلف عليكم كثر الله خيركم).

ثم يواصلن كلمات الاطراء والمديح لذوي العروس، وخاصة الوالد والأخ والخال والعم وابن العم، وانهم رجال شجعان، لهم قيمتهم واهميتهم في المجتمع، وان القرب منهم شرف عظيم.

وعندما تخرج النسوة من (المحرم)، ويشاهد الرجال ذلك، ينطلقون بسرعة كل الى ركوبته، ويتجمهرون، وهم يهزجون ويغنون كلمات حماسية، فيها المدح والتقدير لذوي العروس، ولشهامتهم ومثلهم العليا، واخلاقهم الرفيعة.

ويتحرك المعازيب لتوديع الرجال الضيوف، والفاردة، كما تتحرك النسوة من المعازيب لتوديع النسوة الضيوف، وعند وصول موقع الركائب ينقطع الغناء ثانية، لتركب الفتيات، وتركب العروس على جملها (الهودج الخاص بها) او على فرس محجل اغر ذلك ان الخيل كما يقول البدو (بطونها كنز وظهورها عز الى يوم القيامة) وهذا يعتمد على سنة اسلامية حيث يقول رسول الله (ص): الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة.

وبعد ان تركب العروس، على الفرس او الهودج وسط الزغاريد والغناء، ثم تركب بقية الفتيات، ويفضل ان يقوم جمل العروس (اذا كان جملا) اول الجمال في الفاردة ثم تتبعه الجمال الاخرى هذا من حيث المبدأ، وفي العادة قد تقوم جمال قبل جملها.

وبعد ان يصبح الجميع جاهزون للمسير نجد الرجال الذين لم يودعوا بعضهم بالشق قد استدركوا الأمر الان، وتصافحوا، ودعا كل منهم للاخر بالتوفيق، بينما يقدم الوافدون شكرهم للمضيفين.

وأما والدة العروس او من ينوبها فعليها ان تذهب مع ابنتها فورا، وتبقى هناك بعد القرى (بكسر القاف) لعدة أيام، اما والد العروس واهلها من الرجال فيبقون في مضاربهم بانتظار الدعوة بعد اسبوع من قبل العريس.

والان لنبدأ بالحديث عن فلسفة هذه التصرفات:

فنجد بشكل واضح ان ما يقدمه والد العروس او الشيخ او ولي الأمر..الخ ما هو الا نوع من صلة القربى والرحم والمودة، بالاضافة الى انه تكريم للعروس امام القوم الذين جاءوا لأخذها، وهذا بحد ذاته يقوي من معنوياتها. ويزيدها ثقة بنفسها ويخفف من الام الغربة، وحزن الفراق... ولا ننسى ان هذا العمل ايضا يساعد العروس على ان يكون لديها بعض رأس المال. ذلك ان المهر كان من حق والدها واهلها، وليس لها الا

بعض الهدايا او الاثاث، وما هذا النقوط او (القوامة) الا استرجاع لشيء يسير من حقها الشرعي الذي هو لها في الاصل. ويعتبر نقوط الأب بمثابة الزر الذي اذا ضغط عليه بدأت القافلة بالمسير كما ان ذلك مبرر لدخول رجال بين النساء بصورة مشروعة، لأن ذلك ممنوع من حيث المبدأ، الا انه مشروع في العادة، وفي مثل هذه الحالات يكون مسموحا. واما ما يقدمه الخال فهو اعادة جزء اليها مما اخذه بسببها من العريس، بالاضافة الى كونه مودة وصلة رحم: وزيادة في ربط اواصر القربى.

ولا ننسى أن في الامر شيئا مشتركا، فقد رأى الرجال والدها، وخالها...الخ ولا بد ان يراهن النسوة القادمات ايضا، ليقال: ان فلانة: ابوها فلان، وخالها فلان، وعمها فلان، فيشهد الجميع نساء ورجالا على ذلك، وعلى معرفتهم، ويعطون الاراء فيهم، لذا فهم يحاولون الظهور باحسن مظهر سواء من اللباس او التصرف، او الجود والكرم باعطاء مبلغ محترم من النقود كنقوط لهذه الفتاة. انها وسيلة مهذبة ومشروعة، ومبرر يسمح بممارسة الممنوع بالطريقة السليمة.

واما مصافحة النساء للعروس لتوديعها فلا تحتاج لتفسير، كوداع لها، بالاضافة الى انه عهد بينهما الا تنسى احداهن الاخرى، سواء من طرف العروس، ام الطرف الاخر، وهي تيمن وبركة بهاته التي هيأ الله لها الستر، لأن الزواج في اعتقادهم ستر وخير ونعمة ويمن وبركة.

اما مصافحة الرجال لبعضهم البعض، فهو عهد بينهم على المودة، والمحبة والالتزام بدفاع كل منهم عن الاخر، وهو تعبير عن ان المعازيب (ذوي العروس) قد سلموا الامانة للوافدين، وان هؤلاء قد قبلوها، وسيحافظون عليها ما استطاعوا الى ذلك سبيلا فرادى وجماعات، واما الوداع فهو من ضمن واجب الضيافة البحتة، ولا داعي لتفصيله هنا. وحول تقديم الطعام للفاردة، فان هذه العادة تطورت عما كانت عليه في السابق.

لقد كان هذا ضروريا لما تتطلب المجهودات التي يبذلها اعضاء الفاردة من الحصول على وجبة طعام بعد هذا العناء - في عصر البطء، عندما لم يكن للزمن قيمة، وعندما كان مبدأ (اللي عند اهله على مهله) هو المبدأ السائد.

أما في الوقت الحاضر حيث وقت السرعة، ووجود السيارات، والمدن والطرقات، فقد طرأ تحوير وتغيير على هذه العادات، فاستبدلت السيارة الفارهة عن هودج العروس، واستبدلت المفارش والشراشب التي يزين بها جمل العروس بما يلصق بجسم السيارة من زهور وورود، وقطن ابيض، وشرائط خضراء وبيضاء، وزهرية فاتحة، انها الألوان ذاتها بدلالاتها التي كان يستعملها البدو... وبدل حنين الجمل نسمع زامور السيارة، واختفى بيت الشعر البدوي الذي يقول:

جمـــل فلانـــة بالـــوادي   حنينـــه قطـــع فـــؤادي

وأما بقية الجمال فاستبدلت بالسيارات ايضا، وهذا يعني ان الامر يتطلب السرعة حيث غالبيتها تؤخذ بالاجرة، وان وجدت منها مركبات خاصة، ونجد الفارق ما بين منطق

اليوم ومنطق الامس، فهنا لا تذهب السيارة الا بالاجرة ما لم تكن سيارة صديق او قريب، اما هناك فكان الجمل يؤخذ اعارة ومجانا، كنمط من مشاركة القوم لبعضهم هذه الفرحة، لأن كل شيء (قرضة ودين حتى دموع العين) وبدل ان كانت المسافة تقطع بيوم او اكثر فانها تقاس الان بالساعات، لأن (السيارات تقرب البعيد)، وازاء هذه السرعة فانه لم تعد هناك حاجة لوجود وجبة طعام، وان شاهدت البعض لا زالوا يفعلونها. الا انها نادرة للغاية... فالجهد الذي تبذله الفاردة خلال ساعة او اكثر ليس بمقدار ما كان يبذله اولئك الاقدمون، ومن ثم فلا حاجة لوجبة الطعام، كما ان التوفير، والحسابات قد دخلت في منطق العصر والعلاقات الاجتماعية، فما كان يكلف والد العروس كطعام للفاردة ليس الا جزءاً يسيرا مما يكلفه الان لارتفاع الاسعار، وتغير نمط المعيشة... ثم ان الطعام اليوم متوفر اكثر منه قبلا، والناس الان مكتفية رغم غلاء الاسعار وقلة البركة، واخذوا يفصلون ما بين الفرحة وملحقاتها من الطعام وغيره، فهم ذاهبون للاتيان بالعروس، وعلى متن سيارات سريعة، اذن لا حاجة للطعام الذي يمكنه ان يتناوله في بيته قبل سفره او بعد عودته بسهولة... هذا بالاضافة الى ان غالبية الزفاف اليوم اصبح بعد الظهر من النهار، اي بعد ان يتناول الشخص غداءه في بيته ثم يكون التجمع والانطلاق، ولا ضرورة اذن للأكل.

وانتشرت في بداية السبعينات من هذا القرن العشرين عادة اخرى وهي ان الزفاف يكون يوم القرى اي بعد ان يجتمعوا عند العريس ويتناولون طعام الغداء، ويدفعون النقوط، تتحرك الفاردة لتأتي بالعروس، وبذلك تصبح الحاجة لوجبة طعام عند اهل العروس معدومة فقد اكل القوم قبل قليل طعامهم، وادى العريس هذه المهمة، ورغم ان هذه العادة لا تزال تزداد وتتسع الا انها لم تصبح العادة المتبعة تماما في انحاء الاردن وان وجدت في كافة ارجائه، واعتقد انها ستكون هي العادة السائدة بعد سنوات.

وكان يتوجب على أهل العروس تقديم العلوفة للجمال والخيل، كما يقدمون الطعام للرجال والنساء اما اليوم فان وقود السيارات يتكفل به اصحابها،ولا شك انها امور تنطوي على خسارة كبيرة لوالد العروس لو صنع لهم طعاما، وقدم الوقود للسيارات.

العروس خارج بيت والدهـــا:

واذكر من العادات التي كانت شائعة، انتقال العروس الى بيت خالها او عمها اذا كان قريبا من بيت والدها، او الى بيت احد الوجهاء او الاقارب، واذكر ان ذلك كان على صورتين اولهما: اذا كان بيت العريس قريبا من بيت العروس فعليها حين الهرب ان تختار بيتا بعيدا (يحمل المشحى) كما يقولون، اي يحتاج الى مشوار متعب للفاردة، وثانيهما: اذ كان بيت العريس ليس قريبا من بيتها فعليها ان تختار بيتا قريبا، لأنهم على رأس سفر، ولاقوا من ذلك رهقا وتعبا، ولا داعي لزيادة الطين بلة.

وتذهب العروس للبيت المعين في الصباح الباكر للفاردة، حيث يرافقها بعض

محارمها من الرجال والنساء (شقيقها، عمتها، واختها...الخ)، وهناك ترتدي ملابس الزفاف، وتتجمع حولها عدد من الفتيات يغنين ويزغردن، وعندما تأتي الفاردة الى بيت والدها ولا يجدونها، وبعد اجراء مراسم الطلب (كما اسلفنا) وموافقة الاب يذهب عدد من الفتيات (الفرادات) الى حيث العروس اذا كانت في موضع قريب، ويأتين بها، واذا كانت في بيت الخال او العم او العبد، فانه يتم دفع حصته (عباءته... الخ) هناك، وبعد دفع ما يستحقه، يطلبونها، وتتحرك معهن بعد الموافقة لتعود ثانية الى بيت والدها، لتكون نقطة الانطلاق من هناك.... لأنها يجب ان تنطلق من بيت والدها، اما اذا لجأت العروس الى بيت يبعد مسافة عن بيتها، فتتحرك الفاردة راجلة ذكورا واناثا الى حيث هي ليأتوا بها راجلة او راكبة على حصان (وهذا الغالب)، ويعيدونها الى بيت والدها، ليتم الانطلاق ثانية من هناك.

ونظرة الى هذا السلوك في انتقال العروس نجد الجواب عليه سهلا: فهو يعبر عن الاختطاف والهروب، فعندما يبحث الانسان عن هدف، او لنقل يتجه للحصول عليه وهو يعرف موقعه ثم لا يجده هناك، فانه يجد في البحث عنه، ويزداد اليه شوقا، ويجد لذة اعظم واكثر عندما يعثر عليه... انها وسيلة جميلة للتشويق، بالاضافة الى انها تعبير عن صعوبة الحصول على هذا الهدف، وعلى هذه الفتاة، وانها لم تأت بالسهولة التي قد يتخيلها البعض، علاوة على انه تعبير واضح عن نفسية الانثى في التمنع الذي يعني الرغبة، والهروب الذي يعني الاقبال.

هذا بالاضافة الى ان وجودها في بيت خارج بيت والدها، (خاصة لدى العم او الخال او العبد) يعني انها رهينة من اجل الحصول على الحق المطلوب، وكان هذا الشخص يقول؛ لقد اعطاكم والدها، وجئتم لأخذها في المرحلة النهائية، ولكنني الان والدها الذي يقول كلمته بالرفض او الموافقة، وهذا زيادة اعتبار له، ودلالة على عمق التماسك الاجتماعي بين افراد العشيرة الواحدة، فيضطر اهل العريس امام ذلك ان يؤدوا ما يجب عليهم طائعين حتى ولو كان ذلك بعد مساومة وجدال.

ويعبر الانتقال ايضا عن وداع العروس لبقية العشيرة، على مبدأ فرض الكفاية، اذا عمله شخص سقط عن الباقين، فهي بذلك تودع كافة البيوت والعائلات، ويتوجب على صاحب البيت ان يدفع اليها (نقوطا) – مبلغا من المال او غيره – حتى ولو لم يحصل من العريس على شيء لأنه يتيمن خيرا بدخول العروس الى بيته، ويعتبره فخرا له باختيارها له على من سواه.

بقي ان نقول: ان اختيار البيت المذكور يكون بعد دراسة من قبل اهل العروس، فبالاضافة الى اشتراطه ان يكون (الخال او العم، او العبد او احد الاقارب او الوجهاء)، فانه يجب ان يكون موضع تفاؤل، فالبدو في مثل هذه المواضع يهتمون بكل تصرف وحركة وكلمة، ويبنون عليها تفاؤلا او تشاؤما نحو المستقبل المجهول، فمثلا يكرهون ذكر اية كلمة عزاء او موت، او حزن او ما يدل على ذلك، ويكرهون الرجوع والتعثر، واي دعاء بالسوء، او تعثر لاية دابة وخاصة (ركوبة العروس)، ويعطون لكل سلوك او كلمة او حدث

معنى، ويبنون عليه توقعهم لما سيحدث مستقبلا... انهم دقيقون جدا، وحريصون جدا في ان يتصرفوا بأدب جم.

الفاردة في العـــودة:

بعد انتهاء المراسيم التي ذكرناها، يبدأ موكب الفاردة بالعودة الى ديار او لنقل الى بيت العريس، ويمكنني من خلال استعادة الذاكرة في طفولتي ان اصف موكبا على هوادج (مفردها هودج)، وفرس تركبها العروس... على متن كل جمل فتاتان او ثلاثة كما قلنا سابقا، وبيد احداهن راية بلون ابيض او اخضر او زهري فاتح، وتتبادل الفتيات على الجمل الواحد حمل هذه الراية اعتقادا باليمن والخير والبركة، واما جمل او فرس العروس فتمتطيه (مع رفيقتها فوق الجمل)، او لوحدها فوق الفرس او الحصان، وبيدها (بيرق) راية بيضاء او خضراء، او زهري فاتح، وتتغطى العروس كاملة بعباءة، بينما تغطي وجهها بحجاب رقيق من القماش الاسود... وتسير ركوبتها في المقدمة بالنسبة لركائب الفتيات الاخريات، يتقدمها قسم من الفرسان، واحيانا صف من الرجال الذين يغنون ويحدون، ويتقدم احد الفرسان المرافقين للفاردة، او فارس من خارجها، ليراوغ ويختطف البيرق، فيلحق به الباقون ويخلصونه منه او يهرب به ويسلم ويكون بذلك قد ربح شيئا كثيرا وعظيما (من الناحية المعنوية)، ويعتبر بذلك فارسا، (يعلم على فرسان القبيلة) اي انه يسجل عليهم موقفا لصالحه ضدهم... وخلال الغارة تسمع زغاريد الحماس، ولا شك انهم في النهاية يعجبون بالقادر على اختطاف البيرق لما لذلك من دلالات ومعان عميقة في النفس البدوية... وقبل ان نواصل وصف هذا الموكب لنبدأ بشرح معانيه وتعبيره ودلالته وفلسفته:

فلا شك ان هذا الموكب يعتبر اكراما للعروس واهلها ولقدسية الزوجية والزواج، وللعريس نفسه، ولاقاربه، ويمثل الترابط الاسري والتعابير الاجتماعية وما تحتويه من حرب، وحب، وغزو، وفروسية، بالاضافة الى انه فرصة جيدة لاختلاط الشباب بالفتيات بطريقة شريفة مهذبة بعيدة عن الابتذال واللا أخلاقية، ووسيلة مباحة لئن يعبروا جميعا عن فرحتهم، وترتفع اصواتهم بالغناء، ويتغزل الشباب بجمال الفتاة، بينما تمتدح الفتاة خصائل (فلان) من الشباب، سواء باسمه الصريح، او بالتلميح او بقولهن (راعي كذا - اي نخوته) او (اخو فلانه) ومن الكلمات التي تقال في هذا الموقع:

يـــا بي ولـــد وكم بيضـــا تمنتك تمنتـــك حليلهـــا وانـــت غايب

وتقول ايضا:

لا تقـــول نسيتـــك، يا بي ولـــد، لا تقـــول نسيتك
واول ما طريتـــك، وانـــت المبدى، واول ما طريتك

فهو في ذهنها وعلى بالها، وله مكانته الأولى بحيث انها لا تنساه، بل وتذكره، واول

من تذكره في غنائها، ولا عيب عليها ان قالت هذا لأنها فرصة يسمح لها بان تعبر عما في نفسها من حب، اما الحزن والكره فلا مكان له هنا حيث يتشاءمون منه.

ولو نظرنا في العصر الحديث الى عربة القيادة العسكرية لوجدناها تتقدم الصفوف، ولا يتقدمها الا عربات الدفاع عنها، ما لم تتطلب العمليات الحربية عكس ذلك، وكذلك مركب العروس يتقدم الموكب، بينما الفرسان يتقدمونه لحمايته، وفتح الطريق امامه، واذا عرفنا ان العروس تمثل الهدف فيما تمثله، فان حماية هذا الهدف امر مهم، كما ان الهجوم عليه متوقع في اية لحظة، الا ان الامر يتحول الى اختطاف البيرق الذي تحمله، بدلا من اختطافها، واذكر كيف كان يتصارع الفرسان بشكل تمثيلي وتعبيري لاختطاف هذا البيرق بدون ايذاء العروس وهي اذا احست بمن ينزعه من يدها لا تمسك (عصاه) بقوة، لأنها قد تقع، لذا فهي تتركه لأنه ليس من واجبها الدفاع او التمسك، فالمفروض بحماتها الا تصل هي الى هذه الحالة ابدا...

واختطاف البيرق نوع من النصر والفروسية، واذكر ان خاطفه كان يصول ويجول وهو يحمله، ثم يلحقه الفرسان ويهرب من قبضتهم ثم يعود ثانية وهو يلوح لهم انه اكتسب شيئا منهم رغما عنهم... وما هذه المراوغات الا العاب فروسية واضحة فيها الفائدة للجميع، ولا ننسى ان الراية تقابل ما يحمله القائد في الحروب، مرفوعة للأعلى كدلالة على العزة والصمود والقوة وان زوالها يعني ذلتهم.

وقد يلجأ بعض الفرسان الى اختطاف بيرق (الفرادات) الاخريات، وهو يعني بذلك رغبته في تحقيق هدف معين من الفتيات اللواتي اخذ منهن بيرقهن، وقد يتيمن خيرا بالتفاؤل بخطبته لهذه الفتاة، او يأخذ شيئا ولو مستقبلا من لدنها واهلها.

وعندما يشتد الحماس بالقوم غناء، ولعبا على الخيل، او طرد الفارس الغازي، او القرب من احد احياء العرب، تشتد الزغاريد، وتطلق العيارات النارية بكثافة، وقد يلعبون على الخيل (طراد)، اي صابية)، وهذا يشبه في الوقت الحاضر اطلاق العيارات النارية عند انطلاق الفاردة او وصولها لبيت العريس او العروس، او عند عبورها لأحد الاحياء، كدلالة على القوة والفرحة، والتنبيه لهما كنوع من اشهار الافراح... انهم يهتمون جدا باعلانها انطلاقا من القاعدة الاسلامية التي تأمر بذلك.

اما العروس فتغطي وجهها بحجاب اسود رقيق تستطيع من خلالة رؤية ما حولها، بينما يتعذر رؤيتها من الخارج، واذكر ان بعض الشباب الفرسان كان يعمد وبسرعة الى رفع هذا الحجاب ليظهر وجهها، فيعرفون ما هي عليه من درجة الجمال، وهذا ليس عيبا عند البدو، وعلى العروس ان تعيد الحجاب ثانية وبسرعة، وربما يقوم بالمهمة من يقود جملها، او يقودها من الفتيات... ان الجميع يهتمون برؤية العروس، ما استطاعوا الى ذلك سبيلا مشروعا ومعقولا... ولا ننسى ان العروس تكشف عن وجهها بعد وصول الفرادات اليها وهي في بيت والدها - لفترة وجيزة حتى تتمكن الفرادات من رؤيتها، ليتكلمن عما هي عليه من جمال، وحسن وبهاء.

ويقابل هذا الغطاء الذي تضعه البدويه - ما تضعه فتاة المدينة (العروس) من

غطاء ابيض يظهر من خلالة وجهها للاخرين، كما انها تستطيع رؤيتهم ايضا.

دعــوة الفـــاردة:

وعلى الطريق يبذل اعضاء الموكب من رجال واناث مجهودات كبيرة للغاية، تحتاج الى امرين: اولهما الراحة، وثانيهما الطعام، لذا فانه لا بد من محطات يستريحون بها، ويتناولون وجبة طعام، وحيث انه من العيب على العربان الذين تمر بهم الفاردة ان تحمل هذه الفاردة طعاما، وان اكرامها واجب عليهم، وتعتبر ضيفا عزيزا، لذا فان هذا الطعام يترتب تلقائيا، على اصحاب البيوت الذين تمر بهم الفاردة في طريق عودتها ومن العادة ان يتجمهر اصحاب البيوت يتفرجون، ويزغردون، ويشاركون هؤلاء فرحتهم ولو الى لحظات، بينما يتقدم عدد من الرجال، وبحماس بالغ نحو (ركوبة العروس)، ويمسك بالرسن داعيا الجميع لتناول الطعام، ويعتبر القبض على الركوبة قبضا على جميع ارسان الركائب، ويتقدم عقيد الفاردة ليفاوض الداعي، ويبدأ الجدال، وينتهي الامر بالاتفاق: إما بالاعتذار مع الامتنان والشكر لهذه الدعوة، وكأنه قد قام بالواجب اللازم من خلال المبدأ البدوي، من (عزم لزم)، اي من دعا فقد وجب له الشكر لأنه ما دعا الا ويعرف ان دعوته لا ترد وبالتالي ادى ما عليه من واجب... ويقال له (اللي بيك مخبور..او مبخون) كدلالة على العذر مع اللطف والمدح للداعي... ويفرح البدوي كثيرا عندما تتاح له فرصة عمل وجبة طعام للفاردة لأنه يعتبر ذلك يمنا وخيرا وبركة، واذا كان فقيرا، فهو يجد المساعدة من كافة الجيران والاقارب كل يقدم ما يستطيع لأن بياض الوجه للجميع.

واذا وافق العقيد على التلبية، يقود الداعي (المعزب) ركوبة العروس حتى تقف امام بيته وتحل في بيته، حيث تجلس اما في منام الاولاد، (وهذا الغالب)، او يفترش لها على الارض... ويعتبر جلوسها في المنام نوعا من الدخالة، وتصبح بذلك في حمى فرسانها، وحمى معازيبها، كما ان جلوسها هناك موضع تفاؤل ويمن لصاحب البيت نفسه... ويتم الاعتناء بالعروس بتقديم الطعام الخفيف المغذي لها (اي اللحم او كبدة الذبيحة او قلبها...الخ) ولا يقدم لها الثريد لأنه ثقيل على المعدة.

وأما ركوبتها فيعتني بها بشكل خاص، كما ان العلوفة تقدم لركائب الباقين ايضا... وتتجمع الفتيات من الحي حول العروس ليغنين ايضا، لأن هاته فرصة جيدة للتعبير عن فرحتهن، والمشاركة بفرحة الاضياف، فاكرام الضيف واجب في جميع المجالات ومنها مشاركته فرحته...

واذكر انه كثيرا ما كانت تقام العاب الفروسية المسماة (صابية - او طراد الخيل، او مسابقة) سواء بين افراد رجال الفاردة انفسهم او فيما بينهم وبين المعازيب... في الوقت الذي يجري فيه فور وصول الفاردة البدء بصنع الطعام للضيوف، وتذبح الذبائح بما يكفي هؤلاء... ويتعاون ابناء (الفريق او الحي) معا لانجاز المهمة بسرعة كي لا يؤخروا الفاردة حتى انهم يمتدحون القوم الذين يصنعون طعام الفاردة بسرعة... واذكر

ايضا ان بعض الرجال الذين ينوون دعوة الفاردة التي ستمر بهم لا يغادرون مضاربهم وبيوتهم في ذلك اليوم ويجهزون الذبائح سلفا.

واذا كانت العروس راجلة، فان (الداعي او العزام)، يقول بصوت عال: (العروس عندي) او (الفاردة عندي)، كمعنى للدعوة، حينها على العروس ان تقف، ثم يتقدم (العزام) قبالتها ويحاور عقيد الفاردة في قبول دعوته...

واذكر ان الدعوة احيانا توجه باسم الفريق كاملا: (اي عند عرب فلان مثلا) للحصول على الموافقة المبدئية بان تكون ضيفا عليهم، فاذا ما حصلت الموافقة، جرت المحاورة بين رجال الحي انفسهم كل يريدها لنفسه، وقد يستقر الامر حسب الدور، او ما الى ذلك، فيقوم هذا بواجبه اللازم، واذا عرفنا ان العروسين يذكران بالخير طيلة حياتهما من يدعو فاردتهما، فاننا نجد سببا معقولا للتهافت على كسب هذه الفاردة، ليبقى الشخص موضع الذكر الطيب عند هؤلاء القوم او عند الزوجين الجديدين على الأقل...

ومن جملة المشادات بين رجال الحي ان يعمد احدهم الى نحر جزور سلفا، او ذبح بعض رؤوس الماشية، او قطع ارجلها، ليضع الفاردة ورجال حيه تحت امر واقع بقبول الدعوة.

ولا ننسى ان للداعي اغاني خاصة يجب على الفتيات ان يغنينها وباسمه الصريح، تبجيلا له واحتراما، وتقديرا على ما فعله تجاه اضيافه، وكم هي نشوة البدوي عندما يسمع الفتيات يرددن اسمه في اغانيهن، يرددنه كشجاع، كريم، شهم...الخ.

ومن الاداب عند البدو، وحتى عند صعاليكهم ومجرميهم ... انه من العار ان يسلبوا عروسا او يسطوا عليها او على الفاردة اثناء حركتها الى مخدع الزوجية، لأن كل ما يحدث من اعتداء يبرز على شكل معارضة من ابناء العم او ممن يتصلون بالعروس من ذوي القربى بما هو اكثر من عريسها، ويكون ذلك امام الجميع وعلى مسمع منهم، وقبل (قوامة العروس) فهي لا تغادر الا وقد انتهى كل شيء، واذا لم يستطع اهل العريس الوفاء بالالتزام لقصور منهم وضعوا الوعد بالوفاء بوجه شخص او اشخاص او عشيرة معينة... والذي يجب ان نعرفه انه لا يحق للعروس ان تتدخل ضد اي طرف لصالح الاخر، بل تلتزم الصمت.

واذكر ايضا ان بعض نساء الرجال المهمين كالشيوخ والوجهاء والكرماء، اذا ما مرت الفاردة بمضاربهم اثناء غياب الزوج، تتقدم هي او ترسل احد اولادها ولو كان صغيرا، وتدعو الفاردة – هذه الدعوة التي تكون بالقبض برسن ركوبة العروس، واذا قبلت الدعوة، استدعت هذه المرأة رجال الحي لصنع الطعام، وربما استدعت بعض الضيوف انفسهم لصنع طعامهم بعد ان تقدم الذبائح والحطب، واللبن، وليس هذا عيبا، اذا لم يوجد رجال من المعازيب للقيام بالمهمة...

واذا ما اكل القوم طعامهم، استأذن عقيد الفاردة، واعطى اشعاراً من قبل المعزب للنساء بالحركة، او من خلال حركة الرجال نحو الركائب، وتنطلق الفاردة من جديد، وبينما يشكر الرجال معازيبهم بالكلام العادي، تشكرهم الفرادات بالشعر فيقلن مثلا :

يخلف عليكم كثر الله خيركم وما لقينا غيركم...الخ

وتتحرك الفاردة وسط الزغاريد والعيارات النارية، وصيحات الرجال احيانا، وتواصل مسيرتها باتجاه بيت العريس، وقد تدعى اكثر من مرة على الطريق، وقد تستغرق الطريق اكثر من ليلة من الزمن، حينها ينامون عند من دعاهم للعشاء، ويتحركون قبل طلوع الشمس...

موقف العريس:

وأثناء ذهاب الفاردة لجلب العروس يبقى العريس في بيته حيث يستحم، وغالبا ما يستحم وسط اهازيج الشباب وزغاريدهم، وفرحتهم الكبيرة، ويهيء نفسه للالتقاء بعروسه نظيفا طاهرا، يرتدي اجمل وانظف ما عنده من الثياب، ولا ينسى نفسه من العطر اذا توفر لديه، وكان لا يجوز له الذهاب مع الفاردة، وانما ينوب عنه شقيقه، او والده او ابن عمه، او احد المقربين اليه من اصدقائه، اما في عصرنا الحاضر فان العريس يذهب مع الفاردة ليكون الى جانب العروس - ولا شك ان هذا يجسد التطور وحالة من الأمن اذا ما ادخلنا هذا الموضوع ضمن مبدأ الامن والحماية. اما عدم ذهاب العريس فيما سبق مع الفاردة الى حيث عروسه، فكان يعبر عن رزانة الرجل، واهميته، وانه قطب الرحى بالنسبة للمرأة، وهو مركزها وهي تدور في فلكه، ويجب ان تأتي اليه لا ان يذهب اليها، فقد قام بالذهاب في الذبيحة، وعليها ان ترد هذا المجيء...

واذا نظرنا الى الزواج من هذه الناحية فلا بد ان نفرق بين المبدأ والعادة، فالمبدأ ان يتم الزواج في بيت العروس، ولكن في العادة ان يتم في بيت العريس، واقصد بالزواج هنا دخول العريس بالعروس... واذا استعرضنا تاريخ ذلك وجدناه منذ القدم. فقد تزوج سيدنا موسى عليه السلام بابنة شعيب في بيت والدها بعد ان رعى له غنمه، وكذلك كانت بعض العادات لدى العرب في الجاهلية، وعند البدو كان الشيخ اذا ذهب في رحلة صيد او غير ذلك واعجبته فتاة خطبها من والدها، وتزوجها في نفس المضارب حيث تقام لهما البرزة، ويفرح القوم، ويرقصون، وقد يقتصر الامر على تعليلة الرجال والربابة، ويدخل بها تلك الليلة، وقد يطلقها في الصباح اذا لم تعجبه، واذا عقد العزم على الاستمرار حملها معه، او ارسل من يحملها في موكب الى بيته، وفي المجتمعات البدائية، والمتقدمة في عصرنا الحاضر تسود هذه العادة.

وفي رأيي: ان المبدأ في الزواج كما قلت: هو ان يتم الزفاف والدخول بالعروس في بيت والدها، واما السبب في ذلك فنرى انه، كان المبدأ في زواج الفتاة من شقيقها، ثم من ابن عمها، كما سبق وشرحنا حول تطور الزواج، وعندما اتسعت العائلة تفرق الاخوة، والابناء، ولكن بقي المبدأ في ان يكون زواج الفتاة في بيت والدها او لنقل موكلها، فذلك يساعد في ازالة هالة الخوف التي تحيطها من الزواج او الرجل الغريب الذي سيتزوجها، او من العمل الذي سيمارسه معها، حيث سيدخلان حياة جديدة، بالاضافة الى افتراضه

ابن عم بعد تحريم زواج الاخت والابنة، وابن العم عادة يكون بنفس الفريق.. اي بنفس الحي، وربما بنفس البيت الواسع الذي يعيشون فيه.

ومن الاسباب الاخرى التي يمكن اضافتها، ان الشاب الذي كان يتزوج بفتاة يعمل قبل ذلك لدى والدها، لكسب رضاها، ورضى والديها، وليكون عمله جزءا من المهر، او ليكتسب ما يساعده على جمع المهر، او مقابل المهر كاملا كما حدث لسيدنا موسى عليه السلام عندما تزوج ابنة شعيب عليه السلام مقابل ان يرعى غنمه ثماني حجج او عشر.

ولا ننسى ان الزوجة في عرف الانسان البدوي هي صيدة يصطادها، بل هي اثمن صيدة لأنها تؤنسه، وتحافظ على استمرار نسله، وتكمله كنصف اخر للانسان بحسب طبيعة تركيبتها، ولا يتسنى الحصول عليها الا بشق الانفس، ولكنها شريكة الحياة ورفيقة الدرب الطويل، فلا بد اذن من وضعها تحت الاختبار لفترة معينة، فان استطاعت المواصلة فنعمت هي، والا فكل طرف يبقى في مكانه، هي في بيت والدها، ويعود هو الى قواعده سالما، ومن هذا المنطلق يقضي العروسان بداية زواجهما اسبوعا، او سنة او اكثر، واحيانا، اقل من ذلك او اكثر، والسائد الان ما بين ثلاثة ايام ويوم واحد في المجتمعات التي لا زالت تطبق هذه العادة في الجزيرة العربية، وبعدها يأخذ العريس عروسته ويذهب حيث اتفقا او اشترط عليه او الى حيث يرغب؟! وربما تدخلت طريقة الاختبار لدى الانسان في ممارسة الزواج في بيت العروس، خاصة المجتمعات التي لا تتاح فيها فرصة دراسة العروسين لبعضهما، فتتم هذه الدراسة في اطار الشرعية، وليس تحت ستار السرية، فان اتفقا، واعجب كل بالاخر واحبه، فالأمور على ما يرام والا (لا احد شاف ولا احد دري).. هذا بالاضافة الى انها اذا لم تكن حسب الشروط المتفق عليها (جميلة، او بكر...الخ) خاصة في المجتمعات التي لا تعطي القدر الكافي من الاختلاط، فان العريس حينئذ يتركها ويذهب هو (في امان الله).

واذا تمت الامور كما يجب، وذهب بعروسته الى حيث يقطن يتحول السكن مع اهل زوجته الى زيارات يقوم بها وزوجته معا، او كل منهما منفردا اي زيارات منفردة. واعرف واذكر الكثير من البدو الذين تركوا مضارب اهلهم، لينضموا الى مضارب اهالي زوجاتهم، خاصة ضمن العشيرة الواحدة، اذا لم يكن هذا الزوج ملتزما بارتباطات معينة كأن يرث المشيخة عن والده، او يتحمل مسؤولية عائلة كبيرة، او ان فراقه لجماعته سيؤدي الى (قيل وقال)، او نقص او اي شيء يسيء اليهم. ويوصف الشخص الراحل لمضارب زوجته (اذا لم يكن هناك مبرر لذلك)[1] انه واقع تحت تأثير زوجته، ومن العيب ان يطيع البدوي رأي الانثى في امر مصيري يخالف الاعراف والتقاليد الاجتماعية، وان كانوا لا يعيبون

---

[1]) من المبررات للرحيل، ان يربى الشخص يتيما، ولا يحتضنه احد من جماعته، فيعمل لدى شخص من غير اهله او عشيرته، ويحسن اليه ويزوجه ابنته او احدى البنات الاخريات ويساعده في كل شيء، واذا كانت العروس من مضارب المحسن او من جماعته، فلا عيب على العريس ان يرحل ويسكن هناك لانه كما يقولون (الصديق عند الضيق) وينطبق المبدا هنا (كون نسيب ولا تكون قريب)، ومبدا (مطرح ما ترزق الزق) وطالما ان مجيئه هنا رزق له، وحياة كريمة، فيعتبر رحيله على اساس طلب الرزق والكرامة معا.

ومن المبررات ان يكون العريس مكروها في قومه فيبحث عن مكان اخر على مبدا (قل للاقارب يتزاوروا ولا يتجاوروا فيتحابوا).

عليه بنفس المقدار اذا هو عمل نفس الذنب بمشورة الرجال.

وتوجد مثل هذه العادات لدى المجتمعات البدائية ايضا وهذا ما نراه لدى الاسكيمو ونجد بعض الضوء حول هذا الموضوع في كتاب علم الاجتماع البدوي تأليف صلاح الفوال ص ٣٥٨.

تخطب الفتاة وهي طفلة ولكن الزواج لا يتم فعلا الا بعد ان يكبر الولد والبنت ويصبحان قادرين على تحمل مسؤولية الحياة الزوجية، وجرت العادة عند الاسكيمو، ان يعيش الزوجان في منزل اسرة الزوجة، ويظلا كذلك حتى يتوفى والداها وبعدها يستقلان بمسكنهما، واثاث بيت الزوجية عندهم لا يخرج عن ادوات الصيد الخاصة بالرجل وسكين، ومصباح، وبعض ادوات المطبخ، ونظام الزواج السائد عندهم هو نظام الزواج المونجامي (اي زوجة واحدة للرجل الواحد)، ولكن نظام تعدد الزوجات معروف. وان كان ضيق الانتشار، ومن علامات مودة الصديق لصديقه عندهم ان يسلفه زوجته لمدة ما تطول او تقصر تبعا لحبل الوداد، وليس الصديق وحده هو الذي باستطاعته ان يستمتع بزوجة أحدهم، ولكن الضيف ايضا يمكن ان يكون له نفس الحق، خصوصا اذا ما كان مضيفه متزوجا باكثر من زوجة واحدة، هذا وتوجد صور اخرى لتبادل الزوجات بين الاصدقاء والمتزوجين، ويصل بعض هذه الصور الى حد الالتزام عندما تفرض عليهم تقاليدهم الدينية ذلك في مناسبات بعينها.

استقبال العروس:

ولدى اقتراب موكب الفاردة من بيت العريس، تظهر لذلك علامات كثيرة وواضحة، اذ ان المعازيب يرسلون (الرواقيب - مفردها راقوب، او راقوبة) اي مراقبين لاستطلاع موكب العروس، واين وصل؟ ويبشرون الموجودين في العرب، والذين هم عادة من المعازيب، والمدعوين، والاطفال، والشيوخ، والنساء، بينما تزداد حدة الزغاريد، وتبدأ النساء بالغناء، كدليل على اقتراب التحام الفرحين، فالفرح القادم او لنقل العائد الى قواعده يجب ان يجد فيها فرحا اخر ليكتملا معا في فرحة واحدة، ولقاء واحد فزيادة الخير (احسن وأخير).

وأما العريس فيكون قد استحم، وتعطر، وجهز نفسه، ولبس اجمل حلة ويقف ومعه عدد من الرجال والشباب بانتظار وصول العروس والفاردة، ومن العادة حسبما اذكر ان يقوم العريس بانزال عروسه عن متن الجواد او الجمل، ويقودها الى ان يصل بها الى (محرم البيت) الذي تتم فيه الفرحة (بيته او بيت والده، او عمه، او جده، او قريبه...الخ).

ولهذه العادة مثيل واستمرار في المجتمعات العصرية، حيث يستقبل العريس عروسته، ويمسك بيدها دالا لها الى منصة الزفاف المعدة لهذه الغاية، والفارق انه في الوقت الحاضر في المجتمع العصري يجلس العروسان معا على هذه المنصة، اما عند البدو

فيقوم العريس بمهمة توصيلها فقط.

ونجد في العادة البدوية فلسفة جميلة، ذلك انها تعني وصول الهدف لصاحبه هذا الهدف الذي جاء يسوقه او يقوده الكثير او في موكب العديد من الرجال والنساء، ربما نحو المجهول، ولكن عند الوصول الى النهاية، تتبلور الامور على حقيقتها ويظهر صاحب هذه (الصيدة)، وصاحب هذا الهدف، فيمسك به، كدلالة على الثقة بالحصول عليه. وطمأنينة للعروس انها وصلت الى حيث تقاد، الى شريك حياتها الجديد... هذا بالاضافة الى ان العريس اولى الناس باستقبال عروسه الان، واذا كان التنائي (قديما) قد باعد لقاءهما، فالقرب الان قد سمح لهما بالالتصاق بطريقة شريفة ومشروعة، وكان (عادة) يمسك بطرف عباءتها، بينما في المجتمع العصري يضع يده بيدها، والعادة الاولى اكثر ادبا، واحتشاما، وتعبر هذه العادة عن الفرحة والسعادة التي يشعر بها العريس تجاه ضيفته الجديدة، وانها قد وصلته رغم كل العقبات والصعوبات التي تترتب على مطالبة ابناء العم والخال بها... واثناء ذلك تنطلق الزغاريد، وتستقبل ام العروس هذه الضيفة بالعطور، وترش الحلوى على النساء والاطفال، المحيطين بالعروس كتعبير عن هذه الفرحة الكبيرة. وربما تقبلها وليس في ذلك ما يشين، ولا ننسى ان العريس مسئول عنها حتى دخولها (المحرم)، (الموضع المعد للنساء من البيت)، حيث تتولى امه او احدى قريباته مهمة التشريفات، اي تعطيها التعليمات حول ما يمكن ان تتصرفه فيما يناسب المعازيب او لنقل البيت الجديد.

ويصافح العريس ايضا (عمته) الجديدة وهي (ام العروس) ويقبل يدها خاصة اذا كان هو شابا، اما اذا تجاوز الاربعين من عمره (وغالبا تكون هذه الزوجة ليست الاولى) فليس من المستحب ان يقبل يد عمته كما يمكن عليه ان يفعل لو كان اصغر سنا.

وربما يقدم العريس عباءة لعروسته فور وصولها، كتعبير على ان مسؤولية سترها وحياتها قد اصبحت امانة في عنقه، وهو على استعداد لتحملها، والقيام بها على خير وجه، وربما يقدم لها قطعة قماش من حرير تكون كمنديل تحت منديلها الذي تضعه على رأسها كتعبير عن الخير والحب، والتقدير والترحيب.

واذكر ان العريس احيانا يطلق عدة عيارات نارية من مسدسة ابتهاجا بوصول عروسه (سالمة غانمة) وقد يزغرد لكنه يجب ان يتصرف بكل رزانة لأنه سلطان الحفل، والنقطة التي يدور عليها محور الفرح، وتعتبر العروس ضيفة، حتى ان العريس لا يمسها (احيانا) في الليلة الاولى، واذا لم يمسها قالوا: (ضيفها)، اي اكتفى بالحديث اليها، والجلوس معها، وربما تستمر الضيافة ثلاث ليال، اما اذا ازدادت عن ذلك فالامر يصبح موضع شك وعادة لا يكون هذا ملصقا الا بالعريس، فهو صاحب الامر، والذي عليه ان يبدأ، ويتقدم، ويفترع، وعلى الانثى ان تطيعه وتنفذ اوامره.

والمبدأ هو الضيافة في الليلة الأولى، ذلك انها ليلة الخوف، وتحتاج العروس فيها الى الاستعداد النفسي للجو الجديد، وكذلك لترتاح اذا كانت على رأس سفر طويل. فقد لا يكون بمقدورها تحمل السفر وممارسة الجنس في وقت متقارب، كما ان الضيافة تهيء

العريس لمعرفة عروسه، ويهيء لها معرفته، خاصة في (الايام الخوالي) وفي بعض المجتمعات الحاضرة، حيث لا يسمح لهما بالتعرف على بعضهما البعض قبل ليلة الزفاف... ولا بد ان نتذكر ايضا، ان الهدف قد تحقق (اي ان العروس قد وصلت الى حيث يطلبها عريسها)، (والي عند اهله على مهله)، (والعجلة من الشيطان).

ومع هذا فانه في العادة ان يمارس العريس الجنس مع زوجته في الليلة الأولى، لأن ذلك احدى امنياته، خاصة وان الانتظار، والفراغ قد اديا به الى التفكير بالجنس كثيرا، ويحتاج للتنفيس عن كبته، وافراغ شهوته وقضاء حاجته، وكثيرا ما يؤدي التسرع والتهور الى فشل الحياة الزوجية منذ البداية، خاصة اذا كان الرجل (غشيم صنعة – اي يمارس ذلك للمرة الأولى). واذكر كثيرا من الحوادث (ان تهرب العروس من الليلة الأولى) او (الايام الأولى للزواج) لسوء تصرف وسلوك زوجها معها، فهو يطلب كل شيء بسرعة، وهي تحتاج الى تهيئة نفسية على الاقل، مع ما يتطلب ذلك من وقت... وبذلك جاء مبدأ ضيافة العروس عند بعضهم والذي يعود دائما بنتائج طيبة بالاضافة الى انه من طبع البدوي ان يكرم ضيفه، وان اختلف تفسير معنى الاكرام لديهم بالنسبة للعروس، فالبعض يرى (اكرامها هو فض اختامها – اي ممارسة الجنس وفض البكارة) وبعضهم يرى ان (اكرامها هو العكس تماما).

وعندما تحط العروس رحالها في البيت الجديد، وهو البيت الرئيسي للعرس، تأتي ام العريس وقريباته واخواته للسلام عليها، والتعرف بها، وبذلك يصبح الجو لطيفا بالنسبة لها، انها جزء جديد من الاسرة، وموضع حفاوتها وتقديرها واحترامها، علاوة على ان ذلك نوع من المجاملات والاستقبال ولا بد من كلمات الترحيب من هاته النسوة بالعروس، لأن الكلمة تعطيها الطمأنينة والارتياح.

وأما دخولها للبيت الرئيسي المسمى عند البدو (البيت الكبير) اي الاساسي الذي انطلقت منه البيوت الثانوية، كبيت الأب بالنسبة للأبناء، فهو تيمن بالخير، انه من هنا يجب ان يبدأ والى هنا يجب ان يرد ويأتي، كما انه نوع من الانضباطية، وتماسك الروابط الاسرية. وان الشخص ليس له مطلق الحرية في ان يعمل ما يشاء، بل ان يفعل ذلك ضمن اطار المجموعة الصغيرة (الاسرة)، والكبيرة (العشيرة).

وقد انتقلت هذه العادة الى البدو الذين استقروا، واصبح يطلق عليهم (الفلاحين)، وهم في القرى، وحتى الذين سكنوا المدينة، لا زالت عندهم هذه العادة وهي عمل الافراح (الاعراس).

زفـــاف العريـــــس:

قلنا ان الفاردة تذهب لجلب العروس الى مخدع الزوجية، وتذهب النساء بحماية الرجال، كما ان في الامر (تكبير واجب للقوم) في ان يذهب رجال معتبرون ويعودون فرحين بما اوتوا نصيبا من النساء وهي العروس، ونستطيع ان نؤكد مهمة الذكور الحربية سواء

اكان ذلك رمزا ام حقيقة في مصاحبتهم للنساء الذاهبات للاتيان بالعروس.

ولا بد من الفرحة في شق اخر لتكتمل في طرفيها وشقيها، حيث زفاف العريس ايضا، والذي لم يكن معروفا من قبل في فترة من الفترات، اذ كانت المسافة التي يقطعها رجال القبيلة لجلب العروس - من البعد بحيث لا يسمح لهم ببذل جهود جديدة، او ان المسافة من القرب بحيث يعتبر الزفاف للطرفين... ولكن عندما اصبحت حركات البدو محددة في مناجع معينة، واستقر بعضهم، بدأت تظهر عملية زفاف العريس، والتي يعرفها البدو المستقرون، والمزارعون وتطورت حاليا بحيث اصبحت زفافا للعروسين معا في سيارة واحدة، وربما الى المطار او الفندق؟!

وأما زفاف العريس، فهو في صورته التعبيرية تقدير من القوم لابنهم، وتقوية لمعنوياته انهم عزوته ومن حوله، يشاركونه افراحه، ويحمونه من اي اعتداء كما فعلوا مع عروسه قبل ذلك... كما ان الانتظار الطويل الذي مر به العريس وهو رهين البيت طيلة غياب الفاردة لجلب شريكة حياته، تحتاج لأن يذهب عن نفسه الملل، والضيق، ولكن يذهبه باهازيج وافراح، وزغاريد... ولا ننسى ان نزهة مسائية في مثل هذا الجو تزيده انعاشا وقوة، وشوقا للعروس... كما ان العطور والحلوى ترش وتعطى على مرافقيه، لينالهم من الخير والبر ما يشعرهم بالتعويض عما بذلوه من جهود وما الامر الا شيئا رمزيا ليس الا...

وفي الزفاف استعراض للعريس نفسه - وتشجيع للاخرين ان يحذوا حذوه على هذه الطريق، وفي وصف لزفاف عريس، استطيع الان ان اتذكر كيف كان يتم ذلك عند البدو: بعد وصول العروس، ونزولها على الرحب والسعة في البيت الكبير (الملم) حيث تكون الرقصة والفرح... يتجمع الشباب قبيل الغروب وهم يتنادون (وين النشامى)، ثم يقوم احدهم وهو مرافق العريس الذي يعلمه امور الزواج، وكيفية التصرف والتعامل مع العروس، ويقول: (يالله يا عريس) - (نريد نزفك)، فينهض العريس الذي يكون قد لبس حلة العرس التي سيدخل بها الليلة ويتجمعون امام الشق وبالذات من قرب مكان القهوة، لما لذلك من دلالات على الجود والخير واليمن والبركة بامجاد العشيرة، ويمتدحون العريس، واهل العروس، واذكر ان العريس يكون في وسط الرجال، وعلى يمينه وشماله البقية في صف واحد، بينما يتبعه صفان اخران، او صف واحد، او ربما بدون ذلك، واحيانا يتقدمه صف، ومعه الثاني ويتبعه الثالث، ولكل ذلك دلالات وتعبيرات حربية ودفاعية، وانهم على استعداد لأن يفتدوه بانفسهم وأرواحهم، وان الوصول اليه صعب ولا يكون الا على جثثهم، واذكر اننا ونحن اطفال كنا نتبع هؤلاء الرجال، بينما البعض من اهل العريس يوزعون الحلوى على القوم المرافقين، وللاطفال نصيب مما يتركون.. واذكر انهم كانوا يفضلون ان يقطع العريس اقرب واد، اذا وجد، لأن ذلك يعني انه تجاوز الجمود، وجاء بالبعيد، وحصل على ما يريد دونما خوف او وجل ويقولون (قطع الوادي وجاب الغادي)، اي الغائب عن الانظار، البعيد عن السيطرة، كما ان الوادي عادة يكون مجرى السيل والماء، وهم يعتقدون ان الشخص وخاصة العريس اذا قطع

الماء الجاري او مجراه يساعد ذلك على فك ما كان ضده من سحر... وتعني ايضا انه غاب وابتعد وجاء محققا الهدف (الزين من غاب وجاب) واذا وجد ولي او شجرة مقدسة، فان زفاف العريس يصل اليه او اليها، تيمنا، وطلبا للخير والبركة على ان كرامة هذه الشجرة او هذا الولي ستسري في زواج العروسين مما سيجعل حياتهما مباركة، وربما اخذ العريس قطعة قماش من على القبر خاصة القماشة الخضراء او البيضاء للتعبير عن الخير وبياض العرض... واذا لم توجد هذه، ووجدت تلة فضلوا الوصول الى ما وراءها، فالمهم ان يختفوا عن الانظار ولو الى لحظات ثم يعودون من حيث اتوا، لان في الاختفاء معنى الغياب، وبالتالي يكون الشوق وتكون اللهفة لعودته حيث يستقبل بالزغاريد والعيارات النارية.

واذكر انه اذا لم يوفق العريس في زيجات سابقة، سواء بالفراق او الطلاق او الموت، فانه لا بد ان يمر بشجرة اذا وجدت في المنطقة او يكون الزواج قرب شجرة، وعند الاقتراب منها ينطلق العريس بسرعة، وعلى حين غرة من قومه الذين يحوطونه، فيقول: (تلبست الشجرة من قلة المرة[1])، لاعتقادهم ان ذلك (دخالة على الله سبحانه)، وما هذه الشجرة الا وسيلة للوصول الى الغاية التي يحققها الله سبحانه وتعالى، ثم يتقدم اليه قومه، ويقولون، (استجاب الله)، (وكل الله بتشديد الكاف)، و (عين خير، بتشديد ياء العين)، و (ان شاء الله تهنا، وما تعنا بتشديد النون في الكلمتين)، ثم يعود الى صف القوم ثانية ويواصلون غناءهم بأبيات فيها ذكر الله سبحانه وتعالى، والصلاة على رسوله عليه الصلاة والسلام، ذلك ان المناسبة الان اقرب الى الصلاة والخشوع، وبالتالي الطلب الى الله ان يحقق الهدف والمطالب... وغالبا ما يعودون الى البيت من حيث انطلقوا بعد الدخول بالشجرة، على انها تشكل نهاية المطاف، وانهم دعوا الله وان الله قد استجاب دعاءهم، واذكر ان احدهم دخل بشجرة بايعاز من البعض، وكان زواجه لأول مرة، ولكن الذي حدث انه مات بعد اقل من خمس سنوات من هذا الزواج!! وانني ارى ان هذا الشيء من الخرافات الوهمية التي تدخل في حياة كافة الشعوب ومن بينهم البدو، ولكن يبدو ان ذلك توسل للقوى الغيبية خاصة وان الشجرة تمثل الماء والخضراء والحياة والاستمرار، والعمر الطويل، حيث يعمر بعضها قرنا من الزمان، وخاصة السدر (الدوم) والبلوط والسنديان، والزيتون، والبطم... وما شاكلها... هذا بالاضافة الى ايمانهم باتخاذ الوسيلة في الوصول الى القوى الغيبية.

وبعد ان يعود العريس من هذا الزفاف، وقد شعر بالقوة، والعزة لوجود ربعه من حوله، وربما بالطمأنينة لزيارته قبر الولي، او الوصول والدخول بالشجرة، او قطع الوادي حيث ان هذه الاوهام تعطيه الطمأنينة النفسية ليتقدم ويستمر في بقية مراسم الزواج،

---

[1]) واما طريقة الدخالة، فتكون عندما يمر وقومه قرب الشجرة سواء اكانت هذه ذات موقع معين في النفوس، ام شجرة عادية اذا لم توجد الاولى، ويفلت من بينهم مسرعا مهرولا، قائلا العبارة المذكورة، حيث يحتضن الجذع احتضانا، واضعا خده بخشوع وخوف على الجذع مما يلي الوجه، بينما رجلاه تلتفان عليها ايضا، ويبقى على هذه الحالة بضعة دقائق وهو يدعو الله بكلمات ان يستجيب لطلبه، ويطيل له زواجه من شريكته الجديدة.

وكأنه ضمن عدم حدوث اي شيء لا تحمد عقباه ضده، وعند وصوله يستقبله الرجال بالزغاريد، والعيارات النارية ويقوم الجلوس في الشق ليدخل هو ويأخذ مكانه المناسب، والذي يكون اما خلف الساحة او خلف الرواق مقابل نقرة النار التي عليها القهوة، ولكنه لا يجلس عند باب البيت او الرفة، حيث تمثلان الطرف الخارجي، والحافة بما لا يؤدي الى التفاؤل ابدا.

اما موقعه خلف الساحة فيعني انه الان امير القوم، مع المبالغة باحترامه امام ربعه، وامام من جاء من الغرباء، وانه اصبح رجلا لا يستحق الزواج فحسب، بل والجلوس مكان الشيخ او بجانبه، وهو خلف الساحة، بالاضافة للتعبير عن انه الان صاحب بيت جديد، وقريب من (المحرم – موقع النساء في البيت) ويجب ان يتدرب على هذه المسئولية الجديدة.

وأما جلوسه مقابل نقرة النار من جهة الرواق، فهو يعني التفاؤل بالنسبة للقهوة، والنور المنبثق عن النار، بالاضافة الى توسطه للقوم، وقربه من جميع الحاضرين للنظر اليه وتقديم النقوط، ولا شك ان هذين الموضعين هما انسب الامكنة في الشق لجلوسه، حيث يكون على يمينه (الدلولة، اي الاشبين)، الذي يشكل التشريفات لأي رئيس دولة... اذ يسير امامه او يقوده، ويبلغ اوامره، وطلباته الى الاخرين، ويستقبل منهم ما يريدونه منهم، حيث يترتب على العريس ان يتصرف برزانة كبيرة جدا، وان يقلل من الكلام والمزاح، والضحك، وارتفاع الصوت، بل انه يقول لدلوته او لتشريفاته ومرافقه، ما يريده وبصوت خافت وما تبقى فعلى المرافق ان يفعله... ان العريس في هذه اللحظات اشبه بحاكم عظيم ذي هيبة، وقيمة، بين قوم يبادلونه الاحترام، والطاعة والولاء...

واذا كانت الشمس لم تغب بعد، يبدأ الفرسان (باللعب – في سباق جميل)، وعيارات نارية، وزغاريد، وربما ايضا مبارزة بالسيوف، كل ذلك امام العريس واحتفاء به، واذكر انه كان يؤتى (بالنور – الغجر – ليقوموا بالرقص والغناء أمام العريس والحضور بطرقهم الغجرية، لكنها جذابة، تثير الطرب والحماس، وكنا كأطفال نجد لذة في سماع ورؤية هذه الاغاني والرقصات)، وكل ذلك احتفاء بالمناسبة وبهذا الرجل الذي سيفتح بيتا جديدا ينجب للقبيلة رجالا جددا... وعندما اتذكر هذا، تحضرني الاحتفالات التي تقيمها بعض الشعوب البدائية، والمتقدمة، من الرقص في الشوارع، وحفلات الرقص الاخرى امام الزائر العزيز من رؤساء الدول الصديقة، واذا عرفنا كم يعني هذا من احترام الزائر، واشعاره بعظمته واهميته، عرفنا ماذا يعني الاحتفاء بالعريس، واذا كان يعاب على البدو رقصهم ورقص النور بهذه المناسبة فالأولى أن تكون عيبا على الانسان العصري لأن فرحة البدوي فرحة صادقة واحتراما للعريس وان امره مطاع، والجميع يفتدونه بارواحهم (حسبما يغنون).

يـــا فلان حنـــا عزوتك جلايبـــك يوم المبيع
وان ما بعـــت حنـــا نبيع بـــارخص ثمـــن بارواحنا

واذكر ان الكثيرين لم تقيض لهم الفرص للحصول على الاحترام في حياتهم من

الاخرين الا يوم زفافهم، يردد ولا عجب ان ردد واحدهم قول:
(يا ليت كل يوم اكون عريس)، ومثل هذا الاحترام يزرع فيه الثقة، وينمي فيه العزة والقوة، بل ويشجعه ان يكون عريسا بين فينة وأخرى، حتى ان كثيرا من القوم اذا فقد واحدهم ثقة الاخرين به، واحترامهم له، ربما لجأ الى الزواج ليحصل على قسط من الاحترام ولو ليوم او بعض يوم - ولا شك ان السخفاء كثيرون في كافة المجتمعات، والامكنة والازمنة!! لكنني لا املك الا احترام مثل هذا الرجل الذي يرغب رد اعتباره لدى ربعه اذا كان ذلك بوسائل محترمة؟!؟



لسان البحر الميت الجنوبي ايار ١٩٧٣



تعطلت السيارة اثناء الدراسات الميدانية اذار ١٩٧٤

الفصل الحادي عشر

البرزة والنقوط

البرزة والنقوط

وهي الخباء الذي يضم العروسين ليلة زفافهما ولمدة اسبوع، ويكون أثناء ذلك مأواهما ومكان اقامتهما، ومستقر العريس عند طلب النوم، او الراحة مع عروسه، وتكون البرزة عبارة عن خيمة او خربوش من الخيش، او الشعر او الصوف، او الوبر، وهي صغيرة الحجم والمساحة، بحيث تتسع للمنام الذي سيرقد عليه العروسان، وقليل من الفسحة للاستحمام. ويبدأ نصب البرزة بعد وصول العروس الى مضارب شريك حياتها الجديد، اي بعد ضمان وصولها بالسلامة، ويقوم بنصبها ذوو العريس وخاصة امه او اخواته، واخوانه حتى لا يكون لاي غريب تدخل بالامر حيث يخشى من الحسد والحقد، والسحر، اما (العزوة) فيؤمن جانبهم لأن الأمر يهمهم ويخصهم جميعا، ثم تشترك نسوة من الفريق (الحي) بالمساعدة بالبناء والتجهيز..

ويؤتى بالخباء، ثم تربط به الحبال وتدق الاوتاد، ويرفع على الأعمدة، بعد تنظيف المكان جيدا، مع ذكر الله سبحانه وتعالى بقولهم (بسم الله الرحمن الرحيم - دستور يا اصحاب الارض والمكان) اي انهم يستأذنون اصحاب المكان من الجن والارواح كي لا يؤذوا العروسين. وربما يرشون الملح والماء كتفاؤل بطرد الارواح والشياطين، وطلبا للخير والبركة والنماء، ثم يصنع منام للعروسين وهو عبارة عن نصب حجارة ترتفع عن الارض "بما يشبه السرير أو المنام لأن هذا سرير العريسين ومنامهما" وتملأ ما بينها بالتراب والحجارة الأصغر ثم توضع طبقة من الحطب اللين او العشب ذي الرائحة الزكية، ثم يوضع الفراش وهو الاثاث الذي جاءت به العروس من بيت اهلها... وترافق هذا عمل الزغاريد والاغاني، لأنه يعطي التمثيل بمعركة من نوع ما، واذكر كيف كانت النسوة يزغردن ونحن من حولهن كاطفال نلعب ونلهو بسعادة نتمنى عودتها الان الينا واذكر كيف كان ينقل اثاث العروس جميعه الى هذا البيت الصغير المؤقت، الهادىء، حيث يوضع الصندوق والعدول (والغفرات)، عند الرجلين اي عند طرف المنام من جهة الاقدام، مع الاعتناء بالستائر التي تحجب الناظر من الخارج عن رؤية ما في الداخل، ولا يكون لها الا مدخل واحد فقط، لكنه غير واسع، واما مكان البرزة فاذكر انه يكون بحيث (لا يسمعون الاهات لكنهم يفزعون للصيحات) اي ان ما يحدث بين العروسين من الهمس واللمس والاهات، وكلمات الغزل والاستلطاف لا يسمعها من يكون في اقرب بيت، لأن ذلك خاص بهما، وهو عورة، كي يأخذا راحتهما في مزاولة ما يرغبان، ولكن اذا حدث اعتداء عليهما، او اعتدى احدهما على الاخر (لا سمح الله) بما يضطر المعتدي عليه طلب

النجدة، فان المسافة بين البرزة واقرب بيت لا تتعدى الحاجة لمثل هذه النجدة، وهكذا نجد ان المتعة الخاصة وهي من حق العروسين، تكون امرا بينهما، اما ما زاد عن ذلك، واحتاج الى الحماية والأمن، والمساعدة الخارجية، فان الاخرين لا يتوانون عن اداء الواجب، كما ان مثل هذه المسافة تعطي الأمن والطمأنينة للعروسين في اخذ حريتهما بممارسة الجنس وملحقاته في ان ذلك بعيد عن اذان الأهل، لأنه رغم شرعيته، فالخجل يبقى اخذا مكانه في الأمر، كما انه يعطيهم الطمأنينة في تلبية النجدة اذا ما طلبوها من جيرانهم واهليهم .

ومما يؤخذ بعين الاعتبار بالنسبة للبرزة ان تكون من جهة (المحرم)اي قسم الحريم في البيت، وذلك لأن البرزة مكان استقرار العروس، كما ان النساء يتجمعن فيها وحولها، بعد بنائها ونصبها، وهن في الغالب يقمن بعملية النصب هذه، بالاضافة الى ان العريس لا يذهب الا ليلا عندما تكون العروس وحدها، ولا ننسى ان البرزة تعتبر جزءا من المحرم (جزء الحريم من البيت)، وبالتالي فالأولى ان تكون من جهته لا من جهة اخرى، كما ان وجودها هناك يبعدها عن اعين الرجال المتجمعين في الشق، او في ذهابهم وايابهم منه واليه، مما يتيح الفرصة للحريم ايضا التصرف بحرية اكثر لأن ذلك في مجالهن ومن وراء الحواجز التي تمنع اعين الناظرين من ملاحقتهن، وتستطيع العروس ان تخرج لقضاء حاجتها والعودة بعيدة عن هذه الاعين ايضا، هذا مضافا الى ان مثل هذا الترتيب يجعل النساء بمعزل عن الرجال ليس بالنظر فحسب، بل وبالمكان والسمع ايضا.

ولا بد ان يكون موضعها ضمن امكانية الحراسة، اذ من العادة ان يعهد لرجلين او ثلاثة من الموثوقين الاقوياء حراسة البرزة من الفضوليين الذين قد يسترقون السمع لما سيدور بين العروسين، واذكر ان الكثيرين كانوا يحاولون مزاولة هذا الاستراق بطريقة او باخرى، فمنهم من ينتهز فرصة مغادرة النساء للخباء ويتسلل وسط الظلام ويتخذ له موقعا ما بين الستائر (ولا يتحرك) ليسمع ويرى ما يدور، واذكر ان بعض الشباب كانوا يتحدون بعضهم (من يستطيع ان يتجسس على الاخر بدون علمه؟) ويسمون عملية التجسس او الاستراق هذه يسمونها (اللبد) بتشديد اللام وسكون الباء) فيقولون: فلان (لبد) لفلان، وليس من حق العريس مقاضاة هذا المتجسس، لأنه يفترض به ان يحمي نفسه وعروسه من العدو، وهذا عدو، ولا مقاضاة على العدو فكأن عملية العروسين هي معركة او عدو، وذاك استطلاع للعدو المقاتل، وليس هناك من حق لمقاضاتهم، وانما هناك حق الحماية والدفاع لذلك نجد ان حراس البرزة يتجولون حولها باستمرار بين قرب وبعد، واذا اشتبهوا بشيء ضربوه بالحجارة، واذا قبضوا على شخص يزاول العمل الشائن حقروه، واهانوه وعادة يلوذ بالفرار، وهكذا يأوى العروسان وهما يعرفان انهما موضع الحفاوة، والحراسة، وهذا بحد ذاته له تأثير كبير في ايجاد الأمن والطمأنينة لمزاولة هذه العملية بصورة اكثر ارتياحا، وبالتالي اكثر نشوة.

وربما نجيز لانفسنا ان نسأل: لماذا لا يكون التقاء العروسين في البيت الذي

سيرحلان اليه بعد اسبوع؟!، والجواب بسيط وواضح، ذلك ان لقاءهما في بدايته، وما يترتب عليه من اقوال وافعال يجب الا يطلع عليها الاخرون، وليأخذا راحتهما في مزاولة ما يرغبان، ثم ان ذلك رمز لانفصالهما كل عن اهله وذويه، فهي ليست في بيت والديها، وهو كذلك ليس في بيت والديه، وانما كلاهما في عش الزوجية الجديد عليهما، وكل شيء جديد عليهما ايضا، وما هذه الا مرحلة وسط للانتقال للحياة المزدوجة، وبخط سير يختلف عن سابقه... فهي ضيفة عليه، انها في منازله ومضاربه، وهو ضيف عليها ان دخل عليها بعد ان انتظرته في البرزة فكلاهما ضيفان، ومعزبان ايضا، كل منهما غريب الديار وليس في بيت اهله... فما عليهما الا الاستسلام للقدر والعيش بنمط جديد ضمن خط سير جديد في الحياة انها حياة الزوجية الجميلة، يبنيان عشهما او يعيشان فيه بانفسهما.

ومما يؤخذ بعين الاعتبار في بناء البرزة، الا تكون في موضع مرتفع او منخفض كثيرا وانما خير الامور الوسط، وبما يناسب الفصل والموقع، فلا تكون منخفضة جدا بحيث يجرفها السيل، او يدحرج الفضوليون الحجارة اليها، ولا في مكان مرتفع بحيث يؤدي الهواء القوي والريح او البرد الى التنغيص على العروسين أو اقتلاع البرزة.

وبذلك نجد ان بناء البرزة قد يأتي عفويا، الا انه لا يخلو من مثل هذه الشروط عند البدو، وهذا يدل على مدى الذوق الرفيع الذي يتمتع به هذا الانسان البسيط، في حب الأمن والطمأنينة، والستر ونبذ الفضائح، وما ان يأتي وقت الغروب حتى تكون البرزة جاهزة لاستقبال من انشئت من اجلهم، ولكنهما لا يلتقيان الا بعد انتهاء ترتيبات معينة، وفي الوقت المناسب... ولا بد ان يكون اللقاء الأول ليلا، ولا يمكن ان يكون عند البدو نهارا، لأن الليل (ابو ساتر)، وهو لباس (وجعلنا الليل لباسا)، اما النهار فهو للحركة والعيش (وجعلنا النهار معاشا)، كما ان لليل اهميته خاصة لتهيئة النفسية البشرية لتقبل الجنس والرغبة في ممارسته، وهو يغطي بعض العيوب التي لو ظهرت نهارا لافسدت الرابطة الزوجية، والتي لا خوف منها، فيما بعد، وبعد ان عرف واحب كل منهما الاخر، فتصبح نظرته لما كان يراه منقصة، انه شيء جميل ومحبب، كما انه وقت النوم، والسكن، ووجود الرجل مع زوجته في مثل هذا الوقت يعطيهما الهدوء والسكينة وقرة العين والارتياح، وما اجمل ان ينام الانسان مرتاحا، وعندما يستيقظ في الصباح يرى الناس من حوله يهنئونه.

والبرزة لا بد أن تكون منفردة، فلا تكون مثلا في بيت كبير لوجود اخرين فيه وهذا ينافي طبيعة الليالي الأولى لحياة العروسين، ولم أسمع أن شخصا تزوج في ليلته الأولى ببيت فيه أخرون، وربما يحدث هذا، ولكنه نادر جدا ويقول بعض البدو عن دخول العريس ليلة زفافه: (فلان بنى بها) أي دخل بها، ويقولون: (ليلة الخشة) من الخش – بتشديد الشين – اي الدخول بالعروس، (وليلة العرس) (وان كانت كلمة العرس تطلق على الافراح بوجه عام الا انه يقصد بها أحيانا دخول العريس بعروسته)، ويقولون: (فلان أعرس)، اي دخل بعروسه ويقولون: (ليلة الدخلة) من الدخول بالعروس وخبائها،

حتى أنهم يقولون لعملية الزواج احيانا بالدخلة - بتشديد الدال، فيقولون بالتاريخ للحوادث - سنة ما دخل فلان - اي عام زواجه - ويقولون: يوم دخل فلان - لنفس المعنى، ويقولون في الاخبار عن الزواج بالاستهزاء او التندر، او الجدية - فلان داخل - اي انه اقترن بزوجة ودخل بها أو عليها، وفي حالة فضيحة شخص على انثى او حيوان يقولون: (فلان داخل) كنوع من التشهير به.

وأما نوع البرزة فقد تطور مع الأيام فأصبح الان في البيوت من الحجر أو الاسمنت، حيث تخصص غرفة خاصة لذلك، تتم فيها العملية بطريقة اكثر تقدما، حيث يتوفر الضوء، كالفانوس او الكهرباء، واصبح الاسم الدارج على البرزة الان هو: (غرفة نوم)، واستبدله بعض أبناء البدو بالذهاب في شهر العسل لداخل او خارج البلاد، وبعضهم يستأجر غرفة خاصة في احد الفنادق لاداء المهمة المطلوبة هناك. وهذا لا يعني أن ذلك عيب، او من غير تراثنا، وانما يعني أن هذا التراث يتطور بتطور العصر، بل انه شيء جميل أن يأخذ الانسان البدوي باسباب، واساليب الحضارة ليجعل منها جزءا من تراثه الاصيل بما لا يتنافى مع القيم، وأنا شخصيا لا ارى اية منافاة للقيم في استخدام بيت الحجر أو الفندق لهذه الغاية في حدود الاحتشام والاصالة والشريعة الاسلامية، ولكن ما يؤلمني هو أن الشباب من ذكور وأناث تنصلوا من اصالتهم باللباس، وتبرجت النساء بحيث اصبحت البدوية كأية فتاة كافرة من اوروبا في السفور وممارسة مالا يليق بديننا واخلاقنا؟!، وبعضهم يستأجر البيت سلفا ليهيء فيه غرفة النوم، وتكون برزته هناك، وبعضهم يستأذن من جاره او صديقه اوقريبه استخدام بيته كبرزة لمدة اسبوع ثم يرحل الى حيث يستقر.

واذا كانت البرزة من الخيش او الشعر بحيث لا تشكل حاجبا وساترا للصوت الذي يجري داخلها فقد كان ذلك عندما لم تكن هناك وسيلة غيرها، وكانت تناسب تلك المرحلة، اما الان فلم تعد تناسب الوقت الحالي، حيث أن بيت الحجر اكثر سترا، واقل هتكا للاسرار والاستار، فبالاضافة الى انه يشكل مرحلة أخرى من مراحل التطور، فهو يؤدي الغرض بما يناسب الاخلاق، والحياء اكثر بدرجات مما تؤديه (البرزة)، واذا اختلفت التسميات والاماكن باختلاف الازمنة والتطور، الا ان المبدأ واحد وهو تهيئة مكان مناسب أو الحصول على حد اعلى من المكان المناسب لاجتماع العروسين ولقائهما لقاءا ليس ككل لقاء، لقاءا له ما بعده وله ما يصاحبه من كلام، وعمل، وصيحات، وضحكات وآهات...الخ.

العشاء قبل النقوط، وفطيرة البخت:

بعد المشوار الطويل للقوم يوم الزفاف (الفاردة) وبعد أن يحطوا رحالهم في مضارب العريس، وقد حققوا الهدف، وجاءوا بصيدتهم، وبغيتهم، فانهم يستحقون على ذلك مكافأة من الطعام، اكراما لهم على فعلتهم، بالاضافة لما تحققه هذه الوجبة من سد رمق الجوعى بعد ما بذلوه من جهد جهيد، ويكون هذا العشاء اما من اهل العريس او من

احد ابناء الحي، الذي يقوم بدعوة الفاردة، ويؤدي اللازم من الواجبات، واذا صادفت الوجبة وقت المساء عدت طعام العشاء لهم، مالم يكن اقل من اللازم (وهذا قد يحدث نتيجة لكثرة الناس اكثر من الحسبان، او لضيق ذات يد المعزب)، فاذا ما عد طعام العشاء قاموا بعدها بعروسهم الى بيت أهل العريس، وهنا لا يكون لهم من الطعام الا (فطيرة البخت) التي سنأتي على ذكرها بعد قليل بعون الله تعالى، وأما اذا كانت الامور ليست بالمستوى المطلوب، فالمعازيب مجبرون على صنع عشاء لضيوفهم (باعتبار أفراد الفاردة من الضيوف)، ولا بد من بياض الوجه معهم، ولا عيب في هذا على المعزب الأول من أبناء الفريق الا اذا كان تقصيره بخلا منه، اما اذا كان من ضيق ذات يده، او من توافد الناس بحيث لم يكن ذلك بالحسبان فلا يلحقه من فعلته حيف او عيب.

ويفضل ان يكون العشاء عند اهل العريس ليكون ذلك (عيشا وملحا) مع القادمين، كما انه اكرام لهم ايضا، لذا فان الغالب اذا كان العشاء عند غير العريس فانه يكون عند اقرب الناس اليه نسبا او صداقة او جوارا بحيث يعتبرون من أي من الطرفين هو للطرف الاخر.. ولا بد من القول انه رغم كل هذا فانه قليلا ما تدعى الفاردة في نهاية المطاف عند غير العريس لوجبة العشاء، اما لغير هذه الوجبة فامر معتاد، فالمهم ان تحط رحالها في النهاية حيث يجب وهو بيت العريس،.. ولكن الاحتياط النهائي هو (فطيرة البخت) الذي يعتبر رابطة العيش والملح بين ثلاثة اطراف وهم (اهل العروس)، (واهل العريس)، (واعضاء الفاردة)، وهذه الوجبة رمزية اكثر منها وجبة اساسية ضرورية، وتتألف اما من (ذبيحة، اي وجبة من اللحم)، او (من الرز) او (من الشراب العادي – لبن مغلي يكون مرقا يفت فيه خبز الرقاق (الشراك))، وتعتمد نوعية الوجبة على الحالة المادية لأهل العروس، ذلك ان هذه الوجبة هي من عندهم وعلى حسابهم، اذ انهم يرسلون مع ابنتهم العروس الطحين، والملح، والرز، والذبيحة، والجميد...الخ وكل ما تتطلبه شؤون هذه الوجبة من مستلزمات (كلايف)، ويتسارع القوم ليتناول كل واحد منهم نصيبه من هذه الوجبة لأنها تعطيهم التفاؤل والأمل بالخير، حتى ان البدو يرون اخذ اي شيء من بيت اهل العرس (الفرح) يعتبر امرا مشروعا (كما سبق وقلنا)، وعلى مبدأ (هذا فرح اللي ما يطوله يسرقه).

ونكرر القول هنا ان فطيرة البخت هي من حيث المبدأ (اي في الأصل) عبارة عن نوع من الخبز المسمى (اللزاقي – أي الفطائر)، ويعجن بالسمن ويوضع عليه السكر، ويصبح بذلك نوعا من الحلوى والتي يحبها البدو (فهم يحبون الحلوى، والحامض والحار)، وهذه الفطيرة – او الفطائر – من طعامهم المفضل الذي يبدأون به يومهم في الاعياد (الفطر والاضحى)، كما انها طعام محبب في المناسبات المختلفة الفردية والجماعية،، واما في الاعراس فهي تفضل على المنسف لأنه متوفر طيلة يومي الزفاف، والقرى (الجرى)، اما هذه فنادرة، ويقابلها لدى اهل المدن والبدو المتحضرين ما يأتون به من قطع الحلوى المختلفة (كنافة بانواعها، او هرايس، او قتوة...الخ)

أما العادة عند البدو فقد تكون هذه الوجبة من اللحم، او الثريد العادي، او الر·

كما قلنا، وقد تكون حسب المبدأ من الفطائر - اللزاقي - بتشديد اللا م والزاي.
وأما فلسفة هذه العادة في ان تكون من عند اهل العروس، فانها رمز كبير وعميق لكل ما تعنيه أبعاد (العيش والملح) عندهم، فهم قد اعطوا ابنتهم مصانة، شريفة عفيفة بدون خيانة ولا (بوق - او غدر)، وهذا دليل جليل من العيش والملح على ذلك.. كما ان التسمية ذات ابعاد اخرى - فالبخت يعني الحظ، وهو أمر غيبي يجده الانسان اثناء التطبيق في حياته العملية، والبدو يؤمنون به كثيرا... وهذه العروس ستكون طيبة كطيب هذا الطعام، وسيعم الخير من وجودها بين ظهرانيهم جميع الحضور، والفريق (الحي). كما أنه تأكيد لهم أنهم سلموا ابنتهم خالية من الغدر والخيانة، وهي تقدم لهم طعاما لتؤكد لهم أنها لن تغدر، ولن تخون، وتريد من جميع الحضور، وممن أكل من فطيرتها، ان يدعو لها بالخير، وبارتفاع حظها (بختها).. ولا ننسى أن هذه الليلة هي الأولى للعروس في بيت الزوجية الجديد، والأولى في فراق الدار والديار، وبالتالي فهي في جو جديد تحتاج معه الى الانس، والامن والطمأنينة، بوجود امها من جهة، ورائحة طعام اهلها من جهة اخرى. فاذا ما أكل القوم منه، فكأنهم بذلك قد أعطوها عهدا على حمايتها والحفاظ عليها... وكأن هذه الوجبة لغة صمت بين طرفين، هذا يطلب الأمن والحماية، وذاك يوافق ويمنحها إياه، والدليل على الموافقة والعطاء، هو الأكل من هذا الطعام، والذي يعطي مؤشرا للمعازيب الجدد على نوعية أهل العروس، وحالتهم المادية، ولذة طعامهم، خاصة اولئك الذين لم يذهبوا مع الفاردة، خاصة وان البدو يعتقدون ان طيب الطعام من طيب اهله فيقولون (زكاوة الطعام من زكاوة اهله)، وهم من الذكاء بحيث يميزون فورا بين ما هو صادر عن نفس طيبة، وما صدر عن نفس لا تريده ان يخرج من بين يديها، ولا بد أن يكون للعريس والاقربين الادنين منه نصيبهم من هذه الوجبة ولو قطعة صغيرة وعلينا أن نذكر أن هذه العادة قد بدأت تتلاشى في البلقاء في اواخر الخمسينات من هذا القرن العشرين[1]، كما انها تحولت الى توزيع قطع من الحلوى لدى ابناء المدينـــة.

النقوط

النقوط: هو هبة يقدمها الاشخاص للعريس كتعبيرعن مشاركتهم افراحه، ومساهمة معه لما يتكبده من مصروفات ونفقات بهذه المناسبة، علاوة على انه دلالة كبيرة واكيدة على المشاركة الجماعية للفرد، وتعبير عن الضبط الاجتماعي والرابطة الاسرية القوية بين افراد القبيلة الواحدة، وتحسين للعلاقات بين كافة الاطراف... كما انه هدية يقدمونها دونما انتظار لثمن هذه الهدية، فكل واحد يتصرف تجاه الاخرين بما يحب وينتظر ان يتصرفوا هم تجاهه، ولذلك فالبدوي عندما لا يجد احدا من حوله، لا يلوم

---

١) اذا نظرنا الى الوراء قليلا... اذكر ان الرجال والنساء (احيانا) والصبيان كانوا ياتون من اماكن بعيدة قد تستغرق مسيرة ساعات، من اجل حضور الرقصة (السحجة - او السامر) والمشاركة فيها، فاذا ما كان ذلك ليلة الزفاف عرفنا ما يكابده هذا الساري (الشخص القادم) من تعب، وما يحتاجه من طعام وتفاؤل، وهذا يتحقق بفطيرة البخت، اما الان فان الناس قد ارتبطت باعمالها واشغالها، ووقتها محسوب عليها بالدقيقة، ولم تعد الضرورة تتطلب وجود مثل هذه العادة، وان كانت بعض البقايا لا تزال موجودة في زوايا متفرقة من البلاد.

الناس وانما يلوم نفسه ومن هنا فهم يقولون في مثل هذه الحالة (لاتعتب على الناس، واعتب على نفسك - اللي قدمته تلقاه)، فالأفراح تكلف عند البدو كثيرا بالقياس لمواردهم وقدراتهم، وبالتالي فلا غنى للشخص عن مشاركة الاخرين له بمساعدته ماديا، وحيث ان البدوي يكره ان يكون موضع الاحسان والصدقة، فانهم يتحايلون على ذلك بما يسمونه النقوط، فهو صدقة او مساعدة، او هبة... ونستطيع ان نطلق عليه كافة الاسماء المذكورة، لكنه عند البدو نقوط، اي انه في عرفهم مشاركة من القوم وتعبير عن فرحتهم، ودعما للروابط التي تربطهم، انه عربون للصداقة والقرابة ايضا.. وهو بمعناه الرمزي ثمن يدفعه القوم للوافد الجديد الذي جاء بواسطة هذا العريس، فازدادت القبيلة فردا اخر سينجب افرادا، بل انه مكافأة لهذا العريس على جلب صيدة، من قوم اخرين.. فلو قيل مثلا نريد فلانا او فلانة، فان المتقدم للاتيان به او بها يستحق مكافأة حسنة فردية وجماعية، وما النقوط والزواج الا رمز لهذا الشيء الذي يعني الشجاعة والحرب والضرب...

وحيث ان المتزوج سيكون سيدا جديدا في بيته الجديد ولو على زوجته، فانه يحتاج الى مقومات ودعم ليكون على هذا المستوى، ولا غنى عن المال والحلال، وهذا ما يقدمه القوم من نقوط لصاحبهم لاعطائه مقومات الاعتماد على الذات، ومقومات الاستقلالية والشعور بالسيطرة، وممارسة المسؤولية، وهذا بحد ذاته تنمية للقيادة لديه، ومما يدل على كل ما ذكرنا، انه (النقوط) يأتي قبيل دخول العريس بعروسه، اي بعد ضمان وجودها، ووصولها بسلام، وضمان قدرة العريس على انه سيبدأ ممارسة مسؤوليته الجديدة، ونخلص الى القول: ان النقوط من حيث المبدأ هو هبة دونما انتظار من الطرف الاخر تقديم شيء مشابه او مماثل لقاءها لكنه التزام ادبي في ان يشارك هذا الانسان الاخرين افراحهم، كما شاركوه، واما من حيث العادة، فهو التزام يتعدى كونه ادبيا ليصبح احيانا قسريا، جبريا، لأنه يعني بذلك نبذ من الجماعة للفرد الذي لا يشارك الاخرين، او لا يعاملهم بالمثل على الاقل، وما مطالبته بما قدم اولئك، الا نوع من العقوبة له على خروجه عن الخط الجماعي، والضبط الذي لا بد منه بين الجماعة البدوية الواحدة، وهو ايضا نوع من التحقير له على فعلته، وانه ما دام لا يحترم الناس، فالاولى به الا يكون موضع احترامهم، وهو زجر للاخرين الذين قد تسول لهم انفسهم في الرجوع عن الاتفاق الاجتماعي، والعرف والعادة، وان مطالبته الشخص المتخلف بما حصل عليه من فلان او علان امر ذو حدين، فقد يوصف الطالب ايضا بانه نوع من طلب استعادة الهبة او الهدية، والبدو يعيبون على من (يبصق ويلحس بصاقه) (ومن قدم هدية ويطالب باعادتها)، ولكل من الطرفين مبرراته وآرائه المقنعة بما لا يمكن دحضه، لأن هناك مبادىء (مثل ما تراني اراك...اللي يشوفك بعين شوفه بعيونك الثنتين)، (هل جزاء الاحسان الا الاحسان)، (ما احد احسن من احد)، (اللي قدمته يجيك)، (اللي ما يحترم نفسه لا تحترمه) - وان عدم رد الجميل بالمثل يعتبر في عرف البدو عدم احترام للذات والنفس، وبالتالي فهو ليس جديرا بالاحترام والتقدير).

ويعرض البعض ويترفع عن المطالبة بالنقوط من الشخص الذي لا يعيد اليه ما يماثله، وعلى اية حال فانه من القليل والنادر جدا ان يطالب البدوي شخصا ما قدمه اليه من نقوط في حالة عدم دفع هذا الشخص نقوطا لذاك في فرحته او فرحة ابنه، وحتى المطالبات حسبما اعرف واذكر ومر بي، تكون في حالات التحدي الشخصي، او سوء التفاهم المزمن بين الطرفين بحيث يتربص كل واحد بالاخر ليجد عليه حجة يتغلب بها عليه، ويثبت للاخرين نذالة الطرف الاخر، فالمطالبة بحد ذاتها - يتجنبها البدوي - لأنها تعني ان الطالب نفسه (نتيف - اي شحيح لئيم محب للمال)، والبدوي يكره ان يوصف بذلك، ومن هنا فهو يتجنب قدر امكانه مثل هذه المطالبة، وان كان عتبه الشخصي بينه وبين نفسه، وربما باطلاع المقربين والاصدقاء يبدي تذمره من بخل فلان، او عدم معاملته بالمثل، وعدم تقديره لعدم رد النقوط، او عدم الحضور لأن الحضور بحد ذاته اهم بكثير من النقوط، اذ انه يعني المشاركة ايضا. وعلى اية حال فالمبدأ في النقوط كما قلنا انه هبة ومشاركة دونما انتظار لردها، لكنه ايضا وسيلة لاعطاء الرأي بالرجال، ومدى طيبة أنفسهم، واستعدادهم للتضحية والمشاركة، واحترام انفسهم، واحترام الاخرين، ومن هنا نجد ان ابسط الامور عند البدوي لها اهمية كبرى، وذلك لما تحويه من دلالات ورمزيات عميقة، بها تقاس الامور في النهاية.

دخول العروس الى البرزة:

وبعد الانتهاء من تناول العشاء، يعطي ولي أمر العريس الايعاز لأم العريس ا لاحدى النسوة المتنفذات أن تأمر بحركة العروس من البيت الى (البرزة) وذلك في موكب نسائي غنائي، وتقاد امام العروس عنزة غراء (جبهتها بيضاء) وذلك تيمنا وتفاؤلا أن تكون ايامها (العروس وعريسها) كلها بيضاء، غراء، جميلة... ووسط الزغاريد والغناء على وقع اقدام الفتيات الناعمات. يصلن الى البرزة، ولكن قبل الدخول اليها لا بد من الطواف حولها سبع مرات، وامامهن العنز الغراء، ويبدأ الطواف بالباب، وينتهي اليه، ثم تدخل العروس ومعها عدد من النسوة، وهناك يواصلن الغناء (التفورد) ايضا وهن يرددن:

كبش قرنفل كل ما ادقه كن فاح   خي ولد يا مهبوب الرياح
جيت اروح ما حليلي رواح   كبش قرنفل كل ما ادقه كن فاح

فالفتيات اللواتي يترتب عليهن المغادرة لا يرغبنها، لأن المجال مفتوح امامهن للفرح والمرح وبحرية منضبطة، وهذه الليلة الاخيرة التي يمكنهن مزاولة ذلك على مسمع ومرأى من الرجال، كما ان الحياة مع العروس شيء لطيف، حيث الروائح العطرية، وحيث لحظات من السعادة ايضا.

وأما الطواف حول البرزة فله اكثر من تفسير ودلالة ورمز، فالبرزة قلعة حصينة لا يجوز الدخول اليها دائما، بل ولا يسهل الدخول اليها، ومن ثم فالدوران ما هو الا تمثيل

للمحاصرة، والكر والفر، والبحث عن نقطة الضعف للدخول، والاحتلال... وقد تكون مأخوذة من الطواف حول الكعبة المشرفة، حيث الطواف سبع مرات ايضا كنوع من المناسك، واذا اعتبرنا الامر كذلك فان ذلك يعني قدسية الزواج عند الانسان البدوي، وانه عظيم كعظمة اداء احدى الفرائض (هو فرض الحج) الذي يعود منه الانسان بحجه المبرور كيوم ولدته امه، اي انه ولد جديدا، وكذلك الزواج فهو ولادة جديدة، وحياة جديدة ايضا، ليس للعريس فحسب، بل وللعروس ايضا وأما العنز الغراء والمسماة (صبحاء من الشيء الاصبح وهو ذو الغرة البيضاء في الجبهة) فهي تمثل (فداء، وأضحية)، انها قربان يقدمه الانسان البدوي الى الله سبحانه وتعالى ان تكون هذه فداء للعروسين، من اي سوء يعيبهما، او شر يلحق بهما، وما دورانها امام العروس الا اعتقاد بان جميع الشرور التي تقف في طريق هذه الانسانة وحياتها الجديدة ستدخل في (العنز - الاضحية)، لتذهب بذهابها.

والسؤال الان: لماذا يقود هذه العنز رجل، (ومن حيث المبدأ يكون شابا)، (وفي العادة اي رجل قادر)، فان ذلك يعني في تشبيه البرزة بالقلعة، وان هذا الرجل هو الذي يقود حملة الدخول والاحتلال، كما انه يعني ان الرجل هو دليل المرأة ومرشدها وقائدها ايضا. وان عملا مثل هذا من اختصاصه وهذا بحد ذاته تكريم للمرأة في الا يعهد (بضم الياء) اليها عمل من اعمال الرجل.

وأما دخول العروس للبرزة فلا تتقدمها الا امرأة واحدة وهي ام العروس او من ينوبها لتدلها الطريق، ثم تدخل الباقيات في اثرها، والجميع يقول: بسم الله الرحمن الرحيم، وذلك يرمز الى الايمان، وان اسم الله يطرد كل الشياطين والارواح الشريرة، ويجلب الراحة والطمأنينة للجميع.

جلوس العريس للنقـوط:

بعد تناول العشاء وانتهاء الرقص[1]، يأتي دور النقوط، وهنا لا بد من التحدث عن كيفية تطور طريقة قبول النقوط، فقد كان قبل بداية القرن العشرين بطريقة لطيفة وغريبة حقا، وهي ان يزف العريس من بيت تجمع الرجال، الى البرزة، وهنا يفترش عدلا مصنوعة من الغزل (الصوف او الوبر او الشعر)، وذلك اعتقادا منهم ان حظه (سيعتدل)، ويوفق في كافة اموره الزوجية والحياتية، خاصة وان هذه لحظة البدء في الحياة الجديدة مع بريق الأمل ان يوفقه الله وعروسه في مسيرة حياتهما الطويلة.

وقبل ان يجلس العريس على العدل المفروشة بباب البرزة، يتقدم اليه عدد من الشباب، يضربونه بطريقة تمثيلية، وكأنها مزاح، ولكن بعض الخبثاء، يعبرون عن حقدهم ولؤمهم ضد هذا المسكين، فيضربونه ويؤلمونه، ويوجعونه، وصدف ذات مرة، ان

---

١) ان الرقص ليلة الدخلة او الخشة (اي ليلة الدخول بالعروس) يكون مختصرا وقليلا من حيث المبدأ، وان اختلف الامر من حيث العادة احيانا وذلك لاعطاء الفرصة للعريس للجلوس للنقوط، ثم للدخول على العروس، بالاضافة الى ان القوم تعبون من بعد مشوارهم في الزفاف،... وتتجمع كافة الامور المذكورة لتجعل من الدحية او الرقصة او السامر امرا قصيرا، ثم يعود كل واحد الى اهله.

ضرب احدهم العريس فاغمي عليه، وتحولت ليلة زفافه الى اسعاف، ومعالجة املا في شفائه... واما ما ترمز اليه مثل هذه الضربات فانها نفس ما ترمز اليه ضرب الفاردة عند الدخول في بيت العروس لجلبها، ولكن الفارق هنا ان العريس نفسه هو الذي يواجه الموقف، ويعانيه، وعليه ان يعالجه، ويكون ذلك بالجلوس بسرعة على العدل، حينها لا يجوز ضربه، لأنه اصبح في امان وطمأنينة ضمن الحدود المطلوبة، ان هذه العملية درس له في ان تحقيق الهدف لا يأتي بسهولة ويسر، كما انها لا تمحى من ذاكرته ببساطة، وبرهان للعروس انه وصلها بعد ان اجتاز العقبات جميعها.. وبعد ان يجلس يتجمهر القوم من حوله، ويقدم كل منهم (اللي فيه النصيب).

وبعد اتمام النقوط كان ينهض العريس، ليقص خيطا اخضر يربط بين طرفي باب البرزة، رمزا للحياة، والخير والبركة والنعمة وانه افتتحها بدخوله الى عروسه، واملا في استمرار الحياة الجميلة الخضراء، فاللونان الابيض والاخضر دليلا خير وبركة عند البدو... واما العدل فتؤخذ لتعاد الى حيث كانت.

وقد تطورت عادة النقوط، وانتقلت من (باب البرزة) الى (الشق) حيث يتجمهر الرجال، وقبل التحدث عن هذا التطور لا بد ان نفسر قيام هذه العادة بباب البرزة، فهي ترمز الى اقتحام الحصن الحصين، والى تجمع الخير، والتفاؤل فيه، وأن ما يأتي منه هو على وجه هذه العروس الحسناء، واذا كانت ترمز الى ناحية حربية، فكأن هذا المكان نقطة تجمع الذخيرة والعتاد والجنود للقيام بالاقتحام، وهي تدل على طلب الأمن والحماية للعروس بوجود عريسها عند بابها، ومن حوله ربعه، فلا خوف عليها اذن.

وعندما شعر الناس بالأمن والطمأنينة، وتطورت العادة الى دفع النقوط للعريس في الشق، تكيفت هذه العادة ايضا، اذ يجلس العريس في مكان متوسط يكون عادة من جهة الرواق قبالة نقرة النار التي عليها القهوة، وبجانبه شخصان احدهما يكتب اسماء وكميات النقود المدفوعة (هذا في اواخر الخمسينات وما بعدها في القرن العشرين). وأما الثاني فوظيفته متحركة اذ يأخذ النقود من دافعيها ويقول بأعلى صوته (يخلف على فلان دفع كذا وكذا)، وللتفصيل اكثر نقول: اذكر وانا طفل صغير ان العريس كان يجلس من جهة الرواق، وقد ارتدى حلة الزفاف، وتعطر، وتدثر بعباءة له، او مستعارة من احد الاصدقاء او الاقارب، ووضع امامه محرمة (منديلا) ويعطي المبلغ للعريس او يناوله للشخص المتحرك الذي ينادي بصوت يسمعه الحضور والمجاورون، والنساء في المحرم (ان فلانا قد دفع كذا وكذا) وبعد ان يتسلمه العريس، ويعلن عنه المنادي، يوضع المبلغ على المحرمة، ليراه من لا يسمع ايضا.

... ويتم جمع المبالغ في النهاية ومعرفة كمية النقوط بشكل اجمالي قبل حركة العريس الى عروسته... وفي تطور جلوس العريس من باب البرزة الى الشق يدل على تطور مفهوم البدو في الأمن والحماية، ففي الأولى يخاف على عروسه، ويكون قريبا منها، وهي في موضع الخوف وتحتاج لمن يحميها، اما في الثانية، فالطرفان آمنان مطمئنان، والرجل لا بد ان يودع قومه الى حياة جديدة بعد لحظات، وهم لا بد أن يودعوه، بنوع من الهدايا

التي ترمز الى القربان، والاحترام والمشاركة، والتي تسمى عندهم النقوط، وان جلوس العريس من جهة الرواق وليس من جهة الساحة (الا اذا كان شيخا فيبقى مكانه خلف الساحة) فان المكان الأول له كأحد افراد العشيرة. ومن حوله ربعه يوفرون له الحماية والأمن والحراسة، ومستور الجهات جميعها، ولا شك ان مجمعا لهم على هذا المستوى يستحق التقدير، وللعريس الحق ايضا في الحصول على هذا التقدير منهم على شكل مادي.. ففي الاعراس يجتمع الاحباء، والاعداء، والكارهون والمحبون، وينسى الناس احقادهم ولو ليوم او بعض يوم، وهذا بحد ذاته شيء حسن، يستحق عليه العريس الذي بسببه اجتمعوا ان يحصل منهم على رمز لهذا التقدير.

وأما وضع المحرمة (المنديل) امام العريس فهي تعني فتح باب المشاركة للجميع، وان نقطة التجمع هنا امام العريس فقط، بينما صوت المنادي ليس الا نوعا من حث ومدح الناس، وتذكيرهم بفعل الخير، وايجاد مجال المنافسة بينهم ان فلانا دفع كذا، وفلانا دفع كذا، فيضطر غيره للزيادة عليه، لأن في الطيبات تنافس كبير عند البدو، بل وتنافس مهم جدا... ويقول المنادي (فلان دفع كذا - يخلف عليه، ويكثر امثاله)، ففي الأول مدح له اذا كان المبلغ محترما، لكنه ذم له اذا لم يكن شيئا مذكورا، ومن هنا يتحاشى البدوي دفع اقل من طاقته، والمعدل العام الذي تدور حوله المبالغ، بل ان هناك حدا ادنى للنقوط هو الان في السبعينات من القرن العشرين لا يقل عن دينار اردني، بينما كان في الاربعينات بالفلسات والقروش، والتعاريف (المفرد تعريفة).

ان الثناء العلني واضح بقول المنادي (يخلف على فلان)، كما انه بذلك يستحث الهمم للاخرين ان يسرعوا في دفع ما لديهم ومن الأساليب في الدفع، ان يرفع الشخص يده، فيراه المنادي، ويتقدم اليه، ليأخذ منه المبلغ وفي الوقت الحاضر نجد عند البدو الذين استقروا طريقة اخرى تناسب التطور في النفسية والعادة، وهي دفع المبلغ عندما يأتي الشخص للسلام على العريس، فيضع في يده المبلغ، وهذا بدوره (العريس) يوعز الى المسجل بجانبه ليقول، فلان دفع كذا وكذا، وعادة يجلس قرب العريس شخص يعرف الناس لتسجيل الاسماء التي قد لا يحفظها العريس كلها، فهناك من يدفع النقوط والمعرفة مع الاهل، لا مع العريس نفسه.

واذكر ان البعض كان يرسل النقوط مع شخص يوصله للعريس، وعند الدفع يقال: هذا من فلان، وقد يقال، وارسله بواسطة فلان، وهذا نوع من الحوافز والدوافع للاشخاص لحمل الامانات وتوصيلها، وشاهد عليه بقيمة المبلغ الذي اوصله، انه كامل غير منقوص، لأن الخير سيصل يوما الى المصدر الاصلي، ويكون الشهود قد اكدوا قيمة المبلغ الذي ارسله، واطمأن هو الى وصوله رغم ثقته سلفا بذلك ولكن على مبدأ (أو لم تؤمن، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) دليل على رفعة ذوق البدوي، فيدل المحضر، والشهود، والكفلاء، يتم الامر ببساطة وبرمزية لطيفة.

واذكر انه احيانا يكون للشخص دافع النقوط (المنقط - بتشديد القاف وكسرها)، دين على العريس، فكأن يقال: فلان نقط (دفع) مبلغ كذا من الدين. فمثلا يكون له في ذمته

عشرة دنانير، وينقطه خمسة دنانير، فيقال: فلان ينقط فلان خمسة دنانير من الدين الذي له في ذمته عشرة دنانير، فيفهم الحضور ان ما بقي من الدين هو خمسة دنانير، وهو اسلوب ذكي للغاية في اشهاد القوم على ان لهذا في ذمة ذاك مبلغ كذا بالاضافة لدفعه التكريم اللازم.

واذكر ايضا ان البعض يكون له في ذمة العريس مبلغا من المال، بحيث لا يزيد في مجموعه عن نسبة معينة من النقوط، فيتقدم الدائن، ويحصل على الدين او نسبة منه، بحيث يترك منه المبلغ الذي دفعه كنقوط، فيقول مبررا تصرفه، (انا ادفع مبلغ كذا من قيمة الدين الذي لي في ذمة فلان (العريس)، والباقي اخذه من ماله)، ونادرا ما يحدث هذا، لأنه تصرف يسبب الاشمئزاز، رغم انه مشروع، كما ان المبلغ في هذه الحالة يكون في ذمة العريس نفسه، ولا يجوز التصرف والأخذ عندما يكون للشخص في ذمة والد العريس او احد جماعته الادنين... وهنالك مسؤوليات على النقوط احيانا وذلك عندما يستدين الشخص مبلغا من المال لتكاليف الافراح، او لبقية المهر، بحيث يكون السداد بعد النقوط، وبالطبع ليس امام الناس لأن ذلك يبين افلاس العريس، وهذا مالا يقبله البدوي لأنه (غلب بستر ولا غلب بفضيحة).

وعادة يبدأ المنقطون بالدفع حسب المبالغ، حيث يتقدم في البداية ذوو المبالغ العالية ثم من يليهم من ينوون دفع المبالغ الأقل كمية...وهكذا.

الاشياء المتحكمة بالنقوط

تختلف نوعية وكمية النقوط باختلاف الازمنة والامكنة، والاشخاص، وطبيعة تطور المجتمع، وتماسكه، فما كان مألوفا قبل عشرات السنوات قد لا يكون كذلك الان ولا مستقبلا، وما هو مألوف ساعة كتابة هذه السطور قد يستنكره المجتمع ساعة ظهوره من المطبعة، ولكننا نتحدث عما الفناه وحضرناه، وسمعناه وعرفناه والله المستعان على الخير ان شاء الله، فما يكون نقوطا في الصيف قد لا يكون في الخريف او الشتاء او الصيف او الربيع، وما هو في سني القحط يختلف بالتأكيد عن سني الخير، والرخاء، هذا من حيث الزمن، اما من حيث الاشخاص فان الفارس او الشيخ او المشهور اذا كان عريسا يختلف عنه اذا كان نذلا او بخيلا او لا قيمة له، او عجوزا، او من يتزوج لأول مرة او للمرة الثانية او الثالثة...الخ.

اما من حيث الأمكنة، فما هو في القرية او الواحة يختلف عما هو في الصحراء البحته، عما هو في الخضراء.

أما من حيث طبيعة تطور المجتمع، فان ما كان يدفعه الشخص نقوطا قبل عشرين سنة او اكثر لم يتعد بضعة قروش، وربما رأسا من الغنم، اما الان فانه يشمل اطقما من الاثاث للمطبخ، وربما باقة ورد، او زهور، اي شيء رمزي وهناك امور تتحكم بالنقوط ايضا، وهي علاقة الشخصين ببعضهما (العريس، ودافع النقوط)، وحيث اننا لم نجد اي تفصيل عن هذا الامر فقد رأينا ان نتحدث عن ذلك بالتفصيل المعقول ليس لأهمية

الموضوع بالنسبة للبدوي فحسب، بل وايضا ليكون مرجعا للباحثين عند الاستفاضة في هذه النقطة، ونرجو لهم التوفيق سلفا، اما هذه الاشياء التي تتحكم بالنقوط فهي:

اللبسة: وهي هدية العريس الى الاخرين، يقدمها قبيل زفافه وترمز الى ما يقدمه من (حلوان) للفرحة التي تغمره بزواجه، وتعتبر ايضا بطاقة دعوة للاخرين لحضور حفل الزفاف، والقرى، ودفع النقوط، بالاضافة لما تؤديه من محبة على المبدأ الاسلامي (تهادوا تحابوا)، فالعريس يقدم هدية، والاخرون يقدمون هدية مقابلة، وبذلك تزداد المحبة، وتكون هذه الهدية من العريس اما قماشا، او منديلا، او قطعة ذهب، او ملابس جاهزة، وتقدم الى الجيران والمحارم (النساء من محارم الرجل)، والاقارب، والاصدقاء وام العروس واخواتها، وعادة يؤتى بهذه اللبسة مع الجهاز الذي يتم شراءه من السوق قبل بدء السامر، وتزداد اهمية اللبسة حسب الشخص او الانثى المقدمة اليه او اليها، فالنساء القريبات (المحارم) تكون لبستهن من مناديل الصوف، او قطعة ذهب او حطه (وهي منديل كبير جدا، توضع على الرأس كموضع الطربوش)، او دريعية (وهي لبسة كالدرع، ومن القماش الثمين، تستعمل كزينة وتقي لابسها شر البرد. او منديل صوف (وعليه الوان زاهية). اما النساء اللواتي لسن قريبات، فتكفي اللبسة قطعة قماش لتكون قميصا او بذلة اي (فستانا) داخليا، وعادة يكون مطرزا بالألوان الزاهية.

واللبسة من حيث المبدأ هي للنساء لأنها مودة وصلة رحم، وهي في العادة للرجال والنساء معا، اما الرجال الذين لهم نصيب منها فهم الاقربون للعريس، واما غيرهم فهي من حظ النساء وقد تكون موضع افتخار المرأة ان تحصل على قطعة قماش من الافراح، لأن ذلك دليل تفاؤل وخير وبركة.

وتختلف اللبسة ايضا حسب السن، فهي للفتيات من الاقمشة الزاهية الصاخبة الالوان المزركشة، وهي للنساء اللواتي بلغن من الكبر عتيا، شيئا يعطي السترة دونما حاجة الى الزركشة والجاذبية، وهي بالنسبة لمتوسطات العمر من الذهب او منديل الصوف او الدريعية، او الالوان الرزينة، وبالطبع فان اهل العريس يراعون ذلك تماما عند الشراء.

والنقوط عادة يجب الا يقل عن ثمن الهدية (اللبسة) من حيث المبدأ، وان زاد او نقص من حيث العادة، لأن اللبسة قد تكون صلة رحم لانثى دونما انتظار النقوط، وقد تكون اوضاع الشخص لا تسمح له باعادة ثمن ما اعطى وقدم له.

ونعطي فكرة عن كمية النقوط حسبما أتذكرها، فالدريعية، والعباءة، ومنديل الصوف وقطعة الذهب كان لا يقل ما يقدمه الشخص من نقوط عنها عن ثلاثة او خمسة دنانير. وقد تصل الى عشرة دنانير، او رأسا من الغنم، والمسماة (قوادة – من قاد يقود الشيء او الماشية اذا اقتادها)، اما ما يدفعونه عن قطعة القماش الاخرى فهو نصف دينار او اكثر او اقل.

وعلى ذوي العريس ان يقدموا من حيث المبدأ اعلى مبلغ يدفعه الحضور لأن ذلك

مساهمة منهم معه من جهة، ولتشجيع الاخرين بطريقة مهذبة على دفع مبالغ محترمة ايضا، واما الأخ والابن فلا يدفعون نقوطا للعريس، من حيث المبدأ لأنهم اصلا مشاركون له في السراء والضراء وهو في كنفهم، وما يدفعه يكون منهم، وما يأتي يكون لهم، ولكن في العادة ليس شرطا ان يكون اعلى مبلغ من ذوي العريس (اقصد اقاربه)، كما ان الأب والأخ والابن قد يدفع نقوطا خاصة اذا كان هناك انفصال في العيش، ولكل واحد موارده التي تدر عليه دخله او ان كلا منهم يعيش في بيت منفصل عن الاخر... بالاضافة الى ان ذلك مودة وصلة رحم بينهم.

وأما اللبسة للرجال فهي تختلف: فهي منديل او شبرية، او عباءة، او فروة، وربما سيفا اذا كان المهدي اليه شيخا، او فارسا يستحقه،.. وهو يدفع مبلغا اعلى مما يدفعه لقاء لبسه الانثى: لأن (الرجال قوامون على النساء) (وللرجال عليهن درجة).

بقي ان نقول: ان اللبسة قد يقدمها الشخص او الانثى هدية لغيرها، ولكن لا يجوز بيعها، ولا يجوز لمن قبل اللبسة ان يتغيب عن الحضور للزفاف او القرى، فهذا يعتبر منه تهربا وبخلا وذلك مالا يقبل البدوي ان يوصف، كما لا يجوز اعادة اللبسة (اي عدم قبولها) مع هذا فان من العادة قد لا يدفع الشخص نقوطا عن اللبسة التي قدمت اليه، وقد تحدثنا عن الحالات التي يجوز فيها المقاضاة على دفع النقوط المستحق او لا.

وما اللبسة الا توزيع من بركات الافراح، ومجهودات العريس على الاخرين الذين لا بد ان يجمعوا هذه الجهود المبعثرة، ويتعاونون لاعادتها اليه، لتتجمع وتعطيه قوه للانطلاق، والحياة من جديد، انه رمز على ان اقاربه وأصدقاءه لن يتوانوا في نجدته ومساعدته في اعادة ما فقده او ما اعطاه للآخرين ... ان اللبسة ايضا هي اسلوب مهذب في استجداء المساعدة، وهي اسلوب مهذب في دعوة القوم وبصمت – واسلوب مقبول في تفقد المحارم وصلة الرحم، وكسب ود الاصدقاء، والاعداء، على مبدأ (تهادوا تحابوا)، فالهدية تؤدي للمحبة سواء من العدو او الصديق... واللبسة ايضا سترة (من الستر) وغطاء... وبذلك نرى اهميتها وضرورتها في مجتمع كالمجتمع البدوي.

صلة القرابة: فهي تجعل العريس يقدم لبسة اكبر واهم للمرأة والفتاة والرجل، وبالتالي يضطر هذا المقدم اليه ان يرد على الاحسان بالاحسان... وان الانسان البدوي بحاجة دوما الى اقاربه ورجاله، وخاصة في المناسبات (الافراح للمشاركة) (والاتراح للمواساة)، ولا بد من التعبير عن هذه المحبة والصلة (باللبسة من جانب العريس – وبالنقوط والعمل في خدمة الناس الوافدة. من جانب اقارب العريس، ولو تصورنا شكلا دائريا لوجدنا ان الاقارب والعريس في مركز الدائرة، وان الدائرة تكون اكبر قوة كلما كانت صغيرة، وتضعف كلما نمت وكبرت، اي ان الاقارب اقوى صلة، وعليهم واجب اكثر من الاخرين البعيدين.

المقدرة الماليـــة: وتلعب الامكانات المالية دورها في كل امور الحياة، ولو افترضنا

شخصا فقيرا غير قادر على الدفع فيمكنه الاقتراض من الاخرين، او الوعد بالدفع في فصل معين عندما تتيسر الامور، ورغم هذا فالبدو يعذرون الشخص المعدم ويقولون (الجود من الموجود) ويقولون (على قد اغطاك مد اجريك) واحيانا (على قد فراشك مد اجريك) ويرددون الاية الكريمة (لا يكلف الله نفسا الا وسعها)، حتى ان المعدم اذا ما دفع نقوطا سبب الدهشة للاخرين فيقولون مثلا (حسبما اذكر)، (لا يا فلان ما فيه ضرورة) وهذا تساؤل عن الدفع مع انكاره للعجز عن هذا الدفع، ومع هذا فهم يتغنون بمن يجود اكثر من طاقته، ويعتبرونه كريما فيقولون: (فلان يجرد من لحمه مشان ما يغلبوه الرجال، او مشان ما يقصر عن الرجال)، اما ميسور الحال فليس هناك مشكلة في دفع النقوط من قبله، وتعتمد الكمية على مدى علاقته بالعريس، واللبسة ونفسية الشخص الدافع، والظروف كما سبق وقلنا.

رد الديــــــن:

المقايضة احدى المبادىء في التعامل الحياتي بالمجتمع البدوي، فيقولون (كل شيء قرضة ودين حتى دموع العين)، ويقولون في انتظار الخير او الشر من الاخرين، ان ذلك يعتمد على ما قدمه الشخص للاخرين: (كل واحد يعتب على اللي طلع من ايده)، ويقولون: (اعتب على نفسك لا تعتب على الناس)، اي يجب عدم الانتظار من الاخرين الا ما انتظروه هم من هذا الشخص او ما قدمه هو لهم وما ذلك الا حض على فعل الخير، واعرف من لا يترك فرصة تفوته في مشاركة الناس افراحهم واتراحهم، ويقدم ما يستطيع من مال او هدايا، او عطايا للتعزية، وهو بالتالي لا بد وان يكون موضع الاحترام بحيث تكون المناسبة عنده مجمعا يتسارع الاخرون للمشاركة فيها.

الزمــــــن: فالامر يختلف من فصل لاخر، ومن سنة الجدب، الى سنة الخير، او السنة الميسورة، عندما تتوفر الماشية، والمحصولات والنقود، واذا كان الفصل ربيعا او صيفا، فهما اكثر فصول السنة يسرة للبدوي، بعكس الشتاء والخريف وهما اكثر الاوقات عسرة حيث تنضب الموارد، وتتجمد تماما كتقلص الجو، والحرارة... لذا فان الزواج بحد ذاته في سني الخير والمطر تعتبر فألا حسنا فيقولون (سنة الزرزور نحرث البور)، والزرزور طائر صغير اذا وفد الى مضارب البدو تفاءلوا به خيرا، وحراثة الارض البور دليل على وفرة المطر، وبالتالي سنة الخير... وهذا بعكس السنة التي تفد فيها الطيور الثقيلة الظل وهي (القطا) فيقولون: (سنة القطا نبيع الغطا) اي بسبب الجفاف والقحط، وبالتالي فان هذا من مصادر التشاؤم عندهم والزواج في السنوات والفصول الميسورة تجعله قادرا على التصرف في اتمام المهر، واكرام الوافدين، وتتيح لهم الفرصة في دفع النقوط لهذا العريس، بما يناسب علاقة الشخصين او حقهما على بعضهما، ونحن نعرف ان حياة البدوي كانت تعتمد على الماشية التي ترتبط حياتها بالكلأ والماء والمرتبطين بمدى توفر

المطر او انحباسه لذا فان المطر هو العماد الرئيسي والاساسي في الانطلاق نحو التفاؤل او التشاؤم، وحتى انه في سني الغلال، قد يتزوج البدوي زوجة اخرى، كما ان الارملة والمطلقة تجد نصيبها، فمن كان في عصمته زوجة واحدة قد يبحث عن ثانية او ثالثة، وعندما يكثر الطلب، فانه يصبح لجميع انواع البضاعة في السوق، يصبح لها سوقا رائجا ايضا، وبالطبع فان ذلك من احدى وسائل حل مشاكل المجتمع البدوي في انعدام العوانس او من تكون بلا زوج بعكس المجتمع المدني الذي يمتلىء بالعوانس والمطلقات، وبالتالي ما يترتب على ذلك من مشاكل اخلاقية وجنسية، وهذا معدوم تماما في المجتمع البدوي.

اهمية العروســـين: وقد سبقنا وذكرنا ذلك فهناك فارق ما بين الراعي، والشيخ والفارس، والمتزوج للمرة الأولى او الثانية، اي ان موضوع التنظيم الطبقي يدخل بوضوح في هذا الامر، كما تتدخل سمعة العريس او العروس او والد اي منهما في هذا النقوط وكميته ونوعيته، فعندما يكون العريس من النوعية المهمة، فان الحضور لا بد وان يكونوا من الاشخاص المهمين ايضا، وهؤلاء لا يكتفون بدفع نقوط قليل، وانما كل يدفع على حسب طاقته، او حسبما ينتظر الناس منه او ينظرون اليه، ففي ذلك اثبات للموجودية ايضا، وكل يحاول ان يبز الاخر في مقدار ما دفع، اي ان جو المزايدات ولكن نحو الافضل والخير يدخل في هذا الامر.

اعداد الحضـــور: فالكثرة تعطي في النهاية حصيلة اكبر من القلة، الا اذا كانت الفئة القليلة من الميسورين الذين يدفعون مبالغ كبيرة، ولو تفحصنا هذه الاسباب في مجتمعنا المعاصر لوجدناها تتحكم ايضا في امر النقوط، لأنها امور اجتماعية نابعة من طبيعة المجتمع وجذوره فأصبحت احدى العادات والتقاليد التي لا ينسلخ منها بسهولة او بسرعة، بل لا بد ان تأخذ وقتها في الاندثار او التحوير والتغيير والتطوير.

أنواع النقوط من حيث الزمـــن:

ليس هناك وقت محدد للنقوط بعينه، بل هناك فترة، وهناك حد ادنى وحد اعلى بينهما، تبدأ فترة الحد الادنى منذ يوم الزفاف او شر الجهاز، وذلك في حالة وجود الشخص الذي سيدفعه هناك في ذلك الوقت، ومنازله بعيدة، او مضطر للمغادرة الى مكان بحيث لا يتواجد بنفس المكان والزمان المطلوبين، فيدفع ما يترتب عليه، معتذرا عن الحضور لأنه ليس المهم الدفع فقط، وانما للمشاركة اهمية كبرى ايضا، اي الحضور، والمشاهدة ولا بد لشخص هكذا ان يبين اسباب الدفع في وقت الحد الادنى، حتى لا يعتبر متهربا من المشاركة. لأن لكل تصرف نتيجة، (وكل شيء قرضة ودين حتى دموع العين) وأما الوقت المناسب او الانسب، او الافضل فهو ليلة الزفاف، او يوم القرى، حيث يبلغ دفع النقوط اوجه فيهما، ويحاول البدوي الدفع في هذين الوقتين ما استطاع الى ذلك

سبيلا: وبعد الانتهاء من النقوط ليلة الزفاف يسأل ذووه: كم كانت الكمية، واعلان ذلك مباح وضروري لأنه احدى الرمزيات على قيمة العريس واهميته، ويتسرب الخبر بسرعة، ثم في اليوم التالي، يتم الاعلان عن المبلغ بعد الظهر اي بعد ان يتناول الناس طعام القرى ويهمون بالانتشار ومغادرة المكان.

وقد لا يستطيع شخص ما ان يحضر حفلة الزفاف، ولا النقوط، ويعرف او يحضر ذلك متأخرا، اي بعد ايام او اسابيع، وربما اشهر، حينها يحق له مع تقديم الاعذار ان يقدم النقوط للعريس على مبدأ (هي لمن صدق وليس لمن سبق).

كما ان الشخص الذي لا يستطيع دفع المبلغ في حينه، يستطيع ان يلتزم امام الجميع بدفعه في وقت يضربه كأن يقول في الصيف او البيدر، او الربيع او وقت الخروف (اي بيع الخراف) وهو شهر نيسان وأيار، وهذا الالتزام يعتبر بمثابة دين عليه، وهو مضطر لادائه.

وهكذا فان طبيعة الحياة البدوية تجعل التوسع والفسحة امرا ضروريا، فالمهم هو اداء الواجب المعنوي، مع وضع حد ادنى وحد اعلى لا يجوز تجاوزهما، فلا يمكن ان يقال: هذا نقوط لفلان عندما يتزوج، ولكن يجوز ان يقال هذا نقوط لفلان بمناسبة مولده او طهوره، او زواجه (بعد حدوث الفعل او في وقت حدوثه واوانه).

مصـــير النقوط: من حيث المبدأ يعتبر الاب رب الاسرة قواما على كافة افرادها ذكورا واناثا، وطالما ان ابنه لم ينفصل عنه، فهو تابع له اذن، ويلتزم بأوامره، كما ان تكاليف الزواج اصلا ليست من مسؤولية العريس وحده، بل من مسؤولية والده واهله بالدرجة الأولى، فطالما ان الخسارة مسؤولية جماعية، فالربح او الواردات للجميع ايضا من حيث المبدأ، ولكن في العادة فان الوالد ومن ينوبه هو الذي يمثل الاسرة والعائلة، لذا فان ما سيكون لهم يصبح له، وما يترتب على العريس تجاههم في موضوع النقوط، يؤول اليه.

واذكر ان العريس (اذا لم يكن مستقلا) بعد ان يفرغ من استلام النقوط، يدفعه لوالده او لولي امره الذي قد يكون عمه او جده، او شقيقه الاكبر او خاله اذا قام مقام احد السابقين، وذلك للاسباب المذكورة مضافا اليها ان ولي الامر احرص على حفظ هذا المبلغ من العريس الذي يهمه الحصول على عروسه وبالطبع تبقى معه كمية من النقود لا تزيد عن الخمس او العشر في ادنى حد ويدفع من هذا المبلغ بدوره نقوطا الى عروسه.

نقوط العـــروس: وما تحدثنا عنه كان النقوط المدفوع للعريس، وبقي ان نذكر ان للعروس نقوطا ايضا، ومصادره هي: الأهل: فيما يسمى القوامة والتي تحدثنا عنها سابقا، والنسوة اللواتي يحضرن الزفاف والقرى، والعريس نفسه واما ما تدفعه النسوة فهو مبالغ ضئيلة جدا، اما القوامة فهي تختلف حسب الظروف وحالة الأهل، ونفسياتهم، واما العريس فيدفع لعروسه نقوطا عندما يدخل عليها بالبرزة حيث يصافحها بعد ان يطرح السلام وتقوم بوجهه، ويؤدي اليها مبلغا قد يكون كثيرا او قليلا ولا نستطيع

التحديد، لأن هذا يعتمد على نفسية العريس وحالته المادية، ومدى ما حصل عليه من نقوط، ولكن الذي نستطيع تحديده انه لا يمكن الا ان يدفع لعروسه، ويعتبر نقوطه لها حقا لها لا يجوز له اخذه او استعادته، وقد يقترن هذا النقوط بهدية اخرى كقطعة من الذهب، او زجاجة عطر او ما الى ذلك، ولا شك ان المبدأ هو دفع نقوط لها كهدية رمزية مالية او غيرها، وفي العادة يختلف ذلك من مكان لاخر، ومن زمان لاخر، وأما وقت النقوط منه اليها فهو محدد زمانا ومكانا وهو ليلة الزفاف ساعة الدخول والسلام في (البرزة) او غرفة الزفاف، وبذلك نرى التكامل بين وضع الحد الادنى والاعلى للنقوط من الناس للعريس، وبين تحديد الزمان والمكان بالنسبة له مع عروسه، لأن لقاءهما محدد وكل شيء جرى من اجله، وهو قد مل كل الجهود السابقة، كما ان ذلك بداية شروعهما في الطريق الجديد من ناحية عملية، ولا بد ان يثبت العريس كرمه وشهامته، ماديا ومعنويا امام شريكة حياته الجديدة، وليس هناك مجال للتأخير اطلاقا، بل يجب التنفيذ الفوري، ولا يجوز للعروس ان ترفض النقوط، كما لا يجوز للعريس رفض اي نقوط يعطى اليه ضمن ما هو متعارف عليه بين الناس في كل مجتمعه، وكما يقال (فالانسان ابن بيئته).

جلسة العريس اثناء استلام النقوط

بالطبع تكون الرقصة او السحجة او السامر الى وقت مبكر من بداية الليل، وبعد العشاء تنتهي ليجلس الجميع، ويكون الوقت والحيز كله للعريس وليس لاحد سواه الا بمشاركتهم فالسحجة والافراح التي تسبق ذلك هي اعمال تعبيرية من كل واحد لنفسه وللعريس وللجميع، اما النقوط فهو تعبير تجاه العريس وحده، الكل صامت، وينظر، والحضور يدفعون ما عندهم تباعا، واحد اثر واحد، والعريس يكون اما بصدر المجلس عند العمود الاوسط قبالة نقرة النار التي عليها القهوة، وهو من طرف الرواق (اي الستار الخلفي للبيت) ويجلس على فراش مميز، وفي الوقت الحاضر على كنبة مميزة، او كرسي مميز ايضا..، وكان يرتدي احسن ما عنده من ملابس، ومعه الجنادات (الاحزمة) التي يكون عليها العتاد، ومعه الشبرية، وعلى يمينه شخص، وعلى يساره اخر يساعدانه، الأول يستلم من الناس ليضع على منديل خاص، محرمة) امام العريس، والثاني ينادي قائلا، (فلان دفع كذا مكثور الخير) وما ذلك الا وسيلة اعلامية للاخبار عن قيمة التبرعات او الهدايا (النقوط) التي يدفعها كل واحد ليعرف الجميع مدى كرمه، وينوب بذلك عن صاحب الدفع في ان يخبر عن كمية ما يدفعه بنفسه، ولا شك ان المبلغ الضئيل محرج لصاحبه، ولكن هذه العادة (عادة الاعلام) عن كمية ما يدفعه كل واحد من نقوط قد انتهت الان بعد بداية الستينات من القرن العشرين، واصبح يكتفى بالاعلان بطريقة التداول عن مقدار صافي النقوط في النهاية ... لقد كان الاعلان امرا ضروريا، حيث كان يهتم البدوي بالسمعة، ويحتاج للتشجيع، كما انه اعلان الشكر لما قدمه، بالاضافة الى ان النقوط نعمة ولا بد من التحدث عن هذه النعمة الرزقة (وأما بنعمة ربك فحدث).

واذا اجتهدنا ان النقوط يرمز الى العمليات الحربية البدوية، وان المحرمة التي عليها النقوط هي ساحة المعركة، والعريس هو الرمز او الهدف الذي هو مبتغاهم، فان اصابة الهدف على المعركة تعني الفخر والاعتزاز، وفي الحرب يقال ان فلانا قتل فلانا، وهذا اعتزاز بشجاعته ورجولته، واقدامه، وضرباته السديدة وكما يتم الاعلان عنها هناك، يتم ذلك هنا ايضا.

واذكر كل هذا، ومنه اذكر ان العريس كان يجلس في حالة التربع، (ليس القرفصاء او الركبة والنصف)، لأنه اخذ راحته، ويوجد من يحميه، وهو ينتظر التعبير عن مشاركته فرحته من الجميع، وعادة ينظر الى كل من يدفع نقوطا، والى ما دفعه، وعليه الصمت، واذا اراد شيئا فعليه ابلاغ احد مساعديه الاثنين ليقوم بالمهمة وينفذ الاوامر، وبعد ان يعتقدوا ان الجميع قد دفع، يقول المنادي كلمات تحض المتخلفين، مع الانتظار بضع دقائق، فاذا لم يدفع احد منهم شيئا، يتم اختتام الامر، اما الكلمات التي يرددها المنادي فهي (يالله يا جماعة صلوا على النبي، التالي للغالي). كما ان هناك حركات رمزية صامته تكمن في طياتها الاسئلة للحضور، وذلك كنظرات المنادي والمساعد الايمن والعريس لوجوه الحضور، فاذا خيم الصمت، ولم يقم احد لدفع نقوط، اختتمت الجلسة بقولهم نختمها بالصلاة على النبي - فيقول الحضور: اللهم صلِ على سيدنا محمد.

وبعد ذلك يتم عد النقود، لمعرفة كميتها، وتلف بالمحرمة، وتعطى للعريس امام الناس اما تسليمها لولي امره فيكون بعيدا عن الانظار، ورغم ان الامر (معروف) (وعادة) عندهم الا ان تصرفهم هكذا انما هو لحفظ ماء وجه العريس، واعتباره امام الناس، وسبق ان ذكرنا انه يجوز لدافع النقوط، اذا كان له دين على العريس ان يأخذ حقه ويتنازل عن بعضه كنقوط، او يدفع فوقه ليكون ما له في ذمة العريس، وما يدفعه نقوطا له... وبعد الاستئذان يزف العريس الى البرزة، ثم يتفرق القوم فمنهم من يذهب الى بيته للنوم ومنهم من ينتظر في الشق (بيت الفرح)، او ينام هناك، لذلك فان اهل الاعراس يجمعون الفراش للنوم والجلوس من كافة البيوت المجاورة، ضمن الشعور بالمشاركة الجماعية الذي يبرز وقت حاجته وضرورته في المجتمع البدوي.

حركة العريس الى البرزة:

يتحرك بينما يحف به القوم حتى يوصلوه الى هناك، وكانت العادة كما ذكرنا سابقا ان يأخذ النقوط في باب البرزة، الا ان العادة تطورت مع الزمن ليجلس العريس في الشق للنقوط كما قلنا، ثم انه في الوقت الحاضر يجلس في الديوان او المضيف الذي هو بمثابة الشق، يجلس على كرسي او كنبة، ثم ان العادة تطورت عند البعض، بحيث لم يعد هناك وقت مخصص للنقوط، وانما يجلس العريس لتقبل التهاني من الاخرين الذين قد يقدمون وردا او مالا او اشياء رمزية، او اثاثا، او اطباقا من الحلويات بانواعها، وربما بعض القطع من القماش له ولعروسه او لاحدهما، كما انِ العادة تطورت في المجتمع المتمدن بحيث يقيمون حفلات استقبال للاخرين، يختلط فيها الحابل بالنابل، النساء بالرجال،

ويقف العريس الى جانب عروسته، او العكس، بملابس الزفاف ويقوم المهنئون منهم بالسلام بدون هدايا، او بهدايا، وقد حضرت بعضا من هذه الحفلات، ولا شك انها جذابة للغاية لمن يرغب الصبابة، ومشاهدة الفتيات والنساء وهن بالملابس المغرية الزاهية، اما انا فقد نفرت ولا زلت من مثل هذه الحفلات التي لم ولن تروق لي اطلاقا لأنها بعيدة عن الاصالة والبساطة، وهي لا ترمز الا الى الاباحية، التي لا يستسيغها ذوق او شرف، بل ان نفسي تشمئز وتتقزز من مثل هذه الحفلات لمجرد ذكرها واذا قارنا بين الحفلات البدوية او التي على الطريقة البدوية بما فيها من التزام وشرف، وعدم [illegible] وجدنا الادب والحشمة والوقار، وهي نفس الصفات التي انسلخت عنها حفلات الاستقبال في الزفاف الحديث.

العروسان معا في البرزة:

هذه نقطة خطيرة، وحرجة اخجل من التفصيل فيها، حيث يدخل العريس على عروسته وهي لوحدها، وقد تكون امه او امها اخر من يبقى حتى يدخل، فتخرجان احداهما او كلتاهما، وهو بمثابة انسحاب من ارض المعركة ليبدأ صراع الفارسين، فنحن نقرأ في التاريخ العربي عادة مبارزة فارسين من دون القوم حتى يصرع احدهما الاخر، وهو تقليد حربي كان في الامم القديمة، وانعدم امام التطور العصري للوسائل الحربية، والان نتصور الاعراس معركة يقف فيها اهل العروسين والحضور ينتظرون نتيجة مبارزة فارسين هما قطب الرحى هذه الحرب او المعركة، في ساحة محدودة هي (البرزة).

وعادة يكون مع العريس خيزرانة، ويدخل قائلا: السلام عليكم، وهذا يعني الامان والطمأنينة وترد عليه هي بقولها: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، او بكلمة (اهلين)، وعليها ان ترد السلام من حيث المبدأ، وان كانت احيانا يمنعها حياؤها من الرد او النظر، وعليها ان تقوم بوجهه، وان تمد يدها كما يبدأ هو بمد يده ليتصافحا وتقبل يده، كدليل على خضوعها واستسلامها، والبدوية يجب ان تقبل يد زوجها او خطيبها، خاصة اذا كانت تحبه. وينظران الى بعضهما، وفي العادة تخجل الفتاة البكر من مبادلة النظر، لأنها اذا حملقت به، قد توصف بالوقاحة، وان اي تصرف منها يخرج عن حدود الادب قد يؤدي بها الى الطلاق بنفس الليلة، وكثير من الفتيات استقبلن الزفاف بطلاق من هذا الزواج... واكثر ما يخشاه البدوي ويخافه، وتحذره البدوية، ان يشعر ان لها تجربة سابقة مع الرجال الا اذا كان ذلك معروفا للجميع او للعريس وحده على الاقل، ولكنه لو استنتج او فوجيء انها صاحبة تجربة لادى ذلك الى طلاقها بالفعل فالبدوي يكره ان يتعامل مع فتاة تتعامل او تعاملت مع غيره سابقا او لاحقا الا اذا كان ذلك بطريقة مشروعة، ثم يجلس على الفراش، ويقول لها: تفضلي اقعدي، اي ايذانا منه لها بالجلوس، فتجلس على استحياء، وقد تنظر الى الطرف الاخر، خاصة اذا كانت لا تعرفه سابقا، او لم يكونا قد عاشا قصة حب سابقة، ويقدم اليها النقوط اللازم، ثم يطلب منها ان تقدم له ماءا او اي شيء، فتأتي له بالماء، وتقدم له حلوى من التي جاءت بها من عند اهلها، وما ذلك كله

الا رمز لتبادل الامان والمحبة، فالنقوط منه هدية محبة وتقدير، وفراش لبدء الحديث، وعلى الرجل ان يبدأ لأنه (قوام على المرأة)، وصاحب زمام المبادرة، وعليها ان تجاوب على ذلك، فكأنه بالسلام والنقوط، والامر بالجلوس يقول لها: نريد ان نبدأ الخير، والعلاقة، وانا قبلتك، فهل قبلتيني؟ وهل تريدين ان نبدأ؟! وتصرفها بالاستجابة بتقديم الماء والحلوى، يعني انها قابلة، وان ذلك خير وجميل، وحلو، واما الماء فهو يعني الخير، وكذلك الحلوى.

اذن لنقل ان هذه مرحلة الامان او مرحلة التفاهم الاني قد انتهت، حينها ينتقلان الى مرحلة ابعد مدى وهي، التفاهم الحياتي، وذلك بعد الاطمئنان عن صحتها، والتمني في الا تكون قد عانت من السفر، وقيود الزفاف، وانه سوف يهيء لها الجو بالراحة والطمأنينة، ولا اقول ان كل بدوي بطبعه يعرف ذلك وانما لكل عريس قرين او صديق يعلمه كيف يقول لها، ويحدثها، ويكلمها، ويتعامل معها في جميع الامور الكلامية والجنسية، لان البدوية بعكس المدنية تخجل من ارشاد زوجها للامور المتعلقة بالعاطفة والجنس وتعتبر ذلك وقاحة اذا دلته، وتعتبرها رزانة اذا تجاهلت ذلك، وهي كذلك تتدرب على ايدي قرينة لها وصديقة تعطيها الدروس يوم الزفاف او قبله: كيف تتعامل مع عريسها؟.. وعلى كل واحد من العروسين تطبيق وتنفيذ التعليمات بدقة كبيرة.

ويبدأ العريس بطرح مشروعه للحياة او لنقل سياسته التي على العروس ان تتقيد بها، في كيفية التعامل مع والده وامه، واخوته واهله، واصدقائه، وماذا يحب؟ وماذ يكره؟ وماذا يريد منها؟ وقد يتحدث عن نفسه، وحياته، وقد لا يكون بهذا المستوى ولا يتحدث الا عن الجنس، وقد يكون من التفاهة والغباء بحيث يجهل ابسط قواعد التعامل معها، ومن ذلك ان بدويا دخل على عروسه، وعندما راودها عن نفسها رفضت، فنادى امه قائلا (يا يمة هذي معية) اي ترفض المراودة فاصبح يطلق عليه وعلى نسله وعقبه من بعده لقب (قوم معية – أي عائلة معية – ولا يزال هذا الاسم لاحقا بهم الى ساعة كتابة هذه السطور... وعلى البدوية ان توافق العريس في كل ما يقول اذا كانت جاهلة او لا تعرف العريس من قبل، اما اذا كانا يحبان بعضهما، فيتبادلان الحديث الودي معا، ويجري تبادل في الاراء، والقناعات، ويخرجان بنتيجة، وقد تكون الفتاة قوية بحيث تسيطر على العريس منذ الليلة الاولى، بل حتى منذ اللحظات الاولى، ولا شك ان كلا منهما يأخذ دروسا من اقرانه في كيفية السيطرة على الاخر، لذا يقال عند البدو: (قطع راس القط من اول ليلة) وكدلالة على السيطرة على العروس، وهذا يجرنا للحديث عن استعمال العنف الذي كان يلجأ اليه الكثيرون من المتزوجين للاسف، حيث يعتقد ان السيطرة بالضرب، فيباشرها بصفعة او بضربة خيزرانة او عصا. حتى ان هذا العنف هو وسيلته لاجبارها على ممارسة الجنس معها.

وبعد هذه المرحلة وهي مرحلة طرح مشروعه الحياتي، او سياسته للتعامل معها، ولتعاملها معه ومع اهله وذويه، تأتي مرحلة اللعب بالنار، وهذا بيت القصيد، او (بيت الفرس أو مربط الفرس) كما يقول البدو، حيث ينزع ملابسه، ويأمرها بنزع ملابسها، الا

انها ترفض ذلك عادة، وقد يلجأ الى الاقناع او القوة، وقد لا يتم الاتصال في الليلة الأولى، سواء اكان السبب من العريس ام من العروس، فمثلا يلجأ بعضهم الى تأخير الدخول بالعروس ليلة او اكثر، وتسمى (الضيافة) فيقال: ضيفها (بفتح الضاء، وتشديد الياء وفتح الفاء، واطلاق الهاء) خاصة اذا جاءت من مشوار بعيد عندما كانت تحمل في هودج او على حصان، وركوب هاتين الوسيلتين عملية صعبة ومرهقة، لجميع عضلات الجسم ولجميع الاعصاب، بحيث لا يبقى في الشخص او الفتاة قابلية نفسية للجنس اطلاقا، وليس عيبا ان يتصرف العريس هكذا في المبدأ (يوم وليلة) وفي العادة ثلاثة ايام وثلث لأن الزيادة عن هذه المدة تعني ان في العريس او العروس عائقا او حائلا معيبا، وهذا يسيء اليها، ومن هنا فيجب تجنب مثل هذا الشك او التساؤل.

والان يأتي السؤال: كيف يعرف البدو ان الاتصال الجنسي قد تم بين العروسين؟! والذي سنتحدث عنه بعد قليل ان شاء الله، بعد ان نبين عادة عند بعض البدو او لنقل عند الاعراب وهي هروب العروس من البرزة حال دخول العريس عليها، فيلحق بها ليفترسها في الخلاء، وهذه عادة قبيحة، وتنافي الاخلاق، وهي متوارثة عن الاعراب الذين هم اشد كفرا ونفاقا، وان كانت ترمز الى مدى صعوبة الحصول على الهدف، مع امتحان قدرة العريس على تحقيق واصطياد هدفه، حيث يعود بها بعد افتراسها الى البرزة، وقد اندثرت هذه العادة الان اما كيف يعرف القوم ان العريس وقد مارس الجنس مع عروسه فلذلك دلالات واشارات صامته او متحركة او بالنطق، فعندما ينتهي العريس من ذلك يطلق ثلاث عيارات نارية من مسدسه او بندقيته او خرطوشته كدليل على انه وجد عروسه عذراء. وانه عرف ذلك بالتجربة العملية واما الوسيلة الثانية فهي التقاط دم البكارة بمنديل ابيض، ثم نشره امام القوم، وهذا شيء كان يفتخر به اهل العروس ان ابنتهم شريفة، ولم يخترق جدار عذريتها الا زوجها بسنة الله وسنة رسوله، ويفتخر اهل العريس انهم زوجوا ابنتهم فتاة عذراء شريفة، وان ابنهم رجل قد اجتاز اصعب مرحلة في الحياة، خاصة وان البدو يرون في غشاء البكارة او العذرية، رمزا للشرف، والكرامة، وان الدليل على ذلك هو الدم، وكثير من البدويات ممن منحهن الله غشاء بكارة من النوع الذي لم يعتاده البدو، فيعتقد العريس انها قد فقدت هذا الشرف مع رجل اخر، وهنا الطامة الكبرى عليها، ولا شك ان العديد من الفتيات ذهبن ضحية لمثل هذا الهراء والجهل الطبي، مع هذا فهو وسيلة قوية لزيادة الحرص على الشرف والعذرية من قبل الانثى. واما التعبير الاخر فهو ان الثوب الابيض الذي ترتديه العروس (وسبق ان تحدثنا عنه) لا بد وان يلتقط بعض بقع الدم وعندما يرتديه العريس في اليوم التالي (يوم القرى) ويرى الناس بقع الدم يستدلون منه على عذرية الفتاة، وعلى ان العريس قد قام بما هو مطلوب له ومنه تجاه شريكة حياته الجديدة، ويزداد احترامهم لمثل هذا الرجل بينما يحتقرون القاصر جنسيا، ويعتبرونه كالانثى ويقولون (خنثى لا هو ذكر ولا انثى) وعند الانتهاء من عملية الاتصال الأولى يخرج العريس ويصافح والده ووالدته ويقبل يديهما كما يقدم الحلوى للضيوف، كتعبير على ان كل شيء على ما يرام، حينها تنطلق الزغاريد بالفرحة

والسرور، ويعود العريس الى البرزة ثانية، حيث يتناول طعام العشاء الذي تقدمه (ام العريس عادة) وهو من (كبد وقلب الذبيحة الحلية)، لأن القلب دليل المحبة، والكبد دليل الصبر، وكلاهما يحتاجان لبعضهما وهما (الصبر والمحبة) بالاضافة الى انهما وجبة دسمة، ويأكل العروسان معا من صحن واحد، وهنا نجد ان هذا اول عيش وملح بين العروسين بعد الاتصال الجنسي، وكأن ذلك عهد بينهما الا يبوق احدهما بالاخر، والا يمتنع عن الاخر، اي ان يتقدم كل واحد تجاه شريك حياته بالمحبة والشوق، والعشق، هذا بالاضافة الى ان ممارسة الجنس عند البدوي تكون وقت الجوع، او على الاقل ليس في وقت الشبع، وانما يأكل بعد ان يمارس رغبته، وفي ذلك دليل صحي وطبي.

والان انتهت عادة نشر المنديل المضمخ بالدم، كما اختفى لبس الثوب من حيث اتى واستبدل بالملابس الافرنجية، وكثير من الشباب يقضي ليلة زفافه في فندق او شقة خاصة بعيدا عن الاهل والاقارب وضوضاء السامر، وفوضى الافراح، ورغم ان عاداتنا وتقاليدنا حسنة وممتازة الا انها تنطوي على بعض التصرفات التي لا يقبلها الا الذوق المنحرف الاعوج، ويقضي العريس ليلته في احضان عروسته حتى طلوع الشمس، وقبل ان يبدأ الناس بالحركة والنشور، حينها يعود الى الشق ليستقبل الرجال، الوافدين لتهنئته بالافراح وعلى قضائه ليلة جميلة في احضان عروسته... ولا بد لنا ان نتحدث عن المراقبة التي يقوم بها بعض الفضوليين، حيث يقتربون من البرزة ليستمعوا الى اقوال العروسين لبعضهما، ولكل شيء يجري بينهما ثم يحدثون الناس بما سمعوا او رأوا حتي ان بعضهم يتسلل ليكون خلف الرواق او الستار فيسمع ويرى ويلمس كل شيء، وبالاضافة الى ان هذا التصرف تصرفا لا اخلاقيا، فان البدوي يخشاه لانه هتك للاسرار والاعراض، لذا يخصص لليلة الزفاف عدد من الرجال لحراسة البرزة وحمايتها من الفضوليين كي لا يقتربوا، ويستطيع الحراس الضرب بالعصا والحجر لكل متلصص دونما عقاب له مالم يصل اثر الضربة الى حد الموت، واتذكر ان بعض الشباب كان يفتخر انه (اكمن – من الكمين) لفلان او فلانة ليلة زفافهما، وانه سمع كل ما قيل، ورأى كل ما حدث، وأتذكر انه كان يجري بعض التحدي بين الاتراب من الشباب في ان كل واحد سيرى ويسمع ما يحدث مع الاخر وعروسه، بينما لن يمكن الاخر من فعل ذلك معه، ويأتي مثل هذا السلوك من باب حب الاستطلاع، وتعبير عن الجوع الجنسي، ويعتبر المتلصص في عرف البدو لصا، اذا جرح من جراء ذلك لا تلحق بضاربه اي مسؤولية تستحق العقاب والجزاء.

نفسية العروسين ليلة الزفاف:

تعتبر (ليلة الزفاف[1]) عند البدوي هي اخطر ليلة في حياته الزوجية لانها نقطة

---

١) وتسمى هذه الليلة عند البدو ايضا: (ليلة الخشة – بفتح الخاء وتشديد وفتح الشين)، وهي مشتقة من خش يخش اذا دخل العريس على عروسته، وان كانت كلمة خش تستعمل في مجالات اخرى. كما تسمى ايضا ليلة الدخلة (من دخل يدخل).

الانطلاق لكلا العروسين، وكل منهما يريد السيطرة على الاخر، ولا يدري ماذا يخبىء له شقه الثاني، بالاضافة الى الظروف النفسية المختلفة التي يقعان تحت تأثيرها.

فالفتاة: تنظر اليها انها ليلة صفع وضرب، وعنف، وازالة البكارة بالقوة، ودماء متدفقة ناتجة عن هذه الازالة، وانها بذلك ستفقد اعز ما تملك في شرفها، والذي احتفظت به، وحافظت عليه طويلا، ومع ازالة البكارة، تبدأ حياة جديدة، وتنتهي النضارة، والبهاء والجمال، انها تتخوف من كل هذا خاصة اذا كانت سترى العريس لاول مرة كما هو الحال في العديد من المجتمعات الصغيرة (خاصة القرى المستقرة - قديما)، ولا شك ان الساعات او اللحظات التي تسبق العمل الجنسي غير كافية للطرفين للتعرف على بعضهما، بعكس من عاشا حياة الحب والتعرف قبل هذه الليلة، فالامر بالنسبة لهما يسير وسهل:

وتصور اخر في ذهنية الفتاة المسكينة، انها تتساءل: كيف ستنزع ملابسها امام رجل غريب وهي لا تجرؤ على فعل ذلك امام احد اصلا؟! انها ستتعرى، وسيكون لكل جزء في جسمها نصيب من اللمس، والهمس، وهي لا زالت تحت تأثير (ان ذلك عيب) وليست المرحلة الانتقالية بكافية لنزع هذه الاوهام من رأسها وصدرها.

وتصور اخر: كيف يمارس الجنس معها رجل غريب (هو زوجها)؟! وذلك برضى اهلها، وبعلمهم وعلم الناس، وهي تعرف ان فعل ذلك من قبل كفيل بقتلها وقتله معا، وكانت من قبل لا تستطيع حتى مصافحة رجل غريب او مبادلته بابتسامة رقيقة معبرة، ولو اعتدى عليها رجل قبل هذه الليلة حتى ولو كان زوجها نفسه، للقي مصيره بالموت، وربما نجت هي باعجوبة، ولصاحت هي، وحمل القوم السيوف والبنادق، وعم بلاء الحرب والغزو والضرب بينهم لأن جريمة العرض هي احدى اكبر ثلاث جرائم عند البدو وهي جريمة تقطيع الوجه وثالثها جريمة القتل، بالاضافة الى جريمة العرض..

اما الان فهذا الزوج يمارس الجنس معها، ويسطو عليها، ويأخذ ما يريد منها دونما خوف، او تورع، بل انه لا يعبأ بتوسلاتها اطلاقا، ولا احد ينقذها او يساعدها، فكان الجميع قد تآمروا عليها بما فيهم والدها، واخوها، وسلموها لقمة سائغة لرجل غريب ولا مجيب ولا مغيث.

كما انها تتخيل السحر، لا تفتأ عدواتها وعدوات زوجها عمله ضدهما، كي يكرها بعضهما، ويكون هو عنيفا معها، لئيما، قاسيا لا يعرف الرحمة، وعلاوة على كل هذا فهي ستكون برعاية هذا الانسان، وقد فارقت بيت اهلها والى الابد... ولا شك ان هذه الظروف النفسية، والاوهام المحيطة بالذهن من السحر، والعنف، والخوف، كفيلة بخلق الاضطراب النفسي لدى العروس، عند استقبالها لعريسها، وبذلك تكون هذه اللحظة اصعب واخطر لحظة في حياتها، انها لحظة الخوف والفرح معا، لحظة العنف واللطف، والرجاء واليأس.

اما نفسية العريس فهي لا تقل اضطرابا عما تعانيه شريكة حياته الجديدة، ولكن الفارق انه يمسك بزمام المبادرة، واي فشل هو من مسؤوليته، وفي رأيي المتواضع ان اي فشل في الزواج عند البدو تقع مسؤوليته بالدرجة الاولى على الرجل، واذكر ان العريس

كان يحمل افكارا فوقية وتسلطية مزعجة وهو يدخل على عروسته، وان زواج مثل هؤلاء قد تعثر كثيرا!!

اما التخيلات التي يعانيها العريس فهي: تصوره بالدرجة الاولى للعشرات من الاعداء والحاسدين والحاقدين الذين يعملون له السحر للتأثير عليه ليعجز عن ممارسة الجنس، ومنعه من ذلك، وان يقع التباغض والتحاسد والتنابذ بينه وبين عروسه، وان يكون الفراق والطلاق، حتى ان اي سوء تصرف من احد الطرفين يفسر بالدرجة الاولى على انه ناتج عن السحر، لأن لهذا التصور موقع واثر كبيرين في نفوس البدو، انهم يخافون السحر والحسد، ويؤمنون بتأثيرهما.

وتصور اخر ان هذه الفتاة هي سبب استدانته للمال الذي دفعه مهرا، ورضوات (من الرضوة اي الاسترضاء)، وليس لديه من وسيلة للتنفيس عما يعانيه الا بالانتقام من هذه المسكينة، واعرف واذكر ان بعض الشباب لم يصل الى ليلة الزفاف الا مكبا على وجهه من الدين، والغلبة والعراقيل والعقبات التي وضعها اهل عروسه قبل ان يحصل منهم على زوجته، وهو يعتقد ان معاناته كانت بسبب هذه المسكينة التي عليها ان تتحمل الصفعات، والاساءات التي اقترفها ذووها، ولا شك ان هذا ينافي الاصالة البدوية، لكنه امر كان يحدث، واذكره جيدا.

وفي تصور العريس ايضا ان غشاء البكارة شيء صعب وقوي بحيث انه قد لا يتمكن من اختراقه بما اعد الله له، حتى ان بعض المجتمعات تلجأ لازالته باصبح اليد، ولا يوجد من هذا شيء في البادية الاردنية، اذا استثنينا الحوادث الفردية، ومثل هذا التصور بالعجز مضافا اليه تصور السحر المعمول له ليكون عاجزا، قد يؤدي الى العجز الحقيقي فعلا، ويحدث هذا كثيرا عند البدو، وهو امر نفسي بالدرجة الأولى، لذا فهم يهرعون لاقرب (فقير - رجل متخصص في الروحانيات)، او لاقرب (خطيب - الذي يكتب الحروز - مفردها حرز والمسمى عندهم حجاب)، وذلك لطرد الارواح الشريرة والاوهام، وقد ينفع الطب والدواء، وقد يفشل، واذا فشل فيكون الانتظار الى امد محدد بعدها يفقد زوجته بالطلاق، ولا حق له بالمهر لأن القصور والفشل منه، عداك عن الفضيحة بين الناس، فكما ان من العيب السطو على فتاة فان القاصر جنسيا محتقر ويعتبر في عداد الاناث، وقد يسمونه (خنثى - لا ذكر ولا انثى) فلا تقبل شهادته، ولا مجالسته للرجال - انه منبوذ اجتماعيا ومثل هذه الاوهام، والنتائج، اذا تخيلها العريس، لا شك انها ستؤثر على نفسيته كثيرا، لذا فان رفيق العريس الذي يدربه، ويلقنه ينصحه عادة الا يفكر باي وهم او اي شيء اخر وان ينصب تفكيره فقط على عروسه، وممارسة الجنس معها.

والتصور الاخر: ان عليه ان يسيطر على هذه الفتاة، ولو بالقوة (وان يقطع رأس القط من اول ليلة) كما يقولون، وان النساء قويات، وهذه من بنات حواء، ويجب عدم التهاون معها، واذا رفضت فالوسيلة الفضلى هي الصفع والضرب بالخيزرانة، وان التودد من اي طرف يعني اللهفة منه تجاه الاخر، وذلك شيء قد يثير الاشمئزاز، فالبدوي يكره المرأة المائعة المتدلعة ويتصور انها كما لانت معه (فهي مع غيره كذلك).

ووسط هذه التصورات من كلا من الطرفين تجاه بعضهما يكون اللقاء، وذلك اذا لم يكن بينهما معرفة سابقة او حب او تبادل احترام على الاقل، ولا بد لي هنا ان اتغاضى عن ذكر كثير من السلبيات والتصرفات التي قد تحدث بين العروسين وذلك لأنها مشينة من جهة ولأنها فردية بالدرجة الاولى من جهة اخرى، ولا يجوز ان نعتبر النادر الفردي مقياسا للعادة.

وباختصار نقول: ان علاقة الطرفين اما ان تكون ايجابية، وعلاقة حب واحترام وتفاهم او علاقة سلبية، يتخللها، العداء، والعنف، وما يترتب عليهما، وبالتالي فليلة الزفاف اما ان تكون ليلة حب وعشق وغرام، واما ليلة شؤم وسوء، وعنف، وبكاء، وانتقام، والشيء الذي لا بد منه هو ان على العروس ان تقاوم عريسها، لان ذلك طبع في الانثى بعدم الاستسلام الفوري من جهة، وحتى لا تزرع الشك في نفسية زوجها انها محترفة، مجربة (وهذا الذي يكرهه البدوي) من جهة اخرى وتكون هذه المقاومة من باب الممانعة، ولكن الى حد معين، ولكن ليست ممانعة تصل الى حد الحرمان، واستعمال العنف للحصول على المطلوب.

وأتذكر ان التعليمات للعريس كانت ان يضربها على ذراعيها (عند العضدين)، وعلى رجليها (عند الفخذين) لتضعف مقاومتها، ويحصل على مبتغاه.

والشيء الذي فاتني ذكره وهو انه بعد ان تقبل العروس يد عريسها عندما يصافحها وهو داخل للبرزة وان يسألها هو عن اسمها، فتجيبه، وقد تمتنع في البداية، لكنه يكرر عليها، ثلاث مرات، وقد يضطر لضربها كي تجيب... وقد حدث كثيرا ان هربت بعض الفتيات من البرزة لأول تصرف عنيف من العريس تجاهها... واذا كان سلوكه عدائيا، فقد يقول لها: لقد اخذ مني ابوك كذا وأخوك كذا وكذا...الخ، لولاك لما كان ذلك، فاريد الانتقام منك؟!.

وعلى اية حال فان كل شيء من اللطف او العنف، من الايجابية او السلبية قد يحدث بين العروسين، فالبدوي انسان وهو جزء من المجتمع الانساني، وليس ما ذكرنا يحدث عند البدو وحدهم بل قد يحدث في اي مجتمع، فالصحف تنشر كثيرا قصص الزوجات اللائي يعانين قساوة ضرب ازواجهن لهن، وهناك عشق في البادية، وانسجام بالغرام يفوق كل عشق وغرام في ارقى المجتمعات العصرية.

وفي كل مجتمع سلبياته ومنحرفوه، وايجابياته، ومثاليوه، وهذا كمال الحياة في تنوعها واختلافها وتباينها، ولو كانت نمطا واحد لفسدت، كما ان المجتمع المثالي المطلق لن يكون في هذه الحياة الدنيا.

ونقطة لا بد من ذكرها وهي المعاهدة فهناك من يعاهد زوجته شيئا ما، ويطلب منها ان تعاهده على ذلك، ولا ينقضون الميثاق، والتاريخ يروي ما اخذته زوجة المنصور (الخليفة العباسي) من عهد في الا يتزوج غيرها ما دامت على قيد الحياة حتى انه لم يتسر (اي لم يتخذ السراري والجواري) ولم يتزوج سواها، وفي المجتمعات الحديثة، هناك من يأخذ ميثاقا على زوجته، وتأخذ هي كذلك عليه عهدا ووعدا بالالتزام بالميثاق المتفق عليه،

وفي رأيي ان ذلك شيء ضروري في الحياة الزوجية، وجدير بتعميمه فالزواج رابطة مقدسة، وهي اولى بهذا العهد من الموظف الذي يؤدي القسم ويؤخذ عليه عهدا بكذا وكذا..عند بدء الانخراط في الوظيفة الجديدة.

البكارة

في اللغة: البكر (بفتح الباء، وسكون الكاف)، أول مولود لأبويه، والبكر للذكر والانثى، أول كل شيء، وكل فعل لم يتقدمها مثلها، وايضا: العذراء، ونجد الاهتمام بالبكارة، والفتاة البكر قد ورد بنص القرآن الكريم وذلك بتفضيل هذا الصنف من النساء على غيره، وقد ورد ذلك مرتان في سورة الرحمن حيث يقول تعالى: **(فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان)** اي لم يفتضهن احد قبلهم، وهن من الحور او من نساء الدنيا المنشآت، ويقول سبحانه وتعالى في نفس السورة **(حور مقصورات في الخيام، فبأي آلاء ربكما تكذبان، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان)**.

ويقول سبحانه وتعالى ايضا في سورة التحريم: **(عسى ربه ان طلقكن أن يبدله ازواجا خيرا منكن، مسلمات، مؤمنات قانتات، تائبات، عابدات، سائحات، ثيبات وابكارا)**.

فالبكارة التي تعني اول الشيء أو بدايته، هي بالنسبة للزوجين والعروس كذلك بداية هذه الحياة. والأول والبداية أمران لا ينساهما الانسان، وبذلك نجد اهتمام البدوي بالبكارة، وهم يرون ان الفتاة اذا نسيت شيئا في حياتها، فهي لا تنسى لحظة ازالة بكارتها اطلاقا ويقترن هذا الغشاء بالامور التالية: فهو نقطة البداية في حياة الفتاة، ولا تنسى من بدأ كما قلنا، وبالتالي فالعريس يهمه أن يكون أول رجل في حياة زوجته، لأنها بذلك تزداد به حبا، وتعلقا واخلاصا، كما أن البدو يعتبرون أنفسهم أصلا يبدأون الحياة كل يوم أو كل منزل من جديد حتى انني سألت بدويا ذات مرة عن سبب هذه التسمية، فقال: لأنهم يبدأون الحياة كل يوم بمنزل جديد، وبالتالي فهم يحبون البداية، وجاء اسمهم مشتقا من ذلك، وما البكارة الا بداية من هذه البدايات فعلا.

ويقترن غشاء البكارة ايضا بالستر لأنه حاجز الأمان، وحارس الأمان الذي لا يصح تجاوزه الا بالطرق المشروعة، فاذا زال فمعناه زوال الستر والسلاح القوي الذي تملكه الفتاة.

ويقترن ايضا بالشرف: فالفتاة الشريفة هي التي تحافظ عليه، أي انها لا تعاشر من الرجال الا زوجها، واذا وجده العريس مفضوضا فمعناه أنها غير شريفة، وهي بالتالي لن تحافظ على نسل الرجل، ولن تستره في بيته، وغيابه، ومن لا تحافظ على شرفها فالأولى عدم الاحتفاظ بها ايضا.

ويقترن ايضا بالدماء، والعنف والقوة، فلا يتأتى اجتيازه الا بعد مراحل من الحب والخطوبة والزواج، ثم الاستلطاف، ثم الاتصال الجنسي، وما الى ذلك، لذا فان الفتاة تخشى من كل هذا ليلة الزفاف، واذا لم يخرج الدم، فانها ستصاب بخيبة امل، كما أن

العريس لن يجعل الامور تمر بسلام...

ويقترن ايضا بقوة الفتاة، وقوة سلاحها، فطالما انها لا زالت بكرا تبقى معتدة بشخصيتها اعتدادا كبيرا. لأنه سلاح قوي تمتلكه. وبالتالي فهي تخاف فقدان هذا السلاح.

كما يدل افتضاض الغشاء على قوة العريس ايضا، وعلى حسن اختياره لانسانة شريفة.

وهكذا فهذه الأمور تجتمع معا في لحظة واحدة، ولا بد من الرمز اليها بتصرف ما، بلغة الصمت بحيث يفهم الجميع ماذا حدث، وماذا يدور، فلا بد من التدليل على شرف الفتاة، ووجود الغشاء، وقدرة العريس على الافتضاض، والسيطرة...الخ، ولا يكفي ان يعرف العريس ذلك بل لا بد وأن يعرفه الحضور ايضا، ومن هنا تبرز اهمية النوم بالثوب الابيض بالنسبة للعروس، حتى تبدو بقع الدم عليه، ويرتديه العريس في الصباح متباهيا بكل الرمزيات التي تدل عليها هذه البقع الحمراء على القماش الابيض (وهو الثوب)، وهناك وسيلة اخرى للرمز الى هذه المعاني وهي استعمال المنديل الصغير (محرمة) المنقوعة بدم البكارة، وتوضع هذه المحرمة على حبل بيت الشعر امام الرجال، والنساء على حد سواء،.. وأما في الوقت الحاضر، فان هذه الرمزيات أخذت تقل عن ذي قبل، فقد حلت مكانها اعتبارات اخرى، حتى ان بعض المجتمعات (غير البدوية) اصبحت لا تقيم وزنا لهذا الغشاء، المسكين، بل ان البعض يتحدثون عن الغشاء بانه اصبح نغمة قديمة (وبالطبع فمثل ذلك ليس صادرا عن البدو...).

والسؤال الان: طالما أن البدو يهتمون الى هذه الدرجة بغشاء البكارة، وطالما أن العلم أثبت ان هناك انواعا من الغشاء قد يكون متسعا بحيث تبدو الفتاة، وكأنها بدون غشاء، فكيف يمكن معالجة هذا الامر عند البدو وقد كانوا لا يعرفون عن هذا العلم شيئا، وقد لا يؤمن بعضهم به!!، ولكن سيئة الطالع التي تجد نهايتها المؤلمة هي التي خلقها الله هكذا خاصة اذا اقترنت برجل لا ذمة له، ولا حظ، فاذا وجد البدوي مثل ذلك بادر لسؤال الفتاة عمن فعل بها هذا؟ فاذا اقسمت له واغلظت الايمان أنها منذ (حبت حتى دبت)، (حتى دخلت) اي منذ طفولتها الى هذه اللحظة لم يمسها بشر سوى حلالها (اي زوجها)، وان هذه طبيعة خلقها، ثم يبدأ التحقيق معها عن قصة حياتها، فاذا ما اقتنع ان لاشية في الامر ستر وسكت، واذا لم يقتنع فهذا يعتمد عليه فمنهم من يسكت، ومنهم من يشهر الامر، ومنهم من ينتظر.

اما السكوت والاستمرار بالزوجية فقد يكون بالاتفاق بين الطرفين، ان تتوسل اليه الفتاة ان يستر عليها، وهنا قد يتركها على ذمته، ولا يمسها اطلاقا، وقد يطلقها بعد عدة اشهر، فتكون الامور طبيعية للغاية، وحول ذلك تزوج احد ابناء الشيوخ بفتاة فلم يجدها بكرا. فدخلت عليه ان يسترها، وكتم الامر، وبعد عدة اشهر قال لها: اذهبي لأهلك (زعلانة.. غاضبة)، وبذلك سترها، وتزوجت من اخر، ومضت الامور وقد اصبحت تعتبر الزوج الأول كأخ عزيز.

ومثل ذلك أن فتاة دخلت بشاب (ابن شيخ) أنها وقعت فريسة شاب ليس من مستواها وطلبت من ابن الشيخ ان يستر عليها، فتزوجها فورا (امام الناس) ولم يمسها، وانما فقط دخل عليها امام الناس، وبعد شهرين او ثلاثة طلقها ثم ولدت ولدا، ثم هيأ الله لها من يتزوجها، وارتاحت من موت محقق، ولا شك ان هذه المواقف الانسانية من بعض ابناء البدو تدل على مدى سعة صدورهم، وقوة اعصابهم، وحرصهم على الستر وتجنب الفضيحة، والحفاظ على الارواح، وحقن الدماء، والأجمل من كل هذا انه يبقى سرا بينهم.

أما إشهار الامر وفضحه فله اكثر من حالة: يدخل الرجل او العريس ويمارس مع عروسته ما يرغبه، فاذا وجد المكان المعد له منها متسعا، ولم يشعر انها تألمت كثيرا، او لم ينزف منها دم، اعتبر انه ليس الأول في حياتها، فيهرع فزعا الى القوم الذين (كما قلنا سابقا) ينتظرون النتيجة في الشق، على اعصابهم، ليروا مدى اختبارهم، واين مكان الفتاة من الشرف؟ فيقول: (لم اجدها بنتا)، لأن كلمة (بنت) في هذه العبارة وهذا الموقع تعني البكارة، وقد يقول: (ما وجدتها بكرا) او (البنت ما هي بكر) وبذلك نرى تجنبه لأي اتهام لها، فلا يقول كلاما مؤكدا، مثلا لا يقول: فيه ناس قبلي)، او (انا مه اول واحد)، وانما يقول كلاما يدل على عدم عذريتها، لأن ذلك قد يكون لسبب غير الممارسة الجنسية، فيقول له الحضور: (هز جيبك، وحط الله بين عيونك)، فيقسم انه صادق، وهنا تبدأ المصايب، ويتم نقل الفتاة معادة الى اهلها، وترافقها امها التي جاءت معها، واذا كان بيتها قريب تعاد بنفس الليلة، واذا كان بعيدا ففي اليوم التالي... وقبل أن يصيبها اهلها بسوء تبقى رهينة البيت تحت رقابة وحراسة شديدتين، حتى يثبت حكم القاضي، فاذا فرض الحق بعذريتها، نجت، واذا فرضه بالعكس هلكت وهلك اهلها.

والسؤال الان: كيف يستطيع القاضي تبرئة الفتاة رغم ادعاء العريس او الزوج؟!

والجواب: أنه يسأله عن استقبالها له، وعن كيفية استلقائها على المنام (السرير)، وعن مقاومتها، وعن أية ظروف نفسية وأوهام قد احاطت به قبل دخوله، وعن قرينه الذي علمه التعامل مع العروس، وعن سعة او ضيق المكان المعد له منها، وعن كمية الدم، لأن اية بقعة للدم اذا نزفت فذلك اثبات للعذرية، ويجب ان يؤتى بالثوب الابيض الذي يكون لباس العروس ساعة الممارسة، ومن هنا تبرز اهمية هذا الثوب، وربما تثبت البراءة من كلمة يقولها العريس انه خلع ثوبها الابيض قبل ذلك، فيعتبر القاضي انه بيت النية السيئة ويدينه لأن العرض بحاجة لأي نقطة لتبرئة ساحته، لما يترتب عليه من عار ودمار، ويسأل القاضي عن مدى حب العريس او كرهه لعروسه او اذا كان هناك ضغوط من اهله عليه لتركها. ثم يسأل اهلها اذا ما ركبت حمارا او قفزت جرفا لأنهم يعتبرون هذين الامرين يزيلان البكارة، ثم يفرض القاضي حكمه، فاذا حكم ببراءتها، فالنتيجة تكون كما يلي:

ما دفعه العريس من مهور وتكاليف يعتبر (هافيا) - اي لا يعاد اليه منه شيئا.

ويدفع مهرا جديدا لها، بمثابة مهر متأخر، ثم يصنع وليمة كبيرة يدعو اليها ذوي العروس ومن يرغبون دعوتهم، ويرفع راية بيضاء لبياض عرضها، وفوق هذا يطلقها فورا لأنه

ليس اهلا للزواج منها، وقد حدث مثل هذه القصص الكثير، وقبل سنوات دخل رجل بفتاة وهو في حالة سكر، وادعى عدم عذريتها فارسلت للطبيب الشرعي فثبت براءتها، وحكم القاضي العشائري بالحكم الذي ذكرناه.

اما اذا ثبت عدم براءتها، فالطلاق اولا، واهلها ملزمون باعادة كل ما خسره العريس بسببها من ثمن ملح الطعام، والرصاصة الى المهر، وبالطبع فان الفتاة قد تلاقي حتفها.

والحالة الثالثة هي الانتظار: ولكن القاضي يعتبر انتظار هذا الزوج اكثر من ثلاثة ايام رضى بالزواج منها، وأنها بريئة لاشية عليها، وتعتبر الفتاة بريئة، والعريس مفتريا، ولكن قد تصدف حالات تنهي هذه الموازين والتصورات: مثلا تزوج شاب من فتاة، وبعد خمسة اشهر ولدت في بيته، وجاء اخوته واهله يتداعون ويتراكضون، فقال لهم زوجها أن ذلك منه بعد ان كتب الكتاب (عقدة النكاح)، وان الأمر شرعي، فخاف اخوته من العار واصروا على الذهاب للقاضي، وذهبوا هناك فقال القاضي للرجل: (قلط الله ووخر الشيطان) فحلف الرجل انه لم يمسها الا ليلة الزفاف (وبذلك ظلم نفسه وظلمها)، فقال له القاضي: ان الحمار اذا جاء الى حمارة ووجدها حاملا تركها، فكيف بالرجل يجد امرأة في الشهر الرابع ويمارس معها الجنس اذا لم يكن هذا الحمل منه، فحلف الرجل انه بريء من اي فعل معها الا بعد الزفاف، فحكم القاضي بالطلاق. وباعادة جميع المكاليف التي خسرها بسبب العروس الى العريس، ولا شك ان اليمين عند البدو يعتبر امرا قاطعا، حتى ولو ظهرت البينات احيانا بما يخالفه، فاذا حلف الشخص، يعتبر ذلك الحل الذي لا حل بعده اطلاقا.

ولكن بوجه عام فالاصل ان يخبر العريس بالأمر فورا، كادنى حد، وأما اعلى حد فعليه ان يخبر بعد ثلاثة ايام، وما زاد فانه امر يساوره الشك والافتراء، الا اذا ثبت حملها او وضعها قبل الوقت المقرر، حينها يعتبر الامر جهلا من الزوج بهذه الامور، واحتراما من الزوجة في التمويه، وباختصار نقول: انه ليس مجرد اختلاق الكذب على الفتاة انها ليست عذراء يعني صدق هذا الاختلاق، بل لا بد له من المرور بمراحل من التمحيص والتحقيق، والذكاء البدوي، ولكنه بالتأكيد ينتهي الى الطلاق سواء اثبتت البراءة ام عدمها.

ومن خلال ما تقدم ندرك مدى اهمية الثوب الابيض الذي ترتديه العروس، واهمية دم الغشاء، واهمية غشاء البكارة، هذا الغشاء اللحمي الرقيق الذي قد يؤدي انعدامه الى الدمار كما قلنا، ووجوده الى البناء والأعمار، فسبحان الله الذي خلق كل شيء بقدر انه لطيف خبير.

كيف يغادر العريس البـــرزة:

بعد ان يخبر العريس قومه بعذرية العروس، وأنه ادى مهمته على مستوى

المسؤولية، يعود ثانية الى مخدعه، حيث يتناول طعام العشاء وعروسه، وما ذلك الا نوع من العيش والملح، والأمان المتبادل بين الطرفين، لذلك لم يكن هذا قبل البدء، فأكل الطعام يعني ثقة العريس وطمأنينته ان عروسه شريفة نظيفة، وبالتالي فهي تستحق الاحترام وما دامت حافظت على عذريتها وعهدها طيلة حياتها، فانها جديرة ان يعطي اليها العهد من شريك حياتها، وهذا يبدأ باللقيمات المشتركة بينهما، بالاضافة الى ان الطعام بحد ذاته قوت لهما، وهو ضروري بعد العمل الجنسي، وليس من الصحة ان يكون قبله، وبعد هذا يجوز للعريس ان يتمتع بزوجته ما شاء ان يتمتع، حتى الفجر، وعادة يكون الماء جاهزا للاستحمام، لأن في الاستحمام تنشيط للجسم، ومعاودة ممارسة الجنس ثانية، حتى اذا ما صاح الديك، والناس نيام تسلل العريس الى حيث الشق، الذي يجتمع فيه الرجال، والعريس النشيط القوي هو الذي يوقظ النائمين المتأخرين بنومهم، ليكون بذلك القائد الحقيقي لهذا الاحتفال (اخر من ينام، وأول من يستيقظ)، ويبقى بين قومه حتى انتهاء طعام القرى. وبعد الظهر يحق له الذهاب الى البرزة... اما لماذا هذا التسلل المبكر، فما هو الا رمز للستر الذي يطلبه لنفسه ولزوجته وانطلاقا من قوله تعالى: **(وجعلنا الليل لباسا)**، فهو من الليل الى الليل، كما ان الشرعية في الاجتماع بالعروس، وممارسة رغبته، ليست شرعية مطلقة، اي ان تصرفه يجب ان يكون محددا ومنضبطا، وبنظام، كما ان الانقطاع يجعل العروسين بشوق لبعضهما، كما أن العمل تحت ستار الممنوع يزيد من الرغبة، واللذة في ذلك، (فكل ممنوع مرغوب فيه)، بالاضافة الى المحافظة على الاخلاقيات العامة، واعطاء العروس فرصة لتستعد لاستقبال اترابها ومهنئاتها بالزواج السعيد.

لقد حدث كل شيء ليلا، (والليل ابو ساتر)، اي فيه الستر لاحتوائه الظلام واحتواء الظلام لما يحدث فيه.. وكأن اقتصار اللقاء الأول على الليل يرمز الى انه كأن شيئا لم يكن فالمهم تحقيق الهدف، وليس المهم التباهي بتحقيقه الا عن طريق دم البكارة واثبات العذرية، والشرف الذي تتمتع فيه هذه الفتاة، كما ان الخجل من الدخول على انثى خاصة في النهار او من الانثى بالسماح لرجل بالبقاء عندها شيء كان منكرا، وان اصبح مشروعا بموجب العادة والعقيدة، ولا يمكن للأمور ان تصل الى حيث المطلوب دفعة واحدة، بل لا بد من التدريج... وتدخل ام العروس عند ابنتها بعد خروج العريس مباشرة وربما قبل ذلك، وتستوضح من ابنتها عما حدث معها الليلة الماضية، والتي بدورها (الأبنة) تقص عليها كل ما حدث لتستنير برأيها وتوجيهاتها في كيفية التصرف، ومعاملة الزوج، او السيطرة عليه، او ما الى ذلك... كما يجتمع الى العريس اقرانه واترابه من الشباب يسألون عن الليلة؟ وكيف قضاها؟! وماذا حدث له ولعروسه؟ ومنهم من يخبر بكل شيء، ومنهم من لا يخبر بشيء الا الأمور الخارجية.

ثم تقبل الفتيات من اتراب العروس يستوضحن ايضا عما حدث لها، وتخبرهن بما تستطيع حيث يتفاوت الامر من فتاة لاخرى، ومن عريس لاخر، ولكل زواج فهذا شأن الله سبحانه في خلقه، تنوع هذا الخلق.

وكانت توجد عادة لدى بعض العشائر الاردنية المستقرة حول دخول العريس على عروسته ان يفعل ذلك بسرعة بينما خارج الغرفة او البرزة عدد من الشباب والرجال يستحثونه ان يفترسها فورا، ليتأكد من بكارتها، ويبلل المنديل الابيض بالدم ويخرج اليهم فرحا بما وجد ويأخذه القوم وهم يحملون المنديل ويزغردون، وكان الدنيا لا تتسع لهم لفرحتهم، ويعلنون صحة عذرية العروس وقوة العريس في نيل مراده بسرعة وقوة، وقد اخذت تتلاشى هذه العادة منذ الستينات من القرن العشرين، وأما ما ترمز اليه فهي: اختبار لقوة العريس، في تحقيق هدفه، وأما وجود المشجعين من (ربعه) - جماعته - فذلك لطرد الخوف، والشكوك التي تساوره وسبق ان تحدثنا عنها، فالخوف يتحول ليس من الجنس او العروس او الناس، وانما يتحول الى خوف من جماعته، الذين لن يتوانوا عن طرحة ارضا اذا قصر في تنفيذ المهمة، ولا شك ان هذا التصرف بعيد عن اللطف والذوق والانسانية، ولا يحدث الا لدى المستقرين لأن شيم البدو المتنقلين تأبى عليهم ذلك، ولا اريد الاطناب في انتقاد هذه العادة السيئة.

وسبق ان ذكرنا عادة هروب العروس من امام العريس لمجرد دخوله، وهي عند بعض الاعراب، وكلا الامرين (لدى الاعراب، والمستقرين) يلتقيان في انعدام الذوق، رغم أن هروب العروس يرمز الى ضرورة ان يكون العريس قويا، وقادرا على اللحاق بصيدته وافتراسها حيث يجدها، وأنا اتساءل الان: ترى ما هو الفارق بين هذا وكلب الصيد الذي يلحق بطائر او غزال ثم يفترسه حيث يلحق به؟! وأتساءل: لو كان العريس مريضا او كبير السن او ضخم الجثة او اعرج او ليس من النوع الشرود ولا من هواة الركض، بينما عروسه من الراكضات فأين مصيره امامها؟ بل للاسف ان لها الحق في هذه الحالة ان تعود لأهلها وتعتبر مطلقة لأن عريسها ليس كفؤا لها، فلم يلحق بها ولم يفترسها، وهكذا يتقرر مصير العريس في اول ليلة فاذا عجز، فقد عروسه وذهب عليه مال، واعتبرت طالقا؟!!

واتساءل ايضا: لو لدغت احدهما افعى وهو يركض هاربا، فما هو مصيره؟! - صحيح ان هذه فرصة اخيرة للفتاة في رفض عريسها، والهروب منه، ولكنها وسيلة اقل ما يمكن وصفها أنها بعيدة عن الذوق والاخلاق، فهناك وسائل اخرى تستطيع اي بدوية ان تعبر فيها عن رفضها لعريسها، واذا فشلت حينها ارى ان هروبها في هذه الليلة يعتبر امرا مشروعا، وأنا معه تماما، أما اذا لم يكن له مبرر فانه عمل سيء، ولا يحيق المكر السيء الا بأهله؟!!

وكانت بعض العادات عند العشائر المستقرة ان ترفع المنديل الابيض المبلل بدم البكارة - ترفعه - على عصا، وتضعه على طرف البيت، ليراه الجميع، وما هو الا رمز ولغة صامته للتعبير عن الأمور دونما كلام، وأنه بياض عرض ووجه للعروس انها قد حافظت على الامانة.



الفصل الثاني عشر
في يوم أُلْقِرَى

الفصل الثاني عشر

في يوم القرى

ويلفظ عند البدو بالقاف الخفيفة، او بتحويل القاف الى جيم، وهو خاتمة المطاف بالنسبة لافراح الزواج المتواصلة، حيث يقدم الطعام، وبعدها (اذا طعموا انتشروا) ليتحدث كل واحد عما رآه وسمعه، واذا تصورنا معركة حربية او غزوة بدوية، وقد استعدوا لها ثم اغاروا على الهدف وانتصروا فانهم يجتمعون ثانية (في نقطة تجمع معينة، لدراسة حساباتهم، والتحدث عن انتصارهم، ويهنئون عقيدهم او زعيمهم وشيخهم بهذا الانتصار، ويأخذ كل واحد حصته من الغنائم، ويعود فرحا، بما فعل ورأى ويتحدث عن ذلك لغيره، واما هنا في الافراح، فان كل واحد يأخذ حصة بما يدفعه للعريس، ويهنئه بالزواج، ثم يتناول الطعام الذي هو بالاضافة الى كونه طعاما للفرح، والسرور، واكراماالقوم، وافتداء واضحية، للشرف الذي حافظت عليه العروس، فهو ايضا عهد بين العريس وقومه انهم لن يتوانوا عن نصرته، وكأنه اخذ عروسته بالقوة، ويخشى عليها من الاعداء او من اهلها ان يعودوا الى اخذها منه بالقوة ثانية، فهو يحتاج الى من يدافع عنه ويحميه، وخير من يقوم بهذه المهمة من الناس، اقاربه، وهذا الطعام عهد صامت، ورمز الى العهد في ان يؤدي، كل واحد واجبه تجاه الاخر..ويعزز هذا الدليل على الرمزيات التي قلناها تلك الاعمال الحربية، والفروسية التي يمارسها القوم يوم القرى، حيث الصابية (اللعب على الخيل)، وحيث اطلاق العيارات النارية - وقديما كانت المبارزة بالسيوف، والتسابق بين الرجال ركضا، وما هذا الا استعراض للقوة، وتدعيم للروح المعنوية، وبث الاعتزاز بقوتهم في انفسهم، بالاضافة الى انه تمرين لهم، بل وفرصة للتباري، ومعرفة الاقوياء الجديرين بالفروسية... وتمرين على كيفية استعمال السلاح بجدارة ايضا... كل هذه الاعمال هي بالتالي لصالح الفرد والقبيلة معا، وهي امور لا بد منها تفرضها بيئة الصحراء على سكانها، بل انها احدى الحتميات لهذه الحياة.

ويحرص البدو على حضور يوم القرى والزفاف، بل ان من حضر الزفاف غالبا ما يحضر القرى ومن هنا كانوا ينظمون زواجهم اذا صدف زواج اكثر من واحد بنفس الوقت، فيتفقون على تأخير هذا او تقديم ذاك، بحيث تتاح الفرصة للجميع للمشاركة في اعراسهم، وتتاح لهم الفرصة في ان ينعموا بمشاركة اقاربهم ايضا... وأما الان فالامر يختلف، حيث ازدادات اعداد الناس، واصبح، من السهل المشاركة في اكثر من عرس بيوم واحد، لامكانية المواصلات، ولضعف المعنى الرمزي للتجمع والمشاركة عما كان عليه من قبل. ويبدأ القوم بالتوافد الى الشق، بينما تتوافد الاناث الى البرزة..وكلما حضر

واحد سلم على العريس وهنأه، وعانقه، وتمنى له النجاح والتوفيق في زواجه...وكلما وصلت انثى الى العروس صافحتها وعانقتها وهنأتها وتمنت لها الخير والسعادة في زواجها ايضا.... بينما يلمس بعض الشباب العزاب اثواب العريس، وتفعل الفتيات كذلك مع العروس، وذلك تفاؤلا، واملا في ان ييسر الله لهم ولهن الزواج، ذلك ان التفاؤل والتشاؤم شيء في طبيعة الانسان وذاته.

وبعد ان يستكمل حضور القوم، توزع الحلوى على الرجال من عند العريس، وعلى النساء من عند العروس حيث تكون قد جلبته معها من بيتها، ويوزع على الاطفال من عند الطرفين، واذكر انهم كانوا يضعون الحلوى وهي (من الملبس والتوفة، او الكعيكبان، او الراحة) في صحن كبير يحمله رجل او اثنان، يدور به على الحضور ليأخذ كل واحد ما يروقه، ولا يتقيدون بحبه او اثنتين مثلما هو في المدينة، بل يأخذ واحدهم (كمشة)، اي ملء قبضة يده، ويضعها في جيبه، ويأكل منها ما يأكل، ويحمل منها الى بيته ما يحمل، لأن هذا (الفرح) مصدر تفاؤل، وفي اخذ اي شيء منه للبيت مدعاة للفرح، ومجلبة للسرور، واذكر ايضا انهم كانوا ينثرون ويبعثرون الحلوى للاطفال على الارض، ليهرع، ويلتقط كل واحد منهم ما استطاعه، ولا زالت في ذهني العديد من هذه الصور حيث شاركت في التقاط الحلوى كطفل، وفي نثرها ايضا بعد تجاوز تلك المرحلة. ولم يكن احد يفوقنا سعادة ونحن نجمع حبات الحلو المجبولة بتربة الوطن فنأكلهما معا، واصبحت هذه التربة العزيزة جزءا من طعامنا، ودمائنا، فلم يعد حبها مكتسبا او تقليديا، بل اصيلا ومجبولا بارواحنا، ودمائنا؟!!

ولا شك ان توزيع الحلوى، رمز للمحبة، والحلاوة، واللذة والخير، وتوزيع هذا على الحضور كما انه مشاركة من العروسين لهم، ومشاركة لهم من العروسين اللذين عاشا ليلة نعيم حلوة، واعطيا من نعيمها وحلاوتها لكل من حضر قطعة حلوى، وكأن القوم بذلك قد شاركوا العروسين لذتهم، وليس عيبا في الافراح ان تكون هناك بعض الفوضى في الأكل، او طلب الحلوى والطعام، لأنه مناسبة الجميع، فيقولون (هذا فرح اللي ما يطوله يسرقه) ولا زلت أتذكر كيف كان يلجأ بعضهم الى اخذ الفناجين، والكاسات (مفردها كأس)... كتعبير عن الكسب من هذا الخير، ولا عقاب على من يأخذ ذلك لأن المناسبة تجيز ذلك، ولو كان هذا التصرف في غير هذا الوقت لعدت سرقة لا يفلت فاعلها من العقاب.

وأما ما يحدث يوم القرى فهو ما يلي:

تواقد القوم نساء ورجالا الى بيت الفرح، والبرزة

العاب الفروسية، واطلاق العيارات النارية على اهداف محددة، كما كانوا يلعبون الشارات.

صنع طعام القرى للحضور.

الانتشار بعد وجبة طعام الغداء.

العريس يستطيع اخذ قسط من الراحة في بيته الجديد (البرزة) وان يحقق رغبته مع عروسه.

الرقص الفروسي والمبارزة بالسيوف احيانا.

فرحة الاناث والغناء عند العروس التي يقتصر دورها على الاستماع والمشاهدة بدون المشاركة بالحركات.

توزيع الحلوى على الرجال والنساء والاطفال.

العريس يقضي الوقت حتى الغداء بين الرجال في الشق.

يوم القرى هو استراحة المحارب بالنسبة للمشاركين في الزفاف، وبقية ليالي السامر.

ونتحدث عن كل نقطة من النقاط الواردة والله المستعان وعليه توكلنا.

وأما عن توافد القوم نساء ورجالا وتوزيع الحلوى على الرجال والاطفال، فقد تحدثنا عنها، وأما البقية، فلا بد لها من نصيب تستوفيه، **فالعاب الفروسية** لا تشمل (الصابية) وركوب الخيل والأبل فحسب، بل المبارزة بالسيوف، المسمى عندهم (الدرج) بتشديد الدالوفتحهاوتسكين الراء. وما هذه التعبيرات الا رمز للفروسية وتمرين عليها، والتأكد من دقة اصطياد الهدف، وبالتالي يصبح البدوي مؤهلا اكثر في حماية الدار والذمار (والحلة والمحلة)، تماما مثلما هو الامر في تأهيل الجند في التدريب والمناورات من اجل خوض المعركة بكفاءة عالية، وأذكر انهم كانوا احيانا يلعبون الشارات وهي نوع من العاب التسلية حيث تنصب اربعة عشر حجرا في صفين متقابلين يضم كل صف منهما سبعة احجار، وامام كل صف منها حجرا صغيرا يسمى (القرد) ويجب اصابته قبل البدء باصابة السبعة، وحتى ان اصابة اي منها قبل ضرب القرد وطرحه ارضا، لا تعتبر اصابة صحيحة، ويعاد بناء الشارة.

ويبدأ اللعب بعد نصب هذه الحجارة، بالقرعة حيث يوضع بصاق وتراب على وجه حجر صغير مسطح، ويكون كل وجه منهما لاحد الفريقين، ومن تقع عليه القرعة يبدأ اللعب وطالما انه يصيب هدفه يحق له مواصلة اللعب، والا لعب نده الذي اذا اصاب واصل لعبه والا توقف اذا لم يصب، وهكذا حتى تنتهي الشارات جميعها[1].

واما اطلاق العيارات النارية فيكون بنصب منديل او حجارة، او راس شاة مذبوحة، ويبدأ اطلاق النار المنظم من مكانه يبعد مسافة موحدة عن الهدف، وللمنتصر او الفائز جائزة تحدد سلفا: مثل رأس الذبيحة، او اي شيء يتفقون عليه، وما ذلك الا دوافع تشجيعية لهم، ليكونوا اكثر دقة في اصابة الهدف.

وأما صنع الطعام: فيقوم به ذوو العريس، سواء انحروا الابل، والجزر (مفردها

---

١)ربما رمزت الشارات الى عدوين متقابلين، يقود كل منهما (عقيد – اي قائد)، ويجب القضاء على القائد قبل اي فرد من المقاتلين لانه هو العنصر المهم في المعركة، واذا سقطسقطت الفرسان الاخرى، (وربما دل صغر الحجر القرد) على صعوبة قتل القائد والظفر به، لا لصغره وانما لموقعه واهميته وفروسيته، هذا بالاضافة الى التمرينات للاعبين، وتدريبهم على الانضباطية.

جزور)، ام البقر، ام الغنم ام الماعز ام ما الى ذلك. وتكون هذه من مواشي العريس وذويه الخاصة، وربما تكون على شكل مساعدات من الاقارب، او قوايد (مفردها قوادة) (اي نقوط من الماشية) من الضيوف الذين يكرمون العريس برؤوس من الماشية بدلا من دفع المال.

ويبدأ رجال متخصصون تعهد اليهم مهمة الذبح والسلخ والطبخ، يبدأون عملهم منذ الصباح، بينما تقوم نساء بالخبز، واخريات بمرس الجميد (اي تحويل اللبن اليابس الى لبن سائغ سائل)، ويعتبر طعام الرجال عند البدو اكثر لذة، واجود طعما من طعام النساء، لذلك يقوم الرجال بهذه المهمة، ممن يجيدون الطبخ، لأن بياض الوجه للجميع، بل انه ضرورة ملحة لا يجوز التخلي عنها اطلاقا، وعادة يبنون بيتا صغيرا يضعون فيه الطعام بجانب بيت الفرح، وربما في ظل شجرة فالمهم توفير الظل للعاملين وللطعام.

وكانوا يقدمون طعام الفطور للرجال الذين باتوا في بيت الفرح، ولم يستطيعوا الذهاب الى بيوتهم، ويكون الفطور اما (معاليق الذبائح) او (من لحمها) ولكن على شكل الشوي، او الصاجية – وهي وضع اللحم في الصاج على النار وهي بين الشوي والطبخ)... وليس المهم تقديم الطعام للقوم فحسب بل وتقديم العلوفة للرواحل، فالبدوي لا يرتاح اليك مهما اكرمته اذا لم تكرم راحلته، بل انه يهتم بها اكثر من اهتمامه بنفسه فهي رفيقة دربه، ومطيته التي تنقذه من الشدات والعسرة.

وأما الطعام فيتم تقديمه دفعة واحدة كغداء، فدائما طعام القرى يكون غداء لأنها وجبة في وسط النهار يستطيع القوم ان يجدوا بعدها في البحث عن اهلهم، اي العودة الى بيوتهم، وتكون الطورة الاولى للضيوف الابعد، والثانية للاقرب، والثالثة للمعازيب والرابعة يتم تصليحها لتقديمها للنساء، واحيانا تكون الثالثة، كما تقدم بعض المناسف للاطفال. وكنا كاطفال نشعر بالغبطة والسعادة عندما كانت تتاح لواحدنا الفرصة ان يكون احد افراد الطورة الأولى.... ثم ينتشر القوم بعد تناولهم الطعام وقد يبقى بعضهم من ذوي المنازل القريبة بحيث يسهل مجيئهم او رواحهم او من ذوي المنازل والمضارب البعيدة، وهؤلاء قد ينتظرون قدوم صباح اليوم التالي بدل البحث عن معازيب جدد، او يرتضون الرحيل ليحطوا رحالهم حيث وصلوا.

وللعريس ان يتناول مع الضيوف، او يصنع له شيء خاص به، كما يجوز له تناول طعام الغداء، وربما ينتظر لتناوله مع شريكة حياته، وكذلك تنتظره هي او تأكل مع اترابها، ومن حق العريس ان يرقص في فرحه، وان يبارز بالسيف، وان يلعب الفروسية، رغم انهم لا يسمحون بذلك غالبا خوفا عليه، واما العروس فليس من حقها الغناء او الرقص وان كانت بعض المجتمعات المستقرة تجبرها او تسمح لها بالرقص امام زميلاتها، لتظهر بعض مهارتها ومفاتنها، او للمجاملة او البحث عن الشهرة.

كما لا يجوز لها عند البدو ان تغني، كما ان البدوية تستحي ان يذكر امامها اسم عريسها، واذكر عندما كنت طفلا ارافق والدتي الى الحفلات عند العروس يوم القرى حيث كانت الفتيات يغنين، وعند ذكر اسم العريس كانت العروس تحاول اغلاق

افواههن، ولا تريد من احد ان يذكر اسمه، وبالطبع فهذا من امور الحياء كما انه يأتي ضمن الانانية في التمني الا يعرفه احد سواها، وتخشى ان يفلت من يدها واما ما تغنيه الفتيات عند العروس فهو من نوع اللحن الخفيف السريع، واقف هنا عند الذوق الرفيع للانسان البدوي في عزف الالحان، وتذوق الموسيقى، حيث يختار الالحان حسب الحركة، والمناسبة، والوقت من الليل والنهار، من يعجز امامه محترفو الاعلام في اختيار الموسيقى والاغاني المناسبة للمستمع في الاوقات المختلفة من اليوم والليلة، فالعروس والفتيات لا بد لهن من الحماس، والفرح، والتعبير عنهما، لذا تأتي الالحان خفيفة وسريعة، واحيانا مع الطبلة التي تأتي بها النوريات (مفردها نورية – اي غجرية).

وتشتمل الاغاني على كلمات مدح للعروسين واهلهما، ولجمال العروس، وفروسية العريس، والدعاء بالتوفيق لهما، وكلمات الغزل والحب، والفراق واللقاء ومن ذلك:

عانننـــــي عانننـــــي، فراق الحبايـــــب راح يجنـّني
واطلبـك ربـي يا رب تعنـي، توفـق (فلانـة) ومـا يخيـب ظني

واذكر ان النور كانوا يشاركون في رقصات يوم القرى عند النساء والرجال، حيث ترافقهم الربابة والطبلة، ورقص نسائهم امام الرجال والنساء، مع الغناء بالغزل او مدح (فلان) او (علان) وبذلك يقضي القوم رجالا ونساء فترة من الوقت في الاستماع والمشاهدة لوصلة غنائية جميلة، قبل مشاهدة وصلة الفروسية، واطلاق العيارات النارية، وربما بعد ذلك، لكن كل هذا قبل تناول طعام الغداء وأما عن وصف الرقص النوري (الغجري) في القرى فاستطيع وصف ما اتذكره من عدة مجالس وافراح حضرتها في طفولتي وبداية شبابي:

بعد ان يكتمل توافد القوم الى الشق، والنساء الى البرزة، يأتي (النور) الذين يهرعون الى حيث تقام الافراح، لأن هذه فرصتهم في كسب المال، فاما ان يرحلوا ليجاوروا اهل العريس او يأتوا من مكان اخر بدون رحيل، وغالبا يرحلون للمجاورة[1] منذ بداية الافراح، بحيث يحجزهم او يفصل بينهم وبين بيوت البدو حاجز او فاصل: كالوادي او الجبل، لأن اعمال (النور) القذرة لا تؤهلهم للجوار، والبدوي يخشى على اولاده، ذكورا واناثا، وعلى سمعته، وعلى شرفه من ان يجاور (النور).

ويأتي النوري ومعه ابنته او زوجته او امه، او اخته، وربما يأتي اكثر من واحد وواحدة، ويجلسون قليلا، ثم يبدأون بالضرب على الدف (او الطبل)، وتبدأ احدى نساؤهم بالرقص على الطريقة الشرقية، وتغني، بينما يرد عليها عازف الربابة، وقارع الدف، وتتضمن الاغاني مدحا، وغزلا، وحزنا، وفرحا، واعترف انني كنت كأي بدوي اطرب لتلك الاغاني الجميلة التي تفوق في روعتها ووقعها الكثير مما نسمعه اليوم من

١) المجاورة: اقصد فيها حط الرحال قرب البيت بما لا يقل عن نصف كيلومتر، وذلك لأن للنور حياتهم القذرة التي لا يقبلها البدوي ولا ان تكون في جواره، وعادة يفصلهم عن الناس، (وادي او تلة)، وذلك لفتح خرابيشهم لمن تسيطر عليه شهوته في اخر الليل، حيث عادة النور استقبال الجائعين للجنس، مقابل دريهمات ولا يقبل البدوي ان يحدث هذا بجواره.

الفنانين المحترفين...وكلما رقصت النورية (انثى النوري) قليلا جلست على ركبة ونصف امام شخص، وتهز بخصرها وجسمها امامه، مع ابتسامات تجارية، تسحر الانسان البدوي البسيط، وعليه ان يعطيها بعض النقود، واذا كانت قليلة طلبت الغجرية مزيدا منها دونما حياء، وبعد ان تأخذ نصيبها تقول: يخلف على فلان او ابو فلان، ويردد القارع والعازف ما قالت وذلك تشجيعا للاخرين في الا يتوانوا عن الدفع، واذكر ان النورية كانت لا تتوانى عن سلب ما تستطيع من جميع الجالسين، ولا يفلت منها الا (طويل العمر – كما يقولون)، وبعد ان ترى انها سلبت الجميع، تظاهرت بالتعب، وجلست، وربما غنت بدون رقص بعد ذلك، لأنه لا فائدة من الرقص حيث الجميع قد دفعوا ما دفعوا، كما ان الرقص ما هو الا وسيلة لسلبهم، واستعطافهم، واثارة الحماس والشهوة فيهم بحيث لا يتأسفون عما دفعوه... ويجوز للنور شرب القهوة.

واذكر ان النور كانوا احيانا يتفقون مع شخص من (الزعران – ممن هو على شاكلتهم) في ان يبدأ بالدفع امام الجميع، بمبلغ محترم، ليضطر الاخرون للدفع بما يقارب المبلغ على الاقل، وبعد الانتهاء من الحفل يستعيد ما دفعه وربما اخذ نسبة من المجموع او على الاقل يجد الاحترام لدى هؤلاء النور بقضاء حاجته ووطره مع اي واحدة من نسائهم يحلو له الفعل معها.

وأذكر ايضا انه كان يجري احيانا دفع النقوط للنورية بدون ان تجلس امام اي واحد، وانما يقف احد النور ليستلم المبلغ من اي واحد يرفع يده، وينادي هذا النوري قائلا: كثر خير فلان او يطول عمر فلان دفع كذا وكذا، وكما هو الامر في اي نادي ليلي حيث يدفع بعض المهووسين للراقصات، ويحاول بعضهم اقناع الراقصة في مرافقته بقية ليله بعد الحفل لقضاء ما يريد معها فان الامر نفسه يحدث في مضارب البدو.

وأما في البرزة: فتجتمع الفتيات، وتأتي (النورية) لترقص على انغام الدف فقط بدون ربابة، وذلك لان عازف الربابة يكون رجلا، ويحظر عليه الوصول هناك، وبمقارنة بسيطة بين ما يجري عند البدو، وفي المدينة تجد البون الشاسع، ففي المدينة يسمح للرجال والنساء ان يختلطن، وان يغني المغنون والمغنيات، ويرقص الراقصون والراقصات امام النساء والرجال أو يرقصون رقصا مختلطا، مما يعطي المجال ويهيء الفرصة للانحراف والسوء، وهذا مخالف للذوق والاصالة والشرف... اما عند البدو فان النوريات فقط هن اللواتي يرقصن عند النساء، بينما يسمح للنور ذكورا واناثا ان يرقصوا امام رجال البدو، ورغم ما في هذا من السوء ايضا، الا ان المجال مقفل امام البدوية في ان تعجب بنوري او راقص او مغني.

والنورية في البرزة تتبع اسلوب زميلتها في الشق، بسلب النقود من النساء الحاضرات، وتغني معهن، ويغنين معها، وربما تكون الفرصة الوحيدة للنورية، والبدوية على حد سواء ان يغنين معا، (والبدوي ينظر للنوري عادة (على مستوى الذكور والاناث) نظرة احتقار وازدراء وانه فاقد الشرف والكرامة، ودونه بدرجات ومنازل كبيرة وكثيرة،

وانهم وجدوا للمتعة سواء في امور الجنس او الطرب، او في امور صنع بعض الاشياء الضرورية للبدو، مثل السلاح الابيض، المهابيش (مفردها مهباش وهو الجرن الذي تصحن فيه القهوة) وتبييض الاواني وصنع الغرابيل (ومفردها غربال وهو الذي يتم بواسطته تنقية القمح قبل طحنه)...الخ

ويقتصر دور العروس في هذه المشاهد بالصمت، وربما بالابتسام، ولا تستطيع ان تتصرف اي تصرف يثير انتباه الأخريات والاخرين بالانتقاد، بينما عريسها في الشق ينتظر بفارغ الصبر انتهاء وجبة الغداء، وله الحق في الاشراف على الطعام واذا غضب احد المعازيب وراضاه العريس فعليه ان يرضى، لأن جاه العريس لا يرد في يوم عرسه، فالحفل كله من اجله، وهو سيد الموقف.

وفاتني ان اقول: ان كل من يصل من الرجال الى الشق، يجب ان يصافح العريس ويعانقه، ويهنئة ويدعو له بالزواج الموفق، وكذلك تفعل النساء بالسلام على العروس... وعلى العريس ان يبدأ يومه بالسلام على والديه وتقبيل ايديهما، ليدعوا له بالتوفيق والنجاح، والرضى عليه ثم يجلس في موقعه ليسلم عليه الناس، واذا تأخر في البرزة، فيجب تنبيهه من قبل (قرينه) او صديقه الذي لقنه الدرس قبل دخوله بالعروس.

واما اللعب على الخيل كما يسميه البدو، ويسمونه ايضا (الصابية) فيأتي قبل الغداء ايضا، حيث يخرج القوم الى اقرب مكان سهل وصالح للسباق، وفي البداية يكون اللعب العشوائي اي ان كل واحد على فرسه يلعب كيفما يطيب له، ثم يبدأ التنظيم، والتحديات الثنائية، والجماعية، وتجد القوم في حماس كبير، وتنطلق الزغاريد، والعيارات النارية تشجيعا للفائز، ويقال: فرس فلان سبوق (اي تسبق غيرها، وسريعة الجري) بينما توصف الفرس العاقب (اي المتأخرة) بسوء نوعها، وضعف حياتها، وهذه مسؤولية الأصل الذي تنتمي اليه ومسؤولية صاحبها في عدم الاعتناء بها، وتدريبها.

وقد يتم السباق مقابل شرط معين، ويجب الالتزام بتنفيذه وبعد ان تنتهي الصابية يعود القوم الى الشق، وقد تعبوا، وتعبت خيولهم، حينها يستحقون وجبة غداء دسمة، تلك هي الجاهزة في يوم القرى.

ان العديد من هذه الالعاب تتم بعد الغداء ايضا، هذا اذا كانت منازل القوم الحضور قريبة من موقع الافراح، وليست هنالك ارتباطات عمل، ولا حاجة للسير بعيدا عن المكان لكي يصل كل الى بيته، كما ان الرجال والاطفال جميعهم يشاهدون هذه الصابية واحيانا يتعصبون لصالح هذا الجواد او الفارس او لصالح ذاك، اما اذا ارادت النسوة مشاهدة هذه الفروسية الجميلة فيحق لهن، ولكن في مكان منعزل عن الرجال.

وأما تقديم الغداء، فيكون بعد كل هذا التعب، حيث يتم حمل الماء في اباريق ليغسل القوم ايديهم، ثم يؤتى بالطعام في المناسف، وتوزع على المجلس، ويصطفون حولها، ويأكلون نصيبهم، وفي ساعة خروج المناسف الى الشق، تنطلق الزغاريد، والعيارات النارية ابتهاجا بذلك، فما هذا الا خاتمة المطاف، وقد انتهى كل شيء على خير ما يرام، فيستحق اذن زغرودا، وعيارا ناريا، واكثر من هذا، وللعريس ان يأكل من

الصحن الرئيسي الذي عليه الراس، وله ان ينتظر ليأكل وشريكة حياته في البرزة، وهو مخير في هذا...

وبعد انتهاء الأكل يغسل القوم ايديهم، ويشربون القهوة، ويبدأون بالاستئذان بالعودة الى بيوتهم على المبدأ الاسلامي (فاذا طعمتم فانتشروا)

وبعد كل هذا تغادر النساء البرزة، ويتحرك العريس اليها، وله ان يبقى هناك حتى بدء التعليلة حيث عليه ان يحضر قليلا في الشق ثم يذهب للنوم في برزته... وفي اليوم التالي يحق له التأخر بالنوم، وله ان يذهب في اي وقت يشاء الى برزته او الى الشق، وبعد ثلاثة ايام يجب على العروس ان تخرج الى بيت العريس، حيث تشارك امه واخواته العمل في العجن والخبز، وجمع الحطب، وجلب الماء، ولكل واحدة رمز وسبب، فهي الان تنضم الى اسرة جديدة لتكون احد اعضائها، وعليها ان تثبت موجوديه، على مستوى الزوج والعائلة، والاتراب والناس، خاصة وان الحديث عن العروس شيء محبب الى الناس ليروا مدى نشاطها وحسن رعايتها او العكس، وهذا ينعكس على سمعتها، وسمعة اهلها، وشقيقاتها اللواتي قد يجدن الخطاب بسرعة او يعزفون عنهن بسرعة وذلك من خلال تصرف هذه الفتاة التي تعتبر نموذجا لأهلها جميعهم.

فالعروس تصنع الطعام لزوجها، وتعتني به، وبملابسه وتحترمه وبذلك تجلب له السعادة، ليشعر بقيمة الحياة ومدى تغيرها نحو الافضل، ثم يتوسع الواجب الى الاسرة (اهل العريس) وبذلك نرى اهمية انتقالها هناك، تعجن، وتخبز، وتطبخ، وتخدم اعمامها (والدي العريس) وتتمرن بذلك بالاندماج، والتمازج مع البيت الجديد، لتصبح جزءا لا يتجزأ منه.

وبعد هذا فعليها ان تذهب لجلب الحطب والماء حيث تلتقي باترابها اللواتي يحكمن عليها من خلال تعاملهن معها، ويبدأن بالحديث على نطاقهن عما شاهدن منها، وعن ارائهن فيها... وبذلك نرى ان مركز الدائرة يبدأ مع الزوج مرورا باهله الى الناس في المجتمع الكبير العام، فاذا مدح العريس زوجته لأهله اوللناس، او مدحها اهله لزوجها او للناس، او مدحها الناس للناس وللعريس واهله، كان ذلك من خلال التجربة العملية معها...

وهكذا تكون اراء البدو اكثر دقة وامانة وصحة، ونرى كم هو فارق كبير بين البدوية التي تثبت موجوديتها من خلال عملها ليس عند زوجها فحسب، بل وفي المجتمع كاملا، والاسرة ايضا وبين تلك ابنة المدينة التي لا تهتم الا بنفسها، وربما تستعمل الخادمة لانجاز ما يترتب عليها فعله، هذا اذا لم يقم الزوج الموقر نفسه بالمهمة... واستطيع القول ان ما تفعله العروس البدوية ما هو الا تجربة عملية ميدانية لها لاثبات هذه الموجودية في مجتمع لا وجود فيه الا للعاملين الاقوياء بجدارة وحق.

وتعمل العروس كل هذه النشاطات خلال الاسبوع الاول وهي ترتدي ملابس (العرس)، وذلك لتمييزها عن الاخريات، بل انه يمكن معرفتها فورا حتى ممن لا يدري بها مجرد ان يراها، حتى ان الفتاة اذا لبست الزينة وذهبت للماء او الحطب، او مارست

العمل البيتي قيل: هذه اليوم عروس او انها تفكر بذلك..

والسؤال الان: **متى تنتقل العروس من البرزة الى بيت والد العريس؟ او الى البيت الرئيسي** الذي هوالام، والكل، وهذه (البرزة) جزء منه يترتب عليه العودة للالتحاق به؟!

والجواب: هو انه بعد الايام الثلاثة الاولى، وهي ايام الضيافة (ثلاثة ايام وثلث) وفيها يعاملون العروسين، (وبالذات العروس) كضيوف يقدمون لهم الماء والطعام، ويعفونهم من ممارسة اي عمل مجهد او شاق، فيكفي عملهما الذاتي في هذا؟! وخلال اليوم الثاني والثالث يحق للعروس ان ترافق ام عريسها او من ينوب لزيارة (المحرم – موضع النساء) من هذا البيت، ولا تشارك باي عمل، سوى انها تنظر وتسمع، لتأخذ فكرة عن وضعها الجديد، ومهمتها الجديدة، وفي اليوم الرابع تدق القهوة في الشق، ويأتي العريس اليه، وتأتي العروس الى المحرم، ولها ان تشارك الان في العجن والخبز، واي شيء داخل البيت، ثم ان ترافق احدى محارم العريس لجلب الماء، ولكن لا لجلب الحطب. لأن في الأول نظافة، والتي احوج ما تكون اليها، وفي الثاني عدم النظافة، والتي يجب ان تبتعد عنها، قدر الامكان... ويصنع اهل العريس طعاما خفيفا للضيفين (العروسين) في اليوم الرابع وهذه النقطة هي ام المشاكل، والبلاوي والمتاعب، فقد تنشز الزوجة، ولا تطيع وقد تكون الام لئيمة قوية، وهذه مشكلة كافة المجتمعات الانسانية، اطلاقا، وهي اقل ما تكون لدى البدو بسبب ما لديهم من ضبط، وربط، وتبادل احترام، وتقدير للوالدين، وعدم اعطاء الفرصة للزوجة للتمادي عليهما، وتبقى البرزة مبنية طيلة الايام السبعة يأوي اليها العروسان ليلا او نهارا انى شاءا دونما انتقاد لأنها مخدعهما، وبيتهما وفي اليوم السابع يجري التحول الثاني، وهو نقل البرزة كاملة الى البيت، ودعوة اهل العروس الى وجبة طعام عند اهل العريس. ومن هنا نرى ان الانتقال والاندماج (رغم بساطته) قد راعى طبيعة النفس الانسانية في التكيف التدريجي السريع مع الوضع الجديد، ففي البداية لمدة اسبوع هناك تردد من العروس على البيت حتى تحصل الالفة بين الطرفين، وحتى تزول اغشية الاستحياء من الموجودين عندما ينام معها زوجها، فتزول الخشية، وتكون قد تعودت الممارسات الجديدة بحيث لا تستطيع الاستغناء عنها، ويستمر التردد هكذا على شكل فردي، ثم تندمج في الوضع الجديد ولكي يضفوا الشرعية على تصرفهم يدعون ذوي العريس، ويصنعوا لهم طعاما خاصا، وبحضور وجهاء القوم، وهنا يدفع الانسباء الجدد النقوط للعريس، ان هذه الدعوة عهد جديد من العريس واهله بالمحافظة على الامانة والحاقها بهم لتكون منهم، واما النقوط فهو عهد بالرضى عن هذا التصرف... وعلى اقرب الناس للعروس ان يأتوا لها بهدية، وان يسلموا عليها، ويهنئوها بالزواج مع الاستفسار عن حالتها... ولا بد من الدموع في هذا الموقف.

وفي الوقت الحاضر نجد الجماعات المستقرة، والمتمدنة قد غيرت مسار هذه العادة حيث يدعون اهل العروس لحضور الزفاف، والقرى كأي مدعو من الناس، ولا شك ان كل تصرف يكون حسب زمانه ومكانه، وظروف تطور نمط الحياة المعيشي.

وهناك حالة اخرى لا يتم فيها ضم البرزة الى البيت وذلك لاسباب وحالات معينة:

فعندما يكون البيت من الضيق بما لا يتسع للمزيد وعندما يكون العريس ذي نزعة استقلالية منذ البداية، واتفق واهله ان ينفصل عنهم، او عندما يهم بالرحيل مع الاغنام والمواشي، او للعزب (من العزبة) في منطقة بعيدة للحراثة او لاي عمل اخر... وفي هذه الحالة فانه يجري الاحتفال في اليوم السابع او الثامن يدعوه اهل العروس والعروسين، وكان هذا قد رمز الى الاتصال، والالتحاق، واذا بقيت البرزة قرب البيت الرئيسي، فلا يجوز للعروسين ان ينفصلا بالخدمات والطعام، بل تقوم العروس باداء الخدمات في البيت، وتأكل هناك، وتجلب الماء والحطب، وتتحول البرزة الى مكان للهجوع والنوم فقط، واذكر ان بعض الابناء يبقون مع ابائهم بنفس البيت حتى يصبح الولد جدا (بفتح الجيم وتشديد الدال) او يموت الاب وغالبا، ما يبقى الابن الكبير. او الذي توكل اليه مهمة الاشراف على العائلة، وادارة شؤونها يبقى في البيت، اذا تزوج لأن الاخ الكبير والد كما يقولون بينما ينفصل من هم اصغر منه لوحدهم.

بقي ان نقول: ان ام العروس تبقى هنا معها لمدة ثلاثة ايام او سبعة اي بما لا يقل ولا يزيد عن هذه المدة تواصل خلالها تلقين الدروس لابنتها في معاملة الزوج، واذا تأخرت الى اليوم السابع، تعود مع زوجها (والد العروس) الذي حضر الوليمة ولبى الدعوة، ولا بد للأم من (لبسة) يقدمها العريس اليها، اكراما لها على ما قدمته من خدمات، ولولادتها لشريكة حياته على الاقل، وتكون اللبسة (عباءة) او (مزوية) او قطعة ذهب، او اية البسة مناسبة، لأنها ستتباهى بها امام الناس، وبالتالي فهي وسيلة دعائية للعريس واهله، وعليهم ان يبيضوا وجوههم امام الناس.

زيارة العروس لاهلهـــــا:

لا يجوز للعروس أن تعود الى بيت والدها بعد الزفاف الا بعد أن تزورهم بطريقة رسمية يرافقها زوجها وامه، أو احد محارمه من النساء[1]، أما متى هذه الزيارة؟ فهي بعد عدة أيام من انتهاء الاسبوع الأول للزواج، وربما بعد عدة أشهر وربما سنة كاملة، والحد الأدنى هو عشرة أيام من الزفاف، والحد الأعلى هو سنة ويسمونه (الحول) ويتحكم في ذلك ظروف معينة، فاذا كانت الديار والمنازل متقاربة، والرحلة سهلة، فهذا يعني أن ظروف الزيارة متاحة للعروس، ومضطرة للدخول الى بيت أهلها بين لحظة واخرى، اذ وجدت مناسبة معينة، كمرض أحد افراد العائلة او عودة مسافر..الخ فلو افترضنا أن اهل العروسين متجاورون او متقاربون، فان العروس تحت نظر اهلها، وهي تواقة الى البيت الذي تربت فيه، وبالتالي فهي مشدودة اليه، وحيث انه لا يجوز لها

١) اقصد بذلك الحالات العادية، اما في الحالات الاضطرارية فالامر يختلف، والتصرف في حينه، يكون حسب المقتضى والظروف والحالات.

الذهاب هناك الا بعد الزيارة، وبالتالي قد تعيش في صراع نفسي، فان كل هذا ينتهي بتعجيل الزيارة، واما اذا كان (المشحى - الموقع) بعيدا، فان ذلك يجعل اهل العروس في غياب عن عينها، وبالتالي لا تكون مشدودة اليهم مثلما هي القريبة منهم، كما أن الزيارة تحتاج الى مجهود كبير في السفر.

أما ماذا تحمل العروس معها اثناء الزيارة؟! تأخذ معها راس غنم او ماعز، ويشترط ان تكون انثى لا ذكر[٢]، وتأخذ معها ايضا (كلايف الذبيحة) أي ما تحتاجه الذبيحة، من رز، وصنوبر، وجميد (لبن جامد)،... وعادة تكون العروس ممتطية جوادا، او ذلولا، او جملا، او حمارا، وتمتطي الانثى المرافقة ركوبة اخرى، وقد يكون العريس راجلا او راكبا ايضا، وعندما يقتربون من بيت اهل العروس، يستقبلهم اهلها استقبالا حسنا، ويهنئونها، بالسلامة، وتدخل العروس وام العريس الى المحرم (اي قسم النساء في البيت)، اما العريس فيدخل الى الشق حيث يجلس مع الرجال (والسؤال الان لماذا ترافق العروسين ام العريس؟! ولا شك ان الامر واضح من باب احترام البدوي للانثى مهما كانت، فاذا وجدت انثيان ورجل، فانه لا يمكن لأحد ان يعتدي عليهم، لأن العار كل العار الاعتداء على الانثى، كما أن هذه فرصة لأم العريس ان تقوم بمهمة استخبارية بطريقة شريفة على العروس واهلها، وما تقوله العروس عن عريسها وأهله، كما انها قادرة على تفسير بعض التصرفات التي تحتاج الى توضيح بالاضافة الى اطلاعها عن كثب على احوال اهل العروس على مبدأ (ضيف ليلة زاير شهر) اي يعرف ما في الديار، وكأنه عاش بها شهرا، ونحن نعرف ان البدو اذكياء، وعندهم من القدرة على الفراسة ما يجعلهم يعرفون ما يجري من حولهم، ولو كان ذلك بصمت كما ان الأم تقوم بمهمة استخبارية على ولدها نفسه، فهو فلذة كبدها، وترغب ان تعرف، ما هو سلوك نجلها هذا عند اهل زوجته؟! علاوة على مؤانستها للعروس اثناء الرحلة، وفي البيت، وتشهد بها أنها ممتازة، وتبيض الوجه (وتستر الغربة) كما يقولون:

ويتم صنع الطعام للضيوف الكرام، حيث الذبيحة (القوادة)، ومكاليفها التي جاءت مع العروس، فهذه عبارة عن فداء وأضحية، لقاء سلامتها، وبياض عرضها، وشرفها، وتوفيقها بالزواج، كما ترمز هذه الذبيحة الى المقارنة مع (ذبيحة الحلية) (التي سبق وتحدثنا عنها) وهي التي يذبحها العريس ليلة دخوله بعروسه، حيث يذبحها فداء له وطردا للشر والشيطان، وعلى العروس ان تفعل ذلك عن نفسها ايضا، ولكن عند اهلها الذين لم تنفصل عنهم الا منذ أيام قلائل فقط.

وتأتي بالذبيحة من عند العريس الذي هو القاسم المشترك بين الطرفين نفسه واهله من جهة، وعروسه وذويها من جهة اخرى، وكما يأكل قوم العريس ذبيحة الحلية، ويأكل هو وعروسه قلبها، وكبدها، وكلاويها وبعضا من لحمها، فان (القوادة) في الزيارة

---

١) نرى هنا انهم يهتمون بامر (القوادة) وهي ذبيحة الزوارة (اي الزيارة - زيارة العروس) وان تكون هذه انثى لا ذكرا، وذلك لان المقصود بالزيارة هي العروس وهي انثى، وليس الذكر (العريس)، والانثى ترافقها انثى حتى انهم عند الموت يذبحون الونيسة للانثى راس غنم (انثى) ايضا، فالانثى للانثى وهذا من باب احترام الانثى ايضا.

يأكلها العروسان مع ذوي العروس ايضا، وليس بخلا أبدا ان تأتي العروس بهذه الذبيحة، فالبدوي لم يكن بخيلا، وانما للأمور رمزيات وفلسفة خاصة بيناها، خاصة وان مجيء العروس بيديها شيء لا يجيزه العرف البدوي، بل من المفضل ان يأتي الشخص ليس بيدين فارغتين، فالعروس يرافقها ما ذكرنا بالاضافة الى بعض الهدايا لأمها، والحلوى للزوار والمهنئين الذين يأتون سراعا، ويأخذون نصيبهم من العشاء، وربما للسلام والعودة.

وبعد قضاء ليلة او ليلتين، يعود العريس وامه، وتبقى العروس لمدة اسبوع او خمسة ايام كأدنى حد، وعشرة ايام كأعلى حد، حيث يعود العريس ليأخذها، او يرسلها اهلها برفقة من يحميها من ذويها... ونلاحظ هنا ان على العريس وامه ان يقضيا ليلة او ليلتين، ولكن ليس ثلاثة أيام وثلث وهي المدة المتبعة في عادة الضيافة، ولا شك ان الامر يتعلق في ضرورة العيش والملح بين الطرفين بعهد جديد، فقد جاء العريس بذلك ليأكل مع ذوي زوجته، وهو بذلك يؤكد لهم من جديد العهد الشريف في المحافظة على الامانة التي اعطيت له (ابنتهم)، وأما ترك العروس لوحدها عند ذويها عدة أيام، فهو وسيلة مهذبة لاتاحة المجال لها لتأخذ حريتها معهم، وبنفس الوقت تشتاق لزوجها الذي تفارقه عدة ايام، وهذا بحد ذاته تهيئة نفسية لها، وله بالاثارة، في ان يلتقيا بحرارة بعد هذا الافتراق، ولا شك انها تحصل على دروس طويلة من والدتها، وجدتها (ان وجدت) في كيفية التصرف حيال الزوج وذويه، وفي العودة يقيم العريس وامه ما لدى العروس من تصرفات وافعال اثناء الافراح وقبل الزيارة، وخلال الزيارة، وما جرى تحت نظرهما، وسماعهما هناك، لاعداد خطة معينة في التصرف السليم، وبذلك نرى كم هي عظمة الرمز لهذا التصرف البسيط، منح الحرية المقيدة المراقبة اي التصرف المؤدب، ثم منح الحرية شبه الكاملة او لنقل (البعيدة عن الرقابة)، سواء للعروس وذويها، ام للزوج وامه، كما ان الفرصة مهيأة لاعداد الخطة اللازمة، من كل طرف في كيفية التصرف حيال الطرف الاخر.

وبعد انقضاء المدة المتفق عليها، يعود العريس ليأخذ زوجته، او يتم ارسالها من قبل ذويها وبحراستهم، وبالطبع تعود محملة بالهدايا والعطايا، التي تكون في ادناها راسا من الماعز او الضأن، وفي اقصاها رعية[1] من الماشية، ومعها حمارها، لأن رعايا الماشية يرافقها الحمار في العادة باستثناء رعية الجمال (الاباعر)، وتعتمد كمية العطية من والد العروس واخوتها على مقدار ما لديهم، وحالتهم المادية، وامكاناتهم، وسخائهم والمسمى عند البدو (حلالة النفس، ويقولون راعي نفس حلولة، اي صاحب سخاء وسماحة وكرم)، وتسمى هذه الماشية (الزوارة - وتلفظ بتسكين وتشديد الزاي)، ذلك أنها مكافأة لهذه الزيارة، ويعتبر هذا ملكا خاصا بالعروس وان كان تحت اشراف زوجها، ولا شك ان ذلك ثروة معتبرة، ولها اهميتها في حياة البدو خاصة اذا ما كانت لاثنى، وأنها

---

١) الرعية عند البدو تشتمل اكثر من معنى، من ضمنها الوارد هنا، وهو مجموعة من الاغنام او الضان لا يقل عددها عن عشرين راسا، ويصل في اعلاه نصاب الزكاة وهو ما يزيد على المائة راس.

تتباهى أمام الاخرين أن اهلها لم يبخلوا عليها، وانهم كرماء اغنياء ايضا، ويعتز العريس ان انسباءه يتحلون بهذه الصفات ايضا، واذكر ان بعض العرائس كانت تعود براس من الغنم او الماعز، واخريات باعداد كبيرة، وبعد هذه الزيارة تستطيع هذه الانثى ان تزور اهلها في اي وقت دونما حرج او موانع، من طرفهم، ولا زلت اذكر كيف كانت تتجنب العروس المرور ببيت اهلها، او زيارته، او الدخول فيه بعد زواجها، الا بعد اجراء هذه الزيارة، التي هي تدشين للمرحلة الجديدة في العلاقات ما بين الطرفين (العروسين، وأهلهما)، وتجديد للعهد بالعيش والملح، كما ان اهل العروس بحاجة الى اخذ مثل هذه العهود والمواثيق من العريس نفسه، لذا فهو يأتي معها ومعهما الذبيحة ومكاليفها (اي ما تحتاجه من الملح حتى الجميد، والسمن)، بالاضافة الى ان كل هذا تقديم ولاء وطاعة، ولكنه ولاء وطاعة منفصلين، ومن باب المجاملات ليس الا، خاصة وان البدوي من ابرع بني البشر في المجاملات، والمسمى في العالم المعاصر (دنيا الدبلوماسية)، ولكن المجاملات البدوية مبنية على الاصالة والصدق، والرجولة، بعكس دنيا الدبلوماسية المبنية على الغش والكذب والخداع... وعلى ذوي العروس ان يقدموا هدايا محترمة لام العريس التي زارتهم (ملابس، قطع ذهبية)، كما يقدمون شيئا مماثلا واحسن الى العروس نفسها.

ويلتقي الزوجان العروسان لقاء حارا بعد هذا الفراق الذي دام اسبوعا او عشرة أيام، ليقضي كل واحد حاجته مع الاخر، بكل حماس وشوق ومحبة، وبذلك يكونان قد حققا هدفا جميلا بطريقة غير مباشرة قد يساوي في لحظته جميع الهدايا والعطايا، ويبدءان حياتهما الجدية الجديدة، ويشرعان في العمل والبناء، وبذلك نكون قد اقفلنا صفحة الاعراس والزواج، ونأمل ان نكون وقد وفقنا الله الى الامور بطريقة علمية وواقعية بعيدة عن التحيز، وان نكون قد القينا بعض الضوء على جانب هام من تراثنا الجميل وكلنا أمل ورجاء أن يتمم المهمة من سيأتي بعدنا في الاهتمام بذلك...

الفصل الثالث عشر

المناسبات والاعياد الدينية

العيد يعني الفرح والسرور، وربما السعادة أيضا، واذا وصف البدوي يوم سروره أو سعادته قال: (اليوم يوم عيد)، ويرون في كلمة العيد، ايضا الخاتمة والنهاية، فيقولون: "عيدت – بتشديد الياء"، بمعنى انتهت الأمور، وذلك لأن العيد يأتي عادة في نهاية فترة معينة او ترقب معين، واذا دعوا لأحد بالخير قالوا: الله يجعل أيامك كلها أعياد وافراح، وبذلك إقترنت كلمة الاعياد بالافراح، وبالتالي بالسعادة.

وللعيد معنى خاص عند البدو لما يرمز اليه من المودة، وانهاء الخصومات، وتقارب المتباعدين، وعودة المسافرين، خاصة في عيد الاضحى، وعيد الفطر المباركين، ذلك انهما العيدان الرئيسيان العامان عند البدو.

ويكون عيد الفطر في نهاية شهر رمضان المبارك، بينما يكون عيد الأضحى في ١٠

ذي الحجة، وهذا يعني أن توقيتهما قمريا لا شمسيا، من حيث العيدين الرئيسيين، وهذا يقودنا للحديث عن الاشهر العربية، مع هذا فهناك أعياد او مناسبات موسمية تعتمد على التوقيت الشمسي، وسنتحدث عن الامرين باذن الله.

والان نتحدث عن الأشهر العربية، واصل تسميتها وعلاقتها بالشهور الشمسية، وقد رأينا اعتماد ما ذكره المسعودي في كتابه مروج الذهب في الجزء الثالث تحت عنوان ذكر سني العرب وشهورها، وتسمية أيامها ولياليها حيث يقول: "شهور الأهلة (اي القمر، والهلال)":

أولها المحرم، وايامها ثلثمائة واربعة وخمسون يوما، تنقص عن السرياني (التوقيت الشمسي) احد عشر يوما، وربع اليوم، فتفرق في كل ثلاث وثلاثين سنة، سنة، فتنسلخ تلك السنة العربية، ولا يكون فيها نيروز، وقد كانت العرب في الجاهليةتكبس في كل ثلاث سنين شهرا، وتسميه النسيء. (وهو التأخير)، وقد ذم الله تبارك وتعالى فعلهم بقوله: **(انما النسيء زيادة في الكفر)**، ورسمت العرب الشهور فبدأت **بالمحرم**، لأنه اول السنة، وانما سمته المحرم لتحريمها الحرب والغارات فيه.

وصفر بالاسواق التي كانت باليمن تسمى الصفرية وكانوا يمتارون منها، ومن تخلف عنها هلك جوعا، وقال نابغة ذبيان:

انـي نهيـت بنـي ذبيـان عن أفق وعـن ترفهـم في كل اصفار

وقيل: إنما سمي الصفر لأن المدن كانت تخلو فيه من اهلها بخروجهم الى الحرب وهو مأخوذ من قولهم: صفرت (بفتح الصاد والراء، وكسر الفاء) الدار منهم، اذا خلت...

وربيع وربيع لارتباع الناس والدواب فيهما، فان قيل: قد توجد الدواب ترتبع في غير هذا الوقت، قيل:قد يمكن أن يكون هذا الاسم لزمهما في ذلك الوقت فاستمر تعريفهما بذلك مع انتقال الزمان واختلافه.

وجمادى، وجمادى، لجمود الماء فيهما في الزمان الذي سميت به هذه الشهور، لأنهم لم يعلموا أن الحر والبرد يدوران فتنتقل اوقات ذلك.

ورجب: لخوفهم اياه، يقال: رجبت (بفتح الراء والجيم وتسكين الباء وضم التاء)، اذا خفته: وانشد بعضهم: فلا تهيبها ولا ترجبها (بتشديد وفتح الياء، وفتح التاء والهاء في الكلمة الثانية).

وشعبان: لتشعبهم الى مياههم وطلب الغارات.

ورمضان: لشدة حر الرمضاء فيه ذلك الوقت، والوجه الاخر انه اسم من اسماء الله تعالى ذكره.

ولا يجوز ان يقال: رمضان، وانما يقال: شهر رمضان... **وشوال:** لأن الابل كانت تشول في ذلك الوقت باذنابها (من شهوة الضراب)، وقد تشاءمت به العرب، ولذلك كرهت التزويج فيه... **وذو القعدة:** لقعودهم فيه عن الحرب والغارات... **وذو الحجة:** لأن الحج فيه... والأشهر الحرم هي: (المحرم، ورجب، وذو القعدة، وذو الحجة).

ويقول المسعودي في نفس المصدر: وشهور العرب ليست مرتبة على فصول السنة،

(ولا على حساب سنة الشمس)، بل المحرم وغيره من الشهور العربية قد يقع تارة في الربيع وتارة في غيره من فصول السنة، بينما شهور الروم مرسومة على ما يوافق فصول السنة التي تقطع فيها الشمس بروج الفلك عن آخرها، ومقادير أيام كل شهر منها ولياليه في الطول والقصر، وظهور ما يظهر فيه من النجوم الثابتة للأبصار، واستتار ما يستتر منها على ممر الدهور والسنين، وهي اثنا عشر شهرا.

ويقول المسعودي ايضا: "وقد اختلف العرب في اسماء الازمنة (الاربعة)، فزعمت طائفة منها ان **اولها الوسمي" وهو الخريف، ثم الشتاء ثم الصيف، ثم القيظ**، ومنهم من يعد الأول من فصول السنة: الربيع، وهو الأشهر والأعم، والعرب تقول: خرفنا في بلد كذا، وشتونا في بلد كذا، وتربعنا في بلد كذا، وصيفنا في بلد كذا.

وهكذا فان حكمة الله سبحانه في ربط الصوم، والحج بالتوقيت القمري قد جعل في ذلك خيرا للمسلمين، فلو كانا في فصل معين، لكان في ذلك مشقة دائما، او يسرا دائما على اناس دون الاخرين، اما التغيير ففيه المشقة واليسر، وينال الانسان نصيبه من ذلك خلال حياته، وفي هذا خير، والخيرة فيما يختاره الله سبحانه وتعالى:

وقد ذكرنا في بداية هذا الكتاب أهمية وضرورة وجود مناسبات الأعياد للأفراد والجماعات البشرية في كافة الازمنة - والأمكنة، وقد اكد الاسلام الحنيف هذه الحقيقة او البديهة التي هي جزء من النفسية الاجتماعية للانسان، فأقر وجود عيدين على راس مناسبتين دينيتين عظيمتين، وتأكيدا لحرص الاسلام على تقدير النفس البشرية، وفهمها لأعماقها وذواتها فقد جعل هذين العيدين في فرضين من فروض الاسلام الخمسة (الصوم، والحج) وهما آخر فرضين وكأنه بذلك يختتم كل سنة بعبادة عظيمة تكون فرحة وعبادة وعيدا في آن واحد، يجمع الانسان فيها بين طيبات الدنيا والاخرة، يحفظ توازنه ويحقق مرحلة سامية من امتزاج الروحية والمادية، وعالم الغيب، وعالم الشهادة... وذلك خير من ايام لعب العرب ولهوهم في الجاهلية، حيث كانت اعيادهم خاوية من الروح، وقال انس رضي الله عنه: قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: قد ابدلكم الله تعالى فيهما خيرا منهما: يوم الفطر، والاضحى رواه النسائي وابن حبان بسند صحيح.

عندمـــا يبدأ رمضـــان:

بعد بدء النصف الثاني من شهر شعبان وهو الذي يسبق رمضان، كان البدوي يبدأ بالاستعداد للشهر الجديد، من كافة الامور.

اما من حيث الطعام فيذهب الى السوق اذا كان بعيدا، لشراء المواد القابلة للحفظ والتخزين، وكان أهمها: القهوة، والسكر وملح الليمون والزيت والشبة واكثر ما يشتري (قمر الدين)، وهو مصنوع من الفواكه، ويتم تذويبه في الماء مع السكر ويستعمل كشراب، وادام معا، لجميع وجبات الطعام في الافطار والسحور نظرا لفائدته، ولذته، وسهولته

وخفته على المعدة، كما انه يخفف من عطش وارهاق نهار الصائم، بل ان قمر الدين طعام رئيسي جدا من اطعمة رمضان، وفي مراحل متأخرة، بعد الخمسينات بدأوا يشترون البطاطا، والبندورة المجففة ومربى البندورة، وذلك لاستعمالها بالطبخ، هذا بالاضافة الى شراء الرز... ويضاف الى كل هذه ما لدى البدوي من احتياط السمن، والجميد، كما ان الكما (وهو نبات صحراوي ينبت في وقت الشتاء) اذا كان الصوم في هذا الفصل فيكون لكما طعاما رئيسيا...

ويهيء البدوي نفسه في اواخر شعبان بتنظيف جسمه وملابسه، وذلك، استعدادا لبدء الصلاة، والتي يندر ان يصوم بدوي بدونها (الصلاة) بل، انهم يرون ان الصوم بلا صلاة امر غير معقول، فيقولون: (الصوم بلا صلاة مثل الراعي بلا عصاه)، وما ان يبدأ رمضان حتى يبدأ البدوي تعبده، ويكون قد استعد لذلك منذ ايام.

واذا كانت العشيرة الواحدة متفرقة المنازل، وليس من حائل يمنع من اعادة التجميع، فانها تعود متماسكة مع بدء رمضان او قبله ليكونوا معا، لأنه شهر المحبة، وتراص الصفوف والتقارب ولما يترتب على هذا التجمع من طقوس وعادات معينة سنتحدث عنها بعد قليل ان شاء الله.

واذا بدأ رمضان انتهى البدوي عن السرقة ان كان سارقا، وعن الانحراف ان ك منحرفا، وعن الغزو ان كان غازيا، وعن القتل اذا كان طالب ثأر، وذلك ما لم تكون هناك ظروف اضطرارية، او فرص يصعب الحصول عليها ثانية، فشهر رمضان له حرمة العظيمة عند البدو، اكثر حتى من الاشهر الحرم ذاتها.

وفي نهاية شعبان يراقب الناس الهلال، في موضع معين، وذلك في ساعات الغروب، ويكون هو حديثهم في المجالس، وما ان يثبت الهلال حتى يعلنونه على الملأ، وتبدأ الافراح بقدوم الضيف الجديد.

أما كيف يثبت الهلال عندهم: وذلك كان بالرؤيا بالعين المجردة، على ان يتم ذلك من شخص عدل تهمه مصلحة الدين والعشيرة، مع شهود عدول لا يقلون عن اثنين، يتقدمون الى بيت الشيخ حيث يجتمع الناس وخاصة في هذه الليالي المباركة، ويحلفون انهم رأوا الهلال، ويصفونه للحضور، وعندما تثبت صحة اقوالهم، يقرر الشيخ ان رمضان قد بدأ وينطلق المنادون بالعربان التابعين له، وعلى راس كل ربوة او جبل، ينادون هل رمضان (اي جاء رمضان)، كل عام وانتم بخير، بكره صيام، يا مرحبا برمضان... ويهرع القوم السامعون باتجاه الصوت، ويذهب مندوبون للتأكد ويعم رمضان في ارجاء البادية خلال ليلة واحدة، مساحات واسعة الى حد تعجز السيارة بسرعتها لو وجدت عن ابلاغهم بنفس السرعة... وربما يتساءل البعض قد يلجأ شخص مهووس او (منحرف)، بالصياح والابلاغ عن رمضان لتكون مزحة، او ما الى ذلك ويضلهم عن سواء السبيل... واقول: انه لا يجرؤ اي بدوي مهما بلغ من الانحراف والمزاح (اقصد البدو القدماء الذين نتحدث عنهم). لا يجرؤ بأي شكل من الاشكال ان يتطاول في اي امر ديني، لانه يخاف سخط الله، حتى ان القاتل اذا جيء به الى اليمين ليقسم انه فعل او لم يفعل كذا، اعترف

بالقتل وهو يعرف انه سيقتل لقاء ذلك، ويستهون القتل امام أن يحلف كاذبا لانه يعتقد أنه سوف يتعرض الى سخط الله سبحانه... كما أن البدو لا يتركون الكاذب من العقاب، ولو كان عقابا اجتماعيا، كالاحتقار والازدراء، والطرد من المجالس هذه اقسى على البدوي من القتل.

واخلص الى القول: انه لا يجرؤ بدوي على التلاعب بالأمور الدينية، لأنهم بطبعهم متدينون وان تصرفوا بما يخالف الدين، وذلك لأن المخالفة عن جهل، لا عن لؤم ولا عن تعمد السوء والجريمة.

وأما ارسال المنادين في العربان والتلال، فيرسلهم الشيخ، يرسل الركايب (اشخاص على الجياد) ليبلغوا العربان الذين لا يصلهم الصوت، ولا يرون النيران، لأنهم يرون في التبليغ اجرا، بالاضافة الى انه تعبير عن الترابط الاجتماعي بين الفئات البدوية، حتى ولو كانت متعادية او متناحرة.

وبعد ان يثبت الهلال ايضا: تنطلق الزغاريد، والتكبيرات والتهليلات (الله اكبر الله اكبر، لا اله الا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير)

كذلك يوقدون النيران، ابتهاجا بهذه المناسبة وهي وسيلة لابلاغ الاخرين ايضا، ويهتم الاطفال بايقاد النيران ويجتمعون ويلعبون وقتا طويلا من الليل.

وعندما اخترعت البنادق واقتناها البدو كانوا يطلقون الرصاص ابتهاجا بقدوم رمضان وذلك كوسيلة للتعبير عن الابتهاج والفرح بالاضافة الى كونها وسيلة للابلاغ الصوتي كالنيران التي هي للابلاغ المرئي.

ويسمر القوم ويتعللون، ويتحدثون عن الترتيبات لشهر رمضان، ويرسمون برنامج العشيرة مع الشيخ، للتقيد بذلك طيلة الشهر المبارك، وعادة تبقى السهرة مستمرة حتى السحور حيث يأكلون هذه الوجبة معا، بشكل جماعي، ثم ينصرف كل واحد الى بيته، وتنتهي بذلك: الليلة الأولى من ليالي رمضان المبارك، وأما الذين ذهبوا لتبليغ الاخرين، فان استطاعوا العودة قبل السحور الى عريهم فذلك خير، والا فانهم يتسحرون وينامون في مضارب من ذهبوا اليهم...

وأما: كيف يكون الافطار في بداية رمضان؟...فالمبدأ عند البدو اعتبار الشهر الكريم ضيفا على كل واحد، وعليه ان يبقى في بيته يستقبله، اي ان تناول الافطار يكون مع اولاده وعائلته، ثم تكون السهرة او التعليلة في بيت الشيخ، او بيت القهوة[1] (اذا لم يوجد الشيخ) او بيت الوجيه الذي يجتمع فيه القوم لتناول الوجبة حسب الدور، وأما العادة التي توجد الان، ومن قبل فان منهم من يلتزم بالايام الثلاثة الأولى (باعتبار

---

١) بيت القهوة المقصود به هنا: كان الفريق من بيوت البدو، يصنعون القهوة بالدور والتناوب وذلك اما بالمعازمه حيث يقول واحدهم: القهوة عندي بكره، فيتصدى له اخرون حتى يستقروا عند واحد، او حسب الدور على اليمين بمنازل البيوت او اية صيغة من الدور وخاصة في شهر رمضان، ومن يصنع القهوة في تلك الليلة يقال عن بيته (بيت القهوة)، حيث فيه القهوة ويجتمع القوم لتلك الليلة، واما البيت الذي يجتمع فيه القوم بقصد تناول الطعام اولا، فيسمونه بيت الوجبة، او بيت العزيمة..

الضيافة ثلاثة ايام وثلث)، فلا يتناول الافطار خلالها الا في بيته، ومنهم (الان ومن قبل) من يبدأ بالدور منذ الليلة الأولى وليس في اي الامرين غبار اطلاقا، وانما هي اختلاف في التفسيرات والاجتهادات واما عدم تناول الافطار في البيت في الليالي الثلاثة الأولى فذلك لا يعني انهم لا يعتبرون رمضان ضيفا، بل يرون في انه يجوز نقل هذه الضيافة الى بيت القهوة او شق القهوة، او بيت الشيخ، حيث ملم الجميع (اي اجتماعهم)، وربما يحول عدم الانسجام ما بين الافراد دون لقائهم الموحد هذا، رغم انهم يتناسون جميع خلافاتهم في (السراء والضراء).

اما كيف يتم تحضير طعام الافطار للمجموعة هذه؟ فهناك اكثر من طريقة: فاما ان يأتي كل واحد بطعام من بيته الى البيت الذي يجتمعون فيه، وبذلك تتشكل سفرة طعام كبيرة ومتنوعة، وكافية للمعازيب، وللوافدين الذين قد يصلون في اخر لحظة، او قبل حلول ساعة الافطار، وهذه الطريقة التي كانت غالبة عند البدو، وهي رمز للتعاون، والمحبة، وتجديد العهد وتبادل العيش والملح بين القوم، بالاضافة الى انها طريقة استخبارية لطيفة وخفية، في معرفة اقدر النساء على الطبخ، وهذا يعرف من خلال مقدار ما يعود من الطعام الى صاحبه، حيث يعود كل واحد بعد الافطار بالأواني وما بقي فيها، فالطعام الذي اتي عليه عن بكرة ابيه يعني انه جيد الصنع، مقبول للصيام، واما الذي يعود كما هو، اولم يؤكل منه الا قليلا، فهذا دليل على عدم استساغة القوم له، وعدم قبولهم لطريقة طبخه وكأن ذلك توبيخ للرجل وزوجته، وكثيرا ما تحدث المشاكل ما بين الزوجين بهذا السبب لذا فالبدوي الذي يؤكل كل ما احضره من طعام يفرح جدا جدا لأنه يرى ان طعامه نال اعجاب القوم وبالتالي فقد اكتسب أجرا عند الله على عكس الشخص الاخر الذي يعود اليه طعامه كما هو.

واتذكر كل هذا تماما، وكيف تندر القوم باحدهم عندما جاء بطبخة (لوفية) وهي من اللوف باللبن، (واللوف نبات حار مؤلم)، واعاده معه، وشعربالخزي والفضيحة، وراح يؤنب زوجته التي القت باللائمة عليه لأنه لم يأت لها بشيء تصنعه.

واذكر كيف كانت تتجمع الاطباق المتنوعة، والعديدة، والقوم يأكلون، وغالبا ما يبدأ الواحد بطعامه، وهذا يعني ان افطاره من ماله، وبالتالي كأنه افطر في بيته، وهذا يعطينا التفسير في الاجتهاد بعدم الاقتصار على البيت في الليالي الثلاثة الأولى طالما انه يستطيع البدء بطعامه وهو في نقطة التجمع التي تجسد معاني الشهر الفضيل في المحبة، والانسانية والترابط الاجتماعي.

اما الطريقة الاخرى فهي ان يلتزم صاحب الدور بالقهوة، يصنع طعام الافطار للقوم في تلك الليلة، وهكذا دواليك، هذا اذا كان الافراد قادرين على ذلك، اما اذا لم يكونوا فان الطريقة الأولى افضل واسلم واسهل، لأنها تجسد التعاون، وتوزيع المسؤولية، واقل خسارة واكثر ربحا، اما الالتزام بواحد فلا تخلو من الاجحاف احيانا خاصة اذا كان الشخص فقير الحال...

وهناك طريقة ثالثة وهي الاجتماع الليلي في بيت الشيخ، وكل يأتي معه بفطوره،

وذلك على اساس ان بيته للجميع، وانه يقوم مقام اي واحد بالقبيلة او الفريق.

كيف يفطـــــرون؟!

من الاعتقادات الشائعة ان للصائم اجرا اذا جلس حول الطعام ونظر اليه لا يأكل منه كونه صائما، وان ما يمنعه هو ضميره، وخوفه من الله، وبذلك يعبرون عن فلسفة احتمال الصبر، وامتحان قوة النفس لدى الفرد، بالاضافة الى زيادة اشتياقه. وفتح شهيته لتناول هذا الطعام، ويخصص بعض من في المجلس لمراقبة مغيب الشمس، حتى اذا ما توارت بالحجاب، وبرز الشفق الاحمر، اعتبروا ان النهار قد انتهى، وان وقت الافطار قد حان (وكما يقولون – حكم) فيأخذون الاذن من وجيههم) اوشيخهم، اوشيخ الدين ان وجد، فينادي شخص ذو صوت رخيم وجميل قائلا: (افطر يا صايم واجرك على الله وذلك بمد الياء في صايم بشكل طويل وواضح)، فيفطر كل من يسمعه وكل يبلغ من حوله ويقولون: وذن، وذن.

ويصطف القوم حول المائدة، ويبدأون بهذه الكلمات (بسم الله الرحمن الرحيم، سبحان مقسم الارزاق ولا ينسى، او (وما ينسى) من فضله احد، صمنا لله، وافطرنا على ما قسم الله)، ويدعو بعضهم بما يشاء من الأدعية العامة والخاصة، سرا او جهرا.

واذا وجد شيخ (من رجال الدين) [1] حيث كان بعض الشيوخ يطوفون بالعربان يؤذنون، ويصلون بهم الصلوات خاصة الليلية منها، فان هذا الشيخ يؤذن بعد الاعلان عن الافطار، ولا يتناول القوم الطعام حتى ينهي الاذان عندما يقول: الله اكبر، الله اكبر، لا اله الا الله، ويتناوله بعضهم منذ الشروع بالاذان باعتبار ان الوقت قد حان (حكم الوقت – كما يقولون).

كما ان البدوي يحرص على البدء بالتمر، معتبرا ذلك سنة اسلامية، ويحرص كل الحرص على ذلك، كما ان التمر بحد ذاته كان طعام البدوي الرئيسي، وبعد التمر يتناول شراب قمر الدين وذلك من اجل (ليونة المعدة – كما يقولون)، ثم يبدأ بتناول بقية طعامه.

والبدوي يعتبر ان غياب الشمس معناه بدء الليل، وبالتالي بدء الافطار، ويرى ضرورة التعجيل بالافطار اذا توارت الشمس خلف الافق، وبان الشفق، وبدأ الغروب ينشر اهدابه فوق الكون المحيط، ولذلك اصل في السنة الاسلامية حيث يقول الله تعالى: **(ثم اتموا الصيام الى الليل)**، اي بدء دخول الليل بغياب قرص الشمس، كما ان

---

١) من العادات بالنسبة لبدو الاردن، ان بعض شيوخ الدين البسطاء او اشخاصا يقراون ويكتبون، ويحفظون بعض سور من القران الكريم، يقال لهم (الخطباء – ومفردها خطيب، او الشيخ)، كانوا يقضون شهر رمضان في مضارب البدو، يؤذنون للافطار ويؤمون القوم بالصلاة ويجمعون زكاة الفطر، المسماة (الفطرة)، وهي عادة من القمح، واذا عجز البدوي عن دفعها، اصبحت دينا في ذمته حتى وقت البيدر (الصيف)، حيث ياتي شيخ الدين وياخذها، ويعود الى قريته، ويرى البدو ان الافطار يحين بعد انتهاء الاذان، فطالما ان المؤذن لا ياكل فالوقت صيام، ولا يجوز تناول الطعام، واما بعضهم فيرى ان الوقت يحين منذ بدء الاذان، والا لما شرع الشيخ بالاذان لذا فالجائز الاكل منذ ان ينطق (الله اكبر الله اكبر)، وهذا الاصح، واما ذاك فهو اجتهاد لزيادة الحيطة بالنسبة لوقت الافطار، حتى لا يذهب عليهم يومهم هباء.

الحديث الشريف يؤكد ذلك في قول رسول الله عليه الصلاة والسلام حيث يقول: **(اذا اقبل الليل من ههنا وادبر النهار من ههنا، وغربت الشمس، فقد افطر الصائم)**.

وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله عز وجل "احب عبادي الي اعجلهم فطرا" وعن سهل بن سعد ان الرسول عليه الصلاة والسلام قال: **"لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطور"**.

واذكر قبل انتشار اجهزة المذياع بين البدو اي في بداية الخمسينات، وما توارد الي بالروايات فيما قبل ذلك، ان الناس كانوا يفطرون على (مدفع القدس) (وعمان)[1]، حيث كان يقف اناس مخصصون على رؤوس الروابي ينتظرون سماع صوته، فاذا ما وصل، قالوا: ضرب المدفع، افطر يا صايم واجرك على الله، فيفطرون، ثم اصبح في كل قرية كبيرة، كالسلط، ومادبا، والكرك، ووادي السير قنبلة (التي تسمى بمبة) تنوب مكان المدفع طيلة شهر رمضان المبارك، ثم تطور الامر عند استعمال الساعات، حيث كان في كل فريق ساعة، ومفكرة، وعندما يطابق الوقت يفطرون.

وبعد ذلك كانت اصوات المؤذنين من المساجد في القرى والمدن، والاماكن المحيطة.

اما الان فليست هناك مشكلة حيث في كل بيت مذياع، يستمع للاذان ينطلق منه، كما ان مساجد المدن والقرى منتشرة والحمد لله بحيث لم تعد هناك مشكلة امام معرفة وقت الافطار او السحور.

وان من تتاح له فرصة الاستماع لحكايات القدامى يرثى لحالهم، ويترحم عليهم، لما كانوا يعانونه لمعرفة وقت الافطار، خاصة في الأيام الماطرة والغائمة، حيث يبدو الوقت انه ليل، فيعتقدون ان الافطار حان، فيأكلون، ويحمدون الله، واذا بالشمس تخرج لهم وهي لا تزال بعيدة عن الغروب، فمنهم من يعيد يومه، ومنهم من يرى ان الاعمال بالنيات، ولا داعي للاعادة... وكان البدو يرتاحون لوقت الصيف والربيع رغم صعوبة الصوم في الأول لشدة الحر، وكثرة الاعمال، وطول النهار، ولكن الشمس تظهر بوضوح، وتغيب بوضوح، ولا اشكال في الافطار او السحور بعكس الامر في الشتاء.

وعندما يحين وقت الافطار يأكل الصائم والمفطر، ويلتزم الثاني بالاداب امام الأول.

واما التجمعات للطعام، فهي (عند البدو) منظمة، حيث يلتقي الرجال معا في الشق حسب الاسس التي ذكرناها أنفا، بينما تبقى النساء والاطفال كل في بيته، ويأكل افراد العائلة معا وهذا مظهر ترابط اجتماعي واضح للاسرة، وعمل على استمرار هذا الترابط،

١) ذكر السيد علي الجندي في كتابه (قرة العين في رمضان والعيدين ج١ ص ٢٠٤ان قصة مدفع رمضان قد جاءت ضمن قصة لطيفة اذ يقول: كانت القاهرة اول مدينة اسلامية اتخذت المدفع عند الغروب، ايذانا بالافطار في رمضان، واول طلقة مدفع افطر عليها المصريون كانت عام ٨٥٩ هجرية (اي حوالي عام (١٤٤٠م). وكان ذلك بمحض المصادفة التي هي خير من ميعاد، وذلك انه اهدى الى الوالي خوشقدم، الذي يسمى الناس الحي باسمه (حوش ادم) بالغورية، مدفع، فامر بتجربته، وصادفت التجربة موعد غروب اول يوم من ايام رمضان، فظن سكان القاهرة، ان هذا ايذان لهم بالافطار، وفي اليوم التالي توجه مشايخ الحارات الى بيت القاضي، ليزفوا شكرهم للوالي على هديته لهم، فلما عرف القاضي الحكاية اعجب بذلك ايما اعجاب وامر باطلاق المدفع لدى غروب شمس كل يوم من رمضان، واستمر الامر الى وقتنا هذا. ماخوذ عن صحيفة الجمهورية الصادرة في ١٤/١٢/١٩٦٦م

والمحبة، اما التقاء الرجال معا في موقع واحد فهو ذو مظهر ديني اجتماعي، حربي، حيث القوة كلها في موقع، قادرة للذود والحماية، وحيث هذه السيوف المدافعة المهاجمة تلتقي في موقع واحد وكأنها تتعاهد دائما وابدا على الوفاق واللقاء.

ومن العادات الحسنة التي اتذكرها تبادل الطعام وهي في الحالات والايام العادية، حيث تقوم ربة البيت باهداء بعض مما طبخت الى الجيران والذين بدورهم يعيدون الانية فيها بعضا مما طبخوا في عملية تبادل لطيفة، ومهذبة، فتجتمع لدى العائلة الواحدة حصيلة جيدة من اصناف مختلفة من الطعام، وبدرجات متفاوته من طريقة الصنع، فيأكل كل واحد ما يناسبه منها، لذا فالبدوي عادة يحاول طبخ كمية تزيد على كفايته كثيرا، لأنه يعتبر الجيران شركاء معه في هذا الطعام بحضورهم عنده، او بارسال جزء مما عنده اليهم،... وتزداد هذه الصورة في شهر رمضان المبارك، حيث يحتاج الصائم الى الطعام، والى انواع مختلفة، وتشعر وانت تنظر الى هؤلاء القوم جميعا، وتشعر فورا ان هذا استمرار لماكانت عليه لعشيرة الواحدة من اصل الاسرة الواحدة لم يحصل في النهاية منها الا بمقدار ما حصل عليه اي جار، كما انه حصل على ما لدى جاره من طبيخ، بمقدار ما بقي لهذا الجار فقط، وربما اقل او اكثر قليلا.

وهكذا لا يقتصر اختلاط الطعام وتنوعه لدى الرجال في الشق في وجبة الافطار، بل يتعداه الى النساء والاطفال الذين يبقون في بيوتهم.

في صباي ان رمضان كان يأتي في فصل الصيف حيث الحر والتعب والارهاق، وان اباءنا كانوا يجهزون الماء المذاب فيه السكر وملح الليمون الجاف، ويشربونه بدل الماء الصرف، وذلك لأنه يذهب بالعطش، بالاضافة الى ما يعطيه من راحة للمعدة والجسم.

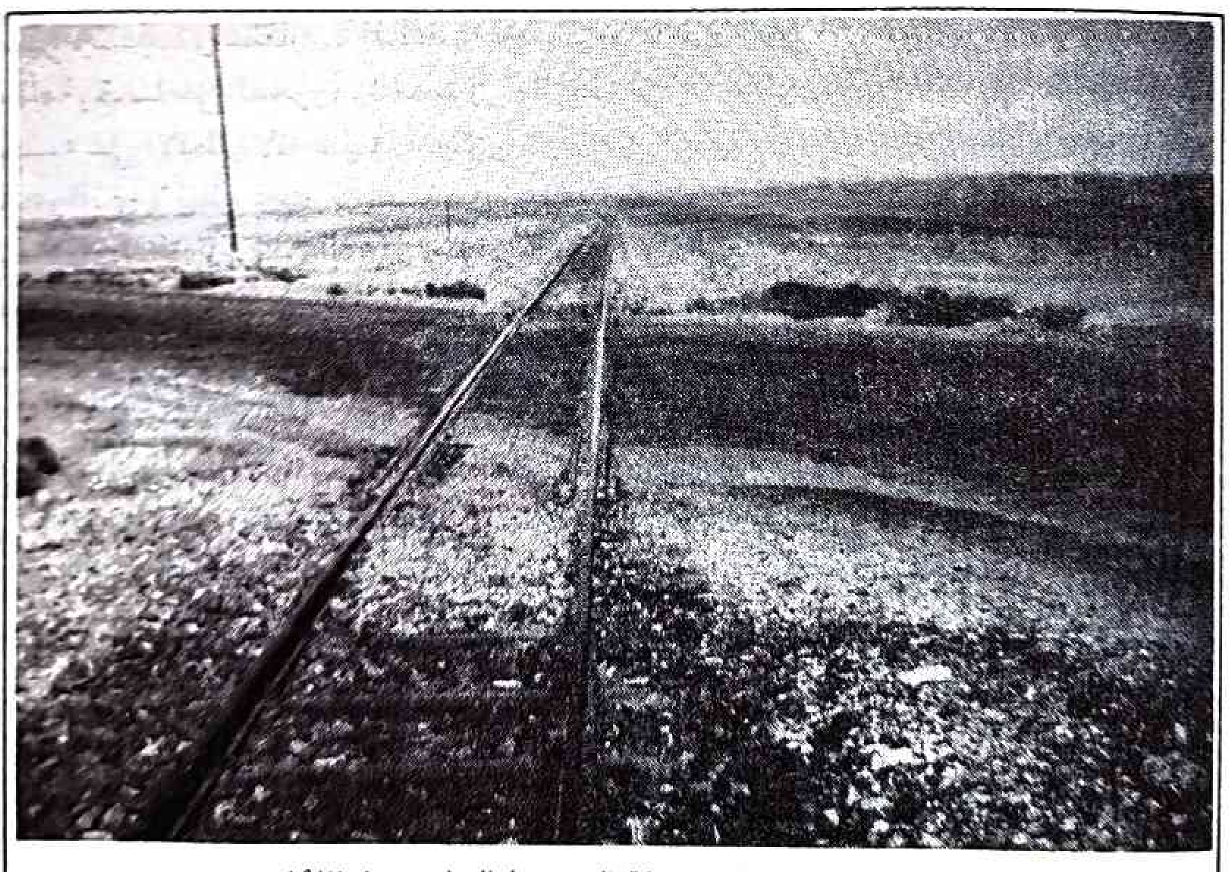
ايضا انه اذا ما كان الجو حارا، والقوم عطاشا اكلوا بعض لقيمات من الطعام، واخروا تناول الباقي في (اخر الليل)، اي قبل النوم بقليل، حتى تستطيع المعدة تحمل الطعام في ذلك الجو القاتل الخانق.

اما وجبة الافطار فهي وجبة اجتماع القوم، وهي الوجبة الرئيسية لدى البدوي في رمضان، ويجوز لأي بدوي ان يعرج الى اقرب بيت في طريقه لتناول الافطار، اذا جاء اجله، واذا وصل ساعة الافطار فيأكل من المتوفر، ولا يصنع له طعام خاص، واذا كان هذا الشخص عزيزا يدعى لطعام السحور بنفس الليلة او الافطار في الليلة القادمة، اما الدعوات الرئيسية للطعام فهي وجبة الافطار.

ولو اتيح لأي واحد ان يلقي نظرة الى فريق من بيوت الشعر البدوية قبيل دقائق الافطار لشاهد الحركة في الاستعداد وتجهيز الطعام وتبادله بين الجيران ولو نظر اليهم لحظة الافطار لرأى الهدوء والسكينة تخيم على المضارب، والقوم.



البدو يستقون من بئر التوانة/الطفيلة حزيران ١٩٧٢



تقاطع الطريق مع سكة الحديد في الجنوب ت١ ١٩٧١

حرمات الشهر الفضيـــل:

لهذا الشهر حرمة عظيمة عند البدو، بل انه اعظم الاشهر عندهم لوجود فريضة الصوم فيه، وليلة القدر، وليلة الخوارة (وهي ليلة الخامس عشر من شهر رمضان)، وفي نهايته مناسبة عزيزة، هي عيد رمضان حيث يتزاور الناس، ويتناسون الاحقاد والخصومات، ومن يخترق حرمته يجد الاحتقار والازدراء الاجتماعي، اما عند الاعراب كما سبق وقلنا فان بعضهم لا يراعون له حرمة، ولا يقدرون له قدسيته وتعظيما.

ومن المعيب المشين ان يتظاهر الواحد بالافطار، حتى انه اذا كان كذلك يتوارى عن القوم. ويفعل ما يريد بعيدا عن الانظار، واذا جاءهم ضيف، وكان الوقت ظهرا الى ساعة العصر، سألوه عن مشواره، فان كان على سفر، سألوه المسافة والمشقة، فان قدروا انها تستحق الافطار، سألوه حينها أصائم هو أم مفطر؟ (لأن الافطار مباح في السفر الطويل)، فان اجاب بالافطار قدموا له طعاما من المتوفر، وبشكل سري تقريبا، ولا يجوز ان يصنعوا له طعاما، يشم رائحته الجيران او يشعرون به، لأن تقديم الطعام من حيث المبدأ في رمضان شيء معيب جدا، ومن حيث العادة يقدم حسب الظروف، والامكانات وفي ضوء طلب الستر والاستتار، وبالطبع فان هذا الضيف ينقطع بعدها عن الطعام، والتدخين وشرب الماء حتى ساعة الافطار حيث يتناوله مع المعازيب، وكأنه احد الصائمين، وبذلك نجد انه في ممارسة الرخصة بافطار الصائم يكون ذلك عند البدو، بكل ادب، وتهذيب واستتار،... فالعيب ان يأكل المفطر، امام الصائم ويرون في ذلك ذنبا عظيما وحضا على الفجور، والعصيان، والعيب ان يشرب او يدخن المفطر امام الصائم، او يحضه على الافطار لأنه حينها سيكون شريكه في الاثم، لذا فان عدم الصيام يكون اشبه بالسر الذي لا يطلع عليه الا الشخص نفسه وربما زوجته، ولكن لا يستطيع البدوي اظهار ذلك امام ابنائه ان كان أبا، او امام والده ان كان ابنا، ففي الأولى عليه ان يكون قدوة حسنة لا سيئة وأما في الثانية: فهو يحترم والده بطبيعة حاله، فكيف في الامور ذات المساس بالعقيدة والاسلام؟!

ومن جملة مراعاة حرمة هذا الشهر عدم الغزو، والقتل والفسق، والاقلاع عن ارتكاب اي فاحشة ما امكن، فالفاسق يقلع عن فسقه، والغازي يتوقف عن غزوه، والسارق يأخذ راحة...الخ، ذلك لأن للشهر حرمة، ويرون ان اقتراف المعاصي فيه يوجب سخط الله سبحانه وتعالى. وهو شهر الغفران، والحسنة فيها مضاعفة كثيرا، والبدوي لا يحرم نفسه من هذه الفرصة النادرة في كل عام، لذا تراه ينصرف الى الصيام والصلاة والتسبيح، ويقلع عن الغيبة، والسخرية، واللعب، انه شهر الجد والعبادة، يكفرون فيه عن سيئات ما عملوا فيما مضى من الاشهر المنصرمة.. ولا يقتصر هذا التدين على الرجال بل، ويتعداه الى النساء، واذكر انهم كانوا يجلسون الى بعضهم بعضا، او الى الشيخ الديني الذي يأتي الى فريق البيوت يتعلموا الادعية الخاصة برمضان وكيفية الوضوء والصلاة، وما هي الاعمال التي ترضي الله سبحانه؟ ليطبقوها وينفذونها،... ونستطيع

القول ان شهر رمضان بالنسبة للبدو، هو شهر السكينة والامن والطمأنينة، والهدوء والسكينة، شهر البركة، وتبادل المحبة، ويخجل البدوي من الله سبحانه ان يلتقي باخيه البدوي في رمضان وهو مخاصم له الا يلقي عليه التحية، بل لا بد ان يتناسى الخصومة او على الاقل الا يطالب بازدياد بعد الشق، والخصومة، اي انه شهر لتجميد جميع السلبيات، وانماء لجميع الايجابيات، وكل واحد يبحث عن النجاة لنفسه من الذنوب، وسخط الله سبحانه ويحاول كل واحد منهم ما استطاع في الا يكون مصدر تشاؤم القوم في هذا الشهر بتحريك دوافع الشر. والبدوي حذر ويخاف من الاقدام على ان يكون صاحب الأولى والبداية في اي عمل سيء، فيقال عنه مستقبلا: ان فلانا كان السبب، او البادىء (فالبادىء هو الاظلم هو الأسواء)، بينما يحرص على ان يكون البادىء بالخير، والطيب، وكما يقولون: "الشر وده مشاورة، والطيب ما عليه مشاورة"[1]، ذلك ان المبدأ في العمل هو الخير، واما في العادة فهناك الخير، وهناك الشر، الذي لا بد من ضبطه وكبح جماحه، لذا احتاج الى مشاورة، والتي عادة تنتهي بالاقلاع منه، طالما ان الحاجة ليست ملحة له... ولا شك ان شهر رمضان هو بحد ذاته كابح لهذا الشر، وضابط لتصرفات الانسان البدوي.

ولو نظرنا الى مجتمعنا المعاصر لوجدنا اختراق حرمات الشهر الفضيل امرا عليه دونما خجل او حياء اطلاقا، ذلك ان الضوابط الاجتماعية والاخلاقية والدينية الموجوده لدى البدوي قد لفظتها الحياة المدنية، وألقت بها بعيدا عن نفسية وعقل الانسان هناك ولو القينا نظرة بسيطة الى الفارق ما بين نظرة المجتمعين البدوي والحضري نحو مفطر رمضان لفهمنا مدى اهميته الاخلاقية لدى كل من الطرفين، فمفطر رمضان لا تقبل شهادته في القضايا عند البدو، بينما هي مقبولة في المجتمع الحضري.

ويرى البدو ان اي عمل في رمضان يساوي سبعين مثله فيما سواه من اشهر السنة، لذا فهم لا يتوانون عن عمل الخير، وأداء العبادات، والاقلاع عن كل سوء، ولهذا اصل في الاسلام: حيث يقول الزهري: تسبيحة في رمضان خير من سبعين في غيرها، وفي حديث سلمان الفارسي: "من تطوع فيه بخصلة من خصال الخير كان كمن ادى فريضة فيما سواه، ومن ادى فريضة فيه كان كمن ادى سبعين فريضة فيما سواه".

وأما زيادة الجود في رمضان على غيره من الاشهر، فان لذلك اصلا في الاسلام ايضا: وذلك ما روي عن ابن عباس (رضي الله عنهما)، قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم، اجود الناس بالخير، وكان اجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل (عليه السلام) يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه النبي صلى الله عليه

---

[1]) وذلك لان للشر نتائج سيئة على المجموعة، وتترتب عليه مسؤولية جماعية وبالتالي فانه يحتاج الى مشاورة (اي الى تخطيط واخبار للقوم به، لياخذوا حذرهم واستعدادهم، حتى لا يؤخذوا على حين غرة)، فمثلا لو اعتدى شخص على اخر بدون علم قومه، وراح اهل المعتدى عليه واخذوا اهل المعتدي على حين غرة فانهم اذن قد خسروا لانهم لا علم لهم بالامر اصلا، ولو اخبرهم او شاورهم لانقلبت الموازين، ومن هنا نرى كم اهي اهمية ان يكون القوم على بينة من امرهم في تصرفات ابنائهم، اما عمل الخير فانه ياتي بالسمعة الطيبة، ويستطيع اي واحد ان يتصرف من عنده خيرا، لانه هكذا يجب ان يكون اصلا.

وسلم القرآن فاذا لقيه جبريل - عليه السلام - كان اجود بالخير من الريح المرسلة، وفي رواية اخرى للبخاري: عن ابن عباس قال: كان رسول الله (عليه السلام) اجود الناس، وكان اجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل... الخ الحديث"، وانني اتساءل: هل هناك من هو اعظم (في بني البشر) من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليكون قدوة للناس اجمعين بالجود والخير والكرم والشهامة... كما ان الله سبحانه عندما خصص ليلة القدر التي هي خير من الف شهر هو جود وكرم من الله في هذا الشهر الفضيل.

واما اعراض البدو عن قول الزور، والبهتان، وعن كل عمل سيء، فذلك مستمد من الاصول الاسلامية الحنيفة، كيف لا والبدو العرب وفي العالم الاسلامي كلهم مسلمون، وعاداتهم في الجود والسماحة، والمثل العليا مأخوذة من الاسلام الحنيف، سواء من القرآن او السنة، او اقوال الصحابة، وافعال هؤلاء جميعا... ويقول الرسول (عليه السلام).. "من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في ان يدع طعامه وشرابه"، وقوله صلى الله عليه وسلم: "اذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك".

ويرى البدوي ان شهر رمضان لله سبحانه، وان بقية الاشهر له (للبدوي) له ان يفعل فيها ما يروق له، اما في رمضان فهو يفعل ما يريده الله وما يأمر به سبحانه، وفي ذلك اصل في الاسلام ايضا حيث يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: "اتقوا شهر رمضان، فانه شهر الله، ان تفرطوا فيه، فقد جعل الله لكم احد عشر شهرا تنعمون فيها، وجعل لنفسه شهر رمضان."

ويفرح البدوي اذا جاءه ضيف في رمضان اكثر من اي وقت في سائر انحاء السنة، وذلك لأنه هنا يبحث عن الاجر بالاضافة الى طبيعة كرم الضيافة، ويعتقد ان افطار الصائم عنده يعني ان له اجرا كأجر الصائم، وبذلك نجد الجود والكرم يزدادان عن طيبة خاطر، وطمعا بالاجر، وفي ذلك اصل في الاسلام.

ومن البر في رمضان بل اصل البر تقديم طعام الافطار للصائمين وخاصة الفقراء منهم، وقد جاء في الحديث الشريف: -

"ان الصائم، اذا اكل عنده، حلت عليه الملائكة"، وعن زيد بن خالد الجهني، عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: من فطر صائما كان له مثل اجره، غير انه لا ينقص من اجر الصائم شيئا"، رواه الترمذي وقال (حديث حسن صحيح)، قالوا: والتفطير يتحقق بتمرة او شربة ماء، او مذقة لبن "اي جرعة لبن مخلوطة بالماء"[١].

وخطب رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، في اخر شعبان فقال: ايها الناس، لقد اظلكم شهر عظيم مبارك، شهر فيه ليلة خير من الف شهر، شهر جعل الله صيام نهاره فريضة، وقيام ليله تطوعا، من تقرب فيه بنافلة، كان كمن ادى سبعين فريضة فيما سواه، وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة، شهر المواساة، من فطر فيه صائما كان مغفرة

---

١)علي الجندي قرة العين في رمضان والعيدين ج١ ص ١٠٠

لذنوبه، وعتق رقبته من النار، وكان له مثل اجره، من غير ان ينقص من اجر الصائم شيء"[٢]

ومن المبادىء الاساسية في الصوم عند البدو، هي النية: اذ عندما يثبت هلال رمضان المبارك، يقولون، نويت صيام شهر رمضان المبارك ايمانا واحتسابا اللهم تقبله منا، واتنا اجره"، كما يدعون بادعية كل واحد بما يخصة من التوفيق والنجاح، او تحقيق هدف ما، لأن الدعوة في رمضان لها وقع خاص، وتلبية الهية خاصة حسبما يرون، ونستطيع ان نقول ان هذه هي النية العامة، للشهر كاملا، اما النية الخاصة فتكون بعد افطار كل ليلة، وقبيل النوم، او عند السحور حيث يقول البدوي "نويت صيام غد ان شاء الله، يا رب تقدرني عليه وتعطيني اجره" والبدو لا يرون في التلفظ العلني انه الاساس بالنية لايمانهم ان الله يعلم السر واخفى، لذا قان مجرد النية سرا او جهرا تكفي لقضاء المهمة، ولهذا اصل في الاسلام حيث يقول الرسول (ص): انما الاعمال بالنيات، وانما لكل امرىء ما نوى" وفي حديث لحفصة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يجمع (بضم الياء) الصيام قبل الفجر، فلا صيام له"، رواه احمد واصحاب السنن وصححه ابن خزيمة وابن حيان"... واذا لم يعرف البدوي ان الصوم قد بدأ الا اثناء النهار كأن يتأخر وصول خبر ثبوت الهلال، فهو ينوي من لحظته الصيام، وان كان في فمه طعام، او ماء لفظه، ويعتبر نفسه انه صام ذلك اليوم ولو كان لهذا لبضع دقائق قبيل غياب الشمس. وذلك ما هو موجود في الشريعة الاسلامية ايضا.

ومن المبادىء الاساسية الامساك عن المفطرات المادية والمعنوية، اما الأولى فهي الطعام والشراب، والتدخين، وما هو على شاكلة هذه الاشياء، وهذا مستمد من الاية القرآنية الكريمة حيث يقول تعالى: **وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر، ثم اتموا الصيام الى الليل**" والمراد بالخيط الابيض، والخيط الاسود: النهار، وسواد الليل،... واما الامساك عن القول الفاحش وما فيه ضرر للاخرين، ويخالف الاعراف العامة، والاذواق، والدين والاخلاق، فالبدوي يبتعد عنه اصلا اكثر من اقلاعه عن الطعام فكيف به في رمضان؟ وقد بينا كيف استمد البدو هذه العادة اللطيفة من الاسلام.

المسموح لهم بالافطار عند البدو:

الصبي، ثم المريض، ثم الشيخ العجوز، والمرأة النفساء (التي وضعت مولودا)، ثم المسافر، والمرأة بوجه عام لا تصوم الا بموافقة زوجها،... وقد وردت رخصة لبعض هؤلاء بالافطار في الشريعة الاسلامية، حيث يقول تعالى: "ومن كان منكم مريضا او على سفر فعدة من ايام اخر"... فالصبي اذا وصل العشر سنوات طلب البدو منه الصوم، واذكر اننا كنا في صبانا نصوم رمضان ونتباهى بالصيام، ونحرص على عدم الافطار رغم

---

٢) المصدر السابق ص ٦٧.

صغر السن، وصعوبة الايام والحياة آنذاك، انها دروس الحكمة وقوة الاحتمال والصبر، التي يتلقاها ابن البادية منذ صباه... وأما المريض فله رخصة الهية لما يقتضي مرضه من استعمال الادوية، ولعدم قدرته على تحمل مشاق الصوم، والانقطاع عن الطعام والشراب، واما الشيخ العجوز فانه كالصبي لا طاقة له بمشقة الصوم، وكذلك المرأة النفساء التي تحتاج الى مزيد من الطعام لتستطيع ارضاع وليدها، واستعادة قوتها،... واذكر ان المرأة الحامل عند البدو تصوم رمضان، الا اذا كانت غير قادرة على ذلك اطلاقا وهي تحاول، وقد تفطر في وسط النهار او اوله او اخره،... وكذلك المرأة اذا جاءتها العادة الشهرية (المحيض) افطرت، لأنها ترى في المحيض اذى وخبثا لا يتناسب مع قدسية العبادة، واداء الفريضة.

وهناك نقطة مهمة جدا، وهي ان البدوية قبل ان تصوم تستأذن زوجها في ذلك، وهي ترى ان طاعته واجبة، فان رفض فعليه وزرها، وان وافق حصلت على اجرها... واذا افطرت البدوية في رمضان بسبب الرضاعة او الحمل، او الحيض، او باجبار من زوجها، فهي لا تعيد الصوم، وتعتبر ذلك رخصة اباحها الله لها، ونعمة انعمها عليها، اما بعضهن، خاصة بعد انتشار الوعي في الستينات والسبعينات من هذا القرن العشرين فقد اخذن بقضاء الصوم في ايام اخر،... وليس غريبا ان تختلف اراء البدو في جواز الاعادة او عدمها بالنسبة للانثى، وقد اختلفت اراء ومذاهب الفقهاء (رضوان الله عليهم) في هذا الموضوع.

والحبلى والمرضع اذا خافتا على نفسيهما او اولادهما افطرتا، وعليهما الفدية، ولا قضاء عليهما عند ابن عمر، وابن عباس"[1]، واما عند احمد بن حنبل، والشافعي رضي الله عنهما: انهما ان خافتا على الولد فقط وافطرتا (الحبلى والمرضع)، فعليهما القضاء والفدية، وان خافتا على نفسيهما فقط او على نفسيهما وعلى ولدهما، فعليهما القضاء لا غير"[2]... ونحن نجد ان كلا الرأيين عند البدو، واما الفدية فهي بالنسبة للبدو الصدقة التي يطعمونها للفقراء والمساكين مما تيسر وامكن.

واما المسافر عند البدو فنادرا ما يصوم، لأنه لا يسافر الا القوي القادر على مكابدة مشاق السفر، وهو اذ يحمل معه الزاد والماء، انما يحتاج الى توفيره قدر الامكان، وبالتالي فان الصوم علاوة على كونه عبادة مفروضة، فهو وسيلة للتوفير، وهي تجعل من حياة هذا المسافر اكثر انتظاما، حيث يجلس للافطار والسحور ويأكل لقيمات ويرتاح، ثم يكمل سفره... واذا كان الله قد اباح الصيام في السفر، فقد اباح البقاء على الصوم ايضا، "قال حمزة الاسلمي: يا رسول الله اجد مني قوة على الصوم في السفر، فهل علي جناح؟ فقال: "هي رخصة من الله تعالى، فمن اخذ بها، فحسن، ومن احب ان يصوم فلا جناح عليه" رواه مسلم[3]

---

١) سيد سابق فقة السنة المجلد الاول ص ٤٤٠.
٢) المرجع السابق ص ٤٤١
٣) المرجع السابق ص ٤٤٢.

ومن مبيحات الافطار عند البدو، الشعور بالجوع او العطش او كليهما الى حد الهلاك، حينها يفطرون ويسمون ذلك: كسر رمضان، فيقولون: (كسرت صيامي)، اي انه افطر غصبا عنه، ولم يفعل ذلك برضاه، فالكسر يعني العنف، والشدة وعدم الرضى، وغالبا ما يصوم البدو يوما بديلا بعد انقضاء العيد، ويقول تعالى: "ولا تقتلوا انفسكم، ان الله كان بكم رحيما"، وهذا يدل على ان تصرف البدوي هنا في مكانه، ونابع من الاسلام، لا من غير دين سواه، واذا اكل او شرب او اقترف ما يفطره سهوا، فانه يواصل صومه، وذلك ما يأمر به الاسلام ايضا في هذه الفريضة الجميلة.

المسـموح بها ولا تؤدي الى الافطـار:

والبدوي يستعمل العطر ويشتمه، ويكتحل، ويحتجم، لأن العطر يدخل من الانف، والكحل مع العين وليس من الفم والى المعدة التي هي مركز تجمع الطعام الذي يمنع دخوله للجسم حيث به الافطار.

"وعن انس انه كان يكتحل وهو صائم" والى هذا ذهبت الشافعية"[1] الذي هو مذهب البدو الرئيسي واذكر ان البدوي كان يصبح في يوم الصيام جنبا، ويغتسل، واذكر اننا في ايام الحر كنا نتبرد بالماء، ونضعه على رؤوسنا، واعناقنا ووجوهنا، ونحن صائمون فلا نرى في ذلك افطارا أو افسادا لصومنا، وهذا له اصل في الاسلام: "لما رواه ابو بكر بن عبد الرحمن، عن بعض اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: انه حدثه فقال: ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصب على رأسه الماء وهو صائم، من العطش او من الحر"، رواه احمد، ومالك، وابو داود، باسناد صحيح"[2]

واذكر ان البدو (وخاصة النساء)، كانوا يميزون مقدار حلاوة او ملوحة الطعام وهم صيام برؤوس السنتهم دون ان يسمحوا بدخوله الى الجوف ولا يعتبرون ذلك مفسدا لصومهم، وليعرفوا نوعية طعامهم الذي سيأكلونه عند الافطار. وقد اباح الاسلام ذلك: "قال ابن عباس (رضي الله عنهما): لا باس ان يذوق الطعم الخل، والشيء يريد شراءة، وكان الحسن يمضغ الجوز لابن ابنه وهو صائم"[3] واذكر ايضا، كيف كانت الام البدوية تمضغ الطعام او غيره باسنانها الامامية لطفلها، وهذا قياس على ما فعله الحسن رضوان الله عليه بمضغ الجوز[4]

والبدو لا يرون في المضمضة العادية، والاستنشاق العادية، وبلع الريق افسادا للصيام او مبررا للافطار ولهذا اصل في الاسلام تطابقه العادة البدوية تماما، ولا داعي لذكره خشية الاطالة.

وهنا ليلتان عظيمان عند البدو، ولهما قيمة كبيرة، وهما ليلة الخوارة، وليلة القدر.

---

١) المرجع السابق ص ٤٦٠

٢) المرجع السابق ص ٤٦٠

٣) المرجع السابق ٤٦٢.

٤) ومما اذكره ان البدوي كان اذا فرغ من الطعام قال: الفاتحة لارواح امواتنا واموات المسلمين، ويقرا الفاتحة ويحمد الله على النعمة قائلا: الحمد لله على هذه النعمة، اللهم احفظها من الزوال... وقد ذهبت للاسف هذه العادات الجميلة لدى البدو الذين استقروا، واصبحوا مثل اهل المدينة.

ليلة الخـــوارة:

وهي ليلة الخامس عشر من شهر رمضان المبارك، ولها قيمتها العظمى، ويتم التعبير عن الفرحة باستقبالها ليس بالعبادة (كما في ليلة القدر)، وانما بالتصرف المادي الملموس، وهو تقديم الطعام، حيث به يقرب الموسر ذبيحة لوجه الله سبحانه، واكراما لهذه الليلة، واذا لم يستطع فدجاجة، او يشترك عدد من الاشخاص بشراء ذبيحة، ويوزعونها بطريقة الاكوام وهي تقسيمها لاجزاء (اكوام متساوية)، بعدد المشتركين وفي كل جزء او كوم قطع لحم من كافة اجزاء الذبيحة تقريبا لتكون القسمة عادلة، ثم توزع عليهم بطريقة القرعة، واذا لم يتوفر ذلك طبخ البدوي طبخة، واعلن النية على انها خوارة رمضان لهذا العام، وقد يؤجل الذبيحة قائلا، والذبيحة في الفصل الفلاني (حيث تتوفر)، وحينها يذبحها على انها ذبيحة الخوارة التي اجلها في الوقت الفلاني، وعند تقريب مثل هذه الذبيحة او الطبخة ينادي البدوي: يا رب هذه خوارة رمضان، يا رب تقبلها، اجرها وثوابها عن روح الميت فلان او فلانة، وعن ارواح المسلمين اجمعين"، وبعد ذلك يذبحها، او يضع الملح اذا كانت طبخة، وبالمناسبة نقول ان البدوي لا يضع الملح على الطبخ او الطعام الا قال: اجره وثوابه عن روح الميت فلان، "لأنهم يرون في ذلك اجرا، ويمكن ان يصل أجره الى الميت ويساعده عند ربه بزيادة حسناته" ... ويرى البدو ان ليلة الخوارة هي الحزام او الوسط، والاستراحة في منتصف الطريق نحو نهاية شهر رمضان، بل هي وداع للنصف الاول لهذا الشهر المبارك، فيقدمون فداء لله ان اعانهم على صيام ذلك الشوط، ويسألون الله ان يعينهم على صيام الشوط الثاني، وقد تحول الاحتفال الان بليلة الخوارة عند البدو المستقرين بشراء اللحم، وعمل وجبة ادسم مما هي في الليالي الاخرى احتفاء بهذه المناسبة العطرة، ولا شك انها كانت فرصة للبدوي ان يأكل اللحم اثناء هذا الشهر، وبالتالي فهي ليلة قربى مادية ملموسة اكثر منها ليلة عبادة، وصلوات وادعية، وان كان البدو يطلبون الله فيها طلباتهم الخاصة لأنهم يرونها مباركة اكثر من غيرها.

ليلـــة القـــــدر:

وهي عند البدو اعظم ليلة، وهي كذلك في الاسلام **(ليلة القدر خير من الف شهر)**، وأحياؤها عند البدو يكون بالصلوات والادعية، ويحاول البدوي ان يلتقي بزوجته تلك الليلة لعل الله يرزقه بمولود تحمل به امه هذه الليلة، حتى انهم يقولون للموفق في الحياة، وصاحب الحظ "فلان جاي ليلة القدر"، او (واعي ليلة القدر) اي (استيقظ في هذه الليلة وطلب الله كذا وكذا). واذا جلست في مجلس بدوي فيمكنك ان تسمع عن الكثيرين (من باب الحقيقة او التندر او التشويق) ممن رأوا ليلة القدر وكيف ان طلباتهم قد تحققت فورا، لاعتقادهم ان من تستجاب دعوته هذه الليلة يلبى طلبه فورا، دونما امهال، فهي فوق كل الموازين البشرية والطبيعية المعهودة، وان اكبر امنية للبدوي في الحياة ان

(يستيقظ ليلة القدر) اي ان يراها، فذلك معناه تلبية كل طلباته، اذا دعا الله سبحانه، ويعتقدون انه لا يجوز طلب اكثر من ثلاثة اشياء، والا اصبحت الدعوى باطلة؟! وبالطبع فان هذا محض اعتقاد بدائي، لكنه يعني الاقتصاد في الاشياء حتى ولو هيئت جميع الاسباب للانسان، مثلما هي طبيعتهم في ندرة توفر وجود الاشياء لديهم..

ويعتقد البدو ان النجوم تهبط على الارض، وتنقلب الاشجار، وتمتلىء الارض بالملائكة لتلقي الدعوات والتسبيح، وان الخيول الاصائل ترى ليلة القدر، وانه من النادر رؤيتها من قبل الانسان، وان ذلك لا يكون الا قبيل الفجر.

وأما ما سبق عن الاشجار والنجوم فما هي الا اعتقادات من باب الاوهام، فانما هي ليلة كأي ليلة وان اختلفت بالقدر عند الله سبحانه، والبدو يرون انها ليلة السابع والعشرين من الشهر الفضيل، كما يعتبرون الايام العشرة الاخيرة من الشهر ايضا ليالي ذات اهمية كبيرة ويسمونها (ليالي الجبر، او ليالي القدر)، وتصل اهمية هذه الليالي الى القمة في ليلة القدر المباركة، وكل هذا مأخوذ عن الاسلام الحنيف...عن عائشة رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم "كان اذا دخل العشر الاواخر احيا الليل وايقظ اهله، وشد المئزر"، وفي رواية لمسلم: "كان يجتهد في العشر الاواخر مالا يجتهد في غيره"[١]

الســـحور:

" في اللغة بفتح السين – كالوضوء والسعوط، والحنوط، ونحوها، اسم لما يؤكل وقت السحر او ما يتسحر به من طعام وشراب"[٢]، والبدو يلفظون الكلمة بضم السين، وكسرها، وفتحها واحيانا بتسكينها "وقد سمي سحورا لأنه مشتق من السحر، والسحر ما بين الفجر الصادق، والكاذب لأن له وجها الى النهار، ووجها الى الليل، فلا يسمى سحورا الا ما كان في ذلك الوقت"[٣]

والسحور عند البدو يدل على امرين: اولهما وجبة الطعام، والثاني هو وقت السحر، ولا يطلق في الغالب هذا الاصطلاح، الا في شهر رمضان المبارك، وهم يرون ان في تناول السحور بركة، ولو كان ذلك لقمة طعام او كسرة خبز، او فلقة تمر، او جرعة ماء، وغالبا ما يشربون الماء ويكثرون منه في هذا الوقت، وذلك اتقاء لعطش اليوم التالي، كما يرون في تناول السحور قوة للجسم والبدن، وبركة يجب ان يأخذوا منها نصيبهم، ذلك انهم حريصون على ماله حرمة او قدسية وبركة الا يفوتهم الحصول عليه او الاخذ منه حتى ولو كان من باب الخرافات، فكيف به اذا ما كان من باب العقائد الصحيحة؟!، ولمثل هذه الاعتقادات اصل في الاسلام، "فعن انس رضي الله عنه"، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تسحروا فان في السحور بركة"، رواه البخاري، ومسلم[٤]"، وعن المقدام بن معد يكرب عن النبي (ص) قال: عليكم بهذا السحور، فانه هو الغذاء المبارك" رواه النسائي بسند جيد، وسبب البركة انه يقوي الصائم، وينشطه ويهون عليه الصوم[٥]، "وللعلماء اقوال في المراد بالبركة... منها ان الله يبارك في اليسير من السحور بحيث

تحصل به الاعانة على الصوم، ويدل عليه قوله "صلى الله عليه وسلم": (... ولو بجرعة ماء ولو بتمرة ونحو ذلك)[٦]. "وقد جاءت الاثار الكثيرة في فضل السحور، والحث على تأخيره الى اخر الوقت: ' من اراد ان يصوم فليتسحر ولو بشربة ماء"، "تسحروا ولو بالماء"، "ومن اراد ان يصوم فليتسحر بشيء"، "تسحروا ولو بحبة"، "تسحروا وخالفوا اهل الكتاب"[٧]

اما وقت السحور عند البدو، فكان يعتبر طيلة الليل، حتى بزوغ الفجر، (وطلوع نجمة الصبح او صياح الديك الأول)، واذا ما استيقظ واحد، ايقظ اهله، وجيرانه، بالمناداة بالاسم قائلا: يا فلان، او يابو فلان، وحد الله، قوم تسحر، او السحور لفا - اي حان وقت السحور - ، وعادة ينهضون في وقت مبكر ليتمكنوا من صنع الخبز والطعام، وتدب الحياة في بيوت الشعر في ساعة السحور، وتوقد النيران، ويتنادى القوم، وقد يتهادون الطعام، واذكر ان شراب قمر الدين كان هو الطعام المفضل لأنه مغذ، وخفيف، ولذيذ، ويستعمل كطعام وشراب، كما ان الزيت واللبن، من الاطعمة الرئيسية في السحور، واذكر انهم كانوا يتجنبون، المأكولات التي تؤدي الى العطش، كالاشياء الحامضة جدا، او الحلوة جدا (كالحلوى) وما الى ذلك، كما كانوا يتجنبون تناول الطعام المطبوخ، لأنه عادة يحتاج الى الماء،... وبعبارة اخرى كان السحور اشياء خفيفة وبسيطة، من اللبن والزيت، وقمر الدين والخبز، وعندما عرفوا الشاي، اصبح من الضرورات التي لا غنى عنها، واذكر ان المدخنين كان يهمهم بالدرجة الأولى التدخين على سيجارة او على الغليون، بل انهم كانوا يعطون ذلك الاولوية على الطعام احيانا.

وفي القرى والمدن هناك المسحرون الذين يقرعون الطبول على نغمات معينة، يشجعون الناس على النهوض لتناول السحور، اما عند البدو فان ذلك معدوم لعدم حاجتهم اليه، حيث ان نهوض اي منهم يعني انه ملزم ادبيا امام نفسه وربه ان يوقظ القوم، وعندما عرفوا الساعات، هانت المشكلة، حيث تربط الساعة البيتية على دقيقة معينة، فيقرع الجرس في الوقت المطلوب، وينهضون للسحور، ونفس الامر في المدينة ايضا.

ولا بد لي ان اذكر هنا، انه اذا ثبت العيد مساء احد الايام فمن عادات البدو ان يتسحروا ليلة العيد رغم ان اليوم الذي يليه عيد وافطار، لاعتقادهم ان السحور بركة (حسبما هو بنص الاسلام وذكرناه)، لذا فهم يتفاءلون في ان يبدأوا شهرهم، وينتهوا منه بالسحور الذي هو خير وبركة وعطاء.

---

١) المرجع السابق ص ٤٥٩
٢) قرة العين في رمضان والعيدين ج١ ص ٢٥٥.
٣) المرجع السابق ص ٢٥٦
٤) سيد سابق المجلد الاول ص ٤٥٥
٥) المرجع السابق ص ٤٥٦
٦) قرة العين في رمضان والعيدين ج١ ص ٢٥٧
٧) المرجع السابق ص ٢٥٦

ولا بد لي ان اذكر هنا انه اذا ثبت العيد مساء احد الايام فمن عادات البدو ان يتسحروا ليلة العيد رغم ان اليوم الذي يليه عيد وافطار، لاعتقادهم ان السحور بركة(حسبما هو بنص الاسلام وذكرناه). لذا فهم يتفاءلون في ان يبدأوا شهرهم، وينتهوا منه بالسحور الذي هو خير وبركة وعطاء.

وفي الثلث الاخير من رمضان كانوا يحزنون لفراق الشهر المبارك، ويرددون لا اوحش الله منك يا رمضان" و "الله يسهل عليك يا رمضان" و "الله يعيده علينا بالخير، وحنا سالمين وغانمين"، و "الله يعيده علينا بالخير والبركة"، ففي هذه الكلمات تبدو حرارة الوداع، والم الفراق، وتبدو التوسلات والابتهالات الى الله في ان يعود اليهم وهم بخير، ليكتسبوا المزيد من الخير والبركة... وهم لا ينسون الاستهزاء بمفطر رمضان، واحتقاره بوصفهم له "انه جحش رمضان" والبدوي حريص الا يوصف بهذا الوصف على الاقل.

واما الفارق ما بين سحور الليالي العادية، وسحور ليلة العيد، انهم ينامون بعد السحور في ليالي الشهر العادية، بينما نادرا ما ينامون بعد سحور ليلة العيد، لأنهم يتأهبون لصلاة العيد، التي يهتم البدو بادائها كثيرا كثيرا بما يزيد عن اهتمامهم بصلاة الجمعة التي هي فريضة.

زكـــاة الفطـــر:

وهي ما يخرجه البدوي عن نفسه وزوجه وابنه، وخادمه، صغيرا كان ام كبيرا ام جنينا من صدقة تكون قمحا او شعيرا، او لبنا، او تمرا، او زبيبا، والبدو حريصون جدا على اخراج هذه الزكاة والمسماة عندهم (الفطرة، بضم الفاء، وفتحها)، ويرون ان الصيام يبقى معلقا بين الارض والسماء، ولا يصل الى الله سبحانه الا بعد دفع هذه الصدقة لوجه الله سبحانه، كقربان توصل اجر الصيام الى الله، ويرون انها حق، وواجب، حتى انه يدفعها كل بدوي من يصوم منهم، ومن لا يصوم، ويرون انها كفارة للذنوب، وتزكية للحسنات والصوم، وهي طهر للرفث والفسق، ودفع للبلاء، والذنوب وتزكية للحسنات والصوم، وهي تأخذ الشوائب وتصرعها لتبقى الحسنات كما هي خالصة لوجه الله سبحانه.

ولكل هذا اصل في الاسلام وان غالى البدو في اعطاء اهمية لهذه (الفطرة)، ربما اكثر مما يجب، لأن فيها مشاركة من الغني للفقير، ومن الميسور لمن يعاني ضنك العيش والحياة، فتجلب السرور والفرحة الى قلوب اولئك المساكين، فينعمون بعيد سعيد، كما ينعم غيرهم تماما، فيقضي بذلك على اسباب العداوة والحسد والبغضاء، وهذا بحد ذاته عمل انساني اجتماعي في ان واحد بما يزيد من روابط المحبة والاخوة والالفة بين الجميع.

وجاء في الحديث "ان صدقة الفطر حق واجب" و "ليس في العيد صدقة الا صدقة

الفطر"، و "صدقة الفطر على الحاضر والبادي"، وروى ابو داود وابن ماجة عن ابن عباس، قال: "فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين"، ويقول الشيخ الاكبر ابن عربي فيها: واما زكاة الفطر، فانما امرنا بها، ليصعد صومنا الى محل القبول، فقد ورد في الحديث، "صوم رمضان معلق بين السماء والارض، حتى تؤدى زكاة الفطر"[1].

واذكر ان بعض الفقراء، والمساكين كانوا يدورون بين المضارب، يطلبون الفطرة، او زكاة الفطر، وأن البدوي كان لا يعطي كل زكاة فطر صيامه لشخص واحد، او لطالب واحد، بل، يجزئها، فيعطيها لاكثر من واحد، لتعم الفائدة والمنفعة، ويشتد نشاط طالبي الفطرة في العشر الاواخر من الشهر، واذكر ان اكثر ما كان يعطيه البدو هو القمح، لأنه القوت الرئيسي للانسان، ويمكن تخزينه لمدة طويلة دونما خشية عليه من العطب، ومن اقوال البدو "تنعطي لطالبها لو كان بظهر الفرس"، اي انه حتى ولو كان غنيا، فطالما انه قبل لنفسه الاستجداء، فيكفيه ذلك.

واما التوزيع الرئيسي للفطرة فكان للارامل (وهن النساء الفقيرات اللواتي فقدن ازواجهن، ولديهن اولاد يقمن باعالتهم)، وكانت الفطرة للفقراء المعوزين من المستورين او المعروفين، وهي لمن يطلبها كما قلنا ولو كان بغير حاجتها، وان كان هذا في اخر قائمة التوزيع... ويتم اعطاء هؤلاء المعوزين سواء اطلبوها ام لم يطلبوها، فكل فقير يأتوه اقاربه بنصيبه من هذه الفطرة لأنها تساعده على الحياة الكريمة، ومصارعة الفقر والتعاسة ويتم ارسالها اليهم الى بيوتهم، او ان يأتوا لاستلامها من بيت المتصدقين انفهسم، ولا بد لنا ان نذكر هنا انه حتى الذي يشحذ (يستجدي) الفطرة فانه يدفعها ايضا، مما تيسر عنده من ماله، او مما رزقه الله صدقة من الاخرين، يدفع زكاة لصيامه لغيره من الفقراء، لأن هذه الصدقة في اعتقادهم على الجميع غنيهم وفقيرهم.

وأما وقت دفع زكاة الفطر فهو عند البدو غالبا ما يكون في العشر الاواخر من شهر رمضان، وكان الواحد يعطي الفطرة مجزأة لاكثر من وقت واحد، وهذا يعني تجزئة الوقت ايضا، فيدفع بعضها في العشر الاوائل، وجزء في الثلث الثاني، واخر في الجزء الاخير، وربما يكون كلها، ولكن دفعها يوم (الوقفة) اي قبل العيد بيوم واحد، وصبيحة يوم العيد ينشط بشكل واضح، حيث ان اخراجها من البيت قبيل الضحى، احدى الاعتقادات المهمة عند البدو، اي قبيل ما يمكن ان نعتبره وقت صلاة العيد، وفي ذلك أصل بالاسلام "حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر باخراج الزكاة قبل الغدو للصلاة يوم الفطر"[2]

وكان بعض البدو يعاني من ضنك العيش بحيث يؤجل دفع هذه الفطرة الى وقت التيسير اي عندما تتيسر الأمور، وخاصة وقت البيدر (اي بعد الحصاد)، فيقال للفقير

---

١) المرجع السابق ج٢ ص ١٣٩

٢) قرة العين في رمضان "العيدين ج٢ ص ١٣٩"

الذي نطق له البدوي، لك عند كذا وكذا، زكاة صيامي ادفعها لك في الوقت الفلاني، وتصبح بذلك حقا لهذا الفقير، ولا يجوز اطلاقا التراجع، بل هي دين، له حق المطالبة بها.

ويدفع رب العائلة هذه الفطرة، عن زوجته واولاده وخدمه - كما قلنا - غائبهم وحاضرهم صغيرهم وكبيرهم، وعن الجنين، ومن مات في رمضان ايضا. وفي الوقت الحاضر تحولت الفطرة عند البعض الى دفع بعض النقود في المدينة والقرية، ولكنها عند البدو وحتى المستقرين منهم لا زالت تدفع بالحبوب، لاعتقادهم انها اكثر نفعا، واعظم اجرا من الفلوس، وتعطيهم الراحة والقناعة انهم قدموا عبادة مقبولة، اما اذا قدموا الفلوس، فيرون انهم قدموا شيئا ناقصا، ويشكون في قبوله، لأن الانسان لا يأكل فلوسا، وانما يأكل قمحا، وانهم يرونها فرضا، وحقا وواجبا، وفي ذلك "قال مالك: تجب زكاة الفطر على اهل البادية، كما تجب على اهل القرى وذلك ان رسول الله "صلى الله عليه وسلم، فرض زكاة الفطر من رمضان على الناس، على كل حر او عبد، ذكر او انثى من المسلمين"[١]، "وحدثني يحيى عن مالك، عن نافع، عن عبدالله بن عمر، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرض زكاة الفطر من رمضان على الناس، صاعا من تمر، او صاعا من شعير، على كل حر، او عبد، ذكر او انثى من المسلمين"[٢]، ونخلص الى القول ان لزكاة الفطر وظائف اجتماعية، ودينية، واقتصادية، وانسانية.

واذكر ان مقدارها من القمح عند البدو كان نصف صاع عن الفرد الواحد، المسماة (ربعية) اي ربع المسحة (وهي صاعان)، والصاع يساوي ٦ كغم، ونصفه ٣ كغم، وذلك هو مقدار زكاة فطر الفرد عند البدوي، ولا زال ذلك ساري المفعول الى الان ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م، واحيانا يستبدلها بعضهم بثمنها في حينه نقودا...

يوم الوقفة:

يعتبر اليوم الذي يسبق يوم العيد سواء (الفطر ام الاضحى) هو يوم الوقفة وان زادوا كلمة (عرفة - نسبة الى جبل عرفات)، او (وقفة عرفات) الى يوم وقفة الاضحى، وفي هذا اليوم يكون الاستعداد للعيد، من تنظيف للملابس، والبيوت، ودلال القهوة، وأواني الطعام، وشراء الحلوى او تجهيزها، والذبائح والتخطيط لصلاة العيد وربما رسم برنامج الزيارات او الاعمال الاخرى لأول ايام العيد او لما يليه ايضا من ايام.

وأما الاسواق القريبة فهي تعج يوم الوقفة بالناس الى حد كبير ومضغوط، حيث يتجمهرون ويتجمعون لشراء الملابس، والحلوى، والبضائع الاخرى، التي يحتاجونها لانفسهم او للهدايا، كما ان الرجل يجهز ما يبر به رحمه من الملابس والحلويات، يوم الوقفة او قبلة لارساله منذ يوم الوقفة، او يوم العيد، وذلك مشاركة منها لهؤلاء الرحم من النساء فرحتهن بالعيد، وادخال السرور الى قلوبهن...وبالاضافة الى ان ذلك عمل ديني اسلامي بحت، فانه ايضا عمل اجتماعي يرمز الى الترابط الاجتماعي بين اعضاء الاسرة الواحدة، وان تباعدت او تكاثرت وتناسلت... ومن العيب على البدوي ان يمر العيد دون

[١] الموطا - لمالك ص ١٩٠

[٢] المرجع السابق ص ١٩٠

ان يصل رحمه، بل ان ذلك عار عليه، والانثى تتباهى وتتفاخر ان (برتها - من البرة - اي الهدية لصلة الرحم)، قد وصلتها بحلول العيد، واذكر ان بعضهم كان يجهز ذلك في الايام الاخيرة من شهر رمضان، لتكون يوم الوقفة قد وصلت مبتغاها، وبعضهم يرسلها في اليوم الاول من العيد، وربما في اليوم الثاني او الثالث، او ما بعدهما.. وذلك حسب الظروف، ونوعية الاشخاص وبعد او قرب المكان، فالانثى الرحم القريبة، خاصة المجاورة يجب ان تصل حصتها قبل بدء العيد (وغالبا ليلة العيد او يوم الوقفة) اما البعيدة، فقد تكون قبل ذلك بايام او بعده بايام، لأن العديد من الظروف تتحكم بالامر...

وفي الوقت الحاضر يعتبر هذا اليوم استراحة، او هدنة للموظفين ان يرتحلوا من مكان العمل الى حيث بيوتهم، او الذهاب للسوق لشراء الحاجيات، انه محطة لالتقاط الانفاس لخوض معركة مدتها ثلاثة ايام بدون توقف... والبدو عادة يصوم بعضهم يوم وقفة الاضحى تضامنا مع حجاج بيت الله الحرام في ذلك اليوم العظيم، ويعتبرونه هو يوم الحج (انطلاقا من الحديث الشريف، الحج عرفة" (واما صوم عرفه فقد ثبت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم افطر يوم عرفة وانه قال: ان يوم عرفة، ويوم النحر، وايام التشريق عيدنا - اهل الاسلام - وهي ايام اكل وشرب، وثبت انه نهى عن صوم عرفة بعرفات، وقد استدل اكثر اهل العلم بهذه الاحاديث على استحباب الافطار يوم عرفة للحج لتقوى على الدعاء والذكر"[١]

ويكثر البدوي من الدعاء يوم الوقفة خاصة يوم عرفة، لان ابواب السماء مفتوحة، والدعاء مقبول، وهذه فرصة العمر، وتتضمن الادعية اشياء عامة للمسلمين، واخرى تخصه في ان يعيد الله عليه هذه المناسبة وهو بخير، وبصحة طيبة، "يا رب تعيده علينا وحنا سالمين مسلمين". فهو يتمنى ان يعود عليه وهو لا زال على الاسلام، لانه دين الله، الدين الصحيح الذي لا عوج فيه، ولا تحريف، ولا تخريف.

واؤكد ان يوم الوقفة (وقفة عرفة) كان اخر يوم للاستعداد لتجهيز الضحية التي سيقدمها البدوي لوجه الله صباح العيد، وفي المساء عندما يجتمع القوم، ويخططون ليوم غد على مستوى العشيرة، بينما تخطط الاسرة على مستواها، وتتذاكر في صلة الرحم، ومن سيقوم بارسال ذلك ويتم توزيع المهمات على مستوى العشيرة، والاسرة للقيام باعمال معينة تعني، هؤلاء، او اولئك.

وفي وقتنا الحاضر نجد الازدحام والازمة في كل شيء بالبضائع، والمواصلات، وقلة المتطلبات لكثرة الناس الذين يرتادون السوق، ويطلبون الشراء، الى الحد الذي لا تجد لك موطيء قدم، اذا اردت ان تذهب هناك.

هـــــلال العيـــــد:

من جملة العادات اللطيفة عند البدو: التفريق ما بين هلال الصيام في بداية شهر

---

١) سيد سابق فقه السنة المجلد الاول ص ٧٢٢

رمضان، وهلال شوال الذي هو في نهاية الصوم، ففي الاول بداية للخير والاجر والثواب، وبالتالي فان ثبوت الهلال برجل او اثنين مشهود لهما بالصدق، وقوة النظر، والمعرفة بالاماكن التي يتراءى فيها الهلال، تكفي للبدء بالصوم، وان اي تأخر يعتبر تقاعسا واثما لا يجرؤ احد منهم على اقترافه اما هلال شوال فأمر اخر، فهو وداع لعمل الخير، وخاتمة لحسنات عظيمة، وان اي يوم يزيد في الصوم هو مكسب لهم لا يتوانون عن احتوائه، لذا فلا يفطرون الا برؤية الهلال بشروط شديدة وقوية، بان يراه ما يزيد عمن راه في بداية الشهر، وعلى ان يكونوا بصفات حميدة كالتي ذكرناها، خاصة وانهم حذرون بتصديق رؤية الهلال اذا لم تمر ٢٩، او ٣٠ ليلة على الصوم، ولهذه العادة الجميلة اصل اسلامي:

"قال الترمذي: والعمل على هذا عند اكثر اهل العلم، قالوا: تقبل شهادة رجل واحد، في الصيام، وبه يقول ابن المبارك والشافعي رضي الله عنه، واحمد.

وقال النووي وهو الاصح: واما هلال شوال فيثبت باكمال عدة رمضان ثلاثين يوما، ولا تقبل فيه شهادة العدل الواحد، عند عامة الفقهاء، واشترطوا ان يشهد على رؤيته، اثنان ذوا عدل، الا ابا ثور فانه لم يفرق في ذلك بين هلال شوال، وهلال رمضان، وقال: يقبل فيهما شهادة الواحد العدل"[١]

واذا غم الشهر على البدء الحقيقي للشهر الذي قد يوافق بدء الصوم او لا يوافقه، فاذا اكملوا الثلاثين يوما، انتهى شهر رمضان وبدأ العيد السعيد، ومن هنا ترى اهمية ابلاغ البدو لبعضهم حتى ولو كانوا اعداء عن بدء الشهر او العيد، وذلك بالمناداة، وارسال من يبلغ القوم، وهذا عمل انساني وديني واجتماعي، ضمن الوظائف الاجتماعية العامة التي تتطلبها ظروف الحياة بالتعاون حتى في ظروف العداء والجفاء، وتفرق الديار والمنازل،

ولا شك ان اكمال الثلاثين يوما للصوم مأخوذة من الاسلام، وبالذات من الحديث النبوي الشريف، "وعن ابي هريرة رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال: صوموا لرؤيته، وافطروا لرؤيته، فان غم عليكم فاكملوا عدة شعبان ثلاثين يوما – رواه البخاري ومسلم"[٢]

وبذلك نرى ان عادات البدو الجميلة مستمدة جميعها من الاسلام، وقد توارثوا ذلك عن الاباء والاجداد، حتى تحولت العقائد والعبادات الدينية الى عادات اجتماعية.

وفي الليالي الاخيرة من شهر رمضان يقف الرجال زمرا لا تقل عن ثلاثة او اكثر في كل زمرة يراقبون الهلال، فاذا شاهده احدهم، دل عليه بالاشارة، حتى يراه من معه ليشهدوا معه على رؤيته، ويتحملوا مسؤولية الابلاغ عن ذلك، ولا يجرؤ بدوي ان يكذب على القوم لأنه بذلك يكذب على الله سبحانه، مما سيلحق بنفسه سخط ربه... فاذا ما اتفقوا على رؤيته ابلغوا الشيخ ذلك الذي عليه ان يصدر امره بانتهاء الصيام وبدء العيد، تماما مثلما يتم الان ابلاغ قاضي القضاة، وهو صاحب الصلاحية في اعلان العيد للشعب،

١) المرجع السابق ص ٤٣٥
٢) المرجع السابق ص ٤٣٥

وهو الذي يتحمل المسؤولية، ويثق الناس بما يقول في هذا الصدد، والشيخ البدوي طبعا يمثل جميع السلطات الروحية (غالبا) والزمنية في عشيرته، وهو المرجع الاول والاخير لهم.

واذا ثبت العيد اجتمع القوم في بيت الشيخ، يزغردون، ويرقصون، ويطلقون العيارات النارية، وينطلق الرسل الى القبائل والعربان المجاورة، وذلك لكسب الامر، واخذ السبق على القوم، فهو اشبه بسبق صحفي تتبارى العشائر في الابلاغ عنه بصدق، وبحق الله ليكون لها الفضل على سائر العشائر.

واذكر انه عندما كان يثبت العيد، كنا نتجمع كأطفال ونشعل النيران القوية، ونغني ونرقص حولها كالفراشات حول النور، ونحن نردد:

يا عيد عيد عندنا = واربط حصانك عندنا = تلقى المحبة عندنا = والخير منك ودنا

كنا نتصور ان العيد رجل فارس جواد، يطوف الارض والسماء، حتى اذا ما حان الوقت ترجل عن جواده وربطه، واينما حل حمل معه الخير، والنعمة، وبذلك نحرص بهذا الدعاء البرىء البسيط ان نستعطفه ليحط رحاله في ديارنا، فيعم الخير كل بيت وشخص، وهذه امنيتنا في الحياة، وكنا نعتقد ان هذه النار هي نور، يستهدي بها الضال، وتبدد الظلام، وبالتالي تجذب العيد لأنه يبحث عن النور ولا شك ان للنار ابعادا اكثر من ذلك نجدها بوضوح كنقاط ابلاغ للعشائر الاخرى عن بدء العيد، وحتى في الجيوش المحاربة القديمة، كانت وسيلة اتصال بين القلاع والقطاعات المتباعدة، لابلاغ امر ما.

وحول النار كوسيلة لهذا الغرض اذكر هنا حكاية رجل من عشيرة الزيود من عباد بالاردن، كان يعمل في الغور، بعيدا عن زوجته التي كانت كلما احتاجته اوقدت له نارا في راس الجبل بالبلقاء في منطقة ماحص، فيراها، فيتحرك ويصل في ليلتـه.

وكنا نرقص ونلعب ونحن صغار ابتهاجا بهذه المناسبة.. والبدو يقولون عن عيد رمضان (عيد الفطر، والعيد الصغير)، ويسمون عيد الاضحى (عيد النحر، والعيد الكبير)، وذلك لأن الأول يكون نهاية الفريضة، والثاني اثناء ممارسة الفريضة، كما ان كلمة الاكبر جاءت من القرآن الكريم حيث يقول تعالى في سورة التوبة: **"واذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر، ان الله بريء من المشركين ورسوله"**، وبذلك نجد تسمية العيد الكبير لعيد الاضحى لدى المسلمين جميعا، ومن جملتهم البدو.

ويستقبل الناس حلول العيد بالزغاريد والتسابيح، والتهليل، واحيانا بالحداء والغناء، واطلاق العيارات النارية، ولا زالت نفس هذه العادات عند اهل المدن، فهي عادات عامة، تعبر عن الابتهاج والسرور بقدوم العيد... واذكر ان التعليلة (اي السهرة) تطول وتستمر احيانا في بيت الوجيه، او بيت القهوة، او بيت الشيخ، الى ساعة متأخرة من الليل وذلك في تلك الليلة...

وعند ساعة السحور كما سبق وقلنا، ثم يرتدون ملابسهم، ويكونون قد استحموا ليلا، او فجرا، ويتحرك الرجال، واحيانا معهم الشباب لاقرب مسجد لاداء شعائر صلاة العيد، واحيانا اذا وجد احد شيوخ الدين ادوا صلاة العيد في امامته، وذلك بعد طلوع

الشمس وارتفاعها مقدار رمحين اي بما يساوي مسافة رمحين من نقطة التقاء الافق بظهور السماء، الى نقطة وصول الشمس... وهي نفس ساعة صلاة العيد في العرف العصري الحديث، اي ارتفاع الشمس قبيل بداية الضحى... ويحرص البدوي على صلاة العيد، لأنها خاتمة الصيام، حتى ان بعضهم ممن لا يصلي الا وقت الصوم، يتوقف عن ذلك بعد صلاة العيد مباشرة، ويرى وكأنه الان بدأ اجازة تنتهي في بداية شهر رمضان من العام القادم.

وفي الوقت الحاضر رغم وجود وسائل الاعلام التي تتحدث عن بدء وقت الصوم والافطار، وساعة الافطار اليومي والسحور الا ان بعض البدو خاصة من الجيل القديم لا يزال على نفس العادة من مراقبة القمر، وتقدير الوقت... فقط ممارسة لعادة في ذاته... وقد اصبح المذياع، والصحف، والتلفزيون من الوسائل السريعة الابلاغ والانتشار عن موعد الصوم والعيد، واذا عبنا على البدوي الذي لا تتوفر لديه الوسائل قديما في رؤية الهلال، وتفاوت البدء او النهاية للصوم بين عشيرة واخرى فان الأولى ان نعيب على الانسان العصري حيث اذا ثبت الهلال في دولة رفضت الاخرى لاسباب سياسية قبول هذا الثبوت، فتؤخر او تقدم الصيام والفطر، فتجد اكثر من بداية، واكثر من نهاية في عالم واحد ينتشر فيه الخبر "خلال دقائق" من ارجائه الى ارجائه... اما التفاوت عند البدو فهو لعدم وصول الخبر فقط، لأنهم في الامور الدينية لا يختلفون، ولا يجرؤون على تغييرها، وتحريفها، واضرب لذلك مثالا، ان الد الاعداء لبعضهم يزورون موقعا دينيا، فلا يسيء احد منهم الى الاخر بكلمة او تصرف مراعاة لحرمة هذا المكان او المناسبة، بل ان ذلك يكون فوق العصبية، والغضب والعداء.

في اول أيام العيـــــد:

ايام العيد عند البدو ثلاثة أيام اولها، واهمها اليوم الأول، ثم الثاني ثم الثالث، وفي الصباح او الفجر غالبا يستحمون، اذا لم يفعلوا ذلك من قبل بيوم او يومين، ويرتدي الجميع اجمل واحدث ما عنده من الملابس (ما عدا في اعياد الحداد اي اذا كان احدهم قد فقد عزيزا عليه، فلا يهتم كثيرا بالهندام واللباس والعطور).

ويذهب الرجال بعد ذلك لاداء صلاة العيد، واذكر ان الام او ربة البيت تقوم برش العطر على ملابس الزوج، والابناء والبنات. وقبل الحركة لا بد ان يتناول الذاهب حبة تمر، او قطعة خبز. رغم انه تناول السحور قبل قليل، وتعتبر هذه اللقمة بمثابة اعلان للافطار، "فالامر رمزي، وحقيقية في ان واحد"، وتبقى ربة البيت تجهز الاولاد، وتقوم بالعجين، وخبز اللزاقي الذي يصنعون منه فطيرة العيد[1] والتي تعتبر وجبة رئيسية

---

[1]) من عادات البدو صنع الفطيرة صبيحة اليوم الاول من كل عيد، لانها شيء رئيسي وضروري في هذا اليوم، وكانوا يصنعونها في غير هذين اليومين حسب الرغبة، وتتالف هذه من خبز اللزاقي يعجن بعد خبزه بالسمن او الزيت، وعليها السكر، واما اللزاقي فهو العجين الخامر يوضع قطعا على الصاج، ويرق وهو على الصاج ويكون اقراصا دائرية سميكة، ويقلب مرتان على الصاج حتى يستوي جيدا، ثم يوضع على بساط الخبز (المسمى الذفال - او الثفال)، ويقطع الرغيف الواحد الى اجزاء متوسطة الحجم في صحن ويصب عليه السمن او الزيت، ثم يرش عليه السكر، ويقلب عدة مرات، حتى تصيب كل قطعة نصيبها من الزيت والسكر، ثم تجتمع العائلة وتبدا بالاكل.

واساسية في اول ايام العيد، حيث تكون الكمية كبيرة، ومنها لاهل البيت، وكمية اخرى تخرج الى بيت القهوة، او بيت الوجيه، حيث يجتمع الرجال وقد جاء كل واحد بصحن فيه فطيرة (كما كانوا يفعلون في طعام الافطار من قبل)، ويأكلون معا، وهذا معنى سام يدل على التضامن والمحبة، والعهد على المشاركة في هذه الفرحة الطيبة، بالاضافة الى انه تشجيع لبعضهم على الافطار، حيث كان لا يجرؤ اي منهم على الاكل اثناء الصيام نهارا، واما الان ليطمئنوا ان العيد للجميع، وانهم جميعا مفطرون، فانهم يمارسون ما يدل على هذا امام بعضهم حتى لا يعتب اي واحد على الاخر، ويعتبره (جحش رمضان وهو تعبير يعني مخترق حرمة رمضان)، واذكر ان نظرة واحدة الى البيوت صبيحة يوم العيد كانت تكفي لرؤية الكراديش في البيوت، وفي بيت القهوة او الشيخ، وهم يأكلون الفطيرة، ويندر ان يمر عيد دون ان يأكل بدوي من هذا الطعام اللذيذ حقا، وبعد اعلان الافطار، وأكل القوم امام بعضهم بعضا، تبدأ مراسيم العيد الاخرى.

وبعد الاستحمام، وارتداء الالبسة الجديدة، والسحور، واكل لقمة الافطار، وتحرك الرجال لصلاة العيد، ثم عودتهم، وصنع الفطائر، ويأكلها الحضور او الجميع بعد عودة الرجال من الصلاة، تبدأ مرحلة اخرى هي مرحلة المعايدة الاسرية، والمعايدة الجماعية، تبدأ العائلة بالسلام على الاب او رب العائلة، وتقبيل يده، وتنطلق العائلة في المصافحة والمعانقة، صغيرا، وكبيرا، ذكرا وانثى والاباء يدعون لابنائهم بالخير، والرضى، والتوفيق، والنجاح من عند الله سبحانه وتعالى.

والسؤال الان متى تبدأ عملية المعايدة بالمصافحة والمعانقة؟ وكيف تبدأ؟!

وهناك اكثر من اسلوب وطريقة، فاما ان يتم هذا بعد عودة الرجال من صلاة العيد حيث يبدأ الاب بالسلام، وبعدها يؤدي كل واحد واجبه تجاه الجميع.

واما ان يتم هذا بعد اكل فطيرة البخت: وعند غسل اليدين، ينطلقون الى بعضهم بالمعايدات.

وهناك طريقة اخرى للبدء، وهي وصول ضيف عزيز، او قريب من خارج البيت، ويصافح الحضور مهنئا بالعيد، فيتبعه القوم الاخرون، وبعدها كلما وصل واحد او جاء، سار على نفس النمط، ولكن المعايدة لا تكون الا بعد ثبوت الهلال، وثبوت العيد، والفطر، ومزاولة الفطر عمليا بتناول الطعام، وبالذات فطيرة البخت، التي تعتبر هي الفيصل الفارق بين شهر صيام انتهى، ووقت اخر غيره بدأ من جديد..

والعيد فرصة للجميع لتناسي الخلافات والاحقاد، رغم ان بعض الاعراب (ولا اقول البدو) لا يسمحون لانفسهم بمزاولة العادات الطيبة والسماح، ومن المجاملات اللطيفة، عند البدو ان واحدهم يصافح ويعانق حتى عدوه، أو (من هو على خلاف معه)، اثناء العيد، ثم يعود الى جفائه معه بعد مرور هذه المناسبة، وفي رأيي ان البدوي من ابرع بني البشر في المجاملات والسياسة.

وبعد السلام يتم توزيع حلوى الاسرة وهي من (الملبس والتوفة، والكعيكبان "وهو صفائح من الحلوى الجافة") وبعد آداء هذا الواجب الاسري القريب داخل

البيت، يتحرك البدوي لاداء واجبه تجاه عشيرته[١]، اي ان هناك واجبا اجتماعيا، يعطي الفرد بعدا اجتماعيا لا يستطيع التنصل منه، ومثل هذا الضبط والترابط ضروري، ويرمز الى استدعاء العشيرة كاملة في زمان ومكان محددين... لدى الشيخ الذي يعتبر هو المجمع، ويتحركون نحو بيته، راجلون او على جيادهم، وهم احيانا يتحادون، وقد لبسوا اجمل الالبسة، ومعهم اسلحتهم، ويستقبلهم الشيخ داخل بيته، وربما عند باب البيت، يصافحونه، ويعانقونه، وقد يقبلون انفه او جبينه او صدره، او كتفه، تعبيرا عن الاحترام والتقدير لشخصه، وعن الخضوع له ولأوامره، ولا شك ان حمل السلاح يعبر ويرمز الى القوة، وعلى ان (نفس الرجال يحيي الرجال)، والعيد فرحة، وهو مظهر من مظاهر التكاتف والترابط، والقوة، والتعاون والمحبة... وبعد المصافحة والمعانقة يجلس القوم، وتدار لهم القهوة، ثم يؤتى بصواني الفطيرة او الحلوى، او كليهما تباعا، اولهما الفطيرة لأنها حلوى مع (عيش وملح)، ثم الحلوى لأنها رمز على حلاوة العيد، ويسود الهرج والمرج في الحديث المتشعب، ثم يأتي دور الصابية، وهي العاب الفروسية، وتظهر قدرة الشباب، والكهول، والشيوخ، وعلى كل قادر او من لديه فرس او حصان ان يؤدي دوره دونما تأخير، وقد يكون هذا السباق على الهجن، وربما اذا لم تتوفر هذه وتلك، يجري السباق ما بين الشباب انفسهم كتمارين للتقوية، والاختبار.

وقد يمتطي الجميع صهوات جيادهم، ويقف الشيخ وهم يمرون امامه، بالمسير العادي، ثم بالهذابة (وهي الركض الخبب ما بين المسير السريع والركض)، ثم السباق (او المسابقة)، وهو الركض السريع، وبذلك يطمئن الشيخ الى جماعته انهم ليسوا اقوياء وكثر فحسب، بل وفرسان يجيدون لعبة الفروسية التي يحتاجها في كل لحظة ايضا.

وعلى الشيخ ان يصنع طعام غداء **لجميع الحضور**، لذا تجده يجهز الذبائح منذ يوم او اكثر فقومه اكرموه بحضورهم، وعليه ان يكرمهم باحترامهم واطعامهم، فكما ان مجيئهم يعني محبتهم له، وولاءهم، وانضباطيتهم، وخضوعهم له، وهذه امور تتطلبها اعراف الصحراء، فان اكرامه لهم يعني تقديره لكل هذه المشاعر، واعطائهم عهدا ان يبقى الحارس الامين على مصالحهم.

ولو نظرنا الى العصر الحديث، لوجدنا انهم يتبعون نفس الاسس البدوية في الاعياد مع الفارق في التنفيذ لاختلاف البيئات، والظروف الاجتماعية والسياسية، حيث نجد كبار المسؤولين يحضرون لمعايدة الحاكم او من هو على شاكلته، ولا تتاح الفرصة للفرد العادي من الناس ان يفعل ذلك، بينما نجد لدى الشيخ البدوي ان بمقدور اي بدوي ان يذهب الى بيت الشيخ، ويأخذ نصيبه من الحلوى، والمعايدة، والحديث، والطعام، وهذا مالا يسمح به في المدينة والدول العصرية، كما انه في الأعياد قد يستعرض القائد العصري جنوده، او يزورهم في مواقعهم، تماما مثلما يفعل ذلك الشيخ البدوي،

---

[١]) لا بد ان نشير هنا ان اطفال البدو يتجمعون صبيحة العيد وهم يلعبون بفرح بالغ بهذه المناسبة وهم ياكلون الحلوى، ثم يتحركون من بيت لاخر للحصول على هذه الحلوى حيث يعطيهم كل بيت ما يمكن ان يعطيه، كما ان النساء يتزاورن فيما بينهن، للمعايدة ايضا، وهكذا، يشارك الطفل والمراة الى جانب الرجل

الذي قد يزور احد افراد العشيرة اذا كان مريضا، او بحاجة الى مساعدة على سبيل المثال.

وفي المجتمع العصري يحرمون من مشاهدة العاب الفروسية ايام العيد، الا في نوادي واماكن خاصة، بترتيبات مسبقة، بينما تأتي هذه الاعمال البدوية عفوية، وعلى الطبيعة، وتحصيل حاصل لاجتماع القوة معا في مكان وزمان واحد... وفاتني ان اقول ان المجلس يتحول بعد الصابية الى ميدان رماية، ليظهر كل واحد براعته وقدرته، وما ذلك الا تدريب للقوم ومعرفة القديرين منهم في هذا المجال، وتشجيع للضعاف ان يسيروا الى الامام، ونحو الافضل... ولا شك ان ذلك لا يتحقق للعصريين الا في نوادي خاصة، وترتيبات معينة، وليس بطريقة عفوية مثلما يحدث عند البدو... ولا يفوتنا ان نبين ان الحكام العصريين لا يصنعون طعاما لمهنئهم ، مثلما يفعل الشيخ البدوي، وذلك للظروف الحياتية والاجتماعية التي تختلف، ومع هذا نستطيع القول ان بساطة البادية، خير كثيرا من تعقيد الحياة العصرية الذي لا يمكن الحاكم من تقديم الطعام، او اتاحة الفرصة لجميع الحضور لمشاهدة سباق الخيل، او اطلاق العيارات النارية، فالميدان الذي يتسع لاعداد المهنئين غير موجود، والاعداد اكبر من اي استيعاب، بينما كل ذلك ممكن لدى الانسان البدوي.

وأما اذا وجد مريض في العشيرة، فالجميع يتحركون لزيارته وعلى رأسهم الشيخ، وما اجملها عندما يرى اي مريض مهما صغر او كبر في القوم جميع اقاربه، بما فيهم الشيخ، يحضرون للطمأنينة عليه وعلى صحته، ويسلك الحكام العصريون احيانا هذا الاسلوب بزيارة المرضى، والفارق ان الشيخ البدوي وجميع زواره يتحركون لمشاهدة المريض، اما العصريون فهذا يقتصر على مرضى معينين، مع هذا فان الطريقة البدوية تبدو اكثر صدقا واصالة!!..

وهناك عادة لطيفة عند البدو وهي انهم مثلما يذهبون لزيارة المريض منهم، فانهم **يذهبون ايضا الى بيت اي شخص مات، للتعزية بوفاته في العيد الاول** الذي يمر على التحاقه بالرفيق الاعلى، فمثلا، اذا مات شخص، فان اول عيد يمر على موته، سواء اطال الوقت ام قصر، يكون ذا موضع وموقع خاصين، حيث ان عائلته تقرب الى الله ذبيحة اجرا عن روحه، ويحضر اقاربه للتعزية، والسلام، ونجد ان هذه الذبيحة تؤدي غرضا اجتماعيا، بالاضافة الى الغرض الديني، هذا الغرض هو انها غداء او عشاء للحضور، ويقال لها: عيدية الميت فلان (في عيد الفطر) او ضحية الميت فلان (في عيد الاضحى)، واذا وجد اكثر من واحد بنفس المناسبة، فانه لا بد من المرور بهم جميعا، وتعزيتهم والسلام عليهم. لما يرمز اليه هذا من ان فراقه وفقدانه هو على الجميع، وليس على ذويه وعائلته فقط.

ومن العادات عند البدو: انه لا بد من تناول وجبة لحم يوم العيد، سواء بذبح راس في كل بيت او اشتراك عدة بيوت براس واحد... وفي الوقت الحاضر يمكن شراء ذلك من اقرب قصاب، من السوق او الحانوت الموجود في القرية، او ذبح الدجاج... او ما الى

ذلك اما عيد الاضحى (المسمى العيد الكبير، وعيد النحر) فله ميزة خاصة تختلف عن غيره، حيث انه يجب (في عرف البدوي) على كل من حج بيت الله ان يقدم اضحيته لمدة سبع سنوات بعد عودته، وكذلك من يتوفاه الله، فعلى ورثته من بعده خاصة اذا كان له اخوة او ابناء، ان يقدموا اضحية اجرا عن روحه، وقبيل ذبحها ينادى بصوت عال: يا رب: هذه ضحية فلان بن فلانه، واصلة ومقبولة، ثم يتلها للجبين، ويذبحها قائلا: باسم الله، الله اكبر.

وللضحية شروط عند البدو وهي نفس شروطها في الشريعة الاسلامية. فاذا كانت من الضأن الا يقل عمرها عن ستة اشهر، وان تكون سمينة ويسميها البدو (عدلة، جزلة). واما اذا كانت من البقر فلا تقل عن سنتين من العمر، وأما اذا كانت من الابل، فلا يقل عمرها عن خمس سنوات. واما الماعز (او المعز) فان لا يقل عمره عن سنة تامة، ويشترط في الضحية ان تكون سليمة، فلا تجزىء العوراء، ولا العرجاء ولا الجرباء، ولا الهزيلة العجفاء، واما لحم الاضحية، فمنه ما يتصدقون به على الفقراء مما يتيح لهؤلاء فرصة طبخ اللحم واكله يوم النحر، ومنه ما تأكله العائلة صاحبة الاضحية وهذا مأخوذ من الشريعة الاسلامية، حيث يقول الله سبحانه وتعالى... **(فكلوا منها واطعموا البائس الفقير)** وهذا يدل على ان الله سبحانه قد امر بالأكل من لحوم الهدي، واطعام الفقراء وهو نفس ما يفعله البدو تماما... وأما لماذا يضحون للحج سبعة اعياد متتالية فهذا رمز وتعبير عن الطواف حول الكعبة سبع مرات، والسعي بين الصفا والمروة سبع مرات وبالتالي اصبح هذا الرقم يعني تقديم عبادة معينة هي فريضة مقدسة وما الذبح سبع مرات الا رمزا لهذه العبادة.

وأما النقطة الثالثة المهمة في تبادل التهاني بالعيد، فهي: زيارة الارحام، من الاخوات، والامهات والبنات، والقريبات. وما الى ذلك، فهم يرون في صلة الرحم طيلة العمر، واجرا عظيما، من خلال المبدأ الاسلامي.

اطعموا الطعام، وافشوا السلام، وصلوا الارحام، تدخلوا الجنة بسلام، واذا كان العرض والرحم عند البدوي هو اهم ما يدافع عنه في الحروب، وغيرها، فليس غريبا، ان يحافظ عليه بالوصال، والزيارة والتي ترمز ايضا الى الطمأنينة عن حالة الانثى، وتقديم المساعدة اللازمة اليها، المتمثلة بالمساعدات المادية، او الهدايا، كالالبسة والماكولات المختلفة.. كما انها (الزيارة) تقوية لمعنويات الانثى لدى الزوج والاولاد، والجيران، ان لها اقارب اقوياء، رجالا، رحيمين، وهذا يعطيها اهمية اكبر لدى الاخرين خاصة اذا كانت متزوجة عند الغرباء، حتى ان من العادة ان يذهب والد الفتاة او اخوها ومعهم عدد من رجال القبيلة وهم في احسن ما يكونون في حلية وقوة، ومعهم الهدايا الكثيرة لزيارة ابنتهم المتزوجة في ديار الغربة (سواء غربة المكان او غربة العشيرة)، وهكذا يطوفون على بناتهم البعيدات عنهم، وهذا يزيد من اهميتهم في اعين الناس، واهمية بناتهم في اعين الذين تزوجن معهم، واذا اراد الزوج ان يتصرف بما لا يليق مع واحدة منهن حسب الف حساب، قبل ان يفعل ذلك، لانه يعرف من هم الرجال الذين تنتمي اليهم، كما ان البدوية

اذا لحقها ضيم قالت: (يا ويلي يا هلي يالي ضيعوني)، وذلك في حالة تركها في ديار الغربة دونما دعم معنوي، وزيارات، وصلة رحم، فهم بذلك ضيعوها، اي تركوها لزوجها، ان شاء رحمها وان شاء اكرمها، واذا لحقها حيف منه يعرف انه لا احد يساندها، فيضعف جانبها، وترى انها ضاعت، وقد تقول معبرة عن نفس الموقف: (يا ويلي يا قلة رجالي)، ومثل هاتين الصيحتين كفيلتان ان تفعلا فعلهما في القبيلة البدوية، اذا وصلتاهما كما فعل نداء المسلمة (وامعتصماه) زمن الدوله العباسية.

وهناك نقطة لا بد من ذكرها وهي عندما **تريد الفتاة المتزوجة زيارة اهلها بالعيد، فانه عادة تقوم يرافقها زوجها بزيارة اهلها بعد ان يقوموا هم بزيارتها،** وتعتبر هذه ردا منها ومن زوجها على اكرام اهلها لهما، وترابط لطيف، وضروري، وترويح عن النفس في قضاء اجازة لعدة ايام لا تتجاوز الثلاثة ايام وثلث (وهي مدة الضيافة عند البدو)، ثم تعود الى بيتها والى زوجها.

وقد ازدادت هذه العادة الاخيرة قوة في هذه الايام (السبعينات من القرن العشرين)، حيث تقوم العروس بزيارة اهلها يرافقها زوجها، قبل ان يقوم الاهل بزيارتها، وتذهب منذ اليوم الاول للعيد، وهذا يدل على ضعف الترابط الاسري بين الزوج واهله في ان يقضي اليوم الاول من العيد خارج بيته (في بيت اهل زوجته)، كما يدل على مدى سيطرة النساء على الرجال، وانانية اناث هذا الوقت، وعدم تقديرهن لارتباط الزوج باهله واقاربه، وزواره... كما ان العادة ان يقضي من انعم الله عليهم بالمال اجازة العيد خارج البيت، او خارج الوطن، ويتباهون في ذلك، اما نحن فنفتخر اننا نقضيها في ربوع وطننا، وفوق تربتنا التي جبلت بدماء ابائنا واجدادنا... وكفانا بذلك فخرا، ونرجو ان نكون قد القينا بعض الضوء على مناسبات الاعياد (الفطر والاضحى)، ما استطعنا، وما علمنا، ونأمل ان يأتي بعدنا من يستطيع اكمال المهمة، والكتابة بتفصيل اكثر عن هذه الامور والله ولي التوفيق، يعلم ما في الصدور، وما توسوس به انفسنا.

مناسبات دينية اخرى

قلنا ان عيدي الفطر والاضحى هما العيدان الرئيسيان عند البدو، لانهما كذلك في الاسلام (الذي يدين به البدو)، ومع هذا فان هناك بعض المناسبات الدينية الموسمية المرتبطةباعتقادات معينة، وبعضها في سبيله للاندثار، بينما ينمو بعضها الاخر، واقصد بالاول: الخمسان، وزيارات الاولياء، واقصد بالثانية وداع واستقبال الحجاج، وتتمم هذه المناسبات في مهماتها والغرض منها ما تؤديه المناسبات الرئيسية، كما ان الاحتفال بها يأتي تعبيرا من امور ضرورية في حياة البدوي، وهي جزء منها، وسنتحدث عن كل مناسبة على حدة:ـ

الخمسان

والمفرد الخميس، واللفظ يطلق من ناحية عامة على موسم الربيع في شهر نيسان، وهي خمسينية الربيع التي تسبق خمسينية الصيف، وتبدأ بعد اربعينية الشتاء ولفظ

(الخمسان)، يعني اوج هذا الفصل في الربيع وهو الاسبوعين الاولين من شهر نيسان، واما المقصود هنا فهو ما يسميه البدو (العشيات ـ بتسكين اللام وكسر العين وتسكين الشين)، ومفردها (العشاء). والمقصود بها الذبيحه الخاصة بهذه المناسبة **والتي يقدم البدوي لحمها هدية للنساء من حرمه، واقربهن اليه، على شكل قطع كبيرة مطبوخة باللبن...** وعلى ان يكون ذلك مساء الخميس ليلة الجمعة، وربما جاء الاسم من هذا اليوم ايضا، وبالطبع فان ليلة الجمعة مباركة عند البدو ويتيمنون بها.

ولذبح الذبيحة مراسيم خاصة، حيث تكون سمينة، قوية، وغالبا ما تكون انثى لا ذكرا، وان جاز الذكر اذا انعدم وجود الانثى ثم يعرض عليها الماء والطعام حتى تكتفي، ثم ينادي الذابح: هذه ذبيحة لوجه الله اجرها وثوابها عن روح فلان (احد الاموات)، ثم يتلها للجبين، ويذبحها حسب اصول الشريعة الاسلامية، ويقسم لحمها الى قسمين الاول: للولايا او مفردها ولية (بتشديد الياء) وهي الانثى من ذات الرحم القريبة (اخت، ابنة اخت، ابنة عم، عمة، خالة، ابنة ..الخ)، ويتم تقطيع هذا الجزء الى (مجازي) اي الى قطع كبيرة حسب المفاصل (اي اجزاء).

واما الجزء او القسم الثاني: فهو للمعازيب يأكلونه مشويا او مطبوخا.

اما الاول: فهو لحم الشذايا (اي الرجلين الخلفيتين ــ اي الفخذتين)، والزور (اي الصدر من الاسفل)، والرأس، ولحم اليدين الاماميتين.

اما الثاني: فهو ما تبقى من الاطراف المسمى (الاطراف، او العفش)، ولحم سلسلة القفص الصدري، وينتفع المعازيب بالجلد ايضا، وتطبخ الذبيحة عادة باللبن، حيث موسمه هذا الوقت، وقد يتساءل البعض هل تكفي ذبيحة واحدة؟ وهل تفي بالغرض؟ واقول: قد يذبح بعضهم ذبيحتين او اكثر، ولكنها لا تقل عن ذبيحة واحدة، والطريف ان الجميع ملزم حسب العادة، وصلة الرحم، ان يذبح ذبيحة العشاء، او الخميس، حيث ان الاستنكاف عن ذلك يدل على البخل، وعدم صلةالرحم، وذلك ما لا يطيقة البدوي اطلاقا.

ومما اذكره انني كنت احمل قطع اللحم المطبوخ هذه وانا طفل لاقوم بتوزيعها على الاناث من ارحامنا، حيث لا توزع هذه الا على الاناث فقط، ولا شك ان لهذا العمل دلالة جميلة في زيادة اواصر الود والقرابة، بين ذوي الارحام، كما انه مناسبة لتناول وجبة دسمة من اللحم المطبوخ باللبن، ومما اذكره ان يصل للانثى الواحدة عدد كبير من القطع، فتشبع هي وابناؤها وزوجها، وقد يصادف ان تلتقي (الطعمة ــ وهي ما يقدم من الذبيحة لذات الرحم)، مع (عشاء ــ اي ذبيحة الخميس) التي تكون في بيت زوجها الذي عليه ان يؤدي واجبه تجاه ارحامه.

ويرى البدو ان عدم فعل هذا الشيء قد يؤدي الى موت في القطيع من الماشية، لانه بمثابة تزكية له، كما اذكر ان بعضهم كان يؤجل عشاء العام الذي فيه الى العام الذي يليه بسبب ضيق ذات اليد، ويعتبر بذلك حقا واجبا ايفاؤه.

واذكر ان عنق الذبيحة المسمى (الرقبة) كانت من نصيب الراعي، ويقولون

(الراعي له الرقبة)، باعتبار ان على كاهله مسؤولية كبيرة في رعاية وحفظ الماشية.

وبغض النظر عن الخلفيات التي انتجت هذه العادة، فانني اراها حسنة، لانها تهدف بالدرجة الاولى لصلة الرحم، واي عمل من هذا القبيل يستحق التقدير والثناء، كما تهدف بالدرجة الثانية الى اتاحة الفرصة لافراد العائلة لتناول وجبة دسمة من اللحم، وهذا بحد ذاته شيء ممتاز ايضا.

وقد اندثرت هذه العادة الان عند معظم البدو، وذلك لانشغالهم بالاستقرار او تغلب الناحية التجارية المادية، بل وتفوقها على الامور المعنوية الهامة احيانا... كما ان صلة الرحم اليوم يمكن ان تتم بواسطة بعض الهدايا كالفواكه والاطعمة المختلفة، والالبسة، وربما المأكولات التي يمكن جلبها من السوق وبسهولة.

اما حمل الطعمة او حصة الانثى، فيتم بواسطة طفل او شاب او انثى، او رجل، ومن الطريف ان يأتي رجل بطعمة صغيرة، وهي قطعة لحم لانثى تخصه فيقوم زوجها او اهل زوجها بعمل غداء او عشاء من ذبيحه او اكثر اكراما له؟! فكل من الطرفين يؤدي واجبا، تجاه ما يجب، وردا على ما قدمه له الطرف الاخر.

بقي ان نقول ان هذه الطعمة لا تطلب (بضم التاء)، اي لا يجوز للانثى ان تطلبها ممن يترتب عليهم صلتها، بل ان لها وقتا معينا، والكل يفهم واجبه ويؤديه بدون طلب، ورجاء، لقد كانت هذه العادة موسما يترقبه البدو كثيرا، اما الفقراء جدا والارامل فانهم يحصلون على مساعدات الجيران من اللحم او الذبائح ليكونوا بذلك كالاغنياء.

زيارة الاولياء

والمقصود بالاولياء هنا، هم كل من يعتبرهم البدو كذلك، بان ينظروا اليهم بعين التقدير والتقديس، والاهمية الروحية، والرهبة الغيبية، فلا يساء اليهم بالقول ولا بالفعل ولا بالاشارة، ولا يعتدى عليهم باي صورة من الصور، ويحس البدوي امامهم بالرهبة، والخشوع، والصفاء الروحي، فلا يحلف عندهم يمينا كاذبا، ولا يسرق شيئا مما في حوزتهم، ولا يعتدى على من دخل بهم من حيوان، او طير او انسان.

والاولياء هؤلاء ليسوا الانبياء فحسب، بل واخرين قد يكونون من اباء واجداد العشيرة نفسها، وقد يكون هناك ولي للجميع، او ولي لعشيرة معينة، وهناك النبي وهناك الولي، وهناك المقام، وهناك الشملة والنملة.

اما الانبياء: فهم سيدنا موسى عليه السلام، وسيدنا شعيب عليه السلام، والأول في الضفة الغربية من الاردن، والثاني في وادي السلط المسمى باسمه، حيث يوجد قبران لهذين النبيين الكريمين عليهما السلام كل في الموقع المذكور.

اما الاولياء: فهم اقل درجة من الانبياء، وهم متعددون ولا سبيل لحصرهم في الاردن، لكثرتهم، ولا يشترط ان تكون هذه القبور هي فعلا قبور اولياء او رجال صالحين، وانما هي متعارف عليها كذلك فقط، لحاجة البدو الى مثل ذلك في حياتهم التي كانت

تتطلب اي وسيلة روحية غيبية لخلق الرهبة في صدر كل واحد، لاعطاء الأمن والطمأنينةوالحماية لهم من جهة، ولوقاية منتجاتهم (كما سيأتي) من جهة اخرى، بالاضافة الى استخدامهم في استخراج مكنون الجرائم ومجهولها، حيث لا يمكن للبدوي ان يحلف عند نبي او ولي او مقام كاذبا، حتى ولو كان مطالب بدم قتيل، ولو عرف ان مصيره الموت، لأنه يخشى الله والولي، اكثر من خشية الناس.

اما المقام: فهو مكان يتعارف عليه البدو ان احد الانبياء او الاولياء قد صلى فيه، او توفي، او سكن وعاش، بحيث تصبح تلك البقعة ذات مكانة خاصة في نفوسهم، ومنها مقام الخضر قرب ماحص بالبلقاء، من الاردن، هذا بالاضافة الى ان كلمة مقام تطلق احيانا على قبر النبي او الولي، اي حيث يقيم الاقامة الاخيرة الدائمة (وهي الموت).

اما الشملة والنملة: فهي من ايمان البدو وذلك في حالة بعد مضاربهم عن اي من مقامات او قبور الاولياء والانبياء، فان اليمين يجري برسم حوطة بواسطة السيف (دائرة على التراب)، وتوضع فيها حبة قمح، او شملة (وهي ما يوضع على ثدي الناقة من القماش لتغطيته عن الذباب، ورضاع ابنها) ومع الشملة توضع حبه حنطة او نملة، والتي ترمز الى الفطنة والحكمة، والصدق، بينما ترمز الشملة الى الحياة وذلك ان حليب الناقة هو الاساس في غذاء البدو، ثم يتجه الشخص للقبلة ويحلف، اليمين، وقد وضع أمامه سيفا ومصحفا ويحلف عليهما لذا يقال (يحلف على السيف والمصحف).

وزيارة الانبياء او الاولياء او المقامات من المناسبات الهامة عند البدو، فمثلا يزورون قبر سيدنا موسى (او ما يعتقدون انه قبره)، في شهر نيسان من كل عام، حيث يسلمون عليه، ويتبركون به، ويذبحون الذبائح عنده، ويحلفون الايمان في القضايا المجهولة، ثم ينذرون ذبح شاة معينة عند عودتهم الى بيوتهم، ويرون ان هذه الزيارة تزيدهم بركة ونعمة وخيرا ونماءا في مواشيهم ورزقهم، وان فيها اجرا عظيما عند الله، وبعضهم ينذر الا يطهر اولاده ويختنهم الا في هذه الزيارة، او لدى زيارة (ابونا الخليل) اي قبر سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام، لذا نجد المطهرين، واصحاب المهن الاخرى وبائعي البضائع يوجدون هنا في هذه المواسم.

اما زيارة سيدنا شعيب، والاولياء الاخرين، فهي تتم في كل وقت، وفي اي وقت وخاصة في الربيع، حيث يزورونها باغنامهم (اذا كانت مضاربهم قريبة)، وذلك اعتقادا منهم ان البركة والحماية تحوط مواشيهم بزيارتها هذه معهم، وكانوا يطوفون بمواشيهم حول القبر الذي اصبح الان مسجدا، ويصعب فعل ما كانوا يمارسونه، واذا قفزت شاة الى داخل القبر، وجب ذبحها، واذا كانت اكثر من واحدة تم انتقاء احسنها للذبح، وكانوا يقيمون الولائم قرب القبر، ثم يعودون الى مضاربهم، بعد ان يتبركوا بالقبر، ويأخذوا من علقه (اي من قطع القماش الخضراء التي كانت توضع على حجارة القبر، او على عيدان صغيرة تغرس بهذه القبور).

ويزورون هذه القبور ايضا للتبرك الشخصي بالاضافة الى التبرك للمواشي، حيث يقدم شخص معين تنفيذا لنذر، او طلبا لامر ما او ليدعو الله ويطلبه شيئا، لاعتقاده ان الدعوة هنا مستجابة بسبب بركة النبي او الولي.

ويزورنها لحلف اليمين عند الاختلاف حول امر ما. ويتفق الطرفان، او يستقر امر القاضي، وفرضه او طلب صاحب الحق ان يحلف المتهم اليمين ليصبح بعدها بريئا، فيذهب الطرفان مع وجود الشهود، والكفلاء واذا حلف الشخص اصبح بريئا حتى ولو كان مذنبا، لأن اليمين عند البدو هو اعظم شيء في فصل الخطاب والخلاف، ويرون ان الحالف الكاذب لا بد وان يلقي عقابه وجزاءه العاجل لقاء كذبه على الله، ولا بد ان يصيب هذا، الذي طلب اليمين ايضا لذا قالوا:

(يا ويل الحالف)، يا ويل المحلف، ومن النادر جدا ان يحلف البدوي يمينه كاذبا، وان فعل ذلك بعض الاعراب، والفلاحين وكثير من المتهمين البدو ينكر جريمته حتى يدخل حوطة النبي او الولي، ويبدأ بحلف اليمين، ثم بدلا من ان يقول عن نفسه بريء، يعترف انه مذنب، فيسمع اهل الحق حقهم لقاء صدقه، وليتعود الجميع الصدق، وحتى لا يتعودوا على حلف اليمين كاذبين، ولا شك ان هذا بدأ يتلاشى ويضعف للاسف الشديد، وكان الناس على الفطرة والبساطة، اكثر مما هم عليه الان، حيث يحلف الواحد الان الايمان الكثيرة زورا وبهتانا.

ولدى عودة الزائرين، يهرع الجيران لتهنئتهم بالزيارة ويستمعون الى وصف للرحلة، وللأقوام والقبائل والاشخاص الذين جاءوا الى هناك، ويحصلون على قطع القماش الخضراء تيمنا في اقتنائها، رغم ان هذا اوهاما وخرافات لا قيمة لها في العرف العلمي او الديني، وقد يذبح القادمون ذبيحة لوجه الله بعد عودتهم الى بيتهم.

والشيء الذي لا بد من ذكره هنا ان الانسان البدوي الذي كان يبحث عن الامن والحماية بشتى الوسائل والطرق، كان حريصا على خلق اي وسيلة تكفل له ذلك، ومن ضمنها استعمال قبور الانبياء والاولياء والمقامات لتخزين المواد الغذائية، واي شيء يريد حفظه، وكان يمكن لاي مار باحد هذه الاماكن في بداية القرن العشرين وما قبلها ان يرى اكوام القمح، والشعير، والجميد، وصفائح السمن، وما الى ذلك، داخل حوطة الولي، وتبقى لعدة اشهر، وربما على مدار السنة، ولا يمسها احد الا صاحبها الذي يأتي لاخذ حاجته كلما اقتضى الامر ذلك، ولا يمكن لاحد ان يأخذ شيئا من هذه، او من حصة واموال غيره لاعتقادهم ان هذا اعتداء على حرمة النبي او الولي او المقام، والذي لا يتوانى عن الانتقام الفوري من هذا المعتدى، كان يصيبه شلل، او انحراف في فمه، او مرض، او موت، او اي شيء من هذا القبيل، ولا احد يجرؤ على ان يجعل نفسه ضحية تصرف طائش او دناءة نفس امارة بالسوء.

ولا شك ان وضع المواد في هذه الاماكن ضرورة اقتضتها طبيعة حياة الانسان البدوي، وهو تصرف لا بد منه، حيث البدوي متنقل، ولا يتناسب مع ذلك حمل جميع المتاع، والطعام ، والميرة وحيث كانت لا توجد بيوت من الحجر انذاك الا نادرا، وقد

تتعرض للسطو، فان اضمن وسيلة هي الامور الغيبية الروحية، وهي النبي او الولي، لما يعطيه من الرهبة، والارتياح النفسي لصاحب الحاجة، انه عمل لا بد منه، حتى وانه عندما لا يوجد ولي في منطقة ما، فاهلها مضطرون لايجاد مكان او قبر يتعارفون على قدسيته واهميته الغيبية والروحية... انه مخزن مأمون مكشوف، ولا خوف عليه من الانسان اطلاقا.

قصاص المواشي

قص الشعر، او جز الصوف، او القصاص (بتسكين اللام والقاف معا)، هو ما يطلقه البدو على الموسم الذي يتم فيه قص الشعر او جز الصوف في وقت معين من السنة وهو ما بعد السادس من أيار من كل عام اي بعد عيد الخضر[1] الذي يصادف هذا التاريخ، ويراعي البدو جز الصوف حسب الاماكن، ففي الاغوار، والاماكن الدافئه يتقيدون بهذا الوقت وربما يسبقونه بايام، اما في الاماكن الجبلية فيكون هذا الوقت هـ نقطة البدء والانطلاق، واما قص شعر الماعز فيكون في نهاية شهر ايار، حيث انها تتحمل البرد كالضأن.

وهناك فوائد لجز الصوف وقص الشعر فهو مفيد للماشية حيث ترتاح منه في الموسم الحار، ولا تعود هناك ضرورة له، وقد انتهت الحاجة اليه للدفء، ودرء البرد بالاضافة الى انه مادة استعمال البدوي في صنع البيوت والحبال، والملابس، ويقول البدوي مادحا الماعز:

يا عنـز يالي سمنـك سـترة البيت يـــالي شعــرك شقتـــين طوال

فالسمن طعام سائغ للمعازيب والضيوف، وبالتالي فهو يستر المعزب مع ضيفه، كما ان شعرها يغزل لصنع الشقة وهي الجزء الذي يشكل مجموع عدة اجزاء (شقق) بيت الشعر.

وكان هذا الموسم يشكل صورة رائعة للتعاون، حيث يجتمع القوم يتساعدون، في عمل جماعي عند كل واحد حتى ينهون المهمة، فمثلا، يجتمعون اليوم عند فلان لجز الصوف او قص الشعر وهم يتحادون ويغنون، ويحتفل المعزب بهم، ويقدم لهم وجبة طعام (ذبيحة) دسمه، وبالطبع فان هذا العمل الجماعي التعاوني مجاني، وليس مقابل الاجرة كما هو في المدينة او ما يحصل الان، لقد كان الناس يشعرون انهم اسرة واحدة، ويعملون من اجل هدف واحد، اما الان فقد تفشت الانانية، وكل واحد يرى انه يعمل لنفسه فقط، وشتان ما بين الاريحية والانانية ومن الاغاني التي كانوا يتحادون بها اثناء جز الصوف قولهم:

جـرد الرقـــاب ويعجـــب القصاب جـرد الـــركاب وصوفهـــن اركوسي

---

[1]) سمي عيد الخضر لانه نهاية فصل الربيع، وهطول الامطار، وبدء موسم الصيف، اي انتهاء نمو الاشياء الخضراء، وبدء نضوجها، انه الحد الفاصل بين الخضراء والصفراء.

اي ان هاته النعاج ذات اعناق ممتازة، طويلة ممتلئة، وبالتالي فان صوفها من النوع طويل التيلة، وان صوف هذه النعاج كثير غزير متراكم (اركوس) ثم يداعبون النعجة، ويقولون لها:

جـرى واستجـري زيـن يا نعيجـة غضي العين

انه يطلب اليها ان تستجر (اعادة مضغ الكلأ)، ايتها النعجة الجميلة التي تخصين فلان (غضي العين - وهي صفة للمدح للشخص والتقدير).

ونجد في العمل هنا الدعوة الى النخوة، وطلب المعونة والمساعدة، فيقولون:

يا خي جيتك من هلي فزاع ويا خي جيتـك ما دعانـي داعي

انها صورة جميلة، ان يأتي الشخص ليقدم المساعدة والمعونة، بدون ان يطلب اليه، او منه اي شخص مساعدة ما، انه عمل تطوعي، تبرعي يدل على مدى الأصالة، وتماسك القوم، ومحبتهم لبعضهم، انه التعاون الفطري البحث.

ويداعبون النعجة ايضا، لتترنم على صوت الحادي مع طقطقات المقص فيقولون:

قـام الدلـح يباري ويرضـع من شطاريها

والدلح هو الخروف ذي اللية الضخمة، ولا يكون كذلك الا عندما تكون امه ذات ثدي ضخم ومغذ وممتاز ويرضع منها... انه مدح للخروف ولأمه ايضا، في آن واحد.

وهكذا نجد في يوم القصاص صورا عديدة، او رموز عظيمة. انه نهاية فصل وبداية اخر، انه بدء جني الفوائد اللازمة من الصوف والشعر، او هو قطف لثمار لا بد من جنيها، ان العمل ممارسة للتعاون والمحبة وروح الفريق الواحد، والشعور الواحد، والهدف الواحد، انه اشبه بالمعركة حيث يجتمع القوم من اجل النصر وتحقيق الهدف.

وأما كيفية جز الصوف: فيكون بالقبض على النعجة او الكبش او الخروف وطرحه ارضا، وربط ارجله الاربعة ثم يقوم احدهم بالقص بدءا من البطن الى الظهر، بينما يقوم اخر بالقبض على الشاة خوفا من كثرة الحركة، وبالتالي قد يجرح المقص جلدها، وكثيرا ما كان يحدث هذا، وقد تلاقي حتفها وتموت.

ولا بد من ان يكون صوف راس الضان قطعة واحدة تتجمع فيما يسمى (الجزة - بتشديد الزاي)، وجمعها (الجزز) وهناك الجزة الكبيرة، والمتوسطة والصغيرة، ولا ننسى ان البدو عادة ينظفون الصوف قبل قصة باخذ مواشيهم الى اقرب مصدر ماء، وغسله، لتنشيط الضأن من جهة، وللحصول على صوف نظيف من جهة اخرى... واذكر ان القصاصين كانوا يتركون للكبش او الخروف (خلبة) اي خصلة من الصوف في مؤخرة أو مقدمة الظهر يتم تلوينها بالمغرة الحمراء او المائلة للسواد...

وبعد جز الصوف يتم غسله ثانية، ويصنع منه الغزل والنسيج المختلف بالوان او بدون الوان. ويصنع منه البيوت، والملابس، والفراش، واللحاف باستعماله كحشوة، وهو جيد ويعطي الدفء المناسب، ويعمر طويلا. فلا زال الصوف الذي جاء مع والدتي قبل اربعين سنة عندما تزوجت، لا يزال محتفظا بقوته ورونقه حيث يغسل بين حين واخر،

وأما قص شعر الماعز، فيكون كما يلي: يقوم احدهم بالقص، والثاني بقبض راس الشاة

ليمكن الاخر من اداء مهمته، بشكل جيد، وتكون واقفة، ويبدأ القص من سلسلة العمود الفقري للظهر، والى الاسفل، واذكر انهم كانوا يتركون للتيوس، والجديان وبعض اناث الماعز جزءا من الشعر كما هو على المتن (الظهر)، ويسمى القص حينها (التسفير)، اي القص غير الكامل مع ابقاء جزء غير مقصوص.

واما قص وبر الجمال فيكون على شكل الصلخ بدءا بالسنام نحو الاسفل، وقد يبقى من الوبر فوق السنام ايضا، وتتم هذه العملية، والجمل نائخ معقول (اي مربوط بالعقال).

ويرى البدو ان التأخير في القص او الجز خطأ لا يجوز ارتكابه، وذلك لأن الشعر والصوف قد يتساقط، وبالتالي لا يستفاد منه، علاوة على انه يصبح مضرا بالماشية نفسها.

المجالس

وهي من المناسبات المهمة عند البدو، حيث يجتمع القوم معا، او مع ضيوفهم، وربما مع اعدائهم، وفي ذلك تبادل للأراء، والاخبار، ودراسات لنفسيات بعضهم بعضا، واكتساب الثقافة والدروس حيث يعتبرونها اهم من الدراسة والمدارس فيقولون (المجالس مدارس)، وهناك مجالس خاصة بتناول القهوة، كما انه في كل مجلس لا بد من تناولها اذا كان ذلك في احد البيوت او قربها، وقد تكون المجالس للصداقة او للصلح، او للكيف والراحة.

وللمجالس اداب خاصة، في الاسلام، وعند البدو، وقد ذكرنا ذلك مفصلا في كتابنا (من القيم والاداب البدوية ص ٣٦١ وما بعدها. الطبعة الأولى ١٩٧٦). ونحن هنا ذكرنا المجالس فقط من باب كونها مناسبات لالتقاء القوم وفي ذلك خير وراحة لهم بكل تأكيد، وقد يكون مبعث قلق وازعاج البعض اذا كانت موجهة ضده او ضد مصالحه، وقد يسمى المجلس (بالجمعة بفتح الجيم). اي الاجتماع الضخم فيقولون: (جمعة "بفتح الجيم" خير ان شاء الله)، ويقولون (جمعة كبيرة)...

وقد يطلقون على المجالس كلمة (مقاعد – ومفردها مقعد)، ويقولون، وراك مقاعد الضحى، ذلك ان ديوان الضحى، او مجلس الضحى صعب على البدوي لأنه طويل فاذا بدأ ضحى النهار فقد يستمر الى ساعة متأخرة من الليل، كما ان وقت الضحى يجمع الناس للحضور للقيلولة، ريثما تمر الهاجرة بسلام، ومن ثم فان المستمعين للقول هم كثيرون في المجلس الواحد، وبالتالي فهو مجلس يخيف القوم فيقولون (وراك مقاعيد الضحى.)

الذبائح

والواقع ان الذبائح ليست مناسبات بحد ذاتها، بل هي تحصيل حاصل للمناسبات سواء الدينية ام المؤقتة ام الطارئة، ام الافراح، ام الاتراح، وقد تحدثنا مفصلا عن هذه

الذبائح وانواعها في كتابنا (من القيم والاداب البدوية ص ١٢٤ وما بعدها)، فمن رغب الاستزادة فيمكن الرجوع الى ذلك. ومع هذا نقول ان هناك العديد من الذبائح التي تؤدي الى وجود المجالس والتجمعات، وبالتالي هي مناسبة للالتقاء بين القوم، ومن اهم ذلك ذبيحة العزومة او الدعوة، عندما يدعو احدهم اخرين لتناول الطعام عنده، فتكون بذلك مناسبة ليلتقي القوم ويتحدثون.



ديوان احد شيوخ البدو شباط ١٩٧٥



الباحث مع صديقين على شاطيء العقبة ك٢ ١٩٧٠

الفصل الرابع عشر

الاتراح ـ الاحزان

الاتراح - الاحزان

ليست الحياة نورا، ولا فرحا مطلقا، بل ان تمام الامور بتنوعها، حيث الموت والحياة والظلمة والنور، والليل والنهار... واذا كنا قد تحدثنا عن افراح البدوي والجانب المشرق الذي يصف الابتسامة، والضياء، فلا بد لنا ان نتحدث عن الالام والبكاء في مناسبات الاتراح، حيث خلق الله الموت والحياة ليبلونا اينا احسن عملا، وتموت الارض فتصبح هامدة فاذا انزل الله الماء عليها اهتزت وربت، ويموت الانسان فنجد اهله واصدقاءه يبكونه كثيرا او قليلا، ومهما تعددت الاسباب، فالنهاية واحدة، هي فراق الحياة الى عالم اخر من الوجود... **والبدو يصنفوت الموت في قسمين رئيسين: الموت بالقضاء والقدر... والموت بسبب القتل او ما شابهه** وهم يكرهون الموت على الفراش لأن ذلك في رأيهم للجبناء، والمواشي وهذه عقيدة اصلا لدى الانسان البدوي العربي منذ القديم فقد قال الشاعر العربي:

وما مـات منا سـيد حتف انفـــه

ويقول البدوي: (الله لا يموتنا موت الفطايس)، ونجد سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه يصف نفسه انه ما من موضع شبر او فتر في جسده الا وبه ضربة من سيف او طعنة من رمح، وكان يأمل الموت قتلا في سبيل الله، ولكنه يموت على فراشة كما يموت البعير، ونجد في القرآن الكريم وصف للموت والقتل اي لنوعين من الموت حيث يقول سبحانه... **(وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل: افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا)**. ويقول سبحانه وتعالى: **(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون"** وهنا نجد وصفا للموت القتل، والموت الاخر وهو مفارقة الحياة، وكأنه موت عادي.

والموت بوجه عام كلمة تطلق عند البدو على الميت الحقيقي الذي فارق الحياة، وعلى النائم، فيقولون: فلان مات اذا توفاه الله، ويقولون: (النايم ميت)، وجاء في القرآن الكريم في سورة الزمر اية ٤٢ **(الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى اجل مسمى ان في ذلك لايات لقوم يتفكرون)**، اي ان ما يقوله البدو في ان النائم ميت مستمد من هذا التعبير القرآني الكريم.

والميت اذا لقي حتفه لا بد من البكاء عليه، ولكن هناك فارق بين الدمع، وبين البكاء، ولا نريد هنا ان نضع انفسنا في اطار ضيق وانما ان نفسر الامور بطريقة معقولة: فالعادة عند البدو ان الرجال يدمعون، او يفرحون، اما النساء فلهن البكاء والعويل، وشق

الجيوب، وخمش الخدود، وحلق الشعر، وتغطية الحلي التي توضع في الاعناق والاذان.
اما الرجال فمن العار ان يبكوا واذا فعل احدهم ذلك قالوا: يبكي مثل الحرمة (الانثى)، ويقولون: يا عيب يا خسارة، هذا البكاء للنساء، ويقول الشاعر العربي في ذلك:

ولا تراهـــم وان جلــت مصيبتهم مــــع البــكاة على من مات يبكونا

والبدو يرون في نواح الرجل عيب وحرام، وانه يجب عليه ان يكون جلدا صبورا قويا على الشدائد، حيث البكاء والنياحة تضعفان العزيمة، وتسببان الوهن للباكي ولمن هم حوله، كما انها تحول الرجل الى صفة الانثى، وذلك مالا يقبله البدوي على نفسه.

ولا شك ان عادة عدم نواح وبكاء الرجال على الميت سوى دمع العين، او البكاء الخفي جاء من الشريعة الاسلامية "حيث اجمع العلماء انه لا يجوز البكاء على الميت، ففي الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**ان الله لا يعذب بدمع العين، ولا بحزن القلب**، ولكن يعذب بهذا او يرحم، واشار الى لسانه، وبكى لموت ابنه ابراهيم وقال: ان العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول الا ما يرضى ربنا، وانا بفراقك يا ابراهيم لمحزنون "[١] وهكذا فالحزن، في القلب، والدمع من العين، اما صوت النياحة فلا وجود له الا ما ندر، ومن اسباب عدم البكاء على الميت انهم يعتقدون ان اي نياحة او بكاء خارج عن المألوف يسبب تعذيبا للميت، وهذا مأخوذ من الاسلام ايضا: "فاذا كان البكاء بصوت ونياحة، كان ذلك من اسباب الم الميت وتعذيبه، وعن المغيرة بن شعبه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من نيح عليه فانه يعذب بما نيح عليه) رواه البخاري ومسلم، ومعنى الحديث: ان الميت يتألم ويسوءه نوح اهله عليه، فانه يسمع بكاءهم وتعرض اعمالهم عليه، وليس معنى الحديث انه يعذب ويعاقب بسبب بكاء اهله عليه، فانه لا تزر وازرة وزر اخرى"[٢]

اما النياحة والبكاء بصوت عال، مع شق الجيوب، وخمش الخدود وقص الشعر فهو للنساء رغم انه اصلا ممنوع في الاسلام، ونجد ما يثبت اقتراف الانثى لهذه الجريمة منذ الجاهلية، حيث يقول لبيد بن ابي ربيعة، في وصيته لبنتيه:

اذا حان يومـــا ان يمــــوت ابوكما فلا تخمشــا وجهــا ولا تحلقــا شعر
الى الحول ثم اسـم الســلام عليكما ومــن يبـك حولا كامــلا فقــد اعتذر

وفي البداوة نجد البدوية تشق الجيب نائحة باكية على زوجها ابن عمها وتقول:

عليـك اشــق الجيــب يا ولــد غانم واركض على النقــرة ع راسي واهيلها
تمنيتـــــك مقتـــــول باول جماعتك لا بســم ربــدا براس رجـــم مقيلها

وقد حرم الاسلام النياحة (وهي رفع الصوت بالبكاء)، لأن ارتفاع صوت المرأة اصلا محرم، وبذلك ترتكب معصيتين هما رفع الصوت والنياحة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:-

---

١) سيد سابق، فقه السنة المجلد الاول ص ٥٠٥.
٢) نفس المرجع السابق ص ٥٠٦

" اربع في امتي من امر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الاحساب، والطعن في الانساب، والاستسقاء بالنجوم والنياحة، وقال عليه السلام، صوتان ملعونان في الدنيا والاخرة، مزمار عند نعمة، ورنة عند مصيبة".

ومع كل هذا تبقى المرأة هي المرأة على مر الدهور والعصور، تبكي وتنوح، لأن ذلك متناسب مع طبيعتها في سرعة الدمعة والعبرة الى عينها، فاذا كانت تبكي، وتجهش في البكاء لادنى كلمة تقال اليها وتجرحها، فكيف بها لا تفعل ذلك وهي تفقد عزيزا، خاصة الابن او الزوج، واذكر ان البدويات كن يعبرن عن ذلك بالامور التالية: الصوت والصراخ، الاغماء، شق الجيب، خمش الخدود، واما ما بعد ساعة وايام الموت، فتغطي البدوية زينتها ، او تحلق بعضا من شعرها... ويبدو ان كل هذا استمرار لما كانت عليه اختها في الجاهلية، حيث نهى الرسول عن كل هذا بقوله صلى الله عليه وسلم ما ورد في الصحيحين عن ابي موسى انه قال: بريء ممن بريء منه رسول الله صلى الله عله وسلم، ان رسول الله عليه الصلاة والسلام بريء من الصالقة (التي ترفع صوتها بالندب والنياحة)، والحالقة، والشاقة (التي تحلق شعرها، وتشق ثوبها).

وتقول البدوية في النياحة على زوجها:

شقـــي جيبــك يا حزينة لا تستحـــي وســـط المدينة
وعا راسك هيلي السكن

فهي اذن تشق الجيب حزنا، تزيد على ذلك بحثو التراب، والرماد على رأسها ووجهها وهي عادة البدويات، كتعبير عن شدة الحزن، وسوء الخبر، وأذكر انه كانت تتقابل اثنتان او اربع نساء، تجاوب كل واحدة منهما الاخرى في القول والرد، والنوح، ولا يشترط ان يكن من اهل الميت، لأن **هناك المساعدة، والمستقرضة**، واما المساعدة فهي الانثى الصديقة او الجارة، التي تبكي لتساعد الباكيات، وتزيد في شجونهن على هذا الميت، واما المستقرضة فهي الانثى التي تبكي شخصا لا يخصها وذلك لتقوم ذوات المتوفي بالبكاء معها عندما تصاب هي ايضا. وبذلك يقولون (كل شيء قرضة ودين حتى دموع العين) واذكر انه كانت كلما بكت الانثى البدوية على الميت كلما كان سرور النساء بها كبيرا، وأنها اذا لم تبك خاصة الزوجة، والابنة، اتهموها بصنوف الاتهامات، فقد يقال: انها كانت تتمنى فراقه وموته، او انها سبب في ذلك (اذا كان موته لاسباب غامضة)، او انها (مصاحبة)، اي لها صديق، وكان يمنع تمتعها معه وجود الميت...الخ ومثل هذه الاتهامات التي قد توجه للانثى تجعلها تزيد في بكائها المرير، واذا كانت لا ترغب ذلك برزت اهمية وجود المساعدة، والمستقرضة، حيث اذكر ان هناك نساء كن محترفات في استخراج دموع النساء والرجال معها من خلال ما يقلنه من كلام حزين، ونغمة تبكي سامعها، ويبدو ان هذه المساعدة وهذا الاستقراض كان منذ الجاهلية حيث نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عنه وحرمه في حديث شريف. وذلك "ما رواه احمد عن انس قال: اخذ النبي صلى الله عليه وسلم على النساء حين بايعهن، ان لا ينحن، فقلن: يا رسول الله ان نساء اسعدننا في الجاهلية افنسعدهن في الاسلام؟ فقال: لا اسعاد في

الاسلام اي لا مساعدة في النياحة.

ومما يصلح في النياحة قول البدوية:

يا عـين هلي صافي الدمـع هليـــه   واذا انتهى صاحبة هاتي سريبـــة

وقول بدوية اخرى:

تطيـب قلـت والله ما اطيب   يا فري جيبي مولـع القلب فرياه
يفـدى وليفـي كل قرم تعيب   وشيـوخ (برقـا) كلهـم من فداياه

وهذه بدوية اخرى عندما مات صناديد قومها امامها في معركة مع الاعداء فتشق عليهم الجيب وتنوح، وتبكي، وتعبر عن هذا بالشعر قائلة:

من عقب ما اني صايمـة بس اصلي   اعرضـت انـا من حر شي جرا لي
تسعـين لحيـة كلهـم دنـوة لي   (عوجـان الالسـن)، ذبحوهـم قبالي
مـا فيهـم اللي ذل ولا استذل   ولا منهـم اللي يتقـي بالجبال
عيالنـا بالشـمس ما هم بظل   وحريمنـا دجـن بليـا رجالي

فهي كانت صائمة تصلي ثم انحرفت لهول ما اصابها من مقتل تسعين فارسا من فرسان قبيلتها امامها، قتلهم رجال غرباء مختلفو اللهجات، ومع كل هذا لم يكن احد من رجالها يقبل الضيم او الذل ولا من شرد وهرب الى الجبال، وانما صمدوا بالشمس والعراء، حتى ماتوا، وبقيت النساء من بعدهم ارامل بلا ازواج.

وفي النياحة يمتدحون الميت وما كان عليه من صفات حميدة، خاصة منها الكرم والشجاعة والعفة، وهذه بدوية تنوح على اخيها الذي قتله خصمه، وقتل خصمه (كل قتل الاخر)، فتقول:

اخـوي تقـاضي عقـب ما صيب   قضى حسنـه مالـه حسايف
اخـوي يعشي الطـير والذيب   على درب موميـة السفايف
اخـوي ذبـاح صيـد الاداعيب   واخويـه يفـرق للولايف
اخـوي يلهبنـي ملاهيب   كمـا تلهـب النـار اللفايف

فهي تقول انه قد شفى غليله من عدوه وقتله بعد ان اصيب هو بجراح، انه شجاع يقتل عدوه ويتركه في الخلاء، ليتحول الى طعام سائغ وعشاء للطيور والذئاب على دروب المسافرين انه اخوها الشجاع، الصياد الماهر في الاودية الصغيرة (الاداعيب) فيفرق هذه المجموعات المتآلفة من الصيد، ومن كل ما يحتويه من صفات، ولأنه شقيقها فهي تلتهب نارا لفراقه كما تشتعل النار في اكوام الاشجار اليابسة.

هذا عن النياحة، وهناك الكثير من الاقوال والاشعار واذكر ان البدوية كانت تجلس على عجيزتها، وتثني احدى رجليها، وتترك الثانية شبه قائمة بحيث ترتفع الركبة ويكون القدم على الارض، ثم تضع كوع يدها على ركبتها القائمة هذه، وتضع كفها تحت صحن خدها، وتبدأ بالبكاء.

وأما الاغماء، فقد يكون حقيقة لهول الصدمة، ومقدار حب الانثى للفقيد سواء أكان اخا ام ابا، ام قريبا، ام زوجا، وهذا يتناسب مع طبيعة الانثى في عجزها عن تحمل

الاهوال، والصدمات، خاصة وانها حساسة العاطفة، وقد يكون الاغماء مفتعلا، لاثبات مدى الحزن على الفقيد، واذكر أن الكثير من الرجال والنساء لقوا حتفهم مجرد سماعهم نبأ موت عزيز عليهم، وهذا ما يمكن ان نسميه الان بالسكتة القلبية، وهي الموت المفاجيء، واذكر ان الكثير من النساء والرجال كانوا يرشونهم بالماء البارد، ليفيقوا من صدمتهم.

وأما شق الجيب: فهذه عادة عند البدويات اذا شعرن بضيق وبلاء لا يستطعن له دفعا، كظلم الزوج او الأهل، هذا بالاضافة الى موت عزيز، واذا غضبت البدوية او تضايقت تقول: (هساع اشق جيبي واطلع منه)، اي تشق جيبها من الامام، فتخلع ثوبها من على جسمها، وهذا لا يكون الا في مصيبة كبيرة وعظيمة، وهناك من تشق جيبها كاملا، او جزئيا، او بسيطا، واذا شاهد البدوي انثى شقت جيبها، او لطمت خدها عرف انها في مصيبة وضيق، وخاطبها فورا، معزيا لها، وعارضا عليها خدماته ومساعدته، سواء عرفها ام لم يعرفها، وذلك اذا لم يكن يعلم سبب ذلك، فيقول "يا ستار، اكفي شرك يا مستورة، ان شاء الله نقدر نكف عنك البلا". وقد نهى الاسلام عن شق الجيوب ولطم الخدود، لأنها تشويه للخلقة واللباس بلا نتيجة، رغم ما فيها من معنى ورمز.

واما لطم الخدود: فاذكر ان الواحدة كانت تجرح خديها باظافرها، فترى الدم ينزف منهما، وتبقى اثار هذه الجروح لعدة ايام، وقد تسبب تشويها ولو بسيطا، وقد خفت هذه العادة قليلا بعد الستينات من القرن العشرين، (رغم انها لا تزال موجودة)، حيث انتشر الوعي بين الناس، واذا كان البدو ينظرون فيما قبل الى الموت انه قارعة عظيمة لقلة الرجال، وان موت الواحد يعني نقصا في عدد الرجال، وخلخلة في التوازن مع قوى العشائر الاخرى، فانهم ينظرون اليه الان انه شيء عادي مع الحزن بدون المظاهر بالنسبة لما ذكرنا من النساء رغم وجودها الى الان، ولكن ليس بالشيء العام لدى الجميع، ولا بالمستوى الذي كان عليه من قبل، ولا ننسى سببا مهما، وهو ان قيمة الانسان فيما سبق كانت اهم واعظم من قيمته الان.

واما حلق الشعر: فهو قص للجدائل والشعر الطويل، وذلك كانقاص من الزينة والغواية بسبب الحداد والحزن.

نياحة الرجال: هذا بالنسبة لنياحة النساء، ولكن ماذا يفعل الرجال يا ترى؟!

ولا شك ان العين تدمع، والرجل يبكي، اما ان ينوح، فهذا نادر وان وجد احيانا، ويكون تعبير الرجال عن حزنهم احيانا بابيات من الشعر، وهناك فارق بين من يرثي او ينوح على عزيز، او شيخ، او من يرثي الانسان بعيد القرابة أو انسان عادي، وهم اكثر ما يهتمون بالعظماء اذا ماتوا، سواء على مستوى القبيلة الواحدة او عدة قبائل، كما ينوح بعضهم على زوجته اذا ماتت، واكثر ما اشتهر في ذلك نمر ابن عدوان على فراق زوجته وضحا ومن قوله في ذلك:

ياسين يا ام عقاب ياسـين ياسين يا شبه عنز الريم ترعـى وحدها
بنت الرجال وخالـط عقلهـا الزين وروايح الريحـان ريحـة جسدها
هو يحسب ان الصبر قوله يلهين الصبـر مرمرنـي وريقـي عقدها

ومن شعر الرجال البدو في النياحة قولهم:

يا عين ويـن احبابـك اللي تودين اللي الى جو منـزل ربعـوا به
اهل البيوت اللي على الجو طرفين عـده خلا ماكنهـم وقفـوا به

وبذلك نجد انه قد يوجه الكلام للميت، ويعدد اوصافه، وشمائله الطيبة، والى العين ويسألها اين الاحباب، وهذه منازلهم قد اقفرت منهم، وقد كانت بيوتهم عامرة بهم، وكأن هذه المنازل لم يكن بها احد من قبل.

وقد تكون النياحة على شكل حوار مع الميت، فيعاتبه الاحياء لفراقه، ثم يبرر هو موقفه في حكمة بسيطة، وأقوال تنم على احتقار الدنيا، وغرورها ببني الانسان، وتتضمن قصيدة النياحة هذه ذكرا لمآثره الطيبة، وان الناس من بعده في حيرة من امرها لا تعرف كيف تصرف امورها.

ويبدأ الشاعر نياحه بمخاطبة الناس انه لا زال ذا جاه وقيمة لدى قومه، وانه عندما يطل (يبرز) على السرايا تحترمه، وعلى القوم ان يهيئوا له الاختام لانقاذ ملهوف، او مستغيث، وهو لا يذل للسرايا، ولا يتوانى عن المساعدة فيقول الشاعر:

هـذا شيخنـا اللي عالسرايـا طل وهيئوا له اختوم ولا يقولـوا ذل
هـذا شيخنـا اللى عالسرايـا فات وهيئوا له ختوم ولا يقولـوا مات

وهذه ابيات اخرى تتمم ما ذكرنا من معاني حيث يتوجد على موت شيخ فارس[1]:

مـا لوم عينـي بالسهـر مستخفة وكل ما حقل نومـي وعينـي تنفه

وأيضا قول الشاعر البدوي:

من واهـج بالقلـب وايبس ريقي وجدي عليه اذا انطرى كل شوار
والشور ما بـين الاجاويـد محتار يـا شوره البالـود للعظـم كسار

وقول الشاعر البدوي:

يفرج همـوم المـلا عقـب ضيقي
ووجدي عليه اليا انطـرى كل خـير وجـد الخلوج اللي ولدها صغـير
تحن صـوت وتتليه بزعيقـي
وجدي عليه اليا انطرى كل صنديد وقمت اتوجد واصفق الايـد بالايد
عليـه يا سـتر الـدلال المساجيد ونجـرك ينـادي مارقـين الطريقي
وش عاد لو قبـرك قريـب نزوره وارمي اشدادي وارتكي تحت صوره
وتنفعنا لو مرن عليك بطريقـي

ثم يتحدث الشاعر على لسان الميت ما يلي:

علومـكم بلعـون ما به مسرة وعلمـي بكم يوم ان الاريـاق مرة

ورايـاتــكم سود على متــن حرة   يبــرن لكم من كل فج وطريقي
لــو انــي غالي عنـكم ما تركتون   لو مار بظهـور الركايـب غشيتون
وبلعون ما هنـا لي صديـــق ورفيقـــي

ثم يخاطب الاحياء بقولهم:

يابـو فهـد لويش تلغــى علينا   عدونـــا بقطيهـــن مثلينا
وعن اللوم نفضناك ما بين ايدينا   ما هي فضا يا شيخ ساعة مضيقي

وبذلك نجد الاعتذار للميت، الا يعاتبهم عندما تركوه، ولا يعرف مصيره موتا ام اسرا؟! وهم يقولون: انهم هربوا حيث لحق بهم العدو، وبعد ان يئسوا من وجوده، وايقنوا موته، في ساعة ضيقة لا يستطيع الانسان ان يفكر كثيرا في البقاء[1]

ولموت الشيخ اهمية خاصة، حيث يعتقدون ان الشمس تكسف لموته، ويقلبون الدلال، وقد لا يصنعون القهوة لثلاثة أيام وثلث لشدة الحزن، واهمية المحزون عليه، وتقيم النساء جلسات ليلية بعد صلاة العشاء ويرددن ابياتا شعرية بدوية في صفات المتوفى، والحزن على فراقه، ويسمى هذا **بالمعيد**، ويردد بنغمة حزينة خاصة، ومبكية، ولكن ببطء، وبدون تشنجات بكائية، بينما **النياحة** تقال مع البكاء، بل والاجهاش بالبكاء، وقد تقال نفس الابيات للغرضين الا ان الفارق هو الحركة والتصرف الذي يرافق هذه الاقوال والابيات، ومن قول البدو في المعيد:

يـا شيخنـا يالي عليــه الهيبة   خليتنـا مثـل الحريـم السيبة
يـا شيخنـا يالي عليـك المعتمد   خليتنـا مثـل البيـوت بلا عمد

فهذا مدح له انه ذو هيبة، وذهابه ابقى قومه كالحريم السائبة لا رجال لها، ثم يكرر البيت اهمية الشيخ انه عمدتهم، وان زواله ابقاهم كالبيوت بلا عمد.

ونجد ايضا هنا لونا اخر من المعيد ووزن اسرع.

عـلام الشـمس واعطتنــي قفاها   وحريـم فلان طلعـت من خباها
عـلام الشـمس مصفـرة كسيرة   يابـي فلان يا ركن العشيرة

فهم يعتقدون كما قلنا بكسوف الشمس لموت الشيخ، ويعبرون بذلك بقولهم (واعطتني قفاها) اي الطرف الذي لا يشع، وهذا امر غير طبيعي، وكذلك الامر في خروج نساء الميت من خبائها وهي خيامها، وكذلك التعبير عن اصفرار الشمس، وانكسارها وكأنها بذلك انثى خجولة، ومصفرة، ثم نجد معيدا، ويكون نياحة ايضا في وصف بنات الميت بعد فراقه لهذه الحياة فيقولون:

يـا فلانـة مهـيرة جالـت بالمراح   تنشد يا عمامي ويـن ابـوي راح
تنخـا باب العـرش رداد الارواح   رد لي ابـوي في جنـب المراح

انهم يشبهونها بالمهرة عندما تتجول في المراح (وهو ما يحيط البيت وتهجع فيه المواشي،) وهذه تسأل اعمامها عن والدها اين ذهب، وعندما تعرف انه توفي تتوجه الى

الله الذي يرد الارواح ليعيد اليها والدها الى جانب المراح لتراه، ويعيش ثانية، ويعتقد البدو احيانا ان الميت قد يعود ثانية الى البيت جسما وروحا، او شبحا، او روحا خاصة وانهم عادة لا يصدقون الموت بسهولة ويعبرون عن هذا بقولهم "ما انا مصدق انه مات – لقد كان امس معنا".

عنــد الاحتضــــار:

من دلالات الاحتضار عند البدو ان ينعقد لسان المريض، او يصيبه زوغان النظر، او الهذربة (وهي التحدث فيما لا يفهم احد معناه الا قليلا)، او ذكر اسماء الاموات، او مناداته لهم لاعتقاد البدو ان ارواح الموتى تحضر للقريب اذا احتضر، وللمدفون اذا ووري التراب، وفي الأولى لتأخذه معها الى العالم الاخر، وفي الثانية لتسأله عن حال اهل الدنيا، وتؤنسه من وحشته.

ومن علامات الاحتضار، الاغماء المتقطع بين فترة واخرى، او تفسيرات الرؤيا بالليل، كأن يرى الشخص او احد الاقارب رؤيا تفسر انها تعني موت هذا الشخص، ويسمون الاحتضار (ثقل) بتشديد القاف وفتحها وفتح الثاء، اي ان تصرفاته، وكلامه، وكل شيء اصبح ثقيلا، وصعبا عليه، فاذا بدت عليه احدى هذه الاعراض، ابلغ القوم الاقارب والجيران، ليتوافدوا اليه من اجل اربعة امور مهمة:

اولها للمسامحة، وثانيها للطمأنينة، وثالثها مشاركة اهل المريض ورابعها لاداء الواجب الاجتماعي، وليكونوا موجودين او قريبين اذا حصل مكروه ما...

اما المسامحة: فهي عادة بدوية دارجة، حيث يتقدم كل واحد يسامح المريض بكل ما اساء اليه، واخذ منه، وذاك يبادله المسامحة والتسامح، واول من يفعل ذلك اقرب الناس اليه كزوجته، ووالده، وابنائه...الخ، وذلك لأنهم اكثر الناس احتكاكا ببعضهم، ولكثرة الاخطاء فيما بينهم، ثم يليهم بقية القوم، وبالطبع فان هذه المسامحة تعني تنازل كل واحد عن حقوقه تجاه الاخر، ويرون ان ذلك يخفف عن الطرفين العذاب عند الله، ويحصلون على الاجر من عنده سبحانه لطيب نفوسهم، وتسامحهم.

وأما الصيغة التي تقال بها فهي: (الله يسامحك سماح دنيا، وسماح اخره)، (الله يسامحك ويسمح عنك)...الخ

وأما الطمأنينة: فهي لرؤية الشخص على قيد الحياة قبل ان يودعها، وليطمئنوا على صحته، وان كان بعضهم لا يأتي للطمأنينة على المريض، وانما على نفسه ان هذا المريض (خاصة اذا كان عدوا له) في حالة سيئة، وفي حالة الاحتضار، لذا يقولون (يا رب لا تخلي عدو يتشفى فينا) ويقولون شعرا:

لن سايلك عني من الحي وداد　　كلــه كفـــاك الشر حالي زرية
ولن سايلك عني من الحي حساد　　قلــه شديــد الحيــل عالمعنقية

ونجد بعض المرضى عند البدو اذا حضر الحاسد الحاقد، العدو، تظاهروا بالقوة والشفاء، واذا حضر الصديق الحبيب، المخلص اعلموه حقيقة ما يعانونه من سوء حقا.

وأما مشاركة اهل المريض، فهو عمل اجتماعي تقتضيه طبيعة المجتمع، فيشعر اهل المريض باهمية الروابط، ويخفف عنهم الألم وجود الناس عندهم، وتذهب بعض الاحزان والخوف مع الحديث المتشعب، كما ان المريض نفسه قد ينسى المه ومرضه اذا وجد الناس من حوله يشجعونه، ويرفعون معنوياته.

وأما اداء الواجب الاجتماعي: (فان كل شيء قرضة ودين حتى دموع العين). لذا فان الصديق هو عند الضيق، وهو الذي يواسي صديقه عند المصيبة، والانسان بطبعه كائن اجتماعي، ولا بد ان يشارك الناس ويشاركه الناس في الحياة خاصة في هذه الامور التي تعتبر المشاركة فيها عملا مريحا للنفس كثيرا، وضرورة اجتماعية حتمية.

واذا عانى المريض من الاحتضار يذكر القوم ربهم فيقولون: لا اله الا الله، محمد رسول الله، ليذكروا فيها الميت، لاعتقادهم ان من تكون الشهادتان اخر كلامه، فان مأواه الجنة، وان من يمت دون ان ينطق بها، فانهم يخافون على مصيره، واما من يرفضهما فانهم يعتبرونه كافرا، واذكر حكايات كان يرددها الاباء، عن رفض بدو نطق الشهادتين عند الموت، وهناك وسيلة غير محببة عند البدو في تلقين الشهادتين، وذلك باجبار المريض على التلفظ بهما، مما قد يثير اعصابه، ويجعله ينطق او يتحدث بما لا يليق، هذه الطريقة التي أخذ البدو يتجنبونها، وان سلكها بعضهم، ولكل هذا اصل في الاسلام، او هو مستمد من الاسلام حيث نجد حديث رسول الله صلى الله عليه في ذلك، ولا يقول له: **"قل لا اله الا الله، خشية ان يضجر، فيتكلم بكلام غير لائق[1]".**

والتلقين عند البدو للمحتضر، وللميت، وسنتحدث عن تلقين الميت في الصفحات القادمة ان شاء الله.

والبدو: اذا احتضر المريض وجهوه الى القبلة بحيث تكون قدماه نحوها ورأسه الى الشمال، ووجهه الى جهة القبلة، ويقولون (ديروه على باب دينه) لأنهم يرون ان باب الدين (اي جهة الدين، اي الجهة المخصصة للقبلة من الجهات الاربعة). وهو تعبير يعني انه يحتضر. واحيانا يقولون: (ديروه على القبلة) للتعبير عن نفس المعنى السابق، واذا عرفنا ان مذهب البدو الغالب هو المذهب الشافعي، وجدناهم يتقيدون بالمذهب المذكور (في رواية عن سيدنا الامام الشافعي رضي الله عنه، ان المحتضر يستلقي على قفاه، وقدماه الى القبلة، وترفع رأسه قليلا ليصير وجهه اليها"[2]، وهذا بعكس تسجيته في القبر حيث يكون على جانبه الايمن ووجهه للقبلة وراسه للغرب، ورجلاه للشرق في منطقة الشام، والمهم في الامر ان يكون على جانبه الايمن ووجهه نحو الكعبة.

ويجلس بجانب المحتضر رجل رزين، قادر على مشاهدة الاحتضار بدون ان يتزعزع ليضع قطرات من الماء في حلق المحتضر، لتسهيل حركة عضلات البلعوم والحلق، واللسان، حيث ان هذه ساعة شديدة، يجف فيها ريق الانسان، وهي اصعب لحظة في الحياة، ووصف بعضهم الموت انه اصعب من ضربة حادة بالسيف، او من شوكة معقوفة في الحلقوم... فاذا فاضت روحه، اغمضوا عينيه، ومدوا يديه ورجليه مع جسمه بشكل مستقيم، وذلك ان الانسان لحظة موته يمكن التحكم باعضائه. واذا وصل الى مرحلة

الزرقة الرمية، والتيبس الرمي، حينها يستعصي وضعه بما هو مناسب، ومن العادات وضع ذرات من التراب في عيني الميت قبل اغلاقهما، كدلالة على ان الدنيا كلها لا تملأ عين الانسان، ولكن ذرات من التراب وحدها جديرة بملء عين الانسان ويغلقون فمه ايضا، وهم يتفاءلون بمن يموت وكفاه مبسوطتان كدلالة على الكرم والسماحة والخير، والبشرى بالمغفرة من عند الله سبحانه وتعالى.

ويرى البدو ان قراءة الفاتحة وسورة ياسين لها طابع خاص بالنسبة للميت فهما تهونان عليه الاحتضار، اذا قرئتا اثناء ذلك، وتهونا عليه العذاب اذا قرئتا بعد موته، واذكر انني انتدبت لقراءة سورة ياسين على ميت قبل مواراته التراب في المقبرة... وبالطبع فان لهذه السورة اهمية خاصة في هذه المناسبات، ولهذا اصل في الاسلام لما "رواه احمد وابو داود والنسائي والحاكم، وابن حبان وصححاه، عن معقل بن يسار رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

"يسن قلب القرآن، لا يقرؤها رجل يريد الله، والدار الاخرة، الا غفر له، فاقرأوها على موتاكم[1]"

واذا فاضت روحه دل على ذلك رغرغة الحلق، حينها لا امل في الشفاء، والحياة، فيقوم الناس قائلين لاهله: الله يعوض عليكم، ويعزونهم بكلمات معسولة، للتخفيف من الامهم، ومصابهم كذلك يعزي الاهل بعضهم بعضا، وينطلق صوت النساء بالنياحة حينها يقول السامعون: فلان مات، واذا كانوا لا يعلمون مريضا قالوا: يا ستار من مات؟! لأن هذا الصوت مؤشر على حدوث الموت... ويغطون الميت بلحاف او عباءة ويغطون كافة الجسم بما فيه الوجه، وبعد ذلك يتخذون الاجراءات التالية: ابلاغ الناس عن الوفاة، تجهيز الكفن، تجهيز القبر، وعادة يقوم بذلك الاقارب والجيران والاصدقاء، وليس اهل المتوفى الملاصقين، لأنهم تحت تأثير الحزن بحيث لا يقدرون على ذلك، وقد يفعلونه بانفسهم، ولكن طبيعة النخوة عند البدوي لا تجعله يتوانى عن القيام بدوره الموكول اليه في هذه الملمات، وينتقل الخبر بسرعة عجيبة بين البدو، ويتوافدون بسرعة ايضا.

أما ابلاغ الناس: فيكون بارسال اشخاص الى مختلف المضارب لابلاغ الناس بحضور الجنازة وموت الشخص، واذكر في صباي انه جاءنا شاب صغير يبلغنا في الصباح عن موت احد افراد العشيرة فقال: ان والده يدعو القوم الى (التربة) وهي كلمة تعني عند البدو (المقبرة)، فسألوه من المتوفي؟! فقال: فلان او فلانه، وقد يقول المبلغ للاقارب في مضارب بعيدة، انه يريد منهم الحضور لبيت فلان (اهل المتوفى)، فيفهم البدو فورا ان هناك سببا ملحا، فيقولون: ان شاء الله ما فيه الا الخير، فيقال: فلان اعطاكم عمره وهو تعبير يدل على موت الشخص مع الدعاء للسامع ان يطول عمره، فهي كلمة مهذبة، وقد يقولون: راعي الوداعة خذا وداعته، (اي توفاه الله سبحانه)، وقد يقولون للاقرباء جدا (الله يعوض عليكم) فيقال: من المتوفى، فيقال: فلان رحمة الله عليه، ويترحم جميع السامعين على الميت، وعلى اموات المسلمين جميعا، مع احتقار هذه الدنيا، وذلك من خلال

قولهم. (الله عليك يالدنيا، عد العين ما شافت زايلة) (اي كأن العين لم تر شيئا، فقد زالت الحياة وانتهت)، (رحمة الله عليك يا هذيك الروح)، وقد يقولون: (يا حوينا عليك يا فلان ما يستاهل الموت) لاعتقادهم ان الموت اعظم عقاب للانسان، ومنهم من يقول: (الموت حق والحياة باطل، انا لله وانا اليه راجعون، الدنيا رايحة، ما يدوم غير الله والعمل الصالح).

هذه العبارات التي يتلفظ بها البدو حين ابلاغهم عن وفاة شخص ويذهب المبلغون راجلين للمضارب القريبة، او على الجمال، او الخيل او الحمير سواء للاماكن القريبة او البعيدة، لأن المقصود هو الابلاغ السريع للقوم.

وعندما يعرف القوم يتحركون رجالا ونساء للمشاركة في العزاء والجنازة. ويتجمعون في بيت اهل الميت، بينما اصوات النياحة من النساء تشق عنان السماء احيانا، واذكر ان أحد الرجال كان يمنعهن من النياحة فيقول (صلن على النبي، وحدن الله، اذكرن الله، استغفرن للميت أحسن من البكاء عليه)، واذا كان هذا الشخص المانع قويا، ذا سطوة ونفوذ، فقد لا تجرؤ امرأة على اكثر من البكاء بصمت.

وقد خفت عادة النياحة، واصبح لطم الخدود وشق الجيوب قليلا للغاية هذه الايام، ويكتفون بالبكاء والحزن والألم...

اما تجهيز الكفـــن: فيكون بارسال رجال الى اقرب سوق لشراء القماش الابيض الذي يكفن به الميت، وحول ذلك يقولون: (كم واحد طيب وكفنه منسوج) اي ان الموت يأتي بغتة، (وكم شخص حضرت منيته، وكفنه منسوج)، وهو لا يعلم ذلك، واما اذا كان السوق بعيدا، ويتعذر احضار الكفن خلال جزء من النهار كفنوه بعباءته، او بملابسه، وواروه التراب فيقولون: (اعماله احسن كفن)، اي ان قطعة القماش لا اهمية لها، فالمهم ما قدمه من اعمال طيبة، او غير طيبة، حيث العقاب والحساب على ذلك بغض النظر عن الكفن، واذا جيء بالكفن تم تخييطه بطريقة (الشل) – بتشديد اللام – وفتح الشين، اي مجرد الخياطة العادية بالابرة، وبطريقة تباعد الغـرز (مفردهـا غرزة) عن بعضها،ويغطى وجهه، وباقي جسمه وصدره، ومن مستلزمات الكفـــن، القمـــاش، والصابون، والعطر، لأنه لا بد من غسيله قبل موته، وتعطيره قبل ادخاله الى القبر.

اما تجهيز القبر: فيتفقون على مكان الدفن، والذي قد يكون في مقبرة عامة، وهذا لدى البدو المستقرين، او اهل القرى، او في المكان الذي توفي فيه، اذا كانوا في مناطق نائية، وقد تكون هناك مقبرة لكل مضرب من المضارب – مضارب الربيع، مضارب الصيف، مضارب الشتاء، واينما توفي دفنوه في مقبرة المضارب التي يحلون فيها، وقد يدفن حسب وصيته، فقد يوصي بدفنه بالمكان الفلاني، حينها يحترمون ذلك وتنفذ بحذافيرها، ذلك ان البدو يعتبرون وصية الميت اوامر يجب اطاعتها وتنفيذها، احتراما له، ولفراقه وتدليلا على ما يتمتع به انسان البادية من وفاء في طبعه اصلا...

ويذهب عدد من الرجال (لا يقل عن ثلاثة عادة) الى حيث يتفق على حفر القبر،

يجهزونه بعد ان يأخذوا قياس طول الميت بواسطة خيط، ثم يحفرون ما يساوي طوله، مضافا اليه ما يكون من حجارة من الداخل لارتكاز سقف القبر عليها، ويكون موضع القبر على النحو التالي: يكون وجه الميت نحو القبلة ممددا، على الجانب الايمن، وبالطبع بالنسبة لموقعنا في الاردن يكون رأسه للغرب، وقدماه للشرق... ويكون عمق القبر ما يزيد على المتر تقريبا! وذلك للاسباب التالية: لأن العمق الى الحد المعقول الذي لا يزيد عن متر ونصف كحد اعلى، لا يجعل مجالا لخروج الرائحة النتنة التي تنبعث عن الجثة عادة، وكذلك لحفظ الجثة من النبش من الكلاب والوحوش، ومع هذا شاهدت قبورا لبعض البدو في مواقع بالصحراء (وعلى سبيل المثال قصر برقع شمال شرق الاجفور بالاردن) حيث كانوا يضعون الجثة على سطح الارض ويكتفون باحاطتها بكومة كبيرة من الحجارة حفظا لها من الوحوش، وقد شاهدت الهياكل العظمية بوضوح، ولا شك ان ذلك كان عندما كان البدو لا ينزلون هذا الموقع الا مرورا، او في مواسم معينة وبالتالي لا يتأثرون بالرائحة النتنة للجثث، كما ان البدو لم يكن مع بعضهم ادوات الحفر في صحراء صوانية لعمل القبر اللازم، ويتجنب البدو الحفر في الارض الصخرية جدا، والترابية جدا، الا اذا كانوا لا يجدون سواها، ويميلون لاختيار التربة القاسية، او الصخرية الحثانية (التي يسهل للفاس الحفر فيها)، وهم يتفاءلون بسهولة حفر القبر، ويرون ان ذلك من الميسرات التي تدل على صلاح صاحبها، والعكس عندهم ايضا، يدل على عكسه، حسبما يعتقدون.

اختيار مكان القبر:

يقول البدوي وهو يوصي قومه ورفاقه باختيار مكان قبره:

ذبحتيـــنـــي واويـــلاه	قتلتيـــنـــي واويـــلاه
نسيتيـــنـــي امـــي أبـــوي	حتـــى وافـــروض الصـــلاة
بـــالله لن متـــت يا اجـــواد	حطـــوا قـــبـــري عالنبـــاه
بلـــكـــي يمـــر المحبـــوب	ويقـــرا عاروحـــي الصـــلاة

فهو يختار النباة، او المكان المرتفع لقبره، وهذا ديدن البدوي اصلا، وان كان في العادة قد يضعه في غير المكان المرتفع، ولا شك ان لمثل ذلك فلسفة، فالبدوي يعتقد ان **الهواء العليل يريح الميت**، خاصة في تلك الظلمة الضيقة الحارة، واذا كان القبر في مكان مرتفع توافق مع المواصفات المذكورة من الارتياح، كما ان وجود القبر هناك يذكر القوم بصاحبه، خاصة اذا كان قتيلا، فكلما رأوه جاشت مشاعرهم، وفكروا في اخذ الثأر، بالاضافة الى ان رؤيته عبرة للمارة، ومن يرى، خاصة لقراءة الفاتحة (يقرا عاروحي الصلاة)، لأن البدو يهتمون كثيرا بقراءة الفاتحة على ارواح الاموات، وعند القبور، ويرون في ذلك رحمة، واجرا عظيما للميت.

كما ان وجود القبر في مكان مرتفع **ينقذه من طغيان الماء**، فالبدوي يتضايق من الغرق، سواء في محياه او في مماته، ولا شك ان بطون الاودية، وسفحها معرضة لطغيان

الماء، ثم لطمي القبور بالرواسب، فتصبح هذه تحت مستوى سطح الارض، وقد يدوسها المارة، او النازلون مع الايام، وقد يحرثونها ويزرعونها، وانهم هروبا من مثل هذا المصير يختارون الاماكن المرتفعة، خاصة وان للميت حرمة من خلال المحافظة على سمعته فيقولون (الميت ما تجوز عليه غير الرحمة) وقولهم: (اذكروا محاسن موتاكم)، ومن خلال المحافظة على صداقاته القديمة او عداواته القديمة كقول الشاعر البدوي:

الشين شين وماكر الشين شيني   عدو جد ولا بقلبه صداقة

او من خلال الحفاظ على قبره، فالبدوي لا يدوس القبر، ولا يتعداه اي لا يتجاوزه سائرا او قافزا، ولا يسمح للدواب بوطئه، ودوسه، لذا فان وجوده في اماكن سهلة (بطن الوادي او السفح او السهل) يتناقض وهذه المبادىء، اما وجوده على قمة ربوة مرتفعة، فان الصعود اليها صعب اصلا، لذا فهي تحصين طبيعي للقبر... (واذكر ان البدو كانوا يدفنون في المجنة) وهي مغارة واسعة لها باب يفتحونه لوضع الجثة في الداخل ثم يغلقونها، لأنها تحافظ حقا على جثث موتاهم.

كما ان **حب البدوي للعلو والارتفاع** بحد ذاته يجعله ينشده ليس في الحياة فحسب، بل وفي الممات ايضا.

وأحيانا يختارون المكان في صفاة لا تنبت نباتا كي لا تجذب الدواب للرعاية او الانسان للحراثة والزراعة.

وقد **يختارون مكانا قرب احد الاولياء**، وفي هذه الحالة يصبح المكان مقبرة عامة تتجاوز في قيامها الشروط السابقة، لأن الدفن قرب الولي يعتبر في عرفهم بركة ورحمة تفوق سائر المضايقات للميت وللقبر.

نقل الجثمان: لا بد ان نميز المسافة بين الطويلة، والقصيرة والمتوسطة، فاذا كانت لا تتعدى ثلاثة كيلومترات، فيمكن ان تحمل على الاكتاف او الدواب، والاغلب على طمعا في الاجر، والثواب، وفي هذه الحالة يصنعون حمالة المسماة (نعش)، وهي عبارة عن عمودين قويين، يربط بينهما ملاءة تسمى (ملف، او بطانية او حرام)، ويوضع الجثمان عليها، ثم يتم الربط من فوقه مع بروز الاربع نهايات لهذين العمودين، ويحملها في هذه الحالة اربعة رجال بالتتابع، ليكون الاجر للجميع والتعب على الجميع. والراحة للجميع، وخلال ذلك يرددون كلمات دينية مثل : لا اله الا الله محمد رسول الله، ويقول بعضهم، وحدوا الله، فيرد الباقون: لا اله الا الله، ويرون في هذه الالفاظ طردا للشيطان، واستجلابا لرحمة الله الى روح الميت، ولغفران ذنوبه او شيء منها، بالاضافة الى ان المناسبة تتطلب ذكر الله ولا شيء سواه.

وأما اذا كانت المسافة من البعد بحيث يجد الناس في نقل الجثمان على الاكتاف مشقة وارهاقا، فانهم ينقلونه على دابة، وغالبا ما تكون الناقة او الجمل، واذكر انهم كانوا يضعون كيسا مملوءا بالتراب بما يساوي وزن الميت تقريبا، ويضعون التراب على طرف،

والجثمان على الطرف الاخر، ليكون هناك توازن وتعادل وإراحة للدابة، والجثة معا، واحيانا يصنعون حوية حول شداد الجمل، ويضعون الجثمان فوق هذه الحوية. واذا كانت الطريق في ارض منحدرة وضعوا الراس نحو مؤخرة الجمل، واذا كانت صعودا فعلوا العكس، واذا كانت عادية وضعوا الراس من الامام والقدمين من الخلف، وفي لحظة اخراج الجثمان من البيت، ووضعه على الدابة، ومغادرة هذه الدابة لموقع البيت، تنوح النساء بصوت عال كتعبير عن مرارة الفراق والمه، واذكر ان بعضهن كان يقول: (خلوه لا تأخذوه)، وبالطبع ما هو الا نوعا من التعبير عن الالام والعواطف المكنونة، والتي لا يمكن تنفيذها.

ومن العادة التي كانت عند البدو ان تتحرك النساء مع الجنازة، سواء أكانت لانثى ام ذكر، وتنوح هناك على المقبرة، ويصنعن الطعام المسمى (ذبيحة المقبرة، او ذبيحة الجنازة).. واما سبب المشاركة، فان الرجال عادة يغادرون جميعا مع هؤلاء النسوة وتعبيرا عن حزنهن الى اخر لحظة فراق، واذكر اننا كنا كصبية نذهب مع النساء في هذه الرحلة التي هي عبارة عن بكاء وعويل، واذكر ان الراكبين من المشاركين بالجنازة كانوا يسيرون خلفها، واما الراجلون فيسيرون امامها، او معها، او خلفها، دونما ضرورة للتقيد باحد هذه المواقف، وكأن الخيالة والراكبين يعبرون بذلك عن حمايتهم، للقوم، من ذكور واناث، كما انهم في تقدمهم قد يسرعون بالسير، مما يجعل الراجلين وحاملي الجنازة يسرعون فيتعبون، ويساء الى الجنازة، اما العكس، فان الراكب يسير بمقتضى هوى الراجل، وبالتالي فان هذا الاخير لا يكلف نفسه الا وسعها في السرعة، والطريق التي يسلكها... وقد وجدت لذلك اصلا في الاسلام حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الراكب يسير خلف الجنازة، والماشي يسير خلفها، وامامها، وعن يمينها، وعن يسارها قريبا منها).. واما من يركب في الجنازة فهم الشيوخ، عمرا وطبقة، والمرضى اذا اصروا على المشاركة. وذوو العاهات، ومن تيسر له ان يمتطي دابة في هذه الرحلة... وكلما مرت الجنازة باناس، قاموا وهللوا وذكروا الله سبحانه واسترحموا للميت ويخرجون من بيوتهم ويدعون الله ان يقيهم شر البلاء، (يقولون: لا اله الا الله محمدا رسول الله) (رحمة الله على هذيك الروح، الله يرحمه ويرحم اموات المسلمين جميع"، وايضا: "يا رب لا تبلانا، وتكفينا شر المصايب"، واذا لم يتحدثوا صمتوا، وكذلك السائرون مع الجنازة اما ان يهللوا، واما ان يصمتوا حتى انهم يقولون: "كأنه ماشي بجنازة" تعبيرا عن الصمت، كما ان هذه احدى لهجات لغة الحداد.

واذا ما وصلوا الى المقبرة، والمسماة (المجنة) لأن ما فيها يكون مستترا داخل القبور، اناخوا، ويكون حافرو القبر قد انتهوا من مهمتهم، وأتي القوم بالشيخ (الخطيب) اذا وجد ليقرأ سورتي الفاتحة وياسين.

غسيل الميت: كان البدو قديما يغسلون الميت غالبا عند المقبرة حيث يبتنون بناءا خاصا مرتفع الجدران تتم العملية داخله، ويسمى (المغسل) ويساعدهم في ذلك اذا كانت المقبرة

قريبة من مصدر الماء، والا احضروا الماء معهم، والسبب في غسيله بالمقبره، هو لنقله الى القبر نظيفا، ذلك ان غسيله قبل السفر سيجعل الجثة تتأثر بالحمل، والنقل، وربما تحتاج الى غسيل اخر، ويتسخ الكفن اذا وضع عليه قبل النقل، اما غسيله ثم تكفينه، ثم نقله الى القبر فهو اجراء صحيح ومناسب بالنسبة لطبيعة حياة البدو، اما هذه الايام فتتم العملية في البيوت وتنقل الجثة في سيارة او على الاكتاف (للمسافات القصيرة) فورا الى القبر للصلاة عليها، ومواراتها التراب... وأما غسيل النساء فكان يتم غالبا في البيوت لأنهن عورة، ويجب الحفاظ عليهن وسترهن، واذا تم الغسيل في المقبرة، وهذا نادر جدا فتقوم به النسوة اللواتي رافقن الجنازة ويتم الغسيل للرجال والنساء بتجريد المتوفى من ثيابه، ووضعه على مكان مرتفع، وغسل كافة انحاء جسمه، وحلق شعر الاماكن الظاهرة والمخفية ما عدا الراس.

وأما من يقوم بغسيل الميت، فالرجال يغسلون للرجال، والاناث للاناث، وهناك اناس متخصصون بهذه العملية، فمنهم (الخطباء) اي شيوخ الدين البسطاء - الدراويش، او من البدو انفسهم ممن لهم خبرة بهذا الشأن ورغبة في ذلك، فالبعض لا يستطيع ان يرى صورة الميت اصلا، فيفزع منها والبعض يمكنه ان يرى وان يغسل، وهكذا خلق الله الكون والناس.

وكذلك بالنسبة للنساء فتقوم بمهمة غسلهن نساء متخصصات ايضا. واذكر ان بعضهن كان يتحدث عن علامات وجدنها في المتوفية واكثر ما كن يلاحظن في الجسم اثار البرص المسمى عندهم (البراق) والذي قد يكون في مواقع يستحيل رؤيتها الا اذا كانت الانثى عارية كما خلقها الله سبحانه.

في القـــــبر: وبعد انهاء كل هذا، وتجهيز القبر، يسقفون نصف الفتحة العليا للقبر من جهة القدمين، ثم يحملون الجثة، ويدخلون القدمين في البداية، ثم الصدر والرأس، وتوضع الجثة على الجانب الايمن والوجه الى القبلة - جهة الكعبة المشرفة - وذلك وسط التهليل والتكبير، ثم يسقف بقية القبر، ثم تغلق الفتحات الصغيرة في السقف، ثم يحثى ويهال التراب عليه، ويحاول كل واحد من الحضور ان يحمل شيئا من التراب او الحصى لاهالته على القبر، ويرون في ذلك اجرا عند الله، ومن هنا يتساءلون كم هي الدنيا سخيفة لا قيمة لها، فاعز صديق يسارع الى تغطية القبر بالتراب، وبعد ذلك يبدأ التلقين: حيث يقول الملقن للميت، وعلى مسمع الحضور.. يأتيك ملكان عظيمان يسألانك ما ربك فقل ربي الله لا اله الا هو لا شريك له، وقل: القرآن امامي، ومحمد رسولي، والخليل ابي، والكعبة قبلتي، والمسلمون اخواني..." هذا ما اذكره في طفولتي عندما كنت اسمع الملقنين...وبعد كل هذا يجلس شخص او اثنان عند راس القبر حتى يغادر القوم ويبتعدون عن المكان ثم يلحق بهم، وذلك انهم يعتقدون ان الميت يعود للحياة اذا غادر القوم فيحاول اللحاق بهم، لكنه يجد نفسه في ظلمة القبر ووحشته، فينهض راسه فيضربه السقف والمسمى (الحنت)، ويعتقدون انه عند بقاء واحد عند راسه فانه يأنس به، ولا

يحدث له ذلك... حتى ان البعض يتواصون في حياتهم ان يجلس احدهم عند راس الاخر اذا مات قبله... ويترك البدو عادة حجرين شاهدين يسمونهما النصايب ومفردها نصيبة احدهما عند راس القبر والثاني في الطرف الاخر ويسمونهما ايضا الشاهدان، اي البارزان الظاهران بحيث يشهدان على وجود القبر، والميت وقد عملوا في فترة متأخرة على وضع الاسماء على النصيبة الامامية، (وبالمناسبة يسمون الشاهد ايضا نصيبة القبر كما قلنا)، وللبدو في تشييد القبور اراء، فمنهم من يجعله (رسم) بكسر الراء والسين، اي كومة كبيرة من الحجارة، ويسمى احيانا (رجم)، وقد يتحول مع الزمن الى ما يشبه التلة، وربما يحولونه الى ما يشبه مقام الولي، ومنه ما يكون (قهقور)، اي بضعة حجارة صغيرة وهذا في حالة موت الشخص مثلا، حيث يقال: مقتل فلان، او رجم فلان كدلالة على انه قتل هنا، او هناك، وقد لا يكون موضع القبر هو نفسه موضع الرجم او المقتل، وربما يكون ايضا... ومن القبور ما تكون دوارس عادية جدا، بحيث لا تميزها الا اذا حدقت جيدا بالمنطقة. او كان لك بها معرفة اصلا... ومن القبور ما تكون شاهرة ظاهرة مشيدة، وهذه تكون للشيوخ، والفرسان وذوي الجاه على اساس ان لهم الشهرة والعلو في الدنيا والاخرة، وما عرفوا انه لا قيمة لعلو القبر او بساطته، وانما القيمة لرحمة الله وعمل المتوفى الصالح... ومنهم من يشيد القبر، ومنهم من يبنيه من الحجر العادي الجيد، او من الحجر والطين، تماما كما هو الامر لدى المدينة والقرية.

ذبيحة القـــبر: واذكر ان بعضهم كان يوزع بعض الاشياء على الحضور عند القبر خاصة على الفقراء منهم، طلبا للأجر والثواب للمتوفى، ومن هذه التمر، والزبيب، والقطين، وذات مرة مات بدوي تاجر فوزعوا ما عنده من الحلويات (تمر، حلاوة، راحة...الخ) على الناس عند المقبرة وقالوا (اجره وثوابه عن روح فلان – صاحب الدكانة الذي مات).

ولا شك ان القوم بعد ان بذلوا هذه الجهود الكبيرة، لا بد لهم من طعام يرزقونه، وهذا يكون بذبيحة القبر التي تكون جاهزة للأكل عند الفراغ من الدفن، فيأكل القوم ثم ينصرفون، وبالمناسبة اقول ان البدو غالبا ما يدفنون موتاهم قبل الظهر، حتى يتمكنوا من العودة الى بيوتهم، ولكنهم لا يؤجلون دفن الجثة الا اذا توفي الشخص بعد العصر بحيث لا يتمكنون من تهيئته وتكفينه قبل غروب الشمس، لكنهم لا يفعلون ذلك ليلا... واذا باتت الجثة بقي حولها حراس يقظون ويحركون الاجراس احيانا، خوفا من الافاعي والديدان ان تنهشها (حسبما يعتقدون).

ذبيحة المقبـــرة: كانت ذبيحة القبر مهمة، ثم يعود القوم، وقد حل محلها الان ذبيحة المقبرة وهي ان يقوم احد القوم بصنع الطعام لأهل الميت وحضور الجنازة بعد فراغهم من الدفن، وقد اصبحت عادة لا مفر منها عند البدو المستقرين بالاردن الان، وهي لطيفة ومعقولة.

وفاتني ان اذكر ان اهل المتوف يصطفون عند القبر على شكل سيف (اي شبه منحني)، ليسلم عليهم الناس ويعزونهم بوفاة الشخص او الانثى، وهذه العادة موجودة عند كافة الناس في القرية والمدينة الان ايضا.

الونيسة: وبعد عودة القوم الى البيت، يقومون بصنع طعام العشاء والمسمى (الونيسة)، لاعتقادهم ان هذه الشاة تذهب الى الميت في قبره، وتؤنسه في وحشته وانفراده هناك، لذا فغالبا ما تكون الونيسة من الاناث لا من الذكور، ويمكن ان تكون ذكرا اذا كان المتوفى ذكرا والا فلا... والونيسة طعام يصنعه اهل المتوفى، ويأكله الحضور، ويفتحون بيوتهم للعزاء، وقد يبتنون بيوتا اخرى لتتسع للناس الذين يأتون للتعزية ويسمى اهل الميت؟ (المجبرين - المأخوذه من كلمة الله يجبر عليهم باعتبار ان مصابهم قد كسرهم، وهم بحاجة الى التجبير، فيقال: المجبرين بتشديد الباء. ويقال: (المناقيص)، باعتبار ان عددهن قد نقص شخصا، وفرحهم نقص قسطا...الخ، ويقال اهل العزاء لأن الناس يقدمون لهم العزاء بهذه المناسبة..ويقدم اهل الميت: القهوة والدخان وعليق خيل الضيوف القادمين والطعام والماء، حتى ان بعضهم يخسر كثيرا كثيرا، الا ان بعض البدو يشاركون بعضهم في تقديم ذلك، حيث يؤدي كل واحد من العشيرة دوره تجاه المجموعة، فيكون المصروف عليهم جميعا، ويقال حينها (الحمل اذا توزع انشال)، أي (يمكن حمله بسهولة)، ويفضل في الونيسة ان تكون غراء محجلة، او بها احدى هاتين الصفتين، وان تكون سمينة، ولا يقل عمرها عن ستة اشهر، اما الان فقد اختلفت الامور تقريبا حيث المهم تقديم وجبة اللحم الدسم للحضور بغض النظر عن عمر الذبيحة، وسمنتها، او نوعها، اي ان الونيسة الان تقتصر على كونها طعاما للحضور، اما لدى السابقين فكانت ترتبط بالاعتقاد قبل الطعام، وان ادت المهمتين معا في ان واحد.

كلمات العـــــزاء: يتوافد الناس، ويستقبلهم اهل العزاء على شكل صف خارج البيت، اذا كان القادم مهما، ويبقون في البيت اذا كان القادم عاديا، لكن السلام يكون والقوم جميعا وقوف (لأنه اصلا لا سلام عندهم الا للواقف فيقولون في ذلك (اذا ما قام ما اله سلام) ويقولون: (السلام له القيام)، ومن كلمات العزاء أن يقول المعزي: يرحم ما فقدت، او البقية بعمرك، او البقية بحياتك، او يسلم راسك، ويكون الرد ما يلي: يرحمنا الله جميعا، او يرحمنا ويرحمك، او طولة العمر لك او تسلم، او يسلم عمرك، او يطول عمرك او ان شاء الله ما تشوفوا مكروه، او راسك باقي، او يسلم دينك وايمانك، او ما تشوف شر، او ما تشوف مكروه..." وهذه الكلمات وردودها تكون اثناء السلام، اما اذا جلسوا فيقولون احيانا كلمات فيها التعزية، والحث على الصبر والسلوان، فيقولون: الموت حق، ووداعة الله خذاها، وكلنا وداعة لله، واللي ما يموت اليوم يموت باكر، وقد يتحدثون بالدعاء فيقولون: (يا ريت ماواة الجنة)، (الله يصب عليه الرحمة) او (الله يغفر له ويرحمه) او (عظم الله اجركم، ورحم الله ميتكم)الخ.

مدة العـــزاء: المبدأ في مدة العزاء ثلاثة أيام وثلث كالعادة في الضيافة، اما العادة في العزاء فتستمر اسبوعا او اقل او اكثر، حسب اهمية الشخص، وعدد ما يفد من المعزين، وحيث كانت المسافات بعيدة، والاخبار قد تتأخر في الوصول، او حتى ان وصلت يتأخر الشخص في تقديم العزاء لسبب او لاخر، فانه يستطيع ان يفعل ذلك في اي وقت خلال عام من الوفاة، واذا تأخر عن الوقت المعلوم، فلا بد ان يقدم اعتذاره، ومبرره في التأخر، وانه ليس عن سوء نية، او فرحة بموت المتوفى، وانما لاسباب قاهرة، كما هي الصحراء مليئة دائما بالاسباب القاهرة، وفي حالات العزاء تخصص بيوت للنساء او جزء من البيت اذا كان واسعا، والارجح عادة بيت منفصل، عن بيت العزاء الذي يفد اليه الرجال، والسبب حتى لا يسمعون اصوات النساء، وبكائهن، لأن ذلك عيب اصلا وحيث لا بد من ارتفاع الاصوات في هذه الحالات لتجمع النساء، وتهيئة الفرصة للبكاء والنياحة، فانهم يتخذون الاجراءات اللازمة للحيلولة دون السماع، ولاعطاء النسوة حريتهن في الحديث والبكاء والحركة التي تقتضيها ظروف الموت عادة.

واذا كان البيت نفسه فلا يسمح الرجل ان يسمع الغرباء صوتها عند موت عزيز وهناك حادثة ان شيخا بدويا كان في الشق يتحدث الى ضيوفه، فسمع نشيج زوجته من الداخل، فنهرها، ثم دخل اليها وسألها السبب، فقالت ان طفلها المريض قد توفي، فقال: انت طالق اذا ارتفع صوتك ثانية، ولا اريدك ان تنغصي على ضيوفي راحتهم، وسعادتهم بوجودهم في ديواني... وبالفعل عملت ما امرها به زوجها... وفي الوقت الحاضر نجدهم في المدينة ايضا يفصلون بين بيت العزاء للنساء وبيت العزاء للرجال، او يحددون ساعات من النهار قسم منها للذكور، والاخر للاناث حتى يكون هناك فصل بينهما، وهذا من اصول الاخلاق، وحفظ كرامة الطرفين، كما ان الجو حزن وليس لقاءات بين الجنسين في مثل هذا الموقع وهذا الوقت.

وعند البدو يجوز في الحالات والاضطرارية ان ينوب الواحد في العزاء عن اخر، اذا لم يتمكن ذاك لسبب او لاخر، ولكن على المتخلف ان يقدم عذره اذا جاء متأخرا، او التقى ذوو المتوفى بعد مدة من الزمن ضمن عام واحد، وفي الوقت الحاضر اخذوا يستعملون الاتصال الهاتفي، والبرقيات، اذا لم يحضروا لاسباب قاهرة، وهي نفس الاساليب التي يستخدمها ابناء القرى والمدن الكبيرة والصغيرة، لأنها وسيلة حضارية اجتماعية تتناسب والتطور الذي تشهده حياة الانسان وما تتطلبه ضرورات هذه الحياة.

واذا انقضى الاسبوع انتهى العزاء وذهب القوم في اشغالهم واذا ابتنوا بيتا خاصا، طوره... ويعتقد البدو ان الحزن يبتعد في كل يوم بمقدار (مقرط العصا)، والواقع ان هذا تعبير عن الحالة النفسية التي يعيشها الانسان، اذ ان هول الصدمة في البداية يزيد في الحزن واثره على النفس وتوتر الاعصاب، وزيادة الارق، وهذا يخف، ويقل تدريجيا مع انقضاء الايام، ويبدأ النسيان بالتغلغل، بينما يبدأ الحزن بالتخلخل، وبالتالي فان تعبير بعد الحزن (مقرط العصا) في كل يوم ما هو الاشيء نفسي، ومناسب لطبيعة الانسان والنفس البشرية اصلا.

وفي نهاية الاسبوع تكون الاسبوعية المسماة (اسبوعية الميت). وهنا لا بد من تبيان انها لا تكون الا يوم الجمعة، لانه اليوم المبارك، فاذا مات الشخص قبل الجمعة بثلاثة ايام اعتبرت اول جمعة هي الاسبوعية حتى ولو لم يمض اسبوع كامل. اما اذا كانت اقل من ثلاثة ايام فتؤجل الى الجمعة القادمة، وهنا قد تصبح الاسبوعية عشرة ايام، واحيانا يعدون سبعة ايام ويعتبرونها الاسبوعية بغض النظر عن اليوم الذي تقع فيه، وان كان ذلك لفك العزاء، اصلا من حيث الوقت، وبعضهم يطبقونه على عمل الاسبوعية، وبالطبع فانه لا دعوة لحضورها، لأنها شيء متعارف عليه، ويحضر من يعزي ويستطيع من الجيران والاقارب والاصدقاء، ويرون ان ثوابها يكون للميت، لا لغيره من الناس، لذا ينتقونها شاة سمينة، ممتازة لأن في ذلك اجرا اعظم – وتعتبر ايضا خاتمة المطاف، فكما بدىء الامر بذبيحة القبر ثم الونيسة، ينتهي بذبيحة الاسبوعية (وهي مشتقة من كلمة الاسبوع) ولا يزال البدو حتى المستقرون منهم يسيرون على هذا النهج، بينما لا يعترف به ابناء المدينة، لأنه عند البدوي مرتبط بالاعتقاد اكثر من ارتباطه بالطعام، حيث يرون ان فيها اجرا، وانها ترفع الميت درجة عند الله، بالاضافة الى انها تعبر عن دعوة من الاعماق ان تكون فداء لأي بلاء في المستقبل، وهي دعاء الى الله ان يرفع البلاء، وان هذه هي الضحية لما يمكن ان يقع مستقبلا ضحية... انها دفع بلاء عنهم، بل وامل في دفع هذا البلاء.

الدعوات الى الطعـــام: وهذه نقطة معقدة للغاية لأنها تتغير باستمرار، ومن مكان لاخر، بل ومن عشيرة لاخرى في نفس المنطقة ولكن سأضرب، امثلة على مثل هذا التعدد، ومع هذا فستبقى بعض الامثلة التي لم اذكرها، كما سيستحدث الانسان وسيلة جديدة ليست في محيط علمي ومعرفتي الان/فمن العادات: ان تبدأ الدعوة بذبيحة المقبرة (ولا اقول ذبيحة القبر)، فهذه اول دعوة ويجب تلبيتها لأول واحد يدعو، (بشرط ان يكون بيته قريبا من المقبرة، او على طريق العودة – اي ليس بعيدا يعطلهم)، وعند اجتماع القوم في بيت العزاء يحضر الرجال وكل يدعو باسمه او باسم عشيرته.

ودرجت عادة بين اهالي بعض مناطق الاردن باقتصار الدعوة على ذبيحة المقبرة، يفوز فيها اول من يدعو اليها، او من يتفق على احالتها اليه بعد المشادة في الدعوة، فيقولون: عندي، او عندك...الخ واخيرا يستقر الامر عند احدهم الذي يصبح صاحب حق في عمل الوجبة، واحيانا تكون بما يشبه الدور، فمن احيلت عليه مرة استثنى من المرة الثانية، وذلك تخفيفا عنه، ولاتاحة الفرصة لغيره ليأخذ دوره ايضا، لأن البدو يعتبرون دعوة القوم مكسبا، وشرفا عظيمين، يحاولون ما استطاعوا الا تفوتهم... وحسب هذه العادة التي درجت بالاردن في السبعينات من هذا القرن العشرين، واراها بدأت بماحص، والسلط، ثم انتشرت، فانه يمكن لاي شخص يريد دعوة اهل العزاء، ان يصنع طعاما، ويرسله جاهزا الى بيت العزاء، وفي هذه العادة حسنة كبيرة، وذوقا رفيعا، حيث اهل المتوفي في وضع منشغلون فيه عن صنع الطعام لانفسهم فكيف لزوارهم المعزين؟!

لذا فان غيرهم يقوم بالمهمة، بالاضافة الى ان هذا موافق لروح الشريعة الاسلامية السمحة.

ومن العادات السيئة للغاية ان يتم وضع قائمة باسماء الداعين، لتلبية دعواتهم جميعا واحدا تلو الاخر، فيتحول الحزن بذلك الى فرصة لتناول المناسف والطعام، والخسارة، وربما خراب البيوت، وتعطيل الناس عن اعمالهم.

وهناك عادة جديدة بدأت في السبعينات وهي اذا كان الداعون من نفس عشيرة المتوفى، يكون نصيب كل حمولة بالعشيرة يوما، وهم يتفقون عند من يكون، او توزع تكاليفه على الجميع من الحمولة، واذا كان الداعون من قبائل اخرى (كأن يكون المتوفى شخصا معروفا ومشهورا)، فيكون نصيب كل قبيلة يوما **(والقبيلة تضم عددا من العشائر، والعشيرة تضم عددا من الحمايل، والحمولة تضم عددا من العائلات، والعائلة تضم عددا من الاسر، والاسرة تضم شخصين واكثر)**... وحضرت ذات مرة عزاء بموت احد الشيوخ، وكان المخول بقبول الدعوات في حالة يرثى له، وفي وضع يستحق الشفقة، وذلك لكثرة ما يجب عليه ان يواجه من اعلان الطلاق، والحلف بالله، والايمان المغلظة بان يحصل هذا او ذاك، على حقه في الدعوة، وعندما قال لهم ان القبيلة الفلانية اخذت يوما، اظهروا الاستنكار، فقالوا: "في الطيب ما حدا يسد عن حدا"، وحضرت اكثر من مرة في هذه الحالات ان تعلن العشيرة هذه انه لا علاقة لها بالعشيرة تلك، فقط ليكون لها نصيب من الدعوة كغيرها. وبالطبع فهذا تسابق من اجل عمل ما يرونه دلالة على الكرم والطيب والشهامة، وليس غريبا ان تسمع احدهم يقسم انه لن يدخل بيت هذا الشخص اذا لم يعطه يوما لتناول طعام الغداء، وأعجبني رد احد الشيوخ عندما الحوا عليه بالدعوة قائلين ان هذه محبة منهم له، قال: (المحبة بالصدور ما هي بالقدور)، اي ان المحبة بالقلوب، والاحساس وليس بالطعام، والطبخ، وملحقاتهما.

وبالمناسبة نقول انه في حالة الوفاة، وبدء العزاء، يتفق القوم على من يمثلهم في تلقي الدعوات، والموافقة عليها او رفضها، وغالبا ما يكون الشيخ، او صاحب الكلمة والوجاهة، او كبير السن او اعرفهم بالعادات ولا يشترط ان يكون شقيق المتوفى او ابنه او والده، بل قد يكون احد الاقرباء او الانسباء او المعارف.... والسبب في هذا الاختيار، لأن البدو يحترمون المنضبطين جدا، ويحترمون من يلتفون حول شخص واحد، ويكبرونهم لذا فان على هؤلاء ان يظهروا ولو امام الناس في هذه الايام التي لا تتجاوز الاسبوع، انهم متكاتفون، يدا واحدة امام الخطب الذي داهمهم، فيحصلون على مزيد من احترام الناس لهم...

بالاضافة الى ان توحيد المصدر خير لهم، ويريحهم من الارتباك وتضارب المواعيد، فالذي يعطيها واحد، وهو يعرف هذا اليوم او ذاك عند فلان او عند غيره، واذا صدف وتورط احدهم واعطى موعدا فعليه ان يحيط المتوجه (صاحب الوجاهة وصاحب الصلاحية) علما بالامر واذا دعا الوافدون اي واحد من اهل العزاء اشاروا فورا الى صاحب الصلاحية لاخذ الرأي النهائي منه... ولا بد لهذا المسكين ان يتذرع بالصبر،

وان يحلف الايمان الطويلة لكي يتخلص من الداعين او ليقنعهم بالاعتذار... وما الاقتصار على ذبيحة المقبرة، الا شكل من اشكال عدم الرضى على السماح بالدعوات والتشدد بها، وهو صورة جيدة لاراحة الانسان من العناء.

ولا بد هنا ان نذكر اهمية (المقارضة) اي انه اذا دعت العشيرة الفلانية او الشخص، عشيرة او شخصا اخر، فعلى هذا ان يرد الجميل بالمثل عندما تمر باولئك نفس الظروف او ما شابهها على مبدأ (كل شيء قرضة ودين حتى دموع العين).

كما لا بد ان نميز بين ان يكون الميت شخصا ذا اهمية كبيرة، حينها تصبح الدعوات على مستوى القبائل، مما يزيدها صعوبة وتعقيدا وحرجا، ودقة، وبين ان يكون شخصا او شيخا عاديا على مستوى قبيلته، او شخصا عاديا على مستوى عشيرته، او طفلا، فحينها تكون الامور عادية، ولا تحتاج الى كل هذا التعقيد وهذه الدعوات وهكذا تأتي الاهمية للرجل، ثم للانثى ثم للاطفال.

ويذهب لتلبية دعوة الطعام عادة الرجال من اقرباء المتوفى، وعدد من ابناء القبيلة، بحيث يكون عددهم معقولا، والعدد المتوسط شيء يرضي المعازيب الذين لا يرضون بالعدد القليل، لرغبتهم في اكرام اكبر عدد ممكن من القوم، واما العدد الكثير فذلك مالا يرضاه الضيوف خوفا من ان يوصفوا انهم (دوارين طبايخ) اي باحثون عن ملء بطونهم طعاما دون الاهتمام بالسمعة.

الحـــــداد: يهتم البدو بالحداد على الميت وخاصة النساء، ومن اولى مظاهره في حال موت شيخ او وجيه او عظيم قلب دلال القهوة رأسا على عقب، بما يسمى (يكفوا الدلال – بتشديد الفاء) لأن القهوة مرتبطة بعظمة الشخص، وبموت صاحب العظمة يعني نقص في الكيف، والقوة، والعظمة، وان (الدلال) نفسها تحزن على فراق ذاك الذي اعطاها العز، والرفعة، وانها لا تستحق ان تشرب بعده، وكأنها بذلك تشارك القوم احزانهم، او انهم يشاركونها احزانها في حزنها على صاحبها الذي بوجوده كانت عامرة وباستمرار... ان ذلك تعبير عن اهمية القهوة في حياة البدو، وما ترمز اليه من ارتباطها بالشيخ، والكرم (فالقهوة عندهم مشروب الاجاويد) وطالما مات هذا فمن ذا الذي يشربها من بعده... كما يرمز الامر الى اهمية الشيخ ايضا فالدلال ذات مكانة عظيمة. وعندما تعفر بالرماد (السكن)، وتفرغ من شراب القهوة، فهذا في الحالات العادية اهانة لها وللقهوة، وكأن الموت بذلك يشكل اهانة حقيقية لها... ومن مظاهر الحداد رفع راية سوداء على البيت او البيوت اذا كان المتوفى شيخا او رجلا عظيما، او فارسا، لأن السواد دليل الحزن، والحداد، وهذا اشهار للحزن، واظهار له على رؤوس الاشهاد، وامام العباد، (ومن مظاهر الحداد على مثل هؤلاء الرجال، هدم احد اعمدة البيت، وخاصة عمود الطرف الذي في نهاية الشق مما يلي (الرفة – بتشديد الفاء – اي نهاية البيت من الخارج) لأن الميت كان عمودا للعشيرة وقد انهدم هذا العمود وبذلك يقول الشاعر.

لديت له وان واسط البيت مكصوم   على تبســـم يوم ياري خيالـــي

اي نظرت واذا عمود البيت مكسورا، فنظر الخادم من وسط البيت وتبسم لازالة الحزن اولطمأنة الشخص انه لا يوجد شيء، الا ان هدم العمود او ازاحته تعني فورا ان شخصا مهما قد مات، وهذه من دلائل الحداد والحزن، والموت عند البدو.

ومن الحداد: ارتداء الالبسة السوداء... على اساس انه بعد موت ذلك الشخص غشي السواد القوم، فاصبحوا في ليل مظلم اسود بعد نهار ابيض ناصعا.

ومن صور الحداد تغطية وسائل الزينة عند النساء بقماش اسود شفاف او ثقيل حتى لا يبدو بريق الزينة، وحتى لا توصف البدوية انها متبرجة متزينة ابتهاجابموت ذلك الشخص، وانه كما احتجب زينة القوم او الاسرة (اي المتوفى) عن الحياة الدنيا الظاهرة فيجب حجب زينة النساء اللامعة عن الظهور ايضا وذلك بقماش اسود.

وغالبا ما يغير البدو منازلهم بعد انقضاء مدة العزاء حيث يرغبون في الابتعاد عن المكان الذي ارتبط بالحزن والموت والاسى... خاصة وان البدوي يستطيع الرحيل بسهولة، وقد يغير المكان في نفس المنطقة، وقد يغير المنطقة كاملة...ويستمر حداد النساء في اخفاء الزينة مدة نصف سنة او سنة كاملة، اوحتى تهترىء قطعة القماش التي تغطيها، وتسقط تلقائيا.

اما رفع الراية، وازاحة العمود فيستمر باقصاه اربعين يوما، وبادناه ثلاثة ايام واما تفريغ الدلال من القهوة فيستمر في ادناه يوما او بعض يوم، وقد يصل في اعلاه ثلاثة ايام، فيحضر القوم ويخرجون بدون تناول قهوة، واما في الوقت الحاضر فان ذلك اندثر تقريبا، فالناس تنظر للموت انه شيء طبيعي، وتطورت نظرتهم للأمور، والى الحداد، وذلك بتطور وسائل المعيشة الحياتية، ووجود البيوت المستقرة، ووسائل الحضارة المتوفرة.

وأما مدة الحداد فيكون في ادناه ثلاثة ايام، وفي اعلاه بالنسبة للرجال اربعين يوما، وحتى في الدول الحديثة نجد ان من صور الحداد منع تقديم بعض الاشياء التي تقدم في الحالات العادية والافراح، ورفع الرايات السوداء، وتنزيل او تنكيس الاعلام (فكما ان العلم يشكل رمز الدولة وشرفها، فان القهوة تشكل رمز الضيافة وبذلك يقابل قلبها تنزيل العلم في الدول الحديثة، ويقابل رفع الراية السوداء على البيت وضع قطعة سوداء على الذراع الايسر في الدول الحديثة وكذلك الحداد يكون في اعلاه اربعين يوما في الدول الحديثة واحيانا اسبوعا أو ثلاثة ايام تماما كما هو عند البدو).

وفي الاسلام يجوز للمرأة الحداد على قريبها ثلاثة ايام ما لم يمنعها زوجها ويحرم عليها ان تحد فوق ذلك، الا اذا كان الميت زوجها فيجب عليها ان تحد عليه مدة العدة وهي اربعة اشهر وعشرا، لما رواه الجماعة الا الترمذي عن ام عطية ان النبي صلى الله عليه وسلم قال: **"لا تحد امرأة على ميت فوق ثلاث الا على زوج فانها تحد عليه اربعة اشهر وعشرا، ولا تلبس ثوبا مصبوغا، الا ثوب عصب (برود يمانية)، ولا تكتحل، ولا تمس طيبا، ولا تختضب، ولا تمشط الا اذا طهرت، تمس نبذة من قسط او**

اظفار"[١]، واما الاظفار والقسط فهما نوعان من العود الذي يتطيب به، واما النبذة: اي يجوز لها وضع الطيب عند الغسل من الحيض لازالة الرائحة الكريهة.

وكما اعرف عند البدو ان البدويات يتقيدن بهذا الحديث تماما، سوى المدة، حيث يزدنها ربما الى ستة اشهر او سنة كاملة، كما ان بعضهن يقضين مدة الحداد بدون حذاء، وبدون اي اعتناء باجسامهن، لأن البدو ينظرون الى اي اهتمام بالجسم على انه فرحة لموت الزوج، وبحثا عن زوج اخر، لذا يقولون احيانا عن بعض النساء، انه ما ان يموت زوجها حتى تفكر فورا في الزوج البديل، وبالطبع ليس ذلك غريبا على طبيعة المرأة كما انهم يرون في حدادها وفاء لزوجها، وللرابطة الزوجية المقدسة،واحترامها لاهله من بعده.

وأما الرجال فيتجنبون ارتداء الثياب ذات اللون الابيض ما استطاعوا الى ذلك سبيلا، لأنه لون يدل على الافراح ولا يناسب الاتراح، وتبدو علامات السهر والارهاق والحزن بادية على وجوه الرجال من النظرة الاولى... وبعد انتهاء العزاء يعودون لنشاطهم مع تجنب ارتداء الملابس البيضاء ايضا، ومن المظاهر الحديثة في الحداد اغلاق المذياع والاذاعة المصورة، والاقتصار على مطالعة الصحف فقط، لأن المذياع والشاشة لا زالا يعتبران في العرف الحالي من وسائل الزينة والترفيه حيث لا زال الناس حديثي العهد بهما، بالاضافة الى ان مادتهما الرئيسية هي الاغاني والموسيقى والتي يشكل منعها ومنع سماعها جزءا من الحداد عند البدو، حتى ان الدول الحديثة قد اخذت بنظرة البدو هذه ايضا، اذ في حالة موت رئيس دولة مسلم تستبدل البرامج العادية بتلاوة اي من الذكر الحكيم.

اما الاشخاص العاديون فقد كانوا يأتون باشخاص لتلاوة القرآن المسماة (الختمة)، اي ختم القرآن كاملا، بينما الان يكتفون بالسماع للقرآن من الات التسجيل، ويعتقد الجميع في الحالتين ان في ذلك اجرا للميت، بالاضافة الى انه استبدال للهرج والمرج، والاغاني بالادعية والاستغفار للميت، وقد اصبحت هذه الاشياء، من مظاهر الحداد الواضحة في المجتمع الحديث بالمدينة والقرية...

الاربعينيـــــة: وبلفظها العوام – المربعانية – وهي مرور اربعين يوما على وفاة الشخص،وقد اصبحت هذه العادة شائعة في كافة طبقات المجتمع، حيث يسمونها احيانا حفلة التأبين، وكانت العادة ان تقام وليمة يوم الاربعين يدعى اليها الاقارب والجيران ومن يرغب من غيرهم وكان يجوز ان يؤتى اليها بغير دعوة من اهل العزاء، لأنها مناسبة تجمع بين انقضاء العزاء وانتهائه، وبين العزاء في انهاء آخر مرحلة من مراحله، وقد كانت الدعوة تتم بواسطة اشخاص يطوفون بالعربان، واما اليوم فان هؤلاء الطوافين يحملون بطاقات زينت في صدرها واولها **(يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك**

---

١) سيد سابق – فقه السنة المجلد الاول ص ٥٠٧

راضية مرضية) وتنتهي بعبارة (لا اراكم الله مكروها بعزيز) وتتضمن البطاقة مكان وزمان حفل الاربعين للمرحوم فلان، وبذلك نجد ان حضورها يكون ببطاقة وليس بالمشاركة التلقائية التي كانت موجودة فيما سبق.

والعادة ان يحمل المدعو معه هدية كالرز او السكر، او الماشية، وقد يكون ادى ذلك في ايام العزاء حينها يحق له الا ياتي بشيء من ذلك ثانية، ويحق له ان يأتي به ايضا، وفي الواقع انه يمكن في هذه الاوقات بعد الستينات مشاهدة مئات الاكياس من الرز او السكر في هذه المناسبة عند اهل العزاء من ذوي الجاه، واذا كان الشخص يدفع نقوطا في الزواج فانه يدفع مثل هذا في العزاء ومشاركة منه في دفع الحزن، بل وتعبيرا منه عن ذلك ويقوم اهل العزاء بتجهيز الطعام للحضور المدعوين، فاذا طعموا انتشروا ومن النوادر التي حدثت معي انني هممت مسح يدي بعد تناول الطعام في احدى مثل هذه المناسبات بطرف بيت الشعر، فنبهني احدهم ان ذلك للفرح، لا للعزاء، فخجلت على نفسي، لكني اعترف انني تعلمت شيئا جديدا، اذ ان من التعبيرات عن مسح اليدين بطرف البيت (الرفة) ان ذلك دعاء ان يبقى الخير باطراف القوم ملازما لهم ولبيوتهم، واذا فعل ذلك في العزاء فمعناه دعاء ببقاء الحزن والعزاء بدل الفرحة، وشتان ما بين الامرين، وان كان الفعل واحدا، فسبحان الله رب العالمين.

وكثير من الناس يعرف ان الاربعينية (المربعانية) بدعة، وسوء، الا انهم يقولون، نخاف كلام الناس ان يقال: بخل فلان واستغنى، فــهم للاسف مقيدون بالعادة لا بالعبادة ولا شك ان تكاليف هذه المناسبة باهظة، وتكفي للمساهمة في بناء مشروع خير يستحق التقدير، ويقدم الخدمات لقطاع كبير من الناس.

وفي الواقع والحقيقة ان الاربعينية بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، واذا كنت اعترف بفوائدها في جمع الناس، وتعارفهم على بعضهم وشدهم وتكاتفهم، الا انني اعترف، انها تساهم في تخريب البيوت، وضياع الوقت، وخسارة الناس في غير اعمال البر، والتقوى، فلو جمعت هذه الاموال في وجوه الخير، لكانت احسن وافضل من ان تكون في غير ذلك... وحول هذا الموضوع ذكر السيد سابق في فقه السنة المجلد الاول ص ٥٦٤ ما يلي:

وما يفعله بعض الناس اليوم من الاجتماع للتعزية، واقامة السرادقات، وفرش البسط وصرف الاموال الطائلة، من اجل المباهاة، والمفاخرة من الامور المحدثة، والبدع المنكرة التي يجب على المسلمين اجتنابها، ويحرم عليهم فعلها، لا سيما وانه يقع فيها كثير مما يخالف هدي الكتاب، ويناقض تعاليم السنة، ويسير وفق عادات الجاهلية كالتغني بالقرآن وعدم التزام اداب التلاوة، وترك الانصات والتشاغل عنه بشرب الدخان وغيره، ولم يقف الامر عند هذا الحد، بل تجاوزه عند كثير من ذوي الاهواء فلم يكتفوا بالايام الأول: جعلوا يوم الاربعين يوم تجدد لهذه المنكرات واعادة لهذه البدع، وجعلوا ذكرى اولى بمناسبة مرور عام على الوفاة وذكرى ثانية وهكذا مما لا يتفق مع عقل ولا نقل "**أهـ**".

ومن العادات الحالية انها (الاربعين) تكون يوم الجمعة (سواء اكان **مطابقا** ام

زائدا عن الايام المحددة، وذلك لأنه يوم العطلة الرسمية. التي يستطيع الناس تلبية الدعوة والتواجد فيه.

زيارة القبور: يزورها البدو يوم الاسبوعية (اول جمعة بعد انقضاء ثلاثة ايام او اكثر على الموت) ويقرأون الفاتحة، ثم يزورونها في يوم الاربعين، ثم في الاعياد، والمناسبات الاخرى، وعند دفن موتى جدد في المقبرة، وعند التذكرة، او حلف اليمين في المنطقة المجاورة (اذا كان القبر ضمن مقبرة احد الاولياء) ومن العادات القديمة ان يوضع على قبر الكريم دلة قهوة كرمز يدل على كرمه في حياته، وقيمته عند جماعته وربعه... وفي كتاب مؤاب وبلاد الحثيين تأليف الكابتن كوندر ترجمة سليمان موسى ضمن كتاب في ربوع الاردن (مشاهدات الرحالة) ص ١١٥ يقول:

ومما هو جدير بالذكر في هذا المجال ان الناس، في مجتمع لا يعرف الكتابة، يعمدون الى تخليد ذكرى العظماء من موتاهم بطريقة اخرى، فقد شاهدنا على اضرحة الزعماء الكبار نماذج صنعت من الملاط يبدو فيه الفارس ومعه سيفه وقوسه الى جانب. وجرن القهوة والفناجين ويد الجرن والاباريق والمحماسة، الى الجانب الثاني، وكل هذه دلائل الضيافة والفروسية عند العرب، وبها يخلدون شجاعة عظمائهم، وسخائهم" أهـ

وزيارة القبور شيء مشروع في الاسلام حيث روى احمد ومسلم واصحاب السنن عن عبدالله بن بريرة عن ابيه، ان النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فانها تذكركم الاخرة)، وعند البدو تزور النساء كما يزور الرجال، وان اختلفت الاراء بذلك في الشريعة الاسلامية، الا ان هناك من يسمح لهن ضمن **حدود** الاداب حيث يقول القرطبي: ان اللعن لزوارات القبور. انما هو للمكثرات من الزيارة لما تقتضيه الصيغة من المبالغة ولعل السبب ما يفضي اليه ذلك من تضييع حق الزوج، والتبرج، وما ينشأ من الصياح ونحو ذلك وقد يقال: اذا امن جميع ذلك فلا مانع من الاذن لهن، لأن تذكر الموت يحتاج اليه الرجال والنساء" وقال الشوكاني تعليقا على كلام القرطبي: وهذا الكلام هو الذي ينبغي اعتماده في الجمع بين احاديث الباب المتعارضة في الظاهر".

نقل الميت: يقول البدو: "ميت بلاد ما ينتقل لبلاد"، اذ نادرا ما ينقلون الميت الى مكان بعيد، اي لا يأخذونه الى مقبرة بعيدة طالما وجدت مقبرة اقرب، ولكن هناك حالات تتحكم بذلك وهي **الوصية:** اذ قد يوصي الشخص بدفنه في مكان محدد، ويحاولون قدر الامكان تنفيذها، وقد لا يتقيدون بها.

والشيء الاخر: **الانثى**، اذ غالبا ما تدفن في مقابر اهلها لا مقابر زوجها اذا كانت غريبة، وامكن نقل الجثة دونما خوف على خروج الرائحة، وتعرضها للعطب.

والشيء الاخر **وجود المقبرة:** اذ قد يتفقون على دفنه في مقابراهله وذويه، او في اقرب مقبرة لا بد من الوصول اليها بالسفر، والنقل، كما ان الشيخ من القوم لا بد من دفنه في مكان معروف، وغالبا ضمن المقبرة حتى يعرف قبره وحتى يتذكرونه دائما.

والمبدأ هو عدم نقل جثة الميت، وفي العادة قد يتم نقلها في ظروف معينة ولاسباب تعتبر قاهرة بالنسبة للبدو في اعرافهم، وهم يفضلون الدفن في المقابر ويكرهون الانفراد. وفي المذهب الشافعي الذي هو المذهب الغالب للبدو: يحرم نقل الميت من بلد الى بلد الا ان يكون بقرب مكة او المدينة او بيت المقدس، فانه يجوز النقل الى احدى هذه البلاد لشرفها وفضلها ولو اوصى بنقله الى غير هذه الاماكن الفاضلة لا تنفذ وصيته لما في ذلك من تأخير دفنه وتعرضه للتغير.

والنقطة التي نود ذكرها ان البدو لا ينبشون القبور، ويستفظعون دفن اكثر من واحد في قبر واحد حتى ولو بعد حين. ويعتبرون القبر ملك الانسان الميت، واستغلاله شيء ممس بكرامة الميت وذويه من الاحياء وبذلك فهم يحترمون القبور والموتى ولا يسيئون اليها، ولا ينبشونها حتى ولو كانت دارسة، ولا شك ان السنة الاسلامية تسمح بالدفن في القبر الواحد، اكثر من شخص اذا بليت عظام المدفون الأول قبل دفن الثاني... والبدو لا يسبون الاموات، ويعتبرون ذلك جريمة، واهانة عظيمة ومن الفاظ سب الميت (يحرق اللي ماتوا لفلان من الناس) اي احرقهم الله في نار جهنم، وهي كما ترى دعوى مزعجة فعلا، وهم عادة يذكرون محاسن الموتى ويتقيدون بالسنة الشريفة حيث قال عليه الصلاة والسلام: **(اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم).**

في وداع الحجاج واستقبالهم

كان البدو يتأهبون لاداء فريضة الحج قبل اشهر عديدة من حلول وقتها، وذلك لطول المسافة وصعوبة الطريق التي لم تكن امنة زمنة الاتراك، واحتمال تعرض الحجاج للغزو والسلب والنهب من قبل البدو والاعراب الذين تجتاز ارضهم طريق هؤلاء الحجاج... والذي يستمع للحكايات البدوية يجد الكثير الكثير من مثل هذه القصص التي تقشعر لها الابدان، حيث كان الحجاج يتعرضون لصنوف كثيرة من الالام، وكان بعضهم يلقي حتفه سلبا او نهبا، او عطشا او جوعا، لذا كانوا يحجون قوافل وجماعات من اجل توفير الامن والحماية لانفسهم، والدفاع عن انفسهم، اذا صادفهم خطب ما، حتى ان الاتراك كانوا يرسلون الحجاج في مركب او محفل خاص مع تعيين امير لكل موسم مهمته الاشراف على القافلة، وقيادتها، واسترضاء زعماء القبائل ليسلم الحجاج من اذاهم ونهبهم وسلبهم وبعد مد الخط الحديدي الحجازي هانت المشكلة او لنقل اصبحت الامور اكثر يسرة، وعند اندحار الاتراك، اصبح الحجاج اكثر امنا على انفسهم وان لاقوا المصاعب والمتاعب والمشقات لصعوبة الطريق، الا انها الان لا تكلف اكثر من ثلاثة ايام بدلا من ثلاثة اشهر، او ثلاث ساعات بالطائرة.. وكان البدو يعتبرون الذاهب للحج في عداد المفقودين لصعوبة وخطورة الطريق كما قلنا، لذا كانوا يحتفلون بوداعه الوداع الاخير، وكذلك كانت الدولة تحتفل بوداع قوافل الحجاج، وهي سنة لا زالت الدول الحديثة تمارسها، وكان الناس يجتمعون في بيت الذاهب للحج، يتسامرون ويتحدثون بينما كان عليه ان يعد راحلة وغالبا (الذلول) مع نقود، وطعام، وملابس استعدادا

للسفر، وكان القوم يدفعون (نقوطا) للحاج، وذلك مساهمة منهم في مساعدته من جهة، وطلبا للأجر من عند الله من جهة اخرى، اذ يعتبرون هذا الدفع مشاركة منهم في هذه الفريضة، وبالتالي يكون لهم من الاجر بمقدار ما دفعوا... واذا عاد الحاج فلا بد له من حمل الهدايا، وكأن ما يدفعه القوم هو بمثابة عون له على هذه المهمة وهي حمل الهدايا وجلبها الى المضارب.

وقبل السفر بيوم كان الحاج يدعو القوم الى وليمة كبيرة، ثم عند السفر يجتمع الناس ويودعونه وهم يبكون ويوصونه بالدعوة لهم فردا فردا، بالمغفرة والتوفيق، مع دعائهم له بالسفر الميمون (تروح سالم وترجع غانم)، ويعانقهم ثم يمتطي راحلته، في محفل من القوم يحيطون به مسيرة ساعة، او يوم، او بعض يوم، ثم يودعهم ثانية **(وربما لم يكن ودعهم عند البيت)**، ويواصل سيره على بركة الله، ونجد اليوم ان وداع الحجاج يكون ايضا في البيوت، او عند مكان تجمع القافلة، او عند نقطة الحدود.

وعند العودة بعد اداء فريضة الحج، يستقبله الناس بالزغاريد، وسباق الخيول، واطلاق الرصاص، والرقص، والغناء والافراح، ويرفعون راية بيضاء وخضراء كدلالة على النقاء والخير، والسلامة والغنيمة، خاصة وان هذين اللونين يرمزان الى نقاء وخير العقيدة الاسلامية ويحمل الحاج معه بعض التمر والهدايا (من المسابح مفردها مسبحة) وربما ماء زمزم، ويأكل الزائر حبة تمر وجرعة من ماء زمزم، ثم لا بد من دعوة الحاج لتناول الطعام احتفاء بمقدمه واداء الفريضة، وهم يهنئونه بكلمات لطيفة (حج مبرور وسعي مشكور) (الحمد لله على السلامة)، ويستمعون منه الى تفصيلات عن الرحلة ومناسك الحج، ولا بد له من قبول الدعوة، بل والعديد من الدعوات.

واذا كان وقت اداء الفريضة يستغرق (سابقا) وقتا طويلا، فانه الان يستغرق اسبوعا بالطائرة وما لا يزيد عن اسبوعين بالسيارة اذا شاء الحاج الاستعجال.

الختان

والختان شيء ضروري ولا غنى عنه لكل ذكر عند المسلمين، ومن ضمنهم البدو، ويتم بقطع اللحمة الزائدة في مقدمة الذكر التي تغطي حشفته.

وكان بعض البدو يختنون اولادهم بسلخ الجلد، الا انها طريقة غير انسانية، واندثرت الان "وحول الختان رأيت ان انقل هذه الاسطر من كتاب رمال العرب تأليف ولفريد ثيسيغر تعريب نجده هاجر، وابراهيم عبدالستار، ص ١٠٧ وما بعدها، ويقول: "بعدئذ سألت ابن قبينة: يبدو عليك الهزال والتعب، فهل كنت مريضا؟! اجاب: لقد كنت على وشك الموت في غيابك، لقد ختنت منذ ثلاثة اشهر، واصابني نزيف حتى خيل الى الكثير اني مت، كنا ثمانية وقد اجرى لنا الختان احد شيوخ بيت (خوار) في وادي (كيديوت)، كان هناك رجل ذو لحية من المناهل بيننا اما الباقون فكانوا من بيت خوار، وكانوا اكبر مني، وقبل العملية دهن اهلنا اجسامنا بالزبدة والزعفران، ثم اجريت لنا عملية الختان

ونحن جالسون على صخرة، وقد بدأ الرجل بي، لأني كنت الاصغر، وبعد ان ربط القسم الامامي بواسطة خيط، تركه، يا لله كم تألمت، وقد ارتحت تقريبا عندما قطع اللحمة الزائدة، مع ان سكينه لم يكن حادا، وبعد القطع وضع على الجرح مزيجا من الملح والرماد، وروث الجمال المدقوق، فأحسست بلسع كما تلسع النار، وفي الليل اخذ جرحي ينزف، وفيما كنت نائما افقت لاشعر برطوبة ساخنة على فخذي، كان الجلد الذي نمت عليه منقوعا بالدم، وكان الظلام حالكا، فلم ار شيئا حتى اشعلت والدتي النار، عندئذ سألت ابن قبينه: "لماذا انتظر اهلك حتى كبرت ليجروا العملية؟ فقال: هذه عاداتنا، واضاف بابتسام: ان بعض ابناء المهرة ينتظرون حتى ليلة زفافهم، وفي جنوب العراق رأيت صبية يبلغون الرابعة عشرة او الخامسة عشرة يتزاحمون كي يختنوا، كما يتزاحم الاولاد لشراء الحلوى من دكان المدرسة في انجلترا، وفي السودان قابلت صبية قاموا باجراء العملية على انفسهم، لأن اباءهم تأخروا بالسماح لهم بذلك... انئذ تذكرت الاحتفال الذي شهدته منذ خمسة اشهر في (تهامة) البعيدة، لقد ظل الصبيان الذين كانوا قيد الختان منتظرين اليوم الذي يعلن فيه الشيوخ ان مركز القمر والنجوم يسمح باجراء العملية، وكانوا يرتدون سترات حمراء قصيرة ضيقة الاكمام، وسراويل بيضاء واسعة تضيق عند الركبة، وهذه هي المرة الوحيدة في حياتهم التي يلبسون فيها السراويل لأنها من ملابس النساء، وفي اليوم المعين ركبوا على الجمال واخذوا يطوفون في القرى المجاورة يتقدمهم الموسيقيون، ثم عادوا قبل مغيب الشمس الى قريتهم يتبعهم جمهور كبير، حيث ساعدهم اصدقاؤهم على خلع السراويل، ثم اخذوا يتقدمون امام قبيلتهم واحدا اثر الاخر، وهم اقرب الى البنات منهم الى الصبيان، بشعرهم الطويل المرسل، وملامحهم الدقيقة، وقف كل منهم ورجلاه متباعدتان ويداه ممسكتان بشعره، يحدق بجمود دون ان ترمش عينه في الخنجر المغروزة امامه بينما امسك عبد بعضوه وسلخه، وعندما انتهى العبد من عمله وانتحى جانبا، قفز الفتى الى الامام، واخذ يرقص بجنون على دقات الطبول الايقاعية امام الجمهور المتشوق، قافزا صارخا، بينما الدماء تجري على رجليه، وفي جبال الحجاز، ما تزال بعض القبائل تقوم بالختان السلخي الذي يؤجل احيانا الى ان يتزوج الرجل وينجب اطفالا، وفي هذه الطريقة يسلخ الجلد من سرة البطن حتى الفخذين(أهـ)

والواقع أن الختان السلخي غير موجود عند بدو الاردن اطلاقا، وانما ختان قطع اللحمة الزائدة فقط، ويسمى الشخص الذي يقوم بالمهمة (بالشلبي) او (المطهر) لأنهم يعتبرون العملية تطهيرا للشخص من الاوساخ التي تتراكم على مذاكيره نتيجة وجود الغلاف الزائد الذي تتم ازالته. كما يسمون فريضة الحج (طهور) ايضا، حيث يرون ان الطهور نوعان: الختان وهو طهور (بضم الطاء) من الاوساخ، والحج وهو طهور (بفتح الطاء) من الذنوب اي تخلص منها، كما ان الطهور (الختان) يفرق بين المسلم والنصراني.

وكانت عملية الطهور تتم بوضع (بعرة) وهي براز النعجة او العنز، داخل الزائد

ثم يسمك المطهر بطرف الزائدة، ثم يقوم بقطعها ما بعد البعرة بواسطة موس او شفرة، في الوقت الذي يمسك بالشخص المختون عدد من الاشخاص حتى لا يقوى على الحركة فلا يمنع المطهر من اداء المهمة..

واذكر ان يوم الطهور كان حافلا بالنسبة للشخص الذي سيختن، حيث يغتسل ليكون نظيفا، ثم يرتدي الثوب الابيض، وبدون سروال، ثم يطلب الى الحضور، ان يكون الجميع طاهرا، والغريب ان حامل الجنابة يغادر المكان، او لا يحضر ساعة الاختتان فقط لأن رؤية الجنب في اعتقادهم يؤدي الى الورم والألم وربما الى النزيف.

(ويجتمع الرجال في الشق)، والنساء في (المحرم)، ويشرب الرجال القهوة وسط الهرج والمرج، بينما تغني النساء اغاني خاصة سنذكرها بعد قليل ان شاء الله، ثم يؤتى بالشخص الذي سيختن ويمسك برجليه اثنان وبيده اثنان، واخر يطبطب على سقف بيت الشعر يقول: هذه الحمامة، فينظر الطفل الى الاعلى معتقدا انه سينال حمامة، بينما المطهر يؤدي عمله بخفة ورشاقة وسرعة، وسط الزغاريد، والتهليل والتكبير، والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكلمات، مبروك، مبروك، ثم يحمل الطفل اقرب الناس اليه (الاب، الأخ وربما الأم)، وهو يصيح، ويدور به قليلا خارج البيت، لينسى الألم ويترك الصياح.

واذكر انهم كانوا يضعون من الادوية بعد الختان، البعر المدقوق، مع الاعشاب المدقوقة، ومن ضمنها (عروق الحمحم) والمسماة (الهوا جوي) حيث تغلى وتنقع بالماء ويوضع الماء على الجرح كمطهر، ومسكن للألم في ان واحد، ويساهم في الابراء ايضا، وكانوا يحكون الحزام والجلد، ويأخذون ما يخرج من الحك ويطبخونه بالسمن البلقاوي ثم يضعونه على الجرح، مع تجنب وضع ذلك على ثقب المذاكير كي لا تغلقها ثم يعصبون عليه قطعة قماش نظيفة، يتم فكها في الماء او في صبيحة اليوم التالي، وتوضع الادوية البدائية باستمرار حتى يبرأ الجرح.

وكانت هناك طريقة اخرى للختان وهي وضع (البعرة) في داخل الغلفة، ثم توضع بعدها جلدة مثقوبة بحيث تخرج من خلال الثقب - الزائدة التي سيتم قطعها، وتربط الزائدة بخيط او يمسك بها المطهر بيده.

ومن الادوية ايضا: سوس الخشب، وهي النجارة التي تخرج من قلب جذع الشجرة عندما ينخرها السوس، ويتم دق هذا السوس مخلوطا بالشبة، وقلق النعاج (وهو الوسخ الذي يتبقى على مؤخرة النعجة)، وقهوة محروقة، وملح. ويتم طحن هذه جميعا معا في ان واحد ويتم تنخيلها، وتوضع المادة المدقوقة على الجرح.

وكان البدو اذا ختنوا اولادهم ذبحوا للواحد ذبيحتين ، واذا كانا اثنين ذبحوا لهما ذبيحة واحدة او اكثر، حيث يتشاءمون من طهور الشخص منفردا ويرون ان الشيطان قد يتفرد به، لذا فان الذبيحتين تحلان محل شخص اخر، ولا تتركانه وحيدا، واذكر انهم كانوا ينتظرون ولادة الطفلين والثلاثة للشخص الواحد، ليطهروهم معا، اما الان فان هذا الاعتقاد قد انتهى ولا يخشى احدهم من ختن ولده منفردا، بل ان المفضل عندهم

الان اجراء ذلك في اليوم السابع من الولادة او في الوقت الذي لا زال الطفل فيه باللفاع والمهد، وذلك لأنه اقل خطرا، ولأن الختن للشخص وهو يذكر ذلك بعد سن الخامسة او الرابعة قد يؤدي الى تعقيده..

وأما الاغاني التي ترددها النسوة بهذه المناسبة فهي كثيرة ولكن غرضها واحد، وهو تسلية الطفل، والفرح بهذه المناسبة، ومدح الشلبي كي لا يظلم هذا: ومن اشعارهم:

طهـره يا شلبـي وناولـــه لخاله يالدموع الغالية نزلت على خلخاله
طهـره يا شلبـي وناولـــه لعمه يالدمـوع الغاليـة نزلـت ع كمه
بـــالله يا شلبـــي وبـــالله عليك شطـر امويســـك وخفـــف ايديك
ولن اوجعـت الزين ولا دعـــي عليـــك

ومعنى شطر: اي اجعله حادا سريع القطع، والمويس تصغير موس وهي للتحبب ومن الاغاني ايضا:

يـــا مطهـــر الصبيـــان بالقايلة طهـر (فـلان) ابـو شوشـــه مايلة
ويا مطهر الصبيان ايـدك باله ايدك ولا توجع (فلان) ان شاء الله تسلم ايدك

وهناك اكثر من طريقة للاحتفال بالختان: فقد تتم العملية بصمت، وهي الغالبة الان، مع ذبح ذبيحة فداء لسلامة الطفل، وهذه الطريقة (الصمت) مناسبة جدا للاسلوب الحياتي العصري، حيث لا بطالة، والجميع يعملون ولا وقت عندهم للتجمع والضيافات التي لا ضرورة لها.

واذكر في فترة الخمسينات ان الناس كانوا يهتمون بالختان كالزواج، حيث يدعون اليه الناس، ويجلسون لتلقي النقوط عن الطفل، ثم يشاهدون الصابية (سباق الخيل) كما كانوا يفعلون كل ما يترتب على الفرح من الرقص ثلاث ليال او يزيد احيانا، وزغاريد وذبايح وطبائخ... الخ وقد انتهت هذه العادات الان واقتصرت على الطهور ودعوة مصغرة للجيران والمعارف للمشاركة في اكل لحم الذبيحة التي تعتبر فداء لسلامة المختون.

وفي القديم كانوا يدفعون للطفل المختون بعض الفلوس القليلة، كنقوط منهم اليه وكان النساء تدفع احيانا مثل الرجال.

واذا كان تاخر الختان فيما قبل (سابقا) بسبب قلة من يقوم بمهمة الشلبي، الا انهم رغم هذا كانوا لا يتزوجون الا وقد ختنوا لأن الختان في عرفهم من اركان الدين، ومن الدلالات عليه.

وكانوا يوزعون الحلوى وخاصة الزبيب على الحضور، وكانوا يختنون في فصل الربيع والصيف، (اي الفصل الذي لا برودة فيه لأن البرد يؤثر على الجرح) ويحق للمختون ان يمتنع عن مزاولة العمل ما دام مجروحا، كما يحق له ان يمشي او يجلس بغير الطريقة المعتادة لما تقتضيه طبيعة جرحه، حتى ان البدو اذا سخروا من شخص متكاسل، او يتصرف بما لا يجيزه العرف من حيث المسير او الجلوس يقولون: فلان مثل المطهر (بفتح وتشديد الهاء).

الختمـــــــة

ختم القرآن، اي الانتهاء من قراءته، حيث كانت الكتاتيب والشيوخ الدراويش عند البدو يهتمون بالدرجة الأولى بتعليم الاطفال قراءة القرآن الكريم فقط، ولا شك ان هذا الكتاب المقدس الذي انزله الله وحفظه من كل تغيير وتحوير له شأن عظيم عند البدو، وتجد واحدهم يقف باجلال واحترام عند سماعه تلاوة اي اية كريمة، وينزل رجله عن الاخرى، ويطفىء سيجارته، ويصمت ولا يتكلم لأنه يسمع كلام الله الذي هو خير الكلام... انني اذكر كل هذا في طفولتي، لذا فقد اعطوا اهمية كبيرة لقارىء القرآن وحافظ الايات، وايضا لمن يختم القرآن الكريم حتى انهم يقيمون مراسيم خاصة عند الختمة، فيذبح والد الشاب الذي ختم القرآن ذبيحة، ويدعو اليها القوم، والشيخ الذي قام بتدريس ولده ايات الله البينات... ويرون ان هذا العمل بركة وخيرا.

والغالب ان البدوي يحتفظ بنسخة من القرآن الكريم في البيت حيث توضع في محفظة نظيفة من جلد الغزال، او القماش الابيض لأنه يعتبره حرزا منيعا حصينا له ولبيته.

وكانوا يهدون الشيخ المدرس هدية من المال او الماشية لقاء هذا العمل العظيم الذي اداه في تدريس الصبيان.

كما كانوا يطلقون على هذا الشيخ كلمة (الخطيب) اي الذي يقرأ ويكتب ويدرس وكلمة الخطيب كانت تطلق على كل من يذهب للدراسة والتعلم.

ويرى البدو ان ختم القرآن بمجرد القراءة هو ختم للعلم، وان من يفعل ذلك قد حصل على جوامع الخير كله... ولا يلقى هذا الا ذو حظ عظيم، فليس غريبا اذن ان تجدهم يهتمون كثيرا بهذه المناسبة العطرة.

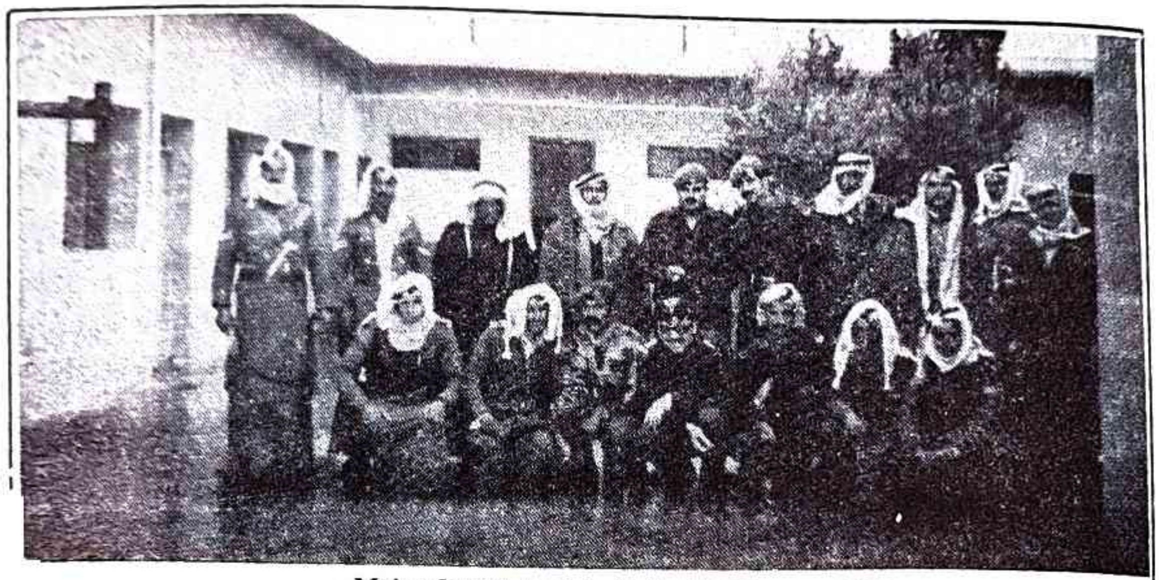
ونحن نقول لقد اختتمنا كتابنا هذا، بهذه الكلمات املين ان نكون قد القينا الضوء على جزء من تراثنا، وربطه باصله الحقيقي الذي هو الاسلام، ديننا الحنيف الذي هو دين جميع الازمنة، والامكنة والمخلوقات، انه دين الله (ان الدين عند الله الاسلام) دين الحق الذي لا يقبل عند الله دين سواه (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الاخرة من الخاسرين) صدق الله العظيم. وصدق رسوله الكريم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تم الكتاب بحمد الله في منزلي بوادي السير الساعة التاسعة من مساء يوم الجمعة ١٩٧٨/٦/٩، وقد شرعت في تأليفه في الساعة الثامنة من مساء يوم السبت الموافق ١٩٧٧/٤/٢٣ بوادي السير.

سارية قديمة محاذية للطريق الروماني بلواء الطفيلة ت١ ١٩٧٢



محطه القطار بالقطرانة ١٩٧٣



— Major Oweidi in Deir Al Kanif, February 1975

The greatest honour that is shown to a guest is to cut off the sheep's head and place it on top of the mansaf. If there are several guests, then that many sheep have to be slaughtered and their heads all lined up atop mansaf for the guests to see.

A manasaf is eaten only with the right hand. The normal eating position is kneeling on the ground, without letting one's knees touch the ground. The right shoulder is towards the mansaf dish, for two purposes. This position allows more people to gather around the mansaf, and it keeps the food off one's clothing, because the body is turned away from the food.

The kneeling position also serves two purposes. It allows you to be ready to jump up quickly to meet any emergency, and it is relatively uncomfortable for long periods of time, which means you are prone to spend less time eating and therefore will not eat too much.

The custom is eating mansaf is to take three mouthfuls of rice before eating the meat (always being sure that you eat only from the portion of the mansaf dish immediately in front of you). The three rice mouthfuls correspond to the three cups of coffee, the three and a third days of protection and the three stones under the cooking pot that are such a strong part of bedouin society, according to Major Abbadi.

The three mounthfuls of rice silently signify the protection that the guest has received from the host. They are also another means to eat less meat, which is taken as a sign of humility.

Another rule of mansaf eating is never to let one's fingers enter the mouth, so as not to offend the other eaters by putting one's fingers in the mouth and then back into the common mansaf dish. It is best to roll the rice and meat into small balls and pop them into the mouth from a distance of a few centimetres.

the pact that has been silently concluded between host and guest. This mutual defence and protection agreement is equally binding on both sides. It means they will refrain from harming each other, and will defend the other against an attack from outside the tribe.

Before taking his leave, the guest will be served with yet another cup of coffee, which, once consumed, affirms the defence pact is still binding. After a cup coffee has been drunk, the guest is always offered more. Ig he wants more to drink, he holds out his cup to be refilled. Ig he does not want any more coffee, he shakes the cup from side to side, silently signifying that he has had enough.

The protocol of food is similarly specific. While coffee is the first line of hospitality, food is the ultimate form of one's generosity to others. There are two basic kinds of meals in the badia, the desert region where the bedouins live. There is the ordinary meal that can be shared with an enexpected guest, and there is the special meal that is prepared for an occasion. An ordinary meal is offered if a guest appears unannounced, or if one is poor and cannot afford a special meal.

The special meal, however, is offered to guests who are invited for the purpose, to welcome a new neighbour, to seal a peace treaty with a former enemy, to honour a particularly noble guest, and for other special occasions.

The highest special meal is the mansaf, known as makboos in Kuwait and Kabsa in the eastern region of Saudi Arabia. It is made of rice, lamb, bread and a sauce prepared from dried yoghurt.



— Maj. Oweidi with Bedouins eating mensuf

BEDOUIN HOSPITALITY IN FOOD, DRINK HAS ITS OWN LANGUAGE

(Editor's note: This is the second of an intermittent series about aspects of bedouin life and society)

By Rami G. Khouri
Special to the Jordan Times

AMMAN--Foreigners who come in touch with Arab society are often preplexed by the intensity of some everyday social customs, such as the overwhelming sense of generosity. A student of Arab social customs, police Major Ahmad Oweidi Abbadi, explains that the origin of contemporary Arab habits is in bedouin society, and every act in bedouin society has a meaning and a specific purpose.

In a series of interviews with the Jordan Times, Major Abbadi, who is going to Cambridge University this year to earn a Ph.D in bedouin social structure, explained that coffee and food, for example are intricately tied to the overall structure of collective security and protection that is at the base of all human actions in the desert regions.

The simple act of accepting a glass of water or milk, or some food, from a bedouin automatically puts a person under the protection of that bedouin and his entire tribe. The sharing of food or coffee is a silent pact between two people, reflecting what Major Abbadi calls "the language of silence". This referes to the thousands of gestures and acts that are exchanged between two or more bedouins. To the stranger, the gestures may appear meaningless; but to the bedouin, they are the words of a silent language that allows people to communicate intelligently.

The act of drinking coffee is one that requires a series of gesture. Not only does it provide satisfaction and enjoyment, but it is also a means of providing security and protection, for both host and guest.

The protocol of coffee is as follows: the host drink the first cup (called the unworthy cup), which serves as assurance to the guest that the coffee is safe to drink, while allowing the host to be sure that it is quite hot, seeing as how it is an insult in bedouin society to serve cold coffee. The host leaves a few drops of coffee in this first cup for the guest to drink. This guest's cup is taken by the guest to declare his acceptance of the host's hospitality.

The second cop (called the leisure cup) is offered to the guest to ask if he is comfortable and satisfied with the hospitality. The guest replies affirmatively, which he indicates by drinking his cup.

The third cup of coffee is called the sword's cup, and it serve as the seal of

the protection of others. A person who may be fleeing his tribe for some reason can walk into the tent of a stranger and receive protection in three ways: eating, speaking and behaviour.

If the fleeing person shares food and drink with his host, he is automatically under his host's protection, without any words having to be spoken.

Alternatively, he can verbally ask for protection and be granted it by the host.

Or a person seeking refuge can make certain physical gestures that mean he wants protection. The most important, typically, would be for the refuge-seeker to enter a host's tent, wrap his arms around the centre-pole of the tent and declare that he is under the protection of "God and this pole", meaning that he wants the protection of the host whose tent he has entered. The host replies "wasilt wa amint", meaning that he wants the protection of the host whose tent he has entered.

The host who protects the guest is fully responsible for the guest's safety. In extreme cases, he must ward off or even kill members of his own family to protect his guest in order to maintain the strict applicability of the protection code.

If, for some reason, the host is unable to protect the guest from his pursuer, he has two choices. He can ask the guest to go seek the protection of a stronger man that he recommends, or he can travel with the guest to another family where they seek protection together.

But the protection system does not allow a person to escape from a crime or wrongdoing, Major Abbadi explains. At best, it allows the person who has sought protection to be safe for a period of time during which his protector-host can negotiate his punishment with his pursuers. If a negotiated punishment is rejected by the person who has sought protection, his host can then refrain from protecting him.

Major Abbadi states that "The punishment for crimes is usually severe, but every punishment also has an alternative. Instead of cutting off a person's hand for stealing, the person may be allowed to pay a heavy fine."

The strict social rules which govern bedouin life are needed because of the lack of a formal system of authority, particularly in times past. The severity of bedouin punishments deters crime, while the generosity of the bedouins provides the basis of a system of collective security and protection that would be otherwise difficult to assure in the harsh desert environment.

"The bedouin social code is very strict, it is like a chemical equation. If A is added to B you will get C. And so it is in the badia. If you do something worong, you know exactly what your punishment will be," Major Abbadi says.

rather than government authority, that may not always reach the entire badia."

One of the primary "abstracts" that provide a system of security in the desert is the bedouin's sense of generosity and hospitality, one that non-Arabs sometimes find exaggerated and extreme. As Major Abbadi explains it, life in the badia has to revolve around one of two means: fighting and looting, or a system of what he calls "ideals", such as reciprocal hospitality and the provision of refuge. The two are not mutually exclusive, he explains.

"The two means of life do not overlap," he says, "because a bedouin will feed even his enemy and give him drink if he needs this, because the overriding dictates of security, protection and survival in the desert demand this."

The strict rules of bedouin life say that you must take in an enemy for hree and one-third days and protect him in your territory, should he be eeking refuge from some other enemy of his. You must guarantee his protection while he is in your tribal territory, and you only relinquish your responsibility for his safety after he leaves your territory. If you have cause to fight or kill him after he is outside your area but he has no weapon, you must refrain from fighting him. If you fight him, and are prepared to kill him, you must tell him clearly who you are and why you are killing him, so it remains clear that he is being killed in revenge for whatever crime he committed -- thereby preserving the circle of self-sustaining deterrance that is pivotal to the badia's system of order and collective security.

An important reason for bedouin generosity is the difficulty of carrying great amounts of food and water as one travels throughout the badia. Therefore the knowledge that a traveller will always be invited to share the food and drink of others is another aspect of the collective security system. By being generous, one is always assured of receiving the generosity of others when he is most in need of it.

A third reason for bedouin generosity is the need to maintain a good personal reputation, Major Abbadi says. A person's reputation often determines his authority and honour, and is therefore highly valued. There are five overridingly important criteria that determine a bedouin's personal stature: honour, generosity, courage, mercy and strength. Therefore to be generous is not only part of the material collective security and survival system of the badia, but it is also an important determinant of the personal standing of each bedouin person.

A fourth reason for bedouin generosity is the Islamic religious belief that if you are generous with people on earth God will be generous to you in return.

A novel feature of badia life is the opportunity individuals have to seek

While the truly nomadic bedouin is quickly disappearing, the strict social organisation that defined bedouin society is very much institutionalised into contemporary Arab life, whether urban or rural. Thus an understanding of some basic bedouin social principles helps one develop a better appreciation of the subtleties (or otherwise) of life in the contemporary Arab World.

One person who has systematically delved into the organisation of bedouin life and tried to explain this non-bedouins is Major Ahmad Oweidi Abbadi, a 34-year-old police officer who works in the public information office of the Jordanian Public Security Directorate, and edits the monthly police magazine, Al Shurta. A bedouin himself, he spent the first years of his life, in the tradition of most pastoral nomads, as a shepherd, herding the family's goats and sheep.

While completing his education, he systematically explored the strict social organisation and habits of the badia (the arid desert regions inhabited only by the bedouins), and wrote a series of books and television series based on bedouin life.

Major Abbadi, a member of the bedouin tribe of the same name, that makes its home in central Jordan's Balqa region, completed his secondary education at the Bassa village school, west of Wadi Seer, and in Amman. He obtained his BA degree from Beirut's Arab University and went on to do an MA in geography and Islamic studies at Cairo's Institute of Islamic Studies. He has most recently received an acceptance to study for his PH. D. degree in anthropology at Cambridge University, where he will further explore the social structure and dynamics of bedouin society. His work at St. John's College will be supervised by the Arabist Professor R.B. Serjeant, of the Faculty of Archaeology and Anthropology.

In a series of interviews with the Jordan Times, Maj. Abbadi outlined many of the bedouin customs that have been romanticised by non-Arab writers, and also went deeper yet to explain the reasons behind the strict customs of the badia.

The larger picture that emerges is based on the harsh reality of life in a demanding and bleak environment. Everything that happens in the badia is a function of the bedouin's need to beat the desert, and survive. Like every other human being on earth, the bedouin's first preoccupation is with survival, and perpetuation of the family and the tribe. The physical rigours of desert life, however, demand a complete set of rules of social organisation, totally different from the social habits of city dwellers.

"People living in urban settlements are provided with security and protection by established government authority on the larger scale, and by fences and weapons on a smaller scale. In the desert, however," Major Abbadi says, "the entire picture changes, and abstracts replace the material in providing security and protection. Custom and tradition provide security,

mean Arabic language verses mean that "The Holy Quran is revealed to the believers in Arabic." In tradition of the prophet, the Arab race is emphasised more than the language as such. The prophet says that is, "the only distinguishing factor between an Arab and non-Arab is faith." The message of Islam is grounded on the elimination of tribal and racial prejudice and on the principle of equality regardless of colour, blood or language.

To sum up what I have so for said, the word Arab has been connected with the desert, the palm tree, the camel, and the Bedouin. All the meanings of the words are linked in one way or another with the camel in my opinion. The letters of the word "Arab", I think, came from the sounds of the he-camel and she-camel during the period of "السفاد" i.e. breeding. The she-camel -- during this period -- produces the sound (ع) and then he-came, produces a sound known as الهدير consisting of "R" and "B and R". Thus both sounds make the word عرب or "عبر" . The word in Hebrew means Arabs. Sometimes camels produce the sound or to from the word ع ب ر or ع · ر ب . All these words are different variations of the word Arab.

I also think that the word "Barbar" came originally from the sound of the he-camel. "ب ر ، ب ر"

Finally, I would like to thank all of you for your kindness and attendance. I hope I shed some light on the origins of the word Arab. I am also looking forward to the day when my research on the "Arabs" and "Bedouins" would be published. I would like to mention here that I wrote in Arabic a lengthy paper -- still unpublished -- on the words "Arabs", "Bedouin", "tribal prejudice," and "pre-Islamic Era."

Thank you very much.

BEDOUIN TO WRITE PH.D. THESIS ON HIS PEOPLE'S CUSTOMS

By Rami G. Khouri
Special to the Jordan Times

AMMAN -- Foreigners in the Arab World are often perplexed by apparent contradictions in the Arab character, such as the legendary penchant for generosity and hospitality existing side by side with temperamental and violent reactions to seemingly inconsequential matters.

How does one rationally explain Arab behaviour and social customs? One way is to go back and trace the roots of contemporary Arab social habits, an exercise that will inevitably lead one to the desert-dwelling bedouins, the original and most enduring inhabitants of the arid expanses of the Arab World.

Al-Masu'di the famous Arab historian in his bookالتنبيه والاشراف is of the opinion that the saracenus was derived from or i.e. Sarah, servants عبيد ساره

The Greeks used the word "Skenitae" to refer to the Arabs as simply the dwellers of tents. In my opinion this word is derived from سكن طي that is the habitat of the famous tribe of طي. The word for tent in Greek is almost the same as it is in Arabic (Skene) in Greek and سكن in Arabic. The Greek word "Nomas" or "Nomadas" was taken from Arabic نوماس ("dignity and honour" a word used a lot by the Bedouin in their invasions and wars اهل النوماس -- the people of disunity.

The Persian called the Arabs "Taiy or "Tayayo" برديصان mentions "Tayaye" or "Tayaye" with "Sarakoye". The scholars of the Talmud used ط ي ي ع (طيعا) or "طباية" to refer to the Arabs -- all these refer, I think, to the tribe of طي

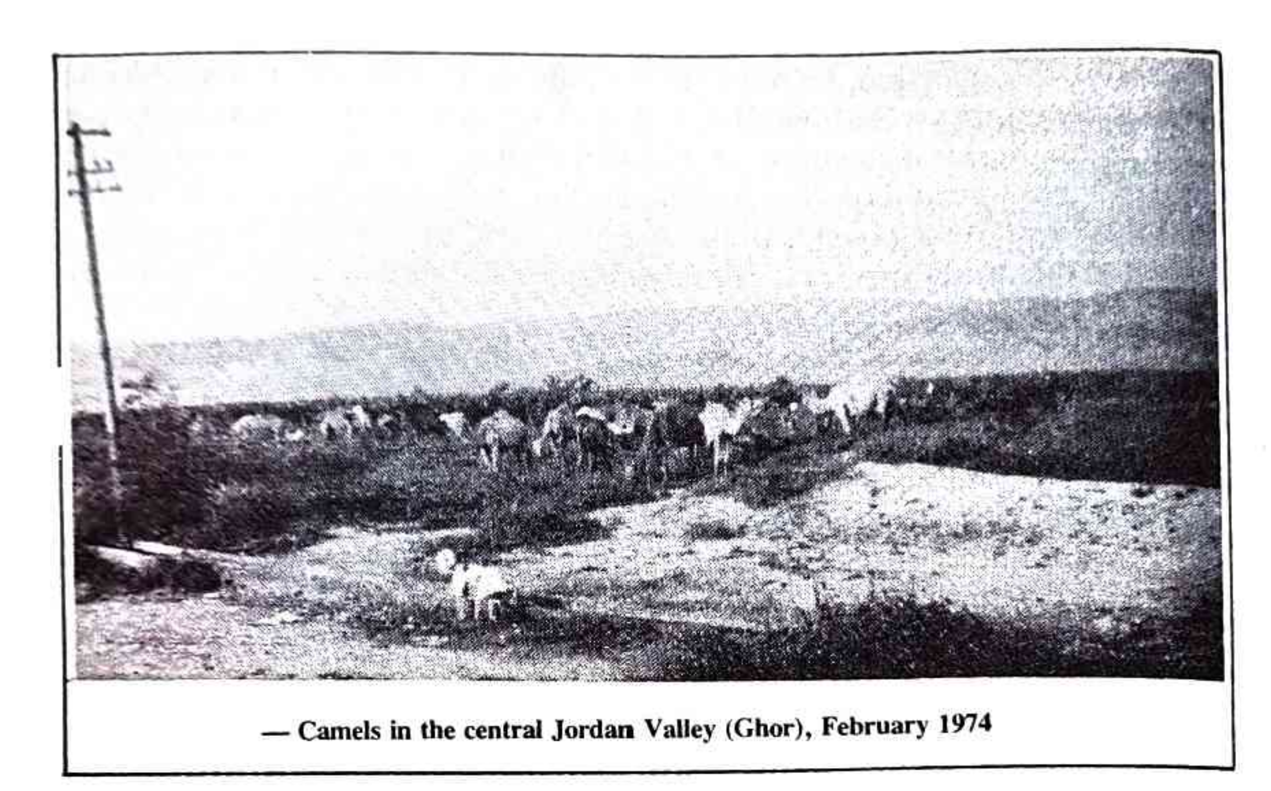
All the above-mentioned texts use the word Arab in the sense of a present day Bedouin; a person who lives in the desert and moves from one place to another. That is to say, an Arab was originally Bedouin, though, of course, every Bedouin is not necessarily an Arab. Arab anthropologists and historians distinguish العرب العاربه (i.e. the extinct Arabs from العرب المستعربه or the descendants of Adnan (from the offspring of Abraham) became Arabs because they spoke Arabic and lived on Arab land. According to this classification, Arab historians such as ابو الفداء والطبري- consider the phonecians, the cananites, ancient Egyptians and Babylonians as Arabs. Other ancient historians such as the historian مانيثون (760 B.C.) and Heradutus (482-422 B.C.) agree to this opinion. Modern Arab and European historian -- such as Dr. Henry hold firm to the above-stated notion.

If this notion is accepted, as I think it workable, then the Arabs were the first to render vital services to human progress and civilization. The ancient Egyptians discovered the solar system 4 thousand years ago (i.e. the year consists of 365 and a quarter day. "The Babylonian founded the lunar system of timing which perfectly suited the Bedouin of the desert. The Phoenecians who moved from the Arabian Gulf to the Mediterranean coast gave the Alphabet to the world.

In my opinion, Hamorabi , the famous Babylonian legislator, is an Arab name consisting of a compound; Hamo-rabi. Hamo, still used by Bedouins to mean a senior or.chief, and rabi means simply Arab. The name therefore means the "Arab senior" or "Arab chief". The name of the Hiksus who ruled Egypt for a period of time is derived from Arabic shik (policy or administration). The name Hiksus thus designates a sheik who rules the people.

Interestingly enough, بريطانيا is said to have been derived from the phoenecian phrase Bar Al Tanak that is the land of tin; hence the name Britain. We should not also forget the Arab discovery of the coast of Africa and the eastern coast of America.

In the Holy Quran, the word Arab is mentioned in a number of places to



— Camels in the central Jordan Valley (Ghor), February 1974

their original homeland.

In Persian texts we come across the word 'اربابــه' or "عربايه" in the writings of بهستــون or بيستــون. In other Persian dialects, particularly the Ilamiyeh dialect, we find اربابا or اربايه which means Arab land; specifically the desert lying between the Euphrates and Syrian frontier.

As for Hebrew, scholars find a relation of a sort between the work "Arab" and the Hebrew word "عرابا" meaning the dark land or open country. There is also a linguistic relation between the word (Arab) and Hebrew "Erebh" "عريب" which means disorganised or disordered life. It might have a relation with Hebrew A'bhar "عابر" means to move or cross - and Arabah "عرابه" which means burnt country or drought.

In the Torah we find references to اعرابي Bedouin; examples in Ashiyeh Noاعرابي camps therein Armiya I sat like a Bedouin in the desert." In the Talmud we come across the words "عرب" عربئيم and "Arbim". The Talmud equated the word "عربي"" with "اسماعيلي" son of Ishamel.

In Ancient Greece, اسليلوس (524-456 B.C.) was the first to mention the name of an Arabian officer in the army of the persian emperor. Herodutus used the word "Arabae" to mean the land east of the Nile (including Sinai). The Greeks used the word "Sarqceni" or "saracenes" or to refer to tribes that lived in Sinai, Syrian desert, and what is at present the east bank of Jordan.

The word "Sarqceni" or "saracenes" was derived either from i.e. the servants of sarah or from i.e. robbers and thieves or from i.e. Easterners. The last derivation "i.e. Easterners" seem to have been the most plausible taking into account that the Arabs were so to the western Greeks and Romans.

answering this question, I would like to state right at the beginning that each Arab is necessarily a Bedouin, but it is not necessary that each Bedouin is an Arab. Geographical location, religion, language, common destiny, racial similarities, and traditions are not the sole criteria with which we distinguish an Arab from other racial groups. A good number of Arabs have given up typical Arab traditions, and, simultaneously, originally non-Arab people have become Arabs.

Ancient Arab sources tell us that the Tabitians were originally Arabs who emigrated from what is nowadays Yemen, The linguistic change that resulted is quite interesting. The word for Yemenites was Tababias (named after famous Yemeni chief). Those people emigrated to "Tibit" which is similar to ثبت in Arabic. The replacement of the letter "ث" by "t" together with other sound changes in the two words were referred to by those ancient sources. We cannot also ignore the process of converting the Moslem-Arab population of "Andalusia" of Spain to Christianity and changing their names to christian ones. They have thus become Europeans.

There were non-Arabs who became Arabs by time. The examples of the Tatars and Mamluks who ruled the Arab World for a considerable periods of time -- could be cited. These people were proud of their "Arabism" and their Islamic faith.

Ancient Arab historians equate Arabism with the Arab race. Ibin Manzur and El-Hamawi state that the Arabs are those who live on Arab soil and speak Arabic. This definition is by no means adequate at present since it grants Arab nationality to an orientalist who lives on Arab soil and speak Arabic, and, at the same time, deprives an Arab who lives in America or England from his Arab nationality.

The earliest reference to the Arabs is that of king شلمناصر الثالث 853-854 B.C. According to that reference, that king won in his war with the Assyrian king "1000" camel from "Jandeebu," "وجنديبـو" the Arab who was an ally to the Assyrian king. Other text refers to a sequence of invasions led by "تجـلان بلسر الثالـث" 745-727 B.C. against Syria and other neighbouring districts resulting, a many other things, in imposing regular payment on "زبيبي" the queen of "اريبي". In the nineth year of this rule, he conquered another queen of "اريبي" named سمسي or شمسي or "شمسية" . Other engravings of سرجـون الثانـي 724-705 mention the name of queen "شمسي" with queen "سـمسي" of "عريبـي".

We can therefore conjecture that the Ara"الاريبي"formed a string of sheikhdoms or small kingdoms in the desert between 854 B.C. 681 B.C. They had a special norm of life connected with the tent, the camel, and the desert.

Ancient Egyptian texts refer to the Arab either as a "person coming from the East" or simply as a captivated chief. The name that was given to such a person was "Ammo" -- i.e. Asian Bedouin -- thus showing that Asia is

He passed his medical exam the first time around and was made a member of the Royal Society of Medicine in Great Britain. So now Dr. Abbadi is working on three projects at the University of Manchester Hospital, as a specialist in haematology. "Two of the projects concern leukemia", he said "and one concerns surface markers in lymphocites (a special cell found in blood) which I believe hold the key to many inflammatory joint, eye and skin diseases. I hope to be able to reach some positive results in the near future."

Also a part of Dr. Abbadi's job is to teach medical students in their final year and handle patients at the hospital with blood disorders.

This visit to Jordan, the third in ten years, is only a part of his summer vacation. However, he plans to come back next year in hopes of working at the University Hospital.

Being away so long, Dr. Abbadi has been very impressed by the economic and cultural progress which has taken place in Jordan.

"If you have the will and determination to something," Dr. Abbadi stressed, "you can do it. I hope my story will serve as a good example to push forward the wheel of progress in our country. And I hope to be given the opportunity to aid in the development of the big Jordanian family."

Dr. Abbadi's parents are both illiterate but so far, out of seven sons and one daughter, the Abbadi's have managed to produce four university graduates. Ahmad, his older brother, has a degree from a police academy, Mahmoud is concluding his masters work in electronics engineering in Manchester and Abdul Karim is finishing medical shool in Romania.

So it seems there is a lot that could be said for sheer determination. When most people only see the difficulties and shirk, it is encouraging to see someone who forges ahead into the unknown with very little help, many difficulties and just a lot of will power. But it paid off for Dr. Abbadi. And yesterday's poor bedouin shepherd is today's haematologist.

THE MEANING OF THE WORD "ARAB"

A Topic for the Seminar on Arabian Studies/Cambridge 1979

Ladies and Gentlemen,

I am indeed honoured to address you for the second time in my life. I have chosen the word "Arab" as the topic of my speech.

The word "Arab" is firmly connected in the modern mind with energy, petroleum, and sudden affluence. As far as Anthropologists are concerned, the word refers to the "brown" race; a race characterized by black hair and sunburnt desert faces. However, the forementioned physical qualities have diminished due to intermarriages between races in a gradually changing cultural and racial environments.

The question that arises is this: How did this word come about? Before

And at night I would read by the moon or street light. We had no electric lights or petrol."

He also recalled being punished by his preparatory school teachers for not having shoes. "But", he shrugged, "we just couldn't afford them."

In the last two years of secondary education Abdallah came to Amman. Still, due to his poor financial state he had to walk long distances. "I had no money for the bus," he said. Nevertheless, he was first in all his classes and came out fourth in the general secondary certificate exam for the Amman district.

After completing his secondary education he decided to go on to university. Abdallah had heard that Spain was an inexpensive country and had some historic relationship to the Arab World, so he chose to study there. He took what little money and items he could gather from his relatives and made off for Valencia, Spain. Although he spoke no Spanish this proved to be one of the least of his problems. He immediately enrolled in an intensive language course and within two months was able to attend lectures. He still could only understand a little Spanish but enough to follow the courses.

"In Spain I began to have problems like eating with a fork. It used to be sad," he noted. "Using at European toilet was another problem. But I was quite determined to learn from this society."

Abdallah recalled having a hard time in Spain because he did not receive enough money from his family. Also he had no scholarship.

So during every holiday or vacation he would go to a different country to work. During the seven-year medical course he went to Morocco, Denmark, Holland, Germany and England to raise funds. But still he was compelled to walk, sometimes an hour or so, to school and had to limit himself to meat only about twice a month. "My main meal was salad, eggs and milk," he said. Unfortunately as a result of his poor diet he became a bit anaemic.

After completing his general medicine studies in 1973, he was awarded his degree in medicine and surgery. Abdallah was 25th in his class out of 300 students and was also awarded 17 honours and distinctions during his studies in Spain.

Next he went to England where his older brother was studying electronics. "We were very pressed economically and had to share our room, clothes and everything," he said.

Abdallah found it humourous that in England he and his brother would appear to the British as wealthy sheikhs while they were so poor they could barely afford to eat one meal a day. Fortunately, they were both the same size and could wear the same clothes.

In England Abdallah was confronted with the need to learn another language. He started out there by studying English and took a job at the hospital to work his way toward a post graduate degree.

FROM SHEPHERD BOY TO MEDICAL SPECIALIST WAS A LONG, DIFFICULT TASK BUT PERSEVERANCE PAID OFF

By a Jordan Times Staff Reporter

AMMAN -- For anyone to graduate from medical school is a big accomplishment. But for a bedouin shepherd to not only complete medical school but go on to specialise in haematology is really worth recognition.

Dr. Abdallah Oweidi Abbadi, who just returned to Amman recently for a family visit, is one of Jordan's first haematologists or specialists in blood. Born and bred in the Jordanian desert, Dr. Abbadi had his first exposure to medicine at an early age when he contracted whooping cough.

"I fell ill when I was young along with my five brothers and cousin," he recalled. "We came from a very remote area and had to travel a couple of hours by mule to get the bus. I was taken by my father.

"When we got to the city we had to wait again a couple of hours to see the doctor. So when we finally got to see him he was very mad at my father for talking so long to bring me in."

The doctor wrote out a prescription and they rushed off to the pharmacy. But the medicine was a liquid and it was required in those days that the people bring their own bottle.

By the time his father returned with a bottle the pharmacy had closed and they were stuck for the night.

"So the next day we came back and got the prescription. But my father was so anxious to keep the medicine that on the way home be broke the bottle. So we came home without it," he smiled.

This first contact with the medical world had such a deep impression in his life that it planted the seed for his future career. "I have a nomadic or rural background," he noted, "where medical treatment is inadequate. As a patient I realised the need and wanted to help my countrymen."

Abdallah was born in a big black tent in April 1948. As a child, he used to tend to the goats and camels. "I lived about 13 years among the goats and camels," he said. He used to go to school which was a two-hour walk from where the animals grazed.

"When I came home from school I was a part-time shepherd," he added. "But during summer vacation I was full-time."

At the age of 13 Abdallah moved to a nearby village called Basa, about 12 kms. from Wadi Seer, for preparatory school. "We were regarded as second-class citizens at the school," he mentioned. "But still I was first in the class. I used to work hard. Usually I had to do my studies on my way to school.

more or less like the violin. There is one exception to that, when the captive is a notorious murderer, throwing overboard all the ethical values of the bedouin community. In this case, he is imprisoned and put in a big hole under guard. In battle if the bedouin falls off his horse, then it is not right to attack him unless be continues to fight. If he is deprived of his weapon, no one can harm him, unless he wants to harm the others. You can imagine a bedouin whose horse is killed in battle his weapon lost and yet smokes his pipe, watching the others fight, because he knows that no one will harm him, now that he is out of the game.

Take a prisoner, the bedouins follow three ways which give no room for fraud. First, when a person calls on the other to surrender, if the other does so, he immediately gains security and takes refuge. The winner takes the weapon and whatever the one who surrendered was riding. Second, when the defeated begs to be saved and taken as a prisoner. He would say, "Save my life", (tarani biwajhak) as mentioned before. The prisoner becomes the guest of the captor. The chance of saving human life is never rejected. Third, when the winner calls on the defeated to surrender, and if this call is not listened to, the winner kills whatever the defeated is riding, so as to terrorize him into surrender. If the defeated still does not want to do so, the winner will strike, not to kill but to unmortally wound him. Then the attacker draws nearer and dresses the wounds of his antagonist, and makes him his captive. Ultimately, prisoners will be able to go back to their tribes, provided with security, food and a means of transportation, usually a horse, which will be returned to the captors, if lost during the fight.

Other incidents provide security and save the life of many such as drinking water, coffee, or eating with the enemy. Also, it is shameful to attack some one, who does not have a wapon to defend himself.

To end my talk ladies and gentlemen, I would like to say that I have briefly talked about some of the ways of protecting human life in Bedouin communities. The final judgement is yours, but I believe that the deep concern of the Bedouins to protect and save human life is a great moral acchievement, perhaps greater than the material and technological progress that we see in the world.

In comparison, modern states might find it advantageous to give up the one who seeks political asylum, under the pretext of combating crime or murder. Also, there is another point, concerning someone taking refuge to escape paying or doing what is rightfully demanded from him. The bedouins would never allow this to happen. Taking refuge is for the purpose of obtaining security, and then to the reconciled and eradicate the roots of the feud or disagreement. Another points is that if a murdere or the one who saught political asylum, returns to his country, his condemnation is almost certain, while the Bedouins surely grant refuge and protection to some one who had even killed one fo them. They treat him as guest for three and one third of a ay, and protect him within the limits of their area and, then, would give him a fair trial. I assure you that can you imagine someone, accused of murder, rape or violating the right of taking refuge--the greatest crimes in the desert--, enjoying security automatically, following walking into the house of one of those who wishes to chop off his head. At this time he had taken refuge and become a (Dakhil) and therefore must not be killed.

During the time of danger the bedouin can take refuge and ask the attacker to save his life and protect him. Imagine two people at the throat of each other, and when the weaker is almost defeated and finds no way to save his life, he asks his rival to forgive him and save his life. (Tarani biwajhak), a statement of two words in arabic, but good enough to save the defeated.

The third concept is about prisoners and captives. Captives, in modern states, are put in special camps, where they are treated in an inhuman way. Further, they might be subjected to all sorts of torture to extort more information and to take revenge on them for being part of a war. They are in general badly treated and inadequately fed. International humanitarian organizations set up committees to visit them to be sure of the good treatment they receive, but all of us hear and read about brutal ways and means, to which captives are exposed. Human beings are used as tools of pressure for certain purposes, which might not be morally accepted. In other words man's life becomes a commodity sold and bought and bartered. In a battle, a soldier might surrender and yet the other enemy soldier kills him. The defeated surrender and raise the white banner and yet, they might be killed despite the promised security.

In contrast, the bedouins consider the prisoner or the captive as their guest, in the full sense of the word. He enjoys respect, appreciation, and the company of his captors, participating in poetry recitations with them to the (rababah) a one-string musical instrument,

I would like to add that the Bedouins do not kidnap any thing related to a woman, a child, an old man or anything inside the home, as homes are protected by a special value or a halo, which cannot be desecrated. In arabic we call it Hurmah.

The second concept is al-Istijarah, which in modern terms is very close to the right of taking political asylum. Taking about this concept, would have many ramifications, but in brief, we know that modern states would grant political asylum when it is in their interest to do so, regardless of how it is important to save human life. For example, when a pilot escapes in a highly sophisticated plane and seeks political asylum in another country, he might get that, and his life will be saved because he is absolutely needed for more information and to understand the advanced technology in that plane. He further might get a new nationality and enjoy all human rights, or he might be deprived of that, depending on whether his presence would serve the national inerests of the protector or not.

The Bedouins view this situation differently. Has this person been looking for refuge and protection among them, he would have been accepted in the community as a member of the tribe. He further can have the name of the tribe, following a banquit, to which members of the tribe are invited, and in which he apostatizes his former tribe and declares his loyalty to the new one. Following this celebration, he becomes one of them, exactly like somebody who legally obtains a new nationalty after living for a certain time in one country.

At this point I would like to ask whether a person, suffering from oppression and persecution by the authorities of his country, can get political asylum, while still under the iron fist of that country. He can not do that unless he crossed the border of his country, or takes refuge in one of the embassies. In contrast, the bedouins allow a person, whether still a member of his tribe or not, to take refuge in the absolute protection of anyone on the area , including members of his tribe. This request is never rejected. Everyone in the Bedouin community is eligible for the right to be protected or saved from persecution, and this right is called in arabic, al-Istijarah. Anyone of the bedouin community, even a child, has the right to offer security and protection to anyone begging for that. The refugee, following his request of protection, basks in peace and security, and no one dares to harm him, even though his taking refuge was through a child or a woman, because it is the responsibility of all the members of the tribe concerned, to protect him. It is considered the greatest shame to give up the one who had saught refuge, even if the duty of protecting him carries the seeds of destruction and ruin to all the tribe.

common practice by the bedouins instead of resorting to murder and attacks.

It is noteworthy that human life is the basic element, at stake, in taking hostages in the modern world. Hostages become a commodity, sold and bought, and human dignity is being dragged into the mud. Throughout history, we find nations, other than the bedouins, which admitted taking human beings as hostages. The Romans allowed it when they took the sons of princes, and made them live in Rome to guarantee the continued friendship of these princes and their people. The British followed the same line during the initial stage of their occupation of India, and so did the French to the arabs of North Africa. The British did the same, also, during the Boer war in 1900, and so did the Ottomans to the notables of the Arab World.

Nowdays, too, we wake up to hear or read about the kidnapping of innocent women, men and children on planes, still flying between heaven and earth and endangered at any moment by the catastrophe of fuel shortage. Kidnappers demand a ransom or they will kill all the innocent hostages, simply to take vengeance on them of because a certain country refuses to capitulate and accept their terms.

I don't think it impossible that one of us may find himself a hostage, on a plane one day, and experience what it feels like to go through that ordeal, which many had to go through, simply because they were human beings and must pay the price of being so to brutality.

The Bedouins never kidnap a human being as a hostage. They wouldn't let this happen, not just because it is a great shame, but also because taking a person as a hostage is likely to result in an all-out war, that the kidnapper and his tribe will not be able to cope with, and might face complete destruction. The chance is always there that the rest of the tribes are likely to get together, not just to despise the kidnapper and expose his tribe, but also to fight his tribe and, perhaps, wipe it out. Thank God, this has never happened in our bedouin communities. In fact, what the Bedouins might do is to confiscate property or livestock, after demanding what is due or what is rightful from the person, who had in all three times refused to pay or do what is rightfully demanded. The confiscator must, in the presence of three witnesses, announce that he did what he did for the purpose of al-Wisaqah.

As in most cases, if the subject of confiscation is livestock, the confiscator must act as the caretaker of what he had taken, not even curse it or curse its owner. At this point, permit me to question who has a more refinded taste, the bedouin, who is mild and gentle to animals and does not leave them thirsty and hungry or that modern person, who offends human hostages and abandons them thirsty and hungry.

THE IMPORTANCE OF MAN'S LIFE IN OUR HERITAGE AND IN MODERN TRADITION

I kindly beg you to do something, though strange in its kind, and I further hope that you will do it. I would like you to close your eyes for one minute only to intensify the ability and depth of imagination and see with me a man and a woman who lived as husband and wife and gave birth to children and grandchildren, from whom all humanity descended. Those were Adam and Eve, if we believe that we descended from them and constituted different and, sometimes, hostile tribes and nations, which ultimately had to be acquainted with each other, and live in harmony and peace.

One day far away back in the corridors of history, we were one family and today we are still brothers in humanity as a general comprehensive principle.

Human beings were scattered all over the world in different environments. As the years rolled by, the psychology of man changed to the degree that in the developed countries, man has been called the modern man, while the man living in the desert has been called the backward man.

I do not doubt that the way of life and what it entails make both of them different in their perception of life, and the value they put to things.

I thought that it would be sensible to take one subject, and compare how the bedouin and the modern man view it. The subject that I chose is human life, which is the dearest to any one of us.

This comparison aims at establishing which one of both of them is mostly concerned in protecting and saving human life and in what manner.

To be truthful and objective, I don't want to judge things before hand, but, rather, review how each man perceives the worth of human life, so that you, yourselves, will judge the outcome.

I will try to briefly review the following three concepts: Al Wisaqah, which, in modern life, would stand for hostages and the kidnaping of planes, al-Istijarah Wad-dakhalah, that is taking refuge, and begging to be protected and provided with security, which in contrast would be political asylum in modern terms, and finally, we will see how both sides treat captives.

Al Wisaqah, which means the confiscation of property for the purpose of regaining a usurped right. Whatever is being taken by the confiscator, will be kept intact, until his right is met. This has been a

and people). In other words, they seek security and protection against scandal.

Ladies and Gentlemen,

The last point I would like to talk about is "War":

War: In providing security and protection for himself, a bedouin has depended on customs and traditions. Then when he moved towards urbanization (settling in one area), he built himself a castle or a fortress. (SETTLEMENT IN ONE AREA IS AN ADVANCED PHASE ON THE SCALE OF MATERIAL CIVILIZATION, COMPARED TO BEDOUIN LIFE)

These castles had fortified gates and secret tunnels with large storage areas for water and supplies for survival purposes in case of siege. He built observation towers and small windows for the archers to fire their arrows from. When bedouins acquired the rifle they built thicker walls for their castles, and when artillery fire became known to them, they had to fortify their castles further still. (The iron vest which bedouins used to wear to protect them against sword and lance crumbled in the face of rifle and cannon fire).

A bedouin's habit to carry arms all the time is intended to provide security and protection not only to himself but also to his family and his tribe at large. (Not different from families keeping a piece of weapon at home in western countries for the same purpose). A traveller in the desert would feel more secure if he carried with him a pistol or a rifle of any sort, to defend himself not only against fellowmen but also against beasts of the desert and killing vultures.

Means of and ways of providing security and protection have developed as quickly as the development of the means of destruction, created by outlaws everywhere to lessen security and protection accorded to law abiding people.

Ladies and Gentlemen,

I hope that I have managed to shed some light, no matter how small it may be, in some essential and basic issues in bedouin life, a life, which I have personally lived and tried very briefly to explain it in general.

Allow me to say one final word on this subject. I believe that it is quite unfortunate that bedouin way of life, and the deep human values are on the declines, being invaded by contemporary western cultures. If we pride ourselves for having defeated ignorance and poverty, we should equally feel sorry for the decline and eventual disintegration of a way of life so full of human values, which in itself constitutes a unique civilization not recorded on stone and pieces of pottery but rather on a bedouin tent. I hope to record all this in a book to be preserved for future generations.

I hope I have not wasted your valuable time by this lecture and I would be most happy to answer your questions on this subject.

reflected on the dwellings of the tribe. There are, however, a few exceptions due to the influence of various customs and traditions.

Obviously, the following question would arise: What is the relationship between the veil and house, or any form of dwelling? To a bedouin the only significance is that of security and protection. The most important thing to a bedouin is his honour and the chastity of the female, even if the female belongs to his enemies. According to bedouin mentality the more veiled a woman, the more difficult it would be to know who she is. This would make difficult, if not completely impossible, for other men to use her beauty, or ugliness, whichever the case may be, in their poetry. It is a well known tradition in the desert that poets court females in their poetry.

Bedouin dresses are also designed to protect women against the hardlife of the desert. Thus the clothes cover more or less of the body according to the weather. Natural and (climatic) and psychological reasons form the general pattern of social reasoning which in turn determine the needs of security and protection for particular areas.

A listener may point out that the Twareq tribes of North Africa are bedouins too, yet they dress differently i.e. different from the Arab bedouins of Asia. For those who are not familiar with the Tawareq Tribes of North Africa, let me add that their men wear the veil rather than their women, who go about their understanding of security and protection. It is common knowledge that a person who does not wish to be recognized by others, usually changes his features and appearance; wears a mask or disguise nations of today, or a mere mask as a bedouin does.

But there are other social differences; while an Arab bedouin woman in Asia is forbidden to publicly meet male strangers, and is not allowed to pass judgement in the tribe's Council, except in very rare cases, the situation for a Tawareq woman in North Africa is completely different. A Tawareq woman is allowed to meet, discuss and dance with male strangers. She is even allowed to participate in Triabal Councils, to rule and pass judgement, and therefore, women in such status have no need for disguise (a veil). For a man from a Tawareq tribe to see his wife or daughter in company with another man is not a big issue. (in a similar situation, an Arab bedouin woman might get killed for such a reason!) Another reason why a man from the Tawareq tribes wears a mask lies in his responsibility and duty. Men, there, travel in the desert most of the time, which calls upon them to "disguise" as a means of protecting themselves against their enemies as well as against sand storms and heat. I believe that clothese and dwellings in the desert are always determined by the issue of security and protection no matter what short of security and protection we are talking about. (Observe how thieves and murderers, or those who have committed political crimes, always hide their faces from cameras

serving and drinking coffee are as follows: The host drinks the first cup of coffee known as (al-heif) meaning the unworthy, that should serve as an assurance to the guest security and protection. This also gives the host the chance to check the coffee making sure it's hot (it is considered insulting to serve cold coffee). The host leaves few drops in this first cup for the guest to drink. By doing so, the guest would preserve his own reputation and that of the host. The first cup of coffee which the guest drinks is known as (the guest's cup) and by which the guest declares his acceptance of the host's hospitality and vise versa. The guest, then, is offered the second cup of coffee, known as the (leisure cup) which serves to ask the guest whether he is comfortable and satisfied with the hospitality. The guest then replies saying he is quite comfortable, satisfied and approves the hospitality presented by the host. The third and last cup is served, known as the sword's cup. This last cup of coffee serves as the seal of the concluded pact between guest and host. This joint defence and protection-like pact would be binding on both equally; and not only against each other but also jointly against any aggressors. Before taking leave, the guest would be served with yet another cup of coffee which once consumed, means that the "defence" pact between them is still binding and that each party to this pact would do this best to provide security and protection for the other.

Clothes: Man has worn clothes to protect him against heat and cold, the changes of weather, as well as to protect himself or rather conform to customs and traditions, and finally as a means of elegance and attraction to the other sex.

All these basic and general aspects of clothes are recognised by bedouins. However, during a number of field studies at close observations, I have found that there is a direct relationship between a bedouin's clothes and his dwelling. A close look at the natives of the African jungles, where they build their huts on tree tops, we find that man clothes there barely to cover the body. In the same analogy if we were to observe the dwellings of bedouins in the desert (tents), where custom and tradition is the only means of security and protection, we will find a striking similarity between the tents and the clothes worn by bedouin women. Where a bedouin woman's dress covers her from head to toe, the tent would have no windows and where the woman wears the veil (with only two holes for the eyes to see through), the house would have small windows and where the woman wears the veil (with only two holes for the eyes to see through), the house would have small windows. Where the veil is hanging on the nose, the windows would be larger and often more than one. Where the veil covers the woman's hair and neck only, the house would have larger doors and windows. These doors and windows got larger and larger; and where a woman wears no veil at all this would be

provide security and protection. This also lead to the creation of customs and tradition alongside strict discipline and adherence to their tenets.

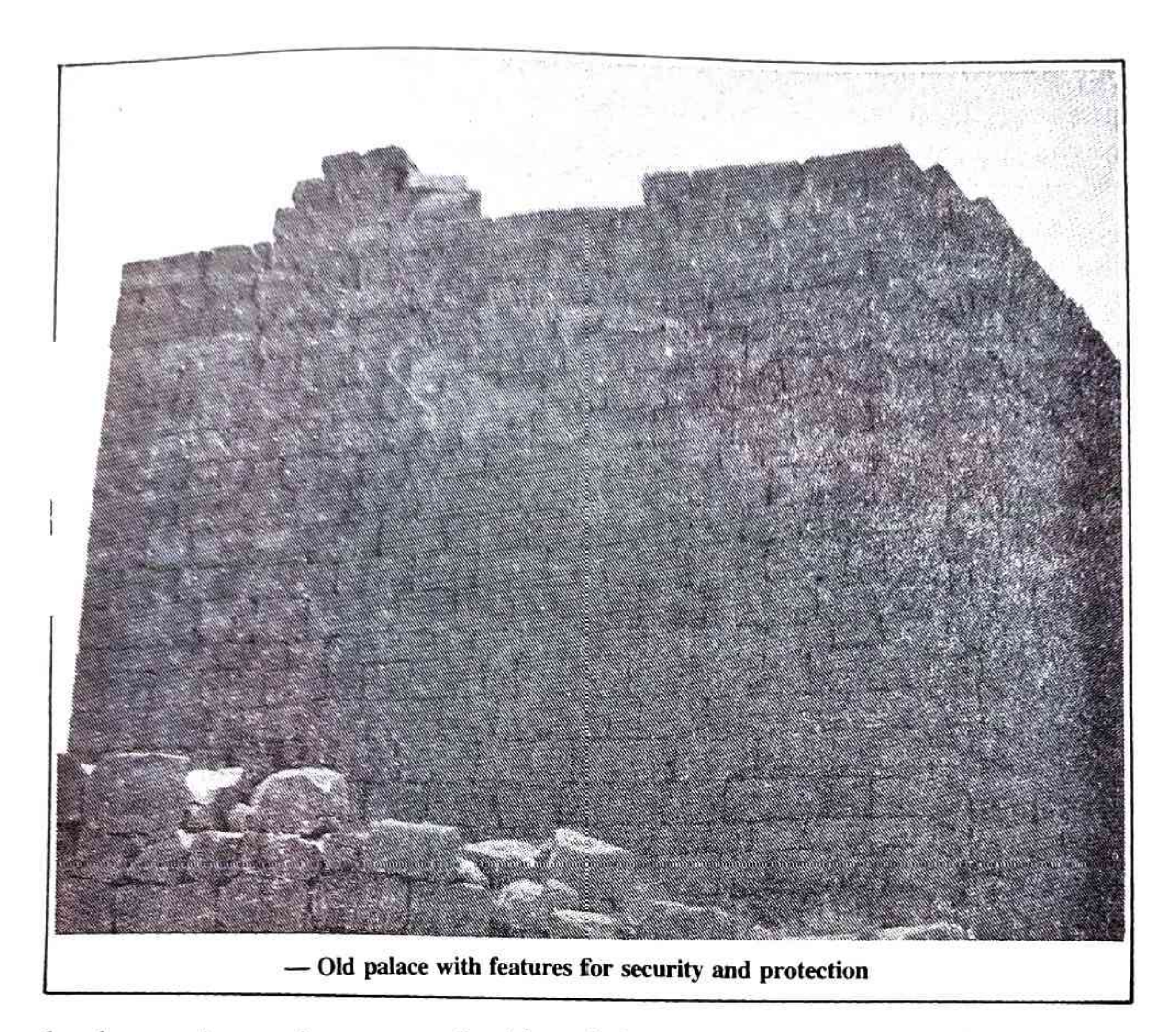
A foreigner roaming the desert would be astonished and surprised to see that simple words or jestures may do magic in calming down a murderer or a man running scared for his life, from whatever enemies he might have. Indeed mere words or simple jestures, which may pass unnoticed by non-bedouins, could render a whole tribe frightened and all its men sleepless. In the desert words and jestures are measured by what they denote and their results and consequences. Bedouins' search for security and protection has covered all walks of their daily life. However, I would like to dwel more elaborately on only few aspects of bedouin life that are directly related to security and protection: Food, Coffee, Clothes and War.

Food: The simple act of accepting a glass of water or milk or some food from a bedouin puts that person automatically under the protection not only of the bedouon but also of the whole tribe to which he belongs (the tribe on whose grounds he has accepted to share their food and milk).

Here the protection is absolute, in the sense that it provides protection against all dangers and enemies, whether these be from within (the protecting tribe) or from without (other persons or tribes). Even if the protected (the guest) has killed the host's son, father or a relative of them. The simple act of sharing the tribes food and milk is to them more important and dearer to their hearts than seeking revenge. However, the protection is reciprocal: the guest himself would be bound to defend and protect his host, even if the host's tribe were themselves aggressors. In many cases the guest would serve as a mediator between the host and his (the host's) own tribe and eventually peace and understanding would prevail. If the guest decided to take leave of the host's dwellings, he would be accorded full protection until he has shared the food of some other tribe or until he has left the whole area of the host's grounds, in which case he would become under the protection of a new tribe and a new host. If, however, food is not available, then simple words uttered by the guest would qualify him for protection too. All he has to do in this case is make his wish for protection known. He could make his wish known to a man, a woman or a child (even addressing a grave of one of the elders of the tribe).

It is worth mentioning here that the responsibility of protecting the guest does not only lie on his host but it is equally shared by all and every member of the tribe.

Coffee: The making and serving of bitter coffee is an integral part of bedouin life. Bedouins have used it intelligently to provide not only satisfaction and enjoyment but also to provide security and protection as well. It provides security and protection for guest and host alike. The protocols of making,



— Old palace with features for security and protection

horizons. An environment of arid and dry lands. People living in urbanized settlements are provided with security and protection by established government authority, and on a smaller scale, by fences and weapons. The whole picture changes in the desert, where abstracts replace the material i.e. custom and tradition provide for security and protection rather than a government authority. IN MY OPINION, THESE DO A FAR BETTER JOB OF CONTROL AND DISCIPLINE THAN THE ESTABLISHED AUTHORITY OF THE GOVERNMENT.

Through field studies and observations, I have come to find that security and protection are Man's main goals and supreme objectives. This is more so in the desert. A bedouin lives in an open environment: no walls or closed doors and windows to protect him and his family. There are no fences or gates. Therefore, he had to look for a substitute. He needed security and protection not only against urban invaders, but also and more so, against his fellow bedouin. Only a fellow bedouin would be able to invade his grounds for he would know how to overcome the hardships and challenges of the desert. This was a motive and an incentive towards finding means and ways to

thousands of miles to come here and benefit from your knowledge and experience. However, I would like to take this opportunity to talk to you about a subject dear to my heart, which I did not collect from published works of Western Scholars or Arabists, not be-littling their great works and achievements. Iwill talk to you about bedouins, as indeed I am one since childhood, and as one who continues to live in bedouin environment.

My subject is Security and Protection in Bedouin Life, as I have observed it during the many field studies I carried out. I shall air my views and conclusions in an attempt to shed some light on an important aspect of my Jordanian heritage.

Lydies and Gentlemen,

A bedouin is well known to be cautious and cunning, simple and intelligent, courageous, adventurous and extremely honest. He shares with his fellow man everywhere the same human feelings and aspirations. He is affected and influenced by his environment which determine Man's character, way of life and traditions everywhere. If we were to disapprove of bedouin's way of life in the desert, then it stands to reason that we should equally disapprove peoples' way of life anywhere: be it on coastal plains or mountain tops and fertile valleys.

A bedouin has been deeply influenced and moulded by the desert. He is kind and wise, upset almost by nothing, and sometimes violently aroused over a most trivial matter. (Like the desert he lives om, where a whole tribe would be unable to move a sand dune an inch, yet a small sized storm would do that easily). A bedouin is like a lion, who while sleeping would be quite harmless, but terrifying when angered. We often read about men equipped with modern weapons hunting lions, and of men falling prey to these same wild beasts. There are similar stories, which are quite common in the desert, about bedouins armed only with a sword or a dagger hunting lions and killing rattle snakes.

A bedouin is as kind and gentle as the desert he lives in. He is an example of generosity (a bedouin would be ashamed to touch his food until he has invited a relative, a friend or even a passer by to share with him what might be his holy meal for the day. However, and by contrast, he would turn mean and would stake his life over what might be a small matter. He reacts violently to insults and humiliation. He is an excellent fighter, and in times of war he fights with determination. Some bedouin fighters have been known to equal many brave men in battle (when fighting, then, depended solely on moral, courage and physical strength). A BEDOUIN IS TRUELY A BORN HERO.

Ladies and Gentlemen,

It's common knowledge that a bedouin lives in open space and wide

desert folk to the rest of humanity. Although a great deal of what he has to say is readily acceptable, he regards the desert as a pure, abstract environment so that the stark facts about life in the desert acquire a universal human dimension.

He generalises many of the truths he discovers with his discerning eye for pattern and detail to the rest of mankind; this is where there is room for controversy. His expose is rich with selected examples from history. He explains the presence of such persecuted minorities as Lebanon's Maronites and Druze, (who spill over into neighbouring Syria), in mountain strongholds a bid to set oneself up in a protected environment. He will get no argument here.

The author of course does not only talk about desert clothes and dwellings. He is rich with examples about castles with moats and Medieval armour. One very interesting example he gives is about the Tuaregs in north Africa, who are notorious nomadic raiders.

It seems that among the Tuaregs women go about with bare faces while the men wear face masks. Maj. Abbadi, who claims to be the first to offer an explanation for this phenomenon, says that unlike their counterparts in the Middle East, Tuareg women enjoy a great degree of freedom; they are able to work and mix with men and even have a say in running the affairs of the tribe; most important, they are afforded respect and protection by tribal custom and are more secure from threat than their menfolk.

The men, by contrast, are immediately held accountable and punishable for the smallest action, hence they prefer to conceal their identity. He adds, of course, that it is the men who roam the desert, and therefore need protection from the wind and sun. They also prefer not to be recognised by roaming enemies that may chance upon them, nor do they want to publicise their identities while carrying our raids themselves.

Maj. Abbadi's theory also allows him to explore realms of the spirit -- or psyche if you prefer. He classifies recourse to religion as a way of building a castle of meaningfulness and psychological security, moat and all, around oneself -- although make no mistake about it, the man is religious and believes in the universal applicability of Islam, the religion that was born in the desert.

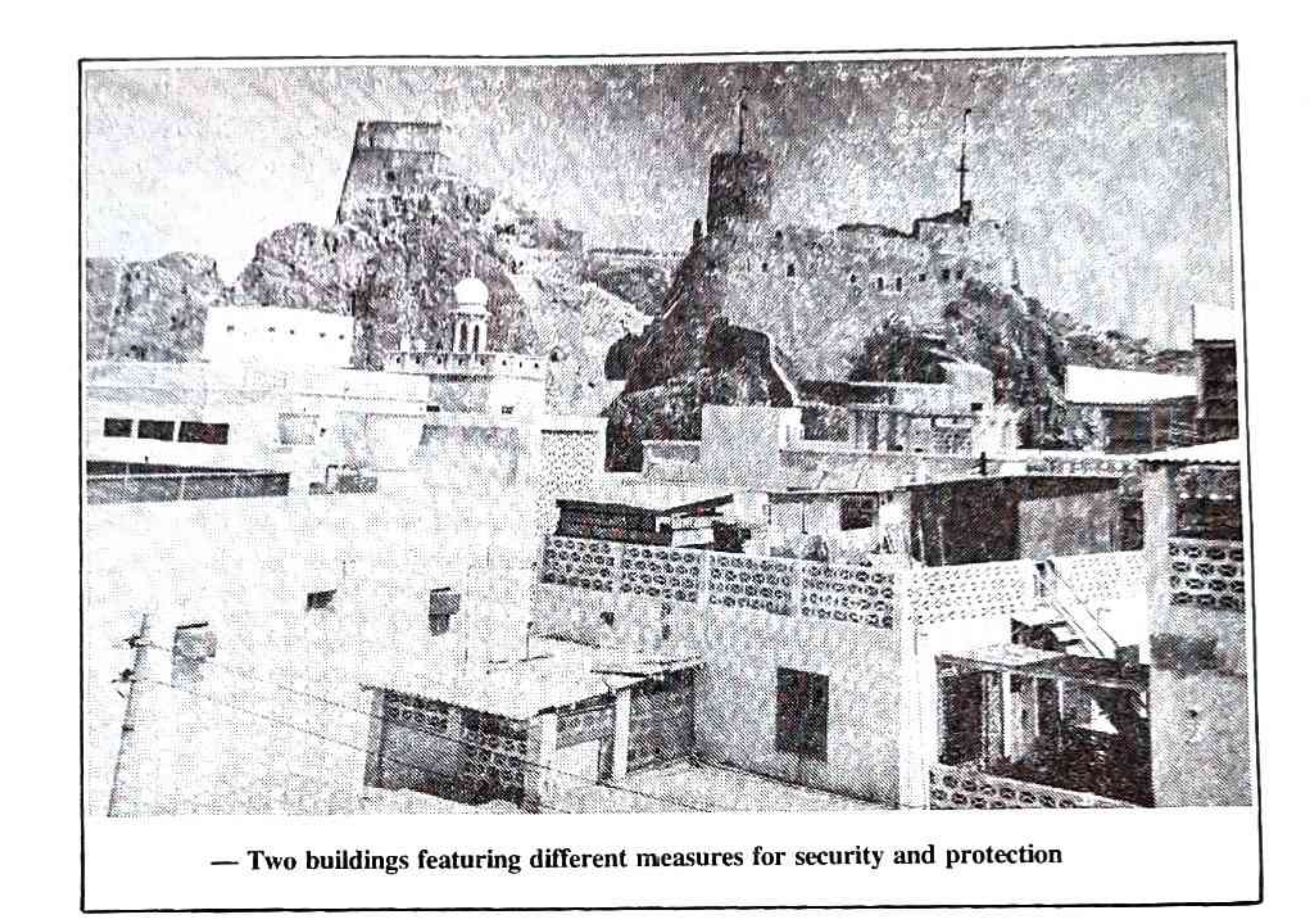
Focus on security and protection in Bedouin life in Jordan.

A Seminar Paper University of London/July, 1978

Ladies and Gentlemen,

I greet you in the bedouin style: "Peace and God's Grace be upon you."

I am indeed previleged and honoured to have this opportunity to address a most distinguished and learned gathering such as this. I have crossed



— Two buildings featuring different measures for security and protection

accessible dwellings and revealing clothes belong to a well-protected society and vice-versa.

His theory incidentally does not refer to protection against human enemies alone, but extends to natural enemies and the environment as well, including the weather.

To illustrate his point, the author points out that Bedouin clothing, specially for women, hides a great deal; houses built by Bedouins turned sedentary tend to have small windows opening to the outside. This affords a measure of security in a society where there is no law enforcement agency and hence little security as well as protection against public enemy number one in the desert: the weather.

Maj. Abbadi, who is in charge of information services for the Directorate of Public Security, goes on to draw intriguing visual parallels between the face masks worn by Bedouin women and the facades of houses built in the desert, where the small apertures for windows imitate the eye holes in the masks worn by women; the face masks concealing the beauty of the women from possible abductors while the houses afford little, access to potential enemies.

The author, a life-long student of desert customs and traditions, is a true son of the desert himself. He often generalises what he observes among



— Maj. Oweidi with Bedouins.

Cites Bedouin Example
JORDANIAN EXPOUNDS BRAND NEW THEORY CORRELATING LIFE-STYLES WITH SECURITY

A News 20/5/1978

By a Jordan Times Staff Reporter

AMMAN, May 17 (JT) -- A Jordanian student of Bedouin culture has come up with an intriguing theory that there is a direct correlation between styles of clothing and dwelling in each society and its state of security and need for protection.

Maj. Ahmad Oweidi Abbadi, a police officer and and M.A. graduate of the Higher Islamic Studies Institutes in Cairo, has had portions of his "Theory of Security and Protection" published in the Kuwaiti newspaper Al Ra'i Al 'Am and quoted by the French News Agency (AFP). It is to be published in a book entitled Bedouin Rites.

Major Abbadi, the author of three books to date, who leaves no doubt that he means his theory to be a comprehensive and general expalanation of human behaviour, argues that the more secure a society, the more open its life (and dress and dwelling) stule. He argues that wide and open windows,

others, the tribe has the right to fight him outside its own territory, but only after warning him and reminding him of the existing feud between the two.

To fight him, certain conditions have to be fulfilled. The guest should not be unarmed; his men should be equal in number to those who intend to fight him; and the weapons of the two parties should be identical in kind and size.

Bedouin Coffee

Capt. Abbadi proposes a new theory on coffee -- the theory of "the four cups".

The first cup is called the "heif" cup. This means that the host must drink in front of the guest before the guest drinks to assure the guest that the coffee is safe to drink and to make sure that the coffee is not cold and is suitable for serving.

The second cup is called the guest's cup -- "al daif" cup. This is the first cup that the guest drinks and merely by the act of the guest drinking, "bread and salt" friendship ties are established between the host and the guest. Coffee plays the role of real bread and salt.

The third cup is called the "keif" or entertainment cup. This is the second cup the guest drinks and it signifies that he feels at home with his hosts and that the hosts in turn have accepted him whole-heartedly.

The fourt cup is called the "seif" or "sword" cup. This means that after the guest has been accepted by drinking the "guest" cup and entertained by the "keif" cup, it now becomes his duty to defend and protect his hosts, as it also becomes their duty to defend and protect him.

In later social gatherings with the same guest, two consecutive cups of coffee are always offered to him.

In symbolic terms, the "keif" cup is for additional entertainment and the "sword" cup to reinforce their mutual duty in defending one another -- this whether the guest still feels at home or not.

There is no more need for the first "heif" cup and the second "guest" cup to be offered, since the coffee has already long ago been tested by the host for its suitability, and the guest, by drinking the "guest" cup upon his arrival, has automatically become one of them.

When, however, the guest decides to leave the host or the tribe, only one cup of coffee is offered to the guest and this, according to the coffee cup theory, is the fourth, the "sword" cup.

This last cup serves to consolidate the "bread and salt" concept even if the host only drinks coffee and has no meal.

Furthermore, it reminds both host and guest of their moral obligation towards mutual defence within the host's territory.

But once the guest shares "bread and salt" with another tribe, the defence pact lapses.

If, however, the "otfah" is taken prisoner, her tribe will no longer maintain the right to fight the enemy tribe until the lapse of a long period of time, the appointment of a new sheikh to replace the old one and the capture of its enemy's "otfah" in return for its own.

-- To support the men's morale, encourage fighters, sing for the war or nurse the wounded.

Values And Habits

"Bedouin Values and Ideal Social Habits" is Capt. Abbadi's second book, which analyses the rules of social behaviour among individuals and groups in a bedouin society.

It stresses in particular the way of greeting, which among bedouins, is considered the key to friendship and is expressed by special rituals and verbal expressions.

The book also emphasises table manners, ideal ways of social entertainment, family relationships and how to pray and ask favours from God.

Individual and group relationships are considered vital for the smooth running of bedouin society.

Emergency relationships impose on individuals the responsibility of providing shelter and protection to any person who comes to take refuge with a particular family or tribe, even if he is their enemy.

Hospitality

As to hospitality, Capt. Abbadi adopts a theory which differentiates between "principle and habit".

The principle of hospitality is to have the guest stay for one day and one night, while the habit is three-and-a-half days or 10 meals.

If the guest chooses to stay for a longer period, the hospitality concept turns into a charity concept and the tribe must study the guest's circumstances and decide in what way he can be helped. Such an act is in accordance with the teachings of the prophet Mohammed.

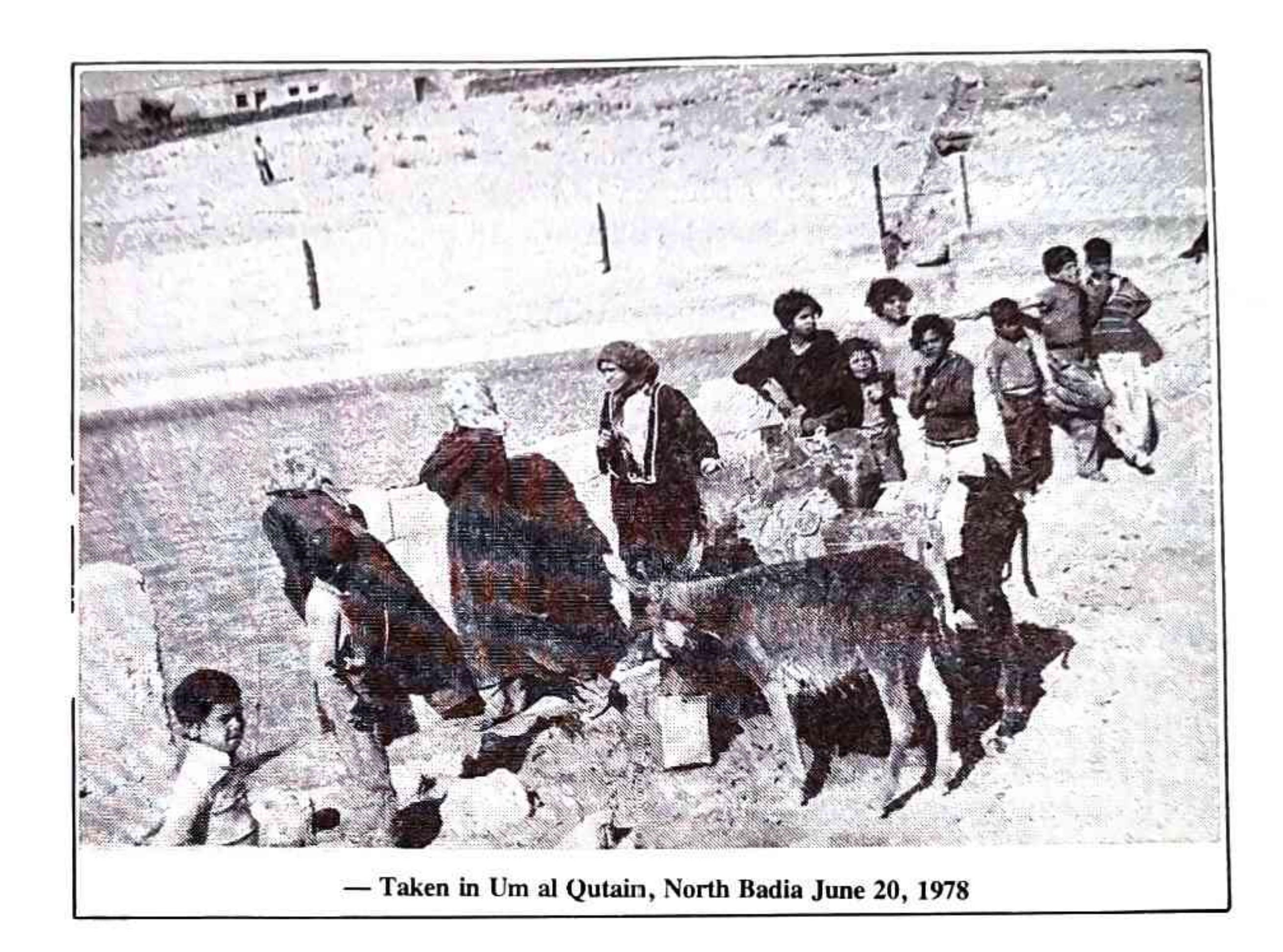
A guest who only spends one-third of a day with his hosts and joins them for at least one meal, establishes, according to bedouin customs, "bread and butter" ties of friendship with his hosts.

This means that when the guest decides to leave the tribe, the tribe vows to protect the person who ate salt with them until he leaves the tribes boundary, and only up to the time he eats salt from another tribe. After that the vow is no longer valid.

On the other hand, if any harm befalls the tribe the guest has just left, then he becomes obligated to help protect the tribe until he eats salt from another tribe.

As long as the guest is in its hospitality, the tribe cannot attack him.

But once the guest leaves the tribe's boundary and after he eats salt with



— Taken in Um al Qutain, North Badia June 20, 1978

Marriage Customs

The bedouin woman has the full freedom to propose marriage to any bedouin man who becomes famous for his fighting exploits or for some outstanding quality, even if he belongs to an enemy tribe.

She may either send for him secretly, even if he is married, or openly ask him to become her husband.

If a young man and woman fall in love with one another, the young man has the right to come secretly at night to his beloved and talk with her. He is not, however, allowed to touch or greet her, and he must leave her side before dawn. If he is caught, it might be fatal for him.

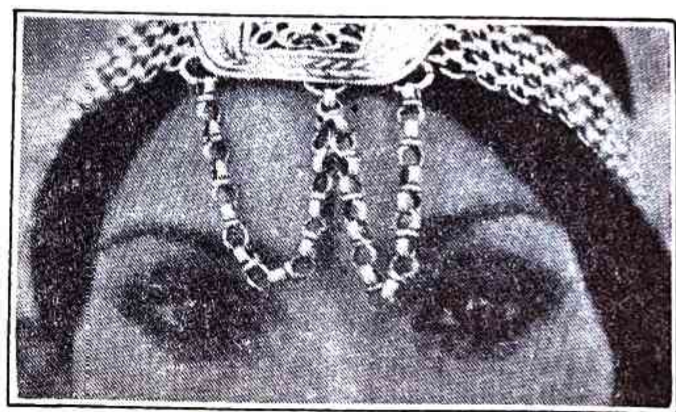
Marriage takes place in various ways: The young man may pay his dues to the girl's family; girls from two concerned families may be exchanged in marriage; a young man may take the girl by force; or she may agree to elope with him.

participation In War

Women may participate in war in two ways:

-- As an "otfah", meaning the woman sitting inside a "howdaj", or carriage. This structure is mounted on a camel's back. She must sing and welcome the idea of war while the "howdaj" is guarded by horsemen.





— The Bedouin dress provides security and protection

a ·ious roles and what she means to the bedouin man are described in Capt. ,\bbadi's first book "The Bedouin Woman", published in 1974.

Tf a dominant, tall stature, with her head high and her long neck, the bedouin woman looks through her large eyes, contoured by her extra long eyelashes, soetly and yet sharply at the bedouin man. She has small ears, a small mouth with thin lips, a full bust, narrow waist and small feet.

The regular shape of her hand with its long fingers adds to her charm, as she attends to her daily chores. Thus, proudly standing in the desert, with her long dark or fair hair, she has enough assets to mark her out from other women.

FROM A Man's Eye

Seen through the eyes of a bedouin man, the woman evokes love and war, courtship and marriage.

She is often considered as an object of enjoyment, a mirror in which the man sees himself, a symbol of what he is looking for or a representation of the bitter things in life.

She is believed to be complementary to man and to be his derivative.

The bedouin man hates the talkative woman, the greedy woman and the sickly malingering woman.

Bedouin sheikhs -- tribal leaders may seek the advice of the woman, particularly in matrimonial and household affairs.

Love and war are important themes in bedouin life and cannot be absent from it. The woman, as a symbol of love, becomes very important in bedouin circles.

Love and war should go side by side, and there is no meaning to the one without the other.

THE BEDOUIN WOMAN:
SYMBOL OF LOVE AND WAR

An Interview with the Jordan Times 1976

The bedouin woman is the mirror image of the man, a person to be consulted on certain matters. She can propose marriage and participates, in a limited way, in war.

Bedouin habits, in particular towards guests, are very strict. Once meaningful contact is established, once the guest has partaken of the host's "bread and salt", relations and obligations by both sides are firmly cemented.

These are some of the points that come to light through the intriguing research of poet-writer Capt. Ahmed Oweidi Abbadi. An expert on bedouin affairs for he himself is one of their number, Capt. Abbadi deals with different aspects of bedouin life in a series of 10 books that unfortunately are only in Arabic.

Two are already published, and the remaining eight are to appear soon. This article deals with the first two. In a future article for the Jordan Times, Capt. Abbadi will describe the contents of the others.

In his books, Capt. Abbadi does not just describe habits, but explains the principle, the philosophy and theory that are behind them. He analyses things as they are or how they should ideally be in the future. At times he relates a habit to the pre-Islamic -- Al Jahiliya -- or post-Islamic periods.

Capt. Abbadi, who has an M.A. in social studies and a higher diploma in Islamic studies, is a public relations officer at the Police Security Department and the responsible editor for the police Security magazine "Al Shurtah".

apt. Abbadi has produced a 13-episode television serial called "Wadha wa Ibn Ajlan," relating the story of love and war in bedouin societies. This television serial has been shown by Jordan Television as well as by TV stations in the Arab Gulf, Saudi Arabia and Syria.

His second 13-episode T.V. serial, "The Eagles of the Desert", deals with contemporary ways of thinking. The topics touched upon include literature, law, love, war, deceit, virtue and vice.

By Lina Gress
Special to the Jordan Times

The physique, as well as the social standing of the bedouin woman, her

Series of "Who are the Bedouin?" (3)

Ceremonial Occasions of the Bedouin (Al Munasabat al Badawiyyah)

Written by

Major Ahmad Oweidi Abbadi

First Printing **1400 Hijri** **1979**

A bedouin himself, Major Ahmed Oweidi Abbadi was brought up in an environment characterized by traditional hospitality, courage and honesty. He has had a firsthand experience of the Bedouin spirit and way of life. Furthermore, he has been busy for years collecting information pertinent to almost every aspect of the Bedouin heritage in Jordan. He has thus coupled the methodology and mechanics of modern research with personal experience and knowledge of the subject to produce a book that, I think, could be considered a good reference for students of anthropological studies. I congratulate Mr. Oweidi upon completing this useful book and wish him a promising career as a scholar of Bedouin community that forms a very important sector of the Jordanian society.

Dr. Eid Dahiyat
Associate Professor
Department of English
University of Jordan
Amman



الفهرست

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

تابع اوزان الشعر البدوي (رأي جديد)

تحدثنا عن ذلك بما لا يكفي اقول بما لا يكفي في الفصل الثاني، ولا شك ان الحيرة التي يلاقيها الباحثون دائما، هي الجواب على السؤال التالي: هل للشعر البدوي ابحر كما هو الشعر العربي الفصيح؟!، وقد اجاب على هذا السؤال العديد منهم، ولكن بدون الوصول الى النتيجة المقنعة القادرة على استيعاب هذا الخضم الواسع الكثير من الاشعار البدوية المتعددة.

اما جوابنا نحن على هذا السؤال، فلنا ان نجتهد كما اجتهد السابقون، ولكننا نقول: ان هناك وزنان رئيسيان للشعر البدوي هما: الوزن الطويل (وليس البحر الطويل)، والوزن القصير، وهناك اوزان بينهما،

ونستطيع ان نقسم الوزن الطويل الى ما يلي:

طويل الطويل: وهو اقصى حد يصل فيه طول البيت من الشعر البدوي بحيث يبدو وكأنه كلام مصفوف، وتعادل الشطرة الواحدة منه بيتا كاملا من الشعر البدوي من الوزن القصير، او القصير الطويل، واكثر ما يوجد هذا لدى الشعراء المحدثين في الكويت، والسعودية، والخليج العربي.

وأما الوزن الطويل: فهو ما كان مساويا لشطرتين طويلتين على اللحن الشروقي او الهلالي، حيث يجر على الربابة اثناء الجلوس، اي انه لحن الهدوء، لا لحن الحركة، ولحن الثاني والبطء، ولا يصلح للاغراض الحماسية، وانما اكثر ما يستعمل في المراثي، والحكم، والحكايات ذات الطابع القصصي ثم هناك الفرع الثالث من اللحن الطويل وهو اللحن **الطويل القصير** حيث يمكن ان يستعمل في حالة الحركة، والحماس، كما يستعمل للحكمة والمراثي، والبكائيات، وقد يكون من مقطعين او ثلاثة مقاطع، او اربعة مقاطع بحيث تكون القافية في حالة ال ٣ او ال ٤ مقاطع في اخر الشطرة الاخيرة موحدة، وان تشابهت احيانا قافية الشطرين الاولين في حالة (ال ٣ مقاطع) او الثلاثة شطرات (في حالة ال ٤ مقاطع)، واذا كانت من شطرتين فيلتزم الشاعر ابدا بالقافية الاخيرة، وقد تكون قافية الصدر متشابهة معا في كل القصيدة، وقد لا تكون كذلك.

اما الوزن الاخر فهو **الوزن القصير** وهو ثلاثة اوزان **قصير الطويل:** وهو ما كان اقل من الوزن الطويل القصير ويتبعه مباشرة بالطول، وينطبق عليه احيانا لحن الطويل القصير مع قليل من الزيادة بالمد واللحن. ويكون وزن القصير عامة اما على مقطعين، او ثلاثة مقاطع او اربعة مقاطع، واحيانا خمسة مقاطع.

والوزن القصير هو وزن الحماسية، والحركة، لذا كانت اشعاره اكثر ما يستعمل في الغناء والحداء، والغزل، والحماسيات، والتفاخر احيانا، والمشاجرات. والرقص.

واذا زادت المقاطع عن اثنين التزم الحرف الاخير (القافية) في الشطر الاخير في كافة المقطوعات.

وهناك **الوزن القصير** وهو ما كان دون القصير الطويل بحيث تقل مقاطعة، عن سابقه، ويزداد حركة وحماسة، اما الوزن الاخير فهو القصير او لنقل القصير الازعر وهو

اقصر واقل ما يحوي البيت من كلمات موزونة. وقد يكون هذا الوزن احيانا مركبا بطريقتين، كلمة في الصدر وجملة في العجز ثم كلمة فيما بعدها هي تكرار للكلمة الاولى كقول البدو عند اشتداد حماسهم في الرقص (يا موت = خلك لاهيلك = يا موت).

وأود ان اضيف هنا ان التفاعيل في اوزان الشعر البدوي تختلف عنها احيانا عما هو في الشعر العربي الفصيح وفي رأيي ان هناك المدة الطويلة، والقصيرة (كما هي في الفصيح)، بالاضافة الى الوقفة التي يمكن ان نشير اليها بشكل هلال، او دائرة فنقول مثلا (يا كليب شب النار يا كليب شبه)، حيث ان لفظ الباء في كليب الاولى يكون (وقفة كلمة). وكذلك الامر في حرف الراء في كلمة (نار)، وحرف (الباء) في كلمة كليب الثانية، وحرف (الهاء) المربوطة في كلمة شبه.

لذا فان اي تقطيع للشعر البدوي يجب ان يأخذ بعين الاعتبار ثلاثة انواع من الحركات (المدة، والقصرة، والوقفة). ولا شك ان دور اللحن البدوي هو بتطويل بعض المدات، او الوقفات او القصرات)، او تقصيرها، او تقصير في هذه او تطويل في تلك، ثم بالمقابل يكون الامر في الشطر الثاني من البيت، او في بيت لاحق لما قبله او لما بعده، بحيث يصبح اللحن واحدا، وكأن البيت وزن واحد، وهو ليس كذلك.

لذا تأتي اهمية اللحن البدوي في تغطية فوارق التقطيعات او التفعيلات في البيت الواحد او الابيات المختلفة، كما ان اللحن نفسه يحول الوزن الواحد الى اكثر من طريق وفي اكثر من اتجاه، فاللحن الشروقي يختلف عنه في بكائيات ابن عدوان، او الجرة الهلالية، رغم انها جميعا من الوزن الطويل، ونستطيع ان نتخيل قصيدة واحدة توزع منها نسخ على عدد من الملحنين، فتتمخض عبقرية كل منهم عن لحن يخالف الاخر، وان كان الوزن واحدا، لذا فيجب ان نفرق دائما ما بين الالحان، والاوزان في الشعر البدوي، وما بين الاوزان والتفعيلات.

فالتفعيلات المختلفة قد يضمها وزن واحد، والاوزان المختلفة قد يضمها لحن واحد، والوزن الواحد قد يضم عدة الحان، ونستطيع ان نضع حدا ادنى لا يتجاوزه النوع الواحد من الوزن الذي وضعناه الى الاسفل، ولا يتجاوز الحد الاعلى الى اعلى.

واذا نظم البدوي شعرا فهو اول ما ينظمه على اساس اللحن لا على اساس الوزن، وهو قد يغير في اللحن قليلا، بحيث نجد اختلاف التفعيلات من حيث العدد، والتناسق او التتابع من قصيدة لاخرى تحت صنف الوزن الواحد، لذا فانني ارى ان الوزن يشمل على عدد تفعيلات معينة ودون اشتراط انتظامها، فقد تكون منتظمة، وقد لا تكون كذلك.

فالبدوي اذا امسك بالربابة، جرها وهو قد يتقن اللحن الشروقي، او الجرة الهلالية، او لحن الحصيرة ...الخ، وهو حينها يروي او يقول ويبتدع شعرا مناسبا لهذا اللحن بسهولة، او تأبط شرا، اي يقصر من المدات، او يمد في القصرات بحيث تناسب هذا اللحن.

ونأمل ان نتمكن في بحث اخر مستقبلا من توسيع نظريتنا هذه، مع وضع التطبيقات اللازمة عليها حيث لا متسع من الوقت او المكان لوضعها في هذا الكتاب، والله ولي التوفيق.

دار البشير
للنشر والتوزيع

بناية الدعو
مقابل البنك العربي - العبدلي
عمان - الأردن

هاتف [٦٧٠٢٣٠] - [٦٦٤٤٢١]
ص. ب [١٨٣٩٨٢] - [١٨٢٠٧٧]
تلكس: ٢٣٧٠٨ / بشير

Dar - Albashir
For Publishing & Distribution

Tel (670230) - (664421)
P. O. Box (183982) - (182077)
Telex 23708 Bashir

Al Dado Building
Opposite of Arab Bank
Amman - Jordan

دار العويدي
وادي السير - الأردن
ص. ب : ٧٠